

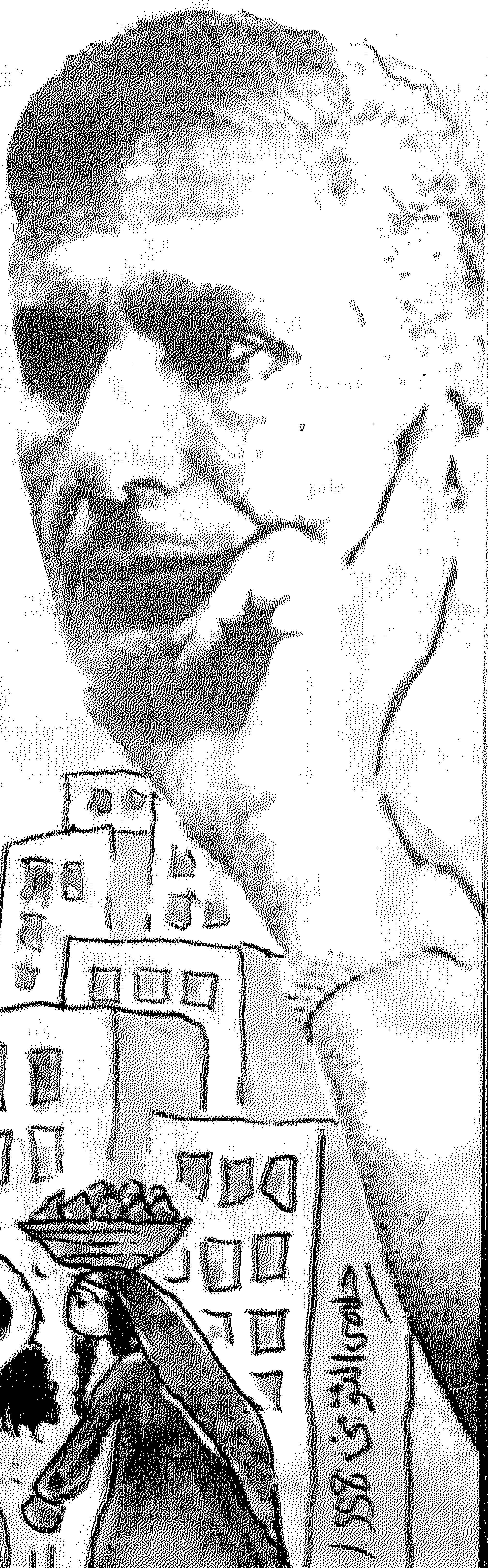


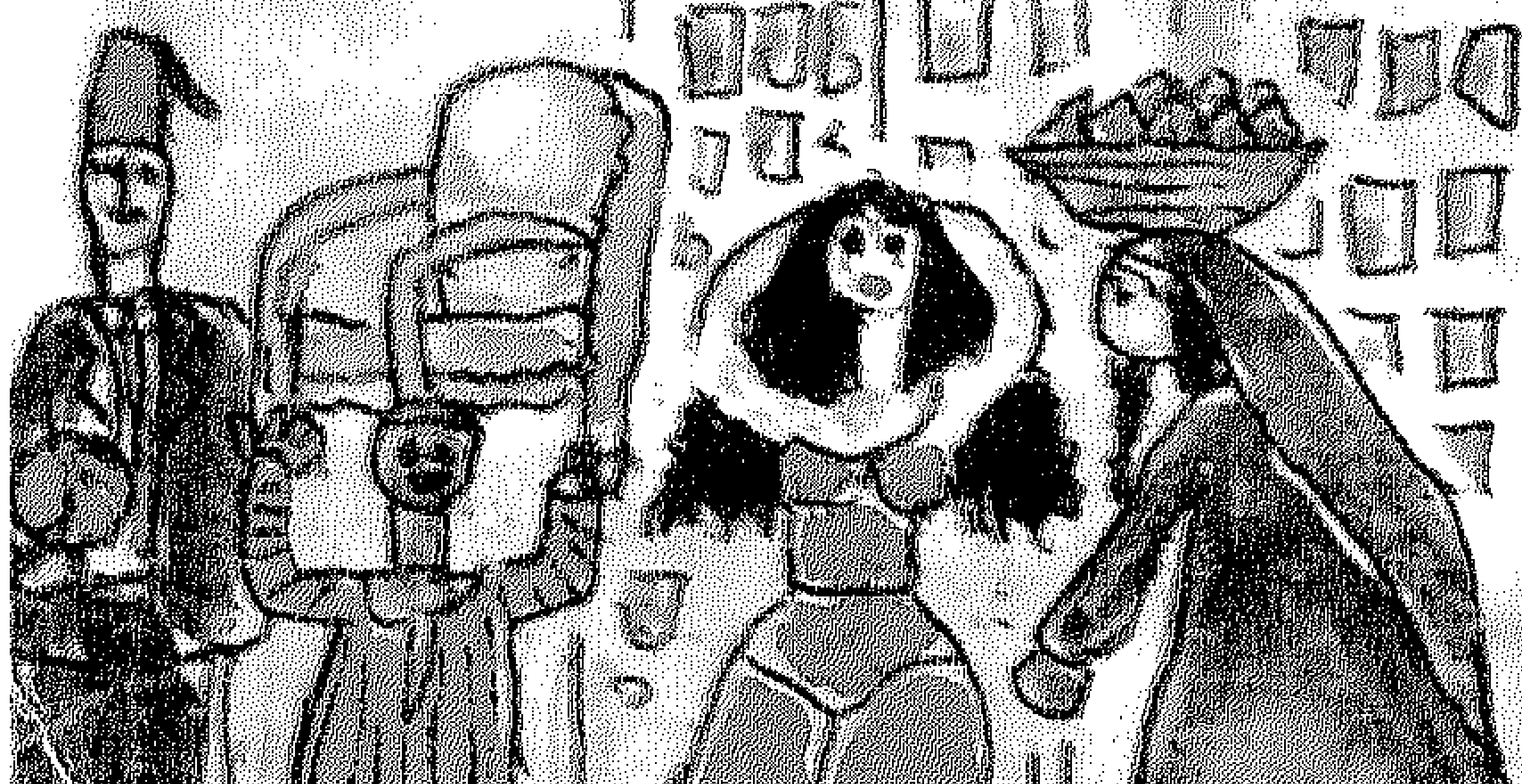
البحث عن اليقين المراوغ

قراءة في قصص يوسف إدريس

بقلم

فاروق عبد القادر





كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن
دار الهلال
الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

سكرتير التحرير **عادل عبد الصمد**

مركز الادارة

دار الهلال : ١٦ ش محمد عز العرب
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
فاكس : FAX -3625469

العدد ٥٧٢ - ربيع ثانى - أغسطس ١٩٩٨
NO - 572 - AU - 1998

أسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش

سوريا١٧٠ ليرة - لبنان٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ ديناراً - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي / أبوظبى ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال

البحث عن اليقين المراوغ

قراءة فى قصص يوسف إدريس

بقلم :
فاروق عبد القادر

دار الهلال

الغلاف للفنان
حلمى التونى

(١) نهايات وبدايات - جدل الفرد والجماعة

انطفأ نور يوسف إدريس بعد أن ظلت ذبالته تتأرجح أمام رياح الموت الباردة أياما طويلة وليالى ..

رحل يوسف إدريس بعد أن ملأ الدنيا وشغل الناس . وكأنما شاءت رغبته الطاغية فى أن يبقى «نجما» يدور الحديث عنه ولا ينقطع ، أن تطيل أيام غيبوبته (مايو - أغسطس ١٩٩١) ، وكانت المفارقة أن يبقى حديث الناس دائرا عنه، وهو لا يعى !

ترى : ماذا رأى يوسف فى غيبوبته الطويلة ؟

هل رأى حياته الممتلئة الصاخبة : طفلا يسعى إلى المدرسة الابتدائية في «فاقوس» ثم صبيا يتنقل بين المدارس الثانوية في مدن الدلتا : دمياط ، والزقازيق والمنصورة وطنطا ، ثم شابا يأتى إلى القاهرة ، يدرس الطب في جامعتها ، ويغوص فى حياة جيله الموار بالثأر والثورة ؟

هل رأى آلاف الصفحات تنقل للقارئين حروفه وكلماته أكثر من أربعين سنة متوالية (١٩٥٠ - ١٩٩١) ، وصفحة بعد الأخرى

يــــزهـو اســــمــه ويتــألق ، ويرتبط برؤية جــديـــدة شــــابة للأدب والحيـــاة ؟

هل رأى جدران السجن تطبق عليه، بعد أن أصدر مجموعته الأولى التى تفجرت فى الحياة الأدبية والثقافية ، وبدأ تحققه الفعلى ليبقى أكثر من سنة، ثم يطلق سراحه نتيجة مناورة، ذات طابع سياسى ، يقوم بها العسكر؟

هل رأى صـعوده فى ظل النظام المنتـصـر ليبـقى وجـها من انضـر وجوه الثقافة المصرية العربية المعاصرة، ومثالا نموذجيا للكاتب الذى يلتزم مواقف فكرية صحيحة ومتقدمة، لكنه - فى أعماله الإبداعية - لا يرفع صوته بالصخب أو الدعاوى الفجة أو الشعارات الخاوية ؟

هل رأى تحـوله التدريجى - خطوة صـغيرة بعد خطوة صـغيرة - ليصـبح واحـدا من «الصـفـوة» فى العـاصـمـة ، و«نجـمـا» سـاطعـا فى سمـائها ، ومن ثم فـقد تبنى مـسلك هذه «الصـفـوة» وأسلوب حيـاتها، وجاراها حتى فى نزواتها وتبذلها ؟

هل رأى حياته هذه السنوات العشرين الأخيرة، وقد تفتت الفن بين يديه، وازداد شهرة وبريقا ، وتتالت «مفكراته» الأسبوعية على صفحات الأهرام» ، وتكثف حضوره فى مختلف وسائل الإعلام، وتبدلت أفكار له ومواقف ، وبدأت بعض مواقفه تلقى النقد والرفض من جيل أحبه واعتز

به ، وبدأت أقلام تهاجمه هنا وهناك، هو الذى لم يألف أن يقرأ سوى المديح والإطراء ؟

هل رأى كيف اتسع عالمه وضاقت رؤيته ، حتى لم يعد يرى حوله - أنى قلب وجهه - سوى يوسف إدريس ؟

ترى : ماذا رأى يوسف في غيبوبته الطويلة ؟

★★★

أجمع أصحاب الدراسات الجادة التى كتبت عن يوسف إدريس - كذلك أصدقاؤه والعارفون به - على أنه كان - فى حديثه عن نفسه وعن الآخرين - يمزج الصدق بالكذب، الواقع بالتخيل . ما حدث بما كان يتمنى أن يحدث (بكلمات ناجى نجيب : «وليس من النادر أن تفتقد الفاصل بين الواقع والخيال فى تمثل إدريس للأشياء ، وأيضا فى مراجعاته للماضى، فهو يجنح أحيانا فى أحاديثه إلى إضفاء ذلك البعد الأسطورى القصصى الذى يرى منه الأشياء (..) ومن ثم اختلفت البيانات التى يوردها الدارسون، دون مراجعة، نقلا عنه » ، (الحلم والحياة فى صحبة يوسف إدريس» القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ٢١) ، من هنا تبقى أعماله الإبداعية وحدها هى الدالة عليه، المعبرة تماما عن رؤاه ومواقفه ، ومن هنا أيضا يفقد الكم الأكبر من «مقالاته» و «مفكراته» و «أحاديثه» أهميته ، وتتحدد قيمته - فقط - كمؤشرات ذات دلالات مشكوك فى صدقها أو صحتها !

خذ مثالا يكشف الاختلاف بين ما يدل عليه عمله الإبداعى ، من ناحية ، ومقالاته التى تعبر عن حساباته ومصالحه أكثر مما تعبر عن اقتناعاته الداخلية الحقيقية ، من الناحية الأخرى ، هو موقفه من السنوات الأخيرة فى حكم عبدالناصر بعد ١٩٦٧. إن قصصاً مثل «الخدعة» و «الرحلة» و «العملية الكبرى» و «حامل الكراسى» ، لا يمكن فهمها إلا فى ضوء أنها صرخات احتجاج ضد تسلط هذا النظام وصاحبه ، وقهره للناس، واستبداده ، وتفرده باتخاذ القرارات الخطيرة التى يمكن أن تؤدى بالسيدة صاحبة «العملية الكبرى» إلى النزف حتى الموت ، هذا من ناحية ، من الناحية الأخرى كتب يوسف إدريس عقب رحيل عبدالناصر مباشرة فى «الأهرام» يناجى الراحل : « يا أبانا الذى فى الأرض – يا صدرنا الكبير الحنون» ، ويقول : «أصبحت الدنيا لأول مرة بلا عبدالناصر، ونحن لم نتعود أبدا أن نتنفس هواء لا يتنفسه هو ، ولا أن ننام إلا ونحن نحس أنه هناك فى كوبرى القبة، ولا أن نستقبل الصباح إلا على صورة له وابتسامة » .. الخ .

بعبارة أخرى : إن مقالات يوسف إدريس – التى جمعها فى كتبه : «بصراحة غير مطلقة» ، «اكتشاف قارة» «جبرتى الستينيات» ، «شاهد عصره» ، «من مفكرة يوسف إدريس (١)، (٢) » ، «أهمية أن نتثقف يا ناس » ، «فقر الفكر» ، «انطباعات مستفزة» .. الخ – لا تثبت لنقاش

جاد ، فهى – فى معظمها – تعبير عن رؤية شديدة الخصوصية للواقع ومشاكله . لا تبالى – فى سبيل إثبات صحتها – .. أن تنفى اليوم ما أكدته بالأمس، أو أن تصيب صاحبها «نساوة» تجعله يمضى إلى نقض ما سبق له إثباته ، كما أن كل قضية يعرض لها – مهما كان ثقلها الموضوعى فى الواقع – هى عنده «قضية حياة أو موت» ، لا أقل !

ويبقى استنطاق أعماله الإبداعية ، وحدها ، هو العمل الوحيد المجدى ، فهذه الأعمال ذاتها هى «كل» ما بقى لنا منه .

★★★

فى ٦٥/١٩٦٦ حدثت فى حياة يوسف تجربة أعتقد أنها مهمة فى الكشف عن أشياء كثيرة، فى ذاته وفيما حوله : تلك هى تجربة جائزة مجلة «حوار» ، والتى يذكر تفاصيلها كل من عاش تلك المرحلة، وهى كثيرة، لكن المؤكد أن يوسف قد حوصر حتى أرغم على رفض الجائزة التى سبق أن أعلن قبوله لها ، ونشرت المجلة حوارا طويلا معه لمناسبة هذا الفوز (أجراه مراسلها فى القاهرة : غالى شكرى)، وحين هبت أقلام وطنية وقومية تفضح المجلة ومصادر تمويلها («المنظمة العالمية لحرية الثقافة» التى ثبت أنها تمول من حلف الأطلنطى) أحس يوسف بالحصار، وأنه مهدد بفقد كثير من أرضه التى ربحها خلال تلك السنوات، فأعلن رفضه لها (لا تنس أننا كنا آنذاك فى ذروة المد القومى، والعداء للولايات المتحدة ، قبل قاصمة الظهر فى ١٩٦٧) .

الواقعة الثابتة الآن – رواها يوسف وكتبها كثيرون ممن عرفوا بها فى حينها – أنه استدعى إلى مكتب عبدالناصر، حيث أبلغه سامى شرف تقدير الرئيس لموقفه ، وسلمه مظروفا يحوى قيمة الجائزة (كانت الجائزة عشرة آلاف ليرة لبنانية ، وتسلم يوسف ألفين وخمسمائة جنيه مصرى، وكان هذا المبلغ يعنى آنذاك ثروة صغيرة) ، وحين حاول يوسف أن يقول شيئا حول الموضوع أفهمه المسئول الخطير أن مراجعة «الريس» فى هذا الأمر ستغضبه ، وأنه لا يجرؤ عليها !

ترى : ماذا دار بفكر يوسف إدريس حول هذه الواقعة ودلالاتها؟ وما الذى استخلصه منها ؟

لست أعرف الجواب، لكننى أعرف أن هذه كانت المرة الأولى التى يعرف فيها يوسف «عطايا الرؤساء» لكنها – أبدا – لم تكن الأخيرة .

★★★

حين بدأ يوسف احتضاره الطويل ، كتبت عن وجهه المضئ («من أوراق الرفض والقبول» ، القاهرة ، ٩٢ ، ص ١٠٩) ، ووجدت نفسى – دون تعمد – أقف عند أول السبعينيات، لا أتجاوزها ، عندها جف نبع الإبداع أو كاد . وأعماله التى نشرها خلال العقدين الأخيرين من حياته، واهية الصلة بأعماله التى نشرها خلال العقدين السابقين عليهما (فى القصة القصيرة ، فنه بامتياز ، أصدر ثلاث مجموعات محدودة القيمة،

وفى الرواية شيئا متعثرا هو «نيويورك ٨٠» وفى المسرحية لم يقدم سوى «البهلوان»)، وواكب هذا تدفق فى مجموعات مقالاته التى سبقت الإشارة إليها .

ويوسف كان صاحب علاقة قديمة ووثيقة بالسادات . كتب يوسف - باسم السادات - كتبا ومقالات ، وأدى له خدمات ذات طابع سياسي،. نمت علاقتهما فى صحيفة «الجمهورية» ثم «المؤتمر الإسلامى» وقد حمته هذه العلاقة من التعرض لبطشه ، وكان يوسف - من جانبه - ذكيا وحذرا فى «مفكراته» يعرف «الخطوط الحمراء» فلا يتجاوزها ، ويعرف كيف يمكن أن ينقد دون أن يخدش أو يستفز ، وقد خاض يوسف - خلال هذين العقدين - عددا من المعارك، وبطبيعة الحال كان على صواب فى بعضها ، ولم يكن كذلك فى بعضها الآخر، كان يجاهد كى يخفى التمزق الداخلى العنيف بين ما «يريد» أن يكتبه، وما «يستطيع» أن يكتبه لذا طاشت معظم سهامه فى تلك المعارك ، وأرغم على التراجع فى بعضها ، أما حين تخطى الحدود الحمراء فى مقالات «البحث عن السادات» فى ١٩٨٣ ، أقامت له صحافة النظام محاكمة رهيبة، ولقى هجوما رسميا شديدا (شارك فيه الرئيس نفسه، فتحدث عنه دون أن يذكر اسمه ، لكنه أسماه «الزبون» !) ومنع «الأهرام» - ويوسف من كتابه الكبار - نشر ردوده على تلك الحملة، فنشر فى أسبوعية

«الأحـــرار» خطابا موجهـا للرئيس عنوانه دال عليـــه : « أشكو إليك منك» !

ومرة أخيرة، عرف يوسف معنى أن يتخطى الخطوط الحمراء ، فلم يعد إليها .

لكن الأمر المثير للدهشة في مسلك يوسف خلال هذه السنوات الأخيرة كان تبدل موقفه من جيل القاصين التالين له ، في الخمسينيات والستينيات كان يوسف يحتفى بالقاصين الجدد، يقرأ أعمالهم ويحدثهم عنها ويسعى لنشرها كمسئول عن القصة فى «روز اليوسف» و «الكاتب» وسواهما ، وقد لا ينسى هذا الجيل ترحيب يوسف إدريس الحار بالقصة الأولى التى نشرها ليحيى الطاهر عبدالله فى «الكاتب» ، ورواية صنع الله إبراهيم الأولى «تلك الرائحة» التى كتب مقدمة لها، كما قدم عددا كبيرا ممن أصبحوا أهم قصاصى هذا الجيل، أما فى هذه السنوت الأخيرة . فقد هاجم يوسف هذا الجيل ذاته بضراوة واتهمه بأنه يريد القضاء على يوسف إدريس !

وليس لهذا من تفسير عندى سوى نضوب نبع الإبداع، الذى جعله لا يطيق وجود مبدعين آخرين ، لهذا السبب ذاته صدرت عنه آراء ومواقف طائشة تجاه فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل فى ١٩٨٨ .

ومثل هذا كثير .

★★★

قلت أن استنطاق أعماله الإبداعية وحدها هو ما يبقى لنا ، ولا شك أن إنجازه الحقيقي هو في ميدان القصة القصيرة، لا الرواية ولا المسرحية ، لنبدأ رحلتنا بأشهى ثماره ، وقبل أن نبدأ يحسن أن نثبت ملاحظة قد تفيد قارئيه ودارسيه : أصدر يوسف ثلاث عشرة مجموعة قصصية ، الأولى هى «أرخص ليالى» فى ١٩٥٤ (٢١ قصة) ، والأخيرة هى «العتب على النظر» فى ١٩٨٧ (٦ قصص) ، وفيما بينهما : «جمهورية فرحات» ٥٦ (٣ قصص ورواية «قصة حب») ، «أليس كذلك ؟» ٥٧ (١٥ قصة)، «حادثة شرف» ٥٨ (٧ قصص) ، «آخر الدنيا» ٦١ (٨ قصص) ، «العسكرى الأسود» ، ٦٢ (٥ قصص) ، «لغة الآى آى» ٦٥ (١٢ قصة) ، «النداهة» ٦٩ (٨ قصص) ، «بيت من لحم» ٧٢ (١٢ قصة) ، «أنا سلطان قانون الوجود» ٨٠ (٨ قصص ، إحداها مكررة فى مجموعته الأخيرة) «اقتلها» ٨٢ (٧ قصص) .

لكن يوسف دأب – فى السنوات الأخيرة – على أن يعطى أكثر من ناشر حق طبع «أعماله الكاملة» ، ولم تكتمل هذه الأعمال أبدا عند أى منهم، لكن تعدد الطبعات قد أدى لخلق بعض الصعوبة فى جمع أعماله على وجه الحصر ، وأضرب أمثله قليلة : إن مجموعته «أليس كذلك؟» قد انقسمت مجموعتين : الأولى بذات العنوان، والثانية بعنوان «قاع المدينة» (ولهذا الجزء طبعة أخرى تحمل عنوان «ليلة صيف») ، أما مجموعة

«العسكرى الأسود» فقد رفع منها القصة التى تحمل ذات العنوان ليجعلها رواية مستقلة، ورفع منها كذلك قصة «السيدة فيينا» ليضمها مع روايته الأخيرة «نيويورك ٨٠» فى مجلد واحد، ومجموعة «البطل» لم تصدر لها طبعة ثانية بعد طبعتها الأولى، بل تفرقت قصصها القليلة على أكثر من مجموعة .. كان يوسف لا يجد حرجا فى أن يرفع بعض القصص عن هذه المجموعة ليضمها إلى تلك ، دون نظر للاختلاف الواضح بين هذه وتلك (فى مجموعة «اقتلها» الصادرة فى ١٩٨٢ يضع يوسف قصتى «صح» و «البطل» اللتين تنتميان لمجموعة صادرة فى ١٩٥٧).

وهكذا ، لا سبيل أمام الدارس الذى يريد التعرف إلى عالم يوسف إدريس كله سوى إحدى اثنتين : اللجوء للطبعات الأولى من أعماله فهى الأكثر صدقا وتحديدا ، أو الانتظار حتى صدور «الأعمال الكاملة» عن أى من ناشريها الكثيرين !

★★★

وتميز يوسف إدريس فى فن القصة القصيرة له أسبابه الموضوعية وبواعثه الذاتية كذلك ، فحين نشر قصته الأولى «أنشودة الغرباء» فى ١٩٥٠ – لم يضمها لأى من مجموعاته – كان نجوم القصة القصيرة هم محمود كامل وإبراهيم الوردانى ومحمود البدوى وسعد مكاوى وأمين

يوسف غراب وسواهم (أما يحيى حقى - هذا الرائد العظيم - فقد كان كعادته متواريا «فى الظل» ، وكان ابتعاده الدائم عن القاهرة سببا آخر لحضوره المحدود)، وكانت قصصهم - فى معظمها - ذات طابع رومانسي شاحب، تدور حول «عذاب المحبين» أو تحكى حكاية ذات أحداث غريبة ، لا تخلو من مفاجأة يخفيها الكاتب وراء ظهره حتى اللحظة الأخيرة، وكثير منها يدور فى أرض غريبة، أو داخل القصور والفيلات فى أحياء القاهرة الجميلة ، وأبطالها دائما من الطبقة العليا فى المجتمع ، أو التى تليها فى السلم الاجتماعى، أعنى الشرائح الكبرى من الطبقة الوسطى، وهى مكتوبة - على الأغلب - بلغة فصحى تلتزم قواعد البلاغة التقليدية السائدة ، ويدفعها طابعها الرومانسى إلى المبالغة فى تصوير المشاعر والمواقف ، مبالغة تنأى بأبطالها عن أن يرى القارئ فيهم أناسا يعرفهم، أو مشاعر يمكن له - ولسواه من «صغار الناس» - أن يمارسها .

ولم ير يوسف فى هذا كله إلا اقتباسات يقوم بها هواة عن مادة أدب أجنبى، أو بتعبيره هو : «إن الشخصيات وطريقة القص، وموضوع القصة، كانت كلها مختلفة عن الحياة الواقعية اختلافا كاملا» وأخذ يوسف على عاتقه - هو الطموح الذى لا يقف فى وجه طموحه شئ أو أحد - مهمة ثقيلة هى أن يقدم «القصة المصرية الخالصة» وحين بدأ

نشر قصصه فى «المصرى» – أوسع الصحف المصرية انتشارا آنذاك – لفتت قصصه الأنظار ، من حيث اختلاف أبطالها وأسلوب صياغتها جميعا ، أما حين صدرت مجموعته الأولى فى ١٩٥٤ – وهى لم تضم كل القصص التى نشرها خلال تلك السنوات الأربع – فقد كانت حدثا تفجر فى الحياة الأدبية ، وبدا أن يوسف قد حقق قدرا عظيما من مهمته الثقيلة، وأنجز بعض مشروعه الطموح .

من ناحية ثانية، فلا شك فى أن التكوين الشخصى ليوسف – القلق الساخط المتمرد المتململ المندفع إلى الفعل، غير القابل للتكيف أو المواءمة أو التوصل لأنصاف الحلول وأنصاف الأفكار والمواقف ، الذى ما أن يقتنع بشئ حتى يحمله على عاتقه، ويمضى يبشر به ، ويخوض المعارك فى سبيله، مؤمنا – أعمق الإيمان – بأنه «قضية حياة أو موت» ، لكن قلقه يدفعه لإعادة النظر فى إيمانه هذا، وقد تؤدى به إعادة النظر تلك للتخلى عنه ، ليحل محله – على الفور – إيمان جديد ، يحمله ويمضى به من جديد، عند يوسف : التوقف موت، والحركة بركة ، ولحظة الإبداع مراوغة شموس ، ما أن تقبض عليها – بنصف وضوح حتى ! – حتى تسارع إلى تقييدها فى حروف وكلمات ، وأفضل أعماله – فى نظره – هى التى كتبها فى «حالة هاجس أو انتشاء ، وفى جلسة واحدة» .

أقول إن هذا التكوين الشخصى المتفرد وراء امتيازه فى فن القصة القصيرة : هى فن اقتناص اللحظة، الخاطرة، الصورة ، فن طيع لأقصى حدود الطواعية ، منوع لا حد لتنوعه ولا ضفاف ، وقد أفاد يوسف من هذ كله ، فما أرحب العالم الذى تنفتح عليه قصصه ، وما أشد ثرائه وخصوبته وتنوعه ! .

هذا التكوين ذاته قد لا يتيح له العكوف على عمل كبير واحد، رسم خطته مسبقا، وهو ينفذها جزءا صغيرا بعد جزء صغير ، بعبارة أخرى : أنه ليس معماريا ، ولا صانعا حاذقا ، قدر ما هو موهوب عظيم الموهبة، وهب عينا لاقطة وذاكرة واعية، وقدرة هائلة على انتقاء التفاصيل ، وحسا رائقا بالفكاهة (الصافية فى أعماله الأولى ، المريرة فى الأخيرة)، وجرأة على اللغة وكليشيهاتها المستخدمة، وتطويرا خصبا للعامية : ألفاظا وتعبيرات وصيغا وصورا .

من هنا بقى ما أنجزه يوسف فى القصة القصيرة أكثر وضوحا وبقاء وتأثيرا مما أنجزه فى فن الرواية ، ولعل أفضل ما فى هذا الأخير لوحات أو مشاهد أو تحليلات لمشاعر ومواقف ، يمكن أن تستقل ، وحدها ، عن البناء - غير المحكم - للعمل الروائى .

أما المسرح وحديثه فأمر آخر .

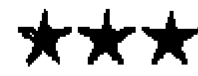
★★★

حفلت قصص يوسف إدريس بحشد هائل من الأبطال الذين دخلوا إلى التعبير الأدبى فى القصة المصرية للمرة الأولى، حشد هائل من الفلاحين الفقراء والعاملين العاطلين والعاملين الهامشيين وعمال التراحيل والموظفين الصغار وشيوخ القرى وأبناء الليل ومالكى الفدان أو أقل ، والذين لا يملكون إلا عافيتهم وفؤوسهم ، مرضى الأجساد والعقول فى البيوت الطينية أو على أسرة المستشفيات ، أطفال وصبية ومراهقين فى المدارس والحقول وأماكن العمل وشوارع المدينة، نساء فى البيوت ونساء بلا بيوت، مساجين وعسكر داخل الأسوار العالية التى تعزل الجميع عن الحياة فيجعلون لأنفسهم حياة أخرى بديلة. وفى أعماله الأخيرة أضيف لهؤلاء جميعا أبطال آخرون : أساتذة فى الجامعة وأطباء كبار ومسئولون بين أيديهم الحل والعقد .

وتأخذ معظم القصص - لنقل أفضل النماذج - شكلا بنائيا متقاربا : يبدأ الكاتب من نقطة، ويدور دورة كاملة حتى يعود إليها، وقد اغتنى الموقف القصصى بكل التفاصيل المنتقاة والمتراكمة . إنه لا يترك هذه النقطة، أو يتجاوزها امتدادا أو يحلق فوقها ، لكنه يوالى الحفر فيها حتى يصل أعماق اللحظة النفسية المشتبكة بجذور الشخصية، بمبرر وجودها ذاته ، من ناحية ، وبدلالة واقع اجتماعى يشملها ويحدد لها استجاباتها وردود أفعالها ، وعلاقاتها بالآخرين ، من الناحية الثانية.

★★★

وتنتظم قصص يوسف ادريس فى منظومات رئيسة كبرى، وأخرى ثانوية أصغر ، ولعل أهم المنظومات الأولى تلك التى تتمثل فى علاقة الفرد بالجماعة، والعلاقة بالمرأة والجنس ، ثم تحولات الواقع السياسى - الاجتماعى ودلالاتها .



وقد تميز يوسف بقدرته على تصوير الجماعة ، فى حركتها التى تتجاوز حركة الأفراد ، تشملها وتحتويها، لكنها تكاد تكتسب منطقها «الجماعى» الخاص ، والفرد واحد منها، وفى ضوء العلاقة القائمة بين الطرفين ينبثق معنى البطولة وتتحدد معالمه، وعدد من قصص مجموعاته الأولى- بوجه خاص - يعرض لهذه العلاقة، ويقلب البللورة على وجوهها المتعددة :

فى قصة من قصصه الأولى (لها عنوانان مختلفان : « المثلث الرمادى» و «الرأس») يصوغ يوسف - على نحو لا يخلو من القصد والمباشرة - العلاقة بين القائد والجماعة : صبى يعابث قافلة من الأسماك الصغيرة ، تسير فى ماء المصرف ظهيرة يوم قائظ، يلقى فتات الخبز أمام رأس المثلث، السمكة التى تقود القافلة، فتتجاهلها مرة ومرة ، لكنها حين تقرر أخيرا أن تنحرف عن طريقها لتلتقط الفتات، يضطرب المثلث .. «لكنه اضطراب قليل «تحركت القافلة برهة بغير

السمكة التى فى المقدمة، لكنها بعد مسافة قصيرة توقفت ، ومضت عشرات آلاف زعانفها الصغيرة تلمع فى الماء الصافى بينما طوابير السمك لا تتحرك ، غير أن هذا لم يدم إلا برهة خاطفة، إذ سرعان ما وجدت سمكة من الصف الثانى تندفع وتصبح فى المقدمة، ثم تتبعها بقية الصفوف، ولم تلبث القافلة أن عادت لسيرها المتحمس » .

ورغم كل محاولات مالك الأرض أن يحكم بناء السور الذى يحيط أرض السوق، إلا أن فلاحى القرى الشرقية لم يعدموا ثغرة توصلهم لقلب السوق بدل أن يلفوا حوله كله، وبقى الأمر كما هو رغم كل المحاولات .. وأنت «إذا وقفت فى الصباح الباكر من أى سبت فسوف تجد المشاية تحفل بالطابور الذى لا تعرف كيف يبدأ، ولكنك تراه ينتهى فى السوق من خلال السور، ودائما ستجد هناك حديدة مكسورة .. » (الطابور) ، وقد كان فى القرية شجرة «طرفة» يتبرك بها «الناس» ، فيستخدمون قطرات من أوراقها لعلاج عيونهم، حاول الطلبة المتعلمون فى القرية اثناءهم عنها فلم يفلحوا ، ثم تبين لهم أن خبرة الجماعة على حق، وأن بأوراقها، فعلا، ما يمكن أن يشفى العيون، تقبل «الناس» كلامهم بفتور ، ثم مرت أعوام كثيرة فقدت فيها الشجرة قداستها ووظيفتها ، واقتنع الناس أن «القطرة انضف» . فى تلك المواجهة بين القديم والجديد، بين خبرة الجماعة المتراكمة وآراء بعض أفرادها

المتمردين عليها، يأتى التطور الحتمى على مهل ، دون إكراه أو إرغام ، فى خطوه الوئيد الواثق .

على أن العلاقة بين الجماعة : وأفرادها تتخذ فى الأعمال التالية صيغا وأشكالا أكثر تعقيدا وأقل مباشرة، لكنها - جميعا - تثبت القاعدة الإنسانية الصحيحة : الدفء والتحقق فى الانتماء ، والبرودة والخواء فى الانسلاخ والتخلى . وثمة أفراد تمثلوا أصفى قيم الجماعة، وتخلوا عن الانحصار داخل ذواتهم الضيقة ومصالحهم المحدودة، وقدموا للجماعة أفضل ما عندهم ، فكافأتهم الجماعة على صنيعهم ، وأنزلتهم من قلبها أعز مكان : هذا «عوف»، «فى الليل» هو التميمة القادرة على فتح أفواه رفاقه وإطلاق ضحكاتهم ، بعد أن سمرها عمل مرهق طول النهار، «وما كان أحد يستطيع أن يزعل من عوف أو يتأثر من كلامه ، كانوا كلهم قد أجمعوا على حبه، رغم أنه كان أفقر رجل فى القرية، ورغم أن حياتهم كانت جدباء صعبة لا يستطيع الحب أن يجد مكانا فيها » .

وهذا عم حسن «صاحب مصر» ، اختار لنفسه مهنته : « أن يخدم الناس حيث لا يتوقع للناس خدمة ، فهو لا بلد له ولا بيت ، موطنه الدائم يوجد حيث يوجد بيته ، وبيته يوجد حيث يوجد عمله، وعمله يوجد حيث يرى أن حاجة الناس إليه أقوى وأشد » ، صحيح أن هناك من يأتى

ليوقع به العقاب ويأمره بالرحيل ، لكن هذا أمر عارض، والحقيقة الباقية هى أنه اعتبر المصريين كلهم أهله ، وهكذا .. «وبمنتهى الجرأة والألفة والبساطة ألقى نفسه فى وسطهم ، فى البحر الضخم الهائل الذى يكون ملايينهم ، ومن الواضح تماما أنه لم يغرق، وأن الأيدى رفعته ، ولا زالت ترفعه وتتداوله، ومن المكان إلى المكان يلقى بنفسه إلى يد ترفعه بحنان ورفق لتضعه حيث يحدد ، أو لتسلمه إلى يد جديدة إذا أراد » .

ثم هذا «أحمد العقلة» أو «أحمد المجلس البلدى» .. يقدم لجميع الناس جميع الخدمات ، ولا يطيق رؤية الأعوج دون أن يصلحه، ورغم أنه بساق واحدة ، إلا أنك انى تذهب كنت تلقاه .. «نجارا تلقاه ، حلاقا تلقاه ، تاجرا فى مخلفات الجيش تلقاه ، ثم هو بعد هذا يجيد شغل الآلاتية وكى الناس للشفاء من الأمراض وجس البهائم العشر والقيام بأعمال الأبونيه وتعهدات فرق المزيكا والرقص، وإصلاح الكلوبات والبوابير فى الأفراح ، وحتى فى «تلتيم الموتى تلقاه » .. وحين استطاع الحصول على ساق صناعية ، بعد مغامرات له وأهوال ، وجد أن ساقه الجديدة تلك ستلزمه سلوكا لا يستطيعه، فقرر التخلص منها والرجوع لحضن الجماعة .

لكن هناك أيضا من ينسلخ عن الجماعة ويتخلى عنها ، مصعدا فى طريقه الفردى ، وتلك المواجهة الفريدة فى «لغة الآى آى» بين «الدكتور

الحديدى» ، واحد من صفوة الصفوة فى العاصمة، ورفيق طفولته المتفوق «فهمى» الذى حوله الفقر وسرطان المثانة إلى كائن مثنى على نفسه يطلق صرخات ألم تتحول لهمهمات غير إنسانية بالمرة . فى ضوء الألم الساحق والأعماق المحترقة يواجه الحديدى ماضيه وحاضره جميعا ، ويقارن حياته بحياة فهمى : فهمى قد عانى من الفقر والبؤس لكنه كان لائذا بحضن الجماعة «يعمل مع الرجال ويضحكون سويا ، ويتشاورون فى مشاكل العمل ويستمتعون بمشوارهم إلى السوق .. (..) بهذه الأشياء الصغيرة المتناثرة فى طريق حياتهم يمتلئ كل منهم بإحساس يومى متجدد أنه حى، وأن الحياة، مهما صعبت ، حلوة» .. أما هو حين ينظر وراءه فهو يرى شاشة حياة «مليئة بالصلات المقطوعة، بالصداقات المبتورة ، بأجزاء العلاقات ، بقيم على الطريق مهدرة ، بإنسان لا يريد أن يرتبط بأحد حتى لا يعطله الارتباط، ولا أن ينتمى لجماعة أو حتى لصديق، لأن فى الانتماء فقدانا لذاته الحرة وكيانه، والنتيجة جرى سريع إلى قمة الوصول هو فى الحقيقة هرب سريع من الحياة » .. والنتيجة أنه ميت حى، أكثر من فهمى الذى يعرف يقينا أن المرض الضارى الذى افترسه لن يبقيه سوى أيام .

ولئن كنا اليوم نرى فى النهاية التى تنتهى إليها هذه المواجهة الفريدة (الحديدى يحمل فهمى على كتفيه ويغادر الحى الراقى معلنا

أنه : « رايح فى طريق تانى صعب شديد » ..) نهاية تعبر عن تفاؤل ساذج، أو تتضمن رشوة صغيرة للقارئ ، أو غارقة فى عاطفية مفرطة، فقد لا يجب أن ننسى أن منتصف الستينيات لم تكن قد شهدت بعد، تحطم الحلم «بالاشتراكية» وتناثره شظايا !

غير أن يوسف لا يقع فى أسر التبسيط السهل، فيرى الجماعة دائما على حق، هى أحيانا تكون متواطئة ، أو تتفجر أحشاؤها بعدوان طاغ ضد هذا الفرد أو ذاك من أفرادها : فى «حادثة شرف» تسقط الجماعة تصورها على الأنثى الجميلة المحبوبة فيها، ومن أجل أن ترغمها على قبول هذا التصور تفقدها ماهى جميلة محبوبة به، فتحملق العيون الجاحظة فى أخص خصوصياتها ، وتستجيب الفتاة لهذا الظلم الواقع عليها - دون ذنب جنته سوى أنها جميلة مشتهاة - فتتخلى عن خجلها الفطرى ، وتواجه الجميع «بعيون مشرعة حلوة، لا تنخفض ولا تخجل » .

أما فى «الأورطى» فإن الجماعة تمضى خطوة أبعد، فتمارس أبشع ألوان العدوان على فرد منها، حتى تعريه تماما دون رحمة ، بل بنشوة واستمتاع ، ولئن بدا عرى الضحية بشعا فإن عرى الجلاد أبشع، لكنك لا تستطيع أن تبرئ «عبده» تماما ، فلا شك فى أن ذلته، وخضوعه لهذه المذلة هى ما هيأته - بامتياز - ليكون الضحية .. «فقد كان نحيفا

غلبانا، ما حفلت عيناه مرة بنظرة تحد، ولا واجه أحدا مرة بنية إثبات الوجود أو الدفاع عنه (..) وإذا فاض به الحال بكي، كالأطفال أو النساء يبكي، بكاء لا ليونة أو طفولة فيه ولا يستدر العطف ، إنما الكارثة أنه بكاء رجال يستدر الاشمزاز» ..» كذلك تعمد الجماعة إلى القتل حين تشك- مجرد الشك - فى أن هذا الأصم الأبكم الذى لم يكونوا يأبهون بحضوره ، حتى عرف أسرارهم جميعا وفعالهم ، إنما هو يسمع ويتكلم، وهو ، من ثم ، قادر على خلخلة أمن الجماعة القائم على إخفاء الأسرار وإقامة الأسوار (الشيخ شيخة) ، وفى «بيت من لحم» يتحقق التواطؤ بين أفراد الجماعة الصغيرة ، تواطؤ صامت يحقق رغبات الجميع، ويقوم أمامه جدار الصمت لا يقوى أحد على اختراقه، لأن الكل راض عنه، مستفيد من قيامه، فمن ورائه فقط يتحقق للأرملة وبناتها الثلاث نصيب من متعة الجسد وفرحة الحياة. أما الدكتور عويس بطل «سنوبزم» فإن حكايته حكاية، ولعله لا يزال مندهشا من «إجرام الجماعة» الذى أصابه وترك آثاره على وجهه وجسده، وهو - كأستاذ جامعى - يصف الظاهرة ويشخصها : «اللعبة تتم فى صمت ، ولا أحد يخرج على قواعدها، والقاعدة إنك ما تشفش، وإذا شفت كأنك ما شفتش ، وإذا حصل لغيرك مالكش دعوة ، وحتى إذا حصل لك أنت ولا كأنه حصل لك».

وثمة تنويعات أخرى على علاقة الفرد بالجماعة : علاقة تؤدى ببعض الأفراد إلى التمرد على الجماعة، وحمل السلاح فى مواجهتها « يا قاتل يا مقتول» ، فيتحول الفرد إلى «قتال قتلى» و«ابن ليل» (قصة «الغريب» بوجه خاص) ، أو قد يتمـــايز الفرد عن الجماعة ويقـودها فى طريق هو طريقها بالذات ، طريقها لمواجهة مستعمر أو ظالم (قصتا «سره الباتع» و «الهجانة» بوجه خاص) ، وسنرى شيئا من هذا حين نعرض للمنظومة الثالثة فى قصص يوسف، أعنى تحولات الواقع فى مصر ودلالاتها .

★★★

(٢) عن المرأة والجنس ،
فى القرية والمدينة

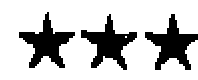
وقد لا يفوت القارئ أن يلاحظ لونا من ألوان الاختلاف ، الضرورى والطبيعى، فى موقف الكاتب من قضية الجنس واستخدامه لها، ثمة قصص لا يبدو فيها الجنس أمرا مقصودا لذاته، إنما هو موجود ليعنى شيئا آخر يقف وراءه :بعد أن أجرى الجراح الشهير «العملية الكبرى» - بنوع من الاستبداد والتسلط والزهو بعلمه وأستاذيته - بدا لمساعده أن «الخطأ ممتد وبادئ من اللحظة التى قرر أن يحيل عملية الاستكشاف إلى عملية استئصال كبرى، بل الخطأ - هكذا يدرك الآن - يمتد إلى أبعد ، إلى ذلك اليوم الذى أصبحت الجراحة عند أستاذه تزاول من أجل الجراحة، وأصبحت العمليات وأصحابها ، وهم غالبا من الفقراء الذين بلا حول، ميدانا لإثبات القدرة» ، وهكذا : لم يستطع شئ أن يوقف النزيف ، وبدأت السيدة تدخل مرحلة الاحتضار ، أمام أعين الطبيب والممرضة اللذين يشهدان احتضارها ، الأمر المدهش هو ما حدث فى تلك اللحظات ، دون تمهيد سابق أو اعداد ، تقارب الرجل والمرأة «وكأنما هو مسوق بها وهى مسوقة به وكلاهما مسوق بقوة أكبر، دفعا

معا «الترولى» المجهز لتحمل عليه السيدة بعد وفاتها ووضعاه حتى أصبح امتدادا لمنضدة العمليات ، وبدا ألا قوة على سطح الأرض تستطيع منعهما، ومعا خلعا ملابسهما»، وهكذا يمارس الجنس بعذوبة على تردد أنفاس الاحتضار ، وهكذا أيضا «اشتبكت اغماءة النهاية باغماءة البداية ، أول البداية ونهاية النهاية، لحظة خروج الحى من الميت، والميت من الحى» .

وفى «دستور يا سيدة» (أو «حلقات النحاس الناعم») لقاء آخر دون تمهيد أو إعداد بين السيدة الوقور التى تلبس السواد ، أم الرجال الناجحين وجدة الأحفاد الكثيرين، والفتى الذى لازالت خطاه مترددة بين الصبا والرجولة، لكن هذه الأم تحس بأن أحدا لم يعد بحاجة إليها، وأنها قد أصبحت «ديكور أم محنط فى شقة «العيلة» ، يأتى إليها الأبناء بزوجاتهم وأبنائهم لغداء يوم الجمعة ، لكنها تحس بأن هذا الطقس كله ليس سوى «تمثيل فى تمثيل» .. والفتى الذى التقت به مصادفة عند باب السيدة، وصحبته إلى بيته الفقير ، يتيم الأم منذ سنوات وسنوات ، حرك فيها أمومتها التى افتقدتها ، هذا صحيح، لكن الأنثى تحركت كذلك، والفتى الذى كاد ينسى أمه تحركت فيه رجولته أيضا، وهكذا «ربما كانت الردود وفعل الردود ، الإقدام مرة والخجل مرة .. (..) بالأربعة معا : الابن والأنثى والأم والشاب فى صراع لا رحمة فيه بين بعضهم

البعض – ترتفع الحرارة حتى يتشعب اللهب، وعلى لهبها تحترق أشياء كانت لا تقبل الاحتراق، وتذوب النواهى ، ويذوب كل ما كان وكل ما سيكون ، ولا يبقى سوى المرأة المحتمية بالأم فيها ، والابن التائه يبحث عن أنثاه المختفية داخل المرأة الأم».

هذان نموذجان رائعان لتوظيف اللقاء الجنسى في العمل الفنى، من حيث هو انبثاق الحياة فى حضرة الموت فى الأولى، والتوق العميق إلى لحظة الدفء الإنسانى فى الثانية .



من «أعماق المدينة» جاءت «شهرت» ، ومن القرية جاءت «فتحية» ، لكن المدينة «النداهة» كانت وراء سقوطهما معا : شهرت جاءت من قلب المدينة القديم المتداعى ، تلتمس العمل خادما عند القاضى الذى يسكن أرقى أحيائها ، وعمد القاضى إلى أن ينالها فيما يشبه الاغتصاب «أتعبته كثيرا حتى أجبرها على السكوت (..) وعاد إليها بعد قليل .. (..) هز كتفيها هزة يختلط فيها قليل من الإشفاق بكثير من الضيق : – مالك ؟ فقالت : – أصل عمرى ما عملتها ، وانهمرت الدموع من عينيها » جاءت شهرت للعمل وراءها زوج عاطل وأطفال جوعى وحياة قلقة ، وحين حدث ما حدث بدأ تحولها التدريجى، وذات يوم خيل إليه أنه «يلمح فى وجهها أشياء لم تكن موجودة أو أن وجهها ينقصه شئ كان

موجودا (..) ثم بدأ يلاحظ أن قسوة ما قد صارت لها ، وأن شخصيتها تخمد فيها روح الزوجة الأم وتتصلب ، وتأخذ شكلا فيه حدة وعصبية وجمود» .. واكتمل تحولها لعاهرة بعد أن طردها القاضى ، حتى رآها يوما تقف على محطـــة الأتوبيس «وكان واضحاً أنها لا تنتظر الأتوبيس ، وكانت تصبغ شفتيها بروج حقيقى، وترتدى الجيب الرمادى الذى كانت تأتى به ، وأهم شئ أنها كانت ترتدى فوق الجيب بلوزة جديدة» .

أما «فتحية» فقد كان سقوطها قدرها الخاص، الذى أيقنت أنه لابد ملاقيها منذ قررت أن تأتى للمدينة مع زوجها الذى يعمل بوابا لإحدى العمارات فى أحد أحيائها الراقية، وحين حدث المحظور ونفذ السهم وضاجعها الأفندى .. «بدأت تحس بأشياء غريبة عجيبة تنفذ إلى ذاتها وجسدها ، أشياء جديدة مذهلة كبريق مصر الخاطف ، أشياء أحست معها كما لو أن كل «النيون» الأحمر والأزرق والبنفسجى ومهرجان الأضواء والألوان ، كل الوجوه الحلوة الحليقة والملابس الغالية الأنيقة ، كل الروائح العطرة والمنعشة المخدرة (..) كلها تتجمع وتتسرب إليها ، إلى داخلها المرتعش المهزوم الخائف المبهور» .. بعبارة واحدة : إن المدينة النداهة الآسرة هى التى تضاجعها ، لذا فهى تقرر العودة إليها ، فإرادتها هذه المرة ورغبتها .

ولعل المقارنة بين سقوط شهرت وسقوط فتحية أن يكون نموذجا لتطور فكر يوسف إدريس فيما بين تاريخى القصتين : ١٩٥٧ و ١٩٦٥ .

★★★

وقارئ هذه المنظومة من القصص قد لا تفوته ملاحظة أن يوسف يتعمد فيها أن يمس حاجز المحارم والمواضعات ، مسا رقيقا وغير رقيق ، من هذا عبثه بالمشايخ ، ويبدو يوسف مولعا بهذا العبث، فهو يعبث بثلاثة منهم معا فى مجموعة واحدة ! وقد فات عليك الشيخ الأعمى الذى يعيش فى «بيت من لحم» ، تتقاسم رجولته زوجته الأرملة وبناتها الثلاث ، وهو يراوغ نفسه ويداورها ، ويقول لها إن «أقصى ما يستطيعه هو الشك ، شك لا يمكن أن يصبح يقينا إلا بنعمة البصر، ومادام محروما منه فسيظل محروما من اليقين، إذ هو الأعمى، وليس على الأعمى حرج، أم على الأعمى حرج ؟» .

وتنقلب الآية تماما فى «أكبر الكبائر» ، فالشيخ هو البعيد تماما عن اللعبة، لكن صوته ليس بعيدا، فعلى إيقاع صوته وهو يؤذن أو وهو ينشد ، أو يقود حلقة الذاكرين ، وعلى سطح بيته ، تتم المضاجعة بين امرأته والفتى محمد .. «كان كلما سمع الشيخ صديق يؤذن أو يحيى

ليلة أو مولدا يترك ما بيده ويتجـــه إلى البيت، وبقفزة واحـــدة يصبح على سطحه ، ودائمـــا ، وهذا هـو الأغرب ، كـان يجـــد الشـيخـة صابحة هناك بنفس طرحتهـــا البيضاء ، كأنها وصـوت زوجـها على ميعاد» .

الشيخ الثالث قصته نكتة . نكتة تتألق فيها موهبة يوسف الرائعة كحكاء متفنن ، يجيد صياغة النكتة ، ولا يكتفى ، بل عليه - بكل الحذق الموروث والمكتسب - أن يرويها ، والأمر لايبدو غريبا، فالنكتة قد حدثت فى حى اعـتـاد أهله صناعـة النكتـة «ويظلون يدندشـونهـا، ويمزاج يزخرفونها، ويتقنون روايتها ، ويتفننون فى اختراع التفاصيل التى لم تحدث حتى أصبحت أهم وأعز جزء من فولكلور الحى وتاريخه» .. النكتة - باختصار - حدثت فى حى «الباطنية» ، والذى يرويها لنا هو الشيخ عبدالعال ، إمام مسجد الحى، وهو الذى يتساءل : «أكان لابد يا ليلى أن تضيئى النور؟» ليلى الجميلة جمالا غير مألوف فى الحى تراود الشيخ عن نفسه وتنويه، لكنه يصدها صدا جميلا ويدعو لها، وذات فجر يصعد المئذنة كى ينشد تسابيحه، فيرى نافذة وحيدة مضيئة أمامه ، ويرى ما هو أخطر : جسد الجميلة المشتهاة ممددا على سريرها ، نظر ثم عاود النظر : «أكـــان لابد يا ليلى أن تظلـى تتقلبين حتى ينحسـر القميص

إلى أعلى ، ويتبدى جسدك تحت وهج الضوء الساطع، أبيض يكاد من بياضه يضئ ، عاريا تماما ، متلويا في الفراش ، ناشرا أطرافه قابضها ؟ » .. استغاث الشيخ فأطلق «يارب» صحيح هى كلمة واحدة ، لكنها «كم مرة قيلت ، كم مرة تلونت وتنوعت وطالت ورقت، كم من المعانى قيلت منها وبها ، كم استعطفت ، كم استنجدت ، كم غضبت ، كم امتعضت ، كم تدللت ، كم دمعت وابتسمت » .. كلمة واحدة نعم ، لكنها أيقظت أهل الحى الذين لاينامون إلا على معصية ، ولا يصحون إلا لمعصية ، فجاءوا مذهولين برؤوس أثقلتها الكيوف ، أمهم الشيخ في الصلاة ، لكنه قبل أن يسجد للركعة الأخيرة رأى الجسد العارى ممددا أمام عينيه في القبلة ، تركهم ساجدين وهرب نحو الغرفة المضيئة ، يراود صاحبتها عن نفسها ، فردته الجميلة ردا غير جميل ! ربما لإحكام النكتة ، ربما دلالا وصنعة ، ربما لأنها عرفت الطريق الذى كان يدعوها إليه حين هَمَّ هو بالخروج منه ، وسخرية عذبة تحيط الجميع : الشيخ يسخر بقطيعه ، والقطيع بشيخه ، والكاتب بهم جميعا ، ومعهم رتل طويل من الخاطئات والقديسين!

وبقدر ماترق السخرية هنا وتصفو ، قدر ماتغلظ وتخشن بالشيخ الأخير ، شيخ «ماخفى أعظم» ، فهذا الشيخ «رابح» (يدعوه أهل القرية

الشيخ فقر .. وهو يحمل شبها واضحا بشيخ آخر سبقه فى «طبلية من السماء» ، لكن هذا الأخير لايعنينا هنا)، عاد إلى القرية بعد تطواف طويل ، وقد تزوج امرأة اسكندرانية «سمينة تخينة مدكوكة كأنها أربع نساء أدمجن معا» ، وأصدر الشيخ لامرأته أوامر صارمة وقاطعة بألا يرى أحد من أهل القرية، امرأة أو رجلا ، وجهها .. وظل الأمر كذلك حتى كانت ليلة شتوية ماطرة، جاء المرأة المخاض ، وتعسرت ولادتها ، فخرج منها نصف الجنين وبقى نصفه ، هكذا ، أعد الكاتب المسرح للمشهد ، للنكتة الغليظة الخشنة ، فقد كان ضروريا أن يتعاون الرجال لحمل المرأة إلى المستشفى «بحيث أن الشيخ رابح ، ذلك الذى كان خوفه الأكبر أن يرى أحد وجه امرأته . قدّر له أن يرى بنفسه الناس ، مئات الناس ، كل أهل القرية ، وهم يشاهدون ، ليس فقط وجهها المكشوف أو ذراعها أو جزءا من ساقها ، وإنما جسدها كله ، بكل ماهو ظاهر فيه ومستتر ، وبالجنين يطل منه .. والأضواء قوية مسلطة» .

هذا وجه من وجوه مس حاجز المحارم والمواضعات ، ثمة وجه آخر فات عليك فى تلك العلاقة بين الأم والابن فى «دستور ياسيدة»، وذلك وجه ثالث يتمثل فى العلاقة القائمة بين الفتى المسلم والفتاة المسيحية فى تلك البقعة من برارى الدلتا (ذات المكان الذى تدور فيه أحداث روايته «الحرام») ، وقد صاغها يوسف مرة باسم «القديسة حنونة» - لم

ينشرها فى أى من مجموعاته - ثم أعاد صياغتها ، محاولا إحكام السيطرة عليها فى «جيوكندا مصرية» . والقصة هى العلاقة . وقد [٤]اكتشف الفتى لأول مرة أن فى هذا العالم ناساً ليسوا مسلمين ، قال لها مرة : «أنت كالعذراء مريم .. (..) كالعدرة بدون المسيح ياحنونة ، أنا المسيح وأنت العدرة ، خلينى مسيحك وأنت عدرتى .. » ، جوهر القصة ولبها هو ذلك اللقاء الجنسى المرتبك الذى تم بينهما وكلاهما لا يعرف عن الأمر شيئا : «أحسست بحرمانى السابق يطفى .. أضمها وأعتصرها وألوكها ، حية ، دافئة ، أنثى ، أمرغ نفسى فيها وفى حرمانى منها وفى قداستها وفى الإثم الأعظم وبشريتها والزمن الطويل الذى انقضى أعبدها ، كنت أعبدها ، وها أنا ذا العابد أنالها ، وعلى نحو محال أن تتطرق إليه أشد الأحلام تخريفا وبعدا عن التصديق .. ». أما ليلة أن جاء ابن عمها ليتزوجها ، وأقيم العرس والقسيس جاء رآها الفتى «تبتسم فى شحوب وعيناها هائمتان تبحثان عن شىء بين نجوم السماء » كأنها العدرة فقد منها مسيحها . والعذراء راضخة صابرة وحيدة تفتش السماء بعينيها بحثا عن الخلاص ، ومن يدرى ؟ ربما كانت تفتش عنى وأنا قابع فوق السطح أتألم وأندم وأرقب والكل يردد : كيريا ليسون..» ولست أظن الأمر بحاجة لتعليق آخر .

ويبلغ يوسف نهاية الطريق حين يحاول أن يصطدم بالقانون

البيولوجي الذى يقضى بألا يضاجع الكائن سوى كائنا من نوعه ، فى قصته التي نشرها فى مجموعتين بعنوان « عن الرجل والنملة»: مسجون سياسى يتعرض فى سجنه لقهر من نوع فريد ، يحكيه لرفاق الزنزانة وهو على شفا الموت : كيف أصدر ضابط جلاد أمره له بأن يضاجع نملة أتى بها ، وهو يحكي : «أنا فعلا رجل ضخم ، وهذه نملة ، وبكل كيانى عليّ أن أصغر نفسى وأستحيل من إنسان إلى حشرة ، إلى نملة ، إلى ذكر نمل تستثيرنى أنثاى النملة .. (..) أتصاغر وأتصاغر ويكسونى العرق وتطقطق عظامى، تتدشدش (..) كى أستحيل ذكر نملة ، أفرز هرمونات ، وأجعلها بالقوة القاهرة تستجيب لهرمونات أنثاى القابعة فى يدى .. » فى نهاية المحاولة أغمى عليه ، فنقل إلى مستشفى السجن لكن حرارته بقيت ترتفع حتى مات !

واحدة من أضعف قصص يوسف وأكثرها عبثا وسخفا ، لاتفلح نمنماته المعتادة حول السجن ومايحدث فيه أن تضفى أى قدر من المعقولية أو الفن على ذلك الجهد الضائع المبذول فى محاولة ترجمة تعبير عامى فج ومبتذل إلى قصة قصيرة !

★★★

وليست «الرجل والنملة» القصة الوحيدة فى هذه المنظومة التى تدور داخل السجن ، فالسجون بزنازينها وحراسها وجلاديها ومساجينها ،

والعلاقات القائمة بين هؤلاء جميعا ، ثابت من الثوابت فى عالم يوسف إدريس ، يظل يعود إليه بين الحين والحين فى رحلته الإبداعية ، ومن الجانب الآخر فإن السجن هو المكان الذى تستحيل فيه ممارسة المشاعر تجاه الجنس الآخر ، ومن ثم يشتد الشبق ، ويكاد يخترق الأسوار والجدران .

إلى جانبها نجد قصص «مسحوق الهمس» و «هذه المرة» و «العسكرى الأسود» ... (أفضل أن أتحدث عنها فى المنظومة الثالثة) و«شىء يجنن» وأخيرا «أقتلها» .

وما كان أعظم الفرحة التى أصابت ذلك السجين السياسى الشاعر حين نقل إلى زنزانة تجاور زنازين النساء ! صحيح أن هناك جدارا غليظا من الأسمنت يفصل بين الجانبين ، ولكن ، متى كانت تلك الجدران عائقا أمام تفاهم السجناء بطريق الدق عليها ، وبلوغ لغة مشتركة من خلال تلك الدقات ؟ «فقد استطاع الانسان دائما أن يجد حرية داخل كل قيد على الحرية ، وأن يخلق داخل كل ممنوع ماهو مباح .. » . وهكذا بدأ صاحبنا يدق ، وبعد محاولات ومحاولات ، وبعد أن كاد يبلغ اليأس ، سمع دقات خافتة تأتيه من الجانب الآخر ، « وما أروع أن أعثر فى وسط صحراء مترامية الأطراف ، فى آخر الدنيا هنا ، حيث لا حضارة ولا إنس ولا بشر ، حيث انتهى العالم من زمن ، على

أنثى .. » ، وعاش تجربة حب عاصفة متأججة مع صاحبته من خلال «مسحوق الهمس» هذا : «وبالهمس المسحوق رحنا نتحدث حديث المحبين الخجول المتعثر ، المفضى دائما إلى الحديث عن النفس ، والاعتراف ، وكان كل منا قد وجد القلب الحنون الذى يهدهد على كلماته ويغفر أخطاءه ويجد المبرر لذنبه وعثراته .. » ، واستطاع خيال صاحبنا - لاتنس أنه شاعر - أن يجعل لصاحبته اسما وماضيا وحياة كاملة ، وأن تتصاعد علاقته بها حتى تبلغ حد الالتحام الكامل .. و«استطاع الحديث بيننا أن يرتفع بدفئه درجات ، مقربا مابيننا ، حتى بدأت أحس بأجسادنا تتداخل وتتلاصق صانعة البداية لأروع متعة عرفتها فى حياتى » .. بعد أن عاش السجين تلك التجربة العاطفية الساخنة التى أعادته إلى الحياة ، ما أهمية أن يعرف أن الزنازين المجاورة كلها كانت خالية منذ زمن بعيد ، وأن السجينات كلهن قد نقلن إلى سجن آخر ؟

أما «هذه المرة» فإن «إمام» السجين السياسى رأى الأمر مختلفا : إنه اليوم الذى تزوره فيه امرأته وحبيبته «سهير» ، وهو ذاهب لملاقاتها « كأنما هو ذاهب لملاقاة الحياة ، تلك التى يبقى ميتا طيلة الشهر حتى تشرق عليه فى النهاية ، وبنظرة واحدة منها تلمسه لمسة ترد إليه الحياة ..» ، لكن الخوف موجود : رغم عمق العلاقة بينهما فقد انقضت

ثلاث سنوات منذ كانا فى فراش واحد ، وفى كل زيارة كان يراها تعانى ، وهو أيضا يعانى «ليس فقط من جسده ، وإنما من كبت وجدانى كان الجسد وسيلته إلى تخليصه منه » ، كانا قد تزوجا بعد إعجاب تطور إلى قصة كقصص الحب العاصفة ، وتكفل الزواج بصهرهما .. «لم يعد يحس بها منفصلة عنه ، أو كائنا آخر مستقلا ، لكنها أصبحت جزءا أنثويا فيه ، أو لكأنه أصبح جزأها المذكر .. » فما الذى حدث «هذه المرة » ؟ يروح الكاتب عظيم الموهبة يتابع أدق الشعيرات فى رؤية الحبيبين كل للآخر ، وبالتصوير البطىء يصوّر ، الهاجس قبل أن يبدأ هاجسا يباغت النفس نفسها ، وطالت بينهما لحظة الصمت ، فجأة أفلت الزمام منه ووجد نفسه يسألها : إيه اللى حصل ؟ ، وتتداخل الأحاسيس والأفكار والأسئلة والأجوبة فى سياق فنى معجز ، إحساسه يقول له أن ثمة شيئا قد حصل و «الكارثة فى هذا الإحساس الذى لايناقش ، كالحكم الذى لانقض له ولا راد ، كالأمر الواقع ، إحساس غير خاضع لمنطق أو فكر ، لكن له قوة أعتى من قوة المنطق والفكر . للمرة المائة يتأمل وجهها ، إنه هو الآخر أمر واقع ، ربما ينجح فى دحض إحساسه ونسفه ، ولكن حتى وجهها تكفلت المنطقة الغريبة المجهولة بالزحف عليه والامتزاج بلونه وملامحه وتغيير لونه ، كما يتغير لون الماء إذا سقطت فيه نقطة حبر ..» . انتهى الأمر إذن ، وإحساسه لن ينفعه .. «سيغادره

تاركا إياه مع التصرف أو بالضبط مع عدم القدرة على التصرف ، إنه الجحيم حقا ، بل ربما الجحيم أرحم . إنه السجن..».

فى هاتين القصتين تتألق موهبة يوسف الفريدة من جانب ، وإفادته من دراسة علوم الطب : التشريح وعلم الأنسجة.. ألخ ، من جانب ثان . اللحظة الواحدة تنقسم لعشرات اللحظات الصغيرة ، يتتبعها الكاتب العظيم حتى أدق شعيراتها ، استبدل بالمجهر عينه اللاقطة الراصدة لاتفوتها خلجة من خلجات النفس ، ولاخاطرة من خاطرات العقل ، كما لاتفوتها «فسفوسة» صغيرة يراها «إمام» نبتت إلى جوار فم امرأته وهو يتأمل وجهها ، ثم هو قادر على أن يضم ماتراه العين ، هنا والآن ، بما يرجع إليه من ماضى الشخصية وخبراتها فى سبيكة فنية باهرة ، لانتوء فيها ولا التواء.

إنما بمثل هاتين القصتين - وهو كثير - فرض يوسف إدريس ظله الفارع على القصة العربية القصيرة ، فأصبح أعظم كتابها ، منذ قامت ، وحتى اليوم ، دون منازع .

«اقتلها» - وهى من قصص الثمانينيات القليلة - تقدم لنا علاقة حب فريدة تقوم فى السجن ، بين شاب ينتمى لأحد التنظيمات الدينية المتطرفة . وشابة شيوعية ، على الجانب الآخر من السور ، بمعناه الواقعى والمجازى على السواء . « وما أغرب هذا القلب وهو يدق ،

فكأنما لامبادىء ولا عقائد ولانيران تحول بينه وبين الدق إذا أراد أن يدق ..» هو شاب جميل وهى شابة جميلة ، وهو يتساءل : «أفعلا أحببت ذلك الوجه ؟ أفعلا كانت صاحبته تحبك ؟ أم هو السجن والجسد الفائر والشبق الموضوع قسرا فى زنازين من أقفاص صلبة لاتلين ولا تنكسر ؟ .. » إجابة هذا التساؤل جاء ته بعد أن صدر له أمر من قيادة التنظيم داخل السجن بأن يقتلها ، أبلغه له الشيخ الكبير نفسه : «توكل ياولدى على المولى .. (..) إنها عدوة ، عدوتك وعدوتنا ، ولاحياة لنا أو لك إلا بقتلها (..) اقتلها يابنى ، اقتلها وتوكل ..» مصطفى : الشاب الذى دخل السجن لأنه ألقى قنبلة على ملهى شارع الهرم ، وهو يتوقع الحكم عليه بالإعدام ، ولايفزعه الموت أبدا ، فهو يرى الحياة خرقة بالية « وأعظم شىء يصنعه الإنسان بها هو أن يقذفها بأطراف أصابعه، كى يزيحها عنه ، وعن الطريق إلى الخلود ..» ، وقد حاول أن يناقش الأمر مع الشيخ ، لكن هذا أفهمه بوضوح أن دمه – هو – مهدر إذا لم يقتلها . وهكذا : فى لقائهما المعتاد عند السور ، مد يديه بين ثغرتين وأطبق على رقبتها، وما أعجب ماحدث ! لقد واجهت الشابة المحبة قاتلها بالوداعة ، وأسلمته روحها ، فى اللحظات الأخيرة «انتهت القبضة وتراخت الخفقة ، ورغم الحشد الهائل فالحقيقة الحقيقة لم يعد هناك سواها (..) والأيدى الأربع مضمومة فى تعانق متشبث مجنون

لاينتهى..». ينتصر الحب على الكره ، والتعاطف الإنسانى على الحقد والتعصب ، وينكشف أجمل وأنبل ما الإنسان إنسان به فى هذه القصة الحافلة بالدلالة .

القصة الأخيرة «شيء يجنن» تترك عالم البشر الى عالم الكلاب، وهى لاتخلو من قصد ومباشرة ، يريد الكاتب من خلالها القول بأنه حتى الكلاب ترفض التنازل عن حريتها ، أو ممارسة الجنس تنفيذا للأوامر ، وقد تمسك الكلب بحريته ، وأن اضطر فى سبيلها لمغادرة بيت أصحابه ، بل المدينة كلها !

★★★

كيف تبدو صورة المرأة ، والعلاقات بين الجنسين فى «قرية» يوسف إدريس ؟

لنلاحظ - بوجه عام ، والاستثناءات قليلة - أن القرية قد غابت - أو كادت - عن أعمال يوسف منذ أول الستينيات ، فمجموعات قصصه ، بدءا من «العسكرى الأسود ، ٦٢» لاتكاد القرية تجد مكانا فيها ، ولعل مجموعتيه «حادثة شرف ، ٥٨ » و« آخر الدنيا ، ٦١» تضمان آخر ماكتب يوسف عنها . هو الذى استطاع - مع غيره ، وربما أكثر من غيره - تغيير صورة القرية المصرية من إطار فارغ يدلق داخله الكتاب مايشاءون إلى عالم كامل له حياته الظاهرة والخفية ، تنتظمه علاقات

وقواعـد وأعراف ، وتحكمه قوانين قد لاتكون معلنـة ، لكنها خيوط قوية ، غير مرئية ، تشد الجميع معا ، والخارج عليها يلقى عقابه على الفور .

من هنا ، فإن إجابة السؤال السابق ستعتمد – فى معظمها – على أعماله الأولى .

★★★

وقصة «أرخص ليالى» ذاتها أشهر من أن يشار إليها ، ولو أن «عبد الكريم» كان يملك أى شىء – قرشا واحدا حتى – سوى جسد امرأته النائمة كالزكيبة ، لما فعل مافعل « كان يعرف طريقه، فطالما علمته ليالى البرد الطريق ، وعثر آخر الأمر على امرأته ، ولم يزغزغها ، وإنما أخذ يطقطق لهـا أصابع يديها ، ويدعك قدميها اللتين عليهما التراب بالقنطار » ، جنس خشن ، يمارس ، فقط ، لاستنفاد الطاقة التى يغلق أمامها الفقر والجهل أية منافذ أخرى .

ونساء القرية كلهن مثل امرأة عبد الكريم : خشنات غلاظ ، سمر الوجوه ، لا تلك السمرة الضاجة بالحياة ، بل تلك الشاحبة المنطفئة ، وكلهن عجفاوات مسحاوات ، أذبلهن الفقر والعمل الشاق وقلة الحيلة وكثرة العيال ، حتى أن الواحدة منهن تفقد كل ماتتميز به الأنثى من جمال قبل أن تبلغ الثلاثين . أما «الجميلة» منهن فهى – بالقطع – مهيأة

للوقوع فى الخطيئة، بالفعل أو بالإمكان : هذه «نبوية» فى «المرجيحة» ، زوجها أقعدته البلهارسيا وهدت حيله ، وهو ينظر إليها « وقد ربطت رأسها بالقمطة الحمراء ، وسبسبت شعرها المجعد اللامع حتى يبين طرفه من القمطة ، ومدت رجلها البيضاء الممتلئة ، فبانت قدمها النظيفة التى قضت وقتا طويلا فى حكمها بالحجر ..» . وما أن مات الزوج العليل حتى جاء «المعلم أحمد» بائع المخدرات فى القرية « والمعلم نمر كبير ، نمر يحمل فى جيبه علبة فيها الحشيش مقطعا وملفوفا فى ورق شفاف ، وفيها الأفيون يرقد فى أبنوسية العنبر ، ويحمل بجانب العلبة محفظة تمتلىء دائما بالأوراق الخضراء ، وفوق العلبة والمحفظة أكتافه العريضة ، ومن أعلى أكتافه يبرز رأسه الذى يعرف من أين تفتح الأبواب ..» ولم يمض وقت طويل إلا وقد قرأ المعلم «فاتحة» البنت ليصبح من حقه دائما أن يكاد يقيم فى البيت ، أما الصبى الراقد عليلا مثل أبيه فلم يفته أن يلاحظ « التنافس الذى استوى على أقدامه بين أمه وأخته فى جلى الكعوب وتسريح الشعر وقرص الخدود حتى تحمر، ولم يفته أيضاً أن أمه وأخته أصبحتا وكأن لاهم لهما إلا إرضاؤه والتنافس على تلبية إشاراته ، وقد يتفق الناس فى القرية حول أشياء وأشياء «لكنهم ينقسمون دائما ويختلفون على من التى يقع عليها الاختيار ، وهل يتزوج المعلم البنت أو أمها ..» .

وفى «الغريب» علاقة غريبة بين ابن الليل الذى فرض سيطرته على الجيرة ، وجيرة الجيرة ، وهرب من سجنه ، ودوخ مأمور المركز ورجاله ، وبين زوجته «وردة» . وأى وردة ! ، يصفها الفتى الذى أرسله «الغريب» رسولا إليها بأنها «حلوة بطريقة لايتصورها العقل ، بيضاء جميلة ملفوفة فى فستانها الحرير المحبوك ، وكل مافيها ناضج فائر يكاد يمزق الفستان » راودت الفتى عن نفسه ، وبالغت فى إغرائه ، غير أن إخلاصه للغريب حال بينهما ، ثم روى له ما دار ، يقول الراوى : «وأنى لى أن أعرف أن الغريب يعرف عن زوجته الجديدة «وردة» كل شىء ، وأنها نقاوة عينه التى أخذها على عيوبها (..) وأنه يضعها فى الغربة كالطائر فى قفص مفتوح ، يتحدى الرجال بها ، ويتحداها وتتحداه ، وأن العلاقة بينهما (..) كالعلاقة بين الجنى المارد والمرأة فى «ألف ليلة وليلة» (..) أنّى لى أن اعرف أنى كنت كالرسالة الحية المتنقلة التى أرسلها الغريب يسألها فيها عن أحوالها ومبلغ خضوعها له . وأنها أرسلت إليه الرد مكتوبا على نفس الرسالة - عليّ أنا - ردها المعتاد المملوء بتحديه وثورتها عليه . » (وقد نعود لهذه القصة الطويلة فيما يلى).

درة أعمال هذا القسم - وواحدة من درر يوسف إدريس الكثيرة - «حادثة شرف» التى سبقت لها الإشارة . وجريمة «فاطمة» الوحيدة انها كانت أنثى ، ذات أنوثة حية نابضة دائمة التفجر والتدفق «أنوثة لاتدرى

من أين تنبع ، وأين تكمن ، ابتسامتها ابتسامة أنثى ، لفتتها إلى الخلف لفتة أنثى ، الطريقة التى تحيط بها كتف زميلتها ، إطراقها وهى تدعو أحد المارة ليساعدها فى رفع بلاص الماء .. الخ » (لولا خشية الإطالة لنقلت نص وصف الكاتب لبطلته كاملا ، فمن الواضح أن الكاتب - نواقة النساء ، المولع بهن ، الوصاف لهن - لم يحب من بطلاته قدر ما أحب هذه القروية الجميلة !) كانت فاطمة أكثر الأناث أنوثة ، وكان «غريب» أكثر الذكور ذكورة «كان يغوى النساء ، والأدهى من ذلك أنه كان ينجح فى الإيقاع بهن ، وفى هذا لم يكن يحترم جارا أو زوجة خال؟ كان أسمر فاتح السمرة ، وسيما لاتمل العين رؤية ملامحه (..) ولم يكن يبدو أهبل كمعظم شباب الأرياف، كان ولدا حدقا معتدا بنفسه سريع الفهم فهلويا نظيف الجلباب ، يعمل كالمكنة طول النهار ويغنى المواويل .. الخ » بإختصار : كان لابد أن تقع فاطمة فى العيب معه . ذلك تصور أهل القرية الصغيرة ، وحين حدث أن انطلقت صرخة من الحقول ، وقال قائلهم إنها ضبطت معه فى الذرة، أيقنت الجماعة صدق تصورها ، وفى سبيل أن تثبته أخضعت الأنثى الجميلة المحبوبة لأقسى ماتتعرض له أنثى ، وها هو الموكب التعس يتجه لبيت «الناظر» كى تفحص امرأته عذريتها . «وفاطمة فى الوسط ، لايزال وجهها متحجرا وعيونها مفتوحة كعيون العميان وقلبها غائص تحت أقدامها ، وكلما خطت خطوة أحست

أنها تطؤه ، وتطأ معه كل خجلها العذرى وأحاسيسها الحلوة (..) اليوم وهم يترقبون خروجها ، مئات العيون تنظر لها وتحملق فيها (..) لا تنظر إليها إنما تنظر أخص خصائصها ، بلا حياء وبوحشية ، وتخترق وتهتك شرفها ويسيل دمها ويقطر .. وهى حافية عارية ذليلة لايرحمها أحد » .
ألا يبدو مقنعا - بعد ذلك - أن تتحول إلى ماتحولت إليه ؟ ، إنها ببساطة قد فقدت براءتها فأصبحت تستطيع «أن تنظر دون أن تنظر ، وتضحك دون أن تريد ، وتريد الشيء وتخفى رغبتها فيه..»، وحتى إذا لمحها أخوها خارجة من دار «صابحة الماشطة» - وهى امرأة سيئة السمعة - استطاعت أن تواجهه «بعيون مشـــرعة حلــوة ، لا تنخفض ولا تخجل ..» .

عود على بدء . إذا كان «عبد الكريم» قد وجد جسد امرأته الخشن فى «أرخص ليالى» ، فإن هذه الجماعة من الفتية المراهقين لاتجد ماتفعله فى «ليلة صيف» سوى أن يحكي لهم «محمد» - أكبرهم وأكثرهم خبرة - عن النساء . وهم مستلقون فوق كومة التبن فى «جرن» القرية النائمة . هذه الليلة كانت الحكاية تحدث فى «المنصورة» و .. « كانت فى نظرنا لابد شيئا كبيرا كالجنة ، وفيها خواجات لايحصى لهم عدد ، وبنـــات كاللبن الحليب ، ونساء إفرنج لهن ملايات لف حريرية تلمع وتلعلط ، وقصب براقعهن لابد صغير دقيق مثل عقلة الإصبع ،

وأنوفهن لابد كحبة الفول ، وأجسامهن لابد مصنوعة من لحم طرى وليس فيها عظام ، وإنما هى كالملبن ، تجذبه فينجذب معك وتلحسه فيسيل لعابك من حلاوته..» . ذلك تصور أولئك الفلاحين الخشنين للمنصورة - المرأة، وجاء ت حكاية محمد التى حكاها تجسيدا لهذا التصور ، وحين كذبوه أصر على أن مايحكيه قد حدث ، وأنه على استعداد لأن يريهم بيت المرأة الذى قضى فيه «ليلة من ألف ليلة» ، وهكذا : راحت جماعتهم تضرب فى الليل متجهة نحو المرأة - الحلم « وقد اصبحت شديدة الوضوح فى ذهن كل منا ، حلوة ، تماما كما يريدها الواحد منا ، ملموسة ، كأنها أمامه ، وكأنه قضى معها ليال كثيرة ..» . وبعد أن قطعوا شوطا طويلا صارحهم محمد بأنه كان يضحك عليهم ، وأنه لم ير المنصورة فى حياته ابدا . تفجر عدوان الجماعة ضده ، فأوثقوه وعذبوه، ثم فاجأهم النهار .. «النهار الحار الجاف الخشن الذى كنا نراه رؤى العين منتصبا أمامنا كرجل عملاق قامته أعلى من قامة الشمس .. » لم تستطع الجماعة أن تتقبل تبدد حلمها بالمرأة البيضاء الجميلة ، فتتفجر عدوانهم ضد من نقل الحلم إليهم ، وغرسه فى عيونهم ! .

تلك صورة المرأة ، والعلاقة بها ، فى «قرية يوسف إدريس» فى الواقع والحلم على السواء .

★★★

بقى أن ننظر للعلاقة بين الجنسين فى إطار مؤسسة الزواج . إن يوسف يبدو ذا موقف مزدوج من تلك المؤسسة : يسخط عليها ويستكين إليها فى ذات الوقت . لكن النظر فى قصصه التى تعرض لها يكشف - فى النهاية - عن موقفه إلى جانبها ، ودفاعه عن الارتباط بين الرجل والمرأة فى إطارها :

«أبو سيد» يفقد قواه الجنسية فجأة ، ويحار بين الوصفات البلدية والمستشفيات الحكومية دون فائدة ، وذات يوم هادىء مشمس ، والحديث يدور كسولا ، بينه وبين امرأته ، ثقل عليه شعوره بالذنب إذاعها ، فعرض عليها أن يطلقها «اعتدلت المرأة حتى واجهته ، دبت على صدرها وقد اربدت ملامحها وبان فيها عتب كثير : ياعيب الشوم يا رمضان . إيه الكلام ده ؟ دا أنت أبويا وأخويا وتاج راسى . دانت فى عينى من جوة .. مقصوصى شاب ، وشعرك أبيض ونعمل زى العيال ؟ .. ولم يسكتها إلا موجة البكاء التى أوقفت لسانها .. » .

ثمة قصص أخرى يتردد فيها ذات الموقف (بوجه خاص : «داوود» ، « الورقة بعشرة » ، « الستارة») ، ولكننى أكتفى بالوقوف عند قصتين هامتين فى هذا السياق : «السيدة فيينا» و «على ورق سوليفان» .

كما تجسدت «المنصورة» امرأة بيضاء حلوة للفلاحين المراهقين، تجسدت «فيينا» فى عينى «مصطفى» أو «درش» الموظف الشاب الذى

ذهب اليها فى مهمة عمل وفرجة ، فى امرأة أوروبية ذات شخصية . جاء – مثل كثيرين قبله وكثيرين بعده – يغزو المرأة الأوروبية ، فهى عنده «المرأة الحقيقية . النساء فى الشرق جثث ، لاتستطيع أن تنالهن إلا رغما عنهن ، حتى لو كن يذبن غراما فيك، لايرضيهن إلا أن يؤخذن عنوة . لكن المرأة هنا ، ياسلام ، تقبل المرأة فتقبلك ، تحضنها فتحضنك ، تأخذها فتأخذك. هذا هو الشغل المضبوط ، هذه هى المساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة..». وبعد تفاصيل كثيرة وتفاصيل وجدها درش : امرأة عاملة على الآلة الكاتبة ، سافر زوجها لعدة أيام ، فرض نفسه عليها فوافقت على أن تصحبه إلى بيتها . هو كان يبحث عن أوروبا – المرأة ، وهى كانت تبحث عن إفريقيا – الرجل ، لكن تجربة الجنس جاءت فاترة مرتبكة ، لم يستطع أن يرى شيئا بعد أن سادت الظلمة . « «وحتى بعد ان اطمأن الى أن الظلمة قد سادت الحجرة ، لم يفتح عينيه، كان لايريد أن يرى شيئا ، فهو لايرى إلا فراشه وامرأته ، ولايسمع إلا همساتها الرقيقة له ، وأصوات باعة الفول (الحراتى) حين ينادون عليه من بعيد فى شارع ابن خلدون (..) ، لقد كان طول الوقت مع «نوسة» زوجته ، بجسده وعقله ، وإلا لما استطاع أن يلعب دور الرجل ، بل دور الإفريقى .. » . ماذا إذن عن الطرف الآخر ؟ «فتحت عينيها واستدارت وهى لاتزال راقدة، وراحت تحدق فى صورة زوجها الموضوعة على

المنضدة القريبة من الفراش ، تحدق عن عمد فيها ، ومالبثت أن أخرجت يدها العارية من تحت الملاءة وتناولت الصورة وقربتها منها : - أتعلم أني كنت معه ؟ (..) لم أكن أعلم أنه رجلي الإفريقي الذي كنت أبحث عنه..». على هذا النحو ، إذن ، انقشع وهم «السيدة فيينا » و «السيد إفريقيا » معا ، ولايبقى الجنس تجربة معزولة عن سياقها الإنساني المتمثل في المشاعر والذكريات والاستقرار في ظل مؤسسة الزوجية ، أو فلنقل المعاشرة الطويلة المشتركة .

وامرأة الجراح الشهير قد عاشرته عشر سنوات ثم داهمها الملل «أبشع أنواع الملل : الملل من شيء لاتستطيع الاستغناء عنه ، كأنما تمل من نفسك ، عشر سنوات ملل ، لن تبالغ ، ساعات وأيام صحيح كانت خالية من الملل ، ولكن يوم ملل واحد يجعلك تمل من العالم كله ..» . دفعها الملل - كما يدفع مثيلاتها ممن يعشن مدللات « على ورق سوليفان » - لأن تبتسم للآخر الذي كان يطاردها ، ثم أن تستجيب لإلحاحه بأن يلتقيا ، وهي الآن عائدة من لقائه ، تمر على زوجها بالمستشفى كي تصحبه في رحلة العودة ، كان هذا مبررها للقاء الآخر . الجراح في غرفة العمليات لكنه سمح بأن تدخلها ، دخلت ورأت الجراح يعمل وحوله مساعدوه، فكأنه رجل لاتعرفه « هذه النظرة المحددة الثاقبة التي تنفذ في أعماق مساعديه ومن حوله من الرجال فتهتز أعماقهم (..) هذا الوجه الذي لم يستطع حتى القناع الشامل أن يخفي الشخصية

الطاغية التى تملكه ، هذه الملامح التى يسيطر عليها تماما ، المحددة متى وكيف تتحرك ، هذا « هو» لم تره أبدا ، هو آخر لايمت إليها ، «هو » مخيف ، مرعب ، ذكر ، رجل ، بمثل ما تحس به كرجل وهو فى قمة مزاولته للرجولة معها .. » . بعد أن انتهت العملية وخلع قناعه حفل وجهه بابتسامة لاحدود لسحرها . إن هالة الرجل وهو يعمل طردت هذا الآخر ، وجعلتها ترى تفاهته وعظمة هذا الذى كانت تفكر فى خيانته .

على هذا النحو ، إذن ، يدين يوسف العلاقات خارج المؤسسة الزوجية فى قصتيه هاتين . وفى الأخريات يرى تلك المؤسسة - التى لاتخلو الحياة فى ظلها من أسباب النكد (يصف بطل قصة «الورقة بعشرة» حياته الزوجية بأنها معركة مستمرة ، ويرى أنه عسكرى فى جيش وليس زوجا فى بيت ، إنه لاعمل له إلا الدفاع عن تنفسه ، والحرب أذابته وهدته وأتت عليه » . لكنه سرعان مايتبين أن هذه «سعادة الواقع وهو لايدرى ») - يراها الملاذ الآمن لممارسة العلاقة بين الجنسين .

***

لكن ما رأيناه فى «الرجل والنملة» من استخدام فج - يكاد يكون مجانيا - للجنس ، يتكرر فى قصتين أخريتين ، ليست مصادفة أن

تكونا فى مجموعته الأخيرة ، وأن تكون إحداهما آخر قصة قصيرة نشرها يوسف علي وجه اليقين . القصتان هما «العتب على النظر» ثم « أبو الرجال » (آخر قصة نشرت له فى صيف ١٩٨٧) الأولى نكتة أخرى لكنها فجة هذه المرة وخشنة : حمار ضعف بصره فأصبح بحاجة لنظارة ، والعلامة التى يجب أن يراها هى « فتحة » حمارة . وهكذا جيء بالحمارة ، وتمت ممارسة الفعل الجنسي كاملة . بعدها « عاث الحمار في أرض القرية بنظارته فسادا : فلم يترك أنثى على حالها ، بل، أحيانا كان يناوش حتى ذكور الحمير .. » ، وتمنى صاحب الحمار لنفسه نظارة مثل حماره . تلك هى القصة . يلفت النظر فيها امران : الأول أن يوسف - للمرة الأولى - صاغها كاملة بالعامية ، فكأنه يحكيها ويؤديها . الأمر الثانى أنه - للمرة الأولى أيضا - بلغ حدا من البذاءة والفجاجة غير مسبوق عنده . خذ سطورا قليلة يصف فيها الحمار وهو يتأهب للوثوب : « شيء خرافى عجيب يجعلك تؤمن أن الجسد حيوان ساعة اللزوم يظهر ، لاعقل له ولا فيه ولا أدب يعرف ، حيوان حمارى أسود غليظ بشفاتير زى مارد كان فى الجسم متخبى ، ثانية ادلدل من القمقم ، مارد طويل تخين يجعلك تتمنى تبقى حمار مثله .. » . أما حين وثب الحمار فالكاتب يصف وثبته بأنها « ظاهرة كونية » . « وعفاريت الجسد فى عز الضهر اتجننت ، ولا عاد حمارة من حمار ولا ذكر من

أنثى ، الحياة الحمارة بغشوميتها وغبائها أصبحت أرقى .. الخ » . سلسلة من الهلاوس الجنسية المتصلة ، يستخدم يوسف كل مهارته في النمنمة كي يضفى عليها التماسك والقيمة دون جدوى !

وقد سبق أن كتبت عن « أبو الرجال » إن بها لونا من «التدليس الفني » يجب أن يرفع كى تستقيم قراءتها ، أعني ذلك الجانب الذى يحاول فيه يوسف أن يضفى طابع الزعامة والقيادة - بالمدلول السياسي والاجتماعي والوطني - على البطل ، فهذا الجانب لايتسق أبدا وما أصبح عليه : من زعيم يعمل على انتصار مبادىء العدل والصدق والحقيقة والنظافة والتضحية ، إلى طاغية على الطريقة الريفية القديمة ، لايجد متعته إلا إذا أمعن فى إذلال الناس . هذا كله زائف مفتعل ، وهو التدليس الذى أشرت إليه . ولو أن القصة اقتصرت على رسم ملامح الطاغية الريفى القديم ، وتحولاته من الرجولة إلى الخنوثة إلى الأنوثة ، لما زادت عن أن تكون «دراسة حالة » بالمعنى الذى يعرفه المشتغلون بالتحليل النفسى . بعبارة واحدة : نقطة الضعف القاتلة فى هذه القصة هى هذا «الكولاج» غير المتسق بين هذين الوجهين للرجل : وجه الزعيم ذى الوعى الصحيح ، والتوجهات الصحيحة والمبادىء الفعالة لخدمة الناس وتحقيق العدل ، ووجه الطاغية الريفى ، زعيم

العصابة ، الذى يستمد قوته من ضعف الآخرين وتعمد إذلالهم ، ووجه الإذلال هو ذاته ماينزلق إليه .

من أسف أن تكون هذه القصة آخر مانشر يوسف إدريس !

★★★

اللقاء الجنسى في تلك الأعمال خارج إطار مؤسسة الزواج حدث إنسانى ، لكنه صادر عن قلب الطبيعة ، ملتحم بها ، شيء لايمكن لأحد أو قوة أن توقفه أو تحول دون اكتماله . في «أكبر الكبائر» يلتحم صوت الشيخ واهتزاز السطح «وتظل الأفرع تزيق وعيدان الحطب وقش الأرز توشوش وتتغامز ، وتسرى بينها الاشعاعات الصوتية والهمسات الآثمة ، نغمة واحدة تكاد تشمل الكون كله ، وعلى وقعها خفق ، و على وقعها استمر يخفق .. » وفى « دستور ياسيدة » : « لو اجتمعت الدنيا كلها لتوقف قوة الجذب الخارقة لوقفت عاجزة ، فما كان يحدث فى الواقع سر من أسرار الحياة ، وقوته من قوتها ، والحياة حين يصبح هدفها الأوحد من البقاء والوجود والاستمرار ان تتحد .. » . وفى «العملية الكبرى » فإن تقارب الطبيب والممرضة فى ظل الموت الوشيك «ليس جنونا أيضا أو فقدان سيطرة . الحقيقة ليس شيئا أبدا قابلا للإخضاع والمناقشة والتفسير ، والعجيب انه كان يحدث لهما معا وفى نفس اللحظة ، كالآلتين تعزفان نفس النغمة ، أو كأنهما أصبحا جسدا

واحدا وكائنا متكاملا .. » . أما في « أقتلها » وبسبب طبيعة المكان الذي يدور فيه الحدث ، حيث لاسبيل الى التعبير سوى نظرات العيون وتلامس الأيدي ، تقوم العيون والأيدي بعزف لحن اللقاء الجسدي كله : « عبر السور العظيم كانت قوة الجذب أعتى من كل القوى ، كأن حدثا كونيا قد أوقف كل شيء .. (..) أربع عيون كأنها قد تحولت إلى أطراف أربعة لكائن أرقى واحد (..) أربع عيون . كل ماسواها عدم (..) الأيدي المتشبثة بالخشب ترتعش ، وحين جنت مرة وتماسكت الأيدي ارتعشت هي والأرض والخشب والحديد : ووصلت الرعشة عنان السماء .. » حتى لقاء الحمار بأنثاه في «العتب على النظر» فإن الكاتب يصفه بأنه «الطبيعة بصراحة وبلا خجل وعيني عينك وتتكلم بأعلى صوت، تصرخ ، تجأر (..) لحظة الفيض (اقرأ : لحظة القذف) الأجساد ثائرة وفائرة تدفق رحيقها ، بكل بدائية تفجرات الشمس ومد القمر ووحشية الإعصار .. » .

في الأعمال التي كان الكاتب يضع فيها الجنس في سياقه الإنساني كان يكتسب دلالات أعمق ، أما الأعمال التي تقدم هذا الجنس فجا ومجانيا ، فانه يبقى خارج التجربة ، غير ملتحم بسياقها .

في الأعمال الأولى كان يوسف مهموما بالجنس ، وفي الأعمال الأخيرة يبدو مهووسا به .

(٣) عن الواقع وتحولاته : من واقع ماقبل ٥٢ إلي واقع مابعد ٦٧

وقد يمكن القول - دون تجاوز كبير - إأن يوسف إدريس قدم - فى مجمل إبداعه - تأريخه الفنى الخاص للواقع المصرى خلال العقود الأربعة التى مارس فيها الكتابة من أول الخمسينيات لنهاية الثمانينيات . أقول أنه تأريخ فنى من حيث طبيعة الرؤية وأدوات التعبير عنها ، فنحن نلاحظ أن قصصه كلها تكاد تخلو من أحداث «واقعية » محددة يتخذها نقاط انطلاق (هما قصتان على وجه التحديد : « ٥ ساعات » التى تتناول مصرع الضابط عبد القادر طه فى ١٩٥٢ . « وانتصار الهزيمة» التى يرثى فيها صديقه وزميله وصهره إسماعيل الحبروك فى ١٩٦١) ، لكنه يتمثل الواقع كله ، بصراعاته وتناقضاته والقوى المؤثرة فيه ، ثم يفرزه فى صياغته الفنية الخاصة ، وبمفردات لغة القصة القصيرة .

غير أن هناك مجموعة غير قليلة من قصصه تتناول جوانب محددة من هذا الواقع قبل ١٩٥٢ وبعدها ، خاصة ماحدث فى ٥٦، ثم ماحدث بعد ٦٧ ونتيجة لها . فى الأولى كان أكثر وضوحا ومباشرة ، بحكم

طبيعة الموضوعات التى يتناولها من جانب ، وطريقته فى القص فى تلك المرحلة من الجانب الأخر ، أما قصص مابعد ٦٧ فقد كانت أميل الى استخدام الرموز المخفية بحذق داخل العمل ، والصياغات المراوغة ، والكلمات المواربة ، والابتعاد - قدر الإمكان - عن وضوح القصد أو المباشرة ، كانت الرقابة قد فرضت على الصحف والكتب والمسرح ، وطبقت قوانينها بطريقة لاتخلو من التربص وسوء النية وسوء الفهم جميعا . وقد حدث أن اصطدم يوسف برقابة أكثر من جهة (خاصة : «أمانة الدعوة والفكر » بالاتحاد الاشتراكى ، إلى جانب أكثر من مركز من مراكز اتخاذ القرارات آنذاك) ، وله وقائع معروفة تتعلق ببعض قصصه (« الخدعة » و «حامل الكراسى » و « المرتبة المقعرة » و «العملية الكبرى») ثم بمسرحيته «المخططين» التى أوقفتها الرقابة بناء على رأى المسئولين فى الاتحاد الاشتراكى ووزارة الداخلية معا . بعد أن أجيز نصها ، لكنها منعت فى ليلة عرضها الأولى فى ٦٨ .

وفى مثل هذه القراءة ، لامفر من استخدام التتابع التاريخى ، فلنعرض ، إذن ، لقصص الواقع قبل ٥٢ .

★★★

وقد كانت السنوات القليلة التى سبقت ١٩٥٢ سنوات سخط شعبى عارم . كان النظام القديم يتحلل وقد دب فيه الوهن : الحزب العريق - الوفد - فقد مبررات قيادته للحركة الشعبية المتصاعدة ، مال إلى

التهادن والتهاون وغلبت على قيادته العناصر الرجعية وكبار ملاك الاراضى ، وبدا أن أهم مايشغله هو الوصول إلى الحكم والبقاء فيه ، منذ أقصى عنه فى ٤٤ حتى عاد إليه فى ٥٠ ، وانصرف الشباب عنه إلى تنظيمات إلى يمينه ويساره ، وأحزاب الأقلية سياط فى أيدى الملك والإنجليز ، تلهب ظهور الحركة الوطنية والاجتماعية ، والسراى يضرب فيها الفساد السياسى والأخلاقى ، والإنجليز - من وراء ذلك كله - يمسكون بخيوط الموقف ويتحكمون فيه ، والمظاهرات لاتنقطع ، ينظمها الطلبة والعمال ، وتشارك فيها بقية فئات الساخطين ، وإضرابات العمال تتسع وتتزايد ، والفلاحون فى بعض قرى الدلتا خرجوا يحاصرون قصور ملاك الأراضى ، فيطلق عليهم الرصاص ، ويسقط منهم القتلى ، واشتعلت فى البلاد كلها موجة من العنف والعنف المضاد .

عن هذا الإطار صدر عدد من قصص يوسف إدريس ، هو الذى كان غائصا - بحماسته المتقدة وطاقته الضخمة - فى صميم النضال الوطنى والاجتماعى ، طالبا فى كلية الطب ، ثم طبيبا لعمال السكك الحديدة : « ٥ ساعات » و« الهجانة » و« العسكرى الأسود » ، وفى إطار اشمل يمكن الإشارة الى « جمهورية فرحات» و« الغريب » .

ولم يكن ضباط الجيش - صغارهم بوجه خاص - بعيدين عن هذا الصراع ، بل كانوا فى صميمه ، وعرفت تلك الفترة ضباطا انتموا

لتنظيمات اليمين ، وآخرين لتنظيمات اليسار ، وأغلبية وطنية لم تنتم لأى من التنظيمات العلنية أو السرية ، لكنهم كانوا متململين لفساد الأوضاع داخل الجيش وفى البلاد كلها ، وأقلية تنتمى للسراى ، وتعمل فى خدمة صاحبها فيما عرف باسم «الحرس الحديدى» . ويتردد اسم عبد القادر طه كواحد من الوطنيين المتحمسين للعمل (يرد اسمه عند أحمد حمروش كواحد من المشاركين فى محاولة اغتيال إبراهيم عطا الله ، رئيس أركان الجيش فى ذلك الوقت - « قصة ثورة يوليو » ، ج (١) ، ص (١١٢) . ويبدو أنه مال الى الحرس الحديدى زمنا ، ثم خرج عليه ، ربما بتأثير من أفكار شقيقه : النقابى العمالى اليسارى البارز أحمد طه ، ومن ثم تقرر اغتياله ، استدرجه أحد زملائه إلى ظلام شارع الروضة حيث اطلقت على ظهره أربع رصاصات ، ونقل الضابط الجريح إلى مستشفى « قصر العينى » القريب ، وكان طبيب الاستقبال فى تلك الليلة من يناير ٥٢ هو يوسف إدريس ، وكانت ثمرة هذا اللقاء قصة « ٥ ساعات » .

فى هذه القصة الرائعة يلتقى وجها الطبيب المناضل ضد الموت، والوطنى المناضل ضد القهر والظلم ، إن هذا أول تقديم للضابط الذى أطلقت عليه النار : « واسترعتنى ملامحه ، كانت فيها مصرية ، مصرية من ذلك النوع الذى يوقظ فيك مصريتك ، ويجعلك تعشقها من جديد ..

وفى الكلمات القليلة التى استطاع أن يقولها قبل أن يصمت وجه الاتهام الصريح لقاتليه : «المجرمين.. ورئيسهم .. العصابة .. كلهم أولاد الكلب .. ثم توقف لحظة وحدق بعينيه السوادوين الواسعتين ، وكأنه يخترق سقف الغرفة إلى ماوراء ها من سماء : كده يافاروق تقتلنى ؟ ، وتلقف الواقفون كلماته ، وسرت الهمهمة من داخل الحجرة إلى الخارج ، إلى الشارع ، إلى البلد كله ، الى التاريخ . وأحسست بنفسى أنفعل وكأن نارا قد شبت فىَّ . كنا أيامها تحت حكم فاروق ، وكانت هناك أحكام عرفية ، وكان الظلام والسخط يخيم على مصر ويعشش فى قلوب الناس » . ثم بدأت فرقة الحياة – من أطباء ومساعدين – تخوض معركتها لرد الموت الذى يقترب من الضابط الجريح ، بدأ النزيف ، وبذلوا كل مافى وسعهم لإيقافه دون جدوى، ثم جاء ت الغيبوبة : « حاربنا عدوا قويا لانراه . كنا نكز على أسناننا ونبذل طاقاتنا كلها .. لكن الحقيقة كانت تلاحقنا ، وكنا نراوغها ، ونسابق بعضنا بعضا فى المراوغة والهرب ، ونسرع فى اعتصار أنفسنا وضم قوانا ، ويزداد إيماننا بخداع الحقيقة ، وجاء نا من الركن نحيب المرضة المكتوم .. » . خاض فريق الحياة المعركة ببسالة ، صحيح أنه هزم ، لكن النهاية تأتى مفعمة بالأمل والتطلع إلى الحياة : « وحين واريناه تحت الغطاء كان الشك فى موته لازال يملأ منا النفوس .. » . ولم تكد تنقضى بضعة

شهور حتى سقط « فاروق وعصابته » ، وأصبح عبد القادر طه أحد شهداء النضال المصرى قبل ٥٢ ، واحتفل به ضباط يوليو احتفالا كبيرا ، وفى مجلة «التحرير» – أولى المجلات التى أصدرها النظام الجديد – نشر يوسف إدريس « ٥ ساعات » (أول اكتوبر ١٩٥٢).

وعن فترة سابقة على هذه الفترة كتب يوسف قصته الطويلة «العسكرى الأسود» ، هى فترة حكم «السعديين» فيما بين ٤٥ – ٤٩ (فى وزارات ثلاث متعاقبة رأسها أحمد ماهر والنقراشى وإبراهيم عبد الهادى على التوالى) ، وفى وزارتهم الأخيرة ، وبعد أن اغتال «الاخوان المسلمون» النقراشى ، رئيس الوزراء والحزب معا ، جاء خلفه إبراهيم عبد الهادى فنكل بالإخوان تنكيلا شديدا، فتح لهم أبواب السجون والمعتقلات على كل مصاريعها ، ومورست فى تلك السجون كل ألوان التعذيب والبطش وبكل الأدوات (يكتب طارق البشرى ، أبرز مؤرخى تلك الفترة : « وعرف الناس كيف كان رئيس الوزراء إبراهيم عبد الهادى يقابل المتهمين ، ويستوثق بنفسه من أن البوليس قام «بتوضيبهم» قبل أن يستجوبهم هو ، وكيف كان ينزل الى دوائر البوليس ويأمر بتعذيب المتهمين وضربهم وإهانتهم حتى تسيل الدماء منهم وتشوه أطرافهم ، – « الحركة السياسية فى مصر ، ٤٥ – ٥٢ » ، ص ٢٩٤) .

تلك صياغة المؤرخ ، وهذه صياغة يوسف لتلك الفترة من حياة جيله ، أنقلها لانها تكاد تكون متفردة فى تصويرها ذلك الجيل الذى عرف فى تاريخنا الحديث بجيل ٤٦ : « تلك الفترة كانت أول ضربة جدية تلقاها جيلنا ، خرجنا من الحرب لنجد جيوش الاحتلال ترتع فى أرضنا .. (..) ثرنا مطالبين بالجلاء الكامل والكفاح المسلح ، هذه المرة ضربونا ، جاءوا بدولة الباشا وضربنا علقة كوبرى عباس ، وحاول أن يضرب أكثر فقتل ، جاءوا بدولة باشا آخر ليكمل العلقة ، وأكملها ، فتح السجون على آخرها ، سلط الإرهاب بكل اشكاله ، كمم الأفواه ، أخمد الأصوات ، أطلق العملاء (..) وتشتت شمل الجيل ، دخل السجن بعضه ، والبعض اختفى وهرب ، فى الارياف والمدن البعيدة ، وأحيانا داخل نفسه (..) فى تلك الأثناء شاعت قصص التعذيب ، وطار صيت العسكرى الأسود مما يفعله بالمساجين المعتقلين ، وأصبح رمزا لكل ماينال جيلنا من ضربات ، وأصبح هو مبعث رعب الجيل ..» .

ثم كان أن سقط الباشا ودولة الباشا ، ومرت سنوات وسنوات، وقدر للدكتور شوقى ، طبيب المحافظة وأحد ضحايا العسكرى الاسود ، أن يكون هو ، دون سواه ، من يقوم بتوقيع الكشف الطبى عليه تمهيدا لفصله من الخدمة بعد أن أصبح على ماهو عليه ، وصحبه صديقه الطبيب الراوى . من كلمات ممرض المكتب، وامرأة عباس الزنفلى أو

العسكرى الأسود ، رسم لنا تاريخ حياة عسكرى صعيدى غامق السمرة ، فارع القامة ، قوى قوة خارقة ، رآه رئيس الوزراء فأعجب به وضمه إلى حرسه ، ثم قدمه هدية للبوليس السياسى . » وكان عباس نعم الهدية ، فمن بين جميع الذين كان يعهد اليهم بضرب السياسيين ، كان هو أكثرهم توحشا، متفانيا ، لا فى تنفيذ الأوامر فقط ، وإنما فى اختراع وسائل أقسى وأنجع للتعذيب .. (..) وحين يضرب كان من يراه لايظن أبدا انه يمت الى الإنسان أو الحيوان بصلة ، بل ولا حتى الآلة، فالآلة لاتبدو على وجهها المتعة والوحشية وهى تضرب.. (..) والأبشع هو مرآه ، مرأى الزنفلى عباس ، العسكرى الصعيدى الأسود ، وهو يضرب ، ومنظره وهو يستمتع بتخريب كائن حى وإنسان ، والمضروب يتحول أمامه إلى كتلة اللحم المذعورة التى تصرخ فى فزع أعمى ، فلا يفعل مشهدها أكثر من أن يغريه بالضرب أكثر ، والتمتع بلذة الهدم أكثر ، فيمضى يضرب ويضرب سعيا وراء الفرحة الكبرى ، كمن هدم جزءا من بناء ، ويسعى ، بمتعة ووحشية ، كى يأتى عليه تماما .. » . وعرف عباس الصعود السريع والسلطة الآمرة والمال الوفير . وحين انتهى هذا كله وسقط الباشا وذاعت حكايات التعذيب . أبعد عباس عن مكانه ، فأدمن الأفيون ، وراح ينسحب من العالم حتى أصبح لايبرح فراشه .. « كان عباس يبدو كمن جن ، يصحو صارخا مرعوبا إذا نام ، وإذا انفرد بنفسه تجده فجأة قد انهال عليها ، على

نفسه ، شتائم وسباباً ، بل رأته مرة ينهى شتائمه لنفسه بصفعة من يده يهوى بها على وجهه» . وها هو الآن ينبح مثل الكلاب ، ويعوى مثل الذئاب ، وينهش يد امرأته حتى يدميها ، ثم ينشب أسنانه فى ذراعه ، هو ، حتى ينتزع منه قطعة لحم مدماة !

هذا هو ما أصبح عليه الجلاد ، فكيف أصبح الضحية ؟ كان شوقى أحد زعماء الطلبة فى كلية الطب (واضح من السياق العام للقصة ، ومن تفاصيل صغيرة هنا وهناك ، أنه كان من «الإخوان المسلمين») ، «لكنه أبداً لم يكن ذلك المهووس الأحمق الذى لا يفلح معه تفاهم أو نقاش ، كان دائما على استعداد لمناقشة أكثر الآراء بعداً عن رأيه ، يرحب بالجدل بابتسامة واثقة ولا يثور ، وكثيراً ما كنت أتحسر ، وأعتبر أن عيبه الأكبر أنه فى المعسكر الآخر .. (..) ، كان شوقى يتمتع بطاقة إرادة هائلة ، وكأنه ولد وهو يعرف بالضبط ما يريد ، ومتأكد أنه واصل إليه لا محالة ..» . وبعد «ذلك الحادث السياسى الذى هز البلاد كلها (يعنى الكاتب إغتيال الإخوان المسلمين للنقراشى فى ديسمبر ٤٨ ، بعد أن قرر حل الجماعة وملاحقة عناصرها النشطة) قبض على شوقى ، ودخل السجن ، وهناك لقى ما بقى من «العسكرى الأسود» بوجه خاص ، وخرج شوقى من سجنه ، وبدأ حياته العملية وقد أصبح كائناً مختلفاً كل الاختلاف ، وعبثاً حاول صديقه ، الطبيب الراوى ، أن يبحث عن

شوقي القديم ، وأن يستعيده ، حتى أيقن أنه قد أصبح شخصاً آخر : يكذب ويدلس ويبتز المرضى وتمتد يده إلى سرقة زملائه إن استطاع «أنظر إلى شوقي وأدقق فيه وفي شخصيته فأحس كأنه مجروح .. (..) جرحاً شاملاً من قمة رأسه إلى أظافر أقدام شخصيته ، وأن ما أمامي ليس شوقي ، ولكنه الندبة الضخمة التي تخلفت عن الجرح..» . ويقف القاص الموهوب طويلاً ليحلل نفسية شوقي وما أصبح عليه ، لكن معرفته به لم تكتمل تماماً إلا حين حدثت تلك المواجهة البشعة بين الجلاد والضحية ، وقد أصبح الجلاد نفاية إنسان ، وأصبح الضحية يحيا ، من خوف أن يتكرر الهول ، وحيداً ، يحيط ذاته المغلقة بالأسوار ، يحيا وسط الناس وهو خائف منهم ، لكن عليه ألا يبدى لهم خوفه ، وإلا انقضوا عليه والتهموه حياً . كائن معقد بالغ التعقيد . في تلك الغرفة المعتمة التي يعيش فيها حطام عباس حدثت المواجهة . في تلك المواجهة، فقط ، بعث شوقي القديم إلى الحياة ، واجه جلاده ، وصرخ في وجهه ، وفي ثانية واحدة كشف عن ظهره .. «ولم يكن في ظهره مكان واحد له شكل الجلد ومظهره ، كان جلده كله ندوباً بشعة ، تمتد بالطول والعرض ، وتتجمع في هضاب مندملة ، وتكشف عن مناطق غائرة .. (..) لكأن ذئباً مجنونا أو غولا قد أعمل أنيابه وأظافره في ظهر شوقي نهشاً وتقطيعاً وفتكا..» . ها هو الضحية يصرخ ، وجلاده

يعوى ، ثم يؤوب كل شيء إلى هدوء ، ويغادر شوقى المكان دون أن يكتب تقريره يقول لنا الطبيب الراوى إن تلك الومضة التى بعثت شوقى القديم لم تكن غير صحوة الموت ، و«أن ما حدث له من تغيير ، والكائن الجديد الغريب الذى أصبحه لا يمكن الرجوع منه .. (..) إن شوقى ، وقد فقد أمنه البشرى ، لن يعود أبدا ، مثلنا ، بشرا مرة أخرى ..» .

فى هذه القصة الطويلة الرائعة – ذات النسيج الروائى الخالص – يقدم يوسف إدريس إدانته للبطش والإرهاب والتعذيب فى السجون والمعتقلات ، يقدمها فى وقت كانت فيه هذه القضية مثارة – فى دائرة محدودة مغلقة – حين نشر قصته . نشر يوسف قصته فى ٦١ (مجلة «الكاتب» يونيو ٦١) ، وكانت حوادث تعذيب الشيوعيين المعتقلين فى سجون عبد الناصر قد بدأت تشيع وتعرف ، خاصة بعد أن قتل شهدى عطية الشافعى قبل عام كامل من نشر يوسف لقصته (١٥/٦/٦٠) ، فجاءت قصة يوسف إدانة شجاعة لتلك الممارسات ، ودعوة لإيقافها ، وتحذيرا حارا بأن التعذيب لا يدمر الضحايا وحدهم ، بل يدمر جلاديهم قبلهم ومعهم !

بعبارة أخرى : إن «العسكرى الأسود» ، وإن كانت تصف شيئاً من صورة الواقع المصرى قبل ٥٢ ، إلا أنها تبدى الرأى فى صميم ما كان

يحدث نهاية الخمسينيات وأول الستينيات ، كانت ابتعادا من أجل الاقتراب ، وكانت – من الناحية الأخرى – إعلانا عن تعاطف يوسف مع عذاب رفاقه القدامى .

★★★

وفى واقع ما قبل ٥٢ ، كانت تتعدد أساليب القهر ووسائله ، وكان من بينها «الهجانة» : أولئك الجنود السود راكبو الجمال ، الذين لا يعرفون وسيلة للتفاهم سوى الضرب بالسياط واستخدام السلاح ، وكانوا يرسلون إلى القرى المتمردة أو العاصية أو التى تحدث فيها أحداث تهدد أمن السادة من كبار الملاك ، وهذا ما حدث فى تلك القرية : جاءوا إليها ، وأعلنوا حظر الخروج من البيوت بعد غروب الشمس ، دام هذا الحظر أياماً ، ومن يخالفه كانت الكرابيج ، المسقية أطرافها بالزيت ، تنهال عليه حتى تشوى جسده .. «وكانت البلدة حين يسلمها يوم كئيب إلى آخر أشد منه كآبة يزداد شعورها بأنها كانت فى نعمة وزالت ، وأن الخراب قد حل ، ويكاد صاحب القهوة يخبط رأسه فى الحائط على رزقه المقطوع ، وتجار الكيف معه ساخطون (..) والدكاكين وقفت حالها ، والعاملون بالبندر لا يجدون الخبز ، ولا صلاة ولا عبادة أو سهر ، وإنما ضرب وإهانة ومسخرة .. (..) والناس فى صبرهم كالجمال ، تشهد وتسمع وتقاسى حتى تحين اللحظة ، وقد حانت» ، فقد

حدث أنهم ضربوا «مرسى أبو اسماعين» ، وكان مرسى «ولداً ولا كل الأولاد ، كان ابن ليل ، قتل وسرق ونهب ، وفى صدره العريض الراسخ ترقد قصص تشيب لهولها البلدان ، ومع هذا ففى البلد كان يعيش فى حاله ، وأدبه فى معاملة الناس مضرب الأمثال ، كان يعود المريض ويعزى فى الميت ويساعد الضعيف وينتقم للمظلوم ويقف لكل صغير وكبير ، وكانت البلدة تفخر به إذا جاء مجال الفخر بين أبناء البلاد..» . رتب مرسى لسرقة سلاح الهجانة من غرفتهم فى الدوار وهم نيام ، وحققت القرية انتقامها ، وسعد أهلها حين رأوا رجال الهجانة الثلاثة وهم يجرون هنا وهناك هالعين «وما كانوا يرتدون بدلهم أو أحذيتهم الثقيلة ، وليس فى أيديهم كرابيج ، وإنما حفاة عراة وقد نكشت شعورهم السوداء الغامقة .. (..) وانتهى اليوم وقد سيق الهجانة محروسين ..» ، وتخلصت القرية من هم ثقيل .. «أوقد الناس المصابيح ورأوا النور فى الليل .. وأذن المغرب والعشاء وامتلأ الجامع بالمصلين ، وانطلقت الضحكات لأتفه الأسباب ، وبلا أسباب ، ولعب الطلبة والتلاميذ الكرة فى ضوء القمر ، وانتشرت مواكب الصغار تطوف القرية مهللة فرحانة ..» .

وثمة «ابن ليل» آخر سبق لنا أن عرفناه هو «الغريب أبو محمد» ، أولع به الراوى – وهو فتى مراهق – وقدر له أن يلقاه ، وأن يبقى

بصحبته أياماً ، يقضى له حاجاته الصغيرة التى تمكنه من الاختفاء الكامل عن المأمور ورجاله الذين يجدون فى البحث عنه بعد أن هرب من سجنه «فى عز الظهر» بل قدر له كذلك أن يصحبه فى إحدى «عملياته» ليقتل صاحبا له وشى به ، وفى ليلة أنس إليه الفتى فسأله : لماذا أصبح على ما هو عليه ، قتال قتلى ، ولماذا لا يعيش كبقية خلق الله؟ أجاب الغريب : «كنت زارع عند واحد أكلنى ، طالبته مرة واتنين وتلاتة . وسقت عليه الناس .. مارضيش . قالوا لى بلغ فيه ، بلغت ، حطونى أنا فى المركز وضربونى ، وأنا فى السجن صممت إنى أقتله ، ويوم ما طلعت تمام ، بعت العجلة واشتريت بندقية وطخيته قدام باب بيته ، حققم معايا وانحبست إنما ما ثبتتش عليا ، أهله راحوا أجروا واحد يقتلنى وياخذ بتاره . أستناه لما يقتلنى ؟ قتلته قبل ما يقتلنى ، وعليها ياسى عبد الرحمن ...» .

هكذا ، إذن ، يبدأ الأمر : تمردا على الظلم والقهر ومحاولة لرده واستخلاص الحق المغتصب ، ثم تبدأ دائرة الذعر والقتل تدور محكمة الحلقات : يصيبه الذعر من القتل فيقتل ، وكلما قتل زاد ذعره ، ولا نهاية لتلك الدائرة الملعونة إلا بكسرها ، وهذا معنى ما كان يقوله الغريب لفتاه ، إنه فى كل مرة قتل فيها كان «يا قاتل يا مقتول» . كان «أبناء الليل» أولئك ظاهرة فى ريف ما قبل ٥٢ : أفراد متمردون ،

يثورون على القهر والظلم فيندفعون إلى حمل السلاح ، ويخرجون على الجماعة ، مواجهين لها . كان بعضهم يعمل فى خدمة كبار ملاك الأرض ، لكن كثرتهم كانت تحاول أن تساعد الضعيف وتنتقم للمظلوم ، وتقيم بعض العدالة فى واقع يفتقد العدالة . كانوا ظاهرة طبيعية فى مثل هذا الواقع الذى يسوده الظلم والقهر وافتقاد العدالة وبطش القوى بالضعيف «هؤلاء الهاربون من أبوة النهار الواضحة إلى أبوة الليل الخفية .. (..) من يراهم ويرى ألفتهم مع الليل وترويضهم لوحوشه يخيل إليه أنه من المستحيل أن ينتهى أمرهم حتى لو ملأ العمران كل الأرض .. (..) وسيظل الليل يخلقهم ما وجد هناك ليل وماظل الماء يخلق السمك والصحراء تخلق الرعاة والغربة تخلق الحنين . منذ الأزل كان هناك الغرباء وسيظلون ، ومنذ الأزل وأشد العقاب ينزل بهم ويهلكهم ، ورغم العقاب يعودون يوجدون» .

فى «الغـــريب» قدم يوسف تحليلا نفاذا لسيكولوجية قاتل ، ووصفا رائعا لحياة «ابن الليل» ، ومعرفة جيدة وشاملة بالريف وأهله قبل ٥٢ .

★★★

وفى هذا السياق ذاته يحلم «الصول فرحات» ويقيم «جمهوريته» . و«جمهورية فرحات» – وراء كل التفاصيل التى يبرع الكاتب فى نسجها حول قسم البوليس وما يحدث فيه – هى جمهورية يتخلص فيها الناس

من الآفات الرازحة فوقهم في واقع ما قبل ٥٢ ، وتحقق لهم ما يتوقون لتحقيقه : الاستقلال أولا .. «الراجل كان طهقان قوى من مراكب الخواجات ، وفى ظرف سنة ربنا ادى له واتسع قوى وحبة بحبة راح شاريلك مراكب اسكندرية كلها ، وما أصبحش فيه مركب انجليزى، طليانى تلتانى ، كله رفع العلم الأخضر..» . وبعد الاستقلال يأتى التصنيع ، أساس الاستقلال الاقتصادى .. «راح شارى بالإيراد بتاع المراكب مصنع نسيج كبير قوى ، وشغل فيه ييجى نص مليون عامل ، بعد شهر واحد مصنع النسيج عمل مصنع قزاز ، والقزاز عمل مطاحن ومضارب رز ، وبعد كده اشى محالج واشى سكر واشى جاز واشى ورق واشى مكن واشى صلب ..» ، لكن التصنيع لا يلهى عينى الصول فرحات وهو يحلم بجمهوريته ، ولا يجعله ينسى الزراعة .. «حالاً ، مكن من ألمانيا جه ، والمهندسين والعمال اشتغلت ، وراحوا زارعين لك الصحرا كلها ، شوف بقى الرملة دى كلها لما تنزرع ؟» ، ولما كانت الأمية سبباً من أهم أسباب التخلف ، فقد وجدت مكانها فى الجمهورية . فبعد أن ينهى الفلاحون أعمالهم «يرجعوا لبيوتهم يقيلوا ، وبعدين ، العصر طابور على المدرسة ، يقروا ويكتبوا ، ويعرفوا اللى لهم من اللى عليهم ..» .

لكن شرط قيام هذا كله هو رفع الظلم وتحقيق العدالة والقضاء على الاستغلال .. «كان ما ياخدش من عرق العامل حاجة ، اشتغل بخمسة

ياخد خمسة ، اشتغل بعشرة يأخذ عشرة (..) انت راخر العامل أصبح حاجـة تانية» . تـلك هي الجمهورية التي يحلم فرحات بأن تقوم على أرض الواقـع : الاستقلال والصناعة والتنمية والتعليم . وأساس هذا كله : رفع الظلم وتحقيق المساواة .

ذلك ما كان يحلم به فرحات ، وصاحبه يوسف إدريس حين نشر قصته هذه في أوائل ٥٤ . وتلك كانت صورة الواقع في مدن مصر وريفها قبل ١٩٥٢ ، ثم حدث ما حدث في يوليو ، وحقق الضباط كثيرا من أحلام جيل ٤٦ . ثم جاء ت أحداث ٥٦ لتصبح المحطة التالية التي يتوقف عندها يوسف إدريس .

★★★

من الثابت أن يوسف كان على علاقة وثيقة بإحدى المنظمات الماركسية النشطة هي «الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني» – «حدتو» ، وأنه كان عضوا بارزا في «مكتب الكتاب والفنانين» لتلك المنظمة . وليس يعنينا هنا مدى انتمائه «التنظيمي» ، وهل كان عضوا عاملا في «حدتو» أو لم يكن ، المهم أنه حين حدث صدام بين التنظيمات الماركسية والنظام الجديد ، وبدأت اعتقالات أعضاء تلك التنظيمات في مارس٥٤ ، بقي يوسف حرا عدة شهور ، ثم جاء دوره في أغسطس من ذات السنة ، ليقضي بالمعتقل أكثر من سنة ، ثم أفرج عنه في

سبتمبر ٥٥ مع عدد من أعضاء «حدتو» ، وقد تصور أحد ضباط يوليو - صلاح سالم - إمكان الإفادة منهم فى تسوية بعض مشاكل النظام مع السودان أنذاك .

المهم هنا أن تلك التجربة يبدو أنها آلمت يوسف كثيرا . هو : الملتف حول ذاته ، عاشق الحياة النهم ، المقبل على متعها ولذائذها ، وقد جاءت تلك الخبرة المؤلمة بعد أن أصاب قدرا غير قليل من التحقق ، ولقيت مجموعته الأولى - وقد صدرت فى ذات الشهر الذى اعتقل فيه - حفاوة واهتماماً . وقرر يوسف شيئاً قاله لأصدقائه ، ولمن كان يلقاهم فى تلك الشهور الأخيرة من ٥٥ ، إنه لن يعود إلى السجن أبداً «مهما كان الثمن الذى يجب أن يدفعه» ، وقال كذلك إن الصراع بينه وبين نفسه سيكون أهون مما يمكن أن يلقاه لو عاد إليه . ومن ثم انضوى يوسف تحت جناح النظام المنتصر ، وصعد - بسرعة وجدارة - مع صعوده ، انطلق الجواد المتدفق بالخصوبة والإبداع إلى الحلبة من جديد .

(تشير بيلوجرافيا قصصه المنشورة فى الصحف والمجلات ، كما أوردها الباحث الهولندى «كربر شويك» فى نهاية دراسته «الإبداع القصصى عند يوسف إدريس» - ترجمة رفعت سلام ، القاهرة ، ٨٧ - ، إلى توقف ضرورى عن النشر فيما بين مايو ٥٤ وفبراير ٥٦ ،

ثم تدفق للنشر بعدها ، خاصة في صحيفة «الجمهورية» ، التى أسسها النظام ، ورأسها بعض رجاله ، وكانت تعبيراً مباشراً عنه . أضف لذلك أن مجموعته الثانية «جمهورية فرحات» صدرت في أول ٥٦) .

وما أسرع ما جاءت أحداث ٥٦ بعد رفض أمريكا تمويل السد العالى ، وتأميم القنال ، على نحو ما هو معروف . وأياً ما كان الضوء الذى تبدو فيه أحداث ٥٦ اليوم ، فلا شك في أن جماهير المصريين قد أحست بأن بلادها مهددة بالغزو من جديد ، ولم تكد تنقضى شهور قليلة على رحيل آخر جندى بريطانى عنها ، وأنها تواجه ، هذه المرة ، لا عدواً واحداً ، بل ثلاث دول التقت أهدافها على تدمير مصر والإطاحة بالنظام الجديد فيها . وبادر الآلاف إلى التطوع لأعمال المقاومة والحراسة ، ووزعت السلطة السلاح على جماهير الناس ، لأول وآخر مرة ، ودعمت المقاومة المسلحة داخل بورسعيد المحتلة المحاصرة . وتأججت مصر كلها بالغضب والاستعداد للمعركة ومواجهة التحدى ، وتدافعت الأحداث إلى ذروتها حتى أرغمت قوات العدوان على الرحيل ، وخرجت مصر «منتصرة» ، وخرج عبد الناصر زعيماً عالمياً ملء السمع والبصر .

عن أحداث ٥٦ ، ومن وحيها ، كتب يوسف «المستحيل» «هـ . هى لعبة ؟» و«صح» و«البطل» ، ثم أروعها جميعاً «الجرح» ، ومن أصداء ما

أثارته فى نفسه كتب قصته الطويلة «سره الباتع» (حملت أولاً عنوان «قبر السلطان») . وقد نشرت هذه القصص كلها فيما بين أكتوبر ٥٦ ومارس ٥٨ ، ومن أحداثها أيضاً أستوحى يوسف مادة مسرحيته الطويلة الأولى «اللحظة الحرجة» فى ٥٨ .

★★★

اختار يوسف أن يقف بعدسته أمام أفراد قلائل من جماهير المصريين المتأججة آنذاك بالحماسة والغضب فى محاولة صد العدوان : هذا صبى يلعب مع رفاقه «لعبة الكنال» ، وهو يصفها لنا بكلماته المتعثرة : «قسمنا نفسينا .. احنا الجيش المصرى ، وهم أسطول الإنجليز ، وحطينا خط كدة وقلنا ده الكنال .. (..) والجيش المصرى يقف هنا ، وأسطول الإنجليز ييجى من هنا ، وإذا عدوا الخط يبقى اتغلبنا ، وياخدوا الكنال ..» . لكن الصبى حين هزم رفيقاه وكان عليه أن يسلم ، رفض ، وتحولت اللعبة لجد ، وتضارب الصبية .. والصبى يرفض أن يترك لهم «الكنال» وعذره واضح : «يأخذوه إزاى . هـ . هى لعبة؟» . هذه الحادثة الصغيرة يجملها يوسف بتفاصيل معرفته الحميمة بحياة هؤلاء الصغار من العمال والموظفين ، وحسه الرائق بالفكاهة .
هذا «الأسطى شعبان» السائق يصحب ابنه الذى رفض أن يسلم ، فضربه رفيقه حتى أسال دمه ، إلى «إبراهيم أفندى» والد هذا الرفيق

يشكوه له . وهذا مشهد واحد : «وهكذا ضاع زمام الموقف واختلطت الأصوات .. صوت الأسطى شعبان تخين وتصاحبه حشرجة كحشرجة الكلاكس حين يعلق ، وصوت إبراهيم أفندى رفيع أخنف كأنما يصدر عن طاقة واحدة من طاقتى أنفه ، وصوت أم نعيمة حيانى نواعمي طويل كحبال الكتان ، وصوت الجدة أم ابراهيم كصوت ابنها تماماً كأنها جد . وكلمات شعبان فيها احتجاج صارخ ، وكلمات إبراهيم فيه دعوة للسلام والمحبة .. ومايصحش يعملها الصغار ويقع فيها الكبار .. الخ» .

وصبى آخر ، فقير مهزول رث الثياب ، «والغريب أنه لم يكن حزيناً ولا مبتئساً أو خانقاً ، كان فى الحقيقة يبدو منتعشاً متفتحاً طروبا» . كان يسير فى شوارع الحى الأرستقراطى الذى لا يمت إليه أبداً . ثم عثرت قدمه بقطعة حجر أبيض تبين أنه يمكنه أن يكتب بها ما يشاء على الجدران النظيفة الملساء ، كتب اسمه «محمد» ، ثم استدار إلى الخلف بسرعة ، «ونظر إلى الميمين من بعيد .. ومن جديد انكب على السور ورسم خطا رأسيا بجوار «الميمين .. والتصق بالسور أكثر . وظل مدة طويلة يعمل وعرقه يسيل ويده الصغيرة العصبية قد تشنجت أصابعها كالكماشة على الحجر ، ولما انتهى كان قد كتب : «أممنا الشعب الكنال» ، وظل يعود إليها ، يصلح من شأنها حتى رضي أخيرا

عنها ، «وحين انتهى ، فرك يده بشدة كمن أتعبته الكتابة . وتراجع إلى الوراء ونظر إلى الجملة الأخيرة مليا ، ثم علت وجهه ابتسامة رضا فعض شفته السفلى ، وأخرج من فمه نقيقاً ، ثم عاد إلى الحائط ، ورسم علامة «صح» أسفل الجملة الثالثة ، وجعل للعلامة ذيلا مرحا طويلا علامة الرضاء الكامل ..» .

وهذا «عم محمد» فى طريقه لمستشفى الأمراض العقلية ، مرورا بمكتب طبيب الصحة (واحدة من عدد من القصص الجميلة التى استوحاها يوسف من عمله طبيبا للصحة فى أحياء مختلفة من القاهرة) ، والعم محمد – شأنهم جميعا – يواصل حديثا لا يعلم سوى الله متى بدأ ، وحديثه كله يدورحول «العمارات» التى يملكها ، والتى يتآمر الناس جميعا لانتزاعها منه ، والطبيب يتعاطف تعاطفاً واضحاً مع مريضه ، هو «لم يكن أكثر ولا أقل من مجرد مجنون فقير آخر (..) وإذا كان الفقر فى حد ذاته يهد كرامة الإنسان وآدميته ، فما بالك إذا جن الفقير ؟ ..» ، كانت حالة الرجل واضحة ، وتهيأ الطبيب لكتابة «الاستمارة» التى يصبح من حقه بمقتضاها أن يستلقى على سرير المستشفى الكالح ، «وفى العادة كنت إذا وصلت إلى هذا الحد ، وتأكدت من المرض ، تنتابنى موجة من اليأس . فأهاود المريض على عقله وأمزح معه ، وأحدثه بأى كلام قد يخطر لى على بال» ، هكذا سأله

الطبيب أن يبيع تلك العمارات ويتخلص من همها ، وافق الرجل على أن يبيع ، قال له الطبيب : «أقول لك يا شيخ .. بيعهم للإنجليز واخلص .. - وأنا أصلى أبيع . لا . الإنجليز لا ، من رابع المستحيل .. وفوجئت بزوجته تسأله وأنا أستغرب : ليه ؟ اشمعنى الإنجليز لا ؟ وعاد الشريط يدور : لا لا .. كده .. الله الله على الجد ، أبيع لربنا حتى (..) والانجليز لا ..» . حتى فى قاع احتراق العقل لا يستطيع المجنون الفقير أن ينسى عداءه وعداء بلاده للإنجليز !

طيب . إذا كان هذا شأن الصبية والمجانين ، فما شأن الراشدين العقلاء ؟ الجواب نجده فى قصتى «البطل» و«الجرح» .

فى الأولى يتابع يوسف فكرته عن البطولة . وانبثاق البطل وخروجه من قلب الجمع إلى التميز ، ويحاول تحديد ملامحه (استمرارا لروايته الأولى «قصة حب» ، ومسرحيته الأولى الطويلة كذلك «اللحظة الحرجة») . وهذا «البطل» إنسان من غمار الناس ، لا يتميز دونهم بشىء ظاهر يجعله مرشحاً لهذا الدور ، لكن فيه - بالتأكيد - شيئاً خاصاً به ، وربما كان عمق انتمائه للجماعة ، وإحساسه الفطرى بضرورة الدفاع عنها إن تهددها الخطر . وهذا الكاتب يقول عن «أحمد عمر» أو «البطل» هنا : «هناك أناس يفتقدهم المرء ، يفتقد القيم ، فالشرف فى ذهن الواحد منا مرتبط بإنسان . والإخلاص بإنسان

آخر ، والحنان والمحبة بثالث ، وأحمد عمر هذا كان يرتبط في ذهني ، – ولست أدرى لماذا – بشيء يمس من قريب أو بعيد روح شعبنا ، الشعب الضخم الخجول الذى لا يسعده شيء مثلما يسعده أن يسخر من نفسه وأخطائه ..» ، وأحمد كان جندياً عسكرت كتيبته تحمى القاهرة من شرقها فى «مصر الجديدة» التى أنهالت عليها قذائف الطائرات . واستطاع أن يسقط – بمدفعه الرشاش – طائرة فرنسية ، لكنه ما يزال غير مصدق أنه فعل ، ولم يجد أحداً يبلغه النبأ سوى الراوى : «إنت عارف ادونى ساعة أجازة بعد الحكاية دى .. ، أنا ما اعرفش نمرة إلا نمرة حضرتك ، قلت أكلم حضرتك .. دى حاجة هايلة قوى .. مش كدة ؟ تصور ! طيارة تقع .. أنا أوقعها .. أنا مش مصدق ، بيتهيألى وقعت من نفسها ، ولا يمكن حد تانى وقعها ..» .

إن يوسف كان من المؤمنين بأن أولئك الأفراد العاديين – ملح الأرض – ينطوى الواحد منهم على قوى هائلة لا تتفجر إلا لحظة الإحساس بالخطر الداهم . فى قصتيه «المارد» و«حلاوة الروح» تنطلق هذه القوى فتنقذ صاحبها من العربة التى كادت أن تدهمه ، أو من الموت غرقاً وسط «كم هائل الحجم والضخامة من الماء الذى لا شاطىء له ولا حافة ولا حد» ، لكن القصتين تختلفان – بعد ذلك – من حيث دلالة كل منهما . فى الأولى ينجو الفرد ، وحده بقواه الذاتية ، أما فى

الثانية فإنه ينجو لأنه يتعلق بأصابع الآخرين .. «أني هزمت وحدى ، وأن نصرى جاء بأستماتة الأصابع على الأصابع ..» .

أجمل ما كتب يوسف عن ٥٦ قصته الرائعة «الجرح» . (نشرها فى يناير ٥٧) : شباب أربعة فى قارب صغير يتجه بهم – من بحيرة المنزلة – إلى بورسعيد التى حاصرتها قوات الغزو من البر والبحر . والقصة هى الرحلة . أكثرهم ضيقاً وتململاً هو «حلمى» . لا يكف عن إبداء ضيقه من تأخر «الريس» فى الرحيل . لكن هذا ينتظر امرأة واعدها لترحل معهم ، وما أن جاءت حتى تغير كل شىء فى القارب ، هى أم متلهفة للذهاب كى ترى ابنها الذى حارب وجرح ، أما هم .. فلماذا هم ذاهبون ؟ «أحياناً يفيق الإنسان فيجد نفسه متجها إلى مكان معين ، هكذا بلا وعى أو تفكير ، وقد جعلنا سؤال «الريس» نفيق ، وحين أفقنا كان كل شىء أمامنا له سبب : الخالة ذاهبة لترى ابنها ، والقارب يتحرك لأن الريح تدفعه ، و«حلمى» جرحت جبهته لأنه ارتطم بالصارى ، أما نحن ، فلماذا نحن ذاهبون؟ .. ، رغما عنا رحنا نسأل أنفسنا ، لأول مرة ، ولم نجد جوابا معقولا أو مقبولا . كل ما وجدناه كان إحساسا كبيرا لا يترك لنا مجالا للتفكير أو السؤال ، إحساسا أن شيئا هائلا مؤلما لابد قد حدث ..» . وهم لم يكونوا وحدهم على أى حال ، والريس لا يتسطيع أن يخفى دهشته لما يحدث : «يا أخويا إيه

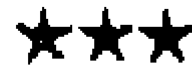
الحكاية ؟ .. دا المراكب بطلت صيد .. أنا واحد من الناس ليلة إمبارح ، وليلة أول وكل ليلة عمال أحول في ناس زيكو كدة .. صفوف ورا صفوف عمالة تروح على هناك .. هو هناك إيه ؟ .. مولد؟ » .

إن كل شيء قد حدث بغتة ، والمعركة كانت حادة وباترة ، نشبت فجأة ، ولم تستمر سوى أسبوع كأنها طعنة خنجر ، لكنها بعثت الحركة فى هذا الجسد العملاق .. «ونحن من لحظة أن غادرنا القاهرة ، وطريق طويل يسلمنا إلى طريق أطول ، والأرض الخضراء على الجانبين ، أرض واسعة لا حد لاتساعها (..) والقرى كثيرة لا حصر لها وفى كل قرية مئات البيوت ، وكل بيت يعج بعشرات الناس . وكل هؤلاء مصريون ، كلهم مصريون ، لايمكن أن يموتوا كلهم أبداً ، ونترك إقليماً وندخل إقليماً والأرض لا تنتهى والناس لا ينتهون ، أناس متشابهون ، وجوه لها لون أرضنا السمراء ، وذقون وشوارب كشواشى الذرة ، ونفس السحنات . كأنهم رجل واحد مصنوع من ملايين الرجال .. ترى كم طول هذا العملاق الذى لم نعثر له على بداية ، وظلت السيارات والقطارات تقطع بنا الأميال والأميال ولا نعثر على نهاية ؟ ..» . من القاهرة إلى أقصى شمال شرقى الدلتا ، حيث يقتطع النهر من البحر جزءاً يحوله إلى بحيرة ، جاءوا . وأحد وجوه تفرد يوسف إدريس أنه وصاف الدلتا ، وصاف قراها وكفورها ومستعمراتها ومدنها

الصغيرة وعواصمها وحقولها . وهو هنا لا تفوته ملاحظة التغير الذى يطرأ على وجوه الناس : يزداد بياض لونهم ، وتتلون عيونهم بزرقة الماء وتطول أهدابها ، وفى «المطرية» - بلدة الإنسان والسمك - تمضى الحياة كما اعتادت أن تمضى منذ آلاف السنين : «الرجال ذوو الشعر الأصفر والبشرة الفاتحة والأفواه المفتوحة على الدوام كأفواه «البلطى» ، يتزوجون البنات ، والبنات شقراوات ، أجسادهن لها تناسق «المز» ورشاقة «الطوبار» .. والأطفال كل يوم يولدون ، الأسماك هى الأخرى تتوالد ، ثم تتكفل البحيرة بصغار الأطفال وصغار السمك ..» .

غير أن ما حدث فى بورسعيد - هناك عبر البحيرة - جعل من المطرية بوابة الدخول ، وحين لاحت من بعيد غمامة رمادية ذات أضواء قليلة صفراء معطوبة «كانت رهيبة كئيبة كناموسية غامقة مسدلة على مجروح ، مستحيل أن تكون ناموسية مسدلة على مجروح ، لابد هناك أناس .. مصريون ، لا يمكن أن يكونوا قد ماتوا كلهم أبداً .. أبداً ..» . وعلى ضوء الشمس البازغة بدت ملايين السحنات التى رأيناها طوال الطريق وكأنها وجه عملاق كبير مصنوع من ملايين الوجوه..» ، لكن هذا العملاق قد جرح ، تماماً مثل «حلمى» الذى اصطدمت جبهته بالصارى فسالت منه دماء قليلة ، لكنه أصبح - بعفوية ورغم تحذيرات رفاقه -

يمد يده إلى الجرح يتحسسه كل حين ، وهؤلاء القادمون جميعاً جاءوا - بعفوية - يتحسسون الجرح . كانت بورسعيد جرحاً فى جبين مصر - تحرك له العملاق الذى كان غافياً ، وشرع يمد أصابعه ، من كل مكان ، يتحسسه . تمنيت لو أن يوسف لم يفش سر عمله الفنى الجميل ، ولم يكتب الجملة الأخيرة في هذه القصة : «ولم يعد هناك سوى نجمة الفجر ، وقوى قاهرة وراء الستار تجذبنا إلى الجرح الكبير ، وتغشينا ..» ، لأنها تتخلل كل عناصر القصة ، وتنبثق من تفصيلاتها ، بحيث يبقى إثباتها تزيداً لا مبرر - فنياً - له . تلك هى «الجرح» : واحدة من أفضل قصص يوسف في تلك المرحلة ، وشهادة لا تنقض عن أنتقاضة المصريين إبان أحداث ٥٦ .



من أصداء ٥٦ أيضاً كتب يوسف «سره الباتع» ، والضمير هنا يعود إلى «السلطان حامد» صاحب المقام الفقير الموجود فى كثير من قرى المنطقة . مقام زرى مهدم ، على حافة الجبانة ، لكن صاحبه يشغل فى قلوب الناس مكاناً لا يزاحمه فيه أحد . إنهم لا يرهبونه أو يقدسونه أو يتوقف الواحد منهم عند ورود اسمه ليخشع ويقرأ الفاتحة ، إنما كانوا يعاملونه كأنه واحد منهم . يألفونه ويرفعون معه التكليف .. «وكنت أعرف خطورة هذا الحديث ، فالفلاحون لا يرفعون الكلفة إلا بصعوبة

شديدة وإذا خاطبوك بلا ألقاب ، وتحدثوا إليك كما يتحدث الجار إلى الجار ، كان معنى هذا أن احترامهم لك يرتفع إلى مرتبة التقديس ..»» ينذرون له النذور من الشموع يشعلونها حول ضريحه الفقير المتهدم ، ويستعينون به على قضاء مصالحهم ، ومن أجله تخفض الأسعار . فمن يكون هذا السلطان حامد ، وما حكايته ؟

ظل هذا السؤال يشغل صاحبنا الراوى من طفولته حتى شبابه ، ينساه حيناً ويذكره أحياناً ، يسأل عنه الفقهاء والمتعلمين والمجاذيب ، ويروح ويغدو بين دار الكتب ومكتبة الجامعة ..» كنت قد أمسكت بخيط ما ، وكان ترددى على الدار هدفه التأكد منه ، بحثت عن أسماء جميع السلاطين الذين حكموا مصر ، أو حتى من قدموا إليها غازين أو زائرين ، بل حتى أسماء سلاطين بني عثمان راجعتها كلها ، ولم أجد ظلا ولا إشارة واحدة لسلطان باسم السلطان حامد » وكان قد استخلص من هلوسات مجذوب ينتمي إلى «ولاد السلطان حامد» أن هذا السلطان «شتت العدوين وهزم الكفار» . وأن «مقاماته» تنتشر في كل مكان من دلتا مصر وصعيدها . هذا كل ما استطاع أن يبلغه من معرفة .

حقيقة السلطان حامد جاءته من حيث لا يتوقع أبداً . من سيدة تعرف بها فى مدينة الإسماعيلية أثناء أحداث ٥٦ ، تسمى نفسها «جين

انترناسيونال» ، ويقول عنها : «لم أعرف إلى الآن جنسيتها . فأحياناً كانت تقول أنها هولندية ، والباسبور الذى كان معها من دوقية لوكسمبورج ، وتقول أن باريس محل إقامتها ، وحين قابلتها كانت قادمة من جنوب إفريقيا فى طريقها إلى زوجها التشيكوسلوفاكى الذى يعمل مهندساً فى مناجم بولندا» . كانت على متن باخرة حجزها العدوان فى مياه القنال ، حدثها الراوى عن السلطان حامد وحيرته فى أمره ، وانقضت شهور قبل أن تصله رسالة منها ، تحوى بضع صفحات مطبوعة منتزعة من كتاب ، تكشف له عن سر السلطان ، والصفحات هى رسالة من رسائل تلقاها السيد جى دى روان من صديقه روجيه كليمان . أحد علماء الآثار الذين رافقوا حملة بونابرت على مصر ، «ويقال أنه لم يعد ، وأنه «استمصر» ، وارتدى الملابس الوطنية ، وأقام هناك» ، وهو يتحدث إلى صاحبه عن شعب مصر ، وعن قصة حامد تجسيداً لما يقول عنه : «لا أحد يستطيع أن يسبر غور هؤلاء الناس ، تلك القبيلة ذات الملامح المتشابهة التى هبطت ذات زمان بعيد إلى وادى النيل ، وآلت على نفسها ألا تتحرك من مكانها أو تتفتت ، القبيلة التى تعلمت أن تحنى رأسها لعاصفة الغزاة ، ثم تمضغهم على مهل .. (..) وأتحدى التاريخ أن يثبت أن غازياً دخل هذه البلاد واستطاع أن يغادرها سالماً .. (..) لقد وجدنا الأتراك هنا قد

أصبحوا دقيقاً من أزمنة طويلة مضت ، وكان المماليك فى طريقهم إلى نفس المصير .. لست أدرى أين تكمن قوتهم ، ولا كيف تتم تلك العملية ، لكن المؤكد أنها تتم .» . ولعل قصة حامد أن تكون خير تجسيد لأفكار عالم الآثار المولع بفهم المصريين . لم يكن حامد زعيماً ، كان فلاحاً فقيراً يزرع الأرض فى قرية وسط الدلتا اسمها «كفر شندي» .. بها قلعة قديمة : وحين احتلها الفرنسيون بنوا قلعة جديدة ، وغيروا اسم القرية لتصبح القلعة الجديدة - «شاتو نيف» ، فغيرها الفلاحون بدورهم إلى «شطانوف» ! .. قتل أحد ضباط الحملة رجلاً بلا سبب ، وحين طالب الفلاحون بالقصاص ، نهرهم القائد «بيلو» ، فردوا بقتل جندى من القلعة ، وتصاعدت المواجهة ، قبض القائد على شيخ البلد ، وأعلن أنه سيقتله ما لم يسلم القاتل نفسه . وقبل مغيب الشمس ، تقدم حامد وأعلن أنه القاتل ، وقرر بيلو أن يشنقه بعد محاكمة صورية . أثناء انعقاد المحكمة هاجم الفلاحون الجنود «بالنبابيت» ، واستطاعوا أن ينتزعوا «حامداً» من بينهم ، فغضب بيلو وقبض على شيخ البلد ، وهدد بقتله مرة أخرى ما لم يسلم الرجل نفسه .. ونفذ تهديده وقتل شيخ البلد ، فكان الرد أن قُتل بيلو نفسه ، وأصبح حامد أسطورة . وجاء الجنرال كليبر نفسه يتولى قيادة المعركة ! : أمر بحصار المنطقة كلها بحثاً عن حامد بعلاماته المميزة ،

وشم العصفورتين على صدغيه . وينصر يسراه المقطوع ، لكن دهشة الفرنسيين كانت بالغة حين وجدوا الكثيرين موشومى الأصداغ ، مقطوعى الإصبع ذاته . وتدريجاً بدأت جماعات من هؤلاء تتشكل فى عصابات صغيرة . تقطع الطريق على الفرنسيين وتهاجمهم . «أطلقوا على أنفسهم «أولاد حامد» ، وانتشر اسم حامد من الدلتا إلى القاهرة إلى الصعيد» ، وذات يوم قتل حامد ، رآه ضابط كان يعرفه منذ محاكمته التى لم تتم ، فأطلق عليه النار ، وفر مع دوريته .

انظر للجماعة كيف تتماسك . وتمد آلاف أذرعتها غير المرئية . تحتضن ابنها الذى خرج من أحشائها . ودافع عنها . وقدم حياته من أجلها ، انظر لها كيف تعيده إلى الحياة ، وتمنحه حياة فوق حياته المحدودة فى الزمان والمكان . وكيف تخوض الصراع من أجل أن تحمى حياته هذه الجديدة الممتدة وتبقى عليها . يروى عالم الآثار لصاحبه : «لن أحدثك عن الغضب الجامح الذى رج مصر من أقصاها لأقصاها ، ولا نتيجة هذا الغضب ، يكفى أن كانت إحدى نتائج مصرعه أن حرقت قلعة شاتونيف بكل من فيها ، وثارت القاهرة للمرة الثانية ، وأعلن المماليك استقلال الصعيد ، وأصبح الوضع من الخطورة بمكان .. وليس هذا فقط فالفلاحون لم يرفعوا جسد حامد من المكان الذى صرع فيه . وخلال أيام ثلاثة ، أقاموا فوقه ضريحاً ذا قبة

عالية . وبدأ الناس يفدون لزيارته فى جموع لا يحصى لها عدد ، وأصبح حامد بموته أكثر خطورة مما كان وهو حى . وخاض الجنرال معركة ضد الأسطورة : أمر بإخراج الجثة وإلقائها فى النيل ، فأخرجها الفلاحون بدورهم من النيل ، وأقاموا على الشاطئ ضريحا له أكثر ضخامة، ولم يجد جنرال الثورة الفرنسية أمامه سوى أن يأمر بتقطيع الجثة أشلاء وذرها في أرجاء مختلفة من الأرض، والرد متوقع كذلك ، فقد بدأت الأنباء تترى بأن المصريين قد بدءوا يقيمون ضريحا فوق كل مكان سقطت فيه قطعة من جسد السلطان، وبعد أن كانت مشكلة كليبر «سلطان حامد واحد»، أصبح لديه الآن مئات السلاطين، وكل سلطان منهم تفد إليه الالاف المؤلفة من الجموع، وتلتف حوله، وترتج السماء بذكر اسمه، ويتخذه أولاد السلطان مركزا للنشاط.

ليس غريباً، بعد ذلك، أن يستبدل عالم الآثار بثيابه ثياباً مصرية، وأن يذهب يوم زيارة الضريح، ثم يصف لصاحبه ما رأى، ويخلص إلى ما يراه جوهر الأمر: «أدركت أن ما تحت الضريح ليس هو المهم ..(..) وضريح حامد كان هو البؤرة التى تتجمع حولها الإدارات وتلتقى.. ماذا أقول؟ لقد وقفت خاشعا أراقب الجموع وهى تفرز الإيمان، وتشترك فى خلقه لتعود فتؤمن به (..) إنى لأرثى لجنودنا وجنرالهم، ما فائدة البنادق والرصاص؟ ألكى تخضع هؤلاء الناس بقتل بعضهم؟ وما فائدة القتل

فى قوم يحبون قتلاهم وموتاهم؟ فى قوم يخلقون من الميت الواحد مئات الأحياء، ويخلقون لكل حى بعد هذا آلاف الأولاد؟»

إنما هكذا روى «روجية كليمان» قصة السلطان حامد، ونقلها لنا يوسف إدريس.

★★★

من وراء أقنعة القص الملونة قال لنا يوسف إدريس الكثير عن رؤيته لأحداث ٥٦، والشعب المصرى كله آنذاك كانت القضية بسيطة واضحة، وجاء التعبير عنها كذلك: إن مصر مهددة بالغزو والاحتلال من جديد بعد أن قضت ثلاثة أرباع القرن تقاوم الإحتلال وكان «الجلاء» هو المطلب الأول لمجمل الحركة الوطنية المصرية، لذا هب الشعب كله يقاوم هذا الغزو الجديد، ويتصدى له، لم يتخلف أحد: الصبية والرجال، الفلاحون والعمال، الطلبة والمثقفون، العقلاء منهم والمجانين. ثم: لماذا يتخلف أحد، وهذا شعب اعتاد أن يقدم الشهداء، ثم يحتفى بهم، فيمنحهم حياة جديدة أكثر بقاء وخلودا وقدرة على الاستمرار ؟

بعبارة واحدة: كان العدوان جرحا على جبين مصر، تململ له الجسد العملاق وصحا من غفوته: ومد أصابعه يتحسسه، ثم التأم الجرح وعاد الجسد - وقد صحا من غفوته - يضج بالعافية والحياة.

★★★

فى حميا الزهو والصعود والانتصار التى سادت مصر فى النصف الثانى من الخمسينات والأول من السيتينات، كتب يوسف إدريس عددا كبيرا من قصصه، وتدفق إبداعه، حتى لم يكن يخلو عام واحد من عمل له أو أكثر، وحظيت أعماله المتتالية باهتمام نقدى لم يحظ به كاتب آخر آنذاك، وبلغ يوسف ذروة تحققه، وبات وجها من أنضر وجوه الثقافة المصرية - العربية الحديثة، فى أعماله تلاحم الموقف الفكرى المتقدم والصياغة الفنية المتماسكة، لا يقلد أحدا، ولايحذو حذو أحد، بل يشق - بموهبته القادرة - طريقه الخاص والمتفرد . كان يوسف متوائما مع نفسه، ومع الواقع من حوله ، يقف فى ظل نظام يؤمن به، ويرى - فى ضوء ما أنجزه هذا النظام - أنه قادر على تحقيق كل ما حلم به جيل ٤٦ وناضل من أجله من هنا خفت حدة تناقضاته الداخلية، وتطامن قلقه الجامح، ولم يعرف هذا التمزق المعذب الذى يبعثه الاختلاف بين ما «يريد» أن يقول: وما «يستطيع» أن يقول.

ولعلنا نستطيع القول - دون تجاوز - إن هذا العقد كان «العقد الذهبى» فى إبداع يوسف، فيه قدم أهم مجموعاته، ورواياته الهامة، ومسرحيته المتوهجة، وفيه أيضا تضاعف حضوره من خلال مقالاته من صحيفتى «الجمهورية» و«الشعب» وأسبوعيتى «روزاليوسف» و «صباح الخير» وشهرية «الكاتب» وسواها، ولعب دوره كاملا فى رعاية فنه الأثير،

القصة القصيرة، بتقديم جيل جديد من كتابها، وأتيح له السفر والترحال: إلى روسيا، والجزائر (حيث تابع عمليات «جيش التحرير» نهاية ٦١) وأسبانيا (وعنها كتب «رجال وثيران» ٦٤) والهند (وعنها كتب «اكتشاف قارة») والنمسا (السيدة فيينا، ٥٩) وسواها من بلاد العالم، شرقة وغربه وأصبح صديقاً مقربا لعدد من رجال النظام، لعل اهمهم أنور السادات الذى كتب يوسف له كتابين أحدهما عن «الاتحاد القومى» والثانى عن القصة الداخلية لحرب السويس، ونشر فى الهند بعنوان «ثورة على النيل»، ويتردد أنه أحد من كانوا يكتبون له المقالات التى ينشرها بأسمه فى «الجمهورية» حين كان مسئولا عنها، والمؤكد أنه عمل معه - أقرب لسكرتير صحفى - حين أنشئ «المؤتمر الإسلامى» فى ٥٧ ، ثم كمال رفعت، وقد كان ضابطا متأجج الوطنية، على علاقة بعدد من المفكرين والمثقفين اليساريين والقوميين، ويلفت النظر فى تاريخه بين ضباط يوليو أنه كان يعهد إليه دائما بمهام ذات طبيعة «خاصة» تقتضى قدرا من الجسارة والمخاطرة واستخدام القوة البدنية!، وقد كان مسئولا عن تنظيم «المقاومة الشعبية المسلحة» من بورسعيد حتى السويس إبان أحداث ٥٦، كما أصبح مسئولا عن جهاز المخابرات كله فى فترة تالية، والمهم هنا أنه استطاع أن يجمع حوله عددا من المثقفين اليساريين والقوميين هؤلاء، ويعيد - بهم - إصدار مجلة «الكاتب». وقد صدر

عددها الأول فى هذا الإطار الجديد - فى يناير ٦٤ . يلفت النظر هنا أن ثلاثة من هيئة تحريرها كانوا هم الثلاثة العاملون بالصحافة، والذين أمر عبدالناصر باستثنائهم من الاعتقال فى ٥٩: رئيس التحرير أحمد عباس صالح، وعضوين فى هيئة التحرير هما محمد عودة ويوسف إدريس، ويلفت النظر - ثانيا - أنها استطاعت أن ترفع راية الدعوة القومية، فى واقع ما بعد الانفصال، ثم الأهم: راية الدعوة لقيام «يسار غير ماركسى» و «طريق عربى للاشتراكية» ،.. الخ الملاحظة الثالثة أنها صدرت بهذه الدعاوى وقت كان الشيوعيون والماركسيون ما يزالون فى السجون والمعتقلات، ولم يبدأ إطلاق سراحهم إلا بعد شهور، فى العدد الأول من هذا الإصدار الجديد «للكاتب» نشر يوسف المقال الأول من مقالاته الثلاثة المشهورة: «نحو مسرح مصرى».

توسطت هذا العقد الذهبي أزمة ضمير رهيبة عاني منها يوسف إدريس، هى تلك المتعلقة باعتقالات ٥٩، وروايته «البيضاء» ونحن هنا لانحكم على «النوايا» ولكن على «الأفعال» ودلالاتها فقد انتهى «شهر العسل» القصير الذى دام بين «النظام» من ناحية، والتنظيمات الشيوعية، من الناحية الأخرى، خلال الشهور الأخيرة من ٥٦ وطوال ٥٧، وكان حتما أن ينتهى، ولعل شارة الخطر التى ادركها النظام تمثلت فى الوحدة بين التنظيمات الثلاثة الكبرى فى «الحزب الشيوعى الموحد»

أوائل ٥٨ ومن المعروف الآن أن يوسف إدريس قد لعب دورا في محاولة «جرجرة» الشيوعيين إلى أحضان النظام، حين رتب لقاء شهيرا بين محمود العالم - ممثل اللجنة المركزية للحزب الموحد - وأنور السادات ، وفيه عرض السادات أن يقوم الشيوعيون بحل تنظيماتهم، والدخول - كأفراد - إلى هيئة «الاتحاد القومي»، فرفض العالم، وعرض - بدوره - أن يعملوا داخل هذا الإطار، على أن يحتفظوا بكيانهم التنظيمي المستقل، وأن يتفق الطرفان على برنامج عمل موحد ، وأدى فشل اللقاء بالسادات لأن يترك العالم - في الساعات الأخيرة من الليل - في نهاية شارع الهرم، ليعود إلى بيته - وسط المدينة - سيرا على الأقدام !. وفي ليله رأس السنة الجديدة - ٥٩ تفتحت أبواب السجون والمعتقلات على كل مصاريعها أمام الشيوعيين والماركسيين والمتقدميين والوطنيين وكل صاحب رأي مستقل أو معارض ، وأسهمت أحداث ٥٩: الصدام مع عبدالكريم قاسم، ومغامرة «الشواف» الفاشلة في الموصل وما تبعها من محاكمات «المهداوي» وإعدام قاسم عددا من الضباط «القوميين» الذين لم يكونوا بعيدين عن أجهزة «الجمهورية العربية المتحدة» - في تأجيج العداء ضد الشيوعية والشيوعيين، وانطلقت حملة رهيبة ضدهم كان يقودها عبدالناصر نفسه من القاهرة ودمشق.

في هذا الجو المحموم كتب يوسف «البيضاء»، ونشرها - عدا صفحات قليلة - في «الجمهورية» التي كانت تصدر - كل صباح -

منشورا ملتهبا بالعداء ضد الشيوعيين فى مصر والعالم العربى والعالم أجمع ، ولن نقف هنا بالتفصيل عند «البيضاء» يكفينا القول إنها كانت «تبريرا» للحملة الضارية على الشيوعيين «الذين يتلمسون طريقهم فى ظلام كامل عدا شعاع واحد يأتيهم عبر البحر»، من ناحية، وتبرئة لصاحبها يرفعها لمن بيدهم الأمر من الناحية الأخرى، وقد فهمت الرواية - حين نشرت بين سبتمبر ونوفمبر من سنة ٥٩ - على وجيهيها هذين حق الفهم ، وفى تلك السنة ذاتها أنهى يوسف علاقته الوظيفية المضطربة كطبيب يعمل بوزارة الصحة، وتفرغ تماما للكتابة لصحيفة «الجمهورية» التى عين بها، وقضى فيها سنوات الستينات كلها.

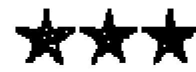
أقول إنها كانت أزمة ضمير، وأدلتى كثيرة: أولها أن الطبعة الأولى من «البيضاء» لم تصدر إلا فى ١٩٧٠ ومن بيروت، لا من القاهرة، وبعد أن كاد السباق الذى كتبت ونشرت فيه أن يصبح تاريخا قديما ، والثانى أن يوسف ظل يراوغ حول تاريخ كتابتها الحقيقى، يرجع به الى ٥٥حينا، ويتقدم به إلى ٦٠ حينا آخر ولكنه يظل دائما حريصا - كل الحرص - على ألا يذكر ٥٩ أبداً تجنبا لأية مستدعيات يمكن أن يثيرها هذا التاريخ والثالث أن تلك الأزمة ظلت تلاحق صاحبها حتى الطبعة الأخيرة من الرواية (صدرت فى سبتمبر ٩٠) ودفعه شعوره القديم بالذنب من جانب، محاولة «إلغاء» ذلك التاريخ من الجانب الآخر، لأن

يكتب فى تقديمها أنه «يهديها للماركسين فى العالم العربى اليوم، فضربهم باستمرار من قوى الحكم الغاشم حال بينى وبين أن أهتم اهتماماً خاصا بنشرها وإذاعتها مخافة أن تكون ضربة أخرى للماركسيين المصلوبين دوما..» وأرجو ألا تصدق حكاية عدم إهتمامه بنشرها، فتلك الطبعة الأخيرة هى طبعتها الخامسة، فيما أعرف !

يقتضينا الإنصاف هنا أن نؤكد دلالة قصة يوسف الطويلة «العسكرى الأسود» التى نشرها فى ٦١، بعد أن ذاعت حوادث التعذيب البشعة التى يتعرض لها الشيوعيون فى سجونهم ومعتقلاتهم، لقد تململ ضمير يوسف لعذاب رفاقه القدامى، فرجع إلى التاريخ القريب الذى عاشه جيل الضحايا والجلادين جميعا ليلفت النظر إلى التدمير البشع الذى يوقعه التعذيب بالجلادين قبل الضحايا، ويشير - من طرف خفى - لأن تلك الممارسات ذاتها كانت بين الدوافع التى جعلت ما حدث فى يوليو ٥٢ ممكن الحدوث.

فيما عدا أزمة الضمير تلك - هى بعض الثمن الذى أبدى يوسف استعداده لدفعه كى لا يعود للسجن مرة أخرى - ظل يوسف يواصل صعوده فى ظل النظام الراسخ الرازح، وشهدته منتصف الستينات كاتبا شهيرا، ملء السمع والبصر، ينشر فيضاً من قصصه ومقالاته،

ويقدم المسـرح أعـماله (فى مـوسم ٥٦/٥٧ قـدم له «المسـرح القـومى» مسرحيتيه القصيرتين «ملك القطن» و «جمهورية فرحات»، أخرج الأولى نبيل الألفى، والثانية فتوح نشاطى، وفى الموسم التالى مباشرة أخرج نور الدمرداش «اللحظة الحرجة» اما موسم ٦٣/٦٤ فقد شهد عرض مسرحيته المتألقة «الفرافير»، أخرجها كرم مطاوع، وعرضت ٣٨ ليلة فى عرضها الأول، وقد كانت من أبرز الأعمال التى قدمها المسرح المصرى، إلى اليوم)، والسينما أيضا بدأت تسعى إليه، وتقدم قصصه ورواياته فى أفلامها (ولعل أفضل ما قدمت السينما من أعمال يوسف هو ما قدمته فى هذا العقد الذهبى ذاته: أخرج صلاح أبو سيف «لا وقت للحب» عن «قصة حب» فى ٦٣، وأخرج هنرى بركات «الحرام» فى ٦٥، ولعبت بطولة العملين السيدة فاتن حمامة).



فى حميا الزهور والصعود، إذن، كتب يوسف أعمالاً تصف، مباشرة، هذا المناخ العام : «أليس كذلك؟» تساؤل يطرحه «تيمو شلاى» عضو البرلمان الهندى الذى جاء فى زيارة لمصر، على الراوى، وهما فى الترام المتجه نحو الأهرام، والهندى ليس ذاهباً لمشاهدتها، شأن السياح الذين يفدون إلى مصر، فهو مولع برؤية مصر الحية لا تلك وراء واجهات الزجاج، والقصة كلها هى حديثه المتصل، وأبرز ما فيه رأيه فى الشعب

المصرى، وفى أحداث ٥٦ يقول تيمو شلاى: «أنا سعيد جدا بالقدوم إلى هنا أتعرف لماذا؟ لقد وجدت كل شئ هنا يستيقظ وينمو، حتى نيلكم يفيق ويحاول أن يختزن ماءه المبعثرة (..) أتعلم شيئا؟ إنكم أول شعب أراه يحب أن يعطى حتى ولو لم يأخذ ، كل الناس تعطى وتأخذ، أنتم دائما على استعداد للعطاء، هذه هى قمة الإنسانية (..) أنا هنا لا أتفرج، أنا أتغير، كل دقيقة أنتم تستيقظون والحوادث تجرى بسرعة (...) تصور .. تأميم القناة، كنت وأنا بعيد أرى أنها خطوة كبيرة لا يحتملها الموقف فى العالم، ولا يحتملها شعبكم نفسه حين أصبحت هنا بينكم تغير رأيى..»، ويتحدث تيمو شلاى عن فتاة الكباريه التى عرفها، وهو ذاهب الآن لوداعها قبل أن يسافر، وكيف أكتشف أنهما تعلما الإنجليزية من نفس المصدر: «هى من البحارة والضباط الإنجليز فى الإسكندرية وأنا من عملى فى الجيش الإنجليزى فى الهند ، تصورهذا: الإنجليز علموا المصريين والهنود الإنجليزية، أرادوا هزيمتنا بتعليمنا لغتهم، فاستعملنا لغتهم فى التفاهم بيننا ، أليس هذا أروع؟» وسألته الفتاة: إذا حاربنا الإنجلين، هل تحارب معنا؟ «قلت لها: إننى وشعبى كله مستعدون أن نفنى ونحن ندافع عنك، أقصد ليس عنك أنت بالذات، ولكن عن شعبك..»

عن نهرو يقول تيمو شلاى: «نهرو؟ ومن فى الهند لا يحب نهرو؟ بينى وبينك بعضهم لا يحبونه، ولكنى أحبه، أنا مثله إشتراكى على طريقتنا..»

آه، ذلك كان زمان نهرو وعبدالناصر، والحلم بالإشتراكية، والعمل على أن تجد دول العالم الثالث مكاناً لها تحت الشمس، زمان رياح التحرر تهب على الأرض التي كانت مستعمرات ومناطق نفوذ في إفريقيا وآسيا والعالم الجديد، فتنهض شعوبها، وعنها تنبثق قياداتها المعادية للاستعمار، المتوجهة نحو القطاعات المقهورة من الناس، زمان الصراع - البارد الساخن - بين القوتين الكبيرتين في العالم، وعلى القوى الأصغر أن تلتمس مكاناً بينهما ، أن تفيد من التناقضات القائمة بينهما، وأن تتجنب - في ذات الوقت - الوقوع تحت سيطرة أي منهما.. باختصار: إنه زمان «باندونج» و «الحياد الإيجابي» و «عدم الإنحياز».

وهو كذلك زمان «معاهدة سيناء» : آلة روسية ضخمة تعمل هناك قرب حدودنا الشرقية المطلة على ساحل البحر الأحمر، ،معها «ماشا» المهندس السوفييتي الذي يديرها، ويوما تتعطل الآله، ويكتشف ماشا أنها بحاجة لقطعة غيار تقف القيود النقدية والمصرفية دون سرعة استيرادها، توقف العمل وتبطل العمال . لا يدرى أحد كيف تسرب الخبر إلى شركة أمريكية فأرسلت قطعة الغيار المطلوبة، ومعها «بيل» المهندس الأمريكي، وأثبتت المعاينة ملاء مة القطعة، لكن المشكلة كانت مَن من الرجلين هو الذي يملك حق تركيبها في مكانها؟ واندلع الصراع

العنيف بيدوما: «في تلك البقعة النائية من شبة جزيرة سيناء وتحت لفح نيران حامية تتأجج من صفرة الأرض وزرقة السماء، هناك حيث لا حياة ولا جمال، ولا شئ سوى الرمل والصحراء والجبل والعمل، هناك حيث المعسكر مقام، كان يقف ماشا وبيل وجهاً لوجه : شابان متقاربان في السن، لهما نفس المهنة، وربما نفس الهوايات، لكن كلا منهما مستعد أن يقتل الآخر، مثلا، لو ظل الآخر على صلفه وعناده، كل منهما يعتقد أنه على حق، وأنه لو تراجع قيد أنملة، فكأنما كرامة بلده وشعبه هي التي تتراجع..» كان العمال المصريون يشهدون هذا الصراع ويتندرون به ولا يملكون التدخل فيه، وبينهم كان «محيي الدين» أو كما يسميه العمال «النمس» هو حلال المشاكل. «عمل مع ماشا فالتقط منه الصنعة، وعمل مع الألمان فتعلم الميكانيكا، ورغم هذا فيدوبك كان يفك الخط، ولكنه كان يقرأ الصحف بمهارة، متحمساً، أسمر، مبتور البنصر الأيمن غزير العرق، شعره أكرت قد أصبح له لون الصحراء الأصفر من كثرة ما علق به من تراب وغبار..» في الصباح التالي صحا المعسكر كله على مفاجأة : المكنة تدور، وقد ارتفع صوتها وتوالت تكتكاتها كان النمس قد قام في الليل - على ضوء «كلوب» وبمساعدة زميل له، ومن وراء ظهر مهندسي المعسكر جميعاً - بتركيب قطعة الغيار وإدارة الماكينة.. «وإلى الآن وهي لاتزال دائرة، نصفها أمريكي ونصفها روسي، والذي يديرها هو النمس بعينه..».

هى ليست قصة يتخفى فيها الرمز أو يغمض، هى معادل قصصى هادف ومباشر لواقع سياسى قائم فى النظام العالمى كله آنذاك: لا تعنينا خلافات هذين الكبيرين قدر ما يعنينا أن تتحقق مصالحنا داخل ذلك الهامش الضيق الذى يتيحه الخلاف، وتلك كانت الفلسفة السياسية لدول «العالم الثالث» كله ذلك الحين.

ولاشك فى أن قرارات تحديد الملكية الزراعية الثانية، ثم قرارات التأميم فى ٦١ - بداية التحول نحو «رأسمالية الدولة» - قد اضرت بمصالح الكثيرين من الرأسماليين وملاك الأرض، ودفعت بعضهم إلى الهجرة من مصر بما بقى من أموالهم ومن لم يهاجر منهم بقى معادياً للنظام، واحتياطياً للعمل ضده حين تجىء اللحظة المناسبة وقصة «ذى الصوت النحيل» مونولج طويل لواحد من هؤلاء، وطبيعى أن يتسم بقدر أقل من الوضوح والمباشرة، فصاحبه «يتقى» النظام، ولا يجهر بعدائه إلا رمزاً، والعمارة التى يقطن فيها معادل للوطن كله، وصاحب المونولوج يكشف عن موقعه وعن حلفائه وأعدائه: «السكان القاطنين فوقنا كويسين، وعرفنا نتفاهم بسهولة إنما السكان اللى تحت، تحتنا، ناس كتير ساكنين فى الشقة، ييجى خمسين نفر كتير قوى زى النمل، لو شفت عينيهم.. عيون غويطة، إذا بصيت فيها تغرقك وتبلعك..» هؤلاء «الناس اللى تحت» هم الأعداء، هم المتربصون به، وهم الذين يتآمرون

عليه ويكيدون له، والكارثة الكبرى أنهم استطاعوا أن يجتذبوا امرأته إلى صفوفهم «لما حصلت الحكاية كنت أتوقع طبعاً إن مراتى تقف جنبى.. طبعاً كان لازم تاخذ موقف .. للأسف.. ده يحصل منها (..) وتاخذ الجانب الثانى..» وفى المونولوج كله تتضح خبرة الطبيب الكاتب بتلك الهلاوس المألوفة فى «هذيانات» الاضطهاد، كما يعرفها أطباء العقل والنفس ، وفيه كذلك يرد ذكر عبدالناصر - للمرة الأولى فى أعمال يوسف الإبداعية كلها - (دع عنك مقالاته وأحاديثه) - يقول عنه صاحب المونولوج «مش كفاية هو علينا .. هو فاكر نفسه كل حاجة.. هو فاكر أى حاجة عايز يعملها يقدر يعملها.. هو فاكر إن الناس رغيف عيش بفضل يقطعه بالسكينة حته حته لغاية ما يخلص عليه.. هو عايز يعمل منا بنى آدمين زى الحيوانات من غير ارادة ممكن يسوقها زى ما هو عايز».

وراء هذا القول - بالطبع - غضب فلول تلك الطبقات التى كانت لها السيادة فى النظام القديم، لعدم مشاركتها فى السلطة واتخاذ القرار، ثم افقادها الأساس الاقتصادى الذى كانت ترتكز إليه تلك السيادة، ويبدو ذكاء الدفاع عن النظام القديم فى اختيار الكاتب رمزاً من أنظف رموزه: «الملكة فريدة» التى كانت تحظى.. فى الوجدان الشعبى - بقدر من التعاطف من حيث هى ضحية ملك فاسد عابث ذى نزوات، من

ناحية.. وضحية «قدر» جعلها لا تنجب سوى البنات، والملك يتلهف لأن ينجب وريثا لعرشه.. يقول عنها صاحب المونولوج: «كل اللى بيحصل لنا ده من غلطنا إحنا.. لو كنا سبقنا وضربنا قبل ما نتضرب ما كنش حصل حاجات من دى. ولا كانوا جابوا سيرة للملكة فريدة، أصلها ساكنة قدامنا، وعمرها ما ظهرت لنا وشفناها ، فأيه الداعى يشركوها فى الموضوع. الخ» وينتهى مونولوج «ذى الصوت النحيل» وهو محاصر داخل شقته فى العمارة، وقد غلق من حوله كل النوافذ، ووضع أكياس الرمل وراد الأبواب، عل هذا كله يفلح فى صد العيون التى تقتحمه وتتسلل إلى داخله، وهو لا يعرف - ونحن لا نعرف كذلك، ما إذا كان سيظل يقاوم أم سيستمع لنصيحة أخيه الكبير، ويرحل.

تلك أهم قصص الزهو، والصعود، غير ان هذا لم يدم طويلا، فما أسرع ما دهمت الجميع مرحلة التناقضات الحادة حول منتصف الستينيات ، ثم جاءت قاصمة الظهر فى ٦٧، وتبدى هذا كله فى قصص يوسف التالية.

★★★

حتى فى أوج الصعود والانتصار، كان «الوجه الآخر» موجودا وفاعلا، ذلك ان الدودة فى أصل الشجرة، وارجو أن يكون واضحا ان

السطور التالية ليست محاولة لنقد التجربة الناصرية، أو محاسبة النظام من حيث توجهاته الرئيسة بقدر ما هى قراءة فى أعمال مبدع بعينه، لكنها ضرورة يزداد إلحاحها حين يكون هذا المبدع مثل يوسف إدريس : عرف الاشتغال بالعمل العام، فى وجهيه الوطنى والاجتماعى، منذ تفتح وعيه، وانغمس فى هذا العمل انغماسا تاما، وارتبط - ارتباطا وثيقا - بمنهج فكرى محدد: فى النظر والممارسة ، لذا عرف طريق المعتقلات والسجون قبل ٥٢ وبعدها، ثم هو جهاز فائق الحساسية فى التقاط مختلف المؤثرات فى الواقع والاستجابة لها، لم ينأ عن الواقع ابداً ولم يعتزله، حتى حين كان يبدو وكأنه قد صرف وجهه عن هذا العالم، وراح يلتمس الانسان فى عالم آخر (مسرحية «الجنس الثالث»، ٧١ مثلا ، فقد وجب على قارئيه ودارسيه ان ينظروا فى أسباب هذا الانصراف . اضف لذلك كله انه كان - بحكم عمله الدائم فى الصحافة، واقترابه من دوائر صناع القرار فى هذا الواقع - اعرف من غيره بما يدور فى الأروقة ووراء الكواليس، ويحاول الإعلام الرسمى - والمسئولون عنه - حجبه عن الناس، أو صرفهم عن حقيقته ، أو التهوين من شأنه.

لهذا كله، يصبح النظر فى هذا الوجه الاخر ضروريا لحسن قراءة أعمال يوسف التالية على منتصف الستينيات بوجه عام، وبعد ٦٧

بوجه خاص، ووضعها في سياقها الموضوعى الصحيح، ونكتفى هنا بابراز ملامح هذا الوجه، بأقصى ما يمكن من ايجاز وتركيز : قد كشفت احداث ٥٦ عن خلل جسيم في بنية قمة النظام، تمثل في وجود صدع بين القيادتين السياسية والعسكرية مع ضعف هذه الاخيرة وعجزها عن اداء مهامها، يكتب احمد حمروش - ولما يكتب أهمية خاصة باعتباره من العسكريين أولا، ومن ضباط يوليو ثانيا، وقد ظل قريبا من موقع الاحداث تربطه صلات وثيقة لم تنقطع بصناعها، ثالثا: «كان عبدالحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة، غير مؤهل لتولى هذا المنصب الخطير.. (..) ولذا فإن مواجهته للعدوان لم تكن ايجابية ولا ديناميكية (٠٠) فاصدر أمراً لمحمد رياض، محافظ بورسعيد، بتولى قيادة القوات المسلحة، وهو مدنى متخرج فى كلية الحقوق، كما ان مساعده قائد القوات الجوية محمد صدقى محمود ترك طائراته فريسة للهجوم وهى رابضة على الممرات الجوية دون تحليق، مما أدى إلى تحطيمها فعلا فى يوم واحد».. هل استبق الأحداث فأقول إن هذا المشهد الفاجع هو ذاته ما تكرر فى ٥ يونيو، بعد احدى عشرة سنة، وان قائد الطيران كان هو ذات القائد؟ ويتفق الرواة على انه كان مقرراً ابعاد قادة الاسلحة بعد أحداث ٥٦ لكن «عامر» تمسك بهم، فطوى القرار، وطوى الموضوع كله فى صخب الاحتفال بالنصر!

وفى ٥٨ رقى عامر إلى رتبة «المشير»، وأصبح مطلق اليد تماما فى شئون القوات المسلحة، ودب الفساد فى قيادتها العليا، أبعد كل العسكريين ذوى الكفاءة والخبرة، وأصبح الحل والعقد بأيدى العاملين فى مكتب المشير، وهم يعملون لخدمة مصالحهم أولا، ثم لتلبية نزوات المشير وأهوائه ـ كان مولعا بالمخدرات والنساء. وبعد الوحدة أصبح نائبا للرئيس ، له كل صلاحياته فى سوريا، لكن الانقلاب على الوحدة باض وأفرخ بين المقربين اليه وضباط مكتبه! فهل بقى عبدالناصر بحاجة لدليل اخر على فساده وعدم كفاءته؟ ولكن انظر لما تطورت إليه الامور، بعد الانفصال، ثم صدور «الميثاق الوطنى»، صدر اعلان دستورى «فى سبتمبر ٦٢ بتشكيل «مجلس رئاسة» يرأسه عبد الناصر بالطبع ، ويضم اثنى عشر عضواً بينهم مدنيان فقط ، وتقدم عبد الناصر بمشروع للحد من سلطة عامر على القوات المسلحة ، يجعل مسؤولية تعيين قادة الوحدات من اختصاص مجلس الرئاسة ، لا المشير . يروى حمروش : «أعد عبد الناصر المشروع ، لكنه لم يحضر الجلسة التى تولى رئاستها عبد اللطيف البغدادى ، وعندما عرض المشروع طلب المشير تأجيل نظره ، وأيده فى ذلك كمال الدين حسين فقط ، الذى كان قد بدأ يقترب من دائرة الظل ، ويبتعد عن مناصبه التى شملت فى وقت واحد : رئيس المجلس التنفيذى ، المشرف العام على

«الاتحـــاد القـومـى» ، ووزيرالادارة المحليـة ، ورئيس المجلس الأعلى للعلوم ، ورئيس المجلس الأعلـى للفنون والآداب ورئيس المجلس القـومى للبحـوث ، ونقيب المعلمين ، ورئيس المجلس الأعلى للجـامعـات ، ورئيس المعاهد القومية . الأغلبية وافقت على القرار وأصدرته ، وخرج المشير غاضباً من الاجتماع ، فكتب استقالته سافر إلى مرسى مطروح ، وقدم قادة القوات البرية والبحرية والجوية ، وعدد من كبار القادة استقالاتهم كذلك ، ولم يجرؤ عبد الناصر على اتخاذ الخطوة الضرورية وهى قبول استقالاتهم جميعا ثم العمل على إعادة تنظيم القوات المسلحة ، بل رفض استقالة المشير وبقى الجميع فى أماكنهم كأن شيئاً لم يكن ! .

والحقيقة أن الصراع بين الرجلين قد بات واضحاً ، وعامر الذى كان عبدالناصر ضعيفاً إزاءه، ويدعوه «الطفل المدلل» - قد أصبح نداً قوياً، له - فى القوات المسلحة - أظفار ومخالب،، وامتد هذا الصراع فى قمة النظام إلى الدوائر الأصغر فالأصغر (حتى فى شئون الثقافة ، فهل يصدق أحد أن ذلك الجدل الذى شغل المثقفين المصريين أمداً طويلاً حول «الكيف» أو «الكم» فى العمل الثقافى، كان يضرب بجذوره أيضاً لهذا الصراع؟ يثبت حمروش أن أهم أسباب الاختلاف بين ثروت عكاشة وعبدالقادر حاتم، اللذين تعاقبا على ولاية شئون الثقافة، كان يتمثل فى أن الأول «رجل عبدالحكيم عامر» فى حين أن الثانى «منفذ تعليمات

عبدالناصر»!). كان هذا أخطر الصراعات، لتعلقه المباشر بالقوات المسلحة، لكنه لم يكن الوحيد، فقد تميزت تلك السنوات باحتدام الصراعات داخل نخبة القيادة، أو أعضاء مجلس الرئاسة، كانت الصراعات – فى أقلها – حول قضايا موضوعية، وفى أكثرها نتيجة حساسيات ومواقف تجاه بعضهم البعض، هكذا: استقال كمال الدين حسين – وقد فاتت عليك المناصب التى كان يشغلها – وعبداللطيف البغدادى فى ٦٤ وانتهى باستقالتيهما مجلس الرئاسة، أو القيادة الجماعية الشكلية، ثم تبعهما حسن إبراهيم فى ٦٦، وانفرطت حبات عقد ضباط يوليو، أو كادت!

وما عنيته بقولى إن الدودة فى أصل الشجرة هو أن تلك الظواهر كلها لم تكن عارضة أو نتيجة عوامل ذاتية وشخصية قدر ما كانت شيئا من جوهر نظام يوليو منذ قيامه ، وقد حلل المؤرخ المفكر طارق البشرى هذا الجوهر فى دراسته الدقيقة النفاذة «الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو، ١٩٥٢ – ١٩٧٠، ١٩٨٧»، وهى بلورة وتعمق لدراسات له سابقة عن «الديمقراطية والناصرية، ٧٥» و «دراسات فى الديمقراطية المصرية، ٨٧» اجتمعت لها دقة المؤرخ ونزاهة القاضى، ودافعها حسن الإفادة من دروس التاريخ القريب الذى لا يزال يعيش بيننا، ويبدأ طارق منذ تكوين تنظيم «الضباط الأحرار» فى أوائل الأربعينات، حتى استيلائه على

السلطة فى يوليو ٥٢، ويقف عند السنتين اللتين حددتا ما بعدهما، حتى نهاية ٥٤ ويلاحظ أنه «على مدى الفترة التى تنتهى فى ١٩٥٤ تبلورت ملامح النظام السياسى الجديد على الوجه الذى استمر به، من حيث تصفية الحركة الحزبية جمعاء، بكل فصائلها وفرقها، من الحركة الإسلامية حتى الحركة الشيوعية، ومن أحزاب النخبة الحاكمة من قبل حتى أحزاب الحركة الشعبية الجديدة .. (..) أحزاب الثلاثينيات والأربعينيات التى ظهر الضباط الأحرار فى إطار دعاواها، ومن الوعاء الفسيح لها، ولم تجر مواجهة نظام ٢٣ يوليو لهذه التنظيمات على أساس الاختلافات حول مضمون السياسات التى تبناها كل تنظيم، وإنما جرت حول الوجود الحزبى نفسه ، «ويلاحظ كذلك أن مطالعة وقائع الثورة خلال ٥٣ و ٥٤ «تكشف عن ازدياد السلطة الفعلية لعبدالناصر مع تقدم انتصار مجلس الثورة على معارضيه من الأحزاب المختلفة ويبدو كذلك أن أعنة السلطة قد أفلتت من المجلس بوصفه التنظيمى إلى رئاسة المجلس بوصفها الزعامى، وضعف دور أعضاء المجلس كمشاركين فى صنع القرار، وما كان لمثل هذا المجلس أن يستبقى قوة ذاتية له فى مواجهة رئاسته الفردية، وهو نفسه يقف ضد حركة التمثيل الشعبى بعامة فلم يعد أمامه إلا أن يتفكك، أو أن يقبل أعضاؤه الانضواء تحت قيادة فردية وهكذا انحسم - فى عام ١٩٥٤ - وضع

النظام عبر الدوائر الثلاث المشار إليها (المجتمع الحزبى - الجيش - مجلس قيادة الثورة): أسقطت الحزبية، ومع سقوطها لم يعد هنالك بديل عن ظهور الزعامة الفردية للدولة والنظام والثورة..».

طيب، ما السمات العامة التى ميزت نظام دولة يوليو؟ يحددها البشرى فى سمات ثلاث: إنه يبدأ بدراسة الدساتير المتعددة التى صدرت (دستور لجنة الخمسين - دستور ٥٣ - دستور ٥٦ - دستور ٦٤ وتعديله فى ٦٩). من مناقشة تلك الدساتير المتتالية، والإجراءات التى أحاطت بإصدارها، يخلص إلى أن «أحد الأصول العامة فى بقاء الدولة منذ ثورة يوليو ٥٢، كان الدمج بين السلطتين التشريعية والتنفيذية، أو استيعاب السلطة التنفيذية للوجود المستقل للمجلس التشريعي، وقد افتقد وجود هذا المجلس أصلا ما يزيد على تسع سنوات فى فترة الثمانية عشر عاماً التالية على قيام الثورة..» تلك هى السمة الأولى، الثانية هى المركزية الشديدة فى بناء أجهزة الدولة، حتى تصل إلى قمة الهرم فى شخص رئيس الجمهورية «وقد جمع القائم على رأس الدولة سلطات تقرير السياسات وتشريعها وتنفيذها، وظهر رئيس الجمهورية القائم على رأس النظام مصدراً للشرعية، ومنبعاً للسلطة على نطاق المجتمع كله..» مع دمج السلطات لصالح جهاز الحكومة، «مع السلطة الفردية، تبدو السمة الثالثة للنظام السياسى الذى أقامته ثورة

يوليو وهى «استغناء التنظيم السياسى للدولة والمجتمع عن مبدأ الحزبية فى عمومه، سواء تعدد الأحزاب أو الحزب الواحد (..) فلم يوجد تنظيم سياسى حزبى له ذاتيته المتميزة عن الدولة..» ويتابع الكاتب التنظيمات المتتالية «هيئة التحرير، ٥٣ – الاتحاد القومى، ٥٦ – الاتحاد الاشتراكى، ٦٢) ويورد ملاحظة ذات دلالة فى هذا السياق، مؤداها أن أخطر القرارات السياسية التى اتخذت فى الخمسينات والستينات، «وترتبت عليها التحولات السياسية والاجتماعية الكبرى، اتخذها الرئيس بجهازه الحاكم، دون أن يكون للتنظيمات الشعبية أثر فيها بل لعل أهمها اتخذ فى فترة كاد التنظيم فيها أن يكون غائباً عن الوجود..».

ولاشك فى أن هذا الكيان التنظيمى قد ولّد عدداً من التناقضات داخل بنيته، وفى هذا الصدد يقف الباحث عند أجهزة الأمن السياسى يعددها: ثمة «المباحث العامة» و «المباحث الجنائية العسكرية» و «جهاز المخابرات العامة»، ثم أضيف إليها «مكتب الرئيس لشئون المعلومات» و «المخابرات الحربية» و «مخابرات الطيران» و «مكاتب الأمن» فى الوزرات والمصالح، و «الرقابة الإدارية» .. الخ. و «الخلاصة أن الظاهرة التنظيمية التى تميزت بها ثورة ٢٣ يوليو، وهى اندماج الوظيفة السياسية فى الأجهزة الإدارية ما لبثت أن تخصصت وآلت.. إلى اندماج الوظيفة السياسية فى أجهزة الأمن..».

يتفق المؤرخان لنظام يوليو: حمروش والبشرى - كل بصياغته الخاصة - مع جمهرة الباحثين الذين تصدوا لدراسة هذا النظام، بعيداً عن الهوى الجامح، أو الدفاع عن مصالح خاصة ضيقة، أو تصفيه الحسابات المعلقة، فى الأثر الذى أحدثته أجهزة الأمن - يضيف إليه البشرى ظاهرة العنف فى التعامل مع الخصوم السياسيين وما تؤدى إليه من استخدام وسائل التعذيب ضد المسجونين والمعتقلين - فى جماهير المصريين، ويلاحظ حمروش أن الضباط الذين كان يختارهم النظام لمناصب السلطة العليا «معظمهم كانوا ضباطاً فى المخابرات العامة أو الحربية (على صبرى وكمال رفعت وطلعت خيرى وثروت عكاشة وعبدالقادر حاتم وشعراوى جمعه وأمين هويدى وتوفيق عبدالفتاح وعبدالمحسن أبو النور .. الخ) .. (..) الأمر الذى انعكس على أسلوبهم فى الحكم، حيث اعتمدوا على السرية والانغلاق والتقارير.. كانت أجهزة الأمن تزداد فى العدد والإمكانيات المادية بصفة مستمرة، وكان طريق الوصول للسلطة هو كتابة التقارير، فهى معيار الإخلاص، وميزان الولاء..»، ولم يقتصر هذا الأمر على العسكريين، بل جاوزهم إلى «عدد من الوزراء المدنيين كانوا يعملون، ويتعاونون أصلا، فى المخابرات (..) وبعض المسئولين عن الصحف كانوا يلعبون دور أجهزة الأمن..» يتابع حمروش: «وهكذا نمت أجهزة الأمن والمعلومات واتسعت

شباكها حتى كادت تستوعب المجتمع كله ، وفقد الناس الثقة في بعضهم.. وبذر الخوف في قلوبهم، فانعقدت ألسنتهم وآثروا الصمت والسلبية والبعد عن المخاطر وفي هذا الجو تغلبت نظرية الإخلاص على الخبرة ولم يعد غريباً ظهور عنصر العسكريين، وخاصة المرتبطين بأجهزة الأمن في مراكز تبعد تماما عن طبيعتهم ومعرفتهم، وكما حدث في مناصب الوزراء، حدث في كثير من المناصب الأخرى الحساسة ، ويكتب طارق البشرى : «أن ما حدث في هذه الفترة قد ولد آثارا سلبية شائهة في التكوين الجمعي للشعب المصرى، وذلك من حيث قدرة الأفراد والجماعات على المقاومة، وعلى المبادرة وعلى النقد الطليق غير الحذر، غير المتوجس، وعلى المشاركة الايجابية في الشئون العامة، وولد ذلك في النفس المصرية لدى الجيل المعايش لهذه الأحداث قدرا ضارا من النزوع الانسحابي والنأى عن التصدى، كما ولد عادة ضارة من النظر للأحداث نظرة المتفرج من بعيد.. ترهلت الوشائج بين القول والفعل، فلم يعد القول فعلا، ولا عاد من شأنه أن يفضي إلى فعل، سواء من القائل أو السامع»

ولعل تلك أخطر الآثار وأبقاها، وهي تفسر لنا حقائق كثيرة مازالت تعيش معنا وفينا حتى اليوم!

★★★

يكفى هذا عن الوجه الآخر، لكنه - بطبيعة الحال - ليس الوحيد، ثمة الوجه المضىء لثورة يوليو: هى - فى جوهرها - ثورة تحرر وطنى لم تتخل أبدا عن هذا الهدف أو تتهاون فيه، بصرف النظر عن الانتصار والانكسار. امتدت معركتها - الى جانب اجلاء البريطانيين عن أرضها - إلى تحرير الارادة السياسية، ورفض مشاريع «الدفاع المشترك» التى يهدف بها الغرب الى اعادة السيطرة على الأرض العربية كلها. «اتضح من ذلك، ومن مواجهة الخطر الاسرائيلى، العمق العربى لسياسة التحرر، ومع صياغة هدف الوحدة العربية، وصياغة سياسة الحياد الايجابى، ثم عدم الانحياز، كل ذلك استلزم من الثورة اتخاذ موقف التأهب الدائب والتعبئة السياسية المتصلة، واقتضى منها خوض المعارك السياسية المتصلة من ٥٥ إلى ٧٠ وفى خضم هذه المواجهة بدأت تتشكل تباعا برامج النهوض الاقتصادى وخططه، ومن خلال هذا الصراع انفتح طريق دعم الاستقلال السياسى بتحقيق الاستقلال الاقتصادى(..) كذلك اتخذت خطوات هامة بالنسبة للاعتراف بحقوق الأفراد ودعمها سواء من النواحى الاقتصادية والاجتماعية، أو من الناحية السياسية (البشرى، المرجع السابق) ولاشك أن هذا كله تبلور فى الوثيقة السياسية العليا للنظام، ميثاق العمل الوطنى، يونيو ٦٢.

★★★

ولم يكن أى من الوجهين – للأسباب التى سبقت الاشارة لها – غـائبـا عن يوسف ادريس. وقـدر قـوة طرفى التناقض يكون عنف الصراع : هذا نظام وطنى لا شبهة فيه، يسعى لتحقيق الاستقلال، وتحرير الإرادة وإحداث تحولات فى الواقع الاجتماعى تتوجه نحو أفق اشتراكى. وقد أنجز الكثير، وجعل من مصر دولة ناهضة، تلعب دورا قائدا – باقتدار – على المستوى العربى والافريقى والاسلامى والعالمى. هذا كله صحيح، لكن الصحيح أيضا انه نظام مستبد باطش، يضرب خصومه – وقد يكونون متفقين من حيث الأهداف– دون رحمة، ويخنق كل رأى معارض، ويبتعد عن نبض الناس معتمدا فى حكمهم وتقرير شئونهم على أجهزة الأمن والمخابرات، ويفرض طابعه «العسكرى» الغاشم على كل مناحى الحياة.

ويوسف إدريس – بماضيه المثقل وحساسياته الفائقة – ممزق بين الوجهين: عليه أن يتقى النظام الباطش، فلا يقع مرة أخرى تحت سنابك العسكر، لكنه – يقينا – لم يعد ذلك المؤمن به، المستنيم اليه، المتطامن تحت جناحه بغير تحفظ، وهذا ما نجده فى ابداعه حول منتصف الستينيات ، ثم كان ما كان فى ٦٧ ، ولم يكن يستقيم أن يكون سواه، فتلك الهزيمة بحجمها المروع، ليست سوى جماع كل العوامل التى صاغت الوجه القبيح لنظام يوليو، فمالت بصاحبنا أكثر وأكثر نحو التعبير عن موقف الرفض بالرمز والايماء.

فى الأعمال التى صدرت حول منتصف الستينيات، نجد «تيمات» أو موضوعات جديدة تتردد فيها: ثمة العنف والقسوة فى المضمون والتعبير، وثمة الاحساس الخانق بالقهر، والسقوط فى مواجهته بعد مقاومة أو دون مقاومة، وثمة كذلك الاحساس الغامر بالخديعة، وبأن وراء الواجهات البراقة صدوعا تمتد إلى اسس البناء ذاته، وثمة خيبة الأمل والمسعى والاحباط، وتضاؤل الانسان أمام الجدران والنظم والقوانين، وكأن هذا القهر «الكوني» قد ضرب عليه، فلا مهرب منه ولا فكاك، كل هذا من ناحية، من الناحية الأخرى ثمة قصص محددة تعبر عن الرفض لهذا الجانب او ذاك من جوانب الواقع. وتبدى الرأى فيه، من وراء أقنعة تشف ولاتفصح، أعنى قصصا مثل «العملية الكبرى» و«المرتبة المقعرة» و«الخدعة» و«الرحلة» و«حمال الكراسى» وفى سياق أشمل «النقطة» و«معجزة العصر».

فكيف صاغ يوسف رؤيته الجديدة المختلفة للواقع؟

★★★

تتمثل أهم ملامح تلك الرؤية فى مجموعاته الثلاث: لغة الآى أى، ٦٥ و«النداهة» ٦٩، ثم «بيت من لحم، ٧١» وقد نستطيع القول - باختصار - أن العنف والقسوة «تيمة» رئيسة فى الأولى، والقهر، والسقوط فى مواجهته، تيمة رئيسة فى الثانية، ثم الاحساس بالخديعة، وقيام نوع من

التواطؤ الخفي، المتفق عليه بين الأطراف المستفيدة من قيامه في الثالثة.

في «لغة الآى اى» يتعمد الكاتب أن يقسو على أبطاله وقرائه جميعا. إن السرطان الذى يفتك بجسد فهمي يسبب له آلاما فوق طاقة البشر على الاحتمال، في معركة تدور بين كائن أعزل، وخصم رهيب جبار غير منظور، «إنه ألم سرطان المثانة المروع حيث يزحف مع الليل، حين تبدأ قطرات البول تتجمع بحمضها عبر الورم الخبيث الذى نفذ فى كل المسالك، ومرور القطرة على الورم المتهتك المجروح يسحق بالألم الذى يصدره كائنا حيا فى ضخامة الفيل وبلادة احساسه (..) انه الألم الذى يسمونه فوق احتمال البشر، فهو لم يخلق لبشر، ولم يخلق البشر وتزود أعصابهم بتلك القدرة الهائلة على الاحساس كى يسحقها ويكويها ألم كهذا الألم» والألم يدفع صاحبه لأن يطلق صرخات ثاقبة لاسعة كاوية، تستحيل همهمات وأصواتا غير انسانية وغير مفهومة، ومن حوله، تحيط به وتصدر عنه «رائحة خانقة حامضة قابضة نفاذة، هى رائحة البول والصديد، وعدد لا يحصى من بقع الدماء الصفراء تصبغ الأرض» ، العين ترى والأذن تسمع والأنف تشم. والكاتب يمرغ بطله وقارئه فى الدم والبول والصديد، يفتح أذنيه على تلك الصرخات، ويفتح عينيه على مشهد الألم الساحق يفترس كائنا انسانيا أعزل لا قبل له بمقاومته أو احتماله.

وفى «اللعبة» تتخذ القسوة شكلا آخر، هو انفجار البطل فى ضرب الرجل الذى خيل إليه أنه قد خدعه ، «انقلب الغضب الى حنق مجنون، لم يعد يرى معه كيف ولا أين يضرب. فمن هناك. من أغوار سحيقة جدا فى كيانه كانت تتدفق حمم من الحقد المغلى الملتهب، وتنفجر معبرة عن نفسها المخيفة من خلال أيديه وارجله واسنانه، فبأسنانه كان يعض وكأنه انقلب الى وحش، ويكعب حذائه يدك، وبقبضتيه يضمهما معا ويرفعهما عاليا ويهوى بهما دفعة واحدة كالمعول الهائل محطما ومدمرا، وكلما أحس بالوهن، تذكر انه خدع، فتعود اليه قواه ليعود فيواصل الضرب، وفى النهاية تعب الضارب ولم يهن المضروب، وتكشف له أن هذه هى «اللعبة» . وسيعود يوسف يستمتع بكتابة هذا المشهد الذى تتفجر فيه حمم العدوان، المتبادل هذه المرة، فى قصته «سيف يد» (مجموعة انا سلطان قانون الوجود» (٨٠) فقد عنفت الضربات التى يكيلها كل من الرجلين للآخر حتى ارتميا وهما «كتلتان من الأنسجة المبعثرة والملابس الممزقة وبقع الدم، ممددتان على الأرض فى مكتب ليس به سواهما».

وفى «الأورطى» يتفجر عدوان الجماعة كلها، فتسلخ الرجل بعد أن تعلقه كالذبيحة وتظل تنزع عنه الأربطة وتغوص بأيديها فى اشلائه الممزقة حتى أصبح عاريا تماما «وكان هناك جرح طويل جدا يمتد من

صدره الى آخر بطنه وكأن صدره وبطنه فارغات، كأنما انتزعت منهما كل ماتحوياه من أجهزة، وكان الأورطى يتدلى من صدره، من مكان القلب كمزمار غاب سميك، طويلا شاحبا، مقطوعا يتأرجح داخل بطنه كالبندول» وأخيرا هذا عم حسن صاحب مصر بعد أن وقع عليه عدوان ظالم لارغامه على الرحيل، «فى الداخل كان عم حسن راقدا وحول عينيه كدمة زرقاء كبيرة، وصدغه وارم، وواضح من هيئته أن اعتداء قاسيا قد وقع عليه»

تختلف وظيفة العنف فى كل من هذه الأعمال، لكننى أحس وراءها جميعا رغبة طاغية عند الكاتب فى أن يصدم قارئه، وأن يهزه هزا عنيفا بجماع يديه، كى يفتح حواسه على الواقع من حوله، إن فتحها شم رائحة البول والصديد، ورأى العنف منطلقا من كل عقال، وسمع صرخات الألم الثاقبة وقد استحالت حروفا وكلمات مهشمة وهمهمات: إنه شىء يشبه ما يقصد اليه أصحاب «مسرح القسوة» فى استفزاز المشاهد ودفعه دفعا لأن يعيد النظر فى شروط واقعه، ويتخذ منه موقفا جديدا ومختلفا.

★★★

المجموعتان التاليتان: «النداهة» و«بيت من لحم» تكشفان عن الاحساس بالقهر، والاستجابة له، وقد سبق أن أشرت لأن اختلاف دلالة

سـقـوط كل من بطلتى «قـاع المدينة» ٥٦ و«النداهة» ٦٨ انما يعكس الاختلاف فى رؤية يوسف ادريس للواقع : إن «شهرت» سقطت نتيجة شروط موجودة فى الواقع المادى وحده: زوج عاطل وأطفال جوعى وحياة مترنحة لاتستقر على حال، وهى قد خرجت تلتمس العمل الشريف، لكن ثمنه كان أن تسلم جسدها دون رغبة أو استمتاع لكنها بعد أن سقطت عملت على أن ترفع ثمن جسدها فى السوق، وأن تجد، الى جوار اللقمة، بلوزة جديدة، أما فتحية فقد جاء سقوطها كأنه قدرها الخاص، صحيح اننا نستطيع القول بأن هذا السقوط كان واردا منذ قررت ان تترك قريتها البعيدة وتأتى للقاهرة، لكن قرارها لم يكن واعيا، قدر ما كان «من وراء عقلها، كان دائما أصبع يشير، أصبع ضبابى غامض يكاد يهمس لها ويعبر(..) انها، حقا، بطريقة أو أخرى سيكتب لها أن تعيش فى مصر، ذلك المكان الواسع الرائع، أم الدنيا» وجاءت وعاشت واستطاعت ان ترى ماوراء السطح الزاهى، بحيث اصبحت تدرك «أن تحت مصر الوجيهة التقية المؤدبة الوقور، هناك مصر أخرى مليئة بالفضائح والمخازى» لكن ذلك الهاتف، ذلك الإصبع الغامض الذى أشار لها فى البداية، هو ذاته الذى يؤكد لها أنها واقعة فى المحظور مع «الأفندى» لا محالة، ومهما فعلت، كانت شهرت فى «قاع المدينة» بلا هاتف ولا أصبع غامض يشير، خرجت تعمل فسقطت دون رغبة فى

السقوط، أما فتحية فإن سقوطها يمثل قدرها الخاص، صحيح انه جزء من ، ملتحم بـ «القهر العام» لكنه يبقى خاصا بها، وهى فى النهاية تتقبله راضية، ولعلها ستعمل فى مستقبلها الذى يمكن التنبؤ به، على أن ترفع سعر جسدها فى سوق المدينة!

المقهور الحقيقى هنا هو «النص نص» أن تلك القصة بلا شبيه فى أعمال يوسف، أطلق فيها العنان لخيال ذى طابع علمى، فجعل بطلبه - الذى فى حجم عقلة الإصبع - عبقريا فذا، يحصل على أربع عشرة «دكتوراه» فى شتى مناحى المعرفة، وجعل اساتذته «يكتشفون انهم قضوا حياتهم عبثا، وأن دراسة الكون كأجزاء منفصلة، والاغراق فى التخصص قد سلبهم القدرة على النظرة الكلية، وأن خير وسيلة للدراسة والمعرفة هو ما فعله «النص نص» وهى أن يعيد العالم مرة أخرى مثلما كان الحال أيام ابن سينا وابن رشد، عالما فى كل شيء ليستطيع أن يصل إلى المفتاح السحرى للعلم» لكن مشكلته الحقيقية هى حجمه ذاك الضئيل، الذى يحول بينه وبين أن يعمل وأن يجد مكانا له فى الحياة .بعد فشله المتكرر فى محاولات الانتحار، قرر أن «يكافح ليحيا كما يريد ينتزع الحياة بأظافره واسنانه، وقرر كذلك أن يتصدى بالعلم لحل كل المشاكل التى استعصى على الانسان حلها، أعد مركبة للوصول الى القمر وبقية الكواكب والعودة منها، وتوصل إلى «كورس» يضع الانسان

العادى على حدود العبقرية، ونجح فى أن يعرف، سر تركيب المادة الحية، وأوصلته أبحاثه هذه الى اكتشاف علاج للسرطان ثم بقية الأمراض، وأخيرا توج «النص نص» ابحاثه فى خلال بضعة شهور بأن استطا ع اكتشاف نظرية جديدة لتركيب الكون» ، لكن المشكلة هى فى الاهمال الذى يلقاه لضآلة حجمه، وحين ضاق بهذا كله انطلق الى «الكرة الأرضية المقابلة، حيث وجد أهلها فى مثل حجمه، وبينهم عاش فتعلموا منه، ورجع له الحنين الى كرته الأرضية ومصره وقاهرته ، حنين الجزء الى الكل هو الذى عاد به، منذ عاد وهو ضائع يبحث الناس عنه فى كل مكان ولايزالون يوالون البحث، أما أين وكيف يعيش الآن، فذلك لغز لم يستطع أحد ولن يستطيع حله، من يدرى؟ ربما يكون فى هذه الكتلة البارزة من الرمل أو من التراب وربما تحت هذه المحارة، أو اسفل كومة الحشائش، ربما فى جيبك أنت، وأنت لاتدرى» .

إن هذه القصة المتفردة فى أعمال يوسف ادريس لا سبيل لحسن فهمها - وقد نشرها فى ٦٩ - الا من حيث انها تصور قهر الانسان الصغير، هذا الانسان القادر على قهر الكون ومعرفة اسراره، فقط لو أتيحت له الفرصة، وتحرر من مصادر قهره.

والتواطؤ كذلك ينمو فى ظل الواقع المحبط، فهذا الواقع ذاته هو المناخ النموذجي للصمت عن أثم مشترك (بيت من لحم) أو عدوان توقعه الجماعة بأحد أفرادها لأنه جرؤ على ازاحة الستر عن الخبىء. وكشف

سر الصمت (سنوبزم) ولعل هذه الأخيرة أن تكون مثالا فاضحا لما نعنى. وهذا هو «الدكتور عويس» يشخص الحالة: «الفرد حين يرتكب جريمة، مسألة تدخل فى نطاق العقل، أما الجماعة حين تجرم هكذا، وبالتلقائية، وبدون اتفاق سابق، وبالاجماع الذى لايشذ عنه أحد، عن عمد وبلا تردد وفى وضح النهار ، حين تفعل هذا، فنحن أمام انثروبولوجية لم تعرفها البشرية من قبل» وقد ارتكبت جماعة الاتوبيس جريمتها مرتين: ضد امرأة لانها جرؤت على الاستغاثة من رجل يقف ملتصقا بها، ويتمادى فيحاول أن يعريها، ثم ضد الدكتور عويس، نفسه لأنه جرؤ على التدخل والتساؤل : لايهمه ابدا ما حدث من الناحية الاخلاقية أو القانونية، الناحية العلمية فقط هى التى تعفيه، انما لهذا أوسعته الجماعة المتواطئة ضربا، والقت به من الاتوبيس الى جوار الضحية الأولى، ووعى عويس الدرس وها هو يردده : «الظاهر أن الست دى كانت آخر واحدة تشذ وتستغيث، وانا كنت آخر أحمق يقول أنا شفت أما الآن فاللعبة تتم فى صمت وقواعدها معروفة: الا ترى واذا رأيت فكانك لاترى، واذا حدث هذا لغيرك فلا شيء يعنيك اما اذا حدث لك فكانه لم يحدث.

هل تريد اجماعا على التواطؤ أكثر من هذا الاجماع؟ تنتهى القصة وانت لا تعرف: هل الدكتور عويس باهتمامه المفرط «باللائحة» وحياده

العلمى المشبوه هو «السنوب» أم أن «السنوبز» هم هؤلاء المتواطئون الذين اقعوا به أشد العقاب؟

★★★

تلك التيمات او الموضوعات الثلاثة، العنف والقهر والتواطؤ تشيع فى تلك المجموعات الثلاث اكثر مما تتحدد فى قصص بعينها، لكن هناك قصصا أخرى تتناول جوانب محددة من الواقع وتحاول الكشف عنها عن طريق الرمز والايحاء، وهى كلها مكتوبة، ومنشورة بعد ٦٧، خاصة فى ٦٩ – ٧٠، من هذه القصص «العملية الكبرى» التى سبق أن عرضنا لها فى سياق آخر، فحين نشرت هذه القصة (الأهرام، يوليو ٦٩) رأى كثيرون من قرائها وجه عبدالناصر يتخايل لهم وراء وجه الدكتور ادهم، وكانت الأوصاف التى يصف بها الكاتب الجراح الكبير هى التى تقودهم فى هذا السبيل «هنا حيث رأى استاذ الجراحة الكبير لايصف الدواء، ويترك العمليات الغامضة فى الجسم كى تعمل عملها وتشفى، دائما بأصابعه الطويلة الحادة القوية يقطع ويصل ويستأصل ويعيد التشكيل(..) كانت شهرة الأستاذ ادهم، اذن، كرئيس لايرحم تكاد تعادل شهرته كأستاذ جراحة ممتاز، كان أيضا كبير الأساتذة والقائم بعمل عميد الكلية ومستشار وزارة الصحة» اما بعد أن ارتكب الجراح العظيم خطأه الأكبر فجرح الأورطى وتفجرت نافورة الدم بغير توقف،

فإنه لم يفقد أعصابه، وقرر أن يستأصل الأورطي كله، ويضع بدله وصلة من شريان الفخذ، واستغرقت «العملية الكبرى» خمس ساعات، قال الدكتور ادهم فى نهايتها انه قد أدى واجبه، وان مصر قد كسبت عملية لم يسبقه اليها أحد، وأن هذه السيدة كانت، فى كل الأحوال ، ستموت، ثم ألقى باللوم على الأدوات غير المضبوطة، لكن مساعده رأى الأمر بوضوح «الطريقة خاطئة» والفكرة من أولها خاطئة، والخطأ ممتد وبادىء من اللحظة التى قرر فيها أن يحيل عملية الاستكشاف الى عملية استئصال كبرى، بل الخطأ يمتد إلى أبعد، الى ذلك اليوم الذى أصبحت الجراحة عند استاذه تزاول من أجل الجراحة، واصبحت العمليات واصحابها، وهم غالبا من الفقراء الذين بلا حول، ميدانا لاثبات القدرة والاستاذية» .

فى ضوء ما تبين بعد كارثة ٦٧ من أن النظام لم تكن لديه خطة للحرب ضد اسرائيل، وانه كان يقامر بالوقوف على حافتها، ودفع العالم كله الى محاولة تجنبها، بهدف تحقيق كسب سياسي، على غرار ما حدث فى ٥٦ وفى ضوء غياب نظرية او منهج واضح يتم التزامه فى الداخل والخارج، وفى ضوء ما كان يقوله عبدالناصر من أنه لايفعل، لكنه يستجيب للفعل، (قالها للصحفى الهندى «كارانجيا» بالانجليزية I do not act . I react) وتثبته قراراته وقوانينه المتتالية، اقول: فى

ضوء هذا كله لايصبح وجه عبدالناصر بعيدا عن وجه الدكتور ادهم، ويبقى قطع الشريان الرئيسى في الجسد هو ما حدث فى ٦٧، ويبقى الأمل فى الحياة التى تتدفق عبر الجسدين الشابين اللذين يمارسان لذة الخلق فى حضرة الموت.

المرتبة المقعرة، المكتوبة فى ٦٨، تفصح عن مضمونها بعملية حسابية صغيرة، الرجل يسال زوجته إن كانت الدنيا قد تغيرت، وحين تجيبه بالنفى يعود الرجل إلى نومه، نام عاما، ثم خمسة أعوام، ثم عشرة مات بعدها، وحين «حملوه بالمرتبة التى تحولت الى لحد، وألقوه من النافذة الى أرض الشارع الصلبة، تغيرت الدنيا» نام الرجل، اذن، ستة عشر عاما، نام من ٥٢ إلى ٦٨، وقد مات لأنه لم ينظر بنفسه ليرى ان كانت الدنيا قد تغيرت أم بقيت على حالها، وخطأه المميت انه لم يسع الى بذل ادنى جهد من أجل تغييرها فكان حتما أن يموت.

وقد أثارت «الخدعة» لغطا مكتوما حين نشرت (الأهرام، ابريل ٦٩) وتردد وقتها أن كثيرين قد زعموا أن رأس الجمل، المشقوقة القبيحة التى تطارد البطل فى كل مكان، حتى تقف بينه وبين امرأته في الفراش، إنما هى وجه عبدالناصر (بل مضى بعضهم الى الربط بين «رأس الجمل!» و«رأس جمال» ! وأن يوسف أوقف عن الكتابة بعدها، حتى توسط له رئيس التحرير القوى حسنين هيكل، لكن القصة لايمكن تفسيرها على

هذا النحو الآلى الضيق، وهو تفسير يحد من امكاناتها وقدرتها على التعبير، ولنلاحظ اولا، ان الرأس تبدو للبطل اول مرة وهو ينظر الى وجهه فى نبع ماء كأنما خرجت عنه «رايت بجوار صورتى المهتزة اهتزاز درجات الأبيض والأسود فيها واهتزاز القمر، صورة رأس آخر، رأس طويل ممتد الى الأمام، ينتهى بشق عرضى واسع سعة لا حد لها، وكأنما لايكفى هذا، فأيضا شق بالطول، رأس جمل لابد». ولنلاحظ ثانيا، ان الكاتب يعود مرة أخرى ليوحى بذات المعنى حين تبين البطل ان زملاءه فى المكتب «كان واضحا انهم من زمن يعانون نفس الشعور، وان رأس الجمل يظهر لهم فى كل مكان وأى ساعة. لكن السؤال، أهو نفس الرأس يظهر للجميع؟ أم أن لكل منا رأس جمله الخاص. كما يقولون فى الأساطير ان لكل منا أخته تحت الأرض أو فوقها، أو ككتاب يوم القيامة الذى يعلق فى عنقه؟» ولنلاحظ ثالثا، أن ذلك الرأس لايفعل شيئا سوى أن ينظر «الى أمامه يتطلع ولايتحرك لايغضب ولا يرضى لا يحفن، لايثبط، لايفعل شيئا أبدا إلا أن يطل، مجرد يطل» .

تلك الملاحظات تباعد بين القارىء وهذا التفسير الفج السهل، الأدق أن هذا هو وجهنا، نحن، القبيح، انه كل ما فعلناه وأنكرناه، كل ما لم نفعله وادعيناه، كل ما لانستحقه وأخذناه، كل ما أخذناه ولم نعط فى مقابله، كل ما طفحت به أعماق النفس من رماد الإحباط والفشل والبحث

المحموم عن يقين مراوغ خلب، وان جاز ان نضيف شيئا له دلالة سياسية ما، فقد نقول إنه وجه النظام القبيح بالمعنى الذى سبقت له الاشارة.

وفى كثير مما نشر عن قصة «الرحلة» (كتبت ونشرت فى يونيو ٧٠) ترد الاشارة الى الموقف المزدوج تجاه الأب، حبه وكرهه معاً وفى نفس الآن، أن العلاقة بالأب تتردد فى قصص يوسف السابقة على نحو يحتفظ للأب بمشاعر الحب وحدها: فى «آخر الدنيا» يعبر الصبى عن افتقاده الدائم لأبيه الذى يغيب طويلا ويأتى قليلا، «والحقيقة انه لم يكن يأتى كثيرا، كل نصف شهر مرة، يفاجأ حين يعود من المدرسة، بصوته الحبيب يأتيه من وراء الباب قبل أن يفتح له الباب. او يكون الليل قد استتب. وسكنت الأصوات ثم مر قطار الليل بصفيره الحزين النعسان، ومرت بعده دقائق، واذا بالقبضة تدق الباب، وما من مرة يفوت فيها آخر قطار إلا ويستجمع نفسه استعدادا للمفاجأة واستعدادا لما قد يعقبها من خيبة الأمل.

أما قصته الرائعة «اليد الكبيرة» فهى بكائيته لموت الأب، وعودته هو – الابن الأكبر – للقرية أول مرة بعد موته، وكيف وجد كل شىء قد اختلف عما كان، فقد مات الأب، فكأنما غابت عن الأشياء روحها، وفقدت انتظامها فى كل متماسك له معنى، الى جبانة القرية يذهب،

وهناك يدور الحوار بين الأب الراقد تحت كل هذه الكمية من الحجارة والتراب والأسمنت، والابن الواقف غارقا فى حزنه وذكرياته، وحين عاد الى البيت الذى خلا منه، وجلس بين اخوته «تطلعت فى وجوه اخوتى، وجوه مطرقة صامتة ذاهلة، وتطلعوا الىّ، وفجأة، وكأنما لسعنا خاطر واحد انفجرنا كلنا نبكى، فقد أحسست لحظتها فقط أن أبانا، حقيقة، مات، وانه انتهى من حياتنا الى الأبد، ولم يعد لنا أب» ما أبشع هذا، لم يعد لنا أب، تلك القصة كما روى يوسف نفسه وأكد بعض أصدقائه كتبها قبل موت ابيه فعلا فى ٥٦، وانه بقى متحرجا من نشرها فلم ينشرها الا فى ٥٨، (ويمكنك أن تجد تنويعا آخر على نفس العلاقة فى قصتى «المحفظة» و«أبو الهول».)

لكن الموقف فى «الرحلة» لايتعلق بالأب الموضوعى او الفعلى قدر ما يتعلق بالأب – الحاكم او الحاكم — الأب . وهى مونولوج طويل لايستطيع الابن أن ينطق به كله الا فى الحالة التى هو فيها: الاب قد مات بالفعل، فألبسه الابن ثيابه التى يحبها ووضعه الى جواره فى العربة، وانطلق خارجا به من المدينة، وانطلق يتحدث اليه «انا وأنت ومن بعدها الطوفان(..) صغرت أنت أم كبرت أنا، لا اعرف. ما أعرفه ان كل ما أردته فيك. وأردت أن أكونه، ها أنذا الآن فيه، كل ما كرهته لم أعد أكرهه، وكل ما كان لا يعجبك فىّ قد أصبح بمعجزة، يعجبك، تريد أن

أكـون انت، وأريد أن تكون لنا، تطابقنا» ولنلاحظ أن هذا التـوحـد او التماهي لم يحدث إلا بعد أن أصبح الأب جثة، لا قبل ذلك، ويواصل الحديث الى الجثة الصامتة: «أنت الوحيد في الدنيا الذى كنت أخافه، كنت دائما هناك في بيتنا تربطني تشدني انى اذهب، الف وأعود وكأن لى فى بيتنا جذر، الآن جذرى معى، انا النبات الذى تحرر وانطلق «لكن الجثة تبدأ في التحلل وتطلق روائحها الخبيثة، يتشممها الآخرون منكرين متسائلين، وتشتد الرائحة وتقوى حتى أن أهل المدينة التالية يهجرون مدينتهم قبل أن تصلهم الرائحة الملعونة، وأخيرا تبلغ الرائحة أنف الابن ذاته، رغم انكاره، لكنه لايقوى على احتمالها فتكون النهاية :« الرائحة ابشع من الموت، اموت ولا أشمها، واذا شممتها أموت.. أنفاسي تختنق، لم يعد هناك مناص اما حياتي او موتك، لم يعد هناك مناص.. لابد ان تنتهي انت لابد أنا» هكذا يترك الابن الجثة في العربة، يترك العربة لها قبرا ولحداً، وينطلق على قدميه جزعا للفراق، لكنه سعيد بالخلاص من تلك الرائحة الغالية الملعونة.

تلك هي الرحلة، ولو تذكرنا تاريخ كتابتها، وتذكرنا ان مرض عبدالناصر، وسفره للعلاج اكثر من مرة كانت أمورا معروفة يدور عنها الحديث في ذلك الحين ، لوضح لنا أن خيال القاص المبدع الذى استبق موت الأب الموضوعي فكتب «اليد الكبيرة» استطاع أيضا ان يستبق

موت «الأب الحاكم» فكتب «الرحلة» ولئن كانت شروط الحياة الشخصية للكاتب قد جعلت الأب يحظى بمشاعر الحب الخالص (على حين تضطرب العلاقة بالأم، وتزدوج المشاعر نحوها وتتناقض لكن تبقى مشاعر النفور والكراهية هى الأغلب) فإن شروط الحياة العامة فى مصر الستينيات قد جعلت عبدالناصر يحظى بالحب والكره معا فى جدلية واحدة . ان هذه القصة، وحدها، تلخص وتكثف وتفنن علاقة جيل كامل بعبدالناصر: كيف تعلقوا به وأحبوه ووجدوا الأمان فى كنفه، ثم كيف تصاعدت الرائحة (رائحة الفساد فى نظامه) حتى أصبحت لاتطاق!

و«حمال الكراسى» بناء رمزى خالص، لكن الرموز واضحة تفصح عن معناها دون غموض كثير، فهذا الكرسى لايمكن الا أن يكون كرسى العرش، الحكم، السلطة، النظام : «كرسى هائل ضخم كأنه مؤسسة واسع القاعدة، ناعم، فرشه، من جلد النمر، ومسانده من حرير، وحلمك كله إذا رأيته أن تجلس عليه مرة أو لحظة» و«حمال الكرسى» لايمكن أن يكون الا الشعب المصرى، «انسان نحيف معروق، قد نضح العرق على جسده ترعا ومصارف وانبثق شعرا وغابات واحراشا» ثم أن وجهه طيب رغم ما فيه من تجاعيد «ومع هذا لاتستطيع ان تحدد له عمرا» وهو يتحرك بحمله الثقيل هذا وسط ميادين القاهرة الحديثة وشوارعها، دون

أن يلفت نظر أحد وكأن المسألة مفروغ منها، وهو يسأل الراوى عن «بتاح رع» فهو الذى أمره بحمل الكرسى قبل آلاف السنين «من أيام ما سموا النيل نيل، ونقلوا العاصمة من الجبل للضفة » ، وهى أمانة لا، يستطيع أن يضعها عنه إلا بأمر يأتيه من «بتاح رع» أو «من خليفته، من وكيله، من ولد من ولاد ولاده، من حد معاه امارة منه» الشيء المدهش حقا ما لاحظه الراوى، شيئا كاللافتة مثبت فى مقدمة الكرسى، ممهورة بتوقيع بتاح - رع نفسه، مكتوب فيها ان حمال الكراسى قد حمل بما فيه الكفاية، وأن يكون الكرسى له ولأولاده من بعده لكن حمال الكراسى لا يعرف القراءة. ومن ثم فسيظل يحمله حتى يأتيه أمر بتاح - رع او امارة منه، وقف الراوى حائرا وقد انصرف الرجل عنه ينوء بحمله الثقيل، لاهثا يئن وعرقه يسيل «وقفت حائرا اتساءل: ألحقه واقتله لأنفس عن غيظى؟ أندفع اسقط الكرسى عن كتفه بالقوة واريحه رغما عنه، أم اكتفى بالسخط المغيظ منه، أم أهدأ وأرثى لحاله، أم أصب اللوم على نفسى أنا لأنى لا أعرف الامارة؟»

وليس بتاح - رع والمناخ الفرعونى الذى يلف العمل كله (الرجل كان عارى الجسد لايغطيه الا حزام وسط متين يتدلى منه ساتر أمامى وخلفى من قماش قلوع المراكب» والكتابة على الكرسى كانت على قطعة من جلد غزال، وكأنها «النسخ الأولى للكتب المنزلة») سوى اشارة

الحقيقة التاريخية: أن مصر أقدم دولة مركزية عرفها التاريخ، وتلك حقيقة قد تفسر بعض الظواهر وقد يساء استخدامها لتفسير ظواهر أخرى . على هذا النحو يقدم الكاتب معادلا رمزيا لاحساسه بثقل النظام ووطأته على رءوس جماهير المصريين، ثقلا منهكا رازحا، يستغل جهل الناس وايمانهم بالغيبيات وعدم قدرتهم على حسن فهم الواقع، ومن ثم العمل على تغييره ليبقى ثقيلا ورازحا، وتساؤلات الراوى فى النهاية هى الخيارات المطروحة امام «المثقف» فى هذا الواقع . هل يكفر بالشعب ويندفع لاهانته وتحقيره؟ هل يجعل من نفسه وصيا عليه يسعى الى تغيير عالمه بالقوة دون ارادته ومشاركته؟ هل ينفض عن نفسه كل عبء ويكتفى بالرثاء للشعب، أم يتقدم ليتحمل مسئوليته لأنه لايعرف الامارة، ومن ثم فعليه ان يبذل الجهد من أجل معرفتها؟وهل كانت ثمة خيارات أخرى أمام المثقف فى واقع مابعد ٦٧؟(القصة منشورة فى فبراير ٦٩.)

ولست أعرف قصة يمتزج فيها القهر بالخديعة كما يمتزجان فى «هى» (مكتوبة فى ٦٩، ومنشورة فى ٧٠) يتمثل القهر فى هذا النداء الغامض الملح الذى يدعو البطل مبكرا قبل ان يستقيظ «عندك ميعاد فى العتبة،» فيلبيه من فوره، وها هو فى قلب الميدان القديم يسائل نفسه «كيف أطيع الصوت وأنا العلمى الذى لايؤمن بالدجل؟ حاولت العودة

فشلت، وأصبحت - لا أعرف كيف - مقيدا حبيس الميدان، وحولى سور خفى مكهرب لا استطيع اجتيازه. الميعاد متى ومع من ولماذا؟ لا أعرف» وهل تريد قهرا اشد من هذا القهر؟ لابد أن يلبى النداء الغامض دون أن يعرف، او يجرؤ على توجيه السؤال! قضى فى الميدان أكثر من عشرة أيام حتي جاءته سيارة فاخرة أمره سائقها بالركوب: «هى عايزاك» وتبدأ رؤية كالحلم. ظل السائق يصعد ويصعد ثم توقف وامره بالنزول، حيث وجد صحراء واسعة ممتدة لا شيء فيها ، وفجأة وجد أمامه بوابة قديمة مغلقة فجلس أمامها ينتظر. غابت الشمس وأشرقت، ثم غابت وأشرقت. وجد البوابة مفتوحة فدخل الى حديقة واسعة، أحاط به حراس مردة لكنهم عرائس خشبية، وفى منتصف الليل سمعهم يتحدثون، وقد انقلبوا من عرائس رجال الى عرائس نساء، هم - أو هن - يتحدثون عن «هى» وهذه بعض أوصافها: أجمل من كيلوباترا، أكثر أنوثة من افروديت، ساقاها أمتع من وليمة جنسية فخذاها امراتان فاجرتان، الخ، وأشرقت الشمس فلم يجد حوله حراسا ولا عرائس، بل وجد بابا لقصر أنيق، دخل وارتمى على أقرب مقعد ، نام وصحا فوجد أمامه ألف باب، اختار أبعدها فوجد نفسه فى بستان يتوسطه «بيسين» فيه امرأة وحيدة بعيدة، فجلس أمامها ينتظر حتى فرغت، وأمره الصوت الآمر ذاته بالدخول الى المخدع، فدخل بعد أحقاب، أمرت فحملته جواريها الى

الحمام، وعدن به وقد تم اعداده ثم جيء بالطعام والشراب، وكانت هي أجمل وأروع من كل ما تصور.. «وجاءت اللحظة واسترخت فوق الفراش تناديني ولبيت النداء، اشارت واطفئت الأنوار وتحسست جسدها وأنا ذائب معها في قبلة، واقشعرت يدي وهي تلامس فخذها، كانت خشنة، مليئة بالشعر.. اكتشفت أن الانثى التي أنا غائص فيها كانت مؤخرة رجل فاجر الشذوذ..» وانطلق يجري يبحث عن باب المخدع، يتعثر في غثيانه ويبحث ، ولا باب.

على هذا النحو تحول الحلم الى كابوس، وتحولت الأنثى التي كان البطل يرى أن كل نساء العالم قشور وهي قلبهن جميعا، أعماقهن، كل مافيهن من رقة وحنان وأنوثة، تحولت الى مؤخرة رجل شاذ، اية يقظة بشعة يصحو عليها بطل يوسف وهو يتخبط باحثا عن باب النجاة، ولا باب! تلك القصة ذاتها سيعود اليها صاحبها ليتخذها نواة مسرحيته الثالثة «الجنس الثالث».

وانني أود أن أختتم الحديث عن هذه المجموعة من القصص بواحدة من أعذبها، ومن أعذب قصص يوسف وأحفلها بالأمل والتفاؤل وحب الحياة في «النقطة» رجل واقف ينتظر حيث لامكان للانتظار، والمكان ن هناك شريطا حديديا طويلايشبه محطة، حيث لا محطة، كل المسألة أ يدخل المشهد منحنيا انحناءة قوس عظيم، وكأنه القوس الـذي تفتحه

لتضع داخله ثلاثة آلاف مليون انسان، سكان الأرض بحياتهم وهمومهم» والمشهد كله خريفى داكن يلفه الصمت والحزن، وهو مستمر دائم «النور غير مباشر وداكن، والشجرة قاتمة خريفية كأنها نبتت من بذرة خريف، وبين كل حين وحين تهب قبضة الهواء فتحرك الورق فى الشجرة وقش الأرز المترب فى الأرض ، ثم الاختلاجة الأخيرة لورقة شجرة أو عود قش، ثم الصمت المستمر الساكن» .. والواقف ينتظر نبضة الحياة الخافقة ، مثل النبضة الأولى للجنين ، تدب فيه ما أن يرى «النقطة» «رأس القطار تظهر من كرة الأفق، سوداء فلتكن ، ولكن لابد أن تظهر وتنبثق فجأة ، فيدق قلبى هلعا أو رعبا أو فرحا .. وأوجد وأعيش» .. هذا رغم أنه لم ير من قبل قطارا يمر من هنا، ولكن مادام هناك قضبان فلابد أن يكون هناك قطار ، وهو واقف ينتظر ، تملؤه الثقة «أجل ! أحدق فجأة فألمح ، هكذا بمعجزة ، النقطة ، وغير مهم بعد هذا أن تصبح النقطة شرطة، والشرطة خطا طويلا لا نهاية لطوله ».

نعم . رغم العقم والحزن، والخريف والدكنة والموات الماثل ، رغم هذا كله، من لا ينتظر ظهور النقطـــة ؟ فلتكن ما تكون ، المهم المهم أن تظهر ، وهل تصبح الحياة – مجرد الحياة – ممكنة بغير الأمل بهذا الظهور ؟

★★★

على هذا النحو يكتمل التعرض للمنظومات الثلاث الكبرى فى قصص يوسف إدريس ، الفرد والجماعة ، والمرأة والجنس ، ثم الواقع المصرى وتحولاته ولكن بقيت منظومات قليلة صغرى، نعرض لها بإيجاز حتى يكتمل تعرفنا إلى عالمه القصصى.

ثمة عالم الأطفال والصبية والمراهقين، وقد رأينا بعضهم فى قصص مثل «هـ .. هى لعبة» و «الغريب» و «آخر الدنيا» و «جيوكندا مصرية» ، وبقى آخرون أفرد لهم يوسف قصصا قاصرة عليهم ، يحاول فيها تصوير عالمهم ، وتحليل مشاعرهم تجاه الكبار بوجه عام، والأبوين بوجه خاص ، بطلة قصته الرائعة «نظرة» – التى لفتت الأنظار له أكثر من سواها حين نشرت أول ٥٣ – خادم صغيرة ، تحمل فوق رأسها حملا ثقيلا معقدا ، وتحاول عبور الطريق ، لكن طفولتها تأبى عليها إلا أن تلقى «نظرة» على أطفال مثلها يلعبون .. «كانت واقفة فى ثبات تتفرج ، ووجهها المنكمش الأسمر يتابع كرة من المطاط يتقاذفها أطفال فى مثل حجمها وأكبر منها، وهم يهللون ويصرخون ويضحكون (..) وقبل أن تنحرف استدارت على مهل واستدار الحمل معها، وألقت على الكرة والأطفال نظرة طويلة ، ثم ابتلعتها الحارة» .

ولعل سامح وفاتن فى مثل سنها ، وهما يلعبان «لعبة البيت» يأتيان بلعبهما وأشيائهما الصغيرة، ويقيمان تحت السرير عالمهما الذى يحاكى

عالم الكبار، يختلفان ويتفقان ، يتغاضبان ويتراضيان ، وحين حملت الصغيرة أشياءهما ومضت مغضبة ، حاول الصبى أن يلعب وحده ، ولكنه سرعان ما يتبين «أنه يضحك على نفسه حين يقسم نفسه قسمين يلعبان مع بعضهما .. ويدا حينئذ كل شئ ماسخا وقبيحا إلى درجة أنه لم يعد يصدق أن ما تحت السرير بيت كما كان .. » فمضى إلى صاحبته يترضاها «وجذبها برفق لينهضها .. ومضى يصعد بها السلم وذراعه حولها ، وهى مستكينة إليه، لاتزال تدمع وجسدها ينتفض ، لكنها لا تقاومه ولا تتوقف عن الصعود » .

وتحت سرير آخر يرقد الفتى إبراهيم ، وأمه فوق السرير تمارس الإثم مع رجل غريب ، ويحلل القاص مشاعر الصبى الذى يخطو نحو الشباب وهو يسمع همسات أمه وخوار الرجل فوق السماء التى تحجبه عنهما، ويتذكر أباه الميت من سنوات ويحس بأن أمه تتحول تدريجا لكائن غريب عنه، ولا شئ يمكن أن ينقذه من هذا كله إلا أن تقوم القيامة و«لأن القيامة لا تقوم» ، فهو يستيقظ كل صباح وقد أصيب بخيبة أمل، وكل يوم يرقبها فى خروجه، ويحس بأن الخيط يدق، والأم تنكمش ، وسنوات قد مضت على موت أبيه، والمرأة ذات الهمس تطغى ، فيذهب إلى الورشة خزيان ، منكسر الروح ، منكس الرأس .

وسيعود يوسف - فى قصة من آخر قصصه «أمه ، ٨٧» ليصور

صبيا مثل إبراهيم ، في مثل سنه وشروط حياته، الفارق بينهما أن الأم تزوجت من رجل آخر بعد موت الأب الذى لم يره ، ولم يجد الصبى له مكانا، «فطفش» وهام على وجهه، وفى ليلة شتاء مطيرة ، وجد له مأوى فى حضن شجرة «أم الشعور» على شاطئ النيل، والعلاقة التى قامت بين الصبى و «أمه» الشجرة لا تقرأ على وجهها الصحيح إلا من حيث هى رغبة فى العودة لرحم الأم، فها هو يحس ، وهو قابع فى جذور الشجرة العجوز أنها قد بدأت تدفئه «وضع رقبته تحت ذقنه ، ثم دفن رقبته بين ساقيه، وكأنه يتخذ وضع الوليد فى بطن أمه ، ونام (..) ودون أن يدرك هو ما يحدث، وبالطبع دون أن تدرك الشجرة، بدأت علاقة أكبر من مجرد الانتماء والحنان المتبادل والبرودة تغمره بها صيفا والدفء تغطيه به شتاء ، أحبها أكثر مما أحب أمه، لقد كانت الحضن والبيت، الظليلة والعائلة ، وكل ما يمت إليه فى الدنيا» لكن الصبى يكبر وأعضاؤه تستطيل ، وبدأت الفجوة تضيق عليه ، وكان لابد أن يخرج من رحمها ، وأن يولد من جديد . هكذا إذن ، لا يجد الصبى مأوى فى عالم البشر كله، لا يجده إلا فى عالم النبات ! .

وفى أكثر قصص هذه المنظومة الصغيرة يكشف القاص عن تزمت عالم الكبار، ونفاقهم المتمثل فى إيمانهم بشئ وعملهم بنقيضه ، وفى عدوانهم ضد الجيل الصغر ، لمجرد أنه «أصغر» ، أكثر حيوية وجرأة

وإقبالا على الحياة ، فى «محطة» شاب وفتاة ، واضح أنهما جامعيان ، يتقاربان فى زحام الاتوبيس ، ويهمس لها الفتى برقم تليفونه ، فتعد الفتاة بأن تكلمه ، هذا كل ما دار بينهما ، لكنه كاف كى يعلق عليه جار الراوى، الوقور الذى يليق أن تناديه بلقب «يا سيد» بأن «البلد خلاص باظت، انفلت عيارهم ، دى مسخرة ، ده إجرام .. مفيش بوظان بعد كده .. الخ » .

كذلك الأمر بالنسبة للطلبة فى «التمرين الأول» فقد اعتادوا الخضوع لأوامر المدرسين والآباء والنظار دون اقتناع بها ولا قدرة على رفضها ، وجاءهم يوما مدرس جديد للتربية الرياضية ، طلب رأيهم فيمن يحب المشاركة فى أداء التمارين، وكان هذا غريبا، «فهم لم يعتادوا أبدا أن يؤخذ رأيهم فى شئ : إنهم منذ ولدوا وثمة قوى تدفعهم دفعا لا يعرفون إلى أين، لا يسألهم أحد ماذا يحبون أو ماذا يكرهون ، كل الناس تقول : هذا لمصلحتهم ، ولا أحد يخطر له أن يسألهم عن مصلحتهم » .. ولأن الأمر أصبح فى أيديهم ، وأصبح فى وسع الواحد منهم أن يختار ، وأن يحس بأنه ليس مرغما على أداء شئ لا يريده ، فقد اندفعوا كلهم لأداء التمارين .

حتى عميد الكلية الجامعية لا يسلم من هذا الازدواج، وحين يضبط طالبة فى «حالة تلبس» تدخن سيجارة وتمتص أنفاسها بشغف

واستمتاع ، نشب الصراع فى داخله بين التقاليد والأصول والمبادئ المرعية من ناحية ، وإيمانه بحرية الطالبة وحقها ، وبأنها لم ترتكب إثما من الناحية الأخرى ، «أليس هو قائل نفس المبادئ وهو فى العشرين والثلاثين.. حين كان فى بعثته ، يرى أن مشكلة مجتمعه الأساسية أن أفراده يحيون فى عصر بتقاليد قرون مظلمة مضت، وأن بلاده لا يمكن أن تصل إلى أى تقدم علمى أو صناعى أو حضارى إلا إذا تم التحرر ، وعاش الناس فيه بتقاليد عصرهم نفسه وقيمه وأنواع حرياته .. إلخ ؟ رغم هذا ينتصر التقليد، ويمد العميد أصبعا مرتعشة نحو الجرس يستدعى الحرس كى يوقع بالطالبة العقاب ! .

فى هذه المنظومة الصغيرة من القصص (وهى قد تشمل أيضا قصتى «رمضان» و «الحادث» من أعماله الأولى) يتألق الوجه الإنسانى العذب ليوسف إدريس ، فهو محب للأطفال ، مشفق على الصبية من العمل الشاق والحياة القاسية وظلم عالم الكبار الذى يحول بينهم وبين صباهم ، متفهم لضيقهم بالأوامر والنواهى والمحاذير والتابوهات والقيود التى تحاصر انطلاقهم ، حان على محاولاتهم الشابة للتلامس والتلاقى ونسج الأعشاش الصغيرة التى تضم أحلامهم .

★★★

وقد سبقت الاشارة إلى ما أفاده يوسف من دراسة الطب، ونحن

نعرف أنه عمل بعد تخرجه، وقضائه فترة «الامتياز» فى قصر العينى ، طبيبا للعمال فى مصلحة السكك الحديدية (مثل «يحيى» بطل روايته «البيضاء») ثم انتقل إلى «صحة مصر» حيث عمل لفترة قصيرة طبيبا بالمحافظة (مثل شوقى بطل «العسكرى الأسود») ثم مفتشا للصحة فى عدد من أحياء القاهرة حلوان ، الدرب الأحمر، مصر الجديدة، وقد أنهى يوسف علاقته تلك بوزارة الصحة حين عين فى «الجمهورية» فى نهاية الخمسينيات، وقد فتح يوسف عيادة خاصة أكثر من مرة (مرة كممارس عام ، وثانية كأخصائى فى الأمراض العصبية والنفسية، رغم أنه لم يتخصص) لكن العيادة - كما قال هو - كانت دائما تتحول إلى مقهى أو ناد فكف عنها .

وقد فات علينا عدد من قصصه التى تدور فى مستشفيات أو عن أطباء «٥ ساعات» ، «على ورق سوليفان» ، «العملية الكبرى» ، وهو يحدثنا - فى قصة من قصصه الأولى : «أبو الهول» - عن المكانة التى أصبحت له فى القرية حين دخل كلية الطب. «فقد أجمع الناس إجماعا رهيبا على تلقيبى بالدكتور ، وتبنانى أهل بلدنا ، واعتبرونى ثروة قومية يباهون بها البلاد الأخرى» ، ورغم أنه كان لايزال فى «إعدادى» إلا أن «الفشر» طاب له ليلة، فتحدث عن الجثث حديث العارف الخبير ، وأبدى استعداده لدفع أى مبلغ لمن يأتيه بجثة ، ووقع فى شر عمله حين صدقه

صالح – وكانوا يسمونه «أبو الهول» – فحمل إليه – فى قلب الليل – جثة غريب وجدها فى المصرف ! .

ومن عمله فى «قصر العينى» قدم لنا «٥ ساعات» و«الحالة الرابعة» وفى هذه الأخيرة يقابل القاص بين الطبيب «مازن» الجميل، الغنى ، ابن العائلة ، وامرأة موضوعة تحت المراقبة، تحكى حكايتها ببساطة ، دون انفعال : من القاع جاءت وفى القاع مازالت تعيش، الأمل الوحيد فى حياتها هو ابنتها، التى تصر على أن تكمل تعليمها، وأن تصبح طبيبة .. «وازداد البريق فى عينيها الخابيتين وهى تقول : عايزاها تطلع دكتورة .. وأعقبت اجابتها بسرب من الضحكات الخليعة الميتة . وتمتم فى سرّه : جتك نيلة!» .

على أن السنوات التى عمل فيها مفتشا للصحة قد أمدته بمادة لقصتيه الجميلتين «شيخوخة بدون حدود ٥٧» و«فوق حدود العقل ٦١» والقصتان من مكاتب الصحة ، وهو فى الأولى يلخص عمله : «والواقع أن عملى كمفتش صحة طالما ذكرنى بسيدنا رضوان، فإذا كان عمله هو حراسة الآخرة ، فلا أحد يدخل فيها إلا بإذنه ولا أحد يغادرها إلا بتصريح منه ، فأنا الآخر أحرس الدنيا ، لا يدخل فيها أحد ولا يقيد وارد ومولود إلا بإمضائى ، ولا يعتبر الواحد قد خرج من الدنيا ومات إلا إذا وافقت أنا على ذلك » لكن شهادات الميلاد والوفاة ليست هى،

فقط ، عمل مفتش الصحة ، بل إن مهامه تشمل عديدا من الأعمال : التفتيش على المحال العامة للتأكد من مواصفاتها الصحية ، تطعيم الأطفال ، تسنين الصبية لدخول المدارس أو للعمل ، منح الموظفين إجازات وشهادات ، إثبات الحالة العقلية للمشكوك فى حالتهم - على نحو ما رأينا فى قصة «المستحيل» - إلى آخر قائمة طويلة من المهام التى لا تنتهى (إن تلك الفترة من حياة يوسف إدريس لعبت دورا مشابها لدور الفترة التى قضاها يحيى حقى «معاونا للإدارة » فى صعيد مصر).

القصة الأولى تتحدث عن «صبيان الحانوتية» وعن موت واحد منهم ، وهذا وجه المفارقة : إن الموت يسرى أيضا على من يعملون به ، ويتخذون منه حرفة لهم وهى تبدأ - كالمعتاد - بنهاية الحدث : « فى صباح كهذا مات عم محمد» ، وبعد أن يحدثنا - فى طلاقة ولغة عذبة وتفاصيل منتقاة - عن العمل فى المكتب ، يصحبنا كى يوقع الكشف على عم محمد قبل أن يصرح بدفنه ، وسبب الموت- كما كان يردد عم محمد ذاته دائما «شيخوخة بدون جنون» وهو تعبير اصطلح على إطلاقه على سبب الوفاة، حين يكون المتوفى كبير السن، وليست هناك علامات مرضية أخرى تصلح سببا للوفاة ، وتضاف كلمة «بدون جنون» لأسباب قانونية تتعلق بميراث المتوفى، والمشاكل التى تنشب بين الورثة حوله»

والقصة كلها رؤية إنسانية عذبة تحتضن أولئك المنبوذين الذين سقطوا عن شجرة الحياة فعاشوا على هامش هامشها، أو فلنقل : على حافتها الأخيرة المفضية إلى الموت .

أما الثانية فتدور حول رغبة أخ من أخوة ثلاثة فى الإستيلاء على قطعة الأرض الصغيرة التى تركها لهم الأب، وهو فى سبيل ذلك يستبد بأخيه الأصغر، وحين لا تفلح كل محاولاته فى أن يجعله يتنازل له عن أرضه، يتهمه بالجنون، ويسوقه إلى مكتب الصحة بأوراق مزورة ، مستغلا فى ذلك سلطانه كجاويش فى الشرطة : وقبل أن يوقع الطبيب على الأوراق، يدخل الأخ الثالث ليكشف الحقيقة ، حتى المرأة التى جاءت بصحبتهم على أنها زوجة الأصغر هى زوجة الأكبر، على هذا النحو ، كان على الطبيب أن يبلغ قسم الشرطة عن هذا التزوير الفاضح، ومد يده، بالفعل ، إلى التليفون يطلب قسم الشرطة، «ويا لها من لحظة تلك التى تحس فيها أن مصير إنسان معلق بكلمة تقولها أو زناد تضغطه .. (..) ولأمر ما ، أحسست أننى، بدموع داخلية، أبكى ، وأتذكر إخوتى ، وأحس أنى رابع الثلاثة الواقفين أمامى،،، عن عمد قررت أن أنسى القانون وأخطئ، وأنصت للهاتف فى داخلى، وأسكت صوت السماعة» (هذه القصة كانت نواة نسج حولها يوسف مسرحيته «المهزلة الأرضية» ١٩٦٠) .

وعلى أى حال ، وسواء فعل الطبيب هذا أم فعل سواه ، فقد تمت القصة : تنويع جديد على تلك القضية التى شغلت الطبيب الكاتب حول العقل والجنون ، والتى حظيت بقدر من إبداعه وتأملاته . فى «المستحيل» يكتب : «كانت مشكلة العقل البشرى تحيرنى ، هذا العقل، هذا الجهاز المذهل الكامن في تجويف الرأس، المزدحم بالأفكار والحوادث والغرائز والمشاعر والذكريات- هذا الساحر الصغير القادر على أن يحيل الحجر إلى مـاس والخاطر إلى اختراع ، والغريزة الدنيا إلى غريزة سامية عليـا ، تلك البوصلة الرائعة فى دقتها التى تحدد الشرف وتقيس العقول ، وتربط ألف فكرة بألف فكرة وتخرج بنتيجة وتصنع من النتائج أحكاما وقوانين .. هذا العقل الذى يحتوى الدنيا كلها بما عليها ولا يضيق ، ترى ماذا يحدث له حين يختل، وتشب فيه النار؟ ماهو الأصل الذى يبقى ، وماذا فيه يستحيل إلى دخان ؟» .

★★★

ثمة منظومة ثالثة تضم عددا قليلا من القصص تتميز بأنها «قصيرة جدا» من ناحية ، وهى - من حيث صياغتها ومن حيث اختيار ألفاظها ، ومن حيث ترتيب فقراتها القليلة وفق منطقها الداخلى الخاص - أقرب ما تكون للقصيدة فى تركيزها وتكثيفها وتوجهها نحو خلق «حالة شعورية خاصة» عند المتلقى، من ناحية ثانية ، وقد فاتت علينا قصتان

من هذه المنظومة «نظرة» و «النقطة» ونضيف إليهما «مـــارش الغروب» و «العصفور والسلك» و «لحظة قمر».

«مارش الغروب» يعزفه بائع عرقسوس عجوز يقف على كوبرى فى نهاية يوم شتوى بارد .. «ما باعه منذ الصباح لا يكفى لإشعال مصباح أو غمـــوس لقمة ، فالدنيا كانت شتاء ، ومن يشرب عرقسوسا فى الشتاء ؟ ومن يفكر حتى فى فتح فمه أو التلكؤ لأخذ شفطة (..) الناس رائحة غادية ، ميتانة ، سقعانة ، ناشفة ، وجوههم شاحبة فيها غضون ، وعيونهم ذابلة فيها شتاء ، ولا يريد أحد - رغم وجوده فى وسط الكوبرى - أن يلقى عليه نظرة .. (..) والوقت يمضى ، والمارة يقلون ، والسماء تزداد اطباقا على الأرض .. والناس يتحولون من كائنات إلى أشباح » داخل العجوز يأس لكنه طيب ، وحين اكتمل يأسه أسلم نفسه لدقات صاجيه .. «مضى يضبطهما ويحسنهما، وهو الخبير بدق الصاجات حتى استحالت إلى همسات فيها بحة تخلع القلب وتزهق الأنفاس .. (..) والنغم يخرج حنونا دامعا حلواً فى سكون المساء» ، ويذوب الرجل فى الظلام ، ويبقى فى آذاننا همس النحاس للنحاس ، هذا العجوز الطيب طروب فى داخله ، قادر على أن يخرج انفعالاته منغمة مموسقة : لا مرارة فيها، ولا سخط على الحياة والأحياء ، بل ترحيب حلو بكل ما تأتى به من شر وخير ، وقبول - لا يقدر عليه سوى إنسان وهب فيض إنسانية دافقا - لشروطها القاسية .

وهذا عصفور مرح، نزق ،، يشقشق ، ويزقزق ويتقافز ، يتبادل الحب مع أليفته ويحط على سلك تليفون بين عمودين «السلك صدىء قديم غير سميك ، يحمل فى هذه اللحظة بالذات ، وفى نفس الوقت – سبع مكالمات معا لاشئ فى الظاهر يحدث فى الداخل تدور عوالم وأكوان .. سلامات ، احتجاجات ، تحيات ، صفقات ، وداعات ، استثناءات ، أرض تباع ، بلاد تباع ، أصوات غلاظ صوصوات رقيقات ، تختلط الكلمات ، تتمازج ، تتوحد ، كلها فى النهاية تصير – ماديا – الكترونات » والعصفور عن هذا كله لاه ، بمخالبه الدقيقة البريئة يمسك بالسلك الذى يحتوى هذا كله ، وهو عنده ليس سوى مكان عال للوقوف و«بالنشوة» خالى البال ، يتبرز بصقة براز بيضاء صغيرة على السلك ، نفس السلك ، كالزمن ، كالصدأ ، تتراكم» .

ولن نحاول شق صدر العصفور الجميل النشوان بحثاً عن قلبه، يكفى أن نتابعه عيوننا فى حركته السريعة النزقة ، تعبر عنها جمل قصيرة، وكلمات لاهثة متسارعة الإيقاع – كى تنقل إلينا نشوته ، ولكى نتمنى لو استطعنا – ولو للحظة واحدة – أن نكون لاهين، لا نعرف ما تنقله الأسلاك ! .

«لحظة قمر» من أخريات قصص يوسف ، من قصص نهاية السبعينيات (مجموعة «أنا سلطان» ٨٠») القاص مندهش ، ومنبهر لأنه

استطاع – في لحظة مختلسة ، ومن فرجة سماوية بين عمارتين عاليتين من عمارات القاهرة – أن يرى القمر ، صحيح أنه في محاقه الأخير ، محمر الضوء كالحه ، لكنه القمر «والطريق الذى قطعناه طويل ، هذا صحيح ، متعبين مثخنين بالجراح والأنواء ، نحن ، ولكن ها هو القمر ». هى لحظة واحدة فقط، ضاع بعدها القمر «سدت السماء أدوار العمارات العالية ، أصبح لا معنى لأن ننظر للسماء ، إذ لا سماء هناك . عليك لكى تخطو ، فقط كى تخطو ، أن تنظر إلى الأرض» غير أن تلك اللحظة المختلسة ملأت قلبه بالفرح، وملأت عقله إيمانا بقدرة الإنسان وتميزه .. «ها هو القمر .. ها هو وجهه يذكرك بإنسانيتك بأنك مهما كنت، ومهما كانت أوصافك ، فأنت هو الإنسان ، أنت العظيم وسط هذا الكون الهائل الفراغ والظلام » .

فى مناخ نهاية السبعينيات ، أليس هذا هو الأمل المتاح : أمل فى المحاق .. يبدو لحظة واحدة ، ثم تخفيه العمارات العالية وشققها المفروشة ؟ فى تلك القصص كلها تتضح سمة من سمات إبداع يوسف هى قدرته على استخدام مختلف عناصر الطبيعة وتوظيفها ، لا بمعنى أن تصبح معادلا لحالة البطل ، بمشاعره وأفكاره ، قدر ما تلتحم معه فى كل واحد ، يحوى الداخل والخارج دون تمايز .

★★★

يلفت النظر ، أخيرا ، إن الصراع المصرى – العربى – الاسرائيلى غائب عن مجمل إبداع يوسف (وحاضر تماما فى مقالاته الصحفية وأحاديثه) فى قصة وحيدة فى مجموعة أخيرة («البراءة» فى مجموعة «أنا سلطان» ٨٠) ويثبت الكاتب ، على غير مألوف ما يعمل – تاريخ كتابتها ونشرها ، يونيو ٧٢ : الجنرال واقف على الضفة الأخرى ، يدعوه للعبور ، فيعبر ، والناس وقوف ينظرون (إن وصف الجنرال لا يدع مجالا للشك فى حدس هويته «الجنرال سمين أكثر مما يبدو فى صوره بالصحف ، صلعته الأمامية تلمع بحبيبات عرق تحت الشمس .. عصا الجنرال تحت ابطه ولكن ثيابه مدنية وقميصه صيفى نصف كم ، البقعة السوداء التى تحجب عينه من فرط الرضا المبتسم والوجه المكتنز قد اختفت أو كادت » .. هل يمكن أن يكون سوى الجنرال دايان ، الواقف آنذاك على الضفة الأخرى للقتال؟) يبرر الراوى عبوره وقبوله دعوة الجنرال بأنه يريد أن يرى بنفسه «أنا فقط أريد أن أرى ، مجرد أن أرى واتفرج ، وعن كثب أشاهد ، والرؤية ليس فيها دنس » ، وهو من ثم يرفض أن يصافح أحدا منهم ، وهناك يتعرض لاغراء ين ، هما «التمرين المشهور» المال والجنس – يقوى على رفض الأول ، لكنه لا يكاد يقوى على رفض الثانى (فى الوصف التسجيلى لطابور النساء من مختلف الأشكال والألوان والأنواع ، يبدو ولَع القاص، غير المتناهى ،

بالجنس!) إلا بعد جهد شديد، فيقرر العودة، لدهشته يجد ابنه بين المنتظرين المتزاحمين على المرسى القديم : يخرج الابن مسدسا كبيرا يصوبه نحو صدر أبيه «تعلقت نظرتى مستغيثة بكل ما لى فيه ، لم تجد استغاثتى بادرة ، الوجه قاض ، والنظرة جلاد» ورغم الدمع فى عينى الابن ، فقد أطلق النار على قلب أبيه تماما، مرة ومرة ومرة .

تلك هى «البراءة» يقول عنها يوسف، فى ٧٢ ، إن العبور إلى الضفة الأخرى، وقبول الإغراء ، أو التردد إزاءه ، سيقابل من الجيل الجديد ، جيل الأبناء ، بإطلاق الرصاص .

بعد سنوات صدق حدس يوسف : أطلق عدد من جيل الأبناء الرصاص على رأس الدعوة للصلح معهم ! .

★★★

على هذا النحو يكتمل طوافنا حول العالم القصصى ليوسف إدريس ، لكن معرفتنا لا تكتمل إلا بالتعرف إلى عالميه الروائى والمسرحى وهذا موضوع حديث تال .

نماذج مختارة

فى الليل (★)

كانوا قد تجمعوا كما اعتادوا التجمع كل ليلة ، وكان الملل قد بدأ يتسرب إليهم وأملهم فى ظهوره راح يتأرجح .

وجاء واحد وقال إنه رآه عند الجامع .

وتهلل الجالسون والواجمون ..

كان بعضهم قد مدد رجليه فى إعياء وملل، وكان آخرون قد تربعوا ، والباقون قد أراحوا ظهورهم على الجدار ليريحوا ما فيها من ألم ممض. وكانت أجسادهم كلها ليس فيها موضع لتعب آخر، وقد أتوا بعد العشاء بالأشباح الناحلة السمراء قد اختلط فى وجوهها العرق بالرماد وطالت لحاها واحمرت منها العيون .

وجاء قادمون جدد ..

تبادلوا تحية المساء مع الجالسين، تبادلوها فى فتور .. وكان الواحد منهم ما يكاد يجلس حتى تزحف ذرات التعب الذى لقاه طـــول النهـار

(★) نشرت للمرة الأولى فى مجلة «روز اليوسف» فى ١٩٥٤/٢/٨ – مجموعة «أرخص ليالى» .

كجيوش النمل آخذة طريقها إلى رأسه، فيتخدر جسده لزحفها ويسكر، ويحس بالراحة تتصاعد من جوفه فتلطف جفاف حلقه وكأنها حبات نعناع .

وقال واحد وهو يناجي نفسه أكثر مما يخاطب الآخرين :

- يا سلام .. الدنيا ضلمه يا ولاد .. والعتمة حلوة .

وما كان الليل جميلا لما فيــه من سكون أو نجوم وإنما كان جميلا لأن ليس فيه عمل ولأن فيه راحة وجلوسا ، ولأنهم يستطيعون فيه الحديث ويحسون إذا جلسوا واستراحوا وتحدثوا أنهم بشر مثل سائر البشر .

ومع أن الليل كان هناك وكانوا جالسين مرتاحين ، إلا أنهم ملوا ما راحت أفواههم تلوكه من تافه الأخبار ، وسرعان ما مات الكلام على أفواههم وتجمد .

وتبادلوا نظرات متثائبة فى تثاؤبها تساؤل ، وفى تساؤلها قلق غامض .

ومرة أخرى راحت أسئلتهم تترى عنه .

وقبل أن يعودوا ويملوا السؤال جاءهم الصوت الرطب الواضح المخارج ، الحلو المملوء بالرنين يقول :

- مساء الخير يا رجاله ...

★★★

وتحركت ألسنتهم وقد طال سكوتها :

- مساء الخير ياعوف .. ليلتنا ندا ياعبده .. أنت فين ياأخى ؟ .. يا ميت ندامه على اللى حب ولا طلشى ..

وبينما الجماعة قد علتها ضجة الترحيب به ، لم يتمالك بعض منها نفسه وهو يرى الابتسامة الحائرة التى تود الظهور على وجهه الجاد بالهزل الذى قاله والذى سوف يقوله ، فانطلق يضحك .

ولم ينتظر عوف أن يهدأ الهيجان ، وإنما انسل فى رقة وأدب وركع فى سرعة على ركبتيه قبلما يقوم له أحد ، ومد يده فى خجل مؤدب وسلم عليهم واحدا واحدا بحرارة وهو يقسم ألا يتعبوا أنفسهم ويقوموا ، واندفع الذين لم يضحكهم أدبه فضحكوا على حرارة سلامه وغلظ قسمه .

وأخيرا جلس ، بينما تنحى أناس واعتدل آخرون ، وامتدت أذرع تصلح أوضاع الجالسين وتوسع الحلقة .

وتلاقت العيون والأسئلة كلها عليه . وقد تربع ووضع قبضتيه متلاصقين فى حجره كما أعتاد أن يفعل ، ولمعت بشرته السمراء والابتسامة مازالت تتردد قبل ظهورها على ملامحه .

كانوا يودون سؤاله مثلا إن كان قد وجد عملا . وآخر عمل كان يقوم به عوف كان مع تجار البهائم ، إذ كان عليه أن يوصل بضاعتهم من

المواشى إلى الأسواق قبل الفجر ، وحين ينفض السوق يعود بما بقى دون بيع وما جد بالشراء ، وكان لا يعود قبل حلول الظلام ، وانتهى موسم التجارة ووقفت سوق البهائم وأصبح عوف مرة أخرى بلا عمل .

وكانوا يودون سؤاله أيضا أين كان طيلة ما بعد العشاء ، إذ لا ريب أنهم كانوا لا يعرفون كيلة الأذرة وما جرته عليه من مصائب ، ولا ما أجبرته عليه من سؤال وهمس وإلحاف .

وما استمر السكون الذى صنعه قدوم عوف طويلا ، إذ سرعان ما رفع رأسه وحدق فيهم جميعا دون أن ينطق حرفا ، وأدار رقبته وشمشم بطاقتى أنفه ، وتابع الموجودون حركاته وهم صامتون يخمنون ويستعدون . وظل عوف برهة يحاور عيونهم ويلاعبها ، ثم جعل ابتسامته تضحك ضحكتها القصيرة الخاطفة وأتبعها بقوله وكأنه يستنكر :

– واللا هاو أريو يا رجاله ! ..

وانفجر الجمع ضاحكا ..

ولم تتحمل الصدور ما فيها من ضحكات فسعلت وضحكت ، ثم سعلت واستلقى بعضهم على ظهره ليضحك أكثر ، وانثنى البعض حتى لاصق وجهه الأرض وهو يضرب بيده على فخذه وقد تشنج ضاحكا .

لم يكن ما قاله عوف يستحق كل هذا الانفجار ، بل ما كان قوله غريبا على أسماعهم ، ولكنهم كان يكفى أن يروه أو يسمعوه أو حتى تأتى سيرته لتنساب منهم الضحكات . كان هو التميمة القادرة دائما على فتح أفواههم وقد سمرها طول النهار .

ولم تكد الموجة الأولى تنحسر ويبدأ الضحك يتحول إلى همس ضاحك ، حتى قال عوف بصوته الذى فيه بحة رنانة يذوبون فيها :

- كيلة الدره ياولاد ! ..

ودون أن يعرفوا ما هى الحكاية قهقهوا بكل ما يملكون من صدور .

واستطرد عوف والقهقهات تترى من حوله :

- أنى سايب الوليه من غير عشا ياجدعان ! ..

ولعلعت الضحكات ، ووضع البعض أيديهم على بطونهم حتى لا تتمزق بينما تعبت بطون الآخرين .

ولما لم يجز عليهم ما فى وجهه من جد ، ولا ما فى ابتسامته المؤدبة من تردد ، وما فى ملامحه من حزن وتأثر ، هز رأسه فى يأس ووسع ابتسامته على قدر ما استطاع ، وتلفت حوله وهو يدير رقبته فى استسلام .. وعلى يمينه كان هناك جالس قد استحوذ عليه النعاس رغم كل تلك الضجة ، وراح يفقر ورأسه يهوى على صدره ثم ينتفض عائداً إلى مكانه فوق رقبته .

ومضى عوف يتأمل الرأس الصاعد الهابط عن يمينه وقد ران عليه تفكير عميق وكأنه أمام معضلة لا حل لها . وكان الجالسون ينظرون إليه ثم إلى النائم ولا يستطيعون بعد هذا أن يملكوا زمام أنفسهم فيضحكون . وبدا على عوف أنه قد وجد الحل فقرب فمه من أذن النائم ثم قال بأعلى صوته وكأنه يهش على جدى كبير :

– سك .. سكك دبحه ! ..

وثارت عاصفة ضحك عاتية واستيقظ النائم على ثورتها نصف مذهول واسترد وعيه وهو يضحك ، ثم أسرف فى الضحك حتى قهقه ، ولما رأى العاصفة مستمرة قام وخلع طاقيته الصوف ورماها وداس عليها بقدمه الغليظة ثم سب أبا الدنيا وقعد وهو يبتسم فى سذاجة وذهول .

ونسى عوف نفسه وسوق الماشية والكيلة وما بعد العشاء ، وقد أعجبه ما أشاعه فيهم من ضحك وحياة .. بل إنه أحس بشىء غير قليل من الفخر والتيه وهو يرى كلماته تتلاعب بعقولهم فتحركها أنى تشاء .

ونسى الحاضرون أنفسهم هم الآخرون ، ونسوا حياتهم .

وما كان يأتيهم النسيان إلا بعد عناء .

وبدءوا يضحكون ضحكا حقيقياً ..

وأيضا ما كان يأتيهم الضحك إلا بشق الأنفس .

كانوا يضحكون أول الأمر وهم فقط يقلدون من يضحكون .

ثم يحسون أن ما هم فيه يستحق الضحك فعلا فيضحكون .

ثم يرون أن ما أمامهم فرصة ينعمون فيها بضحك لا ثمن له وهم ما اعتادوا أمثال تلك الفرص .. فيضحكون لحاضرهم ويختزنون ضحكات أخرى للمستقبل ..

ثم كانوا يتذكرون ما قاسوه فى النهار وما سوف يبذلونه فى الغد المقبل ، فيتشبثون بما هم فيه من ساعة أنس ويضحكون ، ويغصبون على أنفسهم ويضحكون أكثر وأكثر .

ولا يدوم هذا إلى الأبد ..

فسرعان ما يمسح عجوز منهم الدمعة الضاحكة عن عينيه ويقول بصوت فيه رنة ندم وكأنه اقترف إثما :

– اللهم اجعله خير ياولاد ..

★★★

وفى لحظة من لحظـــات السكوت نادى واحد وطلب شايا لعوف ..

وأحس الموجودون كلهم أنهم غفلوا عن شىء خطير ، وأنهم أخطئوا فى حق الرجل وقد منعهم الهرج من القيام بالواجب ولذلك راحوا يتنافسون ، وكل منهم يصر أن شاى عوف سيكون على حسابه . وعوف قد جلس جلسته المتربعة المؤدبة الخجلة يتمتم من بين شفتيه الوادعتين :

- خلى عنكوا يارجاله .. خلى عنكو .

ولكن الرجال لم يخلوا عنهم ، بل وطلب كل منهم لنفسه طلبا وكأنهم يجلسون فى أحسن قهوة ، والمكان ما كان حتى غرزة وإنما هو فضاء صغير تحده البيوت الداكنة المنخفضة ، وفى وسطه حفرة فيها نار ، وعلى النار براد كبير رأى صاحبه أن يجلس ويضحك ، وأيضا يعمل ، فكان يصنع لهم القهوة والشاى ويرص لهم الكراسى ..

وسرعان ما وزعت الأكواب على الذى معه والذى ليس معه فما كان لحظتها مهما من الذى يدفع ، وقد أصبح ما فى جيب كل منهم ليس هو محط تفكيره وبؤرة اهتمامه ، ولكن أصبح ما فى الجيب آخر ما يفكر فيه وإخراجه أسهل والندم الذى يعقبه أقل وأوهى .

وراحت أفواههم التى عليها بقايا ضحكات وابتسامات ترتشف ما فى الأكواب ، وأحسوا لأصوات رشفاتهم وحشرجة شفطهم ترنيمة رائقة تتصاعد فى جوف الليل الساكن الساجى . وكان القدح الذى فى يد عوف مجمع أنظارهم فقد كان ممسكا إياه بطريقته الرشيقة ويرتشف منه بفمه الذى ضيقه ودقق من فتحته ، بينما لمعت سمرة وجهه بعرق أشاعه دفء الشاى ..

وأخذ واحد منهم رشفة ذات نغم طويل ثم مصمص حلقه وقال :

- ازاى الحال ؟ .

ولم ينتظر ليرد عوف وإنما مضى يسأله :

- ازاى الحال دلوقتى ؟! ..

سأله وهو يبتسم .. وفى تؤدة واتزان قبل عوف باطن يده ثم قبل ظهرها ونظر إليه بعينيه التائهتين السارحتين وقد ضيق المثلث الضحك الذى فيه شاربه وقال :

- عـال .. نحمده .. أنضف من الصينى بعد غسيله .. والأشيا معدن ..

وسخسخ الحاضرون ضاحكين وتساقط بعض ما فى الأكواب على أيديهم فلسعها وتساقط على أثوابهم فما سألوا فيها ، بينما اصطدمت الضحكات الخارجة من أفواههم بالرشفات الداخلة فاحتقنت الوجوه وشاعت فيها حمرة غريبة على ما كان فيها من شحوب ، ولم يرحمهم عوف وإنما استطرد :

- هو طول ما أنت فيها ياأبو وش يملا كنكة إحنا حنشوف طيب ..

وانهال عليه بلسانه ..

وكان المضحوك عليه أول الضاحكين ، فما تأثر أو أربد بل أسعده فى الحقيقة أن يتخذه عوف هدفا للذعاته . وما كان أحد يستطيع أن يزعل من عوف أو يتأثر من كلامه . كانوا كلهم قد أجمعوا على حبه رغم أنه كان أفقر رجل فى القرية ، ورغم أن حياتهم كانت جدباء صعبة لا

يستطيع الحب أن يجد له مكانا فيها ، ولا يستطيعون العيش إلا إذا كرهوا وحقدوا وتخاطفوا . كانوا ككل من فى القرية يودون الحياة ، ولا حياة هناك إلا بالصراع ، ولا بقاء إلا للأقوى .

وفور فيهم ما احتسوه من قهوة وشاى نشاطا ، وتلمظ عوف ووجهه يلمع وبحث فيهم بعينيه التائهتين ، ثم وقفت ابتسامته وقتا غير قليل على واحد منهم ، وأشار إليه بطرف ابتسامته وقد ضيق إحدى عينيه وقال فى أدبه وخجله :

- إلا معاكشى حته ألف ياعويد ؟ ..

ولم يملك الرجل يده فامتدت للتو فى جيبه وأخرج علبة صغيرة غمس فيها عود كبريت وقدمه لعوف وعليه سنة أفيون ، وحين كان يرجع العلبة إلى جيبه وقد عاد ينظر كما كان ينظر إلى الرجال كان يلمح فى عيونهم رغبات ، ومرة أخرى لم يستطع أن يملك يده فاستمر عود الكبريت رائحا غاديا بين العلبة وبين ألسنتهم وقد أخرجوها من أفواههم ومدوها على قدر ما يستطيعون .

وعلى رشفات الشاى مصمصها عوف والألسن حوله تتحرك فى الأفواه المقفلة فتنبعج لحركتها الأشداق . وفى جرعات أخرى من الشاى ابتلعوا ما أذابوا وبدأ الانسجام .

وأحسوا جميعا بريقهم يجف وحلوقهم تطلب الكثير من الدخان .

ودارت الجوزة التى لا شىء عليها وراح الرجال يعتصرون صدورهم ويجذبون الأنفاس ، وتزدحم عروق رقابهم النحيلة بما فى أجسادهم من دم قليل وهم يجذبون ويجذبون ، والجوزة تكركر وتجأر كعربة نقل ينوء محركها بما فوقها من أحمال ، وغامت الجلسة بسحابات الدخان الرمادى الرخيص وهى تنعقد وتنفض فوق الرءوس .

وقال عوف وكلماته تصنعها دفعات الدخان التى ينفثها :

– عارفين الحرب قامت ليه يارجاله ؟ ..

وانتبهت العقول كلها وصمت القليلون المتحدثون ، فقد كانوا يتوقعون هذا السؤال أو مثله من زمن ، ويأملون وقد طال بهم الانتظار أن يتحفهم عوف بحكاية .

ولم يجب عوف مرة واحدة .. إنما بكلماته التى كان ينتقيها بخبرة وروية ثم يقطعها وينغمها ويمثلها ، وبملامح وجهه التى يملك زمامها، كلها ويستطيع أن يقول بها ما شاء دون حاجة إلى كلام ، وبحنجرته التى تخرج منها الأصوات لها بحة الناى الحزين الذى يضحك حزنه ، بهذا كله بدأ عوف فى رواية القصة فتنحنح ثم قال : – انتو عارفين جدكو عامر ياولاد ؟ ..

وضحكوا قبل أن يقول حرفا آخر .. إذ ما كانوا يتصورون الجد عامر العجوز الذى ترك وراءه التسعين وبدأ يتطلع إلى المائة ، والذى

قضى حياته كلها لا يعرف إلا الزرع والصلاة ، والذى كانوا أول الأمر يجعلون من كلامه حكما يرددونها فى المناسبات لا لشىء إلا لأنه عجوز وشعره أبيض كله . ما كانوا يتصورون الجد عامر وعوف يردد نفس حكمه بنفس كلماته فيدركون مدى سخفها وكثرة ما فيها وما فى حكم الكبار كلهم من تخريف .

ما كانوا يتصورون هذا حتى ضحكوا وأغرقوا فى الضحك ، واستمر عوف يقول وهو يغالب ابتسامته :

– كان مرة جدكو عامر هو وابوكو اسماعين قاعدين يشمسوا فى ضهر الزريبة ، وانتو عارفين الاتنين ولله الحمد خبراء من الدرجة الأولى فى الفقر وقلة البخت . وبعدين السياسة حزقت أبوكو اسماعين قوى قام قال :

– ألا بزمتك ياجد مخيمر .. وحياة الله يرحمها دنيا وآخره جدتى أم عائشة .. وحق من أماتها ياشيخ .. عارفشى الحرب قامت ليه ؟ .. قام جدكو عامر هرش ضهره فى الحيطة وقاله : بقى يابن أم خرزه مانتاش عارف ليه ؟ .. قال له : والله آنى عارف كل زقاق فى السياسة إلا المدعوقة دى .. قام جدكو عامر اتنهد وقالوا إيه : أما عقلك فارغ صحيح .. دا يا واد الحكاية بسيطة قوى .. الألمان قالوا للانجليز طيابيركو ما تمشيش مع طيابيرنا فى سكة واحدة .. الانجليز قالوا رآسنا وألف سيف .. وهب .. راحت قايمه ..

وما كانت تلك أول مرة يرويها ومع هذا فقد ضحكوا لها وأسرفوا فى الضحك ، فالحكاية من فمه كانت لها لذة ، وروايته لها وتمثيله إياها كانت تضفى عليها رونقا جديدا .

وانتهت القصة ولم تنته القهقهات التى انبعثت وراءها والتى كانت تتصاعد حية مليئة بالحياة والرغبة فيها ، تتصاعد من أعماق القرية الراقدة كبقعة سوداء كبيرة من الصمت الثقيل .

وأعادت ضحكاتهم الكثيرة كل ما جار عليه الزمن من إنسانيتهم ، وانتشوا وهم يحسون أنهم مثل الأفندية تماما لهم قعدة ومجلس ، وتحكى من أجل إيناسهم القصص .

وتعالت الأصوات تطلب من عوف المزيد وقد هضموا كل ما فات ..

وتمنع عوف أول الأمر ككل فنان ، ثم انطلق يحكى عن أبيه وكيف كان لا عمل له إلا الصيد بالسنارة ، وكيف كانوا يتعشون كل يوم سمكا .

ويحكى عن لسان أبيه وطوله خاصة ساعة الطبلية ، وما كان يتبادله هو وأبوه من قفشات حتى ينقلب عشاؤهم آخر الأمر إلى سامر يتجمع له الناس ويتسمعون من وراء الباب .. ثم يذهبون بعيدا ويضحكون .

والمرة التى طلعت لأبيه فى السنارة فردة حذاء ، والمرة التى رأى فيها الجنية وكاد يتزوجها ..

ولا تفرغ قصص عوف ..

وكانوا يحبون كلهم حكاية ذهابه إلى المولد وهو صغير ، والثلاث ورقات والملحمة الكبيرة التى قامت ليلتها واستوعبت كل ما فى المولد من شماريخ وخيزرانات وحلاوة ورجال .

ولا يستكين لسان عوف .

كان يسخر من كل شيء .. من الناس .. ومن نفسه .. ومن الحياة التى يحيونها ..

كان قد لف مصر من أولها إلى آخرها ، ودخل السينما ، وشاهد المتاحف ، وقام بأنواع لا أول لها ولا آخر من الأعمال ، وعاش فى القاهرة وعرف مخابيء الإسكندرية أيام الغارات ، وتعلم هاو آريو من الجيش الإنجليزى حين كان فيه وكان يدور دورته ويعود إلى القرية :

«ألاقى أبوك الحجعلى لسه بيقول للفحلة .. عاه يابنت الأنيته ، وخالتك أم بركة لسه بتدور على فرن خابز تشحت منه رغيف ، والعمدة لسه متنك على قرماية الخشب ، وأبوك مخيمر واقف جنبه لابس حتة العباية اللى ما تساويش تلاته أبيض ، ودى بنت مين اللى فايته يامخيمر ؟ يقوله .. دى بنت فلان ياعمده اللى اجوزها علان واللى طلقها تلتان .. حاجة تفلق اللى ما ينفلقش .. الدنيا تنشال وتنهد وبلدنا ولا هى هنا .. يارب لا أعتراض ولا مانع .. إنما أدنته شايف .

وحين كانوا يسمعونه يشرق ويغرب ويقول كل ما عنده يهزون رؤوسهم ويضحكون وهم يوافقون، ويحسون بفرحة وهم يوافقون، ويزدادون بكل حكاية من عوف إيمانا بأن حياتهم لا جديد فيها ولا طريف.. حتى الموت ما كان فيه جديد وإنما كان عودة حزينة لحزن قديم.. الناس تولد وتكبر ثم تموت.. والبقرة تدور فى الساقية مغماة لا تدرى أين تسير، وعيون الساقية تغترف الماء فى باطن الأرض وتمتلىء به ثم تصبه العيون ليعود إلى الأرض وباطنها.. لا جديد فى حياتهم ولا طريف.

★★★

وفجأة سكت عوف عن كلامه وسكت الناس لسكوته، وتحولوا ينظرون حيث ذهبت عيناه، ومن بعيد أقبل شبح أسود طويل عرفوا فيه امرأته وكلها سواد فى سواد، حتى وجهها قد غطته زيادة فى الحياء بشاشها الأسود الذى لا يخلو من ثقوب.

وكانت تمسك بمفتاح ضبة بابهم الخشبية وتتلاعب به.

ومن بعيد أيضا جاء صوتها رفيعا كقوامها طويلا كطولها:

- عبد الرحمان..

وارتج على عوف وماًما برأسه.. ثم خفضه وهو ينحنى حتى أصبح بين فخذيه.. وقال فى همس مملوء بالخوف الذى يضحك..:

- ولا.. آني مش هنا..

وسمعونا تفمفم بكلام لم يسمعوه، ثم نادت بعد برهة بصوت يائس وقد نفد صبرها:

- يه.. شوفوا الراجل ياخواتي وآني لفيت البلد حتة حتة.. عبدالرحمان..

وأفلح البعض في كتم ضحكاته ولم يفلح آخرون، ولعلها لمحته وهو منحن وقد قارب الأرض فإنها صرخت قائلة:

- وطي كمان وطي، ما نتاش مكسوف والنبي عليك.. سايب الدار على الحميد المجيد وجاي تنصب السامر بتاع كل ليله.. عبدالرحمان.

ولم يجد بدا من الظهور فاعتدل شيئا فشيئا.. وهو يقول لمن حوله هامسا:

- أهي قلبت بغم بارجاله!..

ورفع صوته جاداً لا أثر للهزل فيه وقال:

- روحي يابت..

وتعالت الضحكات لجده وإمارته.

وردت المرأة وقد عيل صبرها:

- والنبي يا شيخ؟.. اسم الله عليك وعلى حواليك!.. مش تلايمها شويه.. فين يا راجل حق كيلة الدره اللي انت قايلي دقيقه واحده وحاجيبه؟

وبنفس الصوت الجاد قال عوف بعصبية أكثر وقد تذكر كل شيء.

ـ روحي يابت اختشى.

وضحكوا كما لم يضحكوا في ليلتهم بل في أعمارهم كلها.

وأغاظت ضحكاتهم المرأة فقالت وهي تكاد تصرخ:

ـ والله مانى منقوله الا أما تجيب حق الكيلة.. دا صاحبتها قاعدا لى في الدار ما المغرب.. سامع والا لأ.

وأجاب عوف بصوت عال:

ـ لا مش سامع.

فقالت وهي مغيظة:

ـ عنك ما سمعت.. هه.. وأدى قعده.

وحاولوا مرة أخرى أن يتأدبوا ويكتموا الضحكات والمرأة تنتقى لنفسها مجلسا فوق كومة سباخ عالية، ورفع عوف رأسه ونظر إليها وهي ممتطية الربوة كأم قويق، وسكت برهة ثم قال بصوت نصفه ضاحك ونصفه جاد:

ـ روحي يابت يام وش زى وش السلندر.

ومع أنهم ما كانوا يعرفون ما هو السلندر إلا أنهم انثنوا وتمايلوا مقهقهين وعيونهم قد شدت الى عوف الجالس لا يعرف إن كان هو جادا في كلامه أو هازلا.

ولم تسكت المرأة وإنما قالت على الفور:

- والنبى مانى مروحه يابو راس أنعم من البريزة الماسحة.

واستمرت الضحكات تترى بلا انقطاع.

وقال عوف وهو يزيد النصف الضاحك من صوته:

- والنبى ان ما روحتى لقايم فاتح بطنك ومطلع منه طعم.

وما عاد الحاضرون يتمالكون أنفسهم ولا يعرفون إن كانوا يضحكون أو لا يضحكون.

وبينما هذا يحدث كان بعضهم يفكر فيه من ناحية أخرى، وتمنى أكثر من جالس أن يمد يده إلى محفظته الكالحة ويستخرجها ثم يسقط فى يد عوف ثمن الكيلة - ولكن كانت أمانيهم بصيرة وأيديهم قصيرة - جد قصيرة.

وكان عوف هو الآخر يضحك بقلب ويحلم بقلب آخر.. أن تمتد يد فى حجره وتدفىء أصابعه بالثلاثين قرشا التى داخ عليها من المغرب، وبقيت أصابعه باردة فى حجره.

وشخط عوف فى المرأة قائلا:

- على الطلاق ان ما روحتى..

وعلى الفور نزلت المرأة واستدارت عائدة بشبحها الأسود الطويل..

وقال عوف وقد سره ما أحدثته الشخطة واستعاد لسانه الحاد:

ـ شايفين ياولاد.. والنبى رجل مراتى اليمين يتنفس.

واختلطت القهقهات بالأصوات، وسمعوا ضحكة تفلت من المرأة المبتعدة رغما عنها .

وكانوا قد تعبوا وما عادوا يستطيعون الضحك فسكتوا. وسكت الليل.. وسكت كل شيء وأصبح لا صوت هناك إلا نقيق الضفادع وتنهدات البعض والماء وهو يغلى فى البراد ويفور.

حتى عوف كان قد أرخى رأسه على صدره وكأنه يفكر.

واستمر الصمت زمنا لم يقطعه إلا عوف حين رفع رأسه وقال وهو يستغرب منهم السكوت ويحدق فيهم:

ـ والله هاو يا رجاله.

وانفجروا يضحكون واستمرت الضحكات تنفجر وهى لا تريد أن تنتهى، وكان يبدو أنها لن تنتهى لولا أنهم سمعوا همهمة لم يألفوها وحمل إليهم الظلام جعجعة شيخ الخفراء المعهودة ونبراته القاطعة الحادة:

ـ واد انت وهوه.. انتو عاملينها غرزة ياولاد الكلب.. قوم قامك عفريت منك له.

وكان أول من تسلل لا يلوى على شيء هو خالى الوفاض منهم، أما الذى فى حافظته قرش أو يتدفأ جنبه بورقة فقد تكاسل قليلا وهو يقوم ، ولما وقف تثاءب كثيرا وتمطى ثم مضى فى خطوات وئيدة وهو يلقى

بالسلام إلى من حوله، ويشدد على عوف باللقاء في ليلة ثانية، وكلهم يحسون أن الليلة قد انتهت وما كان يريد لها أحد أن تنتهي.

واستوقف شيخ الخفراء عوف وقال له بعد أن اطمأن إلى ذهابهم جميعا:

- واد يا عوف.. ازيك؟

وفهم عوف ما يريد ، فقال له وكأنه يؤدي فرضا عليه:

- هاو أريو يا شيخ الغفر..

وقهقه الرجل، وظل يقهقه ويتلوى وعوف يأخذ طريقه إلى داره ومضى الليل..

***

وقبل شروق الشمس الجديدة كانوا جميعا يأخذون طريقهم إلى النهار، وكانوا يأخذون طريقهم إليه ووجوههم باسمة وأطياف من الليلة التي مضت تلوح لهم وتظل عالقة بخاطرهم تخفف ما في نهارهم من حدة.

وكان عوف يتسلل هو الآخر كالعصفور المبتل، مؤدباً خجولا ، ليستأنف همسه وسؤاله عن ثمن الكيلة.

حادثة شرف (*)

اعتقد انهم لا يزالون يسمون الحب هناك «العيب». ولابد انهم لا يزالون أيضا يتحرجون عن ذكره علانية، ويتغامزون به، وانما تلمحه فى النظرات التائهة الحيرى، وفى وجنات البنات حين تحمر وتخضر وتنسدل عليها الاجفان.

والعزبة، كأى عزبة، لم تكن كبيرة :

يضم عشرات من البيوت المبنية بحيث تكون ظهورها الى الخارج، وأبواب الدور تفتح كلها على حوش داخلى واسع، حيث الساحة الصغيرة التى يقيمون فيها الافراح، ويعلقون العجول المريضة إذا ذبحت لتباع بالاقة وبالكوم . والاحداث فى العزبة قليلة ومعروفة، النهار يبدأ قبل مشرق الشمس وينتهى بعد مغيبها، والمكان المفضل هو عتبة البوابة الكبيرة حيث الهواء البحرى وحيث يستحب النوم ساعة القيالة ولعب (السيجة) الاحداث قليلة ومعروفة، بل تكاد تعرفها حتى قبل أن تقع، وتعرف ان هذه البنت المفعوصة التى تلعب الحجلة ستكبر بعد عدد من السنين، وسيصفو لونها الملبد، ثم يخرطها خراط البنات، وتتزوج،

---

(١) نشرت للمرة الأولى فى مجلة «صباح الخير» فى ١٩٥٨/٨/٧ – مجموعة «حادثة شرف» .

بالتأكيد واحداً من هؤلاء الصبية الذين يرتدون الجلاليب الممزقة على اللحم، ويستحمون فى الترعة ، وينطون كالقرود المسلسلة من فوق الكوبرى.

غير أنه، أحيانا، تقع حوادث لا تكون معروفة، ولا يمكن التنبؤ بوقوعها، مثل ذلك اليوم الذى ترددت فيه الصرخات فى الغيط، الصرخات الغامضة الغريبة التى ينشق عنها فضاء الريف الواسع أحيانا ، فتدوى بطريقة مفاجئة ومرعبة ومستغيثة دون أن تعرف مصدرها، ولكنك لابد تدرك منها أن شيئا مهولا قد وقع، ولابد حينئذ أن تفيق فتجد نفسك تجرى لتنجد أو على الأقل لتعرف الخبر.

غير أنه فى تلك المرة لم يكن هناك ما يستدعى النجدة أو المساعدة، بل أكثر من هذا كان العائدون إلى العزبة يجدون حرجاً كثيرا حين تسألهم النساء عما حدث.

ماذا يقولون؟ أيقولون أنهم وجدوا فاطمة فى الدرة مع غريب؟

ماذا يقولون وفاطمة ليست غريبة وغريب ليس غريباً.

فاطمة أخت فرج، وغريب ابن عبدون، والحكاية ليست تائهة، فالعزبة صغيرة، والناس فيها عائلة واحدة ولا يعرفون بعضهم البعض معرفة دقيقة فقط، ولكن كل واحد يعرف عن الآخر أدق دقائقه وأخص أموره، حتى النقود القليلة التى قد يكتنزها أحدهم، يعرفون مكانها بالضبط

وعددها والطريقة التى يمكن أن تسرق بها. ولكن أحداً لا يسرق من أحد، هم إذا سرقوا يسرقون من محصول العزبة، وحتى هذه مجرد سرقات صغيرة لا تتعدى ملء عب قطن أو حجر كيزان دره، أو يساهى أحدهم خفير الزراعة وينضح مصرف أرز ويأخذ سمكه له وحده دون أن يورد نصفه للناظر كما جرت العادة.

وفاطمة معروفة، وكل شيء عنها معروف، ولم تكن أبداً ذات سيرة خبيثة أو سلوك معوج، كل ما في الامر أنها حلوة، أو على وجه أصح كانت أحلى بنت فى العزبة، وليس هذا هو الوجه الصحيح للمسألة أيضا، فاذا كانت الحلاوة تقاس في الأرياف بالبياض، ففاطمة كانت سمراء ، المسألة لها وجه آخر خاص بفاطمة وحدها، فلم يكن فى استطاعة أحد فى العزبة أن يعرف ماذا فى هذه البنت بالذات دوناً عن بقية البنات، خدودها صحيح كانت حمراء شديدة الاحمرار تظن معه أنها لابد تفطر كل يوم بعسل نحل وتتعشى بفراخ وحمام، ولكنك تدهش إذا عرفت أنه احمرار قد صنع من صحون المش والفلفل المخلل وعروق البصل والفجل والسمك الصغير المحروق في الفرن ، وعيونها كانت سوداء، غامقة السواد، ذلك السواد اللامع الذى لا تراه إلا مشعاً ومضيئا ودائم الحركة لا يستقر، العيون التى لا تحتمل أن تنظر إليها أو تنظر إليك لحظة، وحتى إذا قلنا أن شعرها كان أسود ناعماً، وثوبها

الحبر الواسع الذى ترتديه لا يفلح فى إخفاء بروز صدرها ورفع وسطها وامتلاء ساقها، حتى إذا قلنا هذا قتلنا فاطمة قتلا، فآخر ما كان مهما فيها هو جسدها، أهم من هذا كله كانت أنوثتها ، أنوثة حية نابضة دائمة التفجر والتدفق، أنوثة لا تدرى من أين تنبع وأين تكمن، ابتسامتها ابتسامة أنثى، لفتتها الى الخلف لفتة أنثى، الطريقة التى تخبط بها على كتف زميلتها، اطراقها وهى تدعو أحد المارة ليساعدها فى رفع بلاص الماء على رأسها، طريقة قضمها للقمة وإمساكها للرغيف، القلة فى يدها، الماء حين ينسكب فى فمها نصف المفتوح، الزاوية التى تميل بها البلاص، قرطتها الخضراء الكرومبية الوحيدة حين تتعصب بها معوجة قليلا إلى اليمين، مبينة بعض شعرها المسبسب الأسود، غمازتاها حين تظهران فجأة وتختفيان فجأة وتحددان أجمل ابتسامة يفتر عنها ثغر، ضحكتها وكيف تبدأ ثم بقاياها حين تنتهى، صوتها المصنوع من أنثوية سائلة وكيف تخرجه بمقدار، وكيف تحيله أحيانا الى قطرات، كل قطرة كلمة أو نبرة، نبرة انثوية مصفاة، تكفى وحدها لتروى ظمأ عشرات الرجال.

وكانت فاطمة تثير الرجال أو على وجه الدقة تثير الرجولة فى الرجال، وكأنما خلقت لتثير الرجولة فى الرجال، حتى الاطفال كانت تثير الرجولة الكامنة فيهم، فكانوا إذا رأوها قادمة من بعيد أحسوا برغبة مفاجئة فى تعرية أنفسهم أمامها، وكثيرا ما كان بعضهم يقدم على

تنفيذ الرغبة ، فيرفع ذيل جلبابه ويتعمد المبالغة فى رفعه، ولا يفلح ضرب أو زجر فى نهيهم عن اتيان هذا الأمر، فهم أنفسهم لايدرون لماذا يعرون انفسهم إذا رأوها.

لذلك ما كان أشد محنة فرج، كان فرج أخاها، وكان مزارعا وحدانيا فقيراً لا يملك سوى بقرته، ولا يعطيه الناظر إلا ثلاثة فدادين ليزرعها، ومحاولاته كل عام ليزيد حصته نصف فدان كانت تبوء بالفشل الذريع: . ومع هذا فقد كان فرج رجلا فى عز نعنعة رجولته، يأكل فى الطقة ثلاثة أرغفة ان وجدت، ويأتى على قلة الماء فى نفس واحد وسمانة رجله فى حجم الفخذ، وكان حائراً منغص العيش، والسبب اخته، فقد كانت تحيا معه ومع امرأته، وامرأته ذات الأنف الفاطس والوجه الأصفر كانت طيبة، وإن لم تكن طيبتها تمنعها أحيانا من لفت نظر فرج إلى صدر أخته الذى تدعى أنها تتعمد هزه حين تمشى أو إلى الكحل الذى لا يفارق عينيها واللبان الذى توصى عليه كل ذاهب الى السوق.

ولم يكن فرج فى حاجة إلى لفت النظر إذ هو يرى ويسمع ويفور دمه كلما رأى أو سمع، ولم يكن يستطيع تأنيب فاطمة على شيء . كانت ترتدى نفس ما ترتديه البنات وتتكحل كما يفعلن وتمضغ اللبان كما يمضغن ، ولم يلمحها أحد فى موقف مريب، ولا ضبطت مرة متلبسة بخطأ، وحتى حين ادعت زوجته أن السبب فى احمرار وجنتيها انها

تحكهمـا بالورق الاحمـر الذى تصنع منه صناديق الدخـان الفـرط بلل عمـامته يومـها بلعابه وظل يدعك وجنتى فـاطمـة حتى كاد يدميهمـا، ولم تحمر العمامة ولا حدث لها شيء.. ولم يفـعل شيئاً يومها أكثر من أن صوب إليـها نظراته المحمومـة المملوءة بالشك وراح يعنفها ويزجرها ، وفاطمة لا تعرف سببا لنظراته تلك.

فهى تعرف العيب تماما وطالما حدثها فرج عنه وعنفها، وهى لا تفعل العيب، وليس فى نيتها أن تفعله، بل هى تفضل الموت على فعله، كل ما فى الأمر انها كانت تحس بالناس يدللونها ويحبونها فكانت تفعل كما يفعل أى محبوب، تتصرف بحرية وبساطة وبلا تعقيد، إذا ارادت ان تبتسم ابتسمت وإذا ابتسمت كان هذا عن رغبة حقيقية فى الابتسام، وإذا ارادت أن تضحك ضحكت، وخرج ضحكها بريئا نابعا من القلب، وكانت تعرف أن الناس يحبون جمالها فكانت تحرص على هذا الجمال، فلا تخرج من عتبة دارهم بوجه غير مغسول أو بشعر مشعث منكوش، وإذا اشتغلت فى الغيط لبست الجوارب التى تقترضها من أم جورج زوجة الناظر ، والتى تصنعها على هيئة قفازات تقى بها يديها من الأفرع وحز الشوك والأغصان . وإذا تكلمت حرصت على أن يخرج كلامها جميلا ليس فيه كلمة نابية أو تعبير قبيح . والناس جميعاً أحبابها وأصحابها ، كلهم يحبونها ، وهى تحبهم كلهم ، ويدللونها وتتدلل عليهم ،

ويريدونها غير عابسة فلا تعبس ، ويريدونها ضاحكة فتضحك وكل أملها أن يضحكوا لضحكها ويسعدوا بإبتسامتها ودلالها . فلماذا يعنفها أخوها ويزجرها ، ولماذا هذه النظرات المشبعة بالسم منه ؟ .

والحقيقة أن فرج لم يكن يدرى لماذا ، كل ما فى الأمر أنه مسئوول عن أخته وأنوثتها الصارخة ، وكل عين تمتد إلى أخته إنما تغور فى لحمه هو وتدميه ، وكل أمله أن تتزوج فاطمة ، وتنزاح بمسئوليتها عنه ، بل بعيداً عن العزبة كلها ، ولكن فاطمة لم تكن تتزوج ، فخطابها قليلون ، بل تكاد تكون بلا خطاب ، فمن هو المجنون الذى يجرؤ على امتلاك كل تلك الأنوثة وحده ، وإذا تزوج ماذا يفعل بها ، والناس فى العزبة وما جاورها لايتزوجون ليستمتعوا بالجمال ويقيموا حوله الأسوار إذ هم أولا لايحيون لكى يستمتعوا بالحياة ، هم يحيون فقط لكى يبقوا أحياء ، ويتزوجون لكى تعمل الزوجة وتنجب أولاداً يعملون . ولهذا ففاطمة باقية بلا خطاب .

والعزبة مليئة بالرجال والشباب ، وفاطمة كأى بنت فيها تعمل كالرجال تماماً ، وتسرح إلى الغيط ، وتروح مع الآذان ، وهى - دوناً عن كل النساء والبنات - تثير الزوابع أينما حلت ، ولهذا فان قلب فرج مملوء بالخوف . وخوفه يجعله يضحك إذ هو الذى يملأ العزبة برجولته الفارعة وطيبته ضحكاً ، وهو الذى يملأها حياة ، يبرطع وراء الرجال

ويهزر معهم رغماً عنهم ويعلمهم التنازل عن وقارهم الكاذب والنزول له في (الباط) ، ويسابق الشبان في العوم ، ويخطف القفف من فوق رؤوس النساء ، حتى أكثرهن تحفظاً ، ويجري ويضحك ، ولا تشكو النساء ، وفي الأفراح يلبس جلبابه الأبيض ، ويلف على رأسه الحزام السكروتة ويحلق شعره وذقنه بالمكنة الزيرو ويرقص للعريس ، وينقط للعروسة والناظر ، وللخولي وأهل العزبة ، ينقط بالفلوس التي باع بها قطناً سرقه من المخزن أو جوالا اختلسه وهو في طريقه إلى الشحن ، ويصرف ويفنجر ، ويملأ العزبة صخباً وضجيجاً ، والكل رجالا ونساء وشباباً يحبونه ويعزونه ، وتعتمل أشياء داخل صدورهم وأشياء ، فأخته تكاد تثير طوب الأرض فتنة وأنوثة ، والرغبات في صدورهم تكاد تتفجر ، وفرج يأسرهم بطيبته وصداقته وضحكه ، فإذا مرت فاطمة خفضوا البصر ، وإذا لم يحتمل أحدهم وتأوه لكزه جاره .

ولذلك ظلت فاطمة كالفاكهة الناضجة المحرمة ، لا يقربها أحد ، ولا أحد يدع الآخر يقترب منها ، والقلوب تذوب حسرة ، وأعصاب الرجال وحتى العواجيز ترتجف رغبة كلما مرت ، ولكن فرج دائماً هناك ، لابد يتردد في أذنك صدى ضحكة عريضة تأتيك من بعيد وتذكرك أنه هناك ، وأنه عيب ، وتعود حينئذ إلى صوابك ، فتذهب لتخطف العصر ، أو تتمشى لتشرب شاياً عند الدكان .

واليوم ضبطوها في الدرة مع غريب .

والحقيقة أنها لم تضبط يومها فقط ، ما أكثر ماضبطت فاطمة فى الدرة ووراء أسطبل الوسية وتحت ماكينة الدراس مع رجال ، ولكنه ضبط مع إيقاف التنفيذ ، فالأيام كانت تثبت أنها شائعات ، مجرد شائعات كان لابد أن تنطلق وراء فاطمة إذا مرت كما تنطلق الحسرات . وسكان العزبة لم يكونوا أشراراً ، ولا حاقدين كانوا فى الواقع أناساً طيبين ، يحرص كل منهم على الآخر مثل حرصه على نفسه ، حتى أوزهم كان طيباً لا خبث فيه ، تخرج جماعاته من كل بيت فى الصباح مكاكية مزغردة ، وتتجمع قريباً من الجرن ، وتأخذ طريقها إلى الترعة فى قافلة ضخمة . ويظل الأوز يلعب ويستحم ويعلم أولاده العوم حتى تؤوب الشمس إلى المغيب فتأخذ مئات الأوزات طريقها إلى العزبة ، تدخل من البوابة ، ويتوجه كل أوز إلى بيته من تلقاء نفسه ، وحتى لو أخطأت أوزة غريرة طريقها ، وذهبت مع أوز الجارة فما أسرع ماتجد بابك تطرقه الجارة ومعها الأوزة الضالة ، حتى قبل أن تكتشف أنت أنها ضلت وضاعت .

وأمام فاطمة ، أهل العزبة رعايا جمالها ، مدلهون بحبها ، إذا كان الفرح حظيت باهتمام يفوق ما تحظى به العروسة . ولعل هذا كان السبب فى خوفهم الشديد على فاطمة : كانوا خائفين عليها من العيب وكأنهم لايصدقون أن أنثى جميلة مثلها ممكن أن توجد ولا ترتكب

العيب . بل أنهم من كثرة خوفهم عليها ، حددوا الشخص الذى يمكنه أن يرتكب العيب مع فاطمة . حددوا غريب بالذات ، وغريب كان ابن عبدون ، وعبدون مع أنه كبير فى السن إلا أن أحداً لا يقول له ياعم ، فقد كان رجلا عصبى المزاج يدمن (المضغة) والقهوة السادة ، وكلمة والثانية وتجده طابقاً فى خناقك . حتى الناظر كان يخاف منه ومن خلقه الضيق ويتجنب إثارته . وعمره ما قال لأحد كلمة حلوة ، ولكن شطارته كلها تظهر إذا حلت بالعزبة كارثة ما ، حينئذ يقف كغراب البين على الترعة وقد أمسك بذيل جلبابه من الخلف ويمضى يشتم ويسب ويبصق مضغته ويشبع أهل العزبة لوماً وتأنيباً وكأنهم هم المسئولون عن وقوع الكارثة . غير أنهم كانوا لايقيمون لعصبيته وسبابه وزناً ، فقد كانوا يعرفون أنه من الداخل أبيض ، فقط طبعه هو الذى يغلب .

أما ابنه غريب فرجال العزبة كانوا لايرتاحون إليه وكذلك نساؤها . فقد كان ولداً قليل الأدب فارغ العين يربى قصة من شعره ويظهرها مسبسبة من طاقيته الصوف البيضاء . وسبب ضيق الناس به أنه كان يغوى النساء ، والأدهى من هذا أنه كان ينجح فى الإيقاع بهن ، وفى هذا لم يكن يحترم جاراً ولا زوجة خال . كان أسمر فاتح السمرة ، وبالرغم من قبح خلقة أبيه كان وسيماً لا تمل العين رؤية ملامحه ، وله طريقة لذيذة فى نطق الكلام ، مع أنه كان قليل الكلام . كان صوته

يخرج غليظاً بريئاً فرحان ، وكأنما هو مراهق حديث البلوغ . ولم يكن يبدو أهبل كمعظم شباب الأرياف ، كان ولداً حدقاً معتداً بنفسه سريع الفهم فهلوياً نظيف الجلباب ، يعمل كالمكنة طول النهار . ويغنى المواويل، وعنده عدة شاى ، ويعزم ويشدد فى العزومة . فإذا جاء الليل لايحتمل المبيت فى دارهم ويؤثر النوم فوق كومة تبن الوسية العالية حيث يدفن نفسه ، ويظل يتلمس أفخاذه وصدره ويحكى لأصدقائه الذين يبيتون معه ، يحكى لهم عن أمور النساء التى هم أجهل الجهال بها ، والذى هو فيها صاحب الباع الطويل ، وكان جريئاً لايخجل وعينه فارغة . أول ماينظر إلى المرأة يبدأ بالنظر إلى سيقانها . ونظراته كانت تربك ، ففيها لمعة سخرية دائمة ، أو لعلها ضحكة لم تنطلق ، كانت نظراته هكذا رغماً عنه وليس له يد فيها ، ولكن المرأة كانت تحس إذا نظر إليها هكذا أنه يفهم مايدور بخلدها ، فإذا كان مايدور بخلدها عيباً ، وهذا هو الحال فى معظم الأحيان ، ارتبكت وخيل إليها أنه عراها ، وتحاول حينئذ أن تغطى نفســها فترتبك أكثر ، ومن كثرة ارتباكها تقع ، ويكسبه وقوعها إعتداداً أكثر ، فتزداد لمعة الجرأة الساخرة فى يعينيه ويزداد عدد من يقعن له .

ولابد أن غريب كان فيه شيء غريب ، شيء لم يكن يوجد فى بقية الرجال . لعله ذكورة زائدة ، أو لعله شيء آخر ، فقد كان يكفى أن ترى

المرأة من نساء العزبة قفاه أو (دكة) سرواله وهو يعمل حتى تشهق وكأنها رأت رجلا عارياً . ولم يكن يبالى فى وسائله . كل الطرق إلى المرأة كانت عنده حلالا . فى الفرح يحشر نفسه بينهن فيجمدهن أمامه وفى ماكينة الطحين كل شطارته أن يحمل القفف للنساء ويدق لهن القادوس . حتى المريضة لم يكن يعتقها ، ولولا خوفه من بندقية أبو جورج الناظر لحاول فى الليل زيارة الست أم جورج ، وكان الناس إذا اشتكوا لعبدون أبيه ثار فى وجوههم ولخبط خلقته وقال لهم بفظاظة :

– حداكم إياه . أنى متبرى منه .. إعملوا فيه اللى تقدروا تعملوه .

وكانوا فى العادة لايستطيعون أن يفعلوا شيئاً . فغريب وإن كان قصير القامة إلا أنه كان قوياً كفحل الوسية يستطيع أن يرفع ترس الساقية الحديد بيد واحدة ويقطم رقبة الرجل باليد الأخرى ، كل هذا وعيناه تلمعان نفس لمعتهما الساخرة .

كان هو أكثر الذكور ذكورة ، وكانت فاطمة أكثر الاناث أنوثة ، ولهذا كان من الطبيعي جداً أن تقترن الشائعات بينهما . ومع هذا ما كان أبعد ما بينهما . ففاطمة كانت تتجنبه لشهرته بقلة الأدب وفراغ العين ، وكان هو يخافها عن بعد ، فهو وإن كان نداً لخادمة الناظر أو شفيعة الأرملة أم العيال ، ففاطمة ليست واحدة منهن . إنها فاطمة . كل النساء كوم وهى كوم .

كان أحياناً يزعم الشبان الغارقين حوله في التبن أنها تحبه وترسل له المراســيل ، ولكنه كان أول الساخطين على نفسه من أجل مزاعمه تلك . كان يعمل في الغيط كالرهوان ويكتسح النساء بنظراته وذكورته فتتخر له النساء ، وزينة بنات العزبة في الأفراح والأسواق ، ولكن أمام فاطمة كان عاجزاً كل العجز ، وفاطمة من ناحيته خائفة كل الخوف . حتى إذا قال لها العواف ودق قلبه آلاف الدقات وهو يقولها ، كان ردها يأتي مضغوماً لا عافية فيه ، هي خائفة منه خوفها من العيب ، وهو خـائف منها خوفه من العجز ، والعزبة سادرة في إقرانه بها وإقرانها به ، وفرج سادر في ضحكه وذر صداقته في العيون ، وسادر في اكتساب محبة غريب حيث يكمن خوفه الأكبر ، وكل هذا يجري من تحت إلى تحت . أما في الظاهر فالناس لبعضها والعزبة صغيرة ، والناس فيها عائلة واحدة كبيرة ، وبيت عبدون ثالث بيت إلى يمين بيت فرج ، وحتى حوادث ضياع الأوز قليلة .

ولكنهم كانوا جميعاً يتوقعون دائماً أن يحدث شيء ما ، شيء لابد أن يحدث ، مثل أن يستيقظوا في منتصف ليلة على طلقة ، أو تأتيهم من الغيطان صرخة تقول : ظبطوها في الدرة مع غريب.

★★★

وقد حدث ..

والغريب أن أحداً لم يفاجأ بما حدث ولم يستنكره ، كلهم أخذوا الأمر على أنه شيء مسلم به ، أن كان بالأمس لم يحدث فها هو اليوم قد حدث ، حتى أطفال العزبة - وللأطفال مجتمعهم هم الآخرين وإشاعاتهم وآراؤهم الصغيرة في الناس الكبار - حتى هؤلاء أحسوا أن فاطمة قد ارتكبت أخيراً ذلك الشيء المحرم الذى طالما حذرهم منه الآباء والأمهات ، ارتكبت العيب .

وعلى هذا حين وجدوا فرج قادماً من الغيط من بعيد ، ورأوا عمامته مخلوعة ورأسه عارياً ، لأول مرة ، وصديريه مفتوحاً وسرواله ملطخاً ببقع الطين ، بينما وجهه مصفر وشاربه يرتجف وعيناه فى لون الدم - حين رأوه قادماً من بعيد هكذا ، انزووا فى ظل حائط الاسطبل وهم يكادون يحسون بفطرتهم هول الكارثة التى حاقت به . وحين دلف من بوابة العزبة ساروا وراءه عن بعد يتابعونه صامتين ، حتى وجدوه يدخل داره وينهر ابنه الذى كان يخبط على صفيحة قديمة صدئة ، ثم وهو يطلب من امرأته فى صوت خطير لا يكاد يسمع أن تأتيه بالجوزة ، ثم وهو يتناولها ويعب من دخانها عباً ، وينفث من صدره سحباً كثيفة لاتصدر إلا عن الفرن المبلل الأحطاب .

وحين بدأ بعض الرجال يتسللون إلى الدار تشجع الأطفال وتسللوا هم الآخرين ، ولكنهم وقفوا قريباً من العتبة يرمقون مايدور فى الداخل

خائفين . ولم يكن يدور فى الداخل شىء يخيف . كان فرج جالساً أصفر لا يتكلم ، يرص كراسى الدخان ويشرب . وكان الرجال حوله ساكتين لا يعرفون ماذا يقولون ، وحتى إذا تململ أحدهم وأهاب به ضميره أن يقول شيئاً يخفف به من حدة الهول ، فإن فرج كان يمد له غابة الجوزة ليشرب ويسكت ، فالموقف ليس فى حاجة إلى كلام . فأخيراً جاء اليوم الذى توقعه فرج وظل طول عمره يتوقعه .. أخيراً حدث الشىء الذى كثيراً ما فكر فيه وغلى الدم فى عروقه وهو يفكر فيه ، كان كلما رأى جسد أخته يتلوى فى الثوب الأسود الواسع المهلهل ، أو كلما رأى قطعة من جسدها ظاهرة من ثقب الثوب ، كلما رآها تضحك أو تتكلم أو حتى تأكل ، كان يحس بصدره يضيق فجأة ويختنق فيصوب إليها نظرات كالمسامير المحمية ، أو يضحك ضحكه الواسع العريض الذى لابد تلمح فيه خوفه الرهيب من شىء لابد أن يحدث . بل كثيراً ما حسبها بينه وبين نفسه ، ترى ماذا يفعل لو حدث لا قدر الله أن ...

وكان شعره يقف كلما حسبها ويعود ينظر إلى فاطمة نظرات تغور بها فى سابع الأرض . وها هو الحادث قد حدث ، وأصبح عليه الآن أن يأخذ موقف الرجل الأخ ، عليه الآن أن يقتلها ويقتل غريب . يقتل فاطمة أخته التى حملها وهو يعدى بها المصارف حين كانت صغيرة والتى قالت له أمه وهى تموت : وصيتك فاطمة يا فرج . ويقتل غريب، الكلب الذى

طالما أواه وسقاه على حسابه واحتضنه ، والذى طالما توقع أن يخونه وقد خانه .

أجل ، الموقف ليس فى حاجة إلى كلام . إنه فى حاجة إلى دم . كل ما فى الأمر أنه لابد من التثبت حتى لا تلتف خطيئتهما حول رقبته . إنه قادم على اضاعتهما وإضاعة نفسه وامرأته وأولاده فلابد أولا أن يتأكد ، فليعب الدخان وليسكت ولينتظر قبل أن يمسك السكين . والقرار بارد لا رحمة فيه ولا أمل . ففرج من أهل العزب ، وأهل العزب متهمون أنهم متساهلون فى أخلاقهم عن أهل القرى ، ولكنه سيريهم أن أهل العزبة لهم هم الآخرين أصول وأنهم أعدى أعداء العيب .

أما فاطمة فسرعان ما أهلت من بعيد على العزبة وحولها سرب من نسائها وبناتها فى أثوابهن القديمة السوداء ، ورقعهن الملتفة حول رؤوسهن . مكونات كتلة غامقة من السواد لها عشرات الأذرع والرؤوس ، تتحرك صوب العزبة فى تصميم خطير ، وتثير سحابة واطئة من الغبار .

وجرى الأطفال يستقبلون الموكب . كانت فاطمة فى الوسط وكان وجهها أبيض ، لأول مرة انقلبت سمرتها الجميلة إلى بياض شاحب ، ولم تكن تبدو فاتنة كعادتها ، وكانت تعقد رأسها بشالها الأسود كالحزانى ، وملامحها لاتتحرك وكأنما هى ميتة أو حالا ستموت .

وحدثت ضجة لدى اقتراب الموكب من العزبة ، وراحت النسوة يتناقشن فى أصوات رفيعة حادة كما يتناقش الرجال ، والبعض يشير بتحويدها على بيت الخولى ، بينما الأخريات يتحدثن عن الأصول ، ومن أن مكانها الطبيعى هو بيت أخيها . وحدث الشد والجذب والصراع وأخيراً أدخلنها فى بيت الخولى القائم فى ركن العزبة ، وبقى الأطفال فى الخارج ينتظرون .

أما غريب فقد قالوا أنه طفش وأختفى فى المزارع ، وأنه قد لايعود .

ولم يكن أحد فى العزبة يدرى مايحدث بالضبط . كان جو العزبة قد تعكر فجأة ، ولم يعد أحد يرى فى جوها العكر شيئاً .

الرجال جميعا كانوا صامتين ، والنساء دعواتهن كانت تنهال على غريب ابتداء من يجيله ويحط عليه إلى طلبهن الملح من الله أن يختصه بداء لا يبرى منه . ولكن ، حتى دعوات النساء الرفيعة هذه لم تستطع أن تحرك قليلا أو كثيرا من الوجوم الثقيل الذى حط على العزبة وكل من فيها ، الوجوم الذى جعل حتى كلابها تكف عن النباح .

وفى بيت الخولى كانت الحلقة مستحكمة حول فاطمة ، النساء ينهلن عليها بالأسئلة ، وطبعا قبل أن يسألنها كن واثقات أنهن لن يصدقن شيئا مما تقول .

قالت أنها كانت ذاهبة تحمل الفطار إلى أخيها فرج فى الغيط،

وحين مرت على القناية الكائنة فى حقول الذرة خرج لها غريب على حين بغتة وحاول أن يمسك يدها ويجذبها فقاومت وصرخت ، وتسكت فاطمة عن حديثها التائه ، وتستحثها النسوة على المضى ، فتقول أن الناس جاءوا على صراخها وهرب غريب . ولكنهن لايقتنعن ويطلبن المزيد فتقول لامزيد . فيهززن رؤوسهن محاولات أن يترجمن حكاية اليد الممسوكة هذه بكل مايتسع له خيالهن . بينما حمى لاترحم قد ركبت كل واحدة فيهن لتعرف ما قد جرى وتتأكد . وكلما سكتت فاطمة ، وكلما شحب وجهها وبهت ، ازدادت حدة الحمى واشتدت . حتى الرجال الجالسون حول فرج بعيدا عن فاطمة وحلقتها كأنما أصيبوا هم الآخرين بنوع خفى من تلك الحمى ، تلمحه فى كلمة طيبة خارجة من فم طيب تقول : صبركم بالله ياجماعة .. مايمكن مافيش حاجة حصلت .

★★★

وشيئا فشيئا بدأ الشىء الذى حاول الجميع كتمانه قدر طاقتهم يظهر ، وكان سهم الله قد نفذ ، الأذهان كلها كانت معبأة ومهيأة ومتوقعة كلها أن يحدث ماحدث : إذا انفرد رجل أى رجل بفاطمة فعليه العوض فيها ، فما بالك والذى انفرد بها غريب ؟ من يعمل هنا حسابا لفاطمة أو لرأيها والمقاومة التى قد تبديها ؟ إذا انفردت بغريب انتهى كل

شىء ، والمهم الآن هو التأكد من أن كل شىء حقيقة قد انتهى ، حتى فرج ، كان وهو يقرأ مايعتمل فى ضمائر الناس الخفية كان هو الآخر يريد أن يعرف النتيجة . لا ليعرفها ، ولكن ليتأكد أن فاطمة حقيقة لم تعد أخته وأنه أصبح حرا يستطيع أن يفعل بها مايشاء .

والنساء – ويا لغرابة هذا – أكثر جرأة فى هذه الأمور من الرجال ، ولذلك ما أسرع ، ما قالوها لأنفسهن ولزوجة فرج التى كانت قد تركت الدار وذهبت تعدد على فاطمة وتبكى ، ولعمتها ، وحين قالوا لفاطمة نفسها غضب وجهها وبهت بشدة وارتجفت فتحات أنفها وصدرت عن عينها دمعات قليلة ، أقل من محتويات الليمونة إذا عصرتها وهى خضراء ، وصرخت فيهن أن شيئا مثل هذا لايمكن أن يحدث ، وأنه والمصحف الشريف لم يلمسها . فقلن لها : مادام خايفة من الكشف يبقى لازم حصل حاجة . ومرة واحدة امتلأت خدود فاطمة بدفقة دم ولم تستطع النطق ، هى التى كانت تظن نفسها ، ويؤكد لها الناس أنها لاتعرف معنى الخجل .

ولو أن هذا حدث فى قرية لحاول الأهل أن يتستروا على ابنتهم، ولكن الأمر يحدث فى عزبة ، الكل يعرف كل شىء عن الكل ، ولا داعى للإخفاء . وهكذا أصبح هم العزبة من صغيرها لكبيرها أن تعرف ان كانت فاطمة قد جرى لها ما لا بد أن كان سيجرى لها . وداخت فاطمة

حتى أنهم رشوا على وجهها ماء وشمموها بصلة . داخت من هول المسألة ، ومن احساسها بأنها متهمة بأعيب عيب ، وأن جميع أهل العزبة يناقشون أعز خصوصياتها ، هي الأنثى الملكة الحلوة ، يناقشونه عيانا بيانا وعلى مرأى ومسمع من أخيها وأهلها وكل هؤلاء الذين كانوا يحبونها وتحبهم ، ويدللونها وتتدلل عليهم .

وطلبت من حلقة النساء أن يرحمنها .

وسكتن جميعا ورحن يرقبنها بعيون ذابلة كان قد غادرها الشك وامتلأت بيقين ، كالعيون ، ذابل وحزين .

وحينئذ قالت فاطمة بوجه جامد متحجر بينما دفقة الدم التي تصاعدت الى وجهها تنسحب وتسقط إلى أقدامها ، قالت : أنا مستعدة .

وفي تلك اللحظة كان فرج قد داخ من كثرة شرب المعسل على الريق ، وكان رأسه منكسا ويده تسند جبهته ، ولولا أنه رجل لحسب الناس أنه أرملة تبكي وتنتحب .

ولم يكن في العزبة من يفهم في هذه الأمور إلا صابحة الماشطة ، وهي لم تكن ماشطة محترفة . كانت تمتلك ماكينة خياطة قديمة تدار باليد . وكانت تخيط أثواب النساء والرجال على حد سواء ، وكانت متقدمة في السن ولكنها تبدو صغيرة ووجهها أبيض ، وشكلها طيب

حنون كشكل أى أم ، ولكنها حين تتكلم يفضح صوتها ما تخفيه ملامحها ، فتحس أنها امرأة مجربة عركت الحياة بنسائها ورجالها على حد سواء وحينئذ لا تطمئن إليها .

وحين أبدت فاطمة استعدادها كان مفروضا أن يبعثن فى طلب صابحة الماشطة ، ولكنهن ترددن . فهن يردن معرفة الحقيقة وصحيح أن صابحة تفهم فى هذه الأمور وستعرف حتما كل شىء، ولكنها قد لا تقول الحقيقة . إذ هى متهمة فى نظر الرجال والنساء وحتى الاطفال ، فهى صحيح الخياطة الوحيدة فى العزبة وهى التى تفصل للجميع أثوابهم ، إلا أن مسألة وجودك فى منزلها ، حتى ولو رآك الناس وأنت تقيس الجلباب ، مسألة لا يستريح لها كل من يراك ، إذ من المعروف أن صابحة ليس لديها مانع من أن تصنع من نفسها وبيتها ستارا قد يلتقى وراءه الرجل بالمرأة حيث هناك سبب وجيه لوجود كليهما معا ، ولكن أحدا لم ير بعينه شيئا ، وقد يكون هذا صحيحا ، وقد يكون مجرد إشاعات باطلة ، ولكن الثابت أن صابحة فيها شك ، وممكن أن تعرف ولا تقول ، وممكن أن تقول خلاف ما تعرف .

وقالت امرأة فرج : مافيش إلا الست أم جورج .

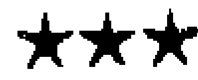
ووافقت النساء فى الحال . فأم جورج هى الست الوحيدة فى العزبة ، وهى ايضا الوحيدة المتعلمة التى تجيد القراءة والكتابة ، ثم

أنها من البندر ، ولابد أن أهل البنادر يعرفون كل ما لا يعرف فيه أهل العزب والقرى والفلاحين .

وتدافع الأطفال حول الموكب ووراءه حين خرج من بيت الخولى فى طريقه إلى بيت الناظر ، ومضى الموكب يتعثر فى حزنه وحماسه فى طرقات العزبة المليئة بأكوام الأتربة وقش الأرز ، والدنيا نهار ، والشمس قريبة من الارض منكسة . وفاطمة فى الوسط لايزال وجهها متحجرا ، وعيونها مفتوحة كعيون العميان وقلبها غائص تحت أقدامها ، كلما خطت خطوة أحست أنها تطأه ، وتطأ معه كل خجلها العذرى ، وكل أحاسيسها الحلوة أيام كانت طفلة ، وأيام كبرت ، وأيام كانت تغنى فى الأفراح ، وتحلم بأن يكون لها فرح وزفة وجلوة وليلة حنة حيث يترقب الجميع خروجها ترقبهم للملكة ، واليوم هم يترقبون خروجها ، مئات العيون تنظر لها، وتحملق فيها ، مئات ، لا ، بل آلاف ، الدنيا كلها عيون مفتوحة كالفناجيل لا تنظر اليها وإنما تنظر الى أخص خصائصها ، بلا حياء ، وبوحشية ، وتخترقه ، وتهتك شرفها ، ويسيل دمها ، ويقطر لدى كل خطـــوة تخطوها ولدى كل حجر تتعثر فيه وهى حافية عارية ذليلة، لا يرحمها أحد .

وحاولت صاحبتها حكمت أن تجذب الشاش فوق وجهها وتغطيه ، ولكن فاطمة أزاحت الشاش كاشفة وجهها . ما فائدة اخفاء الوجه وجسدها كله عريان .

والموكب الحزين المتحمس ذو عشرات الأذرع والرؤوس يمضى ووراءه ذيل من الأطفال والكلاب الجائعة ، يمضى ويثير سحب غبار ، ويشتت قوافل الأوز البيضاء ، ويطير العصافير والحمام آخذا طريقه إلى بيت الناظر .



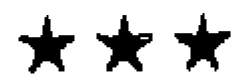
فى ذلك الوقت كان عم ضرغام خفير الجرن يجعجع ولا أحد يستمع إليه ، فالناس قد تعودوا على جعجعته . كان هو الصعيدى الوحيد فى العزبة ، ومن يوم أن جاء وهو يخفر الجرن ، وتعدى السبعين وهو لايزال يخفره ، رأسه ضخم اسود ، وملامحه غليظة دائمة التكشير ، وشاربه الأبيض طويل غزير كشوارب الكلاب ، وشعر رأسه أكرت أبيض ، وعرقه يسيل على الدوام بطريقة تجعل وجهه الأسود دائم اللمعان وكأنما يعرق زيتا . وكان لا يتكلم الا جعجعة لا يفهمها أحد وكأنها هبهبة كلب ، ولا يجعجع إلا إذا اقترب أحد من الجرن ، حتى ولو بحسن نية ، وقد عاش فى العزبة ثلاثين عاما لا يعرف أحدا ولا يأخذ على أحد الكل يعرف اسمه وهو لا يعرف اى اسم ، كل ما هنالك إذا كان الواحد منهم بعيدا عن الجرن فليس له دعوة به ، أما إذا اقترب أحد جعجع له حتى يبتعد.

ولم تنقطع جعجعة عم ضرغام ، فقد كان يجعجع لغريب . كان غريب قد عاد من هروبه واختبأ فى (حلة) الذرة فى الجرن ليرقب عن

كتب ما يدور في العزبة ويتنسم أخبار فعلته الشنعاء ، ووجهه الأسمر قد اسود ، وطاقيته قد كبسها فوق رأسه بطريقة لا تظهر معها (قصته) ، وهو خائف جاد نادم متوجس وكأنما قد أفاق لنفسه بعد غفوة سنين ، وأدرك أن قلة أدبه وفراغ عينه وغوايته للنساء كانت عيبا ما بعده عيب . ولمح فاطمة وموكبها وهو في طريقه إلى بيت الناظر ، وازداد وجهه سوادا ، وبالغ في اخفاء نفسه داخل كومة الذرة الحطب وكف عن النظر . كان من فرط خوفه من فاطمة وبعدها في نظره قد ازدادت رغبته فيها ، وكلما ازدادت رغبته ازداد بعدها عنه واستحالة وصوله إليها . ولم يكن يريد بها شراً ، ولم يكن يريد منها قليلا أو كثيراً ، كل مناه كان أن يقول لها العواف مرة ، فترد عليه بلهجة يحس معها أنها ترد عليه ، عليه هو غريب ، ولكنها لم تكن تفعل ، وكان يعزى نفسه بإيقاع نساء أكثر ومع هذا يزداد رغبة في أن ينال من فاطمة كلمة أو نظرة أو حتى لفتة تلقيها إليه عبر الكتف أو من تحت ثقل المقطف . ولم تكن تلك أول مرة ينتظرها فيها غريب وهي في طريقها إلى غيط أخيها حاملة المشنة وفيها الافطار ، تخب في ثوبها الأسود ، والمشنة عايقة على رأسها وكأنها برنيطة ، وريحها الحلو يهب على الغيط والشجر والخضرة والترع فيكاد يملأ الجو بعطر كعطر النسيم يوم شم النسيم . لم تكن تلك أول مرة ينتظرها فيها ويراها وهي لا تراه وهو خائف أن تراه ، ولكنها كانت

المرة الأولى التى يتمنى أن تراه فيها ، المرة الأولى التى يتمنى أن يلتقى بها وكأن الأمر صدفة ، ويفعل معها ذلك العيب الذى أرقه وأقض مضجعه فوق تبن الوسية ، عيب أن تقول لبنت ليست أختك أو أمك : ازيك يا فاطمة ، فترد عليك بخجل لا ترد به أمك أو أختك .

ولكنها ما كادت تراه خارجا من الذرة حتى تجمدت فى مكانها وكأنها رأته عارياً .. كما ولدته أمه ، وكأنها رأت العيب يخرج لها من الذرة ، العيب الذى كواها فرج بنظراته محذراً إياها منه ، وإذا بالمشنة تسقط منها ، وإذا بها تصرخ بأعلى صوتها ، وإذا بالدنيا تنقلب وإذا به يطلق لساقيه الريح ويهيم على وجهه فى الغيطان .



وعلى عكس ما توقعت العزبة ، رسمت الست أم جورج علامة الصليب على صدرها ، وأبدت أسفها البالغ ، ورحبت بأن تفعل ما فى وسعها لكشف الحقيقة مقسمة بالمسيح الحى أن تجعل زوجها يحبس غريب فى النقطة ويسلط عليه الظابط ليربطه فى ذيل الحصان ويعلقه على عمود التليفون . كانت الست أم جورج معروفة بصلاحها وتقواها وأدبها حتى أن أحداً لم يكن يعرف اسمها الحقيقى . وكانت ترغم زوجها أبو جورج الناظر على أن يصحبها للكنيسة فى البندر القريب صباح كل أحد رغم تذمره من هذا العمل وهو الذى يقضى مساء كل

سبت يعب كاسات العرقى عند بنايوتى البقال فى القرية المجاورة الذى أحال بقالته إلى خمارة . وأم جورج قصيرة بيضاء شاحبة البياض شعرها مفلفل بالشيب وفى منتصف ذقنها ثلاث نقط موشومة . وكانت تعرف فاطمة ، وتسمع عنها وكانت معجبة بجمالها ، بل كثيراً ما كانت ترسل في طلبها لتأتى كى تساعدها فى عمل صوانى البسكويت الذى يفطر به أبو جورج ولا يرضى بسواه . بل أحياناً كانت ترسل لها فقط كى تجاذبها أطراف الحديث ، وتأخذ من فمها الحلو كل أخبار العزبة النسوية وهى المحرم عليها أن تختلط بنساء العزبة . ولولا فارق السن لأصبحت صديقتها الصدوقة .

وأفظع خجل هو ذلك الذى أحسته فاطمة وهى تدلف إلى بيت الناظر لا مطلوبة ولا مرغوبة ، وإنما شرفها معروض على الست أم جورج ، الست التى كانت بالأمس فقط تقبلها فى شفتيها بطريقة غريبة وتقول لها انه لولا الدين لخطبتها لأخيها الذى يعمل صرافاً فى البحيرة .

تسمرت فاطمة فى مكانها على العتبة ، ولكنهن دفعنها دفعا لا مجاملة فيه حتى سقط الشاش من فوق رأسها . وتولت أم جورج طرد جورج من البيت واغلاق الباب الخارجى وباب الحجرة الداخلى وشيش النوافذ وزجاجها ، وكانت مقاومة فاطمة مقاومة الخجل الفطرى ، ولكنهن تكاثرن عليها وأرقدنها على السرير بالضغط والجذب وتولت

إحـداهن تقـيـيد يديها ، وأمسـكت امـرأتان كل بسـاق من سـاقيـهـا ، وامتدت أيد كثيرة ، أيد مـعروقة جـافة ، حـتى بقـايا الملوخية التى عليها جـافـة ، وامـتـدت عـشـرات العـيـون الصـادقـة فى بحـثـهـا عن الشـرف والمحافظة عليه ، امتدت كلها :

انغرزت وقلبت وتفـحصت حـتى وهـى لا تدرى علام تبحث وأم جورج قد تولاها ارتباك عظيم وكأنها المكشوف عليها لا الكاشفة ، تنهر النسوة بلا فـائدة ، وتطمـئن فـاطمـة بلا فـائدة أيضـا ، والشـد والجـذب والصرخات المتكومة تدور فى صمت وفى همس مروع ، وسكون الترقب قد خيم على الحجرة ، وامـتـد منها إلى البيت وإلى الخارج وإلى العزبة وإلى الكون كله فصمت ، صمت حتى وصل الصمت إلى رؤوس الرجال حول فـرج ، وإلى المتناثرين قـريباً من الدوار ، وعند المكنة وفى الغيط ، الذين كـانـوا يتـابعـون كل شىء يدور داخل منزل الناظر حـتى دون أن يروه .

كل شىء هدأ وسكت ما عدا جعجعة عم ضرغام التى لم يكن يحفل بهـا إلا واحد فقط ، عبدون أبو غـريب ، الذى كان قـد أخذ طريقـه إلى الجرن وقد رفع ذيل جلبابه من الخلف آملا أن يتحدث إلى عم ضرغام لينفس عن نفسه ويلعن فاطمة وابنه وأهل العزبة لكائن من كان حـتى لو كان عم ضرغام .

وفـجـأة انطلقت زغـرودة من الحـجـرة الداخليـة ، ترددت على أثرها

الزغاريد فى المنزل ، ثم فى الخارج والألسنة تردد : سليمة إن شاء الله .. سليمة والشرف منصان.

ولحظتها فقط ، رفع فرج رأسه المنكس ، ولأول مرة كان يجرى فيه الدم ، ولأول مرة نطق وقال : هاتوها .

وبعد لحظات ، ومع أن عم ضرغام كان قد كف عن جعجعته ، إلا أنه ما كاد يكف حتى كانت العزبة تشهد أعظم جعجعة قامت فيها ، عند بئر الساقية القديمة العميق الذى يزيد عمقه على أطوال ثلاثة رجال يقفون فوق رؤوس بعضهم البعض . عند البئر كان عبدون يمسك ابنه غريب من زمارة رقبته ويحاول بكل قوته العجوزة أن يجذبه ليدفعه ويغرقه فى البئر ، بينما عشرات الرجال يمنعونه ويحاولون تهدئة خواطره ، وكان عبدون كلما جذب ابنه ووجد نفسه عاجزاً عن تحريكه من مكانه ازداد هياجه وغضبه وانصبت اللعنات من فمه كالحمم . وكل من كان يرى عبدون فى موقفه ذاك كان لابد أن يؤمن أنه حقيقة يريد اغراق غريب فى البئر ، وأنه جاد فى تنفيذ ما يريد . ولكن كان هناك شىء ما ، لعله فى طريقة زعيقه ، لعله فى نوع الكلمات التى كان ينتقيها ليشتم بها ابنه ، كان هناك شئ ما لا بد تلمحه وتحس معه أنه فى أعماق نفسه غير خجل من ابنه ، بل أكثر من هذا ، ممكن أن يكون فخوراً أن ابنه هو الذكر ، وأنه هو المتهم بالفتك .

أما في بيت فرج فقد كانت هناك مذبحة ، كان فرج يضرب فاطمة بالتقصيرة التي يصحن بها البن . وكانت فاطمة تصرخ ، وزوجته تصرخ خوفاً عليه أن يقتلها ، ونساء الجيران يصرخن ، والرجال كثيرون داخل البيت وخارجه يحاولون منعه بلا فائدة ، وفرج كالوحش الهائج يريد حقيقة أن يخلص على أخته .

ولكن ، ربما في ضبط قوة الضربات التي ينهال بها على فاطمة وربما في البريق الذي يملأ عينيه والذي لم يكن بريق غضب خاص أو فرحة خاصة ، كنت تلمح شيئا ، فصحيح أن فاطمة لم تخطيء وشرفه منصان ، ولكنه لابد أن يقوم بعمل ضخم كبير قاس يرد به على آلاف الخواطر التي لابد قد دارت في الرؤوس وعلى كلام الناس ، وكلام الناس كثير .

وطبعاً لم يغرق عبدون ابنه ، ولم يقتل فرج اخته . مالت الشمس للمغيب كما تعودت أن تميل ، ، وعاد السارحون في الغيطان يسحبون البهائم ويحملون عشاءها فوق الحمير ، وبدأت الأدخنة ترتفع من أسطح البيوت الطين وشقوقها ، وهبت روائح التقلية والزيت المقدوح تفتح الأنفس للعشاء ، وصلى الرجال المغرب ، وانتهى صعود النساء وهبوطهن إلى السطوح ، وفرغن من تبييت الدجاج وعلف البهائم ، وما كاد العشاء يؤذن حتى كان الهدوء الهائل الخالد قد خيم على العزبة من

جديد ، وحتى كان كل ما يتعلق بما حدث قد نوقش وأعيد نقاشه حتى فرغت الجعاب ، وثقلت الرؤوس ، وبدأت ذبالات المصابيح تخفت وتتوارى، وبدأ النوم يزحف مع الظلام ، وبدأت الأجساد تتمدد تعبة لا حراك بها .

وحين أصبحت فاطمة وحدها ، حين نام الجميع وبقيت هى محطمة مستيقظة ، بدأت تبكى . لم تكن تريد . ولكن الدموع بدأت تسيل رغماً عنها صانعة قناتين لامعتين يصلان ما بين عينيها وأرض (البحراية) التى كان فرج قد حكم عليها أن تنام فيها بلا حصيرة أو غطاء ، ثم بدأت تنشج ، وبدأ جسمها يهتز ، بل بدأ قفص الفراخ الموضوع بجوارها يهتز ويهز الفرن والبيت والعزبة كلها ويكاد يوقظ النائمين . كانت تبكى بكاء من يتألم ألما لا قبل له به ، بكاء الذى جرح جرحاً عميقاً وجاء الليل عليه فبدأ يحس بالألم . الألم الكاوى الذى لا يرحم .

★★★

وحاول أولاد الحلال فيما تلا هذا من أيام أن يقنعوا فرج بقبول غريب عريساً لأخته ، ولكن فرج رفض رفضاً مانعاً باتاً ملأهم باليأس . أما غريب ، فقد كف حديثه عن فاطمة تماماً ، بل كف من يومها حديثه عن كل النساء ، وحلق قصته ، وأصبح يصلى ، ولكنه كان يضبط أحياناً وهو يحوم حول العزبة ، ويتوقف عند النافذة المفتوحة على بيت فرج .

أما فاطمة فقد حبسها فرج فى البيت ومنع خروجها وشغلها رغم حاجته الشديدة إلى يوميتها . ولم يقلق فاطمة هذا فى شىء ، كانت عازفة عن الدنيا لا تريد الخروج ، والحيوية المتدفقة التى كانت تبرق فى عينيها وخدودها ولفتاتها كأنها نضبت فجأة ولم يبق لها أثر ، وتحولت إلى حيوان بليد كخروف الضحية لا تبتسم وتكاد لا تتحرك ، وكانت إذا تحدثت خرج حديثها ذليلا قد فقد كبرياءه وحلاوته والأنوثة التى تقطر منه .

ولكن هذا لم يدم طويلا ، فلم تبق فاطمة حبيسة البيت إلى الأبد ، ولم تطل صلاة غريب ، ولا استغنى فرج عن برطعته وضحكه ، إذ بعد أسواق كثيرة وأسواق ، كان كل ما حدث قد وضعه أهل العزبة فى خزينة النسيان وأغلقوا عليه بالضبة والمفتاح ، وكان أولاد الحلال قد تكفلوا بمصالحة عبدون وابنه على فرج ، فأصبحوا يتحادثون ويتبادلون العمل ويتزاملون كالعادة . وربى غريب قصته وعاد يحدث أصحابه عن النساء فوق تبن الوسية ، ولم يكن حديثه يخلو من مرارة ، إذ كانت فاطمـــة قد عادت إلى الخروج ، جميلة كما كانت ، معووجة المنديل رافعة ذيل الثوب ، تخطر إذا مشت ، وتدوخ إذا تلفتت ، وتعافي كل من يلقاها ، إلا هو ، لا عن عمد ، ولكن كأنها لا تراه ، وكأنما قد محي من الوجود ..

عادت فاطمة تنظر وتتحدث وتبتسم وتطير العقول وكل شيء فيها لم يتغير . ولكن الناس كانوا يعجبون ، فلابد أن فاطمة قد اكتسبت شيئاً جديداً لم يكن لها ، أو أنها لابد فقدت شيئاً أصيلا كان لها ، الشيء الذى كان يلون وقفتها ومشيتها وضحكتها ، الشيء الذى يجعلها تبدو ملكاً للجميع تحب الجميع ويحبها الجميع . الشيء الذى يكسبها شفافية ونقاء والذى كان يجعلك تحس إذا ابتسمت أنها حقيقة تبتسم وإذا غضبت أنها حقيقة غاضبة ، كانت قد فقدت براءتها ، وأصبحت تستطيع أن تنظر دون أن تنظر ، وتضحك دون أن تريد ، وتريد الشيء وتخفى رغبتها فيه .

بل أصبحت تستطيع إذا ما لمحها فرج خارجة ذات يوم من دار صابحة الماشطة وأخذها إلى بيته وأغلق عليها باب القاعة ، وأمسكها من ضفائرها وشدد عليها ، وسألها عم كانت تفعله عند صابحة ...

أصبحت تستطيع إذا ما حدث هذا أن تقول : كنت بقيس التوب . اوع كده .

وتجذب نفسها وضفائرها من قبضته بعنف غريب ، وتقف فى الركن تعيد النظام إلى شعرها وتواجهه . بعيون مشرعة . حلوة ، لا تنخفض ، ولا تخجل .

صاحب مصر (★)

فكرت أن أجعل للرجل زوجة جميلة صغيرة لتلائم سنه الكبيرة ، فكرت أن أجعل الجميلة بنته ، ولكن الزوجة مغرية أكثر ، والقارىء الملول لابد أن يسيل لعابه تتبعا للزوجة الصغيرة الحلوة أملا فى حدوث المتعة الكبرى بشم رائحة الخيانة أو التلظى نشوة وقلقا على نار الشك فى وجودها .

فكرت فى أشياء كثيرة ، وتصورت وكأننى الكاتب المحترف ، كل الآفاق المثيرة المجهولة التى يمكننى أن أقود إليها القارىء الهاوى النهم ، كى أجد تفسيرا لحماس صميدة للرجل العجوز وصميدة ليس اسمه ، وأنا لا أعرف اسمه ، ولكنى لابد إذا سميته أن أختار له لقبا كصميدة ، فيه حرف صاد مذكر الموسيقى ، جهيرها ، ليعبر عن شخصه .. ولابد أن ارتباكا قليلا قد حدث وأن الحيرة تملكتكم عن أى الرجلين أتحدث .. الواقع كان هناك رجلان كل منهما يستحق الحديث ، ولكن الأنسب أن نتجاوز عن كليهما معا لنتحدث عن المشهد ، فقد كان هناك رجلان ومشهد ، والمشهد ليس بسيطا أبدا رغم خلوه التام من الفواجع والكوارث وكل مسببات التوتر ، ولكى نبدأ علينا أن نتصور

(★) نشرت للمرة الأولى - بعنوان «عند مقاطع الطرق» - فى مجلة «روز اليوسف» فى ١٩٦٥/٢/١٥ - مجموعة «لغة الآى - آى» .

مكانا معزولا تماما عن العالم كأن الدنيا بكل غموضها ومجهولها تنتهى عنده ولكننا لابد أن نعتقد أنها أبدا لا تنتهى عنده ، فالطريق الذى يقطعه يظل ممتدا بعد بقعتنا مثلما يظل ممتدا قبلها ، إلى ما لا نهاية البصر ، بالاختصار لنتصور طريقا من طرقنا المسفلتة الطويلة يمر بمساحة شاسعة من الأرض غير الزراعية أو المطروقة أو تعرضت فى عمرها الملايينى الكثير للمسة من يد الإنسان ، صحراء ، أو برارى أو جبل وعر على امتداد الأصبع الخنصر لبحرنا الاحمر . ان طريقا كهذا يظل كالخط المستقيم بلا فائدة ، كالرجل المستقيم بلا مبدأ وبمجرد المحاكاة والتقليد ، لا معنى له ولا قيمة لاستقامته ، حتى يحدث له حادث ، ينتهى مثلا أو يلتوى ، أو بالذات يلتقى بطريق غيره أو يتقاطع ، هنا فقط ، عند التقاطع واللقاء يصبح للطريق المستقيم الممتد معنى ، إذ يصبح التقاطع وكأنه الاثبات لنظرية كانت قبله فرضا ووصولا كان طوال الطريق مجرد حلم كحلم الجوعان بالخبز .

لنتصور حادثا كهذا وقع لطريقنا الذى اخترناه ممتدا بلا معنى فى أرض متسعة بلا مفهوم ، ولنكن أيضا على ثقة أننا لن نكون أول المتصورين ، فقبلنا بكثير سنجد أن الحكومة باعتبارها المسئولة عن الأرض والطريق وكل الأشياء ذات المعانى والمعدومة المعنى قد تصورته ، وأدركت أهمية هذه الحقيقة الفلسفية أو الصوفية المحضة ، مع أنه ليس

من عادة حكومة فى العالم أن تعير أمثال هذه الحقائق التى ينقسم عندها البشر ، وأحدثت ولا تزال تحدث أعظم الهزات والمعارك والانتصارات الإنسانية ، أى التفات ولكنها بالسليقة من زمن لابد أدركتها . وبادرت فأقامت عند هذا التقاطع (كشكا) ، وقالت لعسكرى كن داخل الكشك فكان ، وهكذا انحسرت كل المعانى الكلية المهولة عن التقاء الطريق بالطريق وتقاطع الطريق مع الطريق ، وكما يضيق (القمع) ويتدبب ، ضاع المعنى وانكمش واتخذ بالكشك والعسكرى فى الحال مفهوما واضحا خاصاً . بل حتى الأرض نفسها . تلك التى كانت من أمتار قليلة مستمتعة بلا جدواها ولا أهميتها وبحريتها أن تمتد إذا أرادت وتتجبر وتتجبل إذا أرادت وشاءت أن تمتد وتجن وتطلق شعورها وبراريها ولحاها كلما عن لها أن تصنع ذلك أصبح عليها منذ الآن أن تدير رأسها وأن تعقل وتخفى عورتها ومن الكرة الأرضية الهائلة والكون والطبيعة تنسلخ وتتخذ أسماء وتنتهى إلى شعب محدد والى جزء من أرض ذلك الشعب ، محافظة أو مركزا تئول وكما يعطى العسكرى والكشك للارض والطريق هذا المعنى المحدد الخاص ، يرتد العطاء ، ويصبحان أو على الأقل يصبح العسكرى ، ليس مجرد أى عسكرى فى أى كشك. ولكنه ، فى ذلك الجزء المقطوع عن العالم المعزول يصبح المثل الحى للنظام العام الذى أخضع الأرض وحدها وسماها وامتلكها ولكل

القـــوانين التى ابتكرتـهـا عـقـول من أصـبـحت تمت لهم هـذه الفـرس الوحشية .. الأرض .. وراكبها الذى استأنسها .. ذلك الطريق ..

فى ذلك الوقت ، ولنجعله بعد الظهر بقليل وقد انتهى العسكرى من تناول غدائه بحيث يمكننا أن نقدم عليه بلا حرج ونجلس إليه على أمل أن نتحدث ، وحتى قبل أن يدور أى حديث بمجرد الجلوس ، سندرك أن البقعة قد تكون معزولة ومهجورة بالنسبة للآدميين وللراجلين ، ولكنها أبدا ليست كذلك بالنسبة للعربات ، فما تكاد تمضى دقيقة حتى تكون عربة قد أقبلت ، بل أحيانا يتراكم لدى الكشـــك أكثـــر من عربة ، كل ما فى الأمـــر أنها فى الخلاء الواسع لا تبدو للعيان .. قلما تصادفك عربة إذ هى نقطة لا تظهر إلا عند الكشك من الخلاء الواسع الشفاف تظهر فجأة كأن دخانا كان يخفيها باتساعه وشفافيته ، وإلى الخلاء الواســـع تعود إلى الاختفاء بعد اجتياز التقاطع ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وحتما لابد نفاجأ ، قبل أن نبدأ نعير العسكرى نفسه أى التفات وإنما نحن مشغولون بتأمل المكان الفريد الغريب ومتابعة غير قليل من الأفكار التى يولدها بالضـرورة وجـودنا لأول مـرة فى مكـان كـذاك ، حتما لابد نفاجأ حين يقبل رجل عجوز قصير القامة ، أول ما يلفت النظر إليه جبهته السمراء البارزة المحدودبة ، ومقدم رأسه الخفيف

الشعر الأشيب ، ينحني على المنضدة الموضوعة أمام العسكرى ليستطيع أن يصل إلى حافتها الملاصقة له ، ثم يضع ويا للمفاجأة كوب شاى متوسط الحجم ، رخيص الزجاج وإن بدا الشاى نفسه جيد الصنع عنبرى اللون محمرا ، تماما كما يحبه أنصاف الكييفة ، ونفاجأ أكثر حين نجد أن العسكرى نفسه لم يفاجأ بما حدث وكأنه كان يتوقعه ، وكأنما هى عادة ، وحتى إذا كنت متوسط الذكاء فلن تأخذ وقتا طويلا لكى تدرك أن الرجل العجوز صاحب ما اصطلحنا على تسميته بالغرزة أو القهوة الصغيرة المتنقلة وأنه يحط رحاله تحت شجرة على الناحية الأخرى من الطريق وأنه لابد قد لاحظ أن العسكرى قد انتهى من تناول غدائه فأحضر له كوب الشاى . كما قلت ، لا حوادث هناك ولا شيء غير عادى . من الطبيعى جدا أن توجد قريبا من هذا التقاطع غرزة صاحبها رجل عجوز أو مريض وأن يتعامل العسكرى معه ، وأن يحضر له الشاى ، وأن يقدمه فى أدب .

ولكن أشياء غير عادية بدأت تحدث ، منها مثلا أن يدفع العسكرى يده فى جيب بنطلونه الأمامى (فجيوب بنطلونات العساكر مركبة إلى الأمام ولا أحد يعرف لم) ويخرج قرشا من جيبه ويعطيه للرجل العجوز قائلا ، خذ قبل ما أنسى . حادثة لا شك ، فالمفروض والعسكرى يمثل كل ما ذكرته آنفا ، والرجل يمثل التجار الصغار ، أن يتقاضى ضريبة

يضعها تحت أى اسم يشاء ... ضريبة ليست أقل من كوب الشاى مثلا ، وأن يعفى العسكرى هذا الرجل من الضريبة ، ليس فقط .. بل أن يخسر من جيبه قرشا ، أمر له دلالة خطيرة لابد . ان هناك سببا لهذا الاستثناء ، فإذا اتضح أن لا سبب هناك فمعنى هذا أننا فى مواجهة ظاهرة خارقة .. عسكرى مرور .. ملك متوج على بقعة نائية مهجورة ويستطيع من هذا المكان أن يسيطر على غرائزه وبالذات على غريزة فرض الضرائب غير القابلة للسيطرة والتحكم ، ويكون ذا ضمير مستيقظ لماح .

هنا لابد أن تلتفت كلية للعسكرى ، وتعيد النظر فيما دار بينك وبينه من حديث ، الآن تستطيع التحدث بهدف ، ولكنك إذا تحدثت فستقطع أخطر محاورة مفروض أن تدور حالا بين العجوز والعسكرى ، لأننا لن نستطيع ادراك مضمون الحوار ادراكا حقيقيا إلا إذا وضحت لنا صورة العسكرى فلابد لنا أن نؤجل الحوار إلى حين . العسكرى شباب فى حدود الثلاثين ، فى حديثه وآرائه تحديدات من لم يتزوج بعد أو إن كان قد تزوج فلم يستطع الزواج أن يصيب شخصيته ، كما يصيب الجسد بالترهل وعدم الميل إلى التحديد ، الزواج باعتباره عملية تنازل مستمرة ومساومة فى أحسن الأحوال يصيب الرجل بعادة الرغبة فى المسالة والبحث عن الحل الوسط ، فالجمل لابد أن تكون لها نهايات مفتوحة

تجعلها قابلة للتراجع التام فى أحيان ، أو الاتصال بجملة أخرى تغير تماما من المعنى المقصود ، الزواج ضد نقط النهاية وضد الحسم ربما خوفا من سوء وضع النهاية . ما علينا . شخصيته محددة ، آراؤه فى الناس أيضا محددة ، وكذلك فى عمله وطبيعته ، وهذا شىء نادر هنا ، فالوظيفة ، أية وظيفة ، كالزواج تماما تعلم صاحبها فتح الجمل وكثرة استعمال حروف الوصل واللضم والجر والألفاظ التى تحتمل أكثر من معنى وتفسير لاستخدام معناها الآخر كسلم الحريق حالة وقوع الكوارث وتحمل المسئولة . له شارب .. تحس أنه عن عمد قد وضع شاربا ، لا للعياقة أو اظهارا لرجولة فى حاجة إلى اظهار وإنما لأنه – ما دام الناس صنفين – فقد اختار أن يكون من الصنف ذى الشارب ، صعيدى أو عربى فلا تزال له بقايا قبلية ، فى لغته وفى ميله إلى الحديث عن كل ما هو عام ، فالانتماء يبعد عن الذات وكل ما يمت إلى الشخص بمفرده . ولا أستطيع أن أقول إنه شهم ذو نخوة وأريحية ، فلم يكن قد بدا منه ما ينبىء بأى من هذا ، ولكنك تتمنى . بل ترجح أن يكون شهما ذا أريحية ، ولكنه أبدا ليس كاملا ، فصحيح أنه يعامل السائقين بمساواة تامة ، لا يبالغ فى رد تحياتهم المفرطة وكذلك لا يرد عليها بتعاظم وتكبر ، ولكنه يكاد ينتفض واقفا إذا جاءت التحية من عربة ملاكى ، فعلى رأيه من يمتلك عربة لابد أنه صاحب نفوذ ، موظف

كبير ، أو صاحب مهنة غنى ، أو ابن لهذا أو لذاك ، وليس من العقل أو الحكمة أن يصطدم من كان مثله بأمثالهم ..

قال العجوز بعد أن وضع كوب الشاى بأدب تحس منه أن الأدب أو بالأصح - حتى لا يختلط الأمر - التأدب كان ذات يوم حرفته ، ويذهب بك الخيال إلى أنه من الجائز أن يكون قد عمل سفرجيا فى قصر باشا أو على الأقل مساعد مرمطون ، قال : أنا لى رجاء عندك .

ولم يكن العسكرى قد أدرك بعد أنه يرجوه وربما كان لايزال منصرفا إلى تأمل الشاى وتهيئة نفسه لارتشافه .. فاستطرد العجوز يقول : لو تتكرم وتسمح لنا بعربية نقل تأخذنا ..

وقال العسكرى هو منصرف أيضا ، وبمزاج ، إلى أخذ الرشفة الأولى من الشاى ،ما أعذب الرشفة الأولى من أى شيء :تأخذك فين ؟..

ربما حسن يريد أن يقضى مشوارا فى أقرب مدينة تلك التى لابد تبعد عن المكان بعشرات الكيلو مترات ، ولكن العجوز قال : أصل أنا ما أحبش المواضيع لما تحصل كده ، يبقى أحسن نأخذها من قاصرها وتتكرم علينا بأى سواق توصيه ..

قال العسكرى وملامحه القمحية ذات الندوب تنكمش انكماشات التأثر إن لم يكن بعض الغضب .

هو جالك تانى ..

قال العجوز وهو لا يزال سادرا فى رجائه : وقال لى :

ورغم هذا قاطعه العسكرى : وقال لك برضه ..

قال العجوز : وقال لى برضه فأنا رأيى أحسن طريقه زى ما قلت لسيادتك كده آخدها من قاصرها حاكم المسائل لما بتوصل على إيه ده كله كلمتين منك وأى سواق وكتر ألف خيرك ..

قال العسكرى وقد بلغ الانكماش بملامحه درجة الانفراج إذ الغضب كان قد بدأ يتحول إلى كلام : اسمع يا عم حسن أنا قلت لك طول مانا هنا ماحدش يقدر يقرب لك ..

- بس أنا المسائل لما بتوصل أقول لنفسى على إيه الارض أرض الله ومافيش أوسع من أرض الله وربك بيقطع من هنا ويوصل هنا وكلمتين لسواق ..

بحزم هذه المرة قال العسكرى : والله لما يكون هو الجن الاحمر مش يكفاك كلمتى أنا قلت طول مانا هنا لا هوه ولا مليون واحد زيه يقدر يهوب ناحيتك ، بس ركك أشوفه مرة وأنا أعرف شغلى معاه ، هو جالك امتى ؟

- من شوية ..

- جه منين ؟ ..

- م الناحيا دى ..

- وراح فين ؟ ..

- م الناحيا دى ...

- وازاى ماشفتوش ، ركك بس أشوفه ، أنا مش قايل لك لما يجيلك اندهلى ..

- يا سيدى ربنا يخليك ويكتر خيرك ، بس أنا كان قصدى يعنى إن المسائل لما بتوصل مفيش داعى وكلمتين منك ..

- خلاص يا عم حسن ، بس لما يجيلك اندهلى ..

وكان العسكرى قد انتهى إلى آخر نقطة من شرب الشاى ، فتناول العجوز الكوب ، ومسح قاعدته السميكة مرة أخرى ، وانحنى ومد يده ، ومسح الدائرة المبتلة التى صنعتها على المنضدة ومضى وهو يتمتم لابد بدعوات وكلمات شكر ..

لو رأيت هذا المشهد لدفعك حب الاستطلاع حتى إلى سؤال العسكرى عن معنى هذا كله ، ولخمنت حتى قبل أن يبدأ فى أن سببا ما لابد يدعو العسكرى للتمسك بوجود عم حسن العجوز كل هذا التمسك ..

ولو كنت تكتب قصة بطريقة التأليف كما يفعل بعض الناس لألفت للموقف امرأة ، مثلما كدنا نفعل فى البداية ، ولجعلناها زوجة صغيرة لعم حسن العجوز أو ابنة فائرة لعويا ..

لابــد سيدور بخلدك شيء كهذا .. فالعسكرى لا يذكر لك شيئا كثيرا .. إنه يؤكد لك ، بلا حاجة للتأكيد أن الرجل عجوز وطيب ، وأن له فى هذه البقعة بضعة أيام ، وقد كان جالسا فى نفس مكانه .. وجاءت عربة نقل ووقفت كالعادة وبينما السائق يذكر له الرقم ، وإذا من الصندوق ترفع الهامة القصيرة لعم حسن ، وإذا به يتطلع إلى المكان ، ثم تقع عيناه على الشجرة فينحنى ناحية السائق فى الكابينه ويشكره ويطلب منه . بأدبه المعهود ، أن ينزله هنا قائلا إنه قد اختار هذه البقعة لينصب فيهــا نصبته ، وبمساعدة الشيال يُنزل عم حسن أشياءه الفقيرة القليلة ، ويستأذن من العسكرى ويقضى بقية اليوم فى إقامة (الغرزة) ..

وتلك هى حياة عم حسن التى اختارها .. وكل إنسان منا يختار حياته بالطريقة التى تحلو له ، بعضنا يختار المهنة الناجحة ويقضى عمره يحارب زملاءه من أبنائها الناجحين ويكيد لهم ويكيدون له ، وبعضنا يختار مهنة البحث عن مهنة ويظل العمر ينتقل من عمل فاشل إلى عمل فاشل ، ولكل منا كما قلت مهنته التى يفضلها أو التى يلعنها أو التى تتلاءم مع ذاته وطبيعته وصفاته .. وعم حسن قد ترك هذا كله واختار لنفسه مهنة أن يخدم الناس حيث لا يتوقع الناس خدمة ، فهو لا بلد له ولا بيت ، موطنه الدائم يوجد حيث يوجد بيته وبيته يوجد حيث يوجد عمله وعمله يوجد حيث يرى أن حاجة الناس إليه أكثر وأشد ..

وهو يصنع القهوة والشاى والمعسل.. ورأسماله بلا رأس وبلا مال ، وهو يوجد اليوم هنا فى بقعة مهجورة من طريق السويس - الاسماعيلية لابد عندها تقاطع أو محطة أو شيء ما .. هنا حيث يصبح لكوب الشاى قيمة لا تقدر ، خاصة إذا قُدم لسائق منهك استيقظ منذ الفجر وعليه قبل أن ينام أن يقضى الليلة القادمة بطولها سائقا .

ويظل عم حسن فى المكان حتى يزهد هو فيه و يزهد فيه المكان ، أو تصل المسائل على حد رأيه إلى حيث يصبح لا داعى للبقاء ، يشير عم حسن لأية عربة قادمة ، فى هذا الاتجاه أو ذاك ، فسكك الله كلها له وكل مكان فيها مثله مثل أى مكان ممكن أن يصبح بلده وموطنه ومسقط عمله ، ويركب عم حسن هو ورأسماله، وفى أى اتجاه يتصادف أن تكون العربة ذاهبة إليه يذهب ، وعند أية بقعة فى المسافة يراها عم حسن تصلح مكانا يحتاج فيه الناس والسائقون بشكل خاص للخدمة ولا يجدونها ولا يتوقعون وجودها ينحنى على السائق يطلب منه بأدبه المعهود انزاله ، وعادة .. بل لم يحدث أن تقاضى منه أى سائق أجرا ، وينزل ، ويظل يعمل ، وقد يقضى فى البقعة أياما وقد يقضى فيها - كما حدث - سنتين ، إلى أن تصل المسائل إلى الحد المعهود فيشير عم حسن إلى أول عربة نقل قادمة ، وهكذا ..

ولابد - خاصة إذا كنت مثقفا .. مقيدا بألف قيد وهمى أو من صنعك إلى عملك - تمنعك أشياء ليس أقلها الخوف الشديد أو بالأصح

الجبن من أن تفكر ، مجرد تفكير فى تغيير محل عملك ، أو عملك نفسه ، أو حتى محل إقامتك ، لابد أن تحسد عم حسن على حياته تلك ، فهى فى رأيك لابد أرحب وأوسع حياة ، حياة ألغت المكان والزمان والبعد الرابع وكل الابعاد ، البلد كلها .. بملايين الكيلو مترات التى تكون سككها وطرقها ومساحتها ، ملكك .. ملكك حقا لا مجازا ، إذ ماذا تفعل بالملكية قدر حقك أن توجد فى المكان الذى تمتلكه وقتما تريد وأى زمن تشاء وهل يحتل صاحب العمارة مهما كبرت أكثر من المقعد الذى يجلس عليه أو الفراش ، وما متعة من يمتلك مئات من الأفدنة أو بضع عمارات .. لكنه صاحب مصر كلها ، من حقه أن يحل بأى مكان فيها فى أى وقت يشاء ويستمتع ما شاءت له المتعة بإحساسه أنه صاحب المكان وأى مكان ..

وجزء من دوافعنا للالتصاق بمنطقة بعينها من المدينة أو القرية ، بل بشارع ، بل ببيت بعينه من بيوتها هو أننا نعرف الساكنين معنا وحولنا ونأتنس بهم ، وجزء من خوفنا أن نغادر ذلك البيت أو الحى ونقطن فى غيره ، أننا نخاف تجربة الغربة مع أناس لم نعرفهم بعد وحتما لهذا نتوجس منهم .

إن ما يدفعنا للالتصاق بمكان محدد وناس محددين أننا نخاف الأمكنة الأخرى والناس الآخرين ، فنتقوقع على ما نعرفه ومن نعرفهم حتى لو قضينا الاعمار نمله ونملهم ، عم حسن العجوز لابد أنه لا يخاف الآخرين ، وما دام قد اعتبر مصر كلها بيته ومكان عمله فلابد أنه اعتبر

المصريين كلهم صعايدة وبحاورة وشراقوة ، وغرابوة ، أهله وأبناء حيه وحتته ، وهكذا وبمنتهى الجرأة والألفة والبساطة ألفى نفسه فى وسطهم فى البحر الضخم الهائل الذى يكون ملايينهم .. ومن الواضح تماما لم يغرق ، وأن الايدى رفعته ، ولازالت ترفعه وتتداوله ، ومن المكان إلى المكان يلقى بنفسه إلى يد ترفعه بحنان ورفق لتضعه حيث يحدد أو لتسلمه إلى يد جديدة إذا أراد .. وكأنما أبرم الرجل اتفاقا مع المصريين جميعا أصحاب البلد ، أن يقدم لهم القهوة والشاى فى المكان الذى يفتقدون فيه القهوة والشاى أكثر .. وفى مقابل هذا عليهم هم المصريين أن يتكفلوا بأمر عيشه وسكنه واقامته وتنقلاته كلما حلا له أن يتنقل ..

وكما تؤثر الوظيفة فى الموظف ، وكما يصبح من خصائص سائق الأتوبيس صوته المرتفع إذ لابد له أن يرفعه ليغطى على صوت الآلة الحديدية والآلة البشرية ليسمعه الركاب أو حتى ليبلغ شتائمه إلى الراكب الذى آثر أن يدخر رأيه الصريح فيه إلى اللحظة التى يضع فيها قدمه على الأرض ويتحرك الأوتوبيس .. كما تنمى الوظيفة ذلك الجزء من الانسان الذى يتعامل به مع الآخرين .. وبالتالى تنمى لدى الاخرين ذلك الجزء الذى يتعاملون به معه ، فعم حسن يتعامل مع جزء نادر ، أو بالدقة نادر العمل .. فى الناس .. ذلك الجزء المخصص للعمل من أجل

الآخرين .. الجزء الانسانى الضامر فى أناس كثيرين .. الذى ربما حولته الأجزاء الانانية لدى البعض كما تحول الاماكن غير المستعملة إلى مخازن تختزن فيها أحصنة النهم الاضافية ومغذيات الطموح الفردى الصغير ..

عم حسن يعامله الناس ، والسائقون الذين يبدون وكأن قلوبهم قد قدت من جرانيت أصم ، بأجزائهم الانسانية ، وما أكبر هذه الاجزاء أحيانا بالذات فى قلوب هذا النوع المخيف من السائقين .. ولأنه يحيا ويتنفس ويأكل وينام بهذه الأجزاء وبما تهيئه له ، فقد اكتسب هو الآخر طابعا غريبا يميزه عن جميع الناس ، فأدبه الزائد ليس ذلك النوع المتثل الذليل الذى تدرك فى الحال مدى ما فيه من ضعة واسترزاق .. إنه نوع عميق من الأدب ، لا ينبع من الانحناءات والكلمات الهامسة ... وان كانت بعض أعراضه كلمات هامسة .. ولكنه يهمس لا ليريك ويظهر لك أنه يهمس ولكن لأنه يرى بإدراكه أنك ستستريح أكثر لو همس ، نوع من مراعاة الشعور ، ولكن لأن مراعاة الشعور لدى معظمنا لا تحدث إلا لسبب وإلا لحاجة لك عند من تراعى شعوره فأعتقد أنه من الصعب أن نتصور مراعاة الشعور لمجرد مراعاة الشعور .. لمجرد أن إنسانا يحترم شعورك فعلا ويقدره – مهما كنت – ويهمه مراعاته ، بل حتى فى طريقة سؤاله للناس ، إنه يفعل هذا بأدب صحيح ولكنه أدب فيه ثقة بنفسه

وكأن المسألة أمر مفروغ منه ، فرق كبير بين أن تطلب من إنسان لا تعرفه شيئا وتحاول حينئذ ولأنك تفترض أنه ليس من حقك أن تطلب منه وهو الغريب عنك شيئا أو تسأله معروفا ، تحاول أن ترقق ما أمكن من طلبك ولهجتك وتودع فيها كل ما يمكنك ايداعه من رقة السائلين والمقترضين ومن يطلبون بذله ، فرق بين هذا وبين أن تطلب من انسان تعتقد أنه فعلا أخوك ومن أقربائك ، ولك عليه مثلما له عليك ، أن تسأله ومن واجبه وليس تفضلا أو تنازلا ، أن يعطيك .

ولكن تلك تفاصيل لا معنى لها .. ومحاولة يائسة لشرح «كل» من الصعب شرحه ، فعم حسن ليس مجموعة تصرفات كهذه ، ولكنه أولا روح كاملة ربما بعض مكوناتها تلك التفاصيل .. إنه روح غريبة تعيد إلى ذهنك آثار الظواهر الطبيعية وهي تعمل عملها عبر ملايين وملايين من السنين لتفتت الصخر الكبير إلى رمل دقيق أملس رائع التكوين . لتقد من الصخر نهرا عذب الماء كنهر النيل ، لتصنع من الزلال وزلال الزلال حياة ومن الحياة كائنات ما أروعها حين تتأملها كالسمك دافقة بالحياة عامرة بالتفاصيل ، كالأسود جليلة مروعة يديخك مجرد تفكيرك أن الأسد العظيم منها كان ذات يوم قريب كائنا لا يُرى الا بميكروسكوب ، كائنا كان هو الآخر ومنذ أيام قريبة أسدا عظيما كذلك الأسد .. وتأمل كيف استطاع آلاف الناس بمراكزهم وتصرفاتهم

الانسانية أن يخلقوا أو يدربوا ذلك المركز فى عقل عم حسن وشخصيته ليكبر وينمو ويزدحم ، ويحيل هو هذه المرة مراكز الانانية وما يخص الذات الصغيرة إلى مخازن يودعها مشاريعه القادمة للناس .. لحب الناس ، لكى لا ينسى وهو فى قمة انشغاله ، وحوله السائقون مزدحمين كل يريد أن يحظى منه بأكبر جرعة من الحديث والشاى ، أن عسكرى المرور يتغذى ، وأنه انتهى من طعامه وأنه فى حاجة إلى كوب شاى..

لنتصوره بوجهه الاسمر ، وصلعته النامية الخفيفة ، بأذنه الكبيرة التى تؤكد ملامحه ، بأنفه الكبير قليلا يؤكد رجولته ويؤكد فى نفس الوقت طيبته إذ لا شموخ فيه ، واتساع فتحتيه يريحك ، وعيونه ليس أبدا كعيون الملائكة ناعسة سارحة ، أهم شيء يجذبك إليها هو يقظتها، وليس يقظتها إلى ما يدور فى عقل صاحبها وانما يقظتها إليك أنت ، إلى ما تفكر فيه ، إلى أحوالك وكيف تبدو وهل معنى ابتسامتك الواسعة أن كل شى بخير أم يا ترى تنبيء عن ضيقك بما تحسه من ضيق .

وإنها لسعادة أن تنظر إلى عم حسن وبالذات إلى جبهته العريضة البارزة التى إذا قستها بالمقاييس المتواضع عليها للجمال لبدت قبيحة ، انها لسعادة أن تنظر إليها فتحس أن لم يدر خلفها شيء ، فكرة أو

خاطر يضر بإنسان .. أن تدرك بوعى وعمق أن هذا الرجل الذى ينظر اليك بجماع نفسه لا يفكر أبدا في ايذاء أحد ولا يمكن أبداً أن يفكر فى خداعك أو السخرية منك والضحك عليك ، أن ما من فكرة شريرة عرفت أو يمكن أن تعرف طريقها إلى رأسه .. لا أحلام غنى باهظ راودته واستعد معها لأن يدوس الغير في طريقه إليها ، ولا أمنية ألحت عليه أن يكون له مال أو بعض مال ، وأنه لا يحسدك أبدا على منصبك أو وسامتك أو زوجتك المخلصة .. ولم يفكر أبداً فى الحط من شأنك حتى بينه وبين نفسه لكي يثبت لها مثلما يحلو للبعض أن يفعل أنه أحسن منك ، إنه لشيء رائع ومحير ومثير للخوف أن تدرك أن كل هذه الصغائر التى يقضى بعضنا تسعة أعشار أعمارهم يلوكونها فى عقولهم ويقيدون بها قدراتهم .. ويلوثون بها ضمائرهم ، وطبيعتهم الانسانية التى تخلق نظيفة حساسة ، هذه الصغائر كلها لا محل لها فى عقل عم حسن العجوز ، ترى أى مكان رحب يصحبه عقله ، أية حرية تتمتع بها خواطره .. أى أمان شامل كان يظللها ويظلله .. أجل الامان الذى يقلب الناس دنياهم ويحفرونها مخابيء ودهاليز ليحتموا بها من الاعداء المعروفة والمجهولة ومن الزمن والمرض والخيانة ، وكلما بحثوا عن الأمان خافوا إذ يدركون أنهم مهما فعلوا فليس هناك دواء شاف أو ملجأ أكيد ، وكلما خافوا على أنفسهم من الآخرين أخافوا الآخرين منهم حتى

تنقلب العقول إلى مواقد مجنونة للقلق والرعب ، إنه يتصرف دون أن يحسبها ويفكر ، ويفكر دون أن يحسبها ليعرف بماذا يتصرف ، فالحاجز الذى يضعه الكثيرون بين التفكير والتصرف حاجز سببه أنهم حين يتصرفون يخجلون مما يفكرون ، وحين يفكرون يخافون التصرف بمثل ما يفكرون ، يا لروعة عم حسن وتصرفه يمضى فى تسلسل وصفاء مع أفكاره ، وأفكاره من تلقائها وبلا جهد يضيعه أو يفقده تصنع تصرفاته ، وليس فى وسط الدائرة إلا غيره ، إلا الانسان الذى تسوقه إليه الصدف ، إلا الكلمة الحلوة التى لابد يحتاجها ليقهر هذا العبوس ، إلا الشربة من ماء القلة الباردة ترد الروح التى تتسرب من جسده .. مع حبات العرق المنهمر ، إلا كلمة طيبة يقولها لصديق الطريق وهو قائم ينفض التراب عن جلسته ويستعد لسفرته القادمة المجهولة : خلى بالك .. الدنيا ليل ونورك واطى لما تقابل عربية هدى ، وحياة بنتك الغالية لانت فاكر كلامى ومهدى ..

وقد يعتقد البعض ، ولهم الحق ، أنى أنبذ الواقع وأتحدث عن انسان خرافى غير موجود . ولكن الكارثة الكبرى أن عم حسن موجود ولا يزال إلى الآن حيا يسير ويتنقل أنى وجد فى مصر طريقا ، ولكن المشكلة ، أجل المشكلة ، أن الدنيا كلها ليست عم حسن ، وأن المسائل لابد أن تصل يوما إلى الدرجة التى يصبح معها من العبث البقاء ..

★★★

ولنعد إلى الرجلين والمشهد ، ولنؤمن الآن وقد عرفنا الكثير أن ليس فى الأمر زوجة أو ابنة ولا سيدة بالمرة ، ليس لأن عم حسن لم يتزوج ، فالحقيقة أنه مرات تزوج ، ولكن زوجاته كن ، بعد فترة ، وبعد انقشاع الرغبة فى التغيير ، يضقن بحياته ويردن البيت والعمل الثابت الذى لا يبحث فيه عن الناس وانما على الناس فيه أن يبحثوا عنه ، من هنا كان يدب الخلاف ، وينطلق عم حسن إلى طرقاته ومحطاته ودنيا الله الواسعة وينطلقن هن باحثات عن الأمن والثبات الذى يصنع الاولاد .. لنعتقد إذن أن ما بين الرجلين إنْ هو إلا صلة أخرى من صلات عم حسن بالناس ، تلك التى تنشأ فى لحظات ، وتظل تنمو ولا تكف عن النمو كلما مر عليها الوقت ، عكس ما يحدث فى العادة ، فما أرحب وأوسع ما تنشأ العلاقات وما أسرع ما تبدأ تضيق ، والمشغوليات بالنفس كثيرة ، والعلاقة التى لا تنفع تضر ، والأعم الغالب أن تنتهى العلاقات إلى ذلك الخيط الرفيع الذى يفصل بين الجهل والمعرفة ، فتعرف الشخص وكأنك لا تعرفه ، وصلتك به لا تتعدى أكثر من يد عالية ترفعها بالسلام من بعيد ، أو ايماءة من رأس أو أضعف الايمان ابتسامة وكأنمات لتثبت بها لنفسك أنك تنتمي ، مجرد انتماء ، إلى هذا الجنس .

والعسكرى يروى كيف بدأت الحادثة ، فمنذ بضعة أيام ، ذهب إلى عشة عم حسن ، لأول مرة ، عابسا شديد العبوس ، ولابد لنا لكى تكمل

القصة أن نعرف أشياء كثيرة عن العسكرى بشكل عاجل ، فهو قروى حياته الحقة بدأت بالعسكرية ودخول الجيش ، وكان الجيش مدرسته ، هناك صاحب شبان المدينة وعرف المدينة من خلالهم ، وخرج وقد آلى أن يعرفها بنفسه ، والمدينة صعبة على من يريد معرفتها بقيم فلاح ودردحة ذكى ، ولكنه رغم هذا استطاع أن يجد لنفسه مكانا غير رسمى فيها ، وهو وإنْ كان يقضى معظم أيامه مقطوعا فى كشك ، إلا أنه فى إجازته يعوض كل ما فاته ، وحتى بنات الليل يستطيع مصاحبتهن .. وله فى كل مدينة يحل قريبا منها جلسات ، وقعدات وأركان ودائماً يعثر على عشيقات .

غير أنه من يوم أن حل عم حسن فقد الحماس تماما للمدينة ولكل ما ينتظره فيها ، فساعة واحدة كان يقضيها مع الرجل كانت تمتعه بما لا يستطيع الوصول إليه إلا فى أيام ، فعم حسن عاش وشاف ، وعاش وشاف بطريقة لم يعش أو ير بها أحد ، فغيره يجلس مع الرجل ، بل أحيانا يجاوره لشهور وسنين دون أن يعرف عنه إلا أقل القليل ، عم حسن كان يغوص من فوره فى النفس محبة أو بناء على طلب صاحبها ، وفى دقائق يعرف ما لا يعرفه غيره فى ساعات ، فوجهه كان يملك اللمسة السحرية المتناهية البساطة ، التى تفتح النفس ، والنفوس دائما تواقة لأن تفتح وأغنى ما فى الأرض ليس كنوزها وما تحتويه

قشرتها ، أغلاها ما فى نفوس الرجال من ثروات ، إن فى داخل كل منا كنزا تجمع وتراكم فيه عشرات السنين وآلاف الخبرات ، كل نفس كالمحارة ، مهما انغلقت فهى لا تكلف عن إحالة التجربة بالإضافة والإعادة والتعديل إلى لؤلؤة ، إلى ماسة ثمينة من ماسات الخبرة الانسانية المركزة والمكثفة والمصنوعة بصبر داخل تلافيف الحياة ، وقد استطاعت نفس عم حسن الخالية من المهبطات والمعطلات ومخصصات الأنا اللزجة أن تمتلىء وتستوعب عددا لا يعد ولا يحصى من كنوز النفوس الأخرى وفوق ما يمكنها تقديمه وعرضه من نماذج استطاعت نفس عم حسن أن تقوم بدورها كصانعة لآلىء ، وماسات ، وأن تحيل ما احتوته نفسه من تجاربه ومن الآلاف المؤلفة من تجارب الآخرين إلى ما يشبه برج مجوهرات الامبراطورية البشرية .. إلى متحف يدير مجرد التجوال فيه الرءوس ، ولا شك أن المتع كثيرة وكلها حلوة ، والمرأة جميلة ممتعة ، وقعدة العسكرى فى البندر مع اخوانه يدور عليهم الشىء أو يدور بهم متعة .. ولكن العسكرى فى حياته كلها .. لم يجد متعة أعظم من أن يجلس الساعات إلى عم حسن ، ويسمعه بمفرده أو معه الآخرون وهو يحدثهم ومن ذات نفسه يفرجهم على عوالم غريبة رائعة ، وليالى وكأنها مسحورة ترى من فنجان ، وأيام وأحداث وكأنها اغترفت من أكداس الروايات ، مع أنه فى كل ما كان يتحدث به لم يكن هناك أثر

للخيال ، إذ لم يكن هناك داع للخيال ، فما رآه رأى العين أغرب مما يراه الآخرون رأى الخيال .. لا شك أن المتع كثيرة ولكن يبدو أن أمتعها جميعا وأحلاها هى متعة أن تعرف .. متعة أن تعلم ما تجهله أو تزداد علما بما تعرفه ، وكل ما يحدث عنه عم حسن دائما جديد غير مطروق ، أناس وكأنهم ليسوا من جنس الناس ، وانما من نوع آخر لا يتبدى إلا لعم حسن .. أو كأنهم الناس ولكن أشياء منهم مغلقة تفتح بكلمة سر لا يعرفها إلا الرجل العجوز ..

وجده العسكرى فى ذلك اليوم عابسا ، شديد العبوس .. حتى لقد استغرب أن يمتلك من كان مثله القدرة أن يعبس بهذه الشدة .. وحين سأله عما به لم يشأ أن يتحدث وكأنه لا يرى فائدة فى الحديث .

ولكنه تحت الإلحاح قال إنه حدث ما كان وسيظل دائما أبدا يخشاه ، فقد جاء الرجل وطلب منه مغادرة المكان ..

أى رجل وبأى حق يطلب ما يطلبه ؟ ..

قال إنه جاء هذه المرة بحجة أن الأرض التى أقام فوقها عشته أرضه وأنه يعطيه مهلة إلى الغد لينتقل منها ..

وطمأن العسكرى خاطره قائلا إنه لابد نصاب ، أو سلطه أحد اصحاب العشش الأخرى ..

وهنا لابد تدرك أن ثمة عششا أخرى وغرزا قد أقيمت بعد مجيء عم حسن ، فهكذا دائما شأنه ، ما أن يحل بالمكان المهجور ويبدأ فى تقديم

مشروباته إلى الغادين والرائحين على الطريق .. أصحاب الطريق كما كان يسميهم عم حسن الذين قد تتصور أنهم قلة فى حين أنك لا يمكن أن تتبين كثرتهم إلا إذا أقمت لهم مكانا للشراب والراحة .. مكانا يصبح ككشك المرور الذى لا تلمح قبله أثرا لعربات ولا تلمح بعده ، وانما عنده فقط وعند العشة تظهر العربات ، ويظهر الناس ويتكشف عنهم الفراغ الذى كان يخفيهم ، وعنده يلتقطون أنفاسهم برهة استعدادا لاختفائهم القادم فى الفراغ .. أصحاب الطريق كثير ، لابد لهم أسبابهم الخاصة لسلوك الطريق ولكنك تعجب حين يخرج لك عم حسن يعرض كنوزه متحدثا عنهم قائلا إن فيهم صاحب الحاجة والهدف لاشك ، ولكن الغالبية سيتعبك حتما أن تحاول معرفة أهدافهم ولماذا يسيرون ، إن معظم الناس أجناس قانعة ميالة إلى البيوت وحياة البيوت وعالم البيوت ولكن الدنيا فيها آخرون .. فيها القائلون لأنفسهم وللعالم : بلاد الله لخلق الله ومن بلد إلى بلد يرحلون ، وعلى الطريق يشربون ويأكلون وأحيانا على نفس الطريق يموتون .. أصحاب الطريق وسكانه دائما فرادى ودائما على الطوى ونادرا ما يتكلمون وليسوا أبدا مجذوبين أو مجانين وإنْ كان سلوكهم هذا قطعا سلوك مجانين .. الشىء الدائم أن وراء السير الطويل ، مسيرة العمر قصة انتهت حين وضع كل منهم قدمه على أول الطريق ، وقد يكون للطريق أول ولكن أبدا ليس له آخر ، وكأنما

بحثهم الدائب عن آخر الطريق ، والعمر يمضي وأعمار كثيرة تمضي قبل أن يصل أى منهم السالكين سلوك المجانين ، أو أى منا نحن السالكين مسالك العقلاء ، آخر الطريق ، دائما نلتقي ، عقلاء ومجانين ، وراجلين وراكبين وافندية وسواقين وهاربين وباحثين ومخبرين ومجرمين ومطاردين ومطرودين عند عم حسن عند تقاطع الطريق ، ونأنس باللقاء ، ونتعارف ونتحاب ونتذاكر ويسمى بعضنا البعض : رفاق الطريق .

وهكذا يحدث دائما ألا تبقى عشة عم حسن الذى يكتشف بها التقاطع المهجور ، وحيدة لفترة أطول ، إذ لا تلبث عشة أخرى أن تقام ، وإن كان صاحبها ليس في وحدانية عم حسن وانسانيته وطيبته بل حتى نظافته إلا أنه لا يعدم زبائن آخرين ، وجعلنا لكل شيء سببا ، ولكل طالب رزقا ، ولكل عشة مهما كثر عدد العشش زبائن من رفاق الطريق ..

ودائما ما تبدأ الغيرة من عم حسن ورواده الاكثر ، تاكل القلوب ، وعلى أقل سبب تحدث المشاحنات وفي البقعة المهجورة والمقطوعة الصلة بكل أسباب الحياة والأحياء ، سرعان ما تبدأ فيها أول البوادر ، وكما تستدل على الأسد من رائحة بوله المنكرة ، تبدأ رائحة نظام الانسان الفاسد تفوح ، ومن بعيد وسط سكون العصارى المطبق تسمع صوتا

غيـر غريب عليك تتـلاحق عـواءاتـه من بعـيـد .. تسـمـع الصـوت وتشم الرائحة ، الخناقة ، تحسبـها كلابا على جثة ، ولكن الرائحـة والخناقة أكثر بشاعة .. لابد أنهم بشر على لقمة ..

فـإذا سـمـعت طرفـا واحـدا هـو الماضي فـي زعيـقه وعـوائـه ، بينمـا الطرف الآخـــر صـامت صـمـتـا تامـا وكـأنه ليس المقـصـود ، فـاعلم أن الخناقـة مـع عـم حـسن ، وأن الآخـــر رغـم أنه جـاء إلى التـقـاطع بعـده ، ولولا عم حسن مـا جـرؤ على التـفكير أو البـقـاء ، إلا أنه مـحـموم ينفـجر بغضبه .

ولكن هـؤلاء لم يكونوا يسـبـبون للرجل العـجوز الطيب أى ازعـاج ، بالعكس كان دائما يقابل عويلهم بالابتسـام .. ابتسام الفرحة ، إذ معناه أنه عـمرت الجـنـة ، وليس مـا يبـهج عـم حسن اكثر من أن يدرك ، وهو الجـواب الارض القـفـــر والسـاحـات المهـجـورة ، أن قطعـة مـهـمـا بلغ صغرها من الدنيا ، ومن مصر أم الدنيا ، قد عمرت ..

★★★

ولكن ، أن يعبس عم حسن ، وأن يبدو وجهه شـديد العبوس ، وأن يظل هكذا حتى بعد محاولات العسكرى المستمرة لتطييب خاطره معناه أن في المسألة شيئا آخر غير عادى ..

واعتقد العسكرى أن عم حسن رجل طيب ومسالم ، ومن عادة هؤلاء

أن يزعجهم التهديد ، وهكذا أخذ العسكرى على عاتقه ألا يتكرر المشهد ، وأن يظل وراء من هدده حتى يجبره على المضى إليه وطلب غفرانه ، وبدأ يعيد السؤال عن الرجل ، ويطلب من عم حسن وصفه وتذكر من أين جاء وإلى أين ذهب . ولم تعجبه الاجابات ، فقد جاءت كلها غامضة محيرة وكأنما عن عمد ، أو من شدة الخوف ، يحاول عم حسن تضليله ، وبهذا واجه عم حسن وكان أن ابتسم الرجل ، وكأنى بقلبه ابتسم فهو لم يكن يحاول أن يخفى عنه شيئا ، وأنه لا يفعل اكثر من أن ينقل إليه كل ما يعرف ، فهو لم يع بالضبط من أين جاء الرجل فقد أفاق فوجده أمامه ، ولا إلى أين ذهب فما كاد دمه يتغير لكلامه ، حتى كان فى ثورة الغضب قد اختفى ، وهو لا يذكر ماذا كان يرتدى ، فقد أضاع الغضب للحظة الرؤية ذاكرته ، غير أن ما أدهش العسكرى ومنعه عن متابعة بقية الحديث وعن القاء أى سؤال ، أن عم حسن فى كلامه عن الرجل كان وكأنما يتكلم من الذاكرة ، وكأن ما فى الذاكرة أقرب إليه مم ، منذ دقائق ، حدث ..

كان وكأنما يتحدث عن شخص يعرفه تمام المعرفة ، عن شخص لا يمكن أن تكون تلك هى المرة الأولى لرؤيته .. وحتى حين واجهه بهذا سكت ولم يجب ، وآخر كلمة قالها العسكرى قبيل أن يغادره أن طلب منه ، إذا جاء الرجل ، أن يشير له ويناديه ، وليدعه حينئذ يتكفل به ..

وهز عم حسن رأسه ، وكان وجهه لا يزال محتقن الملامح في اكتئاب ..

***

وكاد العسكرى يغضب حين علم – من عم حسن نفسه – أن الرجل جاء ، وأنه هذه المرة أنذره ، ومضى قبل أن يستطيع أن يشير له أو يناديه . كيف يمضى قبل أن يستطيع ؟ أهو كائن مسحور ..

إنه هكذا – مضى عم حسن يخبره – عمرى ما رأيته قادما ولا عرفت كيف يغادرنى ..

عمرك – أفي المسألة أعمار ؟

بالطبع – قالها عم حسن ببساطة .. فليست هذه أول مرة إنما دائما وراءه أنى يذهب ليسكن حتى يبدأ الآخرون يفدون ويقيمون العشش ، ومن لحظتها يبدأ يأتى ولا يتركه حتى يذهب ..

وللعسكرى ألف حق حين أحس أن عم حسن يبالغ ليس إلا ، وأنه من امتداد حياته الطويلة بعيدا عن المشاكل يجعل من الرجل جنيا أحمر . ووصاه وألح عليه إن جاء فقط أن يناديه ، ما عليه إلا أن يشير له ويناديه ..

ولم يأت الرجل في اليوم التالى ، هكذا أكد عم حسن ، لا ولا اليوم الذى يليه ، إلى العاشرة حين كاد جاز اللمبة (الشيخ على) يفرغ وسهرته التى نادرا ما تمتد أكثر ما تنتهى ، ويخمن مَن من زبائنه قرر

قضاء الليلة عنده ومن سيرحل ، هكذا فى ظلمة الليل ، ودون خوف من مجهوله وظلامه ، وكأنه فى بيته ، صاحب الطريق إلى العاشرة لم يكن قد جاء ..

وفى اليوم الثالث ، كان كوب الشاى التى قدمها للعسكرى عقب الغداء ، وكان رجاؤه أول مرة يسمع فيها هذا الرجاء ، أن يساعده على الرحيل ..

وحين كان عم حسن يأخذ الكوب الفارغ ويمضى ويتمتم ، لم يكن ما يتمتم به كلمات شكر كما اعتقد العسكرى ، كانت كلمات ضيق وتبرم بالموقف الذى أصبح فيه ، فها هو العسكرى يقف بجواره مصمما على بقائه وعلى أن باستطاعته الدفاع عنه فى حين أنه أعرف الناس أن أحداً لم يستطع - مع هذا الرجل - أن يساعده وأنه جابهه ويجابهه دائما وحيدا ، ولا فائدة من اطالة النضال .

وبعد دقائق كان ينادى بأعلى صوته يا شاويش ..

وفى بضع قفزات كان العسكرى قد ترك المكتب والدفتر ، والقيد والعربة النقل الدائر موتورها فى ازعاج ، وأصبح أمام عم حسن ، يسأل : هو فين ؟!

وبيأس تام أجابه عم حسن أنه ذهب ..

كيف ومتى وهل من المعقول أن يكون قد اختفى تماما ولم يمر بين ندائه وبين مجيئه سوى زمن كلمح البصر ؟ ..

- مش قلتلك .. آهي دي عوايده .

ولأول مرة ، وبنظرة مختلفة تماما حدق العسكري في عم حسن ، فلم يكن هناك الا تفسير واحد ، أن هذا الرجل العظيم مجنون لابد يتصور أشياء لا تحدث ..

وبنفس النظرة مثبتة على وجهه بالذات على عينيه الواسعتين العسليتين :

- انت متأكد أن فيه راجل بالشكل ده ..

وعلى الفور فهم عم حسن أو ابتسم في رثاء ..

وانقضت الليلة ، وفي الصباح ، وإلى الساعة الثامنة لم يكن قد جاء عم حسن له بشاي الصبح أو بدا له أثر ، ودب القلق في قلب العسكري مخافة أن يكون قد ذهب ، لولا أنه من مكانه كان يلمح العشة وجلبابه المنشور فوقها منذ الأمس ، ولم يكن باستطاعته التحرك ، فبجواره كان ضابط ينتظر ، وعليه أولا أن يجد له عربة ذاهبة في اتجاه العاصمة ، وهناك ، قرب العاشرة جاءت العربة ، وحتى قبل أن تتحرك بعيداً كان هو قد وصل إلى جوار العشة وقبل أن يستدير إلى الباب كان ينادي عم حسن ، وخيل إليه أنه يسمع أنينا ، وفي الداخل كان عم حسن راقدا وحول عينيه كدمة زرقاء كبيرة وصدغه وارم وواضح من هيئته أن اعتداء قاسيا قد وقع عليه . وردا على اسئلته الكثيرة ، واستفساراته ، حدق فيه عم حسن بعينه غير الوارمة وحدق فيه مليا قبل أن يقول : صدقت بقى انه بييجي ..

وفتح العسكرى فمه ولكنه عدل عن النطق ، وبدون أن يغير لهجته استطرد عم حسن : مش تعمل فى معروف بقى وتكلم لى سواق ..

قضى العسكرى إلى الظهر ودمه يغلى تارة وجسده يرتعش تارة أخرى . إنه بطبيعته لا يتحمل أن يرى أحدا ضحية ظلم مهما صغر ، فما بالك والضحية عم حسن ، أحب وأقرب من أنست إليه نفسه فى الحياة . لقد قضاها كالقط الضال بريا يكاد يصل حد التوحش من الصعب عليه أن يألف ومن الصعب أن يأتلف ، حتى مع أخيه الأكبر الوحيد ، بل وحتى والمرأة بين ذراعيه وقد ذابت كل الفواصل عمره ما أحس أن ألفة حقيقية قامت بينه وبينها ، حتى لو كانت (نظلة) زوجته ، والأخرى التى جرى عليها طويلا واشتاق لها كثيرا وأحبها وكانت وبالصدفة اسمها (نظلة) أيضا ، الانسان الوحيد الذى اخترق حجبه وهد جدرانه واقترب أكثر ما يمكن من قلبه وروحه ، وقرب قلبه ، وروحه إلى الدنيا والناس .. كان عم حسن ..

عم حسن الذى فى أيام ارتبطت به نفسه إلى الدرجة التى لو أصر فيها على الرحيل لوجد نفسه ، دون أن يستطيع لها منعا ، يرحل معه .. الراقد الآن يتألم متورما ومضروبا من ذلك الرجل ، مهما كان وليكن انسيا أو جنيا ، وليكن إبليس بنفسه وبكل جبروته؟

كان العسكرى ، ولنسمه صميدة ، يعمل ثمانى ساعات ويستريح مثلها ، ويبادله العمل والراحة زميله ، زميل ، لا علاقة له بكل ما ذكرنا .

ما لاحظه ولا كان على استعداد للاهتمام به ، فهو فى السن أصغر . وتلك أول مرة يتغرب فيها عن زوجته وابنه الحديث الولادة ، وهو دائما بالخواطر معهما ، لم يحس للحظة واحدة بما على قيد خطوات منه يحدث ..

وقضى صميدة ، الاربع والعشرين ساعة بجوار صاحبه العجوز الذى رقد منها نصفها وعاد إلى طبيعته من نصفها الآخر وجلس وأكل وتحدث . وصميدة صامت يجتر الغيظ ويستعيد بغضب ما يفعله بالرجل حين يجيء . ولكن أناسا كثيرين جاءوا وذهبوا دون أن يبدو للرجل أثر ، حتى أغمض مرة عينيه ، ورغم أن اغفاءته لم تطل أكثر من لحظات إلا أنه كان قد حلم فيها أن الرجل جاء ، والعجيب أنه لم يكن كما تصور أبدا شيطانى الملامح يقدح الشر من عينيه ، كان يبدو كالنوع (السهتان) من الرجال ، النحيف ، القصير ، وكان وجهه (سادة) تكاد لولا وجوده تعتقد أنه بلا ملامح ، وربما وجهه الخالى من الانفعال ذلك هو ما جعل صميدة يحس بالضيق الشديد منه وبالرغبة الملحة فى قتله ، وهو صعيدى وعربى يعرف معنى القتل ويفهمه ، رغبة بلغ من شدتها وإلحاحها أنها أيقظته ، وحين صحا وجد عم حسن يحدق فيه بعين مفتوحة ونصف الأخرى الذى أصبح قادراً على فتحه ، وظل يحدق فيه لبرهة ثم قال : شفته ..

وكاد يقول : شفته ، لولا أن عقله ارتبك وتساءل : كيف عرف عم حسن أنه كان يحلم ، وأن الرجل جاءه فى الحلم ..

وسأله : ايش عرفك أني شفته ..

فقال عم حسن : ما هو كان هنا ولسه ماشي ..

فقال صميدة : انت راخر حلمت به .

فاستنكر عم حسن : حلمت ايه . أنا صاحى . وجه وافتكرتك شفته واستغربت أنك ماقلتلوش حاجة ..

وأحس صميدة بالخوف ، من المرات النادرة القليلة التى أحس فيها بالخوف إلى درجة كاد يخبر عم حسن أنه يوافق أخيرا على رغبته وأنه سيكلم له أول سائق يمر ..

ولكن العناد ، ذلك الشيء المركب فينا يفسد علينا لحظات الاستسلام للواقع ، ثار وأبى . وفى ومضة كان صميدة قد قرر إما هو أو ذلك الرجل ..

وانتقل صميدة إلى عشة عم حسن يقضى فيها ساعات راحته ، والعشة نفسها نقلها بحيث أصبحت تواجه الكشك تماما ، ولو استطاع لجعلها ملاصقة له ..

وأصبح على عم حسن ألا ينتقل من مكانه إلا إذا عرف صميدة وتابعه إن لم يكن بنفسه فبعينيه ، وأصبح على صميدة أن يظل مفتح

الاعين لا يغمض له جفن ،، إذا نام كان على عم حسن أن يظل مستيقظا قابعا بجوار زميله ، ولا ينام عم حسن إلا وحماية صميدة تحوطه ، ومع هذا ما يكاد الانتباه يغفل حتى يرفع عم حسن يده مستجيرا ، ويعرف صميدة أن الرجل جاء ومضى كما تأتى ريح وتمضى وأنه لابد همس لعم حسن مثلما يهمس كل مرة بتهديده ، وبأن صبره قد نفد وأنه لا محالة قاتله .. والعناد ، ذلك الشىء المستبد الخارق يزداد نموا كالمارد العملاق فى جوف صميدة حتى ليصبح هو الذى يسيره ويخضعه ، وكلما ازداد استبدادا وازداد التهديد حدة أصبح على حركات عم حسن وسكناته أن تخضع أكثر وأكثر حتى ليكاد يشير لصميدة لينبهه أنه يريد فتح الفم أو التنفس .

وكان طبيعيا أن تخلو عشة عم حسن من رفاق الطريق ، ليس فقط لكل ما تقدم ، وانما لأن صميدة قد أصبح يتوجس لدى قدوم أيهم ، ويعينيه النفاذتين يتفحص ملامح وجهه ليعرف قربها أو بعدها عن الملامح كما رآها وكما أصبح يعتقد أنها قريبة الشبه جداً من ملامح أى قادم يراه ، أو على الأقل باستطاعة أيهم أن يحيل ملامحه إذا أراد لتصبح (سادة) كريهة كملامح ذلك الرجل الكريه .

وفى صباح جميل ، كل ما فيه جميل ، إلا ما هما فيه ، مال عم حسن على صميدة وقال :

– ح نقعد كتير على كده ؟

– لغاية ما يبان ونخلص عليه .

– بعد يوم .. اتنين .. سنة .. سنتين ؟

– حتى ولو بعد عشر سنين .

– طيب معاك ، ساعتها صحيح ح نخلص عليه إنما احنا ح نكون رخرين خلصنا ، تعرف مين ساعتها ح يبقى انتصر .. العند .. احنا ح نكون متنا من زمان واللى عايش فينا العند وزى ما خلص عليه .. خلص علينا .. سيبنى أمشى ..

– وتروح فين ؟

– دنيا الله واسعة يا أخى .. وإذا كان فى الحتة دى عدو فالطريق مليان أصحاب ورفاق .. الدنيا حلوه يا بنى وحرام تعادى فيها حتى اللى يعاديك .. عايز تغلبه سيبه ينفلق ويعاديك واوعى تعاديه انت لتخسر نفسك .

★★★

وذات يوم ، وصميدة نائم ، كان عم حسن يلقى بنفسه مرة أخرى إلى أيدى الناس ، والسائق يساعده على جمع حوائجه ..

وحين استيقظ صميدة ولم يجد عم حسن أو عشته أصابه ذهول أوقف تفكيره ، كأنما أحس أنه فجأة فقد كل ما له على ظهر الدنيا .

وحين أفاق ، أحس لومضة ، بالارتياح ، فقد شعر أن العناد ينسحب من

جسده ، ومعه تنسحب ملامح الرجل الكريه التى لم تغادر خياله لحظة ، تنسحب معه فتهزمه ، لومضة أحس أن الحياة قد بدأ يعود لها طعمها الحلو ، كان عم حسن قد ذهب حقيقة وذهب معه سحره ، ولكن المكان عند التقاطع قد عمر ، ودبت فيه الارجل وحفل بالعشش التى كانت إحداها قد بدأت تتحول إلى بناء ذى سقف وأبواب . لومضة عابرة أحس بكل هذا غير أنه حين أفاق تماما من ذهوله حاول أن يجرى وأن يسأل ومن السائقين والعابرين يستقصى ، لا ليعرف مكانه البعيد ، وإنما على أمل أن يعرف مكانه ليترك كشكه ويذهب خلفه ، وإلى الآن لم يزل صميدة مؤمنا وواثقا أن عم حسن لابد حى يرزق ناصبا عشته عند تقاطع ما من الطريق ، ولا تزال كلما مرت به عربة نقل ، بعد أن يأخذ أرقامها ويرد تحية سائقها يسأله إن كان قد رأى أو التقى بعم حسن ، وبعضهم يقول إنه من سنة رآه وآخر من شهور ، واجابات كثيرة يظفر بها ، مرة يجده فى دمنهور وأخرى فى طريق البدرشين .. آه .. لو فقط يعثر له على مكان أكيد ..

الجـــــرح (★)

فاجـأنا الريس حين طلب منا أن ننتظر . قالها بلهـجتـه البحـراوية وكان كلامـه من لحظة ان عرفناه قليلا . وكان من نوع لا يرحب بالجدل ومع أن كل شيء كـان على أتم اسـتـعـداد ، الا أننا سكتنا كلنا ونحن متأكدون أن لابد هناك ضرورة لهذا الانتظار ، غير ان حلمى لم يسكت .. عوج وجهه وأسبل جفنيه وقال للريس : احنا مستعجلين . ولزومه إيه الانتظار ؟

ويبدو أن كلامه تبدد ولم يصل الى آذان الرجل ، فقد كان مشغولا بشيء ما يعدل من وضعه فى «القلع» . وأحرج حلمى حين لم يتلق ردا على سؤاله فعاد يقول :

– مستنيين إيه يا ريس ؟

ونطق الرجل كلمة ولم نتبينها ، فقد كان يمسك مسلة بشفتيه بينما يداه مشغولتان . والتفتنا جميعا نحوه فرفع المسلة وقال :

– واحده ست .

(★) نشـــرت – للمـــرة الأولى فى جـــريدة «الجـــمـــهـــورية» فى ١٩٥٧/١/٢٤ – مجموعة «أليس كذلك؟» .

ولابد أن دهشة كبيرة انتابتنا فقد تملمنا ، ونطق أكثر من واحد مرددين :

- ايه ؟ ! ست ؟ ! .

واحتج حلمى مخفيا غبطته قائلا :

- ست ايه ؟ وده وقته ؟ انت مش فاهم والا ايه يا ريس ؟

وأجاب الريس والمسلة بين أسنانه هذه المرة ، تقلب الذال جيما ، وتعطب الكلمات :

- لا جم ناكدها معانا .

وانهالت الأسئلة والاحتجاجات . وانتظر حتى فرغنا وقال :

- أنا حالف بالطلاق لازم آخذها .

وارتفعت أصوات احتجاجنا أكثر فأكثر .

- دى ساقت على الدنيا ، وباتت مع مراتى عشان تضمن تيجى لغاية ما حلفت لها يمين الطلاق .

وأتبع كلامه بابتسامة يرضينا بها . كانت له سنة من بلاتين براق ، وكان وجهه نحاسيا أسمر ، ورموشه صفراء طويلة ، واللاسة التى تعمم بها من حرير ، وفانلته زرقاء من الصوف تنتهى بياقة مسدودة تحيط برقبته وأكمام طويلة مثنية ، وله سروال.

- هه .. أنام أنا بقى .

قال حلمى هذا وتمدد ، وأحدث تمدده انكماشات فى الأرجل وثنيات هنا وهناك ، وأصوات احتجاجات كان مبعثها أننا نعرف أنه لا يريد النوم بقدر ما يريد أن يرينا سخطه على الوقت الضائع .

وركز الريس عليه انتباهه لحظة ، ثم ابتسم وقال :

– اسم الكريم ايه ؟

فقال حلمي وهو يزفر :

– زفت .

وعاد الريس يسأله :

– ودستورك منين ؟

واعتدل حسن وقال :

– منين ايه يعنى ؟ اشمعنى ياريس ؟

فقال الريس وهو يجذب حبلا :

– بسأل .

وقال أحدنا :

– مصيبة تقيلة .

وأجاب آخر :

– ح تعطلنا .. ويمكن تودينا فى داهيه .

ولعب ثالث بيده فى الماء ونثر قطرات على الباقين وقال :

- مش ممكن نخدها .

وارتفع صوت يسأل :

- ودى عايزه تروح ليه ؟

ونظر صاحب الصوت الى الريس وأعاد نفس السؤال .

ولم يرد الريس وكنا كلنا نتوقع هذا . كان لا يجيب الا على ما يحلو له الاجابة عليه ، وأحيانا يكتفى بالتحديق فى سائله وهز رأسه .

كان ثمة هدوء على الشاطىء .. هدوء متكاثف ثقيل والهدوء حين يتكاثف ويستتب يصبح شيئا مروعا . وكانت الدنيا ليلا والبلدة ساكنة هامدة بجوارنا ، بيوتها أشد سوادا من الظلام ، بيوت قديمة متراصة حيطانها لا تحتمل البرد ، وطوابقها متآكلة متساندة كجماعة من خفر الليل العواجيز ، وتجاهنا شارع واسع جدا يسمح ضيق البلدة باتساعه ، وتلمع فيه برك ماء ، وتتجمع على حوافه أكوام من قشر الأرز الذى تنفثه ماسورة طويلة تمتد عبر الشارع وتنتهى فى مضرب الأرز ، أعلى بناء فى البلدة ، والبناء الوحيد الصاحى ، اذ كان يعمل رغم اطفاء الانوار والأوامر ، وتتصاعد دقات وابوره لب دب ، لب دب ، لب دب ، موحشة كئيبة فى البلدة المظلمة ، كأنها القلب لا يزال يدق فى جثة ماتت وشبعت موتا .

وكان قاربنا واقفا على حافة البحيرة وظهر البلد اليه ، وكنا اذا

التفتنا الى البحيرة ضاعت أبصارنا بين البحيرة الراكدة المظلمة فى السماء ، والسماء التى استقرت بنجومها فى قاع البحيرة . وكان قلع المركب مطويا نرى بدايته القريبة منا ، ولا نرى نهايته المذابة فى الظلام. وكنا أربعة ، والقارب صغير ، وحلمى مضطجع ، والريس جالس القرفصاء مستندا الى الصارى ، والريح نائمة ، ودق الوابور يصل الينا بانتظام يضايقنا انتظامه ، وأنفاسنا تتقارب وتتباعد ، والأحداث كثيرة ، وغريبة ومتتابعة ، وكلها تحدث فى يوم واحد . ونتنفس بعمق فتمتلىء أنوفنا برائحة الزفارة . كل ما فى البلدة يضج بها .. الأرض والبيوت ورغبات الناس والقوارب .. فالبلدة أهلها صيادون ، والسمك صناعتهم ، وفى كل مكان تجد آثاره ، والقارب يهتز اهتزازات خفيفة ، يجذبه موج صغير الى الداخل ، ثم يدفعه الموج الكبير ليصفع به الشاطىء ، والريس كوعه فوق ركبته ، ويد من يديه ممدودة الى أخرها ، واليد الأخرى فوق الدفة ، ورموشه الطويلة مسبلة ، وفمه نصف مفتوح ، ويكاد شخيره يتصاعد .

واهتز القارب ، وتحرك واحد ، وخرجت فى الظلام علبة سجائر ، وتناولناها كلنا ، وأخذ الريس سيجارة .. وضعها بين أصبعى يده الممدودة ورفض أن يشعلها .

ومضى الدخان يتصاعد من أنوفنا وأفواهنا فى صمت والبقعة التى نحن فيها أصبحت صفحة سوداء ، فيها لطع بيضاء تحدد هيكل

القـــارب ، وولعـة أربع سـجائر تتوهج ، وفوانيس النجـوم الصـغيرة تتأرجح ، وناب الريس البلاتينى يبرق .

وقال حلمى فجأة :

– دا مش كلام ، ما نرجع أحسن .

قال هذا وهو ينتفض بشدة ويقوم . ومال القارب حتى كاد ينقلب ، وارتطمت جبهتـه ارتطاما عنيفا بالصارى حتى انه صـرخ . وما كاد القارب يعتدل حتى كانت يده تتحسس جبهته ، وحتى كان يقول :

– أنا اجرحت يا جمـاعـه والله اجـرحت ، ياه ! ده فيـه دم .ادونى منديل .

وحدثت ضـجة ، وتناثرت الشتائم من فم حلمى ، وكثرت التعليقات . ثم خـمـــد الكلام وانقطع ، ودلفنا الى سكون لا يعكره الا صــرير الصراصير المتصل الدائم .

ورفع الريس رأســه مـرة وحدق الى بعـيد ، وتمايل القـارب حين اندفعنا كلنا لنحدق .

كانت ثلاث كتل سوداء تتحرك مسرعة فى اتجاهنا .. كتلة قصيرة صـغيـرة فى المقـدمـة ، والكتلتـان اللتـان وراءها تحـاولان اللحـاق بهـا وتخوضـان برك الماء دون جدوى .

ولم يكن القارب قد تحرك ، أو حتى كان فى نيتنا أن يتحرك ، ومع ذلك كانت مَن فى المقدمة لا تكف عن الصياح :

- اوع تمشى .. اوع تمشى يا خويا . أنا أهه .. أنا جيت ..

وفى غمضة عين كانت قد وصلت وقذفت بنفسها الى القارب ، ولولا أننا قمنا جميعا وتلقفناها بأيدينا لكانت قد هوت الى الماء ، ومددنا اليها أيادى كثيرة تساعدها ، وأمسكت بأيدينا فى قوة ، وتحفز ، وعصبية ، وكانت أصابعها حادة صلبة ذات تجاعيد ، والقبضة قبضة أم .

وأفسحنا لها مكانا ، ولكنها لم تجلس .. ظلت تتلفت فى قلق ولهفة ولا تستكين ، وتود أن تقول أى شيء وتسأل عن كل شيء .. وحين وصلت الكتلتان قالت بسرعة وحسم :

- روحوا انتم بقى ..

قالتها كمن يود رفع الهلب الذى يربطه بالشاطيء لينطلق وتكلمت المرأتان .. فى وقت واحد .. وكلام كثير . واحدة طويلة وعجوزة . وكلامها أيضا طويل عجوز .. والثانية فتاة . لابد أنها جميلة فصوتها كان فيه رنة من اعتادت الثقة بنفسها وجمالها .. كانتا لابد اخت وبنت اخت ، وكان رد الخالة واحدا حاسما لا يتغير :

- روحوا انتم بقى .

ولم ندر لإصغائنا للحوار سببا . وعقولنا بدت لنا كالصفحة البيضاء التى لم يخط فيها حرف .. وما نسمعه كأنه أول كلام عربى نسمعه .

وأفاق واحد وغمز لجاره :

- مصيبة وجت لنا على الآخر .

وقال له جاره :

- ح تخاف دلوقت وتبهدل الدنيا .

وقالت الخالة مرة :

- روحوا انتم بقى .

وخرجت الجملة دون ان يسبقها أو يعقبها رد من الشاطىء . كانتا قد ابتعدتا .

وبدت البحيرة لا نهاية لاتساعها وأصبحنا بالقارب والريس والصارى نقطة تافهة فى الوجود غير المحدود . وتلك هي البحيرة فقط ، فما بالك ونحن من لحظة ان غادرنا القاهرة وطريق طويل يسلمنا الى طريق أطول ، والأرض الخضراء على الجانبين .. أرض واسعة لا حد لاتساعها أوسع من أى شيء رأيناه ، أوسع من السماء ، فالسماء تضيق بسطح الأرض ، فتنحنى السماء وتصنع خط الأفق ، والأرض لا ينهيها خط ولا أفق . فبعد كل أفق تجد آفاقا أوسع .

والقرى كثيرة لا حصر لها ، بين كل قرية وقرية قرية ، وفى كل قرية مئات البيوت ، وكل بيت يعج بعشرات الناس ، وكل هؤلاء مصريون - كلهم مصريون - لا يمكن أن يموتوا كلهم أبدا . ونترك إقليما وندخل اقليما والأرض لا تنتهى والناس لا ينتهون . أناس متشابهون ، وجوه

لها لون أرضنا السمراء ، وذقون وشوارب كشوش الاذرة ، ونفس السحنات ، وكأنهم رجل واحد مصنوع من ملايين الرجال . ويقولون ان سيدنا نوح كان طوله ألف ذراع . ترى كم طول هذا العملاق الذى لم نعثر له على بداية ، وظلت السيارات والقطارات تقطع بنا الأميال والأميال ولا نعثر على نهاية . حتى حين وصلنا المطرية ، وانتهت الأرض وبدأت البحيرة ، لم ينته العملاق بل تحول الى يد ضخمة ، يد ذات عشرات الآلاف من الأصابع ، يطلقها فى ماء البحيرة فتملك البحيرة وتعتصر من مياهها خير ما فيها ، وكما يحدث لليد اذا امتدت الى الماء وطال امتدادها ، فالناس تصفر شعورهم وتبهت بشراتهم ، ويصبح لعيونهم زرقة الماء . ويتغير شكل الجسد ولا ينتهى العملاق .

كنا قد ابتعدنا .

وكل شىء أصبح مستقرا ما عدا الريس .. كان دائب الحركة لا يهدأ . المذراة فى يده يغرسها فى قاع البحيرة ثم يدفعها بصدره ، وأرجله تمرق من وراء ظهورنا وتدور حول القارب ، وأصابع قدميه تتشبث بالحافة فى حنكة ودراية وكأنها قد تحولت الى مخالب صقر . وحركته تبهرها ، وكأنه يقوم بمعجزة ، يميل ليدفع القارب أكثر حتى لنعتبره ساقطا فى الماء وإذا به يرتد ، والمذراة قد انتزعها ، وكأن ألف حبل خفى تصل بينه وبين الصارى ، وتحميه من السقوط .

ولم تكن الراكبة الجديدة إنسانة ، كانت كتلة قلق حية جعلتنا نحس أن روحا جديدة حلت بيننا وفينا ، عيناها تنظران الينا ولا تتفحصانا ، ويداها على ركبتيها ، ويداها على الحافة ، ويداها تضرعان لاله غير منظور ورأسها يدور ولا يستقر ، وينثني فجأة الى الشاطيء ، ثم يرتد ويعود ويدور . وما كاد الريس يفرد القلع حتى التفتت اليه وقالت :

- مش على طول ياخويا .. ؟

وقال الرجل بلكنته البحراوية والمذراة لا تزال تحت ابطه :

- ايواه .. ربنا يسهل ..

وردت الخالة :

- إن شاء الله ، إن شاء الله إلهي يخليك ..

والتفتت الى الجالس بجوارها وسألته :

- وانتو كمان .

فأجاب حلمي ويده تتسلل دون وعي وتتحسس مكان الجرح في جبهته :

- واحنا كمان ..

وعادت تسأل الريس :

- ونوصل امتى .. ؟

فقال حلمي :

- حد عارف ..

واعادت السؤال وابتهلت ، فقال الريس :

- يا امى ربك يعدلها ..

واستمرت :

- يعنى بعد ساعة ؟ .. الهى يخليك لشبابك .. بعد ساعة ؟

ولما لم يجب الريس ، التفتت الى حلمى وسألته :

- بعد ساعة يا بنى ؟ الهى يخليك .. بعد ساعة والا أكتر ؟

وهنا زعق الريس وقال :

- دا بتاع ربنا يا ستى . واللى منه لابد عنه . هو ما فيش صبر؟

والصبر هى الكلمة التى كان يبحث عنها كل منا ليسمى الرائحة التى أشاعتها الخالة من لحظة أن جاءت . كانت ترتدى كمعظم الخالات ثوبا أسود وطرحة سوداء ، ولا يظهر من جسدها غير وجهها فقط ، وثيابها كانت تبدو وكأنها لم تخلعها منذ أيام كما لوكانت اردية ميدان . وأشاع قدومها تلك الرائحة ، رائحة العواجيز التى لا يعرف أحد ان كان سببها هو رائحة الصناديق التى تحفظ فيها الثياب . أو هى رائحة نسيج الملابس نفسه . المهم أنها تذكرك بجدتك ، وبالماضى ، ومع أنها ليست عطرة الا أنك لابد تحس بالألفة تجاهها ، ولا تتأفف .

ولم تكف الخالة عن الكلام منذ جاءت .. ولم نكن نتكلم .. والريس هو الآخر ساكت . كانت قد مضت ساعات ونحن نترقب ، كل ما يهمنا

هو اللحظة التالية وما يحدث فيها . والكلام لا يدور فى جو الترقب ، ولا يدور ساعة الضيق .. وكل شىء قد حدث على حين بغتة . كنا فى بيوتنا وأعمالنا وقال كل منا للآخر : يلاّ ، واذا بنا فى الطريق وكأن كأن لا ينقصنا سوى الاحتكاك لنشتعل . وأصبح أهم شىء لدينا أن نرى ونسمع ونجهز أنفسنا للمشهد القادم والكلمة التالية .. ووصلنا المطرية فى الضحى ، وانتظرنا الى أن يحل المساء لنعبر البحيرة الى هناك ، وقضينا اليوم بطوله نعيش فى بلدة الانسان والسمك .. والحياة تمضى من حولنا كما اعتادت أن تمضى طوال آلاف من الأعوام .. الرجال ذوو الشعر الأصفر والبشرة الفاتحة والأفواه المفتوحة على الدوام كأفواه البلطى يتزوجون البنات ، والبنات شقراوات ، أجسادهن لها تناسق «المز» ورشاقة الطوبار ، وطعمهن أشهى من السمك الطازج اذا شوى فى الفرن وأضيف اليه الفلفل والملح والثوم وعصير الليمون . ولهذا فكل يوم زواج ، والأطفال كل يوم يولدون ، الأسماك هي الأخرى تتوالد ، ثم وتتكفل البحيرة وصغار الأطفال وصغار السمك ، صغار الأطفال طول النهار فى الماء يألفون الماء المالح ويألف الماء المالح أجسادهم ، ولا أحد ينهرهم ، ولا يخاف عليهم أب ، فالبحيرة للصيادين غول مستأنس .

ويكبر الطفل فيكبر حب استطلاعه ، ويترك الشاطىء ويتعلم العوم ، وصغار السمك أيضا تتعلم العوم ، ويصبح طول الطفل مترا وطول

السمكة قراريط .. ويذوق الطفل طعم السمك ، ويذوق السمك طعم الطعم فلا ينسى الطفل حلاوة السمك ، ولا ينسى السمك حلاوة الطعم . ويمسك الطفل بسنارة ويخرج سمكة وتهزه الفرحة فقد هزم العالم المجهول الكائن وراء السطح البراق . ويهزمه مرة ذلك العالم المجهول ويعود خاوى الوفاض . ويفهم الطفل أن السنارة نصفها فى يده يخضع لارادته ، ونصفها الآخر يعتمد على رغبات مجهولة فى العالم المجهول .

ويسمع أباه يقول الحظ ، ويردد الكلمة لا يعرفها ، ثم يرددها وهو يعرفها ويؤمن بها ، يؤمن بقانون آخر يحكم العالم المجهول ، قانوناً لا يخضع لقانون .. ولا يستسلم الانسان حتى لو كان خصمه قانون لا يخضع لقانون ، ويبدأ الصراع الرهيب بين الصياد الصغير والبحر المجهول ، ولابد من أشياء تؤنس وحشة الانسان فى ذلك الصراع . لابد من علامات تشاؤم وتفاؤل ، لابد من موال ، لابد من حدوته . لابد من أمل طويل لا ينقطع ، لابد من الصبر .. الصبر .

رائحة الصبر كنا نستنشقها ونتمثلها والقارب قد اندفع وابتعد عن الشاطىء وأصبحنا فى قلب البحيرة ، وشعاعات خفيفة متباعدة تنتشر فى الأفق وتبشر بطلوع القمر ، وهدهدة .. أصوات هدهدة هى كل ما يسمع والقارب يرفعه الموج الصغير ثم يرقده بحنان على سطح الماء ،

والموجات تهتز ، والنجوم تهتز ، والريس عند المؤخرة يهتز ، يد على الدفة ويد ممسكة بحبل القلع توجهه ليعترض الريح . والريح شفافة خفيفة ، والدنيا برد ، والبرد يكاد يتحول الى ابر .. ابر طويلة ثاقبة تخرق أجسادنا حتى تصل الى النخاع ، والخالة جالسة لا منكمشة على نفسها ولا منطوية وكأنها نعسانة أو ميتة .

وقال لها حلمى :

– بردانة يا خالة ؟

فأجابت :

– أه .. باقى كثير .. ييجى ساعة يا خويا ؟ ..

ونطق الريس :

– انوى المشيئة يا شيخة .. قولى إن شاء الله .

فقالت الخالة على الفور :

– إن شاء الله يا خويا إن شاء الله .. باذن الله . بعد ساعة ؟

وكادت موجة الحديث تنتشر لولا أن الريس أسكتنا ، فالهدوء مخيم ، والكلام ينقله سطح الماء المستوى الى مسافات بعيدة ، والبحر له آذان .

ورحنا نهمس . قالت الخالة :

– انتم كمان رايحين ؟

فقال حلمى :

- أيوه ..

وسألتنا كلنا :

- ورايحين ليه ؟ انتم من هناك ؟

- لا ..

- ليكو قرايب أمال ؟

- أبدا .

وقال الريس وهو يبتسم :

- ما قلتلك دول فداوية يا ست ..

وتململنا ، فلم نكن من الفدائيين أو المحاربين ، وهممنا أن ننطق ولكن الخالة تمعنت فينا وسألتنا :

- انتو صحيح فدائية يا ابنى ؟

قلنا :

- أمال ح نكون ايه يا خالة .

وتركت الحديث ووضعت يدها برفق على كتف حلمى وقالت :

- ما تحطش ايدك ع الجرح يا ضنايا لحسن وحش ..

وأنزل حلمى يده بعد تردد ، واختطف سيجارة من واحد منا وسألها :

- وانتى رايحه ليه يا ست ؟

ولم تجب ولحنا دموعا تهطل على الفور من عينيها دون بكاء ، واستغربنا ، وأعاد حلمى السؤال فقالت :

- رايحه أشوف ابنى .

ولم تنطق «ابنى» حروفا كانت دموعها أكثر من الحروف وهى تنطقها .

- ابنك ما له ؟

وأجابت :

- ابنى يا خويا .. هناك .

- بيعمل ايه ؟

- مجروح .. مجروح يا ضنايا وما شفتوش بقالى شهر .

واندفعت تبكى . وشل بكاؤها ألسنتنا ، ولكن حلمى ألح :

- مجروح ازاى ؟

ومضت تتكلم وتبكى ، وتبكى وتتكلم :

- جتله رصاصتين فى رجليه .. الهى ينتقم منهم البعدا .

- ليه ؟

- كان بيحارب فى الهوجه ساعة ما نزلوا .

- كان بيحارب !؟

قلنــاها كلنا مبهورين ، وكأننا نردد أمنية غالية ، وكأننا نطلق

دعوة. ولم تكن أمنيتنا وحدنا ، كل من قابلناه كان يرددها ، وقليلون هم من أتيحت لهم الفرصة ، فالمعركة كانت حادة وباترة نشبت فجأة ، وانتهت فجأة ، ولم تستمر سوى أسبوع وكأنها طعنة خنجر ، حتى اصبح فى نظرنا البطل هو من كان هناك والمقدس هو من اشترك فيها ، أصبح كل من اشترك فيها يحف به فى نفوسنا نوع من التقديس وكأنه اسطورة ، وكأنه كائن غير موجود ، فإذا بالخالة ابنها قد حارب ، وجرح ، وقلنا لها :

- وزعلانه ليه؟ .. ابنك بطل .

- عايزه أشوفه ..

- دى اصابته بسيطة ، ومالك نازله بكا عليه يا ستى ؟

- بقالى زمان ما شفتوش .. مشتاقاله وجيت مره المطريه قبل كده .. وركبت القارب .. ووصلنا بورسعيد .. والانجليز حاشونا ثلاثة أيام وكان الرصاص زى الناموس فوق روسنا وبعدين رجعونا .. ودى تانى مره .. ح نوصل امتى يا خويا؟ .. الهى يخليك .. عايزه أشوفه .. مش قربنا؟

وتناهى السؤال الى وعينا غريبا مدويا ، وانطلقت عيوننا تستكشف البحيرة . وفقدنا الابصار فى المسطح اللانهائى من الماء ، وغابات الحشائش المتناثرة ، والسماء ذات الضوء الشاحب

والقمرالمكسور الذى بدأ يزحف صوب الافق ، ولا شيء سوى هذا .. لا شيء سوى الماء الكثير الآسن ، الماء الأسير ، الباقى بعد الصراع ، صراع النيل والبحر الكبير ، النيل الهائل الذى أنشب أظافره فى البحر وأسر الكثير من مائه ، وحاصره ، وصنع البحيرة ، لا شيء سوى سكون .. سكون غامض مثير ، مليء بأسرار وألغاز ، سكون الأسرى ومعسكرات الاعتقال ، سكون مرعب مخيف ، سكون البحيرة التي عبدها القدماء .

ولم نكن بعد قد عرفنا الكثير عن ابن الخالة .. كنا نود أن نعرف كل شيء عنه من لون شعره لطريقته فى المشى .

قالت :

– أبدا يا بنى .. لما الضرب حصل قال لازم تسافرى . قلت ما اسافرش . قال لازم . قلت له يا بنى انا ماليش الا انت وربنا . هو حيلتى من دنياى .. أسيبك ازاى . قال لازم وركبنى المركب . ورحت مصر . يقطعنى انا اللى ما استنيت وياه .. يقطعنى اللي سبته .

– وحارب ؟!

– وحارب وجتله رصاصتين فى رجله .

– وعرفتوا ازاى؟

– هو فى المستشفى وبعت لنا جواب فى الصليب الأحمر يا خويا ..

وقال الخدمة زى الزفت ومفيش أكل . يا بنى يا حبيبى ! مين يجيب له يشرب اذا عطش؟ مين يسقيه ؟ مين يسأل عنه ؟

واعتدلنا جميعا .

كان الأمر يتأرجح فى نفوسنا بين الشك واليقين ، كنا نعتقد أنها لابد أم قد لسعها الشوق الى ابنها المحجوز هناك وصممت على رؤيته . وقصص البطولة موضة . كل قاطن هناك لابد اشترك ، وكل قاطن بطل، وكل واحد قتل من الأعداء مئات . وتبادر الينا أن الخالة هى الأخرى تود تضخيم الأمر واختلاق المستحيل لتصل الى هناك .. ولكنا اعتدلنا .. فغير الأم لا يستطيع ان يمثل أبدا دور الأم ، وأم غير المجروح لا تستطيع ان تمثل أبدا دور أم ابنها مجروح . وكانت فى جلستها التى لم تغيرها ، والتى يخيل للانسان اذا رآها انها واقفة ، وواقفة على أطراف أصابعها وليست جالسة ، وعيونها وهى تنظر الى بعيد ولا تطرف ولا تمل الرؤية والنظر وكأنها تتشوف الى حبيب ، وكلماتها ، والطريقة التى تنطق بها كلماتها . ودموعها التى تغرق الكلمات وتغص الحلق ، كانت بلا ذرة شك مجروحة وأم مجروح ، اعتدلنا ونحن نحس بقشعريرة انبهار .. وكأننا ونحن ننظر إليها نعبد الخالق أو نصلى للشرف .

وقال حلمى :

- خاله ..

- نعم يا خويا .

- انتى زعلانه انه حارب؟

- انا يا بنى زعلانه انه مجروح ودلوقت لوحده .

وقهقه حلمى كمن يود أن يغير طعم الحديث ، وسألها فى سخرية غير لاذعة :

- طيب .. افرضى يا خاله انك كنت وياه ساعتها .. كنتى ح تخليه يحارب ؟

وانحدرت دموع كثيرة من عينيها ، وقالت فى لهجة روتينية :

- ايوه كنت أخليه .

وزام حلمى غير مصدق ، فتابعت اجابتها بإخلاص هذه المرة :

- كنت اخليه اخليه .. انما لازم كنت احارب وياه . رجلى على رجله .

وقال حلمى مستخفا :

- تشيلى البندقية ؟

- أشيلها ..

وتدخل واحد وقال :

- طب شيل انت ايدك من ع الجرح يا حدق .

وتنبه حلمي الى أن يده كانت قد عادت الى مكانها فوق الجرح دون وعي منه ، فأنزلها ، وتوقف برهة ، ثم تابع استخفافه ليداري خجله :

- وتضربي نار يا خاله ؟

-أضرب .. ما اضربشي ليه ؟ أهم بيقولوا ان الستات كانت بتضرب .

وتابع حلمي استجوابه :

- طيب افرضي انه اتعور وانتي بتحاربي معاه ، تعملي ايه ؟

وبكت ولم تجب . وأسكتنا حلمي . ولكنه فعل هذا اللحظة ثم عاد يسألها :

- يا ستي دا الحكايه بسيطة .. وهو في المستشفى ، وزمانه طاب ، وما الك ملهوفة عليه قوي كده ليه . هو انتي لوحدك ؟ ما كل واحد اتعور له أم زيك كده . ما كنتي تستنى لما يخرجوا الانجليز وتروحي في أمان بدال ما تعرضي نفسك للموت كده . انتي لازم ترجعي وتستني .

فأجابته بلهجة هادئة ولكنها حاسمة :

- ما اقدرشي أستنى .

- ليه ؟

- عايزه اشوفه . زمانه لوحده . عايزه اشوفه بعد اللي حصل . دا كان في الحرب يا بني . الهي ما يحرق قلب أمك عليك .

وضحكنا لذكر أمه ، ومع هذا لم يملك كل منا بينه وبين نفسه الا أن يتذكر أمه ، ثم ينفيها على عجل من ذاكرته .

وحلت لحظة صمت ..

الريح بدأت تنتعش ، ونور السماء قد خفف كثيراً من ظلام البحيرة، والقلع منفوخ ، وفم الريس مفتوح ، وعيونه لا تغفو ، والجو مملوء بالصرير المتصل الذى لا ينضب ولا ينقطع ..

وسألها حلمى بصوت شاعرى ممدود يقارب لهجتها :

– هو كبير يا خاله ؟

فقالت دون أن تنظر اليه ، وعيناها هائمتان معلقتان فوق نجمة بعيدة فى قاع البحيرة :.

– أهو اسم النبى حارسه بيجى قدك كده .

– ومتجوز ؟

– خطبا له ..

وارتفع صوت حلمى فى هزار مفاجىء :

– وزعلانه قوى كده ليه ؟ تلقاه كان طول النهارنازل فيكى شتيمه .

– ابدا والنبى يا اخويا .. دا لسانه مفيش انضف منه .

– وكان بيشتغل ايه يا خاله ؟

– عندنا دكانتنا يا خويا .. امال هو قعد ليه ؟ .. قال لى ما

أسييش الدكانه للانجليز ينهبوها أبدا .

– وكان بيحب مصر يا خاله ؟

– مصر مين يا خويا ؟

– مصر بلدنا ..

– وحد يا ضنايا يكره بلده .. الهى يخليك ..

وصنعت الدموع خطين رفيعين لامعين على وجنتيها ، واندفع حلمى يقول في حماس مفاجىء :

– يا ستى ابنك راجل واتعور فى معركة رجالة . اتعور وهو بيدافع عن بلدنا وشرفنا . بكره يكتبوا اسمه فى الجرانين وينشروا صوره .

فأجابت وهى تهز رأسها :

– بس عايزه أشوفه ، عايزه أشوف ايه اللى جرا له .. الهى يخليك يا ريس . لسه كتير ؟

ولم يجب الريس .

وهز حلمى رأسه فى يأس ، ثم تنبه فجأة وقال بالانجليزية وكأنه عثر على كنز كبير :

– أتعرفون لماذا هى مصرة على رؤية ابنها ؟

وقال له واحد بالعربى :

– ليه ؟

فقال :

– انها تدرك بغريزتها أنه لابد قد تغير بعد المعركة . تريد ان تتبين ما حدث له من تغيير وكيف أمكن لابنها الذى ربته ورأته طفلا ، كيف أمكنه أن يحمل السلاح ويحارب . وتريد فوق هذا ان تطمئن الى أنه لا يزال ابنها حتى بعد أن حارب كالرجال وحمل السلاح .

وضرب واحد يد حلمى التى كانت قد تسللت مرة أخرى الى جبهته وقال بالانجليزية أيضا :

– يا مغفل أهم شيء هو القوة الرهيبة التى تجذب الأم الى ابنها . القوة التى لا يقف أمامها حائل .

ولم يظفر التعليقان بتعليق ، كل ما حدث أن الخالة ظلت تنظر اليهما وهما يتكلمان ، ثم التفتت الينا وسألتنا :

– أمال انتو رايحين ليه يا خويا ؟

فأجابها حلمى :

– مش قلنا لك فدائية . مش مصدقة والا ايه ؟

وكدنا نضحك لولا ان سمعنا الريس يقول :

– اسمعوا .

فسكتنا برهة .. وعاد يقول :

– سامعين ؟

وأصخنا أسماعنا . ومن بعد سحيق تلقفنا صوت هدير غريب على السكون المستتب .

وقال الريس :

– دا لنش .

فقال حلمى على الفور :

– لا .. دى طياره .

– بقولك لنش .

– أقطع دراعى ان ما كانت طياره ..

وخيل الينا أننا ظللنا ساعة ننتظر النتيجة ، وكان الريس يتكلم:

– الانجليز عملوا استعدادات جامدة ، طياره أم مروحه رايحه جايه على البحيرة ، تشوف القوارب وتعرف اذا كان فيه صيادين والا لا . وبعدين قبل الشط بشويه تقف والا تضرب بالنار . وبعدين قارب ييجى يفتش . انما دا صوت لنش ما فيش كلام .

وظل الصوت يهدر من بعيد ويقترب حتى رأينا فى الضوء الشاحب نقطة فاتحة تتحرك ، وكانت تتحرك فى نفس اتجاهنا .

وقال الريس بنبرة فيها انتصار قليل :

– مش قلتلكم ؟ دا لنش . وجاى من ناحية المنزلة كمان . عارفنشى رايح فين ؟ ..

وابتسم حتى توهج نابه وأردف :

- على هناك برضك .

وسأله حلمي بسخرية :

- ايش عرفك ؟

فأجاب :

- ايش عرفنى ؟ ! أنا عارف قوى .. وما تزعلش .. تلاقى فيه ناس كمثلكو برضه .

وتغيرت لهجة حلمي واهتز طربا وقال :

- كده .. طب تيجى ننادى عليهم يا جماعة .

وانهالت الأصوات تعترض . وقال الريس :

- خليهم يا محترم في حالهم واحنا فى حالنا . خلى كل حى فى سكته .

وكان اللنش اسرع منا ، فسبقنا وأوغل في التقدم حتى تبدد صوته . وقال الريس وهو يضرب ركبته المثنية بيده :

- يا خويا ايه الحكاية ؟ دا المراكب بطلت صيد . أنا واحد م الناس ليلة امبارح وليلة أول وكل ليلة عمال أحول في ناس زيكو كده صفوف ورا صفوف عماله تروح على هناك . هو هناك ايه ؟ مولد ؟

وقاطعته الخالة قائلة لحلمي :

– يا حبيبى شيل ايدك من على الجرح .. عمال تحسس عليه ليه . شيل يا خويا .

وجمدت يد حلمى وكأنما ضبط متلبسا .. ثم أنزل يده وهو يدارى ابتسامة خجل ويتمتم :

– لا .. دانا أصلى بس حاسس انى سخن ..

وما لبث أن انثنى الى جاره قائلا :

– والنبى تحط ايدك تشوفنى سخن والا لا .. يا أخى شوف .

ولم يترك الجار الا بعد أن أطاعه ووضع يده فوق جبهته .

وكنا قد دخلنا منطقة خالية من جزر الحشائش ، والريح بدأت تقوى حتى أن الريس ربط حبل القلع فى مؤخرة القارب ، وأمسك بالدفة فقط ، ولكنه ظل مقطب الملامح ، عابس القسمات صامتا لا ينطق وكأن أمرا كبيرا يحيره ، أو حزنا مفاجئا داهمه ، وكان جالسا ظهره الينا . وظل على هذا الوضع لا يغيره ، وكنا قد تعبنا من التفكير والكلام وحتى من مجرد التحديق فى السماء والماء ، فسكتنا ، وماتت الحركة على ظهر المركب تماما حتى لم نعد ندرى أهو واقف أو يتحرك ؟ وهل نحن نائمون أم مستيقظون ؟

وانثنى الريس ناحيتنا فجأة حتى تهدلت اللاسة التى كان يتعمم بها من عنف الحركة ، وقال :

- قولو لى يا سيادنا ..

وقبل أن نسأل ماذا يريد أو نتحرك ، قال بنبرات حاسمة وكأنما يتخذ قرارا خطيرا :

- انتو مش فداويه ؟ ..

ولا نـدرى لماذا دقت قلوبنا بعنف ، وكـأنما كنا نسـرق وباغتنا الريس .

وظللنا وقتـا طويلا صامتين ، صمتا حائرا مضطربا ، صمت العاجزين . وكان حلمى أول من تكلم ، وقال :

- أمال احنا ايه ؟ بنلعب ؟!

وحدق الريس فينا مرة أخرى وقال :

- عليّ الطلاق بالتلاته انتم ما انتم فداويه .

وقال حلمى ساخرا مرتبكا :

- أما حكاية ! .. أمال رايحين نعمل ايه يا بلدينا ؟

فأشار الريس بكفه وهو يقول :

- ما هو ده اللى محيرنى . رايحين تعملوا ايه ؟ . رايحين ليه ؟ هو أنا عيل ؟ . دانا أفهمها وهى طايـره .. والناس بتبـان . الواحـد ياما شـاف فداويه وظباط وجن أحمر . انما اللى محيرنى انتو رايحين ليه ؟ ..

واستمر حلمى ساخرا مرتبكا :

- طيب .. رايحين ليه ؟

فأجابه الرجل ؟

- انت بتسألنى أنا .. اسألوا أنفسكم ! ..

ولم نكن حتى تلك اللحظة قد سألنا أنفسنا أبدا أو ناقشناها . ولم يكن أحد قد سألنا . كل من علم أننا ذاهبون كان يتمنى لنا حظا سعيدا ولا يستغرب . بل ان كل من قابلناه أو رأيناه كان يتمنى أن يأتى معنا . وكنا نأخذ الأمنية على أنها شيء طبيعى لا غرابة فيه ، كمن يقول : نفسى آكل ، أو نفسى أشرب .

طوال صمتنا كانت الخالة ساكتة . ولكنها لما رأت الصمت طال قالت :

- يه .. أمال يا خويا رايحين ليه ؟

وتكلمنا كلنا فى وقت واحد :

- انتى صدقتى الريس ؟ احنا فدائيين صحيح ..

- أهو رايحين كده .. نتفرج ..

- أصل يا ستى فيه مقاومه شعبيه هناك .. و ..

- لنا قرايب يا خاله بس من بعيد رايحين نطمئن عليهم .

ولم يدخل ما قاله كل منا فى عقله ، ولا فى عقول الآخرين ، ولا

حتى في عقل الخالة .

ومضت تحقق مع حلمي وتسأل وتدقق عن الاسباب التى تدعونا للذهاب وحلمي يحاور ويداور ، والريس يبتسم ابتسامة من فقس الفولة، ونحن ساكتون ..

أحيانا يفيق الانسان فيجد نفسه متجها الى مكان معين ، هكذا ، بلا وعى أو تفكير . وقد جعلنا سؤال الريس نفيق . وحين أفقنا كان كل شيء أمامنا له سبب .. الخالة ذاهبة لترى ابنها ، والقارب يتحرك لأن الريح تدفعه ، وحلمي جرحت جبهته لأنه ارتطم بالصارى ، أما نحن، فلماذا نحن ذاهبون ؟

رغما عنا رحنا نسأل أنفسنا ، لأول مرة ..

ولم أجد جوابا معقولا أو مقبولا . كل ما وجدناه كان احساسا كبيرا لا يترك لنا مجالا للتفكير أو السؤال . احساس أن شيئا هائلا مؤلما لابد قد حدث هناك وأننا يجب أن نكون بالقرب مما حدث .

وانتهى نقاش الخالة مع حلمي حين ارتفع صوتها وكله غضب :

- بقى تموتوا ارواحكو كدب فى نصب . لا انتم فدائية ولا حرس ولا حاجه ورايحين تموتوا ارواحكو . انتو مالكوش أمهات ؟ والنبى يا ريس اعمل معروف رجعهم .. رجعهم اعمل معروف .. تكسب ثواب ما تخليهم يهوبوا على البر . الهى ما تحرق قلب ام على ولدها يا رب .

وقال الريس :

- ما تتعبيش نفسك يا أمي .. اللى عقله فى راسه يعرف خلاصه . لازم فى نيتهم حاجه . خليهم يا ستى كل حى فى سكته.

وكان يقول الجزء الأخير وهو يقف ويتمغط و يتثاءب . ولكنه كف عن تثاؤبه وقال بإرهاق كثير :

- بصوا ..

واتجهنا كلنا الى حيث أشار .. وهناك .. عند نهاية الأفق ، وفى ضوء الفجر المشبع بالبرودة ، كانت توجد غمامة كثيفة داكنة فيها أضواء قليلة صفراء معطوبة تكاد تذبل ..

وقال الريس :

- أهه .. خلاص .. وصلنا .

وتركت الخالة ما كانت تهمس به لحلمى وقالت بفرحة منفجرة:

- والنبى : والنبى يا خويا ؟ الهى يخليك لشبابك ، الهى يسعدك .

وفى الحال انتفضت على وجناتنا عروق . وفى الحال مضت تدق ، شيئا كدق الحرب ورحنا ننظر وقد تركزت أرواحنا فى أبصارنا وامتلأت صدورنا بدفء مفاجىء ، ورغم احتجاجات الريس وصرخاته وتمايلات القارب وقفنا جميعا ، وتكاتفنا لنتساند ونتأمل الغمامة الرمادية البعيدة ذات الأضواء . كانت رهيبة كئيبة كناموسية غامقة مسدلة على

مجروح ، مستحيل أن تكون ناموسية مسدلة على مجروح . لابد هناك أناس .. مصريون . لا يمكن أن يكونوا قد ماتوا كلهم أبدا .. بدا .

انفعالات تفور وتنسكب ، والرمادية تختفى لتأخذ مكانها سمرة . أرض سمراء أوسع من السماء . والغمام ينقشع فى أذهاننا ويبدو وجه الشمس .. أجمل شمس . وعلى ضوئها تبدو ملايين السحنات التى رأيناها طوال الطريق وكأنها وجه عملاق كبير مصنوع من ملايين الوجوه ، وعلى رأسه مليون طاقية ، ومليون عمامة ولاسة وكوفية ، والعدو أيضا هناك وراء الغمام ، عدو بشع كثير ، ونحن القادمين قبضة ، لماذا لا يأتى كل الناس ؟ لماذا لا يتحرك العملاق كله وينقض ؟ متى يتحرك العملاق ؟

وأقوى من أى انفعال وأعظم ، كان شغفنا الخارق ان تنتهى المسافة ونصل الى هناك ، ونزيح لفافات الغمام لنرى ما تخفيه ..

وفطنا بعد وقت الى الريس يتكلم ويقول :

– لغاية هنا وما أقدرشى أتنقل ولا خطوه .. الشط مليان مدافع ودواهى . انتم بقى تتوكلوا على الله . من الناحية دى البحيرة مش غريقه .. دى لحد الركبة بس .. تخوضوا من هنا على طول .. ح تطلعوا جنب الترية . الصراحة كويسة وبزمتى ودينى لو كنت أقدر كنت وديتكو انما العين بصيرة واليد زى ما انتو عارفين .. اتوكلوا على الله .

ووقفنا برهة .. تلك البرهة التى تسبق العمل الخطير ، الشاطىء أمامنا هادىء هدوءا مريبا كهدوء البركان قبل اندلاعه ، والغمام كثيف يحجب كل شىء .. والخط الممتد أمامنا لابد كله فوهات بنادق ومدافع، والسماء كأنها تدوى بأزيز العشرات من قاذفات القنابل .

بل سمعنا بآذاننا طلقات رصاص .. بعيدة ولها أنين .

وقفنا برهة وترددنا . تلك هى اللحظة الحاسمة .. اللحظة التى ادخرها كل منا ليختبر نفسه وشجاعته . هناك حيث كنا نعيش لم يكن أحد يستطيع ان يميز بين الجبان وبين الشجاع ، فكلاهما متاح له أن يعيش . حتى الشخص نفسه لا يستطيع ان يدرك معدنه . فى لحظة كتلك يعرف الانسان نفسه ، واللحظة حادة وفاصلة ، وقلوبنا تدق ، والريس طوى القلع ، وأرجلنا مثبتة على حافة القارب ، وعيوننا ترقب الشاطىء ، وأجسادنا متقاربة ، ونظرات مختلسة يصوبها الواحد الى نفسه والواحد الى جاره ، والبرد قد اشتد فجأة ، ولم نعد ندرى أهو صادر من البحيرة أم من أعماقنا ، والسماء تنبهت وتبهت ، وطيور النورس تنقض على سطح الماء ثم تعود وترتفع وفى منقارها سمكة . وتكاكى وتتقاتل ، والصوت الذى تحدثه هو الوحيد الذى يسمع .

وقطعت اللحظة تمتمة الريس :

– أما وليه غريبه ! طب تقول كتر خيرك ..

ثم ارتفع صوته اكثر :

- مش من هنا يا ست .. خدى يمينك شويه لحسن الحته اللى قدامك غريقه .

وأدركنا أن الخالة غادرتنا ومضت دون أن تفتح فمها بكلمة ، وكادت تصبح على مرمى البصر .. تخوض الماء ، وتتمايل ، وتتوقف برهات ، ولكنها لا تلتفت ، ولا تكف .

وارتفعت أصواتنا :

- استنى يا خاله .. استنى شويه ..

وفوجئنا بها تقف وتستدير الينا وتقول :

- لا .. روحوا روحوا انتم بقى ، مع السلامة .. والنبى ينوبك ثواب ما تسيبهم يا ريس .. روحوا أنتم بقى .

واستدارت على عجل ، وأسرعت كالملهوفة الخائفة أن يفوتها قطار ، وأخذ سواد ثيابها يختلط بالضباب والشحوب ، ويقترب من رمادية الشاطىء .

ومرة أخرى دوت فى آذاننا طلقات الرصاص البعيدة التى تصدر عن مكان غامض .

ورغم كل ما كان يدور فى رءوسنا من خواطر واحتمالات ، فنحن لم ندر لماذا أسقطناها كلها فجأة ، وركزنا انتباهنا وكأننا أطفال سذج

على يد حلمى التى كانت وقد عادت تتحسس مكان الجرح بطريقة تلقائية غريزية لا تمت الى عقل أو منطق .

وخبط الريس بكفه على خشب الصارى وقال :

– هيه يا سيادنا ؟

وقال حلمى : أحسن طريقه نستنى لما النهار يطلع ..

وسمعنا طرطشة الماء ، وأيقنا ان واحدا لابد قد هبط . وقال حلمى :

– أهم شيء ان احنا ما نندفعش . قليل من العقل .

وطرطش الماء مرة أخرى وهبط واحد ثانى . وقال حلمى بعصبية :

– هو أنا بكلم مجانين ؟ ما تفهموا انا بقول ايه ..

وهبط الثالث ..

وضرب حلمى الهواء بيده وقال :

– هى شطاره يعنى ؟ .. طب هه ..

ثم هبط ..

وواحد وراء الآخر رحنا نخوض فى الماء وقد انتظمنا صفاً متباعد الوحدات ، وكأننا أصابع عملاق كبير تتحرك فى اتجاه الشاطيء ، وكل ما يهمنا أن ننتزع أرجلنا من الماء والطين . وندفعها لتفرق الماء والطين ، والبحيرة تشخشخ حولنا . والنورس ينقض ويستغيث ، والماء

يتغير لونه وترتسم على سطحه الدوائر ، والجو يزخر بشعشعة ما قبل الشروق ، والنجوم قد اختفت من السماء ومن البحيرة ، ولم يعد هناك سوى نجمة الفجر ، وقوى قاهرة وراء الستار تجذبنا الى الجرح الكبير وتعشينا .

العملية الكبرى (★)

ما كان أصعب أيامها - وبالذات لحظتها - أن يشك . بل هو لا يزال لا يعرف كيف، كالبخار المتكاثف بدأت تتجمع السحب، فالمهمة على غرابتها الشديدة بدت أول الأمر مجرد مهمة أخرى من المهام الكثيرة التي كان يوكل اليه بها . كل ما في الأمر أنها طريفة وعلى وجه الدقة مثيرة لعجب طريف لابد تمط له شفتيك أو تهز كتفيك . فمع انتهاء العملية الكبرى والجميع في قليل من الوجوم يتهيأون للانصراف ، جاءه الأمر من الأستاذ الكبير أن يبقى بجوارها حتى تموت . ولأن لا طبيب بلا ممرضة فقد ترقب همسة «الأخت تريزا» التي ستحدد الاسم، وما كاد يسمع «انشراح» التي نطقتها «انسراح» حتى وجم وكاد يغضب ويدفعه الغضب لطلب آخر ثم رن في أذنه المثل «خسرانه خسرانه» وأصبح مناسبا جدا في نظره أن تكون «انشراح» بالذات هي شريكته في انتظار الموت.

وحين «صفصفت» الحجرة عليهما ولم يعد هناك الا هو وهي والموت الرابض على صدر السيدة بدأت المهمة تتحول من روتين الى نوع من الواجب الثقيل . لو كانت شريكته في انتظار النهاية ناهد مثلا أو سهير

(★) نشرت - لأول مرة - في «الأهرام» في ١٩٦٩/٧/٢٥ مجموعة «النداهة» .

أو مديحة أو حتى كاميليا لانقلب الواجب إلى متعة، أما المتوحشة البراوية «انشراح» الغاضبة أبداً، المتنمرة تكاد «تخانق ذباب وجهها»، فأى أمل له فى بعد ظهر هادئ حتى؟

بعد ظهر كان قد بدأ من زمن وقفزات عقرب الدقائق فى الساعة التي تتوسط الحائط من احساسك ببطئها تبدو كل مرة كما لو كانت تفاجئك بحدوثها، بعد ظهر أصبح خوفه أن يطول ويطول حتى ليصل الظهر بالمساء، ومن يدرى ربما بالليل أيضا؟ وما دامت ميتة ميتة فلماذا هذا العذاب كله؟ وما دامت هذه الأنفاس المأخوذة على هيئة شهقات مفاجئة أيضاً كقفزات العقرب - خارجة بسرعة كالزفرة ما دام هذا هو تنفس «طلوع الروح» فما الداعي لعذابها باستمراره واستمراره؟ ما الداعى «يا ست انشراح» بلا أى «انشراح» العاقدة ملامحك وكأن المسجاة هى السيدة والدتك المنكبة حضرتك على ابر التريكو بأصابعك القمحية الرفيعة الطويلة كإبر التريكو تنسجين بداية «البلوفر» التى لم تزد رغم آلاف الغرز مساحتها، وكأنما حضرتها - لتغيظه - تنسج غرزة وتفك غرزة؟ ما الداعي؟...

لو التفتت اليه لحظتها أو رفعت رأسها لكان - وبدون نظر لأى اعتبار - قد بدأ الشجار، ذلك أن غيظه بعد انتظار دام الى الآن ساعتين وبضع دقائق كان قد بدأ . وهو على وجه التأكيد ليس غيظه . فأى شئ

كان يمت الى الجراحة من قريب أو بعيد مهما تقبله الآخرون بضيق أو تبرم، ما كان ليأخذه هو الا كآلام الحب لها نفس مذاق المتعة.. الغيظ إذن غيظ وافد لا يزال لا يدرى مصدره.. غيظ يبدأ عند وجه «انشراح» الجميل حتى فى تنمره، ليتزايد كلما انتقل بعده الى مجال آخر، وكلما اصطدمت عيناه أو اصطدمت حواسه بشئ من آلاف الأشياء التى تحفل بها الحجرة.

بدايات غيظ جعلت روحه بالتدريج تنسحب من اندماجها التام فى دورها الجراحى المحبب، ومن اختلاطها الكامل بكل شئ تحفل به حجرة العمليات – مهبط الوحى عنده وقدس الأقداس – لتبدأ تتخذ موقفا محايدا وتعود ترى وكأنها لأول مرة ترى، ولتبدأ دهشة كدهشة الإفاقة من حلم تعتريه، لا ليست هذه حجرة العمليات أبدا . انها مكان مرعب كئيب لم يره من قبل ، فأى معركة شيطانية دارت ولاتزال آثارها طازجة، لايزال الدم أحمر لم يغمق لونه بعد – دم واصل حتى السقف الأبيض راسما خطوطا متقاطعة ومتقاربة ومتفرقة .. خطوطاً مكونة من مئات النقاط رسمها لابد دم تفجر تحت ضغط شديد انفجارات دموية كثيرة لابد دارت هنا إلى أعلى وإلى الجوانب ترتسم على جدران الحجرة الأربعة، وفى كميات تملأ زجاج الشفاط وتكون بقعا كبيرة تلطخ المرايل والبلاطى البيض الملقاة هنا هناك . دم يلوث كل مكان حتى الأحذية المطاطية ذات الرقبة، حتى الأرض الكاوتشوك، بل لم يسلم منه أيضا

زجاج الأضواء الكاشفة البراق والمصفر.

دم كثير من المحال أن تعتقد أن هذه السيدة النحيفة الراقدة يحفل وجهها بسلام كسلام أطفال نائمين.. مصدره ولكنها بلا شك كانت المصدر الوحيد، والواضح أنها الطرف المغلوب.

أيكون الغيظ الذى يعتريه الآن غيظا حقيقيا ؟

أيكون ما يراه الآن خدعة أو بداية خدعة، أو بالأصبح بداية شعور أنه ضحية خدعة شيطانية من المحتم لو صحت أن يفقد لها أثبت العقول وأصلبها الصواب ؟

أخذت السيدة شهقة.. قبل أن تكتمل ركبت فوقها شهقة أخرى، وكانت النتيجة شهيقاً طويلاً جدا اضطربت له جفونها المسدلة حتى كادت تفتح، وحتى تصور أنه فى الشهيق التالى حتما سيعود اليها الوعى، ومن يدرى؟ ربما تحدث المعجزة الكاملة وتعود للحياة.

ولكن رغم دقة القلب العالية الزائدة التى دوت فى صدره انفعالا، فقد بدأ السؤال يلح من جديد: أيكون قد خدع الخديعة يا ترى؟

— ٢ —

ويحدث هذا أين؟.. فى نفس حجرة العمليات التى شهدت منذ بضعة شهور أعظم لحظات حياته، اللحظة التى وعى فيها لأول مرة بالحياة.. حياته، وأدرك عن يقين لماذا يريد أن يعيش.

لقد بدأت مشكلته بعد أن تخرج وأصبح طبيبا، واستهلك فى بضعة أسابيع كل متع الفرحة بالتخرج والاحساس الغامر الجميل بأنه انطلق من عقال تلمذة طالت وعليه أن يعب من متع الحياة الصغيرة التى حرم منها طويلا . واجهته حينذاك مشكلة ماذا يريد أن يكون؟ لقد دخل الكلية بالمجموع وواصل الدراسة ونجح بالرغبة الغريزية فى التفوق على أقرانه، وها هو ذا الآن بعد التخرج يستعرض أمام عينيه كل فروع الطب فلا يجد فى نفسه مثقال رغبة فى أى منها . بل انه حتى بعد أن تخرج وأصبح يزاول المهنة لا يجد فى نفسه أى رغبة فيها أصلا وكاد يصبح الأمر كارثة، فإنها لمهزلة أن تبدأ بعد وصولك الى هدف ما قضيت فى الوصول اليه اعواما طوالا، أن تكتشف أنه ليس هدفك، وأن عليك أن تبحث عن آخر.

ولقد ظل هذا يحدث وهم البحث يؤرقه، حتى انتقل الى العمل بقسم الجراحة حين دخل ذات صباح باكر هذه الحجرة ومر بالطقوس المعتادة من ارتداء ملابس العمليات والاغتسال والتعقيم واحاطة رأسه ونصف وجهه بالقناع الأبيض المشهور . هنا حيث رأى أستاذ الجراحة الكبير لا يصف الدواء ويترك للعمليات الغامضة فى الجسم أن تعمل عملها وتشفي، وانما بأصابعه الطويلة الحادة القوية يقطع ويصل ويستأصل ويعيد التشكيل، هنا حيث بإرادتك أنت وحدك وبقدرتك يتم الشفاء .

يدخل المريض يتلوى من شدة الألم أو من اليأس، وبعد ساعة يخرج وقد شفي تماما وانتهى ألمه . هنا حيث يختلط دور الجراح بدور الساحر القديم، والعلم يصبح حرفة ترتفع الى مصاف الفن، والعملية السحرية كلها تدور في ذلك المكان البالغ النظافة، الشاحب الضوء، المعقم... بصمته القدسي الكلمات فيه تتحول الى همسات تختلط بالفحيح الصادر من أجهزة التعقيم، وتنسجم مع الحركة الصوتية المتتابعة لتنفس المريض من خلال جهاز التخدير، بالسكون المضمخ بروائح اليوسول واليود والاثير، السكون الحي النابض بدق القلب وهو يتحول إلى إشارات موسيقية ضوئية.. السكون الذى يتنفس تنفسا خاشعا منتظماً . هنا اكتشف الجراحة كعلم وكسحر، واكتشف أن ها هنا يوجد أمله ومن الآن سيصير هدفه من الحياة.

وكان طبيعيا وقد اكتشف الهدف أن تأخذ السعادة عنده شكل الهوس.. حيث لا يعود يأكل أو يستريح أو يحلم الا وهو يقوم بشئ من أجل عمله الذى أصبح حبه الأكبر، سماه زملاؤه مجنون الجراحة، وكانوا يغيظونه بقولهم انه انما يتفانى ليرضى الأستاذ وليتكتك لينال وظيفة «نائب الجراحة» حين تخلو، مع أنه يعلم وهم جميعا يعلمون ألا أمل له في هذه الوظيفة اذ إن درجاته لا تؤهله. ولكنهم معذورون فالعمل عندهم مرتبط بالمصلحة ومن المحال أن يستطيعوا هضم أن يعمل الانسان لأجل متعة العمل نفسها.

ولقد كان يعمل ويتفانى بلا كلمة تشجيع واحدة، وحتى وهو يدرك أن رئيسه النائب ينسب معظم الأعمال أمام الأستاذ لنفسه فماذا يهمه أن يعرف الأستاذ اجتهاده؟ انه لم يكن يعمل ليرضيه بل ليرضى ذلك الشئ المركب فيه الذى لا يرضى أبداً ! نفسه.

بل بدلا من التشجيع كان بالضرورة يناله كم غير قليل من شتائم الأستاذ الدكتور أدهم أستاذ الجراحة.. وليس هذا رئيس القسم فقط انه كبير أساتذة الجراحة فى المستشفى كله، والجراح فى المستشفى يحتل مكانة لا يحتلها زميله طبيب الأمراض الباطنية أو طبيب الأطفال مثلا . إن له بجانب العلم مكانة دنيوية، فهو ليس عالما فقط ولكنه عالم يزاول العلم أمامك... وأمامك يحيي ويميت . ولأن المهنة هى التى تفرض الخلق والتصرف فعند الجراح أسهل الطرق البتر، وأى كلام ليس له فاعلية المشرط وحسمه هذر فارغ لا يقال ، وما دامت ارادته هى نفسها الدواء فإحساسه بنفسه يتعاظم، وكلمته مهما تكن أمر واجب النفاذ . وليس مصادفة أنهم يسمون حجرة العمليات بمسرح العمليات ، فالجراح فى هذا المسرح هو الإرادة الكبرى والعقل المفكر، والحاضرون جميعا من بشر أو أجهزة أو عقاقير ليسوا سوى أدوات فى يد تلك الارادة تصنع بهم الشفاء ، ولأن احساس الآخرين عند الجراح غير مهم اذ المهنة تحتم عليه أن يلغى شعوره بإحساسهم اذ هو لو شعر أن جرحه يؤلم

لارتعشت يده ولربما نَفق مريضه، ولهذا هو أيضاً لا يهتم بوقع كلماته عند الآخرين حتى لو جاءت شتائم ولعنات.. فمسئوليته الخطيرة أن تنجح العملية، وملعون أية حركة أو خطأ يحول دون هذا النجاح.

كانت شهرة الأستاذ أدهم اذن كرئيس لا يرحم تكاد تعادل شهرته كأستاذ جراحة ممتاز، ولأن أطباء الامتياز يحتلون أدنى مرتبة فى سلم المستشفى الطبقى فنصيبهم من شتائمه ولكزاته وافر، ومعاملته لهم أسوأ بكثير من معاملته للممرضات أو التمورجية وويل لمن يفكر فى الاحتجاج أو الذود عن كرامته فمعنى هذا نهايته، فهو لا يجر عداوة أو غضب رئيس القسم فقط، ولكن الدكتور أدهم كان أيضاً كبير الأساتذة والقائم بعمل عميد الكلية ومستشار وزارة الصحة.

ورغم كل ذلك، ومن فرط الحب والإنتماء للجراحة وكأنها المبدأ أو العقيدة التى ظل يبحث طويلاً عنها، فقد راح ينظر للأستاذ أدهم باعتباره قائده لهذا المبدأ ووسيلته للوصول . وليس مثلها سعادة تلك التى يجد الانسان مبدأه فيها وقد تجسد على هيئة قائد وعقل أكبر . وليكن الأستاذ أدهم شيطانا مرعبا فى نظر الآخرين، ولترتجف له الأوصال اذا حضر وحتى اذا غاب، ليكن ! فقد وجد فيه الأستاذ الكبير والراعى والعالم، ويبدو أن الأستاذ أدهم هو الآخر قد وجد فيه نعم التلميذ، فقد راحت شتائمه اليه تقل حتى انتهت وحتى أصبح يناديه

باسمه الأول وفى هذا من التكريم ما لم يحلم به أحد، وليأخذ حياته كلها بإشارة منه لو أراد فلم يعد فى الحياة شئ يجلب السعادة قدر أن يتلقى عبدالرءوف الأمر، أى أمر، وقدر أن يفنى نفسه تماما لتنفيذه وقد أصبح رضا الأستاذ أدهم من رضا الضمير، من رضا الله، الله المتجسد بكل قواه وخيره وكماله.

– ٣ –

ما اجتمع رجل وامرأة الا وكان الشيطان ثالثهما .

ورواة الحواديت يقولون: كان فيه امرأة .. وكان فيه رجل.. ثم يحدث الحدث.. ويتساءلون: الحق على المرأة أو على الرجل؟

ولكن لا الأقوال المقدسة ولا الأساطير قد تعرضت بذكر للموقف الذى هو فيه، فهو الرجل صحيح، وانشراح المرأة.. ولكن ثالثهما هو الموت.

وصحيح أنهما ينتظران معا نهاية السيدة المسجاة أمامهما، وإلى الآن وكل منهما ينتظر الموت بمفرده، فهى منكبة على ابر «التريكو» وهو منكب على خواطره وبينهما ما هو أكثر من الموت.. الحياة نفسها وكل ما سمعه أحدهما عن الآخر وما سمعه عنها أشياء مرعبة لا تشجع أبداً، فلقد أخطأ أحد زملائه وهو يعمل معها فى ظلام غرفة الأشعة مرة وحاول لمسها، وانفتح فمها لتكتسح ظلام الحجرة ومن بعدها ضجة قسم

الأشعة كله وممرات المستشفى وعنابره، حتى ان المسكين لم يجرؤ على أن يري وجهه لزملائه أو للعاملين بالمستشفى الا بعد اجازة عشرة أيام، وكان لا يزال وجهه محمرا بالخجل حين عاد منها.

ولابد أنها هى الأخرى سمعت عن عبد الرءوف وعن انكبابه المجنون على العمل، ذلك الذى كان له تفسير واحد عند الممرضات والحكيمات والسستـرات: انه متكبر، وانه وهو طبيب الامتياز المفعوص يتخلق بأخلاق الجراحين الكبار، وبالذات يصنع كما يصنع الأستاذ أدهم، ويضرب بالشلوت أحياناً.

والحقيقة أن قولهم هذا لم يكن يخلو من الصحة، فقد لاحظ عبدالرءوف على نفسه أنه كثيرا ما يعبس، وأنه لم يضبط مرة متلبسا بضحكة أو كلمة هزل مع طبيبة أو حكيمة من التى تقال همسا فى أركان المستشفى وما أكثرها من أركان ! واذا كان قد تعلم أن يعبس بوعى فما أكثر ما نضح اليه من خصال الأستاذ أدهم بغير وعى منه، ودون أن يخلط أصبح يبدأ الجمل من نهايتها كما يفعل أستاذه، وتخرج كلماته الأولى همهمات صعبة التمييز، وبنفس طريقة أدهم يترك محدثه يتكلم ثم يفاجئه فى منتصف كلامه بتحديقة فاحصة مخترقة من عينيه الواسعتين بحيث يرتج دائماً على المتحدث أو ينهار لو كان يكذب، حتى لازمة أدهم المعروفة: يا أسطى! أصبحت لازمته.

والغريب أنه قد بدأ يتكون له بهذه التصرفات نفسها - ومهما قيل في أصلها - مركز متميز بين زملائه أطباء الامتياز، وأوامره أصبحت تقابل باحترام لا يمت بصلة إلى هز الأكتاف الذى تقابل به أوامر الآخرين التى كثيرا ما تأخذ شكل الرجاء ولكن السبب الأهم فى الحقيقة هو تفانيه فى العمل فى وسط يعتبر فيه العمل واجبا ثقيلاً مفروضا ولا هدف منه سوى الماهية، ولما دامت مضمونة فما الداعى لوجع الرأس.

وكان يومه الأكبر - حلمه الدائم طوال أيام الأسبوع - هو يوم العمليات.

كان يصحو له من الرابعة صباحا، ويحس بالسعادة الكبرى بكل عمل يقوم به لتجهيز المرضى للدخول الى الغرفة المقدسة، ولا يكتفى بواجبات الطبيب انما بنفسه يشرف على استحمام المرضى وعلى إزالة شعورهم وعلى تجهيز أوراقهم وأشعاتهم.. ويكفيه شبح ابتسامة رضاء سريعة تلوح على وجه الأستاذ . كانت الانفعالة التى تحدث له فى أعقاب هذه المكافأة التى ربما لا يلحظها أحد أروع عنده من كل الشهادات والوظائف والعلاوات.

وكان اليوم يوم العمليات، وناهيك عن العمليات الصغيرة التى ستكون من نصيبه ونصيب زملائه والتى سيقوم بها النائب والمدرس ومساعد الأستاذ همه كله كان موجها لتلك الحالة النادرة التى جاءت الى العيادة الخارجية منذ شهرين وأبدى الأستاذ اهتماماً خاصا بها، فلقد

زاول – الأستاذ – الجراحة حتى أصبحت العيادة الخاصة تدر عليه دخلا يكفيه مستمتعا مدى الحياة ، ولم يكن يأتى الى المستشفى الحكومى الكبير الا ليلتقط بين الحين والحين حالة تشبع مزاجه الخاص كجراح أصبح لا يزاول الجراحة لشفاء الآخرين بقدر ما أصبح يزاولها لفن الجراحة نفسه، ليضيف الى أمجاده فيها مجدا جديدا، ويصل إلى أرقام قياسية لعدد ما أجراه من عمليات وحبذا لو استطاع أن يجرى هنا فى مصر عملية لم يسبقه اليها جراح أخر ، ويتيه بعرض ما قام فى المؤتمرات ، ويتلذذ وهو يقرؤها منشورة فى مجلات الجراحة فى أوروبا وأمريكا ولا أحد باستطاعته أن يستغرب هذا أو يلومه.. فقد وصل إلى مكانة أصبح فيها هو الجراحة، وما يقوم به ليس مجرد تطبيق وإنما هو تجارب يضيف بها الى العلم وإلى تراث البشر، ولا ضرر أن يفعل هذا لمجد ذاتى يناله، فما من فائدة للعلم أو للبشر الا والدافع اليها متعة ذاتية.

هذه السيدة بالذات جاءت الى العيادة بشكوى بسيطة : مجرد خلل فى ساقيها واحساس بالتعب السريع اذا مشت طويلا.

ويومها أزاح الأستاذ أدهم النائب وهو يقوم بفحصها، وفى دقائق كان قد انتهى من فحصها، وكعادته نطق بالتشخيص: ورم خبيث فى العمود الفقرى.. وعلى وجه الدقة سرطان فى الغضروف مكانه بين

الفقرتين الرابعة والخامسة للبطن . كان من رأيه أن الاعتماد على الفحوص ، والمعمل فى التشخيص مسألة تحيل الجراح الى آلة حاسبة، أما الجراح الحقيقى فهو الذى بمجرد الفحص يشخص، واذا لجأ الى المعمل أوالأشعة فإنما ليتأكد فقط من تشخيصه وليكتسب الثقة بنفسه أكثر وأكثر.

وهكذا أدخلت الحالة ليس لعلاجها أساسا، وإنما لإجراء الفحوص وليثبت بها الأستاذ أدهم لنفسه ولمجموعة الأطباء التى تعمل معه أنه كان على حق وأن رأيه أبدا لا يخيب.

ولم تكن هذه أول حالة تدخل القسم لهذا السبب، فما أكثرها من حالات لا يستعجب أحد لإدخالها لمجرد البرهنة على صحة التشخيص! فالأستاذ أدهم لا يفعل فى الحقيقة إلا أنه يزاول حق التميز.. ذلك الحق الذى يحلم جميع العاملين معه - جميع الطلبة والخريجين - بالوصول اليه.

ومكثت السيدة بالقسم شهرين وأجريت لها عشرات الاختبارات والتحليلات وصور الأشعة، ومع هذا ظل الورم الصغير الذى بالكاد تلمسه الأصابع فى قاع بطنها لغزا لا حل له ولم تكن قد بقيت الا وسيلة واحدة لحل اللغز، أن تجرى لها عملية استكشاف فيفتح البطن ويفحص الورم ويصل الأستاذ فى أمره الى قرار.

- ٤ -

في العاشرة كانت كل العمليات الصغرى قد انتهت، وفي ثوان كان المسرح الجراحي قد نظف تماما وأعيد ترتيبه، وجئ بالسيدة مخدر وحملت ووضعت فوق منضدة العمليات الرئيسية وسلطت على بطنها العاري أنوار الكشافات القوية، والكل في موقعه مستعد للبدء، بينما «سستر العمليات» الايطالية تراجع للمرة الثالثة كالتلميذة قبل الامتحان كل ما تتطلبه العملية من أدوات، وكان الأستاذ يغتسل ويتعقم.

في العاشرة وعشر دقائق كان رأس المشرط ينغرز قريبا من «السرة» محددا نقطة البداية، ثم في خط مواز لمنتصف البطن تسحبه اليد الشهيرة التي أصبحت جزءا من تاريخ الجراحة في مصر سحبتها السحرية، وفي ومضة ينقض المساعدون بالملاقط يغلقون بها كل الأوعية الدموية الصغيرة التي تقطعت وبلا زمن يربطونها بالخيط الخاص، والجرح قد أصبح نظيفا بلا نقطة دم يكشف عن دهن ما تحت الجلد.

ولابد أن لحظة رضاء قد مرت بالأستاذ وهو يستمتع بقيادته لهؤلاء الناس، فهو لم يعد بحاجة أن ينطق بكلمة، فقد تعلموا تماما أن يفهموه.. حتى والفكرة أو الأمر لا يزالان مشروعين في رأسه كانوا يستطيعون التقاطهما والشروع في تنفيذهما.

حتى ارتدادة عينه من فوق القناع الى طبيب التخدير ترمقه في هذه اللحظة بالذات، يفهمها الطبيب في الحال، ويمد يده الى مفتاح الغاز في جهاز التخدير، وترتخي عضلات السيدة تنفيذا للأمر الذي تلقاه بنظرة العين،

العاشرة والنصف:

لابد أن يده الآن تلمس الورم، ولابد أنها بحركتها طولا وعرضا تتحسسه وتحدد حجمه وامتداده، ولقد ظل مساعدوه الأربعة = وعبدالرءوف لسعادته الكبرى ودونا عن بقية زملائه يقوم بدور المساعد الرابع = يكادون يكتمون الأنفاس استعدادا لكلمته التي سيصدر بها حكمه على الورم، وحين أفلتت شفتاه كلمة: غريبة! لم يجرؤ أحدهم حتى أن يسأل،

وقبل أن يطلب الملقاط القاطع الذي يستخدم لأخذ العينات الحية، كانت يد السستر تضعه في يده المفتوحة وحين تم أخذ العينة كان على عبدالرءوف أن يطير بها إلى قسم «معمل الأمراض» لتفحص بالميكروسكوب ويصل الأخصائي إلى قرار بشأنها وحينذاك فقط عرف الجميع أن الأستاذ لم يصل بعد إلى معرفة كنه الورم،

وكالعادة لم يجد عبدالرءوف الأخصائي في مكتبه .. كان قد ذهب إلى الإدارة لأمر لعله المطالبة بتسوية حالته وكان عبدالرءوف يستغيث رجاء في التليفون ولم يصل إلا بعد ربع ساعة، وأخذت عملية إعداد

الشريحة وإعداد الميكروسكوب والصباغة وضبط النور ربع ساعة أخرى حتما ستطير رقبته وبالذات حين قرأ في النهاية التقرير الذى كتبه الأخصائى بخط لا يقرأ وأدرك معه أنه لا يستطيع الجزم إن كان الورم نابعا من العظم أو الغضروف أو أى نسيج آخر، وكذلك من الصعب تحديد إن كانت الخلايا خبيثة أو حميدة.. كارثة !

وظن أن خللا قد حدث فى نظام الكون حين لم يقابل بكلمة لوم واحدة والوجوم الشديد موجود ولا شئ سواه، فقط حين أمسك بالورقة قريبا من عينى الأستاذ وقرأ الأخير التقرير وتفجر بركان الغضب وانهالت الشتائم بادئة بالمعيدين أجمعين، مارة بالجامعة والكلية وخراب الذمم والفساد والملعون الأخصائى . أما هو عبدالرءوف فقد نالته لكزة غليظة من كوع الأستاذ.

وكان الغضب قد تسرب إلى الحاضرين جميعا، وإلى الحجرة كلها بكل ما تحتويه يكاد جوها يرعد ويبرق والتوتر وصل إلى أقصى مداه ولم يكن أحد يستطيع فى وسط هذا كله أن ينطق بكلمة أو يشير برأى، وإنما التصرف كله والرأى والحل لا بد أن ينطق به الأستاذ حتى وهو فى هذه الحالة.. فهو لا يزال الإرادة العليا وعليه كان المفروض أن تؤخذ عدة عينات أخرى ثم يغلق جرح البطن وتكون عملية الاستكشاف قد تمت بنجاح، فما دمت لا تعرف كنه الورم فمن غير المعقول أن تعبث به أو تمد يدك لاستئصاله مثلا.

ولكنهم – حتى قبل أن يصدر أوامره – كانوا يعرفون أن من المحال أن ينكص وأن يكتفى من الغنيمة بقفل الجرح وهكذا حين كظم غيظه لحظة ومن بين شفتيه المطبقتين صدرت الغمغمة المعتادة تقول:

– ايه رأيكم ؟ الفتحة واتفحت، والورم مش كبير وشيله مسألة سهلة.

لم ينطق أحد كالعادة ولا هو انتظر أن ينطق أحد.. واصل كلامه بحماس مفاجئ :

– شوف النبض كام ؟ وضغط الدم؟ والتنفس؟ .. ممكن بنج ساعة كمان؟ جهزوا نقل الدم وعقموا الآلات الزيادة.. بسرعة.

بأسرع سرعة تفرق الجمع الملتف حول المريضة الراقدة بلا حول ، وتلاحقت سلسلة الأوامر تبعثرهم فى كل اتجاه، بينما باشمئناط خلع الأستاذ أدهم قفازه وطلب سجائره وولاعته وانتحى ركنا قريبا من غرفة الاغتسال، ومضى فى حجرة العمليات يدخن، والسستر الطليانية ترقبه بغضب لا يراه.

وفى هرج ومرج عقمت الآلات بسرعة وبطريقة بدائية بأن صبوا عليها الكحول وأشعلوا النار، وجلبت أسطوانة أوكسچين لم يتمكن أحد من فتحها فدفعها الأستاذ بساقه دفعة أسقطتها وأحدث سقوطها دويا كالقنبلة.. وجئ بأخرى . أما الدم فقد اكتشفوا أن فصيلة دمها لم تحدد بعد، وكان على طبيب نقل الدم أن يحضر معه زجاجات من كل

مجموعة.. وأخيرا ركبت الزجاجة في الحامل، ولكن قبل أن تتسرب منها نقطة واحدة إلى وريد المريضة كان الأستاذ أدهم قد عيل صبره، وكان قد أمسك بالملقط والمشرط بينما مساعدوه الثلاثة = وقد أخرج منهم عبدالرءوف = يفتحون له الجرح ويزيحون أعضاء البطن ومصارينه بالمزيحات المعدنية، كاشفين الورم بقدر ما يستطيعون.

كانت العملية الكبرى، عملية الاستئصال قد بدأت.

وعلى مجال رؤية تقريبي بدأ الأستاذ يستأصل الجزء الأعلى من الورم، وبالمشرط والملقط يفصله عن العمود الفقري من الخلف والغشاء البريتوني والكلية والطحال من أمام، وبدا أن كل شئ رغم كل ما حدث يسير على ما يرام، والصمت يخيم والرقاب مشرئبة علها تلمح الورم أو تستطيع بطريقة ما أن تلقي نظرة على البقعة التي يعمل فيها المشرط والملقط.

وفجأة تفجر من فتحة البطن عمود دموي حاد، وارتطم الدم المنبثق بزجاج المصباح الكشاف.. عمود مفاجئ غير متوقع أبدا شحبت له الوجوه جميعاً فهو يعني أن شريانا قد انقطع، وفي تلك المنطقة التي كانت تدور فيها عملية التشريح لم يكن ثمة شريان آخر غير أضخم شرايين الجسم.. الأورطي . أتكون قد حدثت الكارثة، كارثة أبشع من قطع شريان الرقبة، أيكون الأورطي قد قطع؟

- ٥ -

حين أوغل بعد الظهر فى تقدمه ، وراقب قفزات عقرب الدقائق حتى ملها وأصبحت الساعة تقترب من الخامسة وقد مضت أكثر من ساعتين على العملية الكبرى ، بدلا من الغيظ انتابته فجأة موجة استخفاف . أحس بلا مقدمات أن القداسة تذهب عن كل شيء فى محرابه المقدس ، وأن حجرة العمليات تتعرى عن ذلك الغموض المفعم الساحر الذى كان يصبغ كل شيء فيها ، بل وزحف استخفافه ليشمل ذلك الشيء السخيف تماما .. المضحك جدا .. الموت .. الذى ربما يبدو مأساويا رهيبا حين نسمعه كخبر ابن لحظته ، وندرك فى ومضة أن فلانا الحى قد مات وانتهى . أما حين يصبح الموت حدثا يدور أمامك ، ويمثله وتنتظر أن ينتهى فلا تبدو له نهاية ، حين يصبح لحظة تتكرر ودائمة التكرر ، تذهب رهبته تماما وتصبح شيئا كالحياة التى لا معنى لها ، وأقصى ما تشعر به حينذاك أن تحس بالملل . ولابد أن ذلك الملل هو الذى دفعه للاستخفاف ، ليدفعه الاستخفاف أن يقرر - رغم أى اعتبار آخر - أن يحادث «انشراح» .

- سمعت آخر نكتة ؟

توقفت أصابعها المكوكية وحدقت تجاه عبد الرءوف وجحظت عيناها قليلا ، ثم حين رأته يعنى ما يقول جحظت عيناها أكثر .

- سمعتيها ؟

- هي إيه يا دكتور ؟

عجيب صوتها ، أول مرة يسمعه وان كان كثيرا ما سمع عنه ، هادىء ومؤدب .. أم هو تمثيل وتأدب ؟

- النكتة .. آخر نكتة .

حركت تحديقها في وجهه ورمقت السيدة المسجاة ، ثم أرخت عينيها وقالت بصوت منخفض :

- حرام يا دكتور ! حرام ! ده وقت نكت ؟

- أمال وقت تريكو ؟

وأغمق وجهها القمحي الشاب خجلا ، وكفت أصابعها عن الحركة في الحال ، وجمعت الكرة والنسيج والابر في يد أسقطتها بجانبها ، ثم بعد ثبات في مكانها برهة انسلت قائمة متحركة ببطء ناحية النافذة العريضة ذات الزجاج المصنفر ، وفتحت ضلفة منها وأطلت برأسها ، ثم ما لبثت أن ارتكزت بذقنها على يدها . اعتقد أنها تفعل هذا خجلا في حين أنها - كما أخبرته بعد هذا - كانت تحاول أن تكتم عنه نوبة الضحك الشديدة التي انتابتها .

ولكنه لحظتها ، وبوقوفها ومشيتها وارتكازها ، تحول انتباهه الى الشيء الوحيد الذي غاب عن عينيه طوال الوقت : انشراح الأنثى . الآن

وجهها مختف وجسدها الخلفى بكامله أمام عينيه . ويمثل ما يرى الانسان أول ما يرى وجه المرأة من أمام ، تسقط عيناه أول ما تسقط حين يــراها من الخلف على ساقيها .. وجهها الخلقى . وجه نادر الجمال .. نادر أن تلتف الساق بلا ترهل أو نحافة ، وتتسق مع الوسط والأرادف والكتفين .

كيف استطاعت حوارى شبرا المختلفة بازدحامها أن تنبت هذا الجسد السمهرى المتسق الفارع ؟

أيكون تنمرها وتوحشها علامات أنوثة يسىء الرجال فهمها ؟

وأى طراز من الرجال يا ترى تفضل ؟ مهما كان طرازها فبالتأكيد لا يمكن أن ترى مثله فى الشاب النحيف الطويل ذى الشعر الأصفر والعينين الملونتين الذى – وان كان يعجب أغلب البنات والسيدات – ولكنها هى بالتأكيد مختلفة ، ومزاجها مختلف.

أيحاول بلا مقدمات أن يجس النبض ؟

أم يحترم نفسه كما ظل يحترمها ويقنع بالسكوت ؟

– ٦ –

الدم المندفع المفاجىء معناه غلطة .. وغلطة لا يرتكبها طبيب امتياز أو حتى طالب طب ، فكيف ومرتكبها هو كبير أساتذة الجراحة ؟ كان واضحا أن هناك سرا وأن شيئا غير عادى لابد يحدث . ولأنها ليست

على ما يبدو غلطة ، ولأنه حقا كبير أساتذة الجراحة ، فلم يستغرق الانفجار سوى ومضة ، إذ فى ومضة كانت يده قد امتدت وانتزعت قطعة كبيرة من الشاش المطبق ، وبدقة شديدة كتم بها مصدر الانفجار وكف الدم عن التسرب تماما .

وصحيح أنه لم يقل فى لحظتها السبب ، ولا أحد استطاع التخمين ، ولكن لم يكن من الممكن أن يستمر الغموض طويلا ، فقد اتضح أن الورم قد أحاط بالأورطى وابتلعه داخله ، وأنه فى محاولته فصل الورم جرح الأورطى .

والتفت اليهم بعد لحظة هدوء ، وقد عادت شخصية الأستاذ الكبير تسيطر :

- الجراح الناجح هو اللى ماتهزوش أى مفاجأة تحصل حتى لو انجرح الأورطى . الجراحة أعصاب ، واللى ما عندوش أعصاب يدور له على شغلة تانية يا أسطوات . المسألة حلها بسيط زى ما شفتم .. وقفنا النزيف ، بعد كده نخيط الجرح .

ولرأب الجرح الذى حدث للوعاء الدموى الكبير فلابد من احاطته بغرز يضمها خيط واحد تجذب طرفيه وتعقده فتنغلق الفتحة كما تنغلق فتحة كيس النقود .

ولقد تولى الأستاذ المساعد مهمة كتم الجرح ريثما ينتهى الأستاذ من احاطته بالغرز بابر خاصة ، وبخيط خاص ، ولكنه ما كاد يجذب

طرفى الخيط ليعاق الفتحة حتى تفتت الجدار من حول الجرح وتفجر الدم فى نافورة غزيرة مروعة . هذه المرة كانت قد اتضحت الحقيقة المرة .. جدار الأورطى قد تهرأ حين ابتلعه الورم ولم يعد يحتمل غرزة ، ولقد حاول ربطه كلية واذا به ينقطع تماما ويتفجر بحر من الدماء اندفع هذه المرة فى كل اتجاه يغرق أنحاء الغرفة ويلطخ الوجوه ويملأ العيون ويعمى لابسى النظارات ويحيل الاقنعة البيضاء الى حمراء قانية ، دم كثير وكأن عشرة رجال ينزفون معا ، تعجب كيف أن مصدره الوحيد هو هذه السيدة النحيلة الغائبة عن الوعى .

وكما أصاب الدم الموجود فسوى بين ملامحها تكفلت الفوضى والارتباك بإحالة الحجرة الى مكان انتهى منه النظام تماما .. ملىء بالصرخات العصبية والتخبط والجرى فى كل اتجاه والتعثر فى كل خطوة ، تلمع الكلمات كالشهب بلا صدى .. نقل الدم ، رباط ضاغط ، ضاغط ، يا ابن الكلب ، يابهايم ، امسحوا الدم اللى فى عينى ، يافجر آمسحوا الدم .

وامتدت كل يد تستطيع الامتداد الى بطن المريضة وليذهب التعقيم الى الجحيم . واخيرا وبلفة قطن بالغة الضخامة وتحت ضغط ثمانى أيد أمكن سد فيضان البحر المكتسح سدا مؤقتا ، فالنزيف كان لا يزال مستمرا وبمعدل أسرع من زجاجات نقل الدم الاربع المفتوحة صماماتها

الى آخرها ، والجميع وقد أطار عقولهم ما حدث لا يرجون الا فرصة واحدة - ثانية - لالتقاط الأنفاس .

وحين جاءت الفرصة وأحكم الضغط على الأورطى تماما بحيث كفت الدماء عن التسرب ، كان الخاطر الذى هبط بثقله على الجميع هو أن السيدة قد حكم عليها - هكذا - بالموت ، وأن العملية التى بدأت لعبة واستكشافا قد انقلبت الى مأساة ، وأن لاحل .

- أظن ما فيش فايدة .

قالها الأستاذ المساعد باستسلام .

والمفاجأة كانت حين ارتفع صوت الأستاذ :

- ما فيش فايدة ازاى ؟ الكلام ده يحصل مع واحد تانى غير أدهم شفيق . مش أدهم شفيق اللى تموت منه عمليـــة .. الأورطـــى انقطع حانشيله كله ونشيل الورم كمان ونحط بداله وصلة من شريان الفخذ . اطلبوا كل الدم اللى فى المستشفى وهاتوا اللى فى الاسعاف السريع كمان . «تيريزا» ابر خياطة الشرايين وحرير ثلاثة زيرو وشغلوا الشفاط وامسحوا الدم ده كله .. ولا نقطة أشوفها .

كانت أوامر كهذه تهبط عليهم دائما وكأنها أوامر السماء ! تفكيرهم الوحيد هو كيف ينفذونها وبأكمل وجه كأنه كان يخاطب خشبا مسندة هذه المرة . صحيح أنهم تفرقوا يجهزون ما أمر به ولكنهم كانوا كأنهم فقدوا الايمان بما يقول .

ولقد تم كل شيء كما أراد ، وربط الأورطى بعيدا عن أجزائه المتهرئة ، واستؤصل الباقى مع الورم ، وامتد الجرح الى الفخذ واقتطعت من شريانه أوسع قطعة وصل بها الأورطى ، ودار كل هذا ولا أحد يكاد يصدق أنه يدور فكأنه يحدث فى منطقة وراء العقل أو انقلبت الحجرة بهم الى فندق تحول فيه الواقع الى كابوس والاشخاص والأشياء الى رموز ، والجو ملبد مشحون .

وكان الجميع - وربما بمن فيهم الاستاذ نفسه - يتوقعون أن تنتهى السيدة قبل أن تنتهى العملية ، ولكن أغرب شيء أنها رغم كل ما نزفت وضاع من الدماء ، رغم ضغط دمها الذى كان كالبندول يتأرجح ويقترب عشرات المرات من منطقة العدم ، والقلب الذى كان ينبض ثم يكاد يكف ليعود ينبض ، رغم كل هذا لم تمت مع ادراكهم جميعا والعلم معهم أنها لابد أن تموت ، الا أنها - وكأنما سخرية بهم - لم تمت . ولعل هذا هو الذى شجع الأستاذ فى الثالثة ، وبعد العملية التى استغرقت خمس ساعات طوال أن يقول :

- اللى على عملته ، وما كانش يخرج من ايد أى جراح فى العالم انه يعمل أكثر م اللى عملته . انما حنعمل ايه بقى لوزارة الصحة ؟ .

فالمستشفى فى رأيه خال من الخيوط الحريرية ذات السمك المضبوط . والابر أصغر مما يجب ، وغرفة العمليات ليست بها أجهزة

تكييف هواء تساعد على هدوء الأعصاب .

= واهو كده أو كده كان الورم هايموتها ، يبقى العلم اللى كسب لمصر كسبت عملية عمرها ما اتعملت ، وعملية ناجحة قدامكم أهه ، والست لسه عايشة أهه ، ولو كانت الابر مضبوطة والخيط مضبوط كانت تعيش عشرين سنة كمان .. انما حظها كده .

***

والحقيقة أن لا الابر ولا الخيط ولا أجهزة التكييف هى السبب . والسيدة ما زالت لم تمت = هذا صحيح = ولكن الدم يتسرب من مكان الوصلة وبكميات ضخمة ، فليس هكذا توصل الشرايين بالشرايين ، فالطريقة خاطئة والفكرة من أولها خاطئة . والخطأ ممتد وبادىء من اللحظة التى قرر فيها أن يحيل عملية الاستكشاف الى عملية استئصال كبرى ، بل الخطأ - هكذا يدرك عبد الرءوف الآن - يمتد الى أبعد ، الى ذلك اليوم الذى أصبحت الجراحة عند أستاذه تزاول من أجل الجراحة ، وأصبحت العمليات وأصحابها وهم غالبا من الفقراء الذين بلا حول ، ميدانا لاثبات القدرة والأستاذية .

- ٧ -

الشىء الذى لم يعمل له حسابا قط هو الذى يحتل عقله الآن تماما . ليست هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها ميتا يحتضر أو يسمع ذلك

الشخير المتصل .. ولكنها الأولى التي يعايش الموت فيها ليس معايشة متفرج ، ولكنها معايشة متأمل مترقب ليرى متى وكيف تكون النهاية ، أو بالأصح نهاية النهاية ؟ وكلما تأمل وترقب وانتظر أحس أنه يغوص أكثر وأكثر في التجربة ، حتى بدا وكأنه هو نفسه يعاني نزعات الموت . ولكن حب الاستطلاع يعود يجذبه ويعود يعيش المشهد بكل خلجاته ليرى كيف بالضبط يموت الناس . وإذا كان المشاهد في المسرح أو السينما وهو يعرف أن ما يراه خيال في خيال ينتفض انفعالا في انتظار النهاية فما بالك والمشهد هنا حقيقي والموت فيه حقيقي ؟ واسم النهاية معروف ، ولكن طريقة حدوثها شيء لا يمكن أن يعرف أحد كيف تحدث . أنت هنا لا تضطرب بين اليأس والأمل ! إنك تحفر بتفكيرك وترقبك في أعمال اليأس لتصل الى منتهاه ، وكأنك تتوقع أن تموت هذه السيدة الطيبة التي أسلمتهم نفسها بثقة فيهم وفي علمهم ما بعدها ثقة بطريقة لم يسبقها اليها أحد ، ما دامت قد اجتازت هذه العملية الكبرى وعاشت بعدها وبطريقة لم يسبقها اليها أحد .

ولم يدرك أنه الآخر قد بدأت تنهد فيه أشياء وتموت مثل الجسد الواهي المسجي أمامه الا متأخرا . هذا الشهيق المتباعد يبدأ ببطء ويصل الى منتهاه ببطء ليندفع بعده الزفير فجأة مرة واحدة . هذا التنفس الغريب الذي يسبق الوفاة والذي طال أمده وامتد وانتظم حتى

أصبح كالنبض ، وانقلب من دليل مؤكد على الموت القادم الى نبض منتظم .. ليس نبض الحياة وانما نبض الموت ودقاته ، تهوى كل نبضة منه كالمطرقة الخرافية البشعة تهد وتسحق الجسد غير الواعى . ولكن الأهم أنها أصبحت تهوى عليه نفسه ، وعلى مراكز الحياة فيه فتتهدم وتهوى وتتساقط حتى أصبح وكأنما كلما أمعن فى انتظار لحظة النهاية اقشعر بدنه ، مخافة أن تأتى معها بنهايته هو الآخر .

وكالفأر الذى أطبقت عليه المصيدة مضى بكل ما يملك من قدرة على الهرب يستنجد بالخيال .. وبأحداث اليوم .. و «بانشراح» وجسدها الفائر . ولكن الذكريات والخيالات وحتى الحقائق نفسها كانت تهرب منه وتفر من حضرة أخلد حقيقة عرفها الانسان - الموت - أقوى الحقائق كلها ، الأقوى حتى من حقيقة أنك حى .

وكالاستغاثة الأخيرة ترك مقعده واتجه الى حيث تجلس «انشراح» ووضع يده على كتفها ، ليجد أن جسدها هو الآخر يرتعش وكأنها هى الأخرى قد بدأت تحتضر .

ضمها عساها أن تكف عن الارتجاف فاذا به يبدأ هو الآخر يرتعش ، ويمد يده يتناول يدها فاذا بها باردة .. ميتة بغير شك ، برودتها أبدا ليست من صنع الجسد وانما هى وافدة من مكان بعيد سحيق ، نفس المكان الذى يقبل منه الموت ! تضغط على يده ، وبكلتا

بديه يعتصر يدها ، وتنتقل برودتها اليه وبرودته اليها .. فالسيدة كان رأسها قد بدأ يتململ ، وشخيرها يضطرب ، وأجفانها - مرة واحدة - تفتحت الى آخرها وبرزت من خلفها عينان واسعتان محدقتان بلا نظرات . كان واضحا أن شيئا مهولا يقترب ، إما النهاية التى انتظراها حتى أوغل الليل فى تقدمه ، وإما المعجزة .. وكلتاهما مرعبة مخيفة . فالموت حولهما وفى كل مكان ، وهو لا يمكن أن يتراجع ! فاذا لم تمت هى فلا بد أن سيكون الموت من نصيبهما .

الموت الكثيف الذى تضبب له جو الحجرة وثقل هواؤها وأصبح النور كالخيوط المنعزلة المخنوقة ..

ماذا بالضبط بدأ وفى قوة عارمة يتدفق فى جسديهما ؟ .. أبداً ليس خاطرا ، ولا انفعالا ، ولا احساسا ولده الخارج أو اندفع من الداخل . وحتى ليس دفقة الحياة الأخيرة حين ينتاب الانسان ذلك النوع الوحيد من الرعب الذى لا يحسه المرء الا مرة واحدة فى عمره ، الرعب من الموت الذى يصل الى درجة أن يميت هو اذا غاب الموت أو اختفى سببه .

ليس جنونا أيضا أو فقدان سيطرة .

الحقيقة ليس شيئا أبدا قابلا للإخضاع والمناقشة والتفسير .

والعجيب أنه كان يحدث لهما معا وفى نفس اللحظة ، كالآلتين تعزفان نفس النغمة ، أو كأنهما أصبحا جسدا واحدا وكائنا متكاملا .

اشتد التصاقهما حتى وقفا ، وتراجعا الى حافة المنضدة حيث التريا ، وتفتحت أذرع أربع لتضم الجسدين .

وكأنما هو مسوق بها وهي مسوقة به وكلاهما مسوق بقوة أكبر ، دفعا معا «الترولي» المجهز لتحمل عليه السيدة بعد وفاتها ووضعاه حتى أصبح امتدادا للمنضدة العمليات ، وبدا ألا قوة على سطح الارض تستطيع منعهما ، ومعا خلعا ملابسهما ، وبمساعدته صعدت فوق «الترولي» وصعد هو الآخر ، والسيدة كفت عن التلفت والتحديق واستقرت عيناها - لا تزالان متسعتين أيضا وبلا نظرات - على الجسدين العاريين تماما أمامها .

وغير مهم إن كانت ترى أو لا ترى .. المهم أنها استمرت تحدق حتى حين عاد اليها نبض الموت وعادت تتنفس شخيرا متقطعا غير منتظم ، والتهب جسده وأحس بها بين ذراعيه تلتهب وكأنهما محمومان ، وضمها بشدة ، واستماتت هي متعلقة به وكأنما بألف ساق وذراع .

ومضى هو يرد على تحديق العينين المثبتتين عليهما بتحديق كأنما يدفع به الموت المنصب من عينيها ، وبتحديق هاتف يقول له للموت : لا .. الى اللحظة التي بدا فيها وكأن نبض الحياة قد اتحد بنبض الموت ، وأصبح الكائنات الموجودة بالحجرة - ميتة وحية ومترددة بين الموت

والحياة – نبض واحد متسق لا نشاز فيه . وقبل أن يفقد وعيه بوجودها أحس أن السيدة لا بد قد استردت وعيها للحظة ، فقد بدا من نظراتها أنها ، لأول مرة تراهما رأى العين وتدرك تماما ما يدور .. وأنها ما كادت تسترد الوعي حتى انتهى ، ولكن اللحظة كانت كافية لتصنع ملامحها شيئا كالابتسامة .. ابتسامة مندهشة قليلا كابتسامة طفل تتفتح عيناه لأول مرة على الحياة فيدهشه ما يرى .

وما كاد يستعيد الوعي ويعود يحدق في السيدة حتى وجد أن كل شيء لا يزال كما تركه ، وابتسامة الدهشة القليلة لا تزال قائمة وموجودة ، والعينان أيضا مفتوحتان على آخرهما بأوسع اتساع . شيء واحد فقط هو الذى غاب .. نبض الموت ، اذ قد انتهى التشخير والشهيق والزفير والتنفس .



وكأنه أيضا للحظة قد توحد كل شيء ، واشتبكت اغماءة النهاية باغماءة البداية ، أول البداية ونهاية النهاية .. لحظة خروج الحى من الميت والميت من الحى ، لحظة كأنما أبت السيدة الطيبة الا أن تحتشد وبآخر ما تملك تسجل بشبكتيها للمشهد صورة .. صورة تبقى في عينيها وتخلد الى الأبد .

الفهرس

١ -نهايات وبدايات - جدل الفرد والجماعة ٥

٢ - عن المرأة والجنس ، فى القرية والمدينة ٢٧

٣ - عن الواقع وتحولاته : من واقع ماقبل ٥٢ إلى واقع

مابعد ٦٧ .... ٥٧

نماذج مختارة ١٥٢

فى الليل ١٥٣

حادثة شرف ١٧٣

صاحب مصر ٢٠٥

الجرح ٢٤١

العملية الكبرى ٢٧٧

روايات الهلال تقدم

البشمولى

بقلم

سلوى بكر

تصدر ١٥ أغسطس ١٩٩٨

كتاب الهلال يقدم

سعد زغلول مفاوضاً

بقلم

طارق البشرى

يصدر ٥ سبتمبر ١٩٩٨

رقم الايداع : ١٠٠٦٨ / ١٩٩٨

I. S. B . N

977 - 07 -0601- 9

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٥ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس 92703 Hilal.V.N

- هذا الكتاب -

يوسف إدريس (مايو ١٩٢٧ - أغسطس ١٩٩١) هو كاتب القصة القصيرة بامتياز . وإنجازه الحقيقي الباقي هو فى هذا الشكل الفنى دون سواه . نشر قصته الأولى «أنشودة الغرباء» فى ١٩٥٠ ، والأخيرة «أبو الرجال» فى ١٩٨٧ ، وفيما بين هذين التاريخين أصدر ثلاث عشرة مجموعة قصصية ، فرضت ظله الفارع على القصة القصيرة ، لا فى مصر وحدها ، بل فى كل أرجاء الوطن العربى .

تحالفت شروط موضوعية وذاتية كي تجعل منه أستاذ القصة القصيرة . كان يرى أن القصص التى تنشر - حين بدأ الكتابة - ليست سوى اقتباسات يقوم بها هواة عن مادة أدب أجنبى ، أو بتعبيره هو : «إن الشخصيات وطريقة القص وموضوع القصة كانت كلها مختلفة عن الحياة الواقعية اختلافا كاملا» ، وأخذ يوسف على عاتقه - هو الطموح الذى لا يقف فى وجه طموحه شئ أو أحد - مهمة ثقيلة هى أن يقدم «القصة المصرية الخالصة» .

حفلت قصص يوسف أدريس بحشد هائل من الأبطال الذين دخلوا إلى التعبير الأدبى فى القصة المصرية للمرة الأولى : حشد هائل من الفلاحين الفقراء والعاملين العاطلين والعاملين الهامشيين وعمال التراحيل والموظفين الصغار وشيوخ القرى وأبناء الليل ومالكى الفدان أو أقل والذين لا يملكون سوى عافيتهم وفئوسهم ، مرضى الأجساد والعقول فى البيوت الطينية أو على أسرة المستشفيات . أطفال وصبية ومراهقين فى المدارس والحقول وأماكن العمل وشوارع المدينة ، نساء فى البيوت ونساء بلا بيوت ، مساجين وعسكر داخل الأسوار العالية التى تعزل الجميع عن الحياة فيقيمون لأنفسهم حياة بديلة . وفى أعماله الأخيرة أضيف لهؤلاء جميعا أبطال آخرون : أساتذة فى الجامعة وأطباء كبار ومسئولون بين أيديهم الحل والعقد .

وفى هذا الكتاب دراسة لكل قصص يوسف فى منظوماتها الثلاث الكبرى: علاقة الفرد بالجماعة ، والمرأة والجنس فى القرية والمدينة ، ثم تحولات الواقع الاجتماعى - السياسى ودلالاتها منذ ما قبل ١٩٥٢ إلى ما بعد ١٩٦٧ .

فى ذكرى رحيل يوسف إدريس ، يقدم «كتاب الهلال» هذه القراءة الموجزة، الدقيقة والنفاذة ، لقصصه القصيرة ، فنه بامتياز .

طارق البشري

سعد زغلول مفاوضا



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن
دار الهلال
الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة مكرم محمد أحمد
رئيس التحرير مصطفى نبيل
سكرتير التحرير عادل عبد الصمد

مركز الادارة
دار الهلال : ١٦ ش محمد عز العرب
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
فاكس : FAX -3625469

العدد ٥٧٣ - جماد أول - سبتمبر ١٩٩٨
NO - 573 - SEP - 1998

أسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش
سوريا١٧٠ ليرة - لبنان٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ ديناراً - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي / أبوظبى ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال

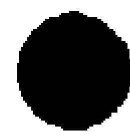
سعد زغلول مفاوضاً

(دراسة فى المفاوضات المصرية البريطانية)

١٩٢٠-١٩٢٤

بقلم

طارق البشرى



دار الهلال

الغلاف للفنان

حلمى التونى

تقـديم

(١)

من يسـألنى من أنت، أقل له أنا من أبنـاء الحركـة الوطنيـة فى مـصـر ، ومن هذا الجيل الذى تربى فى حـجـر ثورة ١٩١٩ ، ولد جيلنا بعد هذه الثورة ببضـع عشـرة سنـة فى الثـلاثينات، ولكننا أبناء من قـاموا بهذه الثـورة تربينا فى حـجورهـم، وسـمـعنا أعذب النغم في طفـولتنا عن اسـتـقـلال مـصـر . وكـانت صـورة مـصـر المستقلة فى رؤانا هى صورة المدينة الفاضلة .

ثورة ١٩١٩ قـامت لهـذا الجـيل بوظيـفـة التـربيـة، أي بناء الشـخـصيـة والوجدان السـياسى وإقامة الضـمير الوطنى ، وبلورة واحد من أهم معايير الاحتكام فى النظر إلى الوقائع والتصرفات، وهى قامت للكثيرين منا بوظيفة تعليمية فى مجال السـياسة، من تبين طريقة جريان الأحـداث السـياسـيـة وأسـاليب التصـدى لهـا وطرائق معالجة المشاكل.

هكذا كـانت ، وكل مـا يرد فى السـيـاسـة بـعـد ذلك من فكر ومواقفٌ وفهم ، وكل مايضـاف من أهداف، إنما يمثل نموا وتوسعة وتجديدا وردا لأصول وتعميقا.. إلخ . وتظل ثورة ١٩١٩ فى الوعى السياسى التاريخى لمن نشأوا فى ظلها هى «الحدث النواة» أو هـى «الخلية السياسية الأولى».

(٢)
موضع ثورة ١٩١٩

نحن من الناحية التاريخية العامة نعيش فى «عصر الاستعمار ومقاومته» على مدى مائتى سنة حتى الآن، ومازلنا لا نعرف متى ينتهى هذا «العصر». ونحن نسميه عصرا بمثل مايسمى الأوربيون عصورهم ويقسمون تاريخهم إلى «عصر النهضة ، عصر الإصلاح ، عصر التنوير».. إلخ، وهم يقصدون بذلك الوصف الغالب على أوضاع مرحلة معينة من تاريخهم . والوصف الحاكم لهذه الأوضاع من حيث أنه يشير إلى عنصر حكم كل أوضاع حياتهم وجميع شئونهم.

ولكل عصر حقب وفترات ينقسم إليها زمانه وتصطبغ بتنويعات معينة خلال المرحلة المطبوعة بالطابع العام للعصر وإذا كنا الآن ومنذ قرنين من الزمان نعيش فى عصر الاستعمار ومقاومته ، فإن ثمة حقبة من حقب هذا العصر هى حقبة «الاحتلال العسكرى المباشر»، وهى بالنسبة لمصر تشغل ما بين سنة الاحتلال البريطانى لمصر فى ١٨٨٢ إلى عام الجلاء البريطانى عن مصر فى ١٩٥٦ ، ومدتها أربع وسبعون سنة، والعجيب أن ثورة ١٩١٩ وقعت فى منتصف هذه المدة بالضبط ، بفارق سبع وثلاثين سنة

عن كل من سنة البداية وعام الانتهاء، وكانت ثورة ١٩١٩ هى الرد المصرى الشعبى على الاحتلال العسكرى الاستعمارى المباشر، وأدت إلى فروق جوهرية لصالح الشعب المصرى وحركته الوطنية المقاومة.

وباختصار شديد ، فإن الإحتلال العسكرى البريطانى ورد إلى مصر حين كانت على مستوى من التطور الداخلى والأهمية الدولية بما يصعب تجاهله، كانت بلدا عرف نظم الادارة المتطورة ونظم الزراعة والانتاج النامى على مدى خمسة وسبعين عاماً سبقت ، كما كانت بلدا عرف ثورة شعبية مصحوبة بفكر سياسى وأهداف ناضجة، وهى ذات حضارة وثقافة تليدة، ومن جهة أخرى لم تكن الأهمية الدولية لمصر مما يسمح باقتناص إحدى الدول الكبرى لها وضمها إلى سيادتها دون أن تتوقع بعض المخاطر التى تمس علاقاتها الدولية، سواء من الدولة العثمانية أو الدول الأوربية الكبرى وقتها، التى كانت تزاحم بريطانيا[1] فى أطماعها.

لذلك قام الاحتلال العسكرى البريطانى بغير سند قانونى الا ما يستمد من ان الخديو توفيق - حاكم مصر الشرعى - هو من استدعى العسكر الانجليز لحماية عرشه فى مواجهة ثورة عرابى . فسند الاحتلال العسكرى سند مصرى، والاحتلال خاضع ظاهريا

للسلطة الشـرعيـة القـائمـة على رأس الادارة المصـرية. ولكن فى الوقت ذاته فإن سلطة الخديو الشـرعيـة لم تعـد تجـد قـوة مـادية تحمى بقاءها إلا جيش الاحـتلال البـريطانى هذا، فتـلازم الاثنان كالمقعد والكفيف لاينفك احتياج أحدهما للآخر.

ومن هنا قام ما عرف في السياسـة المصرية وقتـها «بالسلطة الشـرعيـة» وعلى رأسـهـا خـديو مـصـر ومن تحـتـه جـهـاز الادارة المصـرية بوزارته ومصـالحـه وهيـئاته المركـزية والمحلية، و«السلطة الفـعلية» وهـى قوة الاحتلال العسكرى البريطانى الوافد إلى مصـر والمقيم فـيـهـا. وهذه السلطـة الفـعليـة يعـبر عن إرادتها السـيـاسـيـة المعـتـمـد البـريطانى، وهو من الناحـيـة الرسـمـيـة لا يزيد مـقـامـه الوظيـفى على «القنصل»، لأن مـصـر كـانت لاتزال تـابعـة للدولة العثمانية ومشمولة بالتمثيل السياسـى الأجنبى فى اسـتانبول، ومع القنصل عدد من المستشارين الانجليز يعينون فى وزارات الحكومة ومصالحها المهمة باقتراح من المعتمد البريطانى وبقرار من الوزارة المصرية ومن خلال هؤلاء المستشارين تصل المشيئة البريطانية إلى كل مجالات النشاط العام لتصدر بها ارادة مصرية من الوزارات المختلفة .

وهذا النظر السياسى إلى الشئون المصرية هو ما جعل قسما من دعاة السياسة المصرية مع مفتتح القرن العشرين يدعون إلى

أن تسعى الأمة المصرية إلى أن يكون لها وجود مؤثر وفعال بين السلطتين الشرعية والفعلية القائمتين فى مصر ، وكان أبرز المبلورين لهذا الاتجاه وقتها هو لطفى السيد وصحيفته «الجريدة»، وحزب الأمة.

(٣)
سعد وثورة ١٩١٩

يمكن إجمال أثر ثورة ١٩١٩ فى السلطة السياسية فى مصر ، فى إنها نجحت فى تحقيق ما كان قد دعا إليه لطفى السيد وصحيفة «الجريدة» وحزب الأمة قبل الثورة بما يشارف الخمس عشرة سنة، وهو أن تكون الأمة قوة ثالثة مؤثرة وفاعلة بين السلطتين الشرعية والفعلية، وثورة ١٩١٩ لم تسقط السلطة الشرعية (الخديو أو السلطان أو الملك) و لا أجلت السلطة الفعلية (عساكر الانجليز أو المعتمد البريطانى أو المندوب السامى)، لكنها أوجدت قوة ثالثة بجوار هاتين القوتين .

وهنا يأتى دور سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩، الذى بدأ الخطوات الأولى للمطالبة باستقلال مصر فى نوفمبر ١٩١٨ بوصفه كبيرا لفريق حزب الأمة يلتقون على جدارته وصدارته بينهم، ولكنه ما لبث كثيرا حتى طور مطالبه ومواقفه مدركا لحقائق

الامكانيات الوطنية المصرية المتاحة، ومدركا لمدى القوة الشعبية التى تفتقت عنها الجماعة السياسية المصرية بشباب مدنها وقراها وشيوخها وبتليدها وطريفها معا .

فأولا كانت قوة «الأمة» فى وعى المطالبين بمشاركتها السلطتين الشرعية والفعلية قبل ثورة ١٩١٩، كانت هى الاسر الكبيرة وكبار الملاك والأغنياء وغالبهم من باشوات مصر وعمدها فى الريف، وثانيا كان طلب هؤلاء المشاركة مع القوتين الشرعية والفعلية، وان تنضم قوة ثالثة إلى قوتين قائمتين تشاركهما الحكم واتخاذ القرار.

وهنا يظهر دور سعد زغلول، ذلك أنه لم يقد الثورة فقط لإيجاد هذه القوة الثالثة – قوة الأمة – بين القوتين السياسيتين القائمتين – الشرعية والفعلية – وإنما استجاب بكفاءة وشرف لإمكانات الثورة الشعبية المصرية ، وليعدل مفهوم «الأمة» على يديه وليعدل بالتالى هدف مشاركة «الأمة» للسلطتين الأخريين .. وهذا هو الدور الشخصى لهذه الزعامة الفريدة.

فأولا لم تعد قوة «الأمة» فى الأسر الكبيرة ووجهاء القوم ، انما صارت قوة الجماعة المصرية فى عمومها بشبابها وجلابيبها وأفنديتها من المتعلمين خريجى المدارس وبالصغار من فئات

الطبقات المتوسطة فى الريف المصرى والحضر والاحياء الشعبية وغيرها . واستبدل بالنظرة الضيقة للسراة والوجهاء نظرة أعم وأشمل. لأن المسألة ليست مسألة تتعلق بهذه الجماعة العليا المحدودة، إنما هى مسألة استقلال الوطن مما يشمل عموم الجماعة الوطنية السياسية على النطاق المصرى . صارت هذه الجماعة بحجمها الشامل هى «الأمة» ممثلة فى تنظيم الوفد المصرى.

وثانياً : لم يعد مطلب «الأمة» هو مشاركة السلطتين الشرعية والفعلية بوصفها قوة ثالثة شريكة وإنما صارت أمة حركية مشاغبة، تقوم إزاء السلطتين الآخريين كعنصر إقلاق وإضجار، فهى تنافس السلطة الشرعية الممثلة فى الملك، تنافسها فى شرعية الوجود ولتنقص تدريجيا من نفوذها وسطوتها . وهى كذلك «أمة» تجهر بأن طلبها هو السعى الدائب والحثيث لإنهاء السلطة الفعلية الممثلة فى الاحتلال البريطانى لمصر .

كان هذا هو ما امتد اليه بصر سعد زغلول وبصيرته ، وما أدركه من مغزى قومة المصريين فى ١٩١٩ ، إن ما حدث منذ ٩ مارس ١٩١٩ لم يكن مجرد مطالب لجماعة عليا مصرية تطالب بمكان لها فى تقريرات السياسة المصرية ، ولكنها قومة الجماعة

السياسية الوطنية لتحقيق انجازها الوطنى بإجلاء الانجليز أصلا. وانجازها الديمقراطى بإحالة الملك إلى رمز يتجرد ملكه من قدرات السيادة والإمرة والتقرير .

(٤)
سعد والجماعة الوطنية

كان سعد زغلول قادرا على اتخاذ القرارات المصيرية، لأنه كان ذا رؤية سياسية وتاريخية عميقة، وذلك لأنه كان ذا ثقافة سياسية محيطة ، فهو من هذا النوع الذى يصلح لأن يقود جماعته السياسية فى المنعطفات والثنيات الكبرى، فلا يغشى الغبار بصيرته ولا تجعله المنحنيات يغفل عن التوجهات الأساسية. وقليل ممن حكموا مصر فى عصرها الحديث كان لديهم هذه القدرة ، ازعم أنها كانت موجودة لدى محمد على وعبد الناصر، وأكاد أتردد فى القول بوجودها لدى أحمد عرابى.

وسعد أهله تاريخه كله لهذه الصلاحية ، كان أزهريا ثم تعلم الحقوق والفرنسية. وكان ريفيا ثم صار حضاريا من أهل احياء الميسورين فى القاهرة وكان فى جمعية الانتقام الساعية لأعمال العنف ثم آل إلى صالون نازلى هانم فاضل حيث يلتقى وجهاء المجتمع مصريين وأجانب ، وصاحب الافغانى ومحمد عبده ثم

صاحب كرومر وصاهر مصطفى باشا فهمى رئيس الوزراء فى عهد كرومر، وكان كاتبا فى الوقائع المصرية ثم صار مستشارا ووزيرا ووكيلا للجمعية التشريعية، فهو شخصية مركبة وذات تضاريس وعرة بما يراكم خبرات بالغة التنوع وفهم لجماعات المصريين جميعا .

لاحظ عباس محمود العقاد فى كتابه عن سعد زغلول، أن سعدا كان يحتفظ بصورة لكل من الافغانى ومحمد عبده وكرومر، واستدل من ذلك على ما يتصف به سعد من صبغة «نظامية» ، فهو رجل دولة، ثم ينتقل العقاد ليشير إلى أنه رأى فى مكتبة سعد كتابا عن باكونين أحد رءوس الدعوة الفوضوية فى أوربا فى القرن التاسع عشر ممن ينادون بإلغاء الدولة، ويصيح العقاد أين سعد من هذه الأودية السحيقة؟

على هذه المساحة الواسعة من التصنيفات السياسية والاجتماعية لجماعات المصريين ومن التنويعات الفكرية، كان سعد ينظر ويطالع ويتحرك، لذلك استطاع أن يقود «أمة» أو جماعة سياسية بتكويناتها جميعا ، وأن يلتقط الجامع بينها والقاسم المشترك لفئاتها، وأن يعبر ليس فقط عن عموم هذه الجماعة السياسية ولكن أن ينقل الجماعة السياسية من خصوص ادراك

كل فئة منها بذاتها إلى عموم ادراكها بما يجمعها وبما تنشده فى هذه المرحلة التاريخية القائمة .

ونقل الحركة الوطنية من ضيق مصالح السراى والميسورين إلى سعة الجماعة المصرية، وهو بالنسبة لعلمانية الوطنية لم يتخذ موقفا فكريا تغريبيا قحا بمثل ما كان يدعو مفكرو حزب الأمة القديم ولطفى السيد ومثقفو هذا الفريق، ولم يقلد كمال أتاتورك فى تركيا وقتها إنما استخلص موقفا علمانيا وسطيا.

«لا أتاتوركيا» لا يجعل هدفه مخاصمة الاسلام ومعاندته. وقصر علمانيته على الخروج من اطار المرجعية الاسلامية لا تحطيمها. وذلك كله أن صح لدى التعبير.

وهو كان وقتها فى الستين من عمره، فاستطاع أن يجاوز حدود جيله وأن ينتقل إلى جيل الأربعينات. يتجاوز أمثال عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى وغيرهما ممن بدأ معهم أولا ، وينتقل إلى أمثال مصطفى النحاس وغيره من هذا الجيل الوسيط.

(٥)
سعد والحكومة

لما قابل سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى المعتمد البريطانى فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨، ليسمح لهم بالسفر إلى باريس

لعرض طلب مصر استقلالها عن البريطانيين على مؤتمر فرساى للسلام، رد عليهم المعتمد البريطانى بأنهم ليسوا الحكومة ولا يمثلون الشعب المصرى.

لم يكن هؤلاء القادة بعيدين عن هذا الهاجس، بل انهم اختاروا أنفسهم وعلى رأسهم سعد الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية والعضوان الآخران من أعضاء الجمعية . فلهم سمت الدولة أو أحد أجهزتها، وكانوا على اتصال ما بحسين رشدى رئيس الوزراء، ولكن لما حدث التشكيك فى صفاتهم بدأوا حركة شعبية اسميت حركة التوكيلات ، فأعدوا وثيقة يوقعها الناس أفرادا يوكلون فيها عددا من الأعضاء هم من كونوا «الوفد المصرى» وذلك للسعى بكل الوسائل السلمية المشروعة، حيثما وجدوا للسعى سبيلا لتحقيق استقلال مصر استقلالا تاما، واندفع الناس يوقعون هذه الصيغة ويجمعونها.

كانت حركة عجيبة وغير مسبوقة فيما أخال . وفى دراستى لثورة ١٩١٩ وقفت عندها طويلا، والتوكيل الفردى على هذا النحو مقبول ومعقول أن جرى فى الشئون الخاصة، بيعا أو قرضا أو حضورا أمام محكمة، ولكن أن أوكل شخصا معينا بالاسم فى المطالبة باستقلال بلدى من المحتل الأجنبى فهذا أمر

طريف. حملت الأمر أولا على أنه تصرف غلبت به الحرفة القانونية على قادة سياسيين كان أغلبهم من رجال القانون والمحاماة والقضاء.

ولكننى لم ألبث أن أدركت أن هؤلاء القوم قاموا بعمل سياسى قح بطريقة غاية فى الحنكة والبراعة، انهم باسم التوكيلات توجهوا لجماهير الشعب المكونة للجماعة السياسية المصرية لعمل لا يؤدى إلا بالانتخابات العامة أو الاستفتاءات العامة، والطريف أن هذا الإجراء عادة تحتكر الدولة وظيفة الدعوة اليه وتنظيمه، فهو من مظاهر سيادة الدولة ووظائفها .. ولكن هؤلاء القادة الاذكياء لجأوا لهذه الحيلة القانونية المسماة بالتوكيلات لكى يدعوا الشعب المصرى لاستفتاء عام على قيادتهم له. رغم كونهم مواطنين فحسب لا يتولون منصبا رسميا فى الدولة، وتولت لجانهم الأهلية تنظيم هذا الاستفتاء وإنجازه.

وجرى ذلك دون اصطدام بأجهزة الدولة . فلما فطنت السلطة البريطانية إلى هذا الأمر وضغطت على رئيس الوزراء لوقف هذه الحركة التى من شأن تمامها ايجاد بديل شرعى للدولة القائمة ، ولما بدأت أجهزة الادارة تعوق حركة التوكيلات ، لم يشأ سعد زغلول أن يصطدم بها. إنما اكتفى بما اجتمع من التوكيلات

وارسل إلى رئيس الوزراء كتابا يسجل فيه ما يجرى من عرقلة ، وكان ذلك بعد أن لم يعد أحد يستطيع أن يسأله من انت وما صفتك.

ونشأ بهذا تنظيم هو «الوفد المصرى»، ليس حزبا ولم يقبل قط من بعد أن يسمى نفسه حزبا، إنما هو «وفد» أى ممثل للجماعة الوطنية المصرية، وكل ذلك جرى عبر تحريك شعبى وتعبئة سياسية وتوعية فكرية، حشدت ما يشبه الاجماع الشعبى، مما آمكن به تحييد جهاز الادارة المصرى فى العديد من الحالات، حتى أن اللورد اللنبى الذى عين معتمدا بريطانيا صاح فى ربيع ١٩١٩: لقد صارت الحكومة مستحيلة، إذ أضرب الموظفون كلهم بغير سابقة ولا لاحقة لذلك.

سعد وأصحابه هؤلاء الذين تحدوا سلطة الدولة وزاحموا بعض وظائفها وهم جمهور من الجمهور فى ١٩١٩، و١٩٢٣، تحديا ومزاحمة جريا بنجاح بغير اصطدام، هم أنفسهم بعد أن تولوا الحكم فى ربيع ١٩٢٤ ادركوا أنه من الخطأ والغباء توهم أنهم قبضوا على أعنة السلطة السياسية لمجرد أن دالت لهم الوزارة وإن صار لهم بمجلس النواب أكثر من ٩٠٪ من أعضائه ، وعرفوا أنهم فى الوزارة ومجلس النواب إنما يمارسون «المعارضة

السياسية» من خطوط ممارسة متقدمة ، أما أعنة السلطة فهى فى هذا الموقف المتقدم لم تزل بعيدة عن أصابعهم المشرئبة . وقد كان يمكن إقالتهم وحل مجلس النواب كما أنه لم يكن يتيسر لهم إنفاذ كل ما يبتغون . ومن فرط ذكاء سعد وخبرته أنه توقع كل ذلك بعد نجاحه الساحق في الانتخابات وتردد فى قبول الوزارة أسابيع ، ثم قبلها وبقيت وزارته من مارس إلى نوفمبر ١٩٢٤ فقط. ذلك أن السلطة ليست مجرد اكتساح انتخابى وقوة شعبية كبيرة، إنما هى أيضا تعتمد على القوة الاقتصادية والقوة العسكرية وموقع من الهرمية الشرعية فى المجتمع وقوة جمع المعلومات واشاعتها . وقد تذكرت هذا الدرس جيدا وأنا أراقب تجربة نجم الدين اربكان فى حكم تركيا خلال العام المنصرم ولعله بلغ من الذكاء ما ذكرنى بسعد زغلول من قبل سبعين سنة.

(٦)
سعد والاستقلال

لم يكن بد أمام المصريين فى طلبهم الاستقلال واجلاء الانجليز عن مصر ، إلا أن يلجأوا للطرق السلمية المشروعة، فالعنف كطريق أساسى لإخراج جيش احتلال لم يكن متيسرا من حيث الامكانية البشرية والسياسية وأوضاع الدولة والمجتمع، فقام الأمر

على أساس التحريك شبه الشامل للجماعة السياسية فى عمومها ، مع اسلوب المقاومة السلبية بعدم التعاون مع قوات الاحتلال وأنصارهم ، ثم اللجوء لضبط الايقاع بقدر من أعمال الشغب أو العنف مقصود بها بيان إمكان اللجوء إلى العنف إن لجأ اليه الطرف الآخر. ولكن مع كل ذلك تظل المفاوضات هى طريق كسب الاستقلال واجلاء المحتل وإزاحة سيطرته وضغوطه على الادارة السياسية فى البلاد.

وفى المفاوضة وجه مساومة، والمساومة تحتاج لفحص لإمكانات التدرج فى الأخذ والإعطاء ، وذلك لترتيب البدائل. ولا تقوم مشكلة كبيرة بالنسبة لمن يعتمد فى المساومة على قوة مادية، لأن القوة المادية فى الغالب تقبل التجزئة وتحتمل التقسيم لذلك فإن المحتل الأجنبى يستطيع أن يتدرج فى الاعطاء والأخذ ، لأن قوته مادية، يمكنه أن يقبل التدرج فى عدد قواته المحتلة من حيث العدد ونوع العتاد، ويمكنه أن يتدرج فى المساحات التى يحتلها من حيث الاقليم والمناطق سعة وضيقا أو يكتفى بعدد من القواعد العسكرية برية أو بحرية أو جوية .. ويمكنه أن يتدرج فى حالات العودة بعد الجلاء فى ظرف حرب أو خطر حرب أو أزمات .. ويمكنه أن يتدرج فى عدد سنوات بقاء أى من هذه الممكنات . لذلك

فمطلبه مرن وإمكاناته التى يحقق بها مطلبه مرنة كذلك ، لأنه يستطيع أن يتدرج فى استخدام وسائل القمع للحركة الشعبية المصرية.

أما البلد الخاضع للاحتلال. فمطلبه معنوى فى الأساس، وامكاناته التى يحرك بها مطالبه معنوية أيضاً فى الأساس، وكل من ذلك فى الغالب لا يقبل التجزئة ولا يرد عليه التقسيم . والسؤال ماذا كان يمكن للمفاوض المصرى أن يقدمه للانجليز وما الذى كان يطلبه الانجليز ، لقد قالها كيرزون الوزير البريطانى المفاوض لسعد فى مفاوضات ١٩٢٢ ، أن الانجليز سيعطون المصريين كيت وكيت وكيت مقابل اعتراف مصر بالوجود البريطانى فيها ، فليس لدى المصريين ما يعطونه إلا القبول أو التوقيع على معاهدة تعترف بشرعية الوجود البريطانى فى النطاق المتفق عليه. والتوقيع على المعاهدة أو القبول إما أن يتم وإما ألا يحدث أصلا هو واقعة واحدة تقع بتمامها أو لا تحدث أصلا . ولا تحتمل تجزئة ولا التدرج ولا التقسيم . وإن وسيلة المصريين فى ضغطهم وأصل قوتهم التفاوضية آتية من وقوفهم صفا واحدا وجمعا لا ينقصهم فى مواجهة القوة البريطانية، ومتى انقسموا ضاعت هذه القوة فلا تحتمل تدرجا فى الاستخدام. وهذا بالدقة ما أدركه سعد

وأصحابه من فئة المتشددين من شباب الوفد ، فلما صدر التصريح البريطانى فى ٢٨ فبراير ١٩٢٢ يعترف من جانب واحد باستقلال مصر مع التحفظ بالنسبة لحماية المواصلات البريطانية وحماية الأجانب والأقليات والسودان ، رفض سعد التصريح واسماه نكبة وطنية، وشرح موقفه فى بعض خطبه بأنه إن قبل التصريح يكون قد أعطى كل شىء ولم يحصل إلا على البعض أو على أمر منقوص بالتحفظات كمن يقول لبائع أشترى منك بألف إلا ألفا . وسعد بعد ذلك عمل فى السياسة العملية على مراعاة تحفظات تصريح ٢٨ فبراير ولكنه والوفد معه لم يعترف به قط حتى لا يكون قد أعطى كل شىء وأخذ ألفا إلا ألفا .

وقد ذكرت هذا الدرس عندما عرفنا باتفاق أوسلو بين الفلسطينيين وإسرائيل، أن الفلسطينيين بهذا الاتفاق «أعطوا كل شىء» وهو الأمر الوحيد الذى كان باقيا على ملكهم وهو الاعتراف بشرعية الوجود الإسرائيلى على أرضهم السليبة ، وما يعطونه لم يكن يحتمل التجزئة ولا التدرج ولا التقسيط، وما أخذوه هو مجرد وعود مقسطة من قوة تملك التجزئة والتدرج، وأعطى الإسرائيليون البائع «ألفا إلا ألفاً» كما سبق أن قال سعد رحمه الله.

حصيلة التجربة

كان الهدف الذى رسمته الجماعة السياسية فى مصر مع حركة ثورة ١٩١٩ هو ما أوردته الصيغة الواردة بالتوكيلات من «ان يسعوا بجميع الوسائل السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا لتحقيق استقلال مصر استقلالا تاما».

وعمقت حركة الثورة بزعامة سعد زغلول هذا الهدف وكفلت له قدرا معتبرا من التنفيذ والابقاء مدة ثلاثين سنة، وكان من شروط وضع هذا الهدف موضع الجدية فى التنفيذ ما يلى:

– موقف شبه اجماعى تتمثل فيه الإرادة العامة للجماعة السياسية فى مصر بفئاتها وطوائفها وجماعاتها الفرعية جميعا .

– هذا الموقف فى شموله من شأنه أن يحيط بجهاز الإدارة المصرى ويكفل حياده وقد يكفل قدرا من تعاطفه، وذلك بغير استفزاز ولا تحد له ولا اصطدام معه.

– التنبيه إلى ما لا يقبل التجزئة من مطالب الأمة وما لا يقبل التقسيم من عطائها للغير ، وذلك عند سلوك سبيل المفاوضة .

– أمكن وقتها استخدام العنف بحذر وبقدر وكعنصر ضابط ورادع لعدم لجوء الطرف الآخر للعنف .

الباب الأول

مصر تواجه الاستعمار

١
ثورة ١٩١٩

جرت مباحثات سعد - ماكدونالد على ثلاث جلسات فى الفترة من ٢٥ سبتمبر إلى ٣ أكتوبر ١٩٢٤ . كانت ثالث مفاوضات جرت بين مصر وبريطانيا منذ ثورة ١٩١٩ . الأولى مفاوضات الوفد المصرى برئاسة سعد زغلول وملنر وزير المستعمرات البريطانية التى استمرت فى لندن من ٥ يونيو ١٩٢٠ حتى انقطعت فى ٩ نوفمبر ١٩٢٠ . والثانية مفاوضات عدلى يكن رئيس وزراء مصر مع اللورد كيرزون التى بدأت فى ١٣ يوليو ١٩٢١ وانقطعت فى ١٩ نوفمبر ١٩٢١ . وقد جرت المفاوضات الأولى بين الوفد المصرى بوصفه قيادة الحركة الوطنية الديمقراطية وثورة ١٩١٩ دون أن يكون له وصف رسمى وزارى ، وبين اللجنة التى شكلتها الحكومة البريطانية برئاسة ملنر لتحقيق أسباب «الاضطرابات التى حدثت أخيرا فى القطر المصرى» ، وذلك فى سبتمبر ١٩١٩ . وجرت المفاوضات الثانية بين وفد رسمى برئاسة عدلى يكن بوصفه رئيسا للوزارة وبين وفد رسمى بريطانى رأسه اللورد كيرزون وزير

الخارجية - ثم جرت المفاوضات الثالثة بين سعد زغلول بالوصفين اللذين تعلقا به كزعيم للحركة الوطنية المصرية وكرئيس لأول حكومة دستورية نيابية شكلت بعد الانتخابات العامة التى جرت وفقا لدستور ١٩٢٣ ، وبين رامزى ماكدونالد رئيس الوزراء ووزير الخارجية فى أول حكومة شكلها حزب العمال البريطانى فى ١٩٢٤ .

على أن مباحثات سعد - ماكدونالد لتعتبر المفاوضات الأولي التى جرت بين البلدين بعد صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى أنهى الحماية البريطانية على مصر واعترف بها بلدا مستقلا ذا سيادة ، وبعد العمل بدستور ١٩٢٣ . وهى بهذه المثابة أول تجربة لمفاوضات عن المسألة المصرية تجريها حكومة ديمقراطية لمصر المستقلة ، ويجريها عن مصر أول من جمع بين الزعامة الشعبية والرئاسة الرسمية فى تاريخ مصر الحديث ، أو بالأقل منذ الثورة العرابية . وهى أقصر مفاوضات عرفها تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية . ثلاث جلسات على مدى عشرة أيام انتهت بالفشل . بدأت بكلمة قالها سعد زغلول لمودعيه من أفراد الجالية المصرية بفرنسا عشية سفره من باريس إلى لندن «سأقف غدا وجها لوجه أمام أقوى دول الأرض . أما معتمدى الوحيد فهو على ثقة بلادى

وعدل قضيتى . اننى أشعر بأنى قوى جدا . وأنا عظيم الأمل فى الوصول إلى اتفاق مرض . أما إذا لم يسعفنا النجاح . فسأثابر على النضال فى سبيل الحق والعدل» . وانتهت بأحاديث منها ما قاله سعد بباريس أيضا فى طريق عودته إلى مصر «أنا الآن أعود إلى مصر بغير نجاح . ولكن الحبوط ليس عيبا فإنما العيب هو أفساد حقوق البلاد . أما أنا فأعود إلى القاهرة بعد أن صنت كرامة الوطن . وقد عزمت على اتمام الكفاح الذى ابتدأناه ، وإذا لم يتح لنا أن نصل إلى الغاية من عملنا ، فإن أولادنا سيواصلون هذا العمل» (١) .

فيما ذهب سعد . وفيما عاد . هل كان الحبوط فشلا له كمفاوض كما شاء معارضوه أن يتهموه ، أم كان صيانة لحقوق البلاد وحفاظا عن الأمانة كما شاء الوفديون أن يصوروا المسألة . هل بدد سعد بتشدده مع ماكدونالد فرصة لكسب كان يمكن اقتناصه ، أم عصم نفسه من التفريط ووطنه من الاستسلام . هذا الذى وقف أمام أقوى دول الأرض ، فبلغ به التشدد أقصاه ، هل كان تشدده عنتا ولددا ، أم كان رفضا ثوريا لحلول صورية ، هلا كان مفاوضا ماهرا وهل بدد أم حفظ ؟ .

لتقدير موقف المفاوض المصرى فى ١٩٣٤ ، ولفهم الجوانب المختلفة لتلك المباحثات تلزم الاشارة إلى أهم مكامن

القوة المصرية في مواجهة الاحتلال البريطاني . كما يلزم استعراض تطور العلاقات المصرية البريطانية منذ ١٩١٩ ، باعتبار أن السياق التاريخي هو وحده الذي يحدد معنى الحدث التاريخي .

ويبدو لكاتب هذه السطور ، أن أهم ما يمكن التقاطه ، إدراكا لمكامن القوة والضعف في الصراع المصري البريطاني ، هو درجة تطور الجماعة المصرية وأثر ذلك على الأسلوب الانجليزي في حكم مصر وفي تطور الصراع بين البلدين .

اختلف احتلال مصر عن احتلال كثير غيرها من البلاد المستعمرة .. أتاها الانجليز في سبتمبر ١٨٨٢ ، فوجدوا بها دولة تتكون من مجلس للوزراء وبرلمان منتخب ، ومن وزارات ومصالح وادارات ، ومن جيش نظامي وشرطة ، وادارات إقليمية . وأجهزة قضائية . دولة تكامل بناؤها على مدى ثلاثة أرباع القرن - حتى صارت بمعايير القرن التاسع عشر متكاملة الوجود والأركان . وهي عينها الدولة التي استطاعت بجيشها وإداراتها منذ أربعين عاما أن تناوىء المطامع الأوروبية وأن تهزم الدولة العثمانية وتهدد وجودها بالاندثار وأن تنشىء دولة قوية موحدة تمتد من أواسط أفريقيا جنوبا إلى حدود تركيا شمالا ، وتقدم نمطا للحكم أكثر

تطوراً من النمط العثماني التركى السائد فى منطقة الشرق الأوسط . وتنشىء المدارس وتبعث البعثات وتنهل من علوم الغرب وفنونه . ووجدوا بها شعبا على درجة عالية من التوحد ، يتمتع بقدر كبير من النضج القومى . وله صحافته وجماعاته السياسية وغير السياسية . وفوق ذلك له ثورته التى تمثل طموح الثورات الديمقراطية الوطنية على أنضج ما عرفت مجتمعات القرن التاسع عشر ، وهى الثورة العرابية ، ثورة مصر للمصريين .

وإذا كان العرابيون قد هزموا ، فليس من المشكوك فيه أنهم كانوا على أبواب النصر لولا أن واجههم الغزو البريطانى بقوة ما كان لمجتمع شرقى وقتها سلطان على مقاومتها . وكان الانجليز يدركون أن هذا الاقتحام العسكرى المسلح هو أيسر الخطوات فى السيطرة على مصر . وهم إن حققوا الغزو بقوتهم المادية المجردة فليست تلك القوة المادية المجردة بكافية لضمان سيطرتهم على مصر ، وهى وحدها لا تتضمن حكما آمنا هادئا يحقق مصالح الاحتلال وأهدافه البعيدة . وإذا كانت الثورة العرابية قد صفيت ، فإن الأرض التى أخرجتها لا تزال قادرة على إخراج مثلها . وهدف «مصر للمصريين» الذى ارتفع فى وجه الفئة التركية الشركسية الحاكمة . جدير بأن يرتفع من باب أولى فى وجه

الانجليز . وإذا لم يستطع المصريون طرد الاحتلال ، فهم قادرون بالأقل على جعل وجوده وجودا شديد الارهاق ، وذلك فى بلد الانجليز حديثو العهد بمسالكه وأساليب التعامل معه .

ومن جهة أخرى لم يكن فى مقدور الانجليز أن يسفروا عن حقيقة نواياهم من احتلال مصر . كانوا حريصين على كسب الأمر الواقع لصالحهم بأقل قدر من العنف وبأكثر ما يمكن من الهدوء والخفاء . وبالتسرب الدوب الصبور ، وذلك حذر تأليب المجتمع الدولى عليهم . إذ كانت الدول الكبرى من بداية القرن التاسع عشر متنافسة فى الاستيلاء على مصر ، حريصة ألا تنفرد بالاستبداد بها واحدة منها . وفرنسا على تنافس تاريخى مع بريطانيا على مصر ، والسلطان العثمانى لا ينظر إلى إلحاق مصر ببريطانيا إلا بعين السخط ، وروسيا تستميل الباب العالى ضد الانجليز ليسمح لها بمنفذ من الدردنيل إلى البحر المتوسط . والانجليز وسط كل ذلك يتحاشون أن يجدوا أنفسهم أمام اختيار واحد من أمرين صعبين ، إما الاسراع بترك مصر تهدئة للدول الكبرى ، وإما البقاء بها بقاء قد يؤدون عنه ثمنا غاليا من مصالحهم فى جهات أخرى من العالم .

كانت نقطة البداية فى السياسة البريطانية إزاء هذه الاعتبارات ، أن تدخل مصر بدعوى «اقرار النظام والأمن» دعما

لسلطة الخديو «الشرعية» التى تحداها العرابيون . وإن يبقى استمرار وجودهم متشحا بهذه الدعوى ذاتها . وأن يجرى التغيير لصالحهم باسم المحافظة على الأوضاع القائمة . ويصطبغ الحكم بالصبغة الانجليزية باسم تمصير الحكم . وتنتقل السلطة إلى أيديهم باسم الحفاظ على السلطة التقليدية للخديو .

وبغير الدخول فى تفصيلات كثيرة ، يمكن القول أنه برغم هزيمة الثورة وتصفية الجيش المصرى والغاء دستور العرابيين ، والتقاط عناصر الثوار ومحاكمتهم ونفيهم أو حبسهم ، وبرغم دخول مصر فى حوزة الامبراطورية البريطانية ، فقد بقيت هياكل الحكم وأشكاله كما لو أن تعديلا طفيفا هو ما لحقها . الخديو بسلطته التقليدية يشكل حكومة من مصريين تشرف على أجهزة الادارة والأمن بواسطة موظفين مصريين . وبجوار الوزارة توجد هيئتان نيابيتان استشاريتان ، تشكلان بالتعيين والانتخاب من المصريين ، ويمتد الحكم إلى الأقاليم بأجهزة المديريات والمحافظات والمجالس البلدية والمديرية . ويصل إلى القرى بالعمد والمشايخ والخفراء ، وكل ذلك يتكون من مادة مصرية صرف . وفى الجهة المقابلة يوجد جيش الاحتلال البريطانى لا يؤدى عملا بمصر إلا

بأمر الخديو صاحب السلطة الشرعية . ولا يستند وجوده بمصر من الناحية الشرعية إلا على رضاء الخديو والحكومة المصرية ، ويوجد المعتمد البريطانى ، لا يزيد وضعه الرسمى على وضع غيره من قناصل الدول الأخرى ، ولا يستطيع التعبير عن ارادته السياسية إلا من خلال قرارات الحكومة المصرية .

وخلال السنوات الأولى للاحتلال ، أمكن تحقيق السيطرة على أجهزة الحكومة بواسطة شبكة من المستشارين البريطانيين عينوا فى الوزارات المصرية ، وكان وضعهم الرسمى أنهم مستشارون يقدمون الخبرة والنصح دون أن يكون لأحدهم صلاحية إصدار القرار الذى بقى فى يد الوزير أو الرئيس المصرى . وسدت الفجوة بين السلطة والخبرة بما اسمى «بالنصائح الملزمة» إذ صارت نصيحة الخبير واجبة الاتباع عملا ولكن بقرار مصرى . ثم عين سردار انجليزى للجيش المصرى ، ومفتش عام انجليزى للبوليس ووكيل انجليزى لوزارة الداخلية وآخر لوزارة الأشغال .. ولكن كان تعيين المستشارين والسردار والوكلاء يتم بقرار من الحكومة المصرية وبوصفهم موظفين مصريين ، ويمكن شكلا تنحيتهم بقرار مصرى . وإن كان الوضع العملى أن تعيينهم وتنحيتهم يجرى بواسطة «النصائح الملزمة» للمعتمد البريطانى .

تمثلت الحكومة الخفية لمصر فى المعتمد البريطاني وجيش الاحتلال وجماعة المستشارين وكبار الموظفين فى بعض المراكز ، واداتهم فى الحكم «النصائح الملزمة» أى الارادة الانجليزية مستورة فى قرار مصرى . وكان هؤلاء شريحة جد محدودة . وبقى هيكل الادارة والتنفيذ مصنوعا بمادة مصرية صرف ، كما بقى الهيكل السياسى والتنظيمى للحكومة وللهيئات التى يفترض أن يصنع القرار السياسى فيها (سواء الخديو أو الوزارة أو المجالس النيابية) مصنوعة بمادة مصرية صرف . وكفل هذا الوضع للانجليز هدوءا واستقرارا كانوا حريصين عليه . ولكن هذا الوضع أفقدهم القدرة على التصدى المباشر لأجهزة الدولة والحكم ، إذا حدث أن أوجبت الظروف عليهم هذا التصدى المباشر. وهذا الوضع هو الذى مكن الخديو عباس الثانى أن يناوئهم ، وهو عينه الذى أوجد تلك الازدواجية التى عرفت فيما بعد بالسلطتين الشرعية والفعلية .

وفى ١٩٠٤ استطاع الانجليز أن يكسبوا اعترافا دوليا أوروبيا بسيطرتهم الفعلية على مصر . ورغم أن هذا الاعتراف كان محدودا بعدم تغيير الأوضاع الراهنة من الجهة الرسمية ، فقد كان من شأنه أن تصير سياسة مصر أسلس للانجليز من الناحية

الدولية ، بما يمكنهم من زيادة نفوذهم المباشر فى حكم مصر ، لولا أن تطور الحركة الوطنية المصرية حتم عليهم الحذر والحيطة . ولم يصر سهلا على السياسة البريطانية أن تعدل صيغة حكمها لمصر تعديلا جوهريا فى ظروف تصاعد الحركة الوطنية ، التى كشفت عن قوتها فى حادث دنشواى ١٩٠٦ وما تلاه . فاكتفت بالعمل على زيادة عدد الموظفين الانجليز بالادارات المختلفة بالتدريج .

وفى ١٩١٤ أتاحت الحرب العالمية الأولى للانجليز ، اتخاذ الخطوة التى طمحوا إليها من قديم ، باعلان الحماية على مصر وخلع الخديو عباس . وصاحب ذلك اعلان الأحكام العرفية وتعيين حاكم عسكرى بريطانى له صلاحيات اصدار الأوامر العسكرية . ولكن بقيت أجهزة الدولة على حالها تقريبا ، على رأسها السلطان ثم مجلس الوزراء ، ورغم الزيادة النسبية فى عدد البريطانيين فى الوظائف الكبرى ، إذ بلغت نسبتهم في ١٩١٩ نحو تسعة الأعشار في وكلاء الوزارات ومديرى العموم ونحو الربع فى الدرجات الكبيرة التالية (٢) . رغم ذلك بقى الهيكل العام لأجهزة الدولة المصرية على وصفه المصرى . ولم تفد زيادة عدد البريطانيين فى الوظائف العليا تحكما أكبر فى هذا الجهاز بقدر ما أفادت توليد

السخط عليهم من الموظفين المصريين مما أسهم في انضمام القسم الغالب منهم إلى قوى ثورة ١٩١٩ .

إن القصد من بيان هذه الظواهر ، أنه إذا كان الانجليز ومن يواليهم من المصريين ، يسيطرون على المراكز الحيوية لصنع القرار وتلقى المعلومات وضمان الاشراف على التنفيذ ، فإن الهيكل الحكومى العام ، جمعا للمعلومات وتنفيذا للسياسات بقى مصريا فى صميمه . ومن خلاله كانت تجرى ادارة الشئون العامة وتصعيد المعلومات من مجالات النشاط المختلفة وتنفيذ القرارات ، وذلك على مدار السنين الأربعين منذ الاحتلال . كما بقيت هيئات صنع القرار المصرى موجودة على رأس هذا الهرم السياسى والإدارى . والهيكل فى عمومه يسمح بتدفق القرارات والمعلومات والتنفيذ فى قنواته . ولا يتصل بالسلطة الانجليزية إلا من خلال قنوات تحويل اصطناعية فى قمته ، بواسطة المستشارين وكبار الموظفين الانجليز . وبقى المندوب السامى البريطانى مجردا من الصفة الشرعية فى علاقته بالجهاز الحكومى ، ولا يرتبط به ارتباطا عضويا - بقى موصول الروابط به «بالنصائح الملزمة» وحدها .

ويمكن تصور أنه مع درجات الحرارة العالية ، أو تحت ضغط أقوى من المعتاد ، كان يمكن أن يذوب اللحام بين تلك الشريحة الانجليزية المتحكمة فى القرار السياسى ، وبين الجهاز الحكومى المصرى . وهذا ما أنبأت عنه أحداث ثورة ١٩١٩ . وأن ذلك من شأنه أن يرتب نتيجتين أولاهما انعزال السلطة البريطانية عن أدوات التنفيذ والادارة اليومية بحيث تفقد المصدر الأساسى لتلقى المعلومات والمجرى الأساسى لتنفيذ القرارات . وثانيهما أن هذا الانعزال لم يكن من شأنه أن يؤدى إلى تفكك الجهاز الحكومى ، كما هو جدير بأن يحدث لأى جهاز يفقد قمته المسيطرة والموجهة . لأن السلطة البريطانية لم تكن ترتبط عضويا بالحكومة المصرية . بل أن هذا الانعزال كان يمكن أن يعيد نظام العمل إلى مجاريه الأصلية .

تلك الظاهرة كانت من أحسم ما واتى الثورة المصرية فى ١٩١٩ ، ومن أخطر ما عاناه البريطانيون منها . وإذا كان الانجليز لم يفقدوا خلال الثورة كل أعنة الامساك بأجهزة الدولة فقد اهتزت تلك الأعنة فى أيديهم اهتزازاً هدد بانفلاتها ، وكانت النذر كلها تتدافع فى هذا الاتجاه . وكان ذلك من أهم الأسباب التى دفعت الانجليز لتقديم التنازلات للحركة الوطنية المصرية .

تمثلت بوادر الانفلات للسلطة من أيدى الانجليز فى أمرين ، أولهما ، أن الوفد كقيادة للحركة الوطنية طرح مرارا شعار المقاطعة وعدم التعاون مع الانجليز . ولم تكن المقاطعة الاقتصادية هى المقصودة فى الاساس ، وهى لا تشكل ضغطا حاسما على الانجليز فى المدى القريب أو البعيد ، ولا تشكل خسارة ذات شأن كبير لهم فى مصر ، باعتبار أن احتلالهم مصر لم يكن فحسب يهدف أن تكون سوقا لمنتجاتهم أو حقلا للمواد الخام ، ولكن باعتبارها الشريان الحيوى بين أجزاء الامبراطورية البريطانية فى الشرق والغرب ، وباعتبار مركزها الاستراتيجىْ ازاء القوى العالمية الأخرى . ولكن أهم ما قصد إليه هو عدم التعاون مع الانجليز فى أجهزة الحكم . وقد أعلن مرارا عن وجوب مقاطعة تشكيل الوزارة أو الاشتراك فيها بما أعجز السلطان فؤاد والانجليز عن تشكيل وزارة مصرية فترات عدة ، واعتبر من يقبل الاشتراك فى الوزارة خارجا على اجماع الأمة خائنا لها ، وجرت محاولات اغتيال محمد سعيد ويوسف وهبه لقبولهما على التوالى رئاسة الوزارة ، وما لبثا أن استقالا على التعاقب . واضطر اللورد اللنبى المندوب السامى أن يصدر فى ٢٨ إبريل ١٩١٩ قرارا يمنح وكلاء الوزارات سلطات الوزراء . وكان من شأن هذه المقاطعة أن تجرد السياسة

الانجليزية من وسائل تحققها بواسطة القرارات الوزارية المصرية، وأن تعرقل صلتها بأجهزة الحكم . وثانيهما ، أن الموظفين المصريين بدءوا اضرابهم متضامنين مع طوائف الشعب الأخرى فى مارس ١٩١٩ . وتم الاضراب فى أوائل ابريل . مما أدى إلى استقالة وزارة حسين رشدى . قد بدأت حركة الاضراب تلك بعد خطاب ألقاه اللورد كيرزون بمجلس اللوردات شرح فيه الحالة فى مصر وأثنى على الموظفين المصريين ورجال الجيش والشرطة وأشاد بحسن سلوكهم ، فجاء إضرابهم كما يذكر الأستاذ الرافعى «حادث فذ فى حياة مصر القومية ، فقد كانت هذه أول مرة أضرب فيها موظفو الحكومة لأسباب سياسية ..» (٣) .

وتظهر أهمية هذا الاضراب فى أنه كان المشكلة التى فازت بالنصيب الأكبر من مراسلات اللنبى إلى كيرزون فى تلك الشهور (٤) . وإذا كان الموظفون قد أضربوا فترة ما ثم عادوا لعملهم ، فقد كانت السمة الأساسية لنشاط أجهزة الحكومة هو الاسترخاء الكبير فى تنفيذ قرارات السلطة البريطانية مما ألجأ الانجليز إلى الاستناد على قوات الاحتلال فى مقاومة النشاط الثورى .

وتظهر أهمية هذا العامل أيضا فى المراسلات المتبادلة بين اللنبى وكيرزون ، التى نشرت كتابا أبيض فى مارس ١٩٢٢

والتى انتهت إلى إصدار الحكومة البريطانية تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ معترفا باستقلال مصر وإلغاء الحماية . تكشف تلك المراسلات عن تحبيذ اللنبى لالغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ، ويذكر فى ١٧ نوفمبر ١٩٢١ مؤيدا رأيه «أن كل قرار لا يسلم بمبدأ استقلال مصر ويستبقى الحماية يجر لا محالة إلى خطر جدى من نشوب ثورة فى البلاد جميعها ، ويفضى على أى حال إلى الفوضى التامة فى الادارة فتصبح الحكومة مستحيلة ..» (٥) ويشرح هذا الأمر قائلا «يجب ألا يغيب عن الأذهان أن كيان الحكومة كله مصرى وأن الموظفين البريطانيين تكاد وظائفهم تكون محصورة فى مناصب الاستشارة والتفتيش والأعمال الفنية . وعلى هذا فإن من المستحيل القيام بالهيمنة البريطانية بدون المعاونة التامة من جانب المصريين فى كل فروع الادارة . كما اتضح ذلك فى ربيع ١٩١٩ حينما عولج السير بالحكومة بدون وزارة ومع إضراب جانب عظيم من الموظفين المصريين ..» ويستطرد اللنبى شارحا وجهة نظره «ولا شك أنه يسع أية قوة عسكرية قوية تعمل بشدة أن تحافظ على درجة معينة من تأمين الحياة والأملاك فى المدن الكبرى ولكن المهمة تكون أشق بمراحل فى الأقاليم . على أنه ليس ثم ادارة عسكرية يسعها أن

تأمل أن تحل محل الادارة المعقدة للحكومة المدنية أو تحول دون المصالح المالية والاقتصادية أن يلحقها ضرر بليغ . وقد قضى المستشارون فى عملهم أكثر من عامين اعتقاداً منهم أن ستنتهج سياسة المنح السخية ، وأدخلوا بلا شك هذا الاعتقاد فى روع وزراء مختلفين وغيرهم ممن هم على اتصال بهم . لذلك يشعر المستشارون أن عليهم أن يبينوا أنه إذا اتبعت سياسة مناقضة لهذه لا يستطيعون أن ينتظروا أن يحتفظوا بثقة الوزراء المصريين ، أو أن يكون فى مقدورهم أن يؤدوا خدمة نافعة فى المستقبل » ، وفى تلك الرسائل كان اللنبى حريصا على أن يبلغ حكومته عن ردود الفعل التى لوحظت فى جهاز الدولة وفى حركة الموظفين خاصة ، ازاء اعتقال سعد زغلول وبعض من أصحابه ونفيهم إلى جزيرة سيشل فى ديسمبر ١٩٢١ ، وذلك بتفاصيل تتعلق بكل وزارة وحجم الاضراب فيها (٦) . ودافع عن اقتراحه الغاء الحماية فى ١٢ يناير ١٩٢٣ بقوله «لسنا نستطيع أن نرجو أن يستمر جو الانتظار الهادىء الموجود الآن .. ولئن حبطت آمال مصر مرة أخرى ليكونن من المستحيل الحصول على حكومة مصرية .. وأصر أن ينتهي الأمر إذ ذاك أما إلى ضم بلاد عنيفة العداء لا معوى عن حكمها بالقوة ، وإما إلى التسليم التام من

جانب حكومة جلالة الملك (البريطانية) » (٧) ثمة علاقة تلازم وثيق بين الوجود العسكرى الاجنبى وبين السيطرة الأجنبية على أجهزة الحكم . والوجود العسكرى ضامن لهذه السيطرة ولجعل النصائح ملزمة وتحويل الخبرة إلى سلطة ، والوجود العسكرى مضمون بهذه السيطرة أيضا، وليس من جيش محتل يطمئن إلى استمرار وجوده فى بلد محتل إلا إذا انعكس هذا الوجود سيطرة على الدولة والاحتلال مقصود به فى النهاية تحريك سياسة البلد المحتل سياسيا واقتصاديا إلى ما يحقق مصالح المحتلين . ومن جهة أخرى فحيث يكون جيش الاحتلال هدفا فى ذاته ضمانا لقاعدة عسكرية استراتيجية أو لطريق مواصلات حيوى ، فإن السيطرة على أجهزة الحكم لازمة لضمان هذا البقاء ولتحريك سياسة البلد المحتل إلى ما يخدم هذا الوجود العسكرى .

أدركت الحركة الوطنية المصرية هذه العلاقة ، مما عبر عنه سعد زغلول مرارا بأن رقابة أجنبية تستند إلى قوة عسكرية هو الحماية عينها . وأدركت أيضا أنه فى نطاق هذا التلازم الوثيق بين الاحتلال العسكرى والسيطرة المدنية على جهاز الحكم ، فإن أضعف الحلقات فى الوجود الاستعمارى البريطانى هى السيطرة الانجليزية على جهاز الدولة . وذلك بسبب إن لم يكن للحركة

الوطنية الثورية قوة عسكرية قادرة على مواجهة الاحتلال ، وبسبب ما سلفت الاشارة إليه عن طبيعة أوضاع الحكم المصرى وسيطرة الانجليز عليه بقنوات اصطناعية غير مباشرة . وأن أجهزة الدولة ومؤسسات الحكم والادارة ليست بمعزل عن الحركة الوطنية الشعبية ولا تقف خارجها وفى مواجهتها كجيش محتل ، ولكنها فحسب جزء متميز بوضعه وبوظيفته عن سائر الجماعات المصرية ويمكن أن تشملها الحركة الثورية فيتجرد المستعمر من أهم أسلحته . وكان شعار الاتحاد والتضامن بين المصريين جميعا مما أمكن به استيعاب هذه الاجهزة فى الاطار الواسع الفضفاض للحركة الوطنية . كما كان شعار المقاطعة وعدم التعاون مما أمكن به تحريك تلك الأجهزة ضد السلطة البريطانية ، إذ فقدت تلك السلطة معاونة الأجهزة لها بنسبة متزايدة فى الإدارة والحكم وتعرت عن الممارسة الشرعية لهما . ولم تكن مشكلة الانجليز ساعتها ، أن يوجدوا عسكريا أو لا يوجدوا ، فإن قوتهم العسكرية كانت قادرة على البقاء فى المدى القصير على الأقل ، سيما فى مواجهة حركة ثورية تستند فى الأساس إلى الوسائل السلمية المشروعة ، ولا تلجأ إلى العنف إلا فى أشكاله البسيطة ، تحطيما لبعض المرافق ، أو قياما بالاغتيالات السياسية الفردية كوسيلة

مساعدة سرية . ولكن كانت مشكلتهم أن فى الاستيعاب الوطنى لأجهزة الحكم وحصارها عزلاً لها عن الاستعمار ، يجعل حكومة الانجليز لمصر مستحيلة كما عبر عن ذلك اللورد اللنبى ، ويجرد جيش الاحتلال من وسيلة حمايته المدنية ، ويجرده من وظيفته السياسية وهى تحريك الحكومة المصرية لخدمة المصالح البريطانية .

ومن هنا يظهر أن سعد زغلول عندما كان يقول «نحن أقوياء» لم يكن يضلل ولا كان يهيم فى أحلام بعيدة عن الواقع ، وإنما كان سياسيا عمليا يصدر عن حساب سليم فى أساسه للممكنات المتاحة . ومن هنا يمكن فهم حديث ملنر إلى سعد فى ٢١ يوليو ١٩٢٠ إبان مفاوضاتهما «إننا الآن فى مصر حائزون على كل شىء وفى قبضتنا كل شىء ، ونريد أن نتخلى لكم عما فى أيدينا فى نظير أن تقبلوا أن يكون مركزنا الفعلى عندكم مركزاً شرعيا ..» فرد عليه سعد «إننا لا نستطيع مطلقا أن نوافق على تصحيح مركزكم فى مصر فيصبح المركز الفعلى مركزا شرعيا لأن هذا يناقض الاستقلال على خط مستقيم ، وما أتينا إلى هنا إلا بحثا عن الاستقلال .. ولا نقبل أن يكون لبريطانيا مراقبة علينا مستندة إلى قوة عسكرية فى بلادنا ، إننا ما أتينا هنا إلا للخلاص

من هذا ..» (٢٨) ودلت هاتان العبارتان على أنه كان واضحا لدى سعد وملنر العلاقة بين القوة العسكرية والرقابة على الدولة ، وأن ما كان يعنيه ملنر «بالشرعية» ليس مجرد اعتراف حقوقى بالوجود العسكرى البريطانى بمصر ، ولكنه اشراف ونفوذ على جهاز الدولة . وليست الشرعية المعنية فى سياق هذا الحديث ، مجرد مسألة معنوية شكلية أو صورية ، ولكنها ذات تأثير فعلى حاسم من جهة تجريد الحركة الوطنية المصرية من أهم أسلحتها الموجهة لإضعاف حلقات الوجود البريطانى بمصر .

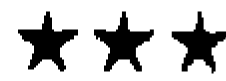
على أن أخطر ما كان يتهدد تلك القوة لثورة ١٩١٩ ، أن حصار الحركة الوطنية لأجهزة الحكم واستيعابها النسبى لها . كان يأتى بما استطاعته قيادة الثورة وواتت به الظروف التاريخية والسياسية ، من تعبئة شبه اجماعية لجماهير الشعب ، حتى لم يعد خارج نطاق الحركة الوطنية الثورية إلا عناصر محدودة ، لا تظهر أمام الرأى العام شبه الاجماعى إلا بصورة الخارجين على مبدأ الوطنية وعلى «المصرية» ذاتها ، وهو أمر لم يكن يجرؤ أحد وقتها على المواجهة به . وبهذا بدت الحركة الوطنية مستوعبة «للمصرية» بحيث لم يكن فى مقدور جهاز الدولة كجهاز مصرى أن يجد بديلا عنها من القوى السياسية فى البلاد . وبهذا أمكن

فصم صلاته بالسياسة البريطانية وعزله عنها . أو بالأقل انفلات تلك الصلة والتهديد بعزله كلية عنها . ومن ثم كان شعار «الاتحاد» يفيد ضمان التعبئة الشعبية بهذا الذى يشبه الاجماع . والذى يمكن به اضفاء طابع الشرعية على شعار المقاطعة ومنع التعاون، الذى دفع هذا الجهاز إلى موقف المناوأة السياسية لبريطانيا .

ووجه الخطورة فى ذلك ، أن أجهزة الحكم والادارة بحكم تنظيمها الداخلى تجنح إلى إقرار الأوضاع الراهنة وإلى الابتعاد عن النشاط السياسى الثورى . وهى بحكم تكوينها التاريخى فى مصر تنتمى بقياداتها العريضة إلى الفئات الاجتماعية المحافظة . ولم يمكن تحريكها سياسيا إلا بحركة شبه اجماعية استوعبت المصرية بحيث لم يعد ثمة بديل مصرى ترتبط به أو بالأقل تلتزم الحيدة السياسية بشأنه . وبهذا فإذا أمكن فى أية انعطافة سياسية تقسيم التكتل العريض ، وايجاد جماعة سياسية تتسم بالمصرية وتسلك غير سبيل الحركة الوطنية . أمكن تأليف تلك الأجهزة لصالح سياسة الاعتدال الخادمة وقتها لمصالح النفوذ البريطانى . لذلك كان جهد الحركة الوطنية محافظة على سلاحها أن تحتفظ بهذا الوضع شبه الاجماعى ، وهو هدف من أشق ما يكون فى الممارسة السياسية . وأن تتبع مفاوضات سعد ملنر

حسبما كشفت عنها مذكرات الأستاذ محمد كامل سليم (٩) . لتكشف عن مدى الجهد الذى بذله ملنر بمعاونة عدلي يكن لتعميق الخلاف داخل قيادة الوفد بين المعتدلين وبين سعد زغلول ومن وقف معه ، ومدى الجهد الذي حاوله سعد زغلول بالصبر والمثابرة والمناورة ليكون انقسام المنقسمين من المعتدلين محض انسلاخ لأفراد فى قيادة الوفد لا يصدع ولا يمس التكتل الجماهيرى العريض . ومن هنا كان حرص الوفد على ألا يظهر كحزب من الأحزاب وأن يضطرد أدبه السياسى على ذكر كونه وكيلا عن الأمة وليس حزبا . أى «وفدا» وليس جماعة من الجماعات ، لتظل له القدرة على استيعاب المصرية . ومن هنا يظهر أن سعد زغلول كان حريصا على أن يبقى صيغته السياسية محددة فى مسألتى الاستقلال والديمقراطية بوصفهما الجامع الشامل . ومن هنا كان حرص سعد فى مفاوضاته جميعا مع الانجليز ، أن يرفض سياسة الخطوات ، فأما أن يتحقق استقلال تام فعلى وإلا فلا اتفاق .. وأن أى اتفاق على خلاف ذلك ، حتى لو حقق كسبا جزئيا . كان خليقا بأن يفض التجمع العريض ويجرد الوفد من مكنة استيعاب «المصرية» ، وإذا قبل الوفد أخذ الجزء فإنه لا يستطيع فى المقابل إلا أن يدفع الكل . والخطوة الأولى لن تتلوها خطوة

ثانية . ويلحظ من تتبع تعليقات سعد والوفد فى هذه الفترة على مشروعات الاتفاق التى كانت تطرح ، أنه كان ينظر إليها بتقييم إجمالى عام ، هل ينطوى المشروع فى مجمله على حماية سافرة أو مستورة أولا . وكان يقود الحركة السياسية فى مصر بهذا المنطلق .



وقد يفوت القارىء اليوم ضخامة الشعور الكامن وراء تعبير سعد زغلول عن وقفته فى سبتمبر ١٩٢٤ أمام أقوى دول الأرض . فكهذا كانت بريطانيا وقتها ، امبراطورية لا تغيب عنها الشمس كما كان يقال ، تسيطر على نحو ربع الكرة الأرضية ، ذات قوة عسكرية وذات بأس فى البحر والبر . وعبارة سعد تلك لم تكن إلا تعبيرا عن وقفة الشعب المصرى ضد بريطانيا على مدى ستة أعوام منذ انتهت الحرب العالمية الأولى وانفجرت ثورة ١٩١٩ . وإن إدراك سعد للمغزى التاريخى لتلك الوقفة حيث تواجه الحركة الوطنية المصرية أقوى دول الاستعمار ، وادراكه أنه قوى جدا بالحق وبالعدل ، هذا الادراك هو مما استحق به سعد أن يكون زعيما لشعب وقائدا لثورة . وما كان ليتبوأ مكان الزعامة لولا فهمه لمكامن القوة فى شعبه وقدرته على التعبير عنها ، ولا كان ليكون قائدا لثورة لولا إدراكه أنه يقف أمام

أقـوى قـوى الأرض . وبهذا النظر ارتفعت هامتـه السـياسية لتـطل علينا إلى اليوم - بعد أكثر من نصف قرن - بعبرة الدرس وحكمته .

فى ١٤ ديسمبر ١٩٢٠ دخل عبد العزيز فهمي ومعه جماعة «المعتدلين» على سعد في مقر الوفد بباريس ، وكانت الجفوة قد بلغت مداها بين سعد وبينهم بسبب تشدده في مواجهة الانجليز وايثارهم مسلك «الاعتدال والتعقل» . قال عبد العزيز فهمي لسعد «أسقطت يا سيدى من حسابك ومن تفكيرك أموراً أربعة على أعظم جانب من الأهمية :

١ - قوة بريطانيا الهائلة ونفوذها الطاغى وسلطانها الواسع بعد أكبر انتصار أحرزته فى تاريخها وتأثيرها فى الدول جميعا .

٢ - ضعف مصر الهائل وسيطرة الانجليز عليها سيطرة تامة .

٣ - عدم وجود المعين لمصر فى أية دولة فى الأرض ومصر فى عزلة تامة .

٤ - أن مشروع ملنر مفيد لأنه على الأقل ينقذ مصر من حالتها الحاضرة التعسة الشنيعة ويمنحها شيئا من القوة والقدرة على استئناف الجهاد والقيام بثورة فى المستقبل .

فأجاب سعد فى احتقار ظاهر ، حسبما يحكى محمد كامل سليم (١٠) «كيف يجوز لك أن تزعم أنى أسقطت كل هذا من حسابى ومن تفكيرى . أنت تتكلم فى بديهات بعضها ظاهر وبعضها مضلل . إنما أنت واخوانك الذين أسقطتم من حسابكم ومن تفكيركم أمرا واحدا على الأقل ، وهو على أعظم جانب من الأهمية والخطورة وبعد الأثر ، وهو: أن فى أعناقكم أمانة ، وهى السعى والجهاد للحصول على الاستقلال التام ، وليس لكى أن تقبلوا أول شىء أو أى شىء يعرض عليكم ، ما دام أنه دون الاستقلال بمراحل . أنتم تتلمسون المعاذير وتستطيلون الجهاد ، وتريدون خيانة الأمانة عن عمد وسبق الاصرار «فضج المعتدلون بالغضب» وخرجوا ساخطين .

وصف سعد مرة عدلى يكن زعيم «المعتدلين» وقتها بقوله «لا يفهم الوطنية كما نفهمها ، وهو عملى واقعى ، يرى الممكن فيسعى إليه والصعب فينصرف عنه ، ولا يفهم المثل العليا ولا يعرف التضحية كيف تكون» (١١) .

فى فبراير ١٩٢١ كان سعد زغلول لا يزال بباريس ، وكان الوفد يمر بمحنة صعبة قبيل خروج المعتدلين منه ، ونشر تقرير لجنة اللورد ملنر يتضمن توصيات اللجنة لحل المسألة المصرية .

كان التقرير بعيدا تماما عن الاستجابة للمطالب المصرية الوطنية ، وكان الوفد مهددا بالانقسام والمناورات تحيط بالجميع والمستقبل غير واضح المسار ، فعلق سعد على مشروع ملنر بقوله «أنه فى ذمتى واعتقادى مشروع حماية ، فلا يمكن لى مطلقا أن أحسنه للأمة بأية طريقة . وليس أمامنا الآن من طريقة عملية بعد رفضه ، إلا استمرار الكفاح واستئناف الثورة والجهاد بالطرق السلمية وغير السلمية ، المشروعة وغير المشروعة ، ومحاربة كل من يتصدى لتأييد الحماية ومشروعها الجديد ، واستمرار الاحتجاج على بقائها فى كل فرصة وكل مناسبة وغير مناسبة ، ثم التشنيع المستمر على الاستعمار البريطانى لبلادنا فى الداخل والخارج ، فى الداخل بالاثارة المستمرة ، وفى الخارج لايقاظ الضمير الدولى على مخازى الانجليز فى مصر والتنكيل برجالاتها الوطنيين . هذا هو برنامجى ومنهاجى حتى يأتى الله بالفرج . ولا يجوز مطلقا أن نسمح باليأس أن يتسرب إلى قلوبنا ، ولا للضعف أن يتسلل إلى نفوسنا ، كما لا يجوز أن ننسى أهدافنا العليا وهى الحرية والاستقلال والجلاء التام عن البلاد . ولابد أن يأتى يوم يعلو الحق على الباطل . هذه سنة الله وسنة الطبيعة ودرس التاريخ . وليس العجز يعد على الأمم . وإنما العار أن تضع الأمة غل الاستعباد

فى عنقها وآن تقبل المهانة فى استسلام وأن تذل نفسها برضائها لعزة الأجنبى» (١٢) .

وبهذا المعنى نفسه خطب فى الاسكندرية بعد عودته من مباحثاته الفاشلة مع ماكدونالد فى أكتوبر ١٩٢٤ فدعا لاستئناف الجهاد ، وأكد على ما يراه مكمن القوة المصرية محرضا على الاتحاد والتماسك والتضامن تحت لواء : الاستقلال التام لمصر والسودان . وذكر «إن كانت حياتى قصيرة فإن حياة الأمة طويلة . يجب على الآباء أن يلقنوا هذه المبادىء وهذه الحقائق لأبنائهم» (١٣) .

تلك كانت وجهة سعد كمعبر عن ثورة ١٩١٩ وعن الحركة الوطنية المصرية . إذ تصدى المصريون لبريطانيا ذات القوة الهائلة ، وهم مدركون أن معركتهم ليست سهلة وأن النصر ليس سريعا ، ولم يكن تصديهم لها نوعا من المجازفة ولا كانت مطالبهم رؤى وخيالات ، ماداموا عاقدين العزم على مقابلة الصعب بالتضحيات واستطالة الزمن بالصبر وطول النفس . وسعد زغلول عندما يفاوض ملنر أو ماكدونالد لا يساوم بيعا وشراء ، ولكنه يواجه المستعمر بمطالب الحركة الوطنية ويستكشف حصيلة جهاد الشعب فى الفترة الماضية . وهو إذ يرفض ما دون الاستقلال ،

فذلك لاعتقاد منه أن الاستقلال لا يتجزأ . أما استقلال وأما حماية ، وجوهر المسألة يتعلق عنده برفض الرقابة الأجنبية على الدولة ، ورفض الاحتلال العسكرى . والمساومة تكون فى غير هذين الأمرين . والرفض هنا ليس فعلا سلبيا يفيد محض عدم الرضاء ، ولكنه رد ايجابى يفيد نفى العدوان واستمرار الجهاد ، ليس تجاهلا صوريا للواقع الراهن ، ولكنه تحد مناجزة لهذا الواقع ولاستمراره .

٢
مفاوضات ما قبل الاستقلال

بين سعد وملنر

انفجرت ثورة ١٩١٩ فور نفي سعد زغلول وأصحابه في ٨ مارس . ثم أفرج عنهم بضغط الثورة في ١٧ ابريل ، واذن لهم بالسفر من منفاهم بمالطة إلى باريس حيث يعرضون مطالب مصر على مؤتمر السلام المنعقد هناك . ولكن الوفديين وجدوا صدا تاما من المجتمعين بفرساي ، وأعلن الرئيس الأمريكي ويلسون اعترافه بالحماية البريطانية على مصر في ٢٢ أبريل ، ثم تضمنت معاهدة الصلح مع المانيا اعترافا بتلك الحماية ، وبدا واضحا أن الدول الكبرى المنتصرة في الحرب إنما اجتمعت لتعيد اقتسام العالم غنيمة فيما بينها ، وأنها استقرت على ترك مصر لبريطانيا . وبدا واضحا أن الأوضاع الدولية قد أقرت نهائيا ورسميا لأول مرة منذ الاحتلال البريطاني لمصر ، أقرت أن تكون مصر داخل نطاق الحوزة البريطانية ، ولم يعد ما تخشاه بريطانيا من تحد لنفوذها في مصر من جهة العلاقات الدولية .

ولكن كان قدر بريطانيا مع مصر أنه كلما هدأ لها الميدان الدولى ، عاكستها الأمواج داخل مصر . حدث ذلك فى ١٩٠٤ ، ويحدث الآن فى ١٩١٩ على نحو أكثر عتوا . وبعد اذ انفجرت الثورة المصرية عالجتها السياسة البريطانية بما يلزم من عنف ولين ، ثم قررت فى مايو تشكيل لجنة «لبحث أسباب الاضطرابات» ولترسم استراتيجية حكم مصر فى الفترة التالية ، وشكلت اللجنة برئاسة اللورد ملنر وزير المستعمرات فى سبتمبر ووصلت إلى القاهرة فى ٧ ديسمبر ١٩١٩ حيث بقيت إلى ٦ مارس ١٩٢٠ .

وكما قوبل الوفديون بمقاطعة دولية من دول مؤتمر فرساى ، قوبل ملنر فى مصر بمقاطعة شعبية تامة نفذها ضده الوفديون بشعار عدم التعاون ، ولم يستطع أن يحادث مصريا من أنصار السياسة البريطانية إلا خفية ومسارقة . وثبت لديه يقينا إلى أى مدى بعيد يسيطر الوفد على الحركة السياسية المصرية وإلى أى مدى بعيد يرفض المصريون التعاون مع المستعمر . وما أن عاد إلى لندن حتى دعا الوفد من باريس إلى مفاوضته فسافر إليه الوفد المصرى وبدأت مفاوضات سعد ملنر التى استطالت من يونيو إلى نوفمبر سنة ١٩٢٠ .

تم أول لقاء بين الطرفين فى ٦ يونيو ، واجه كل صاحبه ومن ورائه تجربة الشهور الماضية . يجلس سعد ومن ورائه مقاطعة المصريين لملنر ، ويجلس ملنر ومن ورائه مقاطعة الدول الكبرى لمصر وتنكرهم لمطالبها . على أن أخطر مشاكل المصريين حول مائدة اللقاء كانت فيما بينهم لا فى الجانب المقابل . فإذا كان الوفد قد أثبت هيمنته على الحركة السياسية المصرية ، فإن فريقا من قادة الوفد قد أحبطتهم نتيجة «فرساى» وازعجهم قيام الثورة المصرية نفسها ، وبدء وا يلوذون بالسياسة البريطانية من خلال عدلى يكن الذى كان يقودهم من خارج الوفد . ولم تكن المشكلة أن يتخلف فرد أو أفراد ، ولكن كانت المشكلة أن يثير هؤلاء انقساما فى الكتل الواسعة الملتفة حول الوفد .

والظاهر أن لم تكن مفاوضات سعد ملنر مفاوضات بالمعنى الدقيق للكلمة من وجهة نظر الانجليز . بل كانت جزءا من مهمة البحث والتقصى التى ندبت لها لجنة ملنر ، كما كانت أيضا مشاغلة سياسية لتحقيق الخلاف داخل الوفد من جهة ، ولتجميد الأوضاع فى مصر حذر أن تتصاعد موجات الثورة من جديد . بعث ملنر إلى اللنبى فى ٣٠ يونيو يقول إنها «ليست فى الواقع إلا مناقشات تقصد اكتشاف مدى الاستعداد الموجود عندهم» (١٤) .

وتظهر طريقته فى إدارة المناقشات أنه إنما كان يتحسس مواقع الخطو ويدرس ردود الفعل تجاه كل نقطة تثار ، ويثير المسائل المختلفة واحدة واحدة لا ليصل إلى قرار ، ولكن ليستطلع وجهات النظر ، ثم يجىء فى الاجتماع التالى ليثيرها ذاتها واحدة واحدة مع تفصيلات أكثر ، ويترقى فى طرح التفاصيل لا ليحسم ولكن ليحلل وليدرس ما وراء كل موقف .

كان يمكن أن تنقطع المفاوضات فى ١٧ يوليو ، اذ قدم كل طرف مشروعا رفضه الطرف الآخر . ولم يبق من هذا التاريخ إلا المد والمط كسبا لوقت ينضج فيه الانقسام داخل الوفد ، ويتبين فيه الحجم السياسى للمنقسمين ومدى نفوذهم لدى الرأى العام المصرى . وجاء مشروع ملنر الثانى فى ١٨ أغسطس يكتسب معناه ودلالته من هذا السياق .

المهم فى صدد الموضوع المطروح ، بيان تصور كل من الطرفين لفكرة الاستقلال والتبعية وتحليلها إلى عناصرها السياسية المختلفة ، وموقف كل من الطرفين بالنسبة لكل من هذه العناصر وتطور هذا الموقف . وقد كان ملنر ماهرا للغاية فى تحليله لعناصر العلاقات المصرية البريطانية ، وكانت له المبادرة فى هذا الأمر ، من خلال الأسئلة التى بدأ بها المفاوضات وألقى

بها تباعا على بساط البحث . فكان هو السائل وكان سعد المجيب . ويفهم من تتبع النقاش ، أن عناصر المسألة تحددت عن قسمين رئيسيين ، سلفت الاشارة إليهما ، الوجود العسكرى والهيمنة على أجهزة الحكم. وكلا الأمرين قائم ولكن ينقصه «الشرعية» أى تسليم المصريين به ، وكان جهد ملنر أن يبتدع نوعا من الاستقلال تمنحه بريطانيا لمصر ، مقابل أن يرضى المصريون بوجودها العسكرى وهيمنتها على دولتهم . ووجدت بريطانيا فى الاعتراف الدولى بحمايتها على مصر منطلقا لها . فإن الأوضاع الدولية الجديدة التى انتجتها الحرب والتى سمحت بهذا الاعتراف لتسمح لبريطانيا بأن تستخلص موافقة دولية على أن تكون هى المهيمنة على الامتيازات الأجنبية لحسابهم فى مصر ، فتكسب ازاء الدول الكبرى سيطرة منفردة على مصر لم تخلص لها من قبل بسبب الامتيازات ، وتكسب ازاء المصريين الهيمنة على أجهزة الحكم باسم رعاية مصالح الأجانب . وتحددت عناصر المسألة ، من وجهة النظر البريطانية فى وجود القاعدة العسكرية ، والتحالف بين البلدين ، وحق مصر فى تبادل التمثيل السياسى مع الدول الأخرى والوضع المتاز لمثل بريطانيا فى مصر ، والموظفين البريطانيين ، فى الحكومة المصرية ، والامتيازات الأجنبية . وإذا أمكن التبسيط

فى التعبير أمكن القول بأن ملنر فى مباحثاته كان يحلل المسألة إلى عناصر عديدة ، بينما كان سعد زغلول يجمع العناصر فى صورة واحدة ويقيسها فى وضعها الشامل ، وكلما وجد أن الأمر يتمخض عن بقاء القاعدة العسكرية والاشراف على الدولة بأية صورة من الصور قال «هذه فى ذمتى واعتقادى حماية» .

عرض ملنر مبدأ التحالف بين البلدين ، ولم يرفض سعد قيام حلف بين بريطانيا ومصر المستقلة . ولعل هذه هى النقطة الوحيدة التى سمح أن يقدم فيها تنازلا للطرف الآخر مقابل الغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال . ولكنه رفض التحالف الدائم لأنه «لا شىء أبدى فى هذه الدنيا» كما تحفظ بالنسبة لتحديد مجالات مساعدة مصر لبريطانيا وحجم هذه المساعدة . وعرض ملنر مسألة القاعدة العسكرية . للمحافظة على القنال ودون التدخل فى شئون مصر الداخلية ، فأجاب سعد فى البداية «ليس هذا ممكنا وانجلترا عندها مواقع كثيرة أخرى تحت يدها .. لماذا لا يكتفى بالجيش المصرى» وذكر أن للدفاع عن القنال نظاما حددته معاهدة ١٨٨٨ التى ضمنت حيدتها واكتفت بدفاع مصر عنها ، وإذا كانت بريطانيا تكتفى بابقاء قوة صغيرة بمصر كما أشار ملنر ، فهى لا تكفى لدفع اعتداء . ثم أجاب على تصميم ملنر «آسف لا يمكننا

مطلقا الموافقة على ذلك ، لأن الجلاء مطلب أساسى من مطالبنا ..» (١٥) . ومن الملاحظ أن ما عرضه ملنر من حصر القاعدة العسكرية بمنطقة القنال لم يكن أمرا مقررا فى السياسة البريطانية . وكان ملنر أكثر صراحة فى حديث له مع عدلى يكن حيث ذكر أن حياد القنال المضمون بمعاهدات دولية لا يمكن من استقرار القاعدة هناك ، ولابد أن تكون القاعدة فى شرق الدلتا وأن يسمح بنقل الجنود من مكان إلى آخر (١٦) . وهذا النظر نفسه أكده المشروعان البريطانيان اللذان قدما فيما بعد . أما عن التمثيل الخارجي ، فقد عرض ملنر ألا تمارسه مصر المستقلة إلا بواسطة الممثلين البريطانيين . لأن الممثلين الأجانب لا هم لهم إلا بث الدسائس وتحريك الفتن ضد بريطانيا ، ولكنه ووجه بمعارضة واضحة من المصريين حتى من المعتدلين ولعل هذه النقطة هى الوحيدة التى أبدى عدلى يكن اعتراضا بشأنها . وتهددت المفاوضات بالانقطاع لولا أن ملنر فى الاجتماع التالى يزف «بشرى» موافقة بريطانيا على أن يكون لمصر حق تبادل التمثيل السياسى مع الدول الأخرى . ثم استمسك بأن يكون لممثل بريطانيا وصف ممتاز لا كغيره من ممثلى الدول فرفض ذلك باعتبار أنه من مظاهر الحماية (١٧) .

كان هذا مجمل الحوار الدائر بين الطرفين حول المسألة العسكرية والعلاقات الخارجية . أما الوجود المدنى البريطانى فى جهاز الدولة المصرى ، فقد عولج من خلال مسألة الموظفين الانجليز والامتيازات الأجنبية . بدأ الحديث عن المسألة الأولى بقول ملنر أن بلاده يهمها ضمان الاصلاحات التى باشرتها فى مصر ، وذلك ببقاء الموظفين الانجليز ضمانا لحسن سير العمل «وضمانا لتنفيذ المحالفة» ، فأوضح سعد استحالة إبقاء هذا «الجيش العرمرم» ممن يشغلون الوظائف الفنية والادارية ، أشار ملنر إلى بعض وظائف كبرى لا يمكن التخلى عنها ، كالمستشار المالى ذى السلطة القاطعة بالنسبة لمسائل الدين العمومى والرأى الاستشارى فيما عدا ذلك ، وموظف كبير بادارة الأمن العام بالنسبة للاجانب ، وضابط كبير يرأس أركان حرب الجيش . فأجاب سعد بأن ضمان حسن سير العمل يكفله النظام الديمقراطى البرلمانى ، وأن هذا النظام يتنافى مع وجود رقابة ما للانجليز على أجهزة الحكم ، أما الموظفون الانجليز الكبار «فإن مصر لا يمكن أن توافق على ذلك ، لأنه احتلال مدنى شامل ، واشتراك لبريطانيا مع مصر فى السيادة الداخلية ..» وذكر أن مصر قد تحتاج إلى خبرة الأجانب ولكنها لا تحتاج إلى حكم

الأجانب وأن ثمة فارقا بين الكفاءة والسلطة ، وأشار إلى تجربة محمد على حيث أدار مصر بمهارة رغم أميته ، واستفاد من خبرة الأجانب دون أن يستمدوا سلطة لهم إلا منه شخصيا . وكان ملنر يعقب دائما على حديث سعد بأن الرأى العام البريطانى سيصيبه الذهول لو أجيب سعد إلى كل ذلك (١٨) . وفى ٧ يوليو ارسل ملنر إلى سعد مذكرة تفصيلية عن مسألة الموظفين تضمنت بيانا بعدد الموظفين البريطانيين ونسبتهم إلى مجموع الوظائف ومرتباتها ، وأشارت إلى أن النظام المالى المصرى بناه الموظفون الانجليز ، وإذا ابتعد هذا العنصر خيف تقوض أركان الحكومة ، ولكن مع زيادة عدد المصريين الأكفاء يمكن اختصار عدد الأجانب تدريجيا ، ولكن إذا ترك لمصر اخراج من تشاء ، فهى تفقد أعظم مستشاريها خبرة ، وتفقد الجاليات الأجنبية ضمان حسن معاملتها ، ولا ينتظر أن يسكت المعتمد على مثل تلك الحالة ، لأنه (ممثل حليفة مصر وأسمى الأجانب مقاما فى مصر بل حامى مصالح الأجانب فيها) وانتهت المذكرة إلى عدد من الاقتراحات منها : «٣ - الوظائف الآتية يستمر الانجليز يشغلونها لخطورتها وذلك لفترة من الزمن يتفق عليها وهى وظائف المستشار المالى والمستشار القضائى ومدير الأمن العام للأجانب فى وزارة

الداخلية ووكيله ، وهؤلاء يعينون باتفاق بين الحكومتين البريطانية والمصرية ، وذلك لايجاد ضمانات للدول لالغاء الامتيازات الأجنبية ..» وأضـافت إلى هذه الوظـائف النائب العـام لدى المحـاكم المختلطة وحكمدار البوليس فى القاهرة والاسكندرية وبورسعيد وضابط كبير بوزارة الحربية يشرف على الجيش المصرى . وقد قرر الجـانب المصرى رفض هـذه المذكرة إلا فيما تضمنته من مبدأ تعويض الموظفين الأجـانب عند تركهم الخدمة تعويضات سخية ، وترتب على ذلك أن أجلت جلسات المفاوضات إلى أجل غير مسمى (١٩) .

أما عن الامتيازات الأجنبية ، فالحاصل أنه نظام يقيد سلطة الدولة وسيادتها على قاطنيها فى التشريع والقضاء بالنسبة لرعايا الدول الأجنبية المتمتعة بهذه الامتيازات . فيكون لهم قضاؤهم القنصلى أو محاكم خاصة (المحاكم المختلطة) تختص بنظر منازعاتهم ، كما أن التشريعات الوطنية لا تطبق على رعايا أية دولة منهم إلا بموافقة تلك الدولة . وقد تمتع الرعايا البريطانيون بهذه الامتيازات حتى احتلت بلدهم مصر ، فلما احتلتها استشعرت فى الامتيازات ما ينتقص من سلطانها الفعلى فى مصر ، واطمعها الاحتلال فى أن تحتكر النفوذ دون غيرها ،

ووجدت فى هذا النظام نوعا من الشركة البغيضة يعرقل سعيها الانفراد بمصر ويقوى من امكانات تنافس تلك الدول معها . ولم يكن فى مكنة الانجليز فى اطار المحاذير الدولية السائدة أن يلغوا الامتيازات ، وتشبثت الدول بامتيازاتها مناوئة للنفوذ البريطانى وصف كرومر الموقف بقوله ، أن أعداء بريطانيا يشكون فى حيدتها معهم إذا ألغيت الامتيازات ولم يكونوا ليتركوا حقوقا كسبوها بمصر تسهيلا لمهمة منافسيهم الانجليز ، كما أن أصدقاء بريطانيا كانوا يرفضون التنازل عن الامتيازات ما داموا لا يضمنون بقاء بريطانيا فى مصر وهى تعلن دائما عزمها على الجلاء (٢٠) .

فلما تحقق الاعتراف الأوروبى بمركز بريطانيا الفعلى بمصر فى ١٩٠٤ . بدأ التفكير فى تطوير نظام الامتيازات بما يمكن من استيعابه لصالح الانجليز . حسبما يلاحظ من التقارير السنوية الثلاثة لكرومر عن أعوام ١٩٠٤ ، ١٩٠٥ ، ١٩٠٦ ، فارفق بالتقرير الأول مذكرة لمستر برونيات تندد بمساوىء الامتيازات ، وتبلور المشروع بالتقريرين اللاحقين ، بتكوين مجلس لشورى القوانين بتشكيل مصرى أجنبى تكون موافقته على التشريعات السارية

على الأجانب بديلا عن موافقة كل من الدول المعنية ، ويتراوح عدد أعضائه بين ٣٦ و ٤٠ عضوا منهم أربعة مصريون هم مستشارو وزارات المالية والحقانية والداخلية والأشغال (وكانوا انجليزا) فضلا عن عدد من قضاة المحاكم المختلطة وخمسة تعينهم الحكومة المصرية من غير الموظفين ، وعشرون يمثلون رعايا الدول ذات الامتيازات . ولا تكون قرارات المجلس نافذة إلا بتصديق كل من الحكومتين المصرية والبريطانية (٢١) . ومن الجلى إن كان هدف المشروع جمع المصالح الأجنبية فى اطار واحد يخضع للهيمنة البريطانية ، ويربط مصالح الرعايا الأجانب بالاحتلال البريطانى لينتقل ولاؤهم بالتدريج إلى السلطة البريطانية . كما استهدف ايجاد صفة قانونية شرعية للحكومة البريطانية فى الاشتراك فى مباشرة التشريع المصرى عن طريق حقها فى التصديق على قرارات تلك الهيئة ، وهو أمر لم يوات السلطة البريطانية قط . ولكن المشروع تلكأ ولم يجد طريقه إلى النور . فلما وضعت مصر تحت الحماية فى عام ١٩١٤ ندب المندوب السامى فى ٢٤ مارس ١٩١٧ لجنة برئاسة سير برونيات مستشار دار الحماية لاعداد مشروعات تعديل الامتيازات فى اطار الوضع الجديد ، وأعدت المشروعات على أساس دمج القضاءين الوطنى والمختلط وتغليب

العنصر البريطانى فيه عن طريق الوظائف ذات الأهمية الخاصة كمنصب النائب العام . وإنشاء مجلسين نيابيين ، أحدهما استشارى يتكون من النواب المصريين ، وآخر يملك السلطة التشريعية يتكون من مصريين وأجانب ويشكل بالانتخاب والتعيين. وقد ذاع نبأ تلك المشروعات عندما أرسلت إلى رئيس الوزراء حسين رشدى فى نوفمبر ١٩١٨ ، فقوبلت بموجة من الاستنكار الشعبى كانت من مقويات تفجير ثورة ١٩١٩ (٢٢) .

كانت الحلول البريطانية لمسألة الامتيازات تصدر دائما عن كونها وسيطا بين طرفين ، مصر والأجانب . وهى كشأن الوسطاء تمثل كلا من الطرفين لدى الآخر وتميل لمصادرة المصالح المتعارضة لصالحها وليكون لها أوفر الأنصبة . وقبل ثورة ١٩١٩ بدت بمظهر من يعبر عن مصالح مصر لدى الدول صاحبة الامتيازات بحكم كونها المسيطر على السياسة المصرية وبحكم تحدى الدول الأخرى لها ، فظهرت بمظهر المدافع عن «حقوق» مصر . ولكن بعد الحرب العالمية انقلب الوضع إذ تحدى المصريون سلطتها ، واعترفت الدول الأخرى بالحماية فى معاهدتى فرساى ١٩١٩ ولوزان ١٩٢٣ . فانقلب الدور البريطانى إلى التعبير عن مصالح الأجانب لدى مصر والظهور بمظهر الدفاع عن «حقوقهم».

وذلك على ما يلحظ في مفاوضات سعد ملنر وما تلاها . أثار ملنر الحديث عن الامتيازات و «حقوق» الأجانب ، فحاول سعد أن ينحي هذه المسألة عن نطاق المفاوضات الجارية بقوله «هذه المسألة ستعالجها مصر فيما بعد مع بريطانيا وسائر الدول الأجنبية» . فعاد ملنر يقترح أن تبذل بريطانيا نفوذها لدى الدول المعنية للنزول عن الامتيازات ، وأن ذلك يكون ممكنا «اذا اقترحت بريطانيا أن تحل محلها فيها حتى تطمئن هذه الدول على أن لا ظلم يقع على رعاياها في المستقبل» وأنه يسهل على مصر مستقبلا أن تفاوض بريطانيا وحدها بشأن أوضاع الأجانب بدل أن تفاوض ست عشرة دولة ، فأجاب سعد «إذا كان المراد بالغاء الامتيازات تطبيق القوانين المصرية على الأجانب كما تطبق على الوطنيين .. فذلك ما نبغيه ونرجو السعى فيه ، أما إذا كان الغاؤها يعنى تحويل السلطة فيها من أيد كثيرة إلى يد واحدة فهذا لا فائدة لنا منه ، ولا يعتبر إلغاء للامتيازات الأجنبية ، بل اقامة سلطة جديدة لبريطانيا فى مصر تتمكن بموجبها من التدخل في شئون التشريع والقضاء الخاص بالأجانب . وهذا اشتراك فى السيادة الداخلية لا تقبله مصر لأن فيه إخلالا خطيرا بالاستقلال ..» (٢٣) .

وفى ٥ يوليو قدم الجانب البريطانى مذكرة للمصريين فى هذا الشأن ، وهى ما عرف بمشروع «سيسل هيرست» أحد أعضاء لجنة ملنر ، مزجت المذكرة بين مبدأ حلول بريطانيا محل الدول ذات الامتيازات ، وبين إقرار التدخل البريطانى فى صميم نشاط أجهزة التشريع والقضاء والادارة . وحددت اقتراحات عشرة من أهمها تعيين المستشار المالى باتفاق الحكومتين لتكون له اختصاصات صندوق الدين وليكون مستشارا للحكومة المصرية ، وتعيين مستشار بريطانى بوزارة الحقانية يختص بجميع مسائل القضاء المتعلقة بالأجانب فضلا عن استشارته فيما تطلبه الحكومة، ويكون له حق الاتصال المباشر بالوزير ، واعتراف مصر بحق بريطانيا فى التدخل بواسطة ممثلها (المندوب السامى) لمنع تطبيق أى قانون مصرى على الأجانب إذا رآه مجحفا بهم . فضلا عن مسائل أخرى تتعلق بالمساواة بين الأجانب عامة والرعايا البريطانيين وضمان بقاء المدارس الأجنبية وتعلم اللغات الأجنبية ونشاط المعاهد الدينية الأجنبية والغاء صندوق الدين الدولى والمحاكم القنصلية وما إلى ذلك . وقد أجاب المصريون بمذكرة رفضوا فيها بحزم الاقتراحات الثلاثة الأولى باعتبارها «تتناقض كل المناقضة مع الاستقلال الذى تسعى إليه مصر» وأنه

إذا قبلت مصر نيابة بريطانيا عن الدول ذات الامتيازات ، فلمدة محدودة وبشروط خاصة . وفى اجتماع لاحق أوضح سعد تلك الشروط التى يقبل بها النيابة البريطانية ، وهى ألا يكون اعتراض المندوب السامى على تشريع ما موقفا لتنفيذه ، وأنه عند الخلاف يحتكم إلى عصبة الأمم . وكان رأى سعد أن المشروع يجعل بريطانيا «فى نظر الدول حامية فعلا وقانونا ، وتكون بالتالى حامية للأجانب من قوانين البلاد . ولا يخفى ما فى هذا من الخطر الوبيل على مصر ، فضلا عن أنه يجعل لانجلترا الحق فى التدخل فى كل الشئون الإدارية بحجة أنها تضر بالأجانب . فيأتى المندوب السامى البريطانى مثلا ويطلب من الحكومة عزل مدير ما لأنه ظلم الأجانب بقرار أو بمشروع قام به ، أو يعارض فى إنشاء ترعة بحجة أنها مضرة بمصلحة الأجانب ، والأجانب بطبيعة الحال منتشرون فى أنحاء البلاد لا فى بقعة واحدة ...» (٢٤) .

المشروعات المتبادلة :

وعلى الجملة فقد أرجئت اجتماعات الجانبين منذ ٨ يوليو ١٩٢٠ بعد رفض المصريين مذكرتى الموظفين والامتيازات . ثم جهد كل جانب أن يبلور موقفه فى مشروع اتفاق . شكل الوفد المصرى لجنة لوضع مشروعه من عبد العزيز فهمى ولطفى السيد

وعلى ماهر ومحمد على علوبة . وهى لجنة كانت تعمل بتوصيات من عدلى يكن أكثر مما تعمل بالتفاهم مع سعد ، وعمل سعد من جهة أخرى بمعاونة واصف غالى على إعداد مشروع آخر يستطيع به أن يقيس مشروع اللجنة الأولى وأن يراجعه . وجاء فى النهاية المشروع المصرى مزيجا من المشروعين يعكس وجهتى نظر وموقفين مصريين لا وجهة واحدة ولا موقفا واحدا . وعلى العموم فقد كان لسعد من هذا المشروع مادتيه الأولين ، حسبما يذكر محمد كامل سليم (٢٥) ، وقد تضمنتا اعتراف بريطانيا صراحة باستقلال مصر وإنهاء الحماية وإنهاء الاحتلال العسكرى لها واستردادها سيادتها الداخلية والخارجية كاملة باعتبارها دولة ملكية ذات نظام دستورى (مادة ١) وجلاء الجنود البريطانيين عن مصر خلال مدة يجرى الاتفاق عليها (مادة ٢) . ثم جاءت النصوص التالية تجيز لبريطانيا إنشاء قاعدة عسكرية على الشاطئ الآسيوى لقناة السويس لمدة عشر سنوات لا يكون لها حق التدخل فى شئون مصر الداخلية ولا الإخلال بحيدة القناة حسب اتفاقية ١٨٨٨ (مادة ٨) ، مع عقد تحالف دفاعى تشترك به بريطانيا فى الدفاع عن مصر وتساعدها به مصر فى حالة الحرب (مادة ١٠) ، ومع حق مصر فى تبادل التمثيل السياسى مع الدول .

الأخرى ، على أن توكل لممثلى بريطانيا النيابة عنها وفق آراء وزير الخارجية المصرى إذا لم تر موجبا لإنشاء تمثيل لها فى بلد ما ، وعلى ألا تبرم مصر تحالفا مع دولة ما دون موافقة بريطانيا (مادة ٩ ، ١١) . وبالنسبة للامتيازات تقبل مصر استعمال بريطانيا حقوق الدول الممتازة على ألا تشترط موافقة بريطانيا على التشريع المطبق على الأجانب وإنما يجوز لها الاعتراض على التشريع الذى لا نظير له فى شرائع الدول الممتازة أو إذا كان تشريعا ماليا لا يسوى فى المعاملة بين المصريين والأجانب ، ويبلغ الاعتراض فى مدة معينة ولا يوقف التنفيذ ، ويحتكم فى حالة الخلاف إلى عصبة الأمم . وكل ذلك محدود بخمس عشرة سنة فقط (مادة ٤ ، ٦) . ويحل موظف بريطانى محل صندوق الدين فى حالة إلغاء الصندوق ، ونائب عام مختلط بريطانى فى حالة إلغاء المحاكم القنصلية (مادة ٥ ، ٧) . والاتفاقية كلها محدودة بثلاثين عاما (مادة ١٢) .

أما المشروع البريطانى فلم يتضمن اعترافا باستقلال مصر ، بل تعهدا بريطانيا «بضمان سلامة أرض مصر واستقلالها» (مادة ١) مع إبقاء قوة عسكرية يحدد مكانها فيما بعد ، وذلك نظير مسئولية بريطانيا عن سلامة مصر ولحفظ المواصلات

الامبراطورية ومع حق استعمال الموانى والمطارات (مادة ٣) ، ومع الاعتراف بحق تبادل مصر التمثيل السياسي مع الدول الأخرى يكون لممثل بريطانيا حق التقدم على الآخرين (مادة ٩ و ١٠) . وبالنسبة للامتيازات فإنه نظير تعهد بريطانيا فى مساعدة مصر على استرداد حريتها في التشريع والادارة يكون لها حق التدخل لوقف أى قانون يمس الأجانب ولمصر ساعتها رفع الأمر لعصبة الأمم (مادة ٥ ، ٦ ، ٧) ويعين مستشاران مالى وقضائى بريطانيان يكون للأول اختصاص صندوق الدين وللآخر التأكد من حسن إدارة القوانين بالنسبة للأجانب فضلا عن استشارتهما (مادة ٤ ، ٨) ولم يحدد المشروع لسريان الاتفاق زمنا معينا (٢٦).

إن أوجه الخلاف بين المشروعين واضحة ، خاصة فيما يتعلق بمبدأ الاعتراف بالاستقلال والغاء الحماية ووظيفة القاعدة العسكرية وأماكن وجودها ودوام الاتفاقية ، وبالنسبة لسلطات بريطانيا عن الامتيازات وسلطات المستشارين المالي والقضائى . لذلك ما أن تبادل الطرفان المشروعين فى ١٧ يوليو ١٩٢٠ ، حتى تبادلا الرفض أيضا ، وقرر سعد مغادرة لندن إلى فرنسا ، لولا أن قابله ملنر ليستميله إلى البقاء والتداول فى الأمر . ولم يخف

عن فطنة سعد ما يسعى إليه ملنر من كسب الوقت ، ولكنه قبل البقاء بضغط المعتدلين فى الوفد وكانوا بغالبيتهم فى قيادة الوفد وقتها يحاصرون سعدا ، وكان هو بفعل الأفاعيل هجوما عليهم ومصابرة لهم والتفافا وراءهم ، وعينه على مصر حذر الانقسام ، ولم يكن قد قيس بعد حجم التأييد والقوة السياسية التى يتمتع بها كل من الجانبين .

تقدم الجانب البريطانى بمشروع ثان فى ١٨ أغسطس دلت صياغته على الخبث الشديد ، فقد علق فى ديباجته استقلال مصر على تحديد العلاقات بين البلدين ، وتعديل نظام الامتيازات . ثم علق الأمرين على مفاوضات تتم مع ممثلين معتمدين من الحكومة المصرية بما يشير إلى إزماع بريطانيا تخطى الوفد ، وتخطى سعد زغلول الذى كان يمثل الوفد لا الحكومة . وكان المرشح لتولى تلك المفاوضات هو عدلى يكن يؤيده من الوفد «المعتدلون» كما علق المشروع الاتفاقية على مفاوضات أخرى تجريها بريطانيا مع الدول ذات الامتيازات (بنود ١ . ٢ . ٥) . ثم أورد نصا تقدمت به بريطانيا خطوة فى الاعتراف باستقلال مصر مقابل صيانة مصالح بريطانيا والدول الممتازة عن طريقها والدفاع المشترك واستعمال الموانى وميادين الطيران وغيرها ، وابقاء قوة عسكرية

بمصـر (بنود ٣ ، ٤ ثانيـا) وأبقت من المشـروع الأول مـا يتـعلق بتـبـادل التـمـثيل الأجنبى والمركـز البـريطانى المـمتـاز بمصـر والمستشـارين المالى والقضـائى وحق بريطانيا فى منع تطبيق أى تشريع مصرى على الأجانب (بند ٤) ، ثم تضمن أحكاما تفصيلية عن حـقـوق الأجانب بالنسـبة للنشـاط التـعليـمى والدينى وغـيـرها (٢٧). ووجـه المناورة فى المشـروع ، أنه وإن لم يتـقـدم خطـوة عن سلفـه إلا فـى الوعـد بالاعـتـراف باسـتـقـلال مـصـر ، ومـقـابـل تلك الخطوة أوقف تنفيذ الاتفاق كله حتى تتم مفاوضة بريطانيا مع دول الامتيازات . وربط مسألة الاستقلال بمسألة الامتيازات (٢٨). ووجه المناورة أيضا أنه علق الأمر على تخطى سعد زغلول والوفد فى المفاوضات الرسمية ، الأمر الذى كشف عنه من قبل كتاب ملنر إلى اللنبى فى ٣٠ يونيو السابق الاشارة إليه . وإن ما وعد به من اعـتـراف بالاسـتـقـلال إنما توخـى فـيـه أن يـحـقق مـا لا يـصـبـو «المعتدلون» فى الوفد إلى سواه ، وبهذا يعمق الصدع بينهم وبين سعد وفريق المتشددين ، وهذا ما حدث فعلا ، إذ بلغ الخلاف حول المشـروع بين الوفـدين إلـى مـا كـان لابـد معـه من طرح الأمـر على الرأى العـام المصـرى ، وأيد ملنر فكرة اسـتطلاع الرأى العـام المصرى ، وذكـر فى تقريره فـيما بعـد (أن المناقشـة التـى تقـع بين

الجمهور في مصر على أثره تمكننا من سبره غور الرأى العام المصرى أكثر مما تيسر لنا سيره فيما مضى ، وأن نقارن بين قوة المعتدلين وقوة المتطرفين من أنصار الحركة الوطنية ..» (٢٩) .

انتقلت معركة المفاوضات إلى مصر . ناور سعد مع المعتدلين ، فأرسل أربعة منهم (محمد محمود ، عبد اللطيف المكباتى ، أحمد لطفى السيد ، على ماهر) ووعد بالا يرسل برأيه فى المشروع . ولكنه فى الوقت ذاته اتفق على أن ينضم إليهم فى مصر مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى وكانوا من أنصار اتجاهه ، ثم أرسل إلى النحاس وغيره خفية عن زملائه خطابات تتضمن رأيه كاملا فى المشروع وأن «فيه من خصائص الحماية ومميزاتها الشىء الكثير كالقوة العسكرية والتدخل فى التشريع للأجانب ، وفى القضاء المختص بهم ، والتدخل فى المالية وفى الحقانية بواسطة موظفين انجليز وجعل المعتمد البريطانى ذا مقام خاص .. وتقييد حرية مصر فى عقد المعاهدات .. وتولى انجلترا دون مصر عقد المعاهدات المتعلقة بالغاء الامتيازات مع الدول الأخرى ..»(٣٠) واستمرت حركة استطلاع الرأى العام حتى أوائل اكتوبر حيث أسفرت عن تحفظات أوجبت الحركة الوطنية المصرية وجوب مراعاتها فى المشروع وتعديل المشروع وفقا لها . ومن أهم تلك

التحفظات ، الغاء الحماية صراحة ، وعدم تعليق المعاهدة على انهاء الامتيازات ودخول مصر طرفا في مفاوضات الامتيازات ، وحذف ما يتعلق بالمستشار القضائي وقصر سلطات المستشار المالى على مسألة صندوق الدين ، والغاء كل حكم فى المعاهدة يقيد استقلال مصر . وعرضت التحفظات على ملنر فرفضها وانقطعت المفاوضات رسميا في ٩ نوفمبر ١٩٢٠ .

بهذا تكامل بحث الموضوع أمام لجنة ملنر فأنهت تقريرها ورفعته إلى مجلس الوزراء البريطاني بعد شهر ، ثم نشر التقرير فى ١٩ فبراير سنة ١٩٢١ . وكان أهم ما تضمنه أنه فى حديثه عن السياسة البريطانية المقبلة ، ينبغى مراعاة الشعور المتأصل وهو رغبة المصريين فى حفظ قوميتهم وجنسيتهم ، وأنه لا غنى عن ذلك لاستمالة العناصر «المعتدلة» حتى يمكن أن تنحاز لبريطانيا . وأنه لا يكفى لذلك إعطاء الحكم الذاتى لمصر ، لأن المصريين لا يعدون أنفسهم من جملة الأملاك البريطانية ، وهذا الأمر يوجب تمييزا بين قضية الارتقاء الدستورى فى مصر وقضيته فى البلاد الأخرى كالهند . وإذا كانت ثمة بلاد تبلغ حالة القومية تدريجيا . فإن المصريين يعتبرون أنفسهم قد بلغوا تلك الغاية . ثم أشار إلى الجانب الآخر وهو أهمية مصر للنظام الامبراطورى وذكر أن

التوفيق بين الجانبين يوجب عقد معاهدة تطلق «سراح المصريين من الوصاية» دون أن تعرض المصالح البريطانية الحيوية للخطر ، وذلك بأن يكون لبريطانيا : الدفاع عن مصر ، والاشراف على العلاقات الخارجية المصرية ، والابقاء على القوة العسكرية ، والحصول على «نصيب من المراقبة على التشريع المصرى والإدارة المصرية فيما يختص بالأجانب للدفاع عن كل المصالح الاجنبية المشروعة ..» تم عرض التقرير لمشروع ملنر الثانى فذكر أنه إذا كان أتيح فيه لمصر تبادل التمثيل السياسى مع الدول الأخرى ، فإن اختيار مصر لسياسة خارجية مستقلة عن بريطانيا «ضرب من المحال» ، ورفض أن تكون القاعدة العسكرية محصورة فى الجانب الشرقى لقناة السويس أو فى منطقة القنال عامة ، مشيرا فى ذلك إلى أن مصلحة بريطانيا لا تقتصر على ضمان المرور فى القنال ، بل تشمل المواصلات البرية والجوية والبحرية عامة ، ثم عرج على مسألتى الموظفين البريطانيين والامتيازات بما لا يجاوز ما سبق ذكره . (٣١) .

عدلى .. كيرزون :

كان أمهر ما صنعه ملنر ، أن صاغ مشروع اتفاق أمكن به تقسيم الوفد ، وفرز المعتدلين عن المتشددين . وأمهر ما صنعه

سعد أنه ثابر وناور وحسم فخرج المنشقون أفرادا . وكلتا الجراحتين بالغة الدقة . انتقل الوفد إلى باريس بعد قطع المفاوضات ، والانقسام حاصل لا ينقصه إلا الاعلان عنه . وتخلف عدلي يكن في لندن أياما مما أثار ريبة سعد الشديدة . وكانت ملامح الخطوة التالية قد أخذت في التشكل أثناء سير المفاوضات ومع نهايات الشهر الأول لها . بدت الظواهر مع كتاب ملنر إلى اللنبي في ٣٠ يونيو عن وجوب اشتراك بعض الوزراء في المفاوضات المقبلة . وبعد تبادل رفض مشروعي ١٧ يوليو ، نقل عدلي يكن إلى سعد في ٢٤ يوليو طلب ملنر ألا تكون «المقاطعة مغاضبة» فلا يعارض استمرار المفاوضة على يد غيره إذا هو قطعها ، فرفض سعد أن يعطي وعدا بذلك . ثم جاء مشروع ١٨ أغسطس وفي مقدمته اشتراط اجراء مفاوضة على أساسه مع وفد رسمي معتمد من الحكومة المصرية . فلما شارفت المفاوضات على القطيعة ، عرض عدلي على سعد في ٢٦ اكتوبر طلب ملنر أن تقوم «وزارة ثقة» في مصر يؤيدها سعد وتجري المفاوضة ، فرفض سعد تأييد أية وزارة تقوم بالمفاوضة قبل استجابة الانجليز إلى تحفظات الأمة (٣٢) . وظهرت خطة عزل سعد والمتشددين وتخطيهم بوزارة يشكلها عدلي ومعه معتدلو الوفد لتفاوض وفق

مشروع ملنر ، ومنذ وصول الوفد إلى باريس بدأ سعد نشاطه لافشال هذا المشروع ، فسرب الأخبار إلى مصر عن مواقف عدلى يكن وتأييده مشروع ملنر وعرقلته المفاوضات وعمله على تقسيم الوفد . فلما ترك المعتدلون باريس إلى القاهرة ، أرسل سعد برقيته المشهورة «نبتت فكرة» يسد بها الطريق أمامهم ، أوضح فيها بايجاز أن هؤلاء يروجون فكرة أن الوفد مع تمسكه بخطه السياسى لا يمنع غيره من الدخول فى المفاوضات على خلاف هذه الخطة بل يؤيد تلك الوزارة ويعلن ثقته بها . وعلق على ذلك بأنها فكرة غير مفهومة ولا تؤدى إلا لإفساد خطة الوفد «إنى لا أدخل فى أى مفاوضة على أساس مشروع ملنر قبل تعديله بالتحفظات ولا أؤيد من يدخل فيها بدون هذا الشرط ..» (٣٣) .

المهم ، أن استقر رأى الحكومة البريطانية على أن عدلى يكن هو أنسب من يتولى المفاوضة المقبلة ، لتمتعه بتأييد المعتدلين فى الوفد ولكونه الأقدر على حصار سعد زغلول (٣٤) . وتسهيلا لمهمته أذاعت الحكومة البريطانية فى ٢٦ فبراير ١٩٢١ بلاغا رسميا صدر عن دار الحماية إلى السلطان فؤاد يبلغه «أن نظام الحماية لا يكون علاقة مرضية تبقى فيها مصر تجاه بريطانيا العظمى ..» وأنها ترغب فى تبادل الآراء حول اقتراحات ملنر مع

وفد يعينه السلطان للبحث فى أماكن «ابدال الحماية بعلاقة تضمن المصالح الخصوصية التى لبريطانيا العظمى وتمكنها من تقديم الضمانات الكافية للدول الأجنبية وتطابق الأمانى المشروعة لمصر والشعب» . ثم شكل عدلى وزارته فى ١٧ مارس وسجل برنامجها فى خطاب قبول الوزارة «الوصول إلى اتفاق لا يجعل مجالا للشك فى استقلال مصر .. مسترشدة بما رسمته ارادة الأمة ..» وتحدث عن اشراك الوفد فى ذلك وتكوين جمعية تأسيسية يعرض عليها الاتفاق وتضع الدستور .

ما جرت هذه التطورات حتى عاد سعد من باريس بعد غيبة دامت العامين منذ نفى إلى مالطة . كان استقبال المصريين له فى الاسكندرية (٤ ابريل) وعلى طول طريق القطار إلى القاهرة ثم فى شوارع القاهرة كان مما وصفه شهود العيان بأن لم ير له مثيل من قبل (٣٥) . ووقر فى أذهان الكافة أنه استفتاء على الثقة به شبه اجماعى . وما لبث سعد من بعد هذا الاستعراض الضخم لقوته أن صرح لصحيفة الأهرام فى ٢١ أبريل بما يراه من شروط لتكون وزارة عدلى «وزارة ثقة» وهى : الوصول إلى الغاء الحماية صراحة ، والاعتراف باستقلال مصر استقلالا دوليا عاما ، ومراعاة تحفظات الأمة على مشروع ملنر ، والغاء الأحكام العرفية

على الصحف قبل الدخول فى المفاوضات ، وأن تكون رئاسة وفد المفاوضة والأغلبية فيه للوفدين . وبعد أربعة أيام ألقى فى شبرا خطبة شهيرة ، أعلن فيها أن رئيس وزراء مصر يعين ويسقط باشارة من المندوب السامى الموظف بالحكومة البريطانية ، وأن رئاسة رئيس الوزراء لوفد المفاوضة يعنى أن «جورج الخامس يفاوض جورج الخامس» ، وانفجر الوضع بمظاهرات عاتية ضد عدلى وحكومته ، وانفصل عن الوفد فريق من المعتدلين ، وتصاعدت الحركة الشعبية مما ألجأ الحكومة إلى قمعها بالقوة وسقط الشهداء ، وكان أخطر الحوادث بالاسكندرية إذ حدث استفزاز من بعض الأجانب أدى إلى اصطدام تدخل الجيش البريطانى بسببه ، الأمر الذى استغله كيرزون من بعد فى مفاوضته مع عدلى .

وشكل وفد المفاوضات فى ١٩ مايو برئاسة عدلى وفيه حسين رشدى واسماعيل صدقى وغيرهم ، وبدأت المفاوضة مع اللورد كيرزون وزير خارجية بريطانيا فى ١٢ يوليو بالحديث عن سعد زغلول ، وانتهت بعد أربعة أشهر بالحديث عنه أيضا[١] ، وبينهما امتهان واستصغار وازدراء جدير بمفاوض لا يحوز ثقة شعبه . ذكر كيرزون لعدلى فى الاجتماع الأول «كان المظنون بعد عودة سعد باشا زغلول إلى مصر أن يقع تعيين الوفد الرسمى .. فى

جو من اتحاد واتفاق لا فى جو انشقاق وانقسام .. أنى أتخيل أنه (سعد) سيجعل مهمتكم شاقة» .. وأذن ذلك بأن الانجليز لن يسهلو مهمة صديقهم عدلى . وفى ٢ نوفمبر قبيل انقطاع المفاوضات (١٩ نوفمبر) ذكر لويد جورج رئيس الوزراء لعدلى يكن «أن الهياج والشغب الذى يحدثه زغلول يزعجهم ويخيفهم (الوزارة والبرلمان) وهم لا يرضون بحال أن يطأطئوا الرؤوس أمام زغلول .. إنى لأعجب كيف لا تتخذ ضده اجراءات شديدة .. وكيف لم ينف من مصر ، وعندى أنه أكبر عدو لاستقلال مصر وأنه لا سبيل لاتفاق مع استرساله فى التهييج ..» وذكر أنه يعز عليه أن يعود عدلى بغير نتيجة ، ولكن لا سبيل للوصول إلى اتفاق ما دام زغلول يسلك طريق التهييج ، واقترح وقف المفاوضات واستئنافها عندما تصبح الأحوال أكثر هدوءا (٣٦) . كان سعد إذن شبحا مخيفا على المفاوضات ، وكان بوصفه ممثلا للحركة الوطنية المصرية صاحب القرار المصرى فيها ، شاء عدلى أم أبى ، استمسك لنفسه بالرياسة أم تركها . وكان ظن المعتدلين المنشقين من قبل ، أن سيسلس لهم قياد المفاوضة لو غاب سعد ، ولكن سعدا لم يكن قويا بنفسه ، إنما بما يعبر عنه من مطالب أمته ، وبما يتأيد به من شعبه ، وقد ذهب إلى الانجليز ، عدلى صديقهم اللبق ، وتكشف

محاضر المفاوضة ، بأى استخفاف عومل الرجل ، وإلى أى مدى أفقدوه كرامته السياسية ، تركه كيرزون فى أوائل أغسطس لقضاء بعض المهام السياسية عشرة أيام ، وعهد بمفاوضته إلى أحد موظفى الوزارة مستر لاندس ، ثم سافر جورج لويد فى اجازة الصيف أربعة أو خمسة أسابيع وتركه ، ثم تركه كيرزون لقضاء أجازته ستة أسابيع ، ورئيس وزراء مصر باق بلندن ، لا يستطيع وصل المفاوضة ولا قطعها ، ولا البقاء ولا العودة . يتحدث وأعضاء وفده مع موظفى الخارجية البريطانية بمذكرات وتقارير لا تصل إلى شىء ، ويحتمل حديث كيرزون إذ يسأله بخفة «لماذا تريدون أن يكون لكم تمثيل سياسى بالخارج» وفى النهاية يستدعيه لويد ليصرفه بقوله : يعز علىّ أن تعود بغير نتيجة ، ولكن سعداً لابد أن ينفى . فيعود عدلى لا كما ذهب» (٣٧)

لا يكاد المطالع يلحظ وقفة وقفها المفاوض المصرى ولا مبادرة جاءت على يديه . كانت المفاوضات كلها رغبات ومواقف بريطانية بلغت من التشدد أقصاه ، فكانت عدولا كاملا عن كل ما أبداه ملنر فى مشاريعه وتقاريره من تنازلات مع سعد . كان ملنر يقصر وظيفة القاعدة العسكرية على حماية المواصلات البريطانية ولا يعترض صراحة على مبدأ تحديد أماكنها ، فجاء كيرزون يجعل

للقاعدة أيضا وظيفة حماية حدود مصر وحماية المصالح الأجنبية بها ، لأن الجيش والبوليس المصريين لا يكفلان هذه الحماية ، ولا يحفل بتعليق رشدى أن تلك الوظائف تهدم الاستقلال ، ثم لا يوافق على تحديد مكان القاعدة «وزارة الحربية (البريطانية) لا تقبل على أى حال وضع الجيوش على القنال وفى الشاطىء الشرقي وكأني بهم مصابون بالجرب يبعدون إلى أقصى مكان ممكن» . فإذا ذكره عدلي بمرونة ملنر قطع عليه السبيل «أقول لكم بكل صراحة أنه من المستحيل أن نعقد اتفاقا إلا إذا أعطيت القوة العسكرية معناها الحقيقى» ، سأله عدلي عما إذا كان يقصد أن تقوم القوة العسكرية بحفظ الأمن ، أى التدخل فى شئون مصر الداخلية ، فأجاب «نعم هى هناك لهذا ولا فائدة من أن نغالط أنفسنا وننكر ذلك» . وفي الجلسة السابعة فقد كيرزون صبره من كثرة ما ذكره عدلي بمرونة ملنر ، فقطع بأنه لا يمكن تغيير وجهة نظر الحكومة البريطانية بشأن القاعدة العسكرية وأن الحكومة «لم تقبل النتيجة التى وصل إليها اللورد ملنر فى هذا الصدد ، ويجب ألا يغيب عن الفكر أن الاستقلال الذي تطلبونه لم تكسبوه ..» (٣٨) .

أما بالنسبة لحق مصر في تبادل التمثيل الدبلوماسى الذى اعترف به ملنر فى مشروعاته وتقريره ، فقد سحبه كيرزون ،

واكتفى بالسماح بأن تنشيء مصر وزارة للخارجية وأن يكون للدول الأجنبية تمثيل بمصر ، شريطة أن يكون وزير الخارجية المصرى متصلا بالمندوب السامى البريطانى أوثق اتصال ، أما تمثيل مصر بالخارج فلا يجوز إلا عن طريق الممثلين البريطانيين ، حذر أن تتولى أمر مصر حكومة لا تنطوى على الود لبريطانيا فيكون هذا التمثيل منشأ للدسائس والاخطار . وتمسك بأن يكون ممثل بريطانيا بمصر مندوبا ساميا ، ولم تجد معه محاولات عدلى وزملائه لزحزحته فى هذين الأمرين . (٣٩) .

أما عن الموظفين الأنجليز ، فقد وعد كيرزون بانقاص عددهم بعد المعاهدة عما يبلغ حاليا وهو ١٦٠٠ موظف . ولكن يلزم تضمين الاتفاق ما يحتم موافقة المندوب السامى على تعيين أى موظف أجنبى بالحكومة المصرية مستقبلا : وبالجلسة الرابعة أثار مسألة المستشار المالى وأرسل للجانب المصرى مذكرة تضمنت اختصاصات له لم تكن وردت بمشروعات ملنر ، وتوجب أن يكون له حق الاتصال المباشر برئيس الوزراء ووزير المالية المصريين . علق اسماعيل صدقى على الأمر بقوله «أن الاقتراحات الجديدة المقترحة للموظف المالى تفيد معنى الاشراف ،،» وذكر رشدى أنه صار للمستشار فى المشروع الجديد «حق الابتداء فى أن يبدى

آراءه» ، كما تضمنت المذكرة أن يكون له حق الاعتراض أو وجوب الموافقة فى حالتى عقد القروض وتحويل إيراد المصالح العمومية مما وصفه عدلى بأن ستكون للمستشار «له مكانة فوق الحكومة والبرلمان» . فعلق كيرزون بأن حديث المعترضين «قائم كله على أنكم محل للثقة التامة ، وإذا كنا سنثق فى كل شىء فلا وجه لأن نضع شيئا فى المعاهدة» . وتساءل عما إذا كان البرلمان المصرى الحديث النشأة يمكن أن يكون ضمانة تغنى عن الرقابة البريطانية . واقترح بالجلسة الخامسة أن يكون للمستشار القضائى حق الاعتراض على القوانين المراد تطبيقها على الاجانب، ثم عاد فى الجلسة ١٧ فقرر إمكان الاستعاضة عنه بثلاثة أمور : استبقاء حكمدار بوليس فى القاهرة والاسكندرية وبور سعيد ، وانشاء إدارة لأمن الأجانب بوزارة الداخلية ، وابقاء مستشار ملكى بوزارة الحقانية (٤٠) ، أما بالنسبة للامتيازات الأجنبية ، فقد استمسك بما عرضه ملنر بغير تعديل ، كما استمسك بما أورده مشروع ملنر الثانى من تعليق نفاذ المعاهدة على تسوية مسألة الامتيازات .

وقدم كيرزون مشروع معاهدة لعدلى ، تضمنت كل ما تمسك به فى المفاوضات ، نصت مادتها الأولى على رفع الحماية «مقابل

إبرام المعاهدة» وهى معاهدة دائمة بالسلام والمودة والتحالف ، ويكون للقوات البريطانية حق المرور فى مصر وأن تستقر فى أى مكان ولأى زمان يحددان من أونة إلى أخرى ، فضلا عن استعمال التسهيلات والثكنات وأماكن التمرين والمطارات والترسانات ، وذلك كله لحماية المواصلات البريطانية «ومساعدة مصر فى الدفاع عن مصالحها الحيوية وعن سلامة أراضيها» (مادة ١٠) ، ومنعت مصر أن تعقد أى معاهدة إلا بعد موافقة المندوب السامى (مادة ٦) ، ويكون للمستشار المالى فضلا عن حقوق صندوق الدين، حق الاطلاع على جميع الامور الداخلية التى فى اختصاص وزارة المالية والدخول المباشر على رئيس الوزراء ووزير المالية والموافقة علي عقد القروض وتخصيص الايرادات ، مع مسئوليته عن ميزانية المحاكم المختلطة ومعاشات الموظفين الأجانب وميزانية المستشارين المالى والقضائى (مادة ١٢ ، ١٣ ، ١٤) ، وللمندوب القضائى حق الدخول على وزيرى الداخلية والحقانية والاطلاع على جميع الأمور التى تمس الأجانب بالوزارتين ومراقبة تنفيذ القوانين على الأجانب (مادة ١٥ ، ١٦) . وتكون وزارة الخارجية المصرية على أوثق اتصال بالمندوب السامى ، ولمصر أن تمثل خارجيا بوزراء مفوضين (مادة ٢ – ٨) ، ولبريطانيا حق التفاوض وحدها

مع الدول ذات الامتيازات وليس عليها إلا أن تتداول مع مصر «قبل البت فى هذه المفاوضات رسميا» (مادة ٩) ، ثم أورد المشروع نصوصا تتعهد فيها مصر بحماية الأقليات وكفالة المساواة والحرية التامة لجميع سكان مصر بغير تمييز بسبب المولد أو الجنس أو اللون أو الدين (مادة ٢٣ - ٢٦) وهى أحكام وإن كانت تلتزمها سائر الدول فى تنظيماتها الحديثة ، فقد كان خطر إبرامها فى معاهدة مع بريطانيا ، إنها تجيز لبريطانيا حق التدخل فى شئون مصر الداخلية بزعم إخلال مصر بأى من هذه الأحكام ، وأن بريطانيا خاصة تصبح ذات إشراف على التشريعات المصرية والادارة المصرية باسم مراقبة تطبيق تلك الأحكام .

لم يستطع وفد المفاوضة أن يقبل المشروع والا «لاستقبلنا بغير ما نود ونشتهى» حسبما ذكر عدلي مرة فى مفاوضاته وعاد إلى مصر وقدم استقالته .

٣

استقلال مصر

تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢

فشل المعتدلون أيضا . وكان لابد من خطوة سريعة ، قبل أن يعود الوضع إلى سابق تفجره ، تمثلت تلك الخطوة فى كلمتين وردتا فى نهاية مفاوضات عدلى كيرزون ، الأولى حديث لويد جورج عن ضرورة استخدام العنف مع المهيجين فى مصر ونفى سعد زغلول ، ولابد للحركة الوطنية أن تغيب ، لا عن مائدة المفاوضة بلندن ، ولكن عن مسرح الأحداث بمصر . والثانية وردت فى حديث عدلى وكيرزون فى ١٩ نوفمبر آخر جلسات المفاوضة ، فبعد أن أبدى كيرزون أسفه لرفض مشروعه سأل عدلى عما إذا كان يمكن ترتيب حالة مؤقتة على أساس مشروعه تطبق بضع سنين يستتب خلالها الأمن ويستقيم النظام ، فرد عدلى بأنه لا يقبل هذه الفكرة ولو قبلها ، لن تقره البلاد عليها . لأن المصريين

لن يوافقوا على الاحتلال ولا على إشراف دولة أجنبية على شئونهم ولو مؤقتا ، ثم قال «وقد يمكنكم أن تنفذوا ما لا يقرونه من نظامات ، ولكن لا تتوقعوا منهم قبولا لها . وعلى أى حال فلست أرى ما يمنعكم من تنفيذ الأحكام التى تضمن مشروعكم الاعتراف بها للمصريين ..» فسأله كيرزون عن امكانية تنفيذ مشروع كهذا فيما يتضمن من تمثيل خارجى لمصر ونظام نيابى «من غير معاونة رجال ذوى نفوذ مثلك» (٤١) .

وفور عودة عدلى ، بدأ اللنبى يراسل كيرزون محذرا من احتمال نشوب الثورة من جديد إذا استبقت بريطانيا الحماية على مصر ولم تسلم بمبدأ استقلالها . ثم أرسل إليه فى ٦ ديسمبر يذكره بفكرة عدلى يكن ، أن تنفذ بريطانيا من تلقاء نفسها الخطة الواردة بمشروع كيرزون فيكون «من المستطاع تأليف وزارة تكون مستعدة للعمل معنا» . وأن الحماية حالة يبغضها المصريون أشد البغض ، وهى لا تفيد بريطانيا و «لا قيمة لها بالنسبة للمفاوضات مع الدول الأجنبية ويمكن معالجة هذا الأمر عن طريق اعلان مبدأ مونرو بريطانى يتعلق بمصر . وأرسل في ١١ ديسمبر يقول أن مصريا كائنا من كان لا يستطيع أن يوقع معاهدة لا تتفق مع الاستقلال التام ، ومن ثم لابد من العدول عن فكرة تسوية المسألة

المصرية بواسطة معاهدة ، وذكر أن تركيا قبل حرب ١٩١٤ كانت تحل مشاكلها من مصر بواسطة فرمانات تصدر من جانب واحد ، ولا يوجد ما يمنع من اتباع هذه الطريقة الآن ، ثم نبه إلى ما تعانيه السلطات البريطانية فى إدارة مصر فى ظروف الحماية (٤٢) .

فى تلك الفترة وخلال شهر ديسمبر ، كانت التدابير تجرى على أساس إبعاد سعد زغلول والمهيجين من أصحابه عن مصر ، وضرب الوفد ومنع اجتماعاته ومصادرة نشراته ، أى فرض الغياب السياسى عليه فرضا عن الساحة المصرية . منعت السلطات البريطانية اجتماعا للوفد فى ٢١ ديسمبر ، وأنذرت سعدا وبعض رفاقه فى اليوم التالى بعدم الاشتراك فى السياسة والاقامة فى الريف ، فرفض الوفديون الإنذار ، فاعتقل هؤلاء ونفوا إلى جزيرة سيشل فى ٢٣ ديسمبر . وأمكن للسلطات البريطانية أن تسيطر مؤقتا على الاضطرابات التى نشأت من جراء ذلك. وفى الوقت نفسه كان اللنبى يتباحث مع السلطان فؤاد وعبدالخالق ثروت حول تشكيل وزارة جديدة من المعتدلين ويوافى حكومته تباعا بتلك الأخبار، ويستحثها على إلغاء الحماية من طرف واحد، حتى يمكن أن يضمن لحلفائه من المصريين وزنا سياسيا يمكنهم من

حكم البلاد لصالح العلاقات الودية مع بريطانيا . وفى ١٢ يناير أرسل يوضح أن جو الانتظار الهادئ الموجود حاليا ليس فى الوسع أن يستمر طويلا، وأرفق مذكرة يطلب فيها من حكومته الموافقة على ارسالها إلى السلطان فؤاد، تتضمن طمأنة المصريين إلى أن ما تطلبه بريطانيا من ضمانات، ليس مقصودا به إبقاء الحماية فعلا أو حكما وأن أصدق رغبات بريطانيا أن تترك للمصريين إدارة شئونهم بأنفسهم ، وأن وجود المستشارين البريطانيين للحقانية والمالية ليس مقصودا به استخدامهما للتدخل فى الشئون المصرية، وإنما استبقاء الاتصال اللازم لحماية المصالح الأجنبية ، وأن الحكومة البريطانية لن تستعمل الضغط على حرية المصريين تأييدا لمعاهدة ما، بل هى مستعدة أن تلغى الحماية وتعترف بمصر كدولة مستقلة ذات سيادة دون انتظار لعقد المعاهدة. ويمكن إنشاء برلمان مصرى تسأل الوزارة أمامه، كما يمكن إعادة تكوين وزارة الخارجية المصرية، وأن المندوب السامى سيلغى الأحكام العرفية فور صدور قانون التضمينات ، ويمكن وقف تطبيقها فى جميع الأمور الماسة بحرية المصريين فى استعمال حقوقهم السياسية حتى يتم إلغاؤها . وأنه مع قيام هذه الحالة الجديدة يمكن اشتراك الحكومتين فى عقد اتفاق حول « :

(أ) تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية ، (ب) الدفاع عن مصر ضد كل اعتداء أو تدخل أجنبي مباشر أو غير مباشر ، (ج) حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات ، (د) السودان». وشرح اللنبي هذه التحفظات مقارنا بينها وبين مشروع معاهدة كيرزون ، فالتحفظ الأول يتعلق بالقاعدة العسكرية، والثاني يشمل المواد ٦ ، ١١ ، ١٤ من المشروع، والثالث يستوعب المواد ٩، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٣ – ٢٦ . وقد تلكأت الحكومة البريطانية في الموافقة على هذه الخطة، ثم طلب كيرزون إلى اللنبي كلا من وايموس وكلايتون المستشارين، فرد عليه اللنبي بأن المستشارين جميعا يوافقون على خطته ، وأن ارسال هذين المستشارين من شأنه تقويض مركز اللنبي في مصر وقال «إذا قبلت اقتراحاتي بلا ابطاء فإني مقتنع أنها ستؤدي الى تسوية دائمة للمسألة المصرية، أما إذا رفضت فلست أستشف بديلا عنها سوى تدابير القمع .. وخليق بمصاعب بريطانيا العظمى إذ ذاك أن تتضاعف كثيرا » . فاستدعى اللنبي وايموس وكلايتون إلى لندن في ٢٨ يناير ، وعادا في ٢١ فبراير وما لبث أن صدر تصريح ٢٨ فبراير (٤٣) .

صدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى حكم العلاقات المصرية البريطانية أربعة عشر عاما تالية حتى أبرمت معاهدة ١٩٣٦ .

تضـمن التـصريح إعـلان الحكومـة البريطانيـة ثلاثة مـبادئ أولها «انتهت الحماية البريطانية على مصر ، وتكون مصر دولة مستقلة ذات سيادة» ، ثانيـها إلغـاء الأحكام العرفيـة التى ضـربت فى ٢ نوفمبر ١٩١٤ وذلك فور إصدار قانون التضمينات . وثالثـها أن تحتفظ الحكومة البريطانية بصورة مطلقة بما يلى :

«(أ) تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر .

(ب) الدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبى بالذات أو بالواسطة .

(ج) حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات .

(د) السودان، «وذلك حتى يمكن بمفاوضات ودية غير مقيدة» إبرام اتفاقات تتعلق بهذه الأمور، مع إبقاء الحال على ما هو عليه حتى تبرم هذه الاتفاقات .

وقـد أبلغ هذا التـصـريح من المندوب السـامى إلى السلطان فؤاد، ومعه تبليغ لم يخرج مفاده عن مشروع المذكرة التى سبق أن أعدها اللنبى وأرسلها إلى كيرزون طالبا منه الموافقة على ارسالها إلي السلطان فى ١٢ يناير ، مما سـبـقت الاشـارة إليـه ، فكان التبليغ بمثابة مذكرة تفسيرية للتصريح ، وأشار إلى أن بريطانيا لم يلجـئها إلى طلب الضـمانات بالنسـبة للقوات العسكرية إلا

الأوضاع العالمية والداخلية ، وأن وقتا سيجئ تكون فيه مصر مدعاة للشقة ، وأن الحكومة البريطانية لا تروم استخدام المستشارين المالى والقضائى للتدخل فى شئون مصر وإنما هما فقط أداة اتصال لحماية المصالح الأجنبية . وأنه يمكن لمصر فورا إعادة منصب وزير الخارجية «والعمل لتحقيق التمثيل السياسى والقنصلى لمصر» وأن اقامة نظام دستورى برلمانى بمصر أمر يرجع إلى السلطان وإلى الشعب المصرى، وأنه بالنسبة لتعليق إلغاء الأحكام العرفية على صدور قانون التضمينات فإن المندوب السامى «على استعداد لايقاف تطبيق الأحكام العرفية فى جميع الأمور المتعلقة بحرية المصريين فى التمتع بحقوقهم السياسية» .

ثم صدر تبليغ بريطاني إلى الحكومات الأجنبية عامة، تضمن إخطارها بالإنهاء للحماية والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة، وحرية مصر فى اعادة وزارة الخارجية وتمهيد الطريق لتبادل التمثيل السياسى والقنصلى ، ثم ذكر «أن انهاء الحماية .. ليس من شأنه حدوث أى تغيير فى الحالة الحاضرة فيما يختص بمركز الدول الأخرى فى مصر ذاتها .. ولذلك فهى (بريطانيا) ستتمسك دائما باعتبار العلاقات الخاصة بينها وبين مصر .. مصلحة بريطانيا أساسية ، وتعد حكومة جلالة الملك كل محاولة

من دولة أخرى للتدخل فى شئون مصر عملا غير ودى ، وتعد كل اعتداء يوجه إلى الأراضى المصرية عملا يجب عليها أن تمنعه بجميع الوسائل التى فى وسعها» .

وفى ٤ مارس ١٩٢١ وجه اللنبى مذكرة إلى المستشارين البريطانيين بالوزارات المصرية تضمنت تعليماته لهم بمناسبة التعديلات الأخيرة، وتتلخص تلك التعليمات فى :

١ - أن ادخال نظام المؤسسات البرلمانية فى مصر ، يتضمن مسئولية الوزراء أمام الهيئة النيابية المنتخبة، وهى مسئولية لا تتفق مع أى تقييد لسلطة الوزراء التنفيذية مادامت تلك القيود لا تستند إلى الدستور أو القوانين المصرية أو معاهدة ما .

٢ - فى مثل هذه الظروف يحتاج وضع المستشارين البريطانيين إلى تحديد جديد، فبعد أن كانوا يقتسمون المسئولية مع الوزراء ، آن الأوان لكى تصبح تلك المسئولية ملقاة على الوزير وحده حسبما يراه ضروريا ، وتنحصر مهمة المستشار فى بذل النصيحة للوزير، على أنه من المفهوم أن الوظائف الحالية للمستشار المالى باقية على حالها بالنسبة للقروض الخارجية والايرادات .

٣ - من المحتمل أن يكون من المرغوب فيه قريبا إلغاء كثير من وظائف المستشارين ، على أن اثنين لابد أن يبقيا انتظارا لابرام

اتفاقية تحدد نهائيا المصالح التى ترغب بريطانيا فى ضمانها ، وهما المستشاران المالى والقضائى .

٤ – لن يكون للمستشار المالي مقعد بمجلس الوزراء ، ولكن سيكون من واجبه أن يبقى على اتصال بجميع المسائل المالية التى تعرض على المجلس، وأن تكون له كافة التسهيلات التى تجعله على إلمام بالمسائل الداخلية في نطاق وزارة المالية، وأن تصله كافة المراسلات والتوصيات الخاصة باللجنة المالية المنشأة بقرار مجلس الوزراء الصادر فى ١٥ مارس ١٨٨٤ .

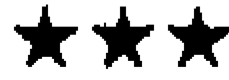
٥ – يعني المستشار القضائى مستقبلا بصفة خاصة بالمسائل المتعلقة بالمحاكم المختلطة وبأعمال القوانين التى تمس الأجانب .

٦ – يترتب علي المبادئ المبينة فيما سبق أن الموظفين البريطانيين الأقل درجة من المستشار سيصبحون فى المستقبل تحت سلطان الوزير وحده .

٧ – أن المندوب السامي ليتعاطف مع رغبة الحكومة المصرية فى التعجيل باحلال المصريين الأكفاء محل الأوربيين فى الوظائف الرسمية، فإذا تعذر ذلك وجب اتخاذ الاجراءات الضرورية لاعداد المرشحين المناسبين .

٨ – أن المندوب السامى لواثق من أن الحكومة المصرية مستعدة لتعويض الموظفين الاوربيين المتقاعدين بروح السخاء

مادام سيتأثر مستقبلهم وأوضاعهم الوظيفية بتنفيذ هذه السياسة(٤٤) .



تلك كانت جملة الوثائق البريطانية الأساسية التى رسمت تقريبا أسس العلاقات بين البلدين فى المرحلة المقبلة . ومجمل الأمر أن انهيت الحماية واعترف باستقلال مصر على أصرح ما كان سعد زغلول يطالب فى مفاوضاته مع ملنر بشأن هذه النقطة . كما اعترف بحق مصر فى تبادل التمثيل السياسى والقنصلى مع الدول الأخرى، واقامة نظام دستورى برلمانى يقوم على أساس المسئولية الوزارية أمام البرلمان ، وأن انهاء الحماية والاستقلال والتمثيل السياسى أمور تتعلق بصميم الوضع الدولى السياسى لمصر وبصميم العلاقات المصرية البريطانية. أما النظام البرلمانى فهو وإن كان «نظريا» لا يمس هذا الوضع ويعتبر أمرا متعلقا بالأوضاع المصرية الداخلية البحتة، إلا أن وجه اتصاله بالعلاقات المصرية البريطانية يتأتى من جهة التأثير الفعال للنظام البرلمانى فى تقييد السلطات البريطانية الفعلية فى الاشراف على أجهزة الحكم المصرية، لذلك فإن مذكرة ٤ مارس سالفة البيان ، هى أثر من آثار اعتراف بريطانيا بحق مصر فى إقامة النظام البرلمانى ، يذكر إسماعيل صدقى فى مذكراته ، وقد كان له ضلع كبير مع

عبدالخالق ثروت في المباحثات التي أسفرت عن صدور التصريح ، وكان وزيرا مع ثروت في الوزارة التي شكلت فور اعلان التصريح، يذكر أن ترتب على التصريح فضلا عن إلغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال، تأليف لجنة الدستور وإعدادها له ، ووضع أساس إدارة البلاد بواسطة الحكومة الوطنية دون غيرها ، وإلغاء وظائف المستشارين الانجليز في وزارات الحكومة فيما عدا المستشار المالي والمستشار القضائي ، مع قصر مهمة هذين على إبداء الرأي والمشورة ، وابطال ما جرى عليه العمل من حضور المستشار المالي جلسات مجلس الوزراء . والبدء في احلال المصريين محل الأجانب في وظائف الحكومة ، وتبعية الموظفين الأجانب للوزير المصري دون سواه ، والبدء في إلغاء الأحكام العسكرية (٤٥) .

ومن جهة ثانية اعترف الانجليز بأن ما يطلبونه من مصر هي ضمانات مؤقتة تمليها الأوضاع الدولية والداخلية . وأنه يمكن فيما بعد الاطمئنان إلى ما تقدمه مصر من ضمانات ، وأن تلك العبارة التي وردت في البند ٤ من التبليغ البريطاني للسلطان لتفيد استعداد الانجليز للتنازل عن شرط دائمية أية معاهدة تبرم بين البلدين ، أو بالأقل يمكن للجانب المصري عند الضرورة الاستناد

إلى ما تفيده من هذا المعنى . كما أن ما ورد فى البند ٥ بالنسبة لوظيفة المستشارين المالى والقضائى ليفيد اعترافا بقصر وظيفتهما على كونها أداة اتصال لحماية المصالح الأجنبية دون تدخل فى شئون مصر الداخلية وهو أمر تضمنته مذكرة اللنبى فى ٤ مارس ، وقد سبقت الاشارة ، أثناء الحديث عن مفاوضات سعد ملنر، أن سعدا وإن كان امتعض من ربط مسألة الامتيازات ووضع الأجانب بالعلاقات المصرية البريطانية ، فلم يكن يمانع من أن تتضمن المعاهدة ذكرا للمستشارين المالى والقضائى شريطة حصر اختصاصات الأول فى شئون الدين العام وحصر اختصاصات الثانى فى إبداء الاعتراض غير الموفق للتنفيذ بالنسبة لتطبيق القوانين على الأجانب ، وذلك حسبما ورد بمشروع الوفد لملنر فى ١٧ يوليو ١٩٢٠ ، وعلى أية حال فإن تلك المسألة وإن لم تكن حسمت بالتصريح ، فقد صار الموقف المصرى أقوى مما كان بشأنها وذلك فى أية مفاوضات تجرى مستقبلا .

ومن جهة ثالثة ، فإن الانجليز احتفظوا لأنفسهم فى التصريح بجملة تحفظات، تمنحهم مستقبلا امكانية تصرف شبه طليق حسبما تتراءى لهم مصالحهم فى الظروف السياسية الراهنة والمتغيرة ، وتأمين المواصلات الامبراطورية والدفاع عن مصر

تحفظان يسندان وجودهم العسكرى بمصر . وحماية المصالح الأجنبية والأقليات تحفظ يبرر لهم مستقبلا التدخل فى الشئون الداخلية لمصر، والتصريح صريح فى ابقاء الحالة فى هذه الأمور على ما هى عليه ، أى المحافظة على الوضع الراهن ، وحق مصر فى تبادل التمثيل السياسى مع الدول الأخرى، محدود ومحاصر بالتبليغ البريطانى لتلك الدول من وجوب احترامها للعلاقات الخاصة التى تربط مصر ببريطانيا واعتبار تدخل تلك الدول فى شئون مصر عملا غير ودى منها لبريطانيا ، وهو ما أسماه اللنبى فى مراسلاته «مبدأ مونرو» بريطانى، يقرر دوليا اعتبار مصر منطقة نفوذ بريطانية .

وإذا كان يمكن الاتفاق مع ما ذكره اللنبى فى مراسلاته لكيرزون من أن التحفظات تغطى كل ما طلبه الانجليز من مصر وفقا لمشروع كيرزون إلى عدلى يكن حسبما سلف البيان. فإن مشتملات التصريح لا يتعين النظر إليها فى وضعها الساكن ، ولا يكفى تقييمه بالنظرة القانونية وحدها التى تزن الممنوح والممنوع وقيود الاستقلال واطلاقات التحفظات، تزن ذلك كنصوص جامدة ثابتة مجردة عن الحركة السياسية. إنما يتعين النظر إلى مشتملات التصريح فى سياقها السياسى، وفى إطار الصراعات

السياسية التى انتجته والقوى السياسية التى تحيط به فى التطبيق والتى تكسبه عملا مضمونه الفعلى .

إن مطالعة عبارات التصريح تكشف عن كونه يعطى ويتحفظ، ويطلق ويقيد، ويرمى بانصاف المعانى ، فهو صيغة للصراع السياسى ، ترسم بعض ضوابط إدارة هذا الصراع مستقبلا. وهو باليقين ليس حاسما لصراع قائم ولا يفيد اقرار نتائج ثابتة له . هو بهذا المفاد تتحدد نتائجه لا وفقا لمعانى عباراته ، ولكن وفقا للعمليات السياسية التى تجرى بعده وفى ظله ، ويمكن أن تؤدى إلى استقلال فعلى لمصر أو إلى السيطرة الفعلية لبريطانيا ، وتترتب آثاره من خلال العمليات السياسية السابقة له واللاحقة عليه أيضا، وحسب ما تسفر عنه العلاقات بين القوى السياسية المختلفة ، التى يمثل نشاطها اللاحق عليه اسهاما فى تشكيله وتحديد معناه .

وأول ما يبدو فى تصريح ٢٨ فبراير ، أن الانجليز قد اضطروا إلى إصداره اضطرارا ، ليتفادوا وضعا تصير فيه الحكومة مستحيلة، على حد تعبير اللنبى فى مراسلاته مع كيرزون ، وأن ما حدث فى ربيع ١٩١٩ عندما استحالت الحكومة ، كان أمرا أوجب على البريطانيين الحرص على تفادى تكراره مستقبلا بأى شكل .

ومن هنا كان إنهاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ، أمرا اضطر إليه مصدرو التصريح ، وهو كسب للحركة الوطنية لاشك فيه. وما كان يمكن انتزاع هذا الاعتراف منهم لولا الثورة ، ولا كان يمكن لولاها أن ينهوا وضعا جهدوا في السعي إليه أربعين عاما منذ الاحتلال ، ولم ينجحوا في اقراره إلا بعد قيام الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤ ، فأريد منهم أن يتنازلوا عنه بعد أربع سنوات ، فور انتهاء حرب عالمية خرجوا منها منتصرين .

والملاحظ أيضا، أن مشروع ملنر الأول (١٧ يوليو) لم يتضمن أكثر من تعهد بريطاني بسلامة مصر واستقلالها ، ومشروع ملنر الثاني (١٨ أغسطس) تضمن اعترافا باستقلال مصر دون الغاء صريح للحماية الأمر الذي كان مجالا لواحد من أهم تحفظات الرأي العام المصري عند طرح المشروع عليه ، ثم جاء مشروع كيرزون ينهي الحماية صراحة ويعترف بأن مصر دولة ذات سيادة، فثمة ترق في الصيغ البريطانية . ولكن صيغة منها لم تصل إلى صراحة صيغة تصريح ٢٨ فبراير وحسمها في هذه المسألة . وفضلا عن ذلك فإن كل الصيغ السابقة كانت تطرح مقابل عقد المعاهدة التي تمثل رضاء مصريا لما تتضمنه تلك المشاريع من وجود بريطاني عسكري وسياسي في مصر، أي مقابل حصول

بريطانيا على الشرعية حسب تعبير ملنر، كان ذلك موقفا ثابتا فى المفاوضات وكشفت عنه أيضا ذات الصيغ التى وردت فى المشاريع. ودل ذلك على أن بريطانيا كانت تصر فى المساومة السياسية على أن انهاء ها الحماية واعترافها باستقلال مصر، يكون هو كل ما تقدمه لقاء اقرار المصريين لشرعية وجودها ، فجاء تصريح ٢٨ فبراير ، بصورته الحاصلة من جانب واحد ، ينهى الحماية ويعترف بالاستقلال بغير مقابل أداه المصريون ، وبهذا صار فى مكنة المفاوض المصرى الوطنى فى أية مفاوضات لاحقة أن يتمسك بخروج مسألة الحماية والاستقلال من نطاق المساومات . وهذا ذاته ما صنعه سعد زغلول فى مفاوضات ١٩٢٤ على ما سيجئ . وما تلزم الاشارة إليه هنا أنه إذ كان مبدأ إنهاء الحماية كسبته مصر بجهاد ثورة ١٩١٩ ، فإن كسبها إياه بغير مقابل من معاهدة أو اتفاق إنما كسبته بسبب هذه الصلابة التى وقفت بها الحركة الوطنية المصرية فى كافة المباحثات والمناورات والمفاوضات التى جرت فى الأعوام الثلاثة السابقة على التصريح ، وبهذا استردت مصر استقلالها السياسى - أيا كانت التحفظات عليه - دون أن تدفع ثمنا سياسيا ما يقيد الحركة الوطنية مستقبلا فى سعيها لاتمام هذا الاستقلال ..

والحاصل ، إنه إذا كانت تحفظات تصريح ٢٨ فبراير تتحدد في صورتها الفعلية في مسألة القاعدة العسكرية ومعاهدة الدفاع المشترك ووجود المستشارين المالي والقضائي واستغلال الامتيازات الأجنبية للنفوذ إلى مراقبة السياسة المصرية، فإن تلك المسائل قد انفصلت سياسيا عن مسألة الحماية والاستقلال، وصارت وحدها مجال المفاوضات والمساومات السياسية مستقبلا ، لم يكن الانجليز بهذا مفرطين، ولا كانوا يقصدون بطبيعة الحال التسليم النهائي الثابت ببعض من حقوق مصر . إنما كانوا يتراجعون من أجل الالتفاف والتطويق ، لقد عرفوا أن حكومة مصر مستحيلة عليهم بغير رضاء المصريين . فكان سعيهم أن يخلقوا أو يشكلوا رضاء مصريا يقبلهم ويسع وجوده السياسي والعسكري ، فاوضوا سعدا ليعجموا عوده فوجدوه عصيا ولا يلين، ووجدوا طلبتهم في معتدلي الوفد وقتها وعدلي يكن، فسعوا سعيهم ليسيطر هؤلاء على الوفد ومحاصرة سعد ، فلما لم يستطع هؤلاء ، خرجوا على الوفد ليقسموه ويحصلوا من شعبيته على نصيب ، فلما لم ينقسم ، حاولوا ضربه بتولي عدلي الوزارة وقمع الوفديين، فلما لم تصب سهامهم بدأ مسلك جديد تأتي به تصريح ٢٨ فبراير .

وأن تتبع التنازلات الانجليزية الجزئية فى المسألة المصرية، ليكشف عن أنها تنازلات كانت تستخلصها الحركة الوطنية بثوريتها وتشددها فى المفاوضات ، ولكن كان الانجليز يقدمونها ويعلنون عنها فى ظروف وفي سياق سياسى يقصد به اثقال موازين المعتدلين وتقويتهم سياسيا على حساب الحركة الوطنية ، قدم ملنر مشروعه الثانى ليدعم الاتجاه المعتدل فى الوفد ، وقدمت الحكومة البريطانية إعلان أن الحماية تعتبر علاقة غير مرضية لتقوية عدلى يكن قبيل تشكيله الوزارة .

وإذا كان كيرزون قد سد السبيل أمام عدلى على الوجه غير الكريم الذى سلف بيانه، فذلك أنه لا قوة لحاكم لا تثق به أغلبية شعبه ، ثم قدموا تصريح ٢٨ فبراير لتقوية الاتجاه المعتدل ذاته فى شخص عبدالخالق ثروت قبل اعلانه عن تشكيل وزارته ، وصحب ذلك ضرب الوفد بنفى سعد وبعض من أصحابه واعتقال آخرين وممارسة القمع مع النشاط الوفدى والوطنى عامة . وكان الترقى فى التنازلات البريطانية مصدره ، تقدير حجم الجرعة التى يمكن بها تقويم المعتدلين للوقوف فى وجه المعارضة الوطنية ، وكلما فشلت واحدة زيدت التالية ، ومن هنا يظهر أن هذا الترقى لم يكن مصدره ، مهارة المعتدلين ، فقد كانوا قابلين أول شئ وأى

شئ عرض عليهم كما نعتهم سعد من قبل ، ولكن كان مصدره صلابة الحركة الوطنية، سواء كانت هي المفاوض المباشر أو كانت في المعارضة ، وأن الانغلاق البريطاني في وجه عدلي يكن ثم التسليم بعده مباشرة بتصريح ٢٨ فبراير ، مهما كانت نواقصه - ليكشف عن أن سبب ذلك يكمن في المقاومة العنيفة الشرسة التي نشط بها الوفد وسعد خلال مفاوضات عدلي كيرزون ، وأن ما انطوى عليه التصريح من كسب إنما ينضاف إلى ثمار جهاد الحركة الوطنية المصرية .

كان سعى الانجليز إذن ، أن ما تكسبه الحركة الوطنية منهم، يعطوه للمعتدلين لا لها ليقووهم عليها وليستطيعوا استرداد ما أعطوه من خلال حلفائهم المعتدلين ، وهكذا كانت خطتهم في تصريحهم ٢٨ فبراير، أن يدفع الانجليز ثمنا معجلا بغير مقابل حال، يدفعوه لحلفائهم ويستثمره هؤلاء سياسيا في مصر ليقووا على خصومهم الوفديين وليمكنهم تولى الحكم، ثم يردوه من خلال ما عسى أن يجرى بعد ذلك من مفاوضات بشأن التحفظات ، فيؤدى المقابل ويتحقق مشروع كيرزون على مرحلتين بعد أن استحال تحقيقه على مرحلة واحدة ، وان ضرب الوفد ونفي قيادته كان جزءا من هذه الخطة . وأفيد ما فيه ليس مجرد عزله عن

معارضة التصريح والكشف عن نواقصه ، ولكن ضمان غيابه خلال المرحلة التالية التى يعد فيها الدستور وتجرى الانتخابات ليتولى الحكم الاحرار الدستوريون ، حزب المعتدلين الذى شكل فى تلك الفترة . ومن هنا تولد عن تصريح ٢٨ فبراير نتيجة بالغة الأهمية وهى أن الصراع الوطنى قد صار من أهم وجوهه صراعا داخليا بين الوفد حزب الحركة الوطنية الديمقراطية وبين خصومه المحليين وهم الملك والأحرار الدستوريون ، وأن المسألة الوطنية صارت وثيقة للمسألة الديمقراطية ، وأن مسألة مَنْ من هؤلاء يمسك السلطة ليتوقف عليها طريقة أعمال تصريح ٢٨ فبراير. هل يكون مقدمة لإتمام استقلال فعلى لمصر، أم مجرد حركة التفاف تستمر بها السيطرة البريطانية الفعلية . هل سيعتبر انهاء الحماية استردادا لبعض حقوق مصر لا تدفع لقاءه ثمنا بل تطالب بالمزيد ، أم ستدفع هذا المقابل المحدد فى مشروع كيرزون ، بما فيه من اعتراف مصرى بالوجود العسكرى والسياسى البريطانى الطليق فى مصر أرضا ودولة وسياسة .

الوفد والتصريح :

وقف الوفد وسعد زغلول ضد تصريح ٢٨ فبراير وقفة عنيفة ، اعتبره سعد فى إحدى خطبه «أكبر نكبة على البلاد» (٤٦) وقال

فى خطبة أخرى «نحن الوطنيين لا نعتبره إلا خيانة كبرى للبلاد» (٤٧)، وأن المعارضة الوفدية للتصريح لتفهم فى ضوء ما سبق بيانه عنه ، والحاصل أن الموقف السياسى من حدث ما ليختلف عن الموقف التاريخى من الحدث ذاته ، الموقف الأول ينظر إلى حدث لم يكتمل ولم يتحدد بعد نوع الآثار المترتبة عليه وحجمها ، والثانى ينظر إلى حدث تكامل بآثاره ونتائجه ، الأول ينظر إليه من خلال ما قبله وما يعاصره ، والثانى ينظر إليه من خلال ما قبله وما يعاصره ومن خلال ما بعده أيضا .

الأول ينظر إليه باعتباره واحدا من بدائل عدة تتداولها القوى السياسية المتصارعة ، والثانى ينظر باعتباره الواقع الذى تم ، الأول ينظر إليه نظرة مساهم فى صنعه ومساهم فى تحديد نوع الآثار المترتبة عليه ، والثانى ينظر إليه نظرة تحليل له فى سياقه الزمنى ، وتصريح ٢٨ فبراير كما مرت الاشارة ، لم يكن حدثا باتا منغلقا بآثاره ، أى محسوم النتائج منذ صدوره ، ولا يوجد حدث تاريخى محسوم النتائج منذ وقوعه ، إنما هو حدث يراد منه تشكيل أحداث أخرى ويجرى الصراع بين القوى المختلفة حول ذلك .

وقد نظر الوفد إلى التصريح باعتباره جزءا من مشروع سياسى متكامل ، أجزاؤه الأخرى سبق بيانها ومنها ضرب الوفد

وتقوية المعتدلين الذين شكلوا حزب الأحرار الدستوريين ووضع الدستور على قدهم بما يمكنهم من تولى الحكم والتفاوض مع الانجليز بشأن التحفظات ، وأن تلك الصورة التى تتجمع جزئياتها للباحث بطول الأناة فى جمع المادة التاريخية وتركيبها ، تلك الصورة ليلمسها معاصرو الحدث بحكم المعايشة والمشاهدة المباشرة ، يصف سعد زغلول يوم صدور التصريح بقوله «فى هذا اليوم عينه أنزلونى من معقلى، أخرجونى من سجنى، فصلونى عن أبنائى واخوانى، ووضعونى فى سفينة حربية مكثت فيها يومين وهى لا تتحرك .. فعلوا هذا فى اليوم الذى أعلنوا فيه ذلك التصريح وصعدت فيه وزارة تردت إلى منصة الحكم، لأنهم أرادوا أن يمدوا لهم يدا بكتاب وأخرى بسيف، فلم يكن إلا أن مزق سيفهم كتابهم .. وهكذا فهمت الأمة جميعها صغيرها وكبيرها هذا الدليل المادى .. إن تصريح ٢٨ فبراير خدعة خادعة .. » (٤٨) ، وعاد يشير إلى القصة نفسها وارتباط التصريح بقمع الحركة الوطنية ودلالة ذلك فى خطابات أخرى ، حتى أطلق عليه «استقلال بالنبوت» .

ومن هنا كان الهجوم الوفدى على التصريح هجوما على المشروع البريطانى كله باعتبار أنه لو تحقق المشروع كاملا لما كسبت مصر شيئا ، بل تكون خسرت حركتها الوطنية .

وإذا كان يراد ضرب الحركة الوطنية وعزلها عن الحركة السياسية المصرية فى الفترة التى تلى العمل بالتصريح ، فقد كان لابد للوفد أن يركز سهامه على الأحرار الدستوريين، القوة السياسية التى أريد بالتصريح تقويتها على حسابه ، والتى كان الانجليز يضمنون بها تنفيذ التصريح لصالحهم ، وذلك مصداقا لقول كيرزون إلى عدلى يكن «كيف يمكننا أن ننفذ مشروعا كهذا .. من غير معاونة رجال ذوى نفوذ مثلك» (٤٩) وقد سبقت الاشارة إلى ما ترتب على التصريح من تحويل الصراع الوطنى إلى صراع داخلى بين الوفد وبين الاحرار الدستوريين أو الملك ، فكان لابد للوفد من هزيمة الأحرار الدستوريين لا باعتبارهم خصوما فحسب، ولكن لأن هذه الهزيمة هى الشئ الوحيد الذى يفقد الانجليز «معاونة الرجال ذوى النفوذ» ويمكن بذلك أن يستخلص كسب ما من التصريح . وقوى هذا العامل مع نهايات ١٩٢٣ عندما عاد سعد زغلول من منفاه ، وأطلق سراح الوفديين، وكان الدستور قد صدر وكانت المعركة الانتخابية الأولى تدور سجالا ، واستقطب بها الموقف تماما بين الوفد والأحرار ، وإذا كان أريد بالتصريح تقوية الاحرار ، فقد الزم الوفد أن يضعف الاحرار بالتصريح ذاته باعتبار مساهمتهم فى التخطيط له وإعداده مع

اللنبى ، وخاصة ثروت وصدقى ، وقد أشار سعد فى خطاب له إلى النمط الذى سيجرى تنفيذ التصريح وفقا له على أيدى الأحرار الدستوريين بقوله : إن ثروت وصدقى «تعهدا بصفتهما الشخصية بتعهدات ينفذانها عند تولى الوزارة ، كالتعهد بعدم الدخول فى اتفاقات سياسية بدون استشارة المندوب السامى، وبعدم توظيف الضباط والمستخدمين الأجانب من غير رضائه ، سواء كان ذلك فى الجيش أو البوليس أو فى غيرهما من الوظائف ابتداء من مدير، ولا تعقد سلفة خارجية أو تخصص إيرادات مصلحة عمومية للوفاء بأى تعهد من غير موافقة المستشار المالى ..» ، ثم قال «أية خيانة أكبر وأشنع من أن يتفق رجلان من الأمة مع خصومها على أن ينفذا فيها سياستهم المضرة .. » (٥٠) .

ولم يخن سعدا ذكاؤه القانونى عندما نظر إلى التصريح ، ما اعترف به من استقلال وما تحفظ به عليه ، فوجد فيه شركا فقال : «أما القول بأن هذا التصريح أعطانا ولم يأخذ منا شيئا فقول غير صحيح وغير حقيقى ، أننا إذا قبلناه لا نأخذ شيئا ونكون أعطينا أنفس الأشياء .. أننا عملنا لرفع الحماية عنا فإذا قبلناه انتهينا لا بأن تثبت الحماية فقط بل بأن نشرك الأجنبى فى حكم بلادنا (٥١) » .

إن التصريح صدر من جانب واحد ولكنه يفتح الطريق لتبادل الحقوق والالتزامات أى للمعاهدة ، الجانب البريطانى يقوم بانهاء الحماية والاعتراف بالاستقلال ، والجانب المصرى مطالب بتقديم ما يحقق «التحفظات» فإذا تورط مصرى فى إعلان قبول التصريح إجمالا ، فإنه يكون فى الحقيقة قد أعلن قبوله للتحفظات ، أى تورط فى تقرير حقوق عليه لبريطانيا أى عقد معاهدة ، أما حقوقه هو الواردة بالتصريح فلا تحتاج بداهة الى قبول منه ، لذلك كان لابد فى العمل السياسى الوطنى المعاصر للتصريح ، أن يرفض التصريح ، لأن الرفض هو الوسيلة الوحيدة لعزل التحفظات عن الاعتراف الحاصل بالاستقلال، وصف سعد التصريح مرة بقوله «كمن يقول لآخر إنى أعطيتك ألفا إلا ألف .. فهذا التصريح من غير التحفظات مليح الملاحة كلها وجميل كل الجمال ولكنه بهذه التحفظات هو الحماية بعينها » (٥٢) .

والحق كان سعد والوفد دائما مشدودى البصر إلى الاحتلال لا إلى الحماية فحسب، والفرق بين الحماية والاحتلال فى السياسة المصرية وقتها، هو الفرق بين الأحرار الدستوريين والوفد .. وأصل الاستعمار البريطانى لمصر هو الاحتلال العسكرى لها ، الذى أمكن به أن تنفذ السلطة البريطانية الفعلية إلى أجهزة

الحكم المصرى لذلك كان شعار الحركة الوطنية منذ نموها بعد الاحتلال ، ومن بدايات القرن العشرين هو الجلاء لتواجه به الاحتلال العسكرى ، واستمر ذلك حتى ١٩١٤ حيث فرضت الحماية على مصر ، وقد تعلق نظر معتدلى الوفد «ثم الأحرار الدستوريون» بعد الحرب العالمية الأولى بانهاء الحماية فحسب، وكان معنى الاستقلال لديهم مقصوراً على إنهاء الحماية ، بينما تعلق بصر الوفد والحركة الوطنية بالاستقلال التام من حيث كونه إنهاء للحماية وجلاء للقوات الأجنبية عن مصر ونفيا للنفوذ البريطاني عن الحكومة المصرية . كتب اللنبى إلى كيرزون يقول أن الفكرة في برنامج عبدالخالق ثروت «هى أن ترجع مصر إلى الأحوال التى كانت سائدة فى مصر فى ١٩١٤ قبل أن تعلن الحماية» (٥٣) أما عن موقف الوفد فقد ذكر سعد أن أبسط الفلاحين يعرف الاستقلال «بأنه خروج الانجليز من البلاد وحكمها بأهلها دون غيرهم » ، وتساءل ماذا يفيد مصر من لفظ الاستقلال، «وجنود الانجليز يروحون ويغدون فى أرضها ويقيمون فى ثكناتها وطياراتها تحلق فى سمائها وفوق رءوسها وموظفوها فى المالية والحقانية ينهون ويأمرون ويشتركون فى جميع الشئون الداخلية» ، وذكر أن المزايا الممنوحة لمصر «مهددة فى كل وقت بوجود عساكر الاحتلال فى مصر » (٥٤) .

حكومة الوفد والتصريح :

أفرج عن سعد زغلول فى ٢٧ مارس ١٩٢٣ ، فترك معتقله بجبل طارق إلى فرنسا للاستشفاء ، وأفرج عن باقى المنفيين فى سيشل فى ١٤ مايو وأطلق سراح المعتقلين السياسيين ، وعاد سعد إلى مصر فى ١٧ سبتمبر فاستقبل بمثل ما استقبل به فى عودته الأولى فى أبريل ١٩٢١ ، وخاض الوفد معه الحملة ضد الأحرار الدستوريين وتصريح ٢٨ فبراير ، وقاد المعركة الانتخابية التى أسفرت عن كسب الوفد أكثر من ٩٠٪ من مقاعد مجلس النواب ، ولم يحصل الأحرار إلا على ستة مقاعد ، وسقط أقطابهم أمام مرشحى الوفد، وكذلك سقط جملة من كبار المرشحين الذين خاصمهم الوفد ومنهم يحيى ابراهيم رئيس الوزراء ، وحصل الحزب الوطنى على أربعة مقاعد .وبذلك تهيأ الوفد و سعد لتشكيل أول وزارة برلمانية دستورية بعد الثورة .

والمهم هنا أن انتصار الوفد وتوليه الوزارة، وهزيمة الأحرار، كان ذلك أول كسب للحركة الوطنية وأول هزيمة للسياسة البريطانية فى نطاق تصريح ٢٨ فبرير، فلم يتحقق لواضعى التصريح أن يحصلوا على «معاونة الرجال ذوى النفوذ» لأن معاونيهم لم يصيروا من ذوى النفوذ ولا أمكن للتصريح أن يقويهم

على حساب الوفد . وبذلك فقد التصريح ولو مؤقتا الأداة التى تمكن من تطبيقه لصالح الانجليز، وظهر أن نتيجة أعماله ليست - على الأقل - مضمونة الكسب للانجليز على ما كان يؤمل اللنبى.

والحاصل أن سعدا و الوفديين والوطنيين عامة، ترددوا فترة فيما اذا كان من الملائم أن يرأس سعد الوزارة، و ذلك حذر المواجهة الرسمية مع الاحتلال التى قد تكشف عن ضعف الجانب المصرى، وحذر أن يكون توليه الوزارة مما يفيد اعترافا على وجه ما بتصريح ٢٨ فبراير. فلما حسم الأمر لصالح تشكيل سعد الوزارة، حرص على أن يذكر فى جواب قبول الوزارة الذى أرسله الى الملك فؤاد فى ٢٨ يناير ١٩٢٤، أن الأمة جمعاء تتمسك بمبادئ الوفد «التى ترمى الى ضرورة تمتع البلاد بحقها الطبيعى فى الاستقلال الحقيقى لمصر والسودان مع احترام المصالح الأجنبية التى لا تتعارض مع هذا الاستقلال ..» وتحفظ فى صدر جوابه بأن قبوله الوزارة لا يعتبر «اعترافا بأية حال أو حق استنكره الوفد المصرى» قاصدا بذلك تحفظات تصريح ٢٨ فبراير. فلما افتتح البرلمان فى ١٥ مارس أشار إلى «مهمة تحقيق استقلالها «البلاد» التام بمعناه الصحيح» وان حكومته مستعدة

للتفاوض مع بريطانيا «مفاوضات حرة من كل قيد لتحقيق الآمال القومية بالنسبة لمصر والسودان..» ثم أشار الى سياسة مصر الخارجية كدولة مستقلة بقوله «وعلى مصر أن تتبوأ مكانها بين الدول بايجاد علاقات الوداد وتوكيدها مع جميع الدول من غير تفضيل ولا امتياز يخالف مبدأ استقلالنا التام ، والأمل وطيد في أن تتوج حريتنا السياسية بدخول مصر في جمعية الأمم كدولة تامة الاستقلال» وبهذا تحددت سياسة الوزارة الوفدية من البداية برفضها تحفظات تصريح ٢٨ فبراير ، واشتراطها للمفاوضة أن تكون طليقة من كل قيد ، مع استهداف الاستقلال التام الحقيقي، وأن تولي الوزارة لا يعني اعترافا بتحفظات التصريح ، مع الحرص على انتهاج سياسة خارجية مستقلة لاتعترف بامتياز ما لدولة ما يخالف الاستقلال التام ، وفي هذا رفض للتبليغ البريطاني للدول الأجنبية باعتبار مصر منطقة نفوذ بريطاني ، على ما سلفت اليه الاشارة .

وقد حدث في ٢٥ فبراير أن أجاب رامزي ماكدونالد رئيس بريطانيا على سؤال بمجلس العموم ، فذكر أن حكومته مقيدة بتصريح ٢٨ فبراير ، واستقبل جوابه في مصر بموجة من السخط والاحتجاج ، وتوجهت مظاهرة للطلاب الى سعد في وزارة

الداخلية حيث خطب فيهم بأن لكل أن يصرح بما يشاء ، ولكن برنامج وزارته يفيد عدم الارتباط بأية تعهدات سابقة . ولم يمض يومان حتى أصدر الوفد بيانا بمناسبة مرور عامين على صدور التصريح احتج فيه على التصريح واستنكره واستنكر حديث ماكدونالد الأخير . ووصف التصريح بأنه خدعة هائلة «دبرها المستعمرون من الانجليز وأيدها المستضعفون من أبناء الوطن» ومن أهم ما جاء فيه أن التصريح نكبة وطنية كبرى «لو أن الأمة قبلته صراحة أو ضمنا بموافقتها عليه أو بسكوتها عنه . ذلك لأنه يجعل مشروعا ما كان الى اليوم غصبا ، اذ يمنح انجلترا لأول مرة فى تاريخ القضية المصرية حق الاحتفاظ على صورة مطلقة بمسائل أربعة ، هى فى الواقع كل شىء » «٥٥» ودل هذا البيان على أن موقف الوفد هو استخلاص الاعتراف بالاستقلال وحده وتخليصه من التحفظات بالهجوم على التصريح حذر أن يئول أى موقف غير مهاجم على أنه قبول للتحفظات .

وبالنسبة لوجود القاعدة العسكرية البريطانية فى مصر ، فقد حدد سعد موقف وزارته فى جواب ألقاه بمجلس النواب على سؤال عن المفاوضات فى ١٠ مايو ، قال : «إنى أرى أن هناك تناقضا بينا بين الاستقلال ووجود الاحتلال» فلما سئل عما اذا

كان «وجود الجنود البريطانية فى أية بقعة بوادى النيل لا يتنافى مع الاستقلال قال «نحن متفقون على أن هذا تناقض وأنه لا مناسبة بين الاستقلال والاحتلال» ثم أجاب على سؤال آخر بأنه كرئيس للحكومة وللوفد يستنكر تصريح ٢٨ فبراير ، وأن حكومته لا تدخل مفاوضة الا حرة من كل قيد « والا مستنكرة محتجة على أن للانجليز حقا فى الاحتفاظ بالنقط الأربع» فلما سئل عن تصريحات ماكدونالد فى ٨ مايو من تقيد حكومته بالتصريح ، قال إنه لايرتبط بما يصرح به رئيس وزراء بريطانيا ، ولكنه يرتبط بالدعوة التى ترد إليه ، فإن كانت مطلقة دخل المفاوضة طليقا من كل قيد و«إنى لا أدخل فى المفاوضات الا على أمل أن نحصل على الاستقلال التام لمصر والسودان ، وإن لم يكن هذا موجودا فلا أدخلها ولا أقرب منها بل لا أبقى فى الحكومة أيضا» ثم أدلى بحديث لمراسل التايمز فى ٢١ مايو ، أكد فيه تصريحاته السابقة «وأن دخوله فى أية مفاوضة لايجب أن يفهم منه أى تنازل أو تخل عن حقوق مصر بحال من الأحوال ، ولا أن يؤخذ منه أى قبول بحالة ممتازة لبريطانيا العظمى بالنسبة لمصر ...» وأنه يرفض المفاوضة طبقا لما صرح به ماكدونالد على أساس تصريح ٢٨ فبراير ، ثم قال «إنه من السهل التوفيق بين المطالب المصرية

والمصالح البريطانية المشروعة ، ولكنه يرى أنه من المحال طبعا "الوصول الى اتفاق يكون مرضيا للمطامع الاستعمارية» ثم استنكر دعوى بريطانيا حماية قناة السويس كطريق للمواصلات ، وهو التحفظ الأول فى التصريح الذى يبرر به الانجليز وجودهم العسكرى بمصر فقال «حماية القنال هى ذات أهمية للمواصلات العالمية ، وأن لبريطانيا العظمى مصالح كما لغيرها من المصالح فيه ، فهو طريق عام للملاحة ، والحكومة المصرية تقدر هذه المصالح قدرها ، وهى مستعدة لحمايتها ، ولكنها لا ترى من الضرورى أن يعهد بهذه الحماية الى بريطانيا العظمى..» ثم أشار الى إدراكه لأن حكومة ماكدونالد «حزب العمال» لاتستطيع اتمام تسوية يعارض فيها المحافظون والأحرار معا ، ولكن «لاتنتظر منى بلاشك أن أقوى مركز المستر ماكدونالد على حساب مصر» «٥٦».

أما بالنسبة للموظفين البريطانيين ، فان الحكومة الوفدية وإن لم تتخذ موقفا حاسما بشأنها ، فقد تشكلت ـ من خلال المواقف الجزئية والتصريحات الرسمية ـ ملامح سياسة تفيد لو قدر لها التمام إقصاء الهيمنة البريطانية عن أجهزة الحكم المصرية . يذكر الأستاذ الرافعى ضمن أهم ما اتخذ البرلمان الوفدى من قرارات . حذف الاعتماد المخصص لنفقات جيش الاحتلال البريطانى فى

مصر من الميزانية ، وكانت الميزانية تتحمل هذه النفقات منذ ١٨٨٢ ولم تنقطع الا فى ١٩٢٤ «جلسة ٢٣ يونيو» وكذلك ضرورة اختيار مندوبين مصريين يمثلون الحكومة المصرية لدى الشركات الأجنبية بدلا من اختيار أجانب لهذا العمل «جلسة ١٥ يونيو» فضلا عن الشروع فى تقرير استقلال العملة المصرية عن العملة البريطانية وسحب الودائع المصرية من بنك انجلترا «جلسة ٩ يونيو» «٥٧» والأهم من ذلك فى مسألة الموظفين مايذكره اللورد لويد من أن مجلس الوزراء اتخذ قرارا بدمج ميزانيتى كل من المستشارين المالى والقضائى بالميزانية العامة لكل من وزارة المالية والحقانية ، وكان ذلك هو الخطوة الأولى تجاه نفى سلطة كل من هذين الموظفين فى التدخل الفعال .. وما لبثت حكومة الوفد فى أواخر عهدها أن شرعت فى رفض تجديد عقد اشتغال سير أموس المستشار القضائى فى ١٨ نوفمبر «٥٨» وفى ١٧ مايو أجاب سعد بمجلس النواب على سؤال عن سردار الجيش المصرى ، وكان انجليزيا دائما منذ بداية الاحتلال فقال «إن سردار الجيش المصرى هو موظف ومرءوس لوزير الحربية المصرية ومسئول أمامه قانونا ، ويجب عليه قانونا أن يرجع اليه فى أعماله ، أما مرتبه فيتقاضاه من الخزينة المصرية ، ولا يتفق مع كرامة الدولة

المصرية أن يكون الرئيس الأعلى لقواتها أجنبيا ، بل ولا الرئيس الأدنى أيضا . ولكن هذا كان من قبل . ويجب علينا أن نمحوه . كما أن إقامة السردار بالسودان لايتفق مع مصلحة العمل . وهذا واقع من قبل أيضا ، ويجب أن تتخذ الوسائل لإزالة ذلك ... كلنا ولاشك متألمون ، بل ونتنظر بعين المقت لهذه الحالة ، ولا نحب أن تبقى دقيقة واحدة ، ونريد أن يكون جيشنا ضباطه وجنوده وسلاحه وكل مايتعلق به مصريا ، هذه أمانينا وهذا مانسعى اليه..» وفضلا عن ذلك كانت الحكومة تنهج سبيل المناوأة لكبار الموظفين البريطانيين حضا لهم على اعتزال العمل «٥٩» . ثم كان تعيين محمود فهمي النقراشي وكيلا لمحافظة القاهرة ثم وكيلا لوزارة الداخلية ، مما قصد به اقتحام الوزارة الوفدية لأجهزة الأمن التى يشرف عليها البريطانيون بواسطة موظفيهم الكبار . وقد أثار ذلك حذر الانجليز بالنظر الى هذا الهدف، وبالنظر الى أن النقراشي كان من أصلب العناصر وقتها ومن النشطين فى التنظيم السرى للوفد من قبل .

وفضلاً عن ذلك ، فان مسألة تعويضات الموظفين الأجانب عند تركهم خدمة الحكومة ، كانت من المسائل التى أولاها الانجليز أهمية خاصة فى مفاوضاتهم منذ ملنر وضمنوا مشروعاتهم

نصوصا تضمن التعويض السخى لهؤلاء الموظفين . ولم يكن المفاوض المصرى يمانع فى مبدأ المعاملة السخية لهم سواء كان سعديا أم عدليا ، وبعد أن صدر تصريح ٢٨ فبراير وأعد الدستور وآذن عدد الموظفين الأجانب فى مصر بالنقصان بناء على ماثبت فى مذكرة اللنبى فى ٤ مارس ١٩٢٢ التى سلفت الاشارة اليها ، أصدرت وزارة يحيى ابراهيم القانون ٢٨ لسنة ١٩٢٣ تضمن أحكاما بما يحصل عليه التاركون من تعويضات سخية ، وتبادلت الحكومتان المصرية والبريطانية كتبا فى هذا الشأن تضمن أن يكون لتلك الأحكام قوة المعاهدة الدولية فلا تستطيع مصر من جانب واحد بعدها تعديلها ، وحاول سعد بعد توليه الوزارة أن يعدل من تلك الأحكام فلم يوافق الانجليز ، وأثير الموضوع بمجلس النواب ، ودفع نواب الحزب الوطنى سعدا لأن يستنكر هذا القانون ويعتبره «ضربة على الخزانة ونكبة على أموال الأمة وأنه سابق لأوانه ، بل أقول إنه مخالف للدستور» «جلسة ٢٤ يونيو» ورغم أن سعدا أبقى العمل بهذا القانون باعتباره اتفاقا انعقد بين الحكومتين فلا يملك طرف واحد وقفه . إلا أن الاثارة التى حدثت بشأنه تركت ظلالا كثيفة على العلاقات بين البلدين .

الباب الثانى

السودان فى السياسة المصرية

(١)
السودان بين مصر وبريطانيا

بريطانيا والسودان :

السودان لم يكن فحسب من أصعب ما واجه الحركة الوطنية المصرية من مسائل بل كان أعقد تلك المشاكل خلال النصف الأول من القرن العشرين ، ووجه الصعوبة أن الانجليز مع رفضهم العنيد الاستجابة لمطالب مصر فى الاستقلال والجلاء ، فقد كانوا أكثر عنادا وشراسة فى الاستجابة لما تطالب به بشأن السودان ، ووجه التعقيد أن الحركة الوطنية لم تستطع أن تتفادى المأزق المتعلق بكونها حركة مصرية لايشترك فيها السودانيون ، مع مطالبتها فى الوقت نفسه باستقلال السودان عن بريطانيا ووحدته مع مصر ، فكان تنظيم الحركة غير متلائم مع هدفها من هذه الناحية ، وبدت السودان «مطلبا» لمصر وليست شريكا فى كفاح جامع من البلدين ، وبدا التناقض بين التكوين المصرى القاصر للحركة الوطنية وبين هدفها السودانى رغم أنه هدف يتعلق باستقلال السودان وجلاء الاستعمار عنه .

توحدت السودان مع مصر على عهد محمد على بطريق الضم العسكرى ، وهو أسلوب لتكوين الدول وتوحيد الشعوب لم يكن شاذا فى التاريخ حتى القرن التاسع عشر ، بل يبدو أنه كان النمط الغالب لحركات التوحيد خلال ذلك القرن . وكما أن نهضة مصر قد بدأت على يد هذا الوالى من خلال المؤسسة العسكرية وبواسطة الحكم الفردى المستبد ، فان حركات التوحيد كان يمكن أن تجرى على النمط نفسه . وفى نطاق هذا السياج ، كان يمكن أن يجرى على مدار السنين الامتزاج بين البلدين ، مستندا الى اشتراك المصريين مع غالبية السودانيين فى اللغة والدين «الاسلام والمسيحية» وتشابه العادات والطباع ، فضلا عن المصالح المشتركة التى يجمعها نهر النيل ، وفضلا عن الاشتراك فى مقاومة حكم استبدادى واحد ومقاومة الغزو الاستعمارى الغربى ، وهى مقاومة تصاعدت فى انتفاض كل من الشعبين فى الثورتين العرابية والمهدية فى السنين الأولى للثمانينيات من القرن التاسع عشر ، كان يمكن ذلك لولا أن سقطت مصر فى تلك الفترة فريسة للمطامع الأوربية عامة وللاحتلال البريطانى خاصة . وقد احتل الانجليز مصر وهزمت الثورة العرابية وأمر الاحتلال باخلاء الجيش المصرى للسودان فى ١٨٨٤ فلما استقال شريف باشا رئيس الوزراء رافضا طلب الاخلاء ، حل محله نوبار ليلبى نداء

الانجليـز ، وفـى ١٨٩٦ بدأت العـودة للسـودان بقـوات الجـيش المصرى وقيـادة بريطانية على رأسـها اللورد كيتشنر . وسقطت السودان فى ١٨٩٨ .

تبدأ المسألة السودانية فى السياسة المصرية باتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩ التى عـقدها المعتـمـد البـريطانى اللورد كـرومـر مع وزير خارجـية مـصـر بطرس غـالى باشـا ، وبـهـا نشـأ الحكم الثنائى للسودان ، وبها سيطر الانجليز منفردين عليه ، حتى لم يعد لمصر فيه إلا علم على سارية وعمـامة على رأس قاضى القـضـاة ودعاء للخديو فى خطبة الجمعة ، نصت الاتفاقية على أن يعين حـاكم عام للسودان يجمع الرئاسة العليا العسكرية والمدنية ، يعين بقرار من خديو مصـر بناء على طلب الحكومة البريطانية «مـادة ٣» وهو من يصدر القوانين التى تسرى على السودان ويبلغـها الى المعتـمد البريطانى بالقاهرة والى مجلس النظار المصرى «م٤» ولا تسرى على السودان القوانين المصرية ولا الامتيازات الأجنبية ولا تمتد إليه سلطة المحاكم المختلطة «م٥ ، ٦ ، ٨» ولا يعين قناصل أجانب به الا بموافقة بريطانيا «م١٠» ، ويعتبر السودان كله تحت الاحكام العرفيـة فـلا ترفع عنه إلا بقرار من الحـاكم العـام «م٩» . وكـانت مدينة سـواكن خـارجـة عن الاتفـاقـيـة لأن مـصـر لم تكن جلت عنها من قبل ، فأجرى اتفاق ثان فى ١٠ يوليو ١٨٩٩ ضم سـواكن الى نظام الاتفاقية الأولى .

عين كتشنر حاكما عاما ، يعاونه رينجالد وينجت رئيسا للمخابرات وسلاطين باشا ، ثم حل وينجت محل كيتشنر في ديسمبر ١٨٩٩ حتى ١٩١٦ ثم السير لى ستاك حتى اغتيل بالقاهرة في نوفمبر ١٩٢٤ ، وكان كل من هؤلاء سردارا للجيش المصرى وحاكما عاما للسودان ، وعلى يدى وينجت خاصة تم بناء أجهزة الدولة هناك ، تبلورت الادارة السودانية تحت الحاكم العام في ثلاثة سكرتيرين : مالى واداري وقضائى لكل منهم مساعد ويتبع كل منهم مديرو الادارات المركزية، وفى ثمانية مديرين وثلاثة محافظين يحكمون الاقاليم الأحد عشر ، ويتبع كل من هؤلاء مفتشون على رأسهم مفتش عام يتصل بالحاكم العام رأسا كمستشار له . ويتبعهم مأمورو المراكز ووكلاؤهم ، وكان كل هؤلاء من الانجليز فيما عدا مأمورو المراكز ووكلاؤهم فقد كان غالبيتهم من المصريين ، كما كان كلهم تقريبا من ضباط الجيش باعتبار خضوع السودان للحكم العرفى العسكرى بنص الاتفاقية ، الحاكم العام كحاكم عسكرى عرفى يجمع فى يديه سلطات التشريع والتنفيذ والاشراف على القضاء ، كسلطة فردية استبدادية كاملة مطلقة . وهم جميعا إلا ما ندر بريطانيون أو مصريون من رجال الجيش المصرى ، وبهذا تحققت السيطرة

البريطانية من خلال الجيش المصرى الذى شغل البريطانيون وقتها وظائفه القيادية ، وضمن الانجليز ولاء الجنود المصريين للحاكم العام باعتباره قائدا لجيشهم ، وفى ١٩١٠ أنشىء مجلس الحاكم العام كمجلس استشارى يضم السكرتيرين الثلاثة وعددا آخر من الانجليز، ويناقش الميزانية والقرارات المهمة ، ولم يكن فيه فى أى وقت مصرى واحد ، ويجرى اختيار الموظفين كلهم انجليز وغير انجليز بواسطة الحاكم العام . بغير رأى ولا مشورة من مصر .

فى السنوات الأولى لاحتلال السودان ، أدخلت الادارة الانجليزية مجموعة من القوانين توخت فى معظمها أن تجىء على نسق القوانين الانجليزية بالهند ، ومنها قانون حجج الأراضى وقانونا العقوبات والإجراءات الجنائية «١٨٩٩» وقانون القضاء المدنى «١٩٠١» وقانون المحاكم الشرعية «١٩٠٢» . واستهدفت من ذلك فصل البناء التشريعى بالسودان عن مثيله بمصر ، واطرد إصدار التشريعات بأمر من الحاكم العام وحده وفقا لاتفاقية الحكم الثنائى ، أما صلة مصر بهذا الأمر فيلزمها بعض التفصيل، إذ أعد كرومر مشروع اتفاقية ١٨٩٩ متضمنة فى مادتها الرابعة، أن الحاكم العام يصدر القوانين بعد أخذ موافقة مسبقة عليها من الحكومة المصرية ومن الحكومة البريطانية

«المعتمد البريطاني» ، أما القرارات الادارية والتنفيذية قليلة الأهمية فتصدر من الحاكم العام مباشرة ، ويكتفي بتبليغها بعد صدورها الى كل من المعتمد البريطاني ومجلس النظار المصرى ولكن كرومر عدل عن ذلك ، واقترح على حكومته فى ١٤ يناير ١٨٩٩ حذف أية إشارة الى السلطة المصرية على قوانين السودان، مبررا الحذف بالحرص على صيانة السودان من نفوذ الامتيازات الأجنبية اليه من خلال السلطة المصرية ، ومبررا إياه أيضا بأن تلك السلطة من شأنها الانتقاص من سلطان الحاكم العام أمام السودانيين ، ويبدو أنه أقنع الحكومة المصرية بهذا التعديل ، وكانت تلك الحكومة سهلة الاقناع بأى نصح «ملزم» يبديه كرومر، بأن ثمة التزاما غير مكتوب يوجب على الحاكم العام عرض مشاريع القوانين عليها قبل اصدارها رغم الحذف، وفى يوم ابرام الاتفاقية أرسل كرومر الى كيتشنر صورة منها ، وأوصاه بوجوب اطلاع رئيس مجلس النظار المصرى على أى اجراء مهم ليوافق عليه قبل اصداره «٦٠». واستمر اتباع هذا التقليد حتى ١٩١١ عندما كان كيتشنر معتمدا بريطانيا بالقاهرة فقرر اصدار القوانين هناك بمجرد موافقته ، والاكتفاء بتبليغها الى مجلس النظار المصرى بعد صدورها ، ولا يبدو أن كيتشنر استشار مصر

وأبلغها بهذا التعديل ، ولايظهر أن حكومة مصر أبدت أدنى احتجاج ، وقد لاتكون لاحظت أن تغييرا حدث، وجرى الأمر بعد ذلك على أن يرسل الحاكم العام مشروعاته الى المعتمد البريطانى الذى يناقشها مع المستشارين المالى والقضائى بصفتهما البريطانية لابحكم كونهما موظفين فى حكومة مصر ، ثم ترد للحاكم العام لاصدارها حسب التوصيات وتطبع فى «السودان جازيت» ثم بعد ذلك ترسل صورة منها الى المعتمد البريطانى ، ومنه الى المستشار المالى ، ومنه الى سكرتير مجلس النظار المصرى ، وبذلك تكون الحكومة المصرية قد أخطرت «٦١» وقد تأكد انفصال السودان عن مصر من الناحية القانونية بحكم أصدرته المحكمة المختلطة فى ١٠ أبريل ١٩١٠ فى قضية رفعها مقاول على الحكومة بمناسبة مانفذه من أعمال فى ميناء بورسودان ، فقضت المحكمة بعدم اختصاصها على أساس انفصال السودان عن مصر وعدم سريان الامتيازات الأجنبية هناك «٦٢» .

نفذ الانجليز مشروع استعمارهم للسودان، بالمال المصرى والرجال المصريين، بالميزانية والجيش ، ومنذ ١٨٢٠ قذفت مصر الى السودان بعشرات الآلاف من رجالها وبالملايين من الجنيهات

من أموالها لبناء الدولة الواحدة في وادى النيل ، وأتى الانجليز ليصنعوا من هذا العنصر اداة تدعم سيطرتهم على مصر والسودان معا وكانت سيطرتهم على كل من القطرين مما يدعم السيطرة على الآخر ، ومصر المأمورة بالنصائح البريطانية الملزمة، تقدم المال والرجال لتنفيذ المشروع البريطانى ، ولتحمل فى نظر السودانيين بعضا من أوزار السياسة البريطانية ، مما يزيد مستقبلا من التباعد بين القطرين ، ولم تتأت مشكلة مصر فى السودان من فساد سياستها ، بل تأتت من أنها لم تكن لها سياسة أصلا، وأن قرارها المصرى كان يحمل الارادة البريطانية لا إرادتها هى . وهى فى ضعفها أن رفضت تقديم الجيش والمال فصل الانجليز السودان عنها لصالحهم لا لصالح السودانيين ، وان قدمتهما دعمت حكم الانجليز له ، والمغلوب يزداد غلبا بالفعل ونقيضه ، بلغت ايرادات حكومة السودان فى ١٩٠٠ حوالى ٨ آلاف جنيه فقط ، ووصلت مصروفاتها الى ٢٥٠ ألف جنيه ، وكان على مصر أن تسد العجز «٦٣» . واطرد ذلك فصارت جملة ما أدته مصر سدا لعجز حكومة السودان ٣ . ٥ مليون جنيه حتى ١٩١٢ فضلا عن مبلغ مماثل أدته قروضا لاقامة مشروعات بالسودان حتى ١٩١٤ ، وشارفت الجملة حوالى١١ مليون جنيه

حتى ١٩١٤ «٦٤» . وتظهر جسامة هذا المبلغ أن متوسط الايراد العام السنوى بمصر وقتها كان يتراوح بين ١١ ـ ١٧ مليون جنيه «٦٥» ولايدخل فى هذا المبلغ نفقات الجيش المصرى المقيم بالسودان ولا مرتبات الموظفين البريطانيين والمصريين العسكريين التى تؤدى من ميزانية وزارة الحربية المصرية «٦٦» .

يذكر داود بركات أن الجيش المصرى والسودان أمر واحد لافرق بينهما . وهو نظر صحيح فى عمومه ، سواء على أيدى المصريين قبل ١٨٨٢ عندما كان الجيش يقوم ببناء المرافق فضلا عن مهمته الرئيسية ، أو على أيدى الانجليز بعد ١٨٩٩ عندما جعلوا حكم السودان وقيادة الجيش وظيفة واحدة «٦٧» . وقد فكر الانجليز غداة فتحهم مصر فى ألا ينشأ جيش مصرى قط ، ثم عدلوا عن ذلك الى تكوين جيش صغير يساعد فى ضبط الأمن عند الضرورة ، وعند الشروع فى العودة للسودان زيد الجيش عددا وعدة وتدريبا ليمكن به انجاز هذا الأمر ، حتى اذا استعيد السودان احتفظ بالجزء الأكبر من الجيش هناك ليبقى بعيدا عن أرضه وشعبه فى مصر ، وليمكن بهذا الابتعاد وبالسيطرة على قيادته ، ضمان الا يتكرر ما حدث منه أيام العرابيين ، وليمكن بوجوده فى السودان استخدامه لصالح أداة الحكم البريطانى ،

وهكذا خفض الانجليز نفقات سيطرتهم على كل من مصر والسودان الى أقل حد ممكن . ومالبث أن تحول على أيديهم بالسودان من جيش محارب الى قوة بوليس حربية ، فجرد جنوده وضباطه من الذخيرة ومن الأسلحة الثقيلة الأمر الذى أدى بهم إلى التمرد فى يناير ١٩٠٠ ، ثم شتت وحدات صغيرة تنتشر فى أنحاء السودان ويفصل بين كل واحدة وأخرى مئات الأميال بما يصعب معه تكرار التمرد منه . وفى الوقت نفسه جرى بالتدريج إنقاص عدد الوحدات المصرية وانشاء وحدات سودانية بديلة نواة لجيش سودانى تستخدمه الادارة الانجليزية بعد فصل السودان عن مصر، وكمحاولة للتفريق بين العنصرين «٦٨» وفى الوقت نفسه ألقى على عاتق الجنود المصريين تشييد المرافق والمبانى فى هذه الفترة، وجرى بواسطة مصلحة الاشغال العسكرية التابعة للجيش . مد خطوط السكك الحديدية وأسلاك البرق فى ظروف وصفها أحد المعاصرين بقوله أن تحت كل شبر من تلك الخطوط جثة لجندى مصرى (٦٩) . وأنشئت كتيبة للسكك الحديدية تقوم بأعمال التفتيش والصيانة الدائمة، كما شيدوا ميناء بورسودان فضلا عن المبانى الحكومية وثكنات الجنود والورش والمستشفيات والسجون والمدارس فى كل مدن السودان (٧٠).

اذا كانت وظائف المصريين بجهاز الإدارة لا ترتفع عن مأمورى المراكز ووكلائهم، فقد كان نشاطهم لايتجاوز اجراء التحقيقات الإدارية وتحصيل الضرائب ، ويجرى تحصيل الضرائب باستخدام العنف مما أظهر المأمورين فى أبغض الصور أمام السودانيين . وقد عين بعض المصريين وكلاء للمفتشين الانجليز فلم تكن وظيفتهم تجاوز توزيع بعض السلع الضرورية على التجار المحليين بأسعار مرتفعة.

وما لبثت الإدارة البريطانية أن أدخلت بعضا من السودانيين فى سلك وظائف المأمورين ووكلائهم. كما عملوا على ادخال بعض من السوريين فى وظائف الحكومة المركزية (٧١) . واستمرت خطة انقاص عدد الموظفين المصريين وزاد معدلها منذ ١٩١٥ ، وقد تضمنت مذكرة الوفد المصرى إلى مؤتمر فرساى فى ١٩١٩ «إن الموظفين المصريين يختفون شيئا فشيئا ليفسحوا المجال للموظفين الانجليز فى المناصب الكبرى على الخصوص . وليس بعيدا ذلك اليوم الذى يخلو فيه السودان من أى موظف مصرى ماعدا الحاميات العسكرية التى تدفع مصر نفقاتها» (٧٢)

المهم من هذا الاستعراض السريع لأوضاع الإدارة السودانية، إدراك انها كانت في هيكلها وفى صميمها إدارة بريطانية

استعمارية. على خلاف ما كان عليه الأمر بالنسبة للإدارة المصرية على ما سبقت الاشارة فى صدر هذا الموضوع. وأن النظر إلى هياكل جهاز الحكم السودانى ، ليكشف عن أن كل مراكز اتخاذ القرارات وتلقى المعلومات ودراسة المسائل كانت فى يد الانجليز، وكل مراكز الاتصال بين الإدارات أو الجهات المختلفة كانت فى أيديهم. ولم يبق للمصريين ولا للسودانيين معهم الا أن يكونوا مجرد أدوات فرعية للتنفيذ، ولاينبنى منهما، ولا من أى منهما جهاز ما . وقد أحيط بهم فى مستويات التنفيذ الدنيا علي طريقة تعزل بعضهم عن بعض فلا يتصل جهاز بآخر فى مجال عمله الا من خلال مستوى بريطانى.

كما أحيط بهم بطريقة تعزلهم عن السودان المحكوم. وذلك بالحرص على تكليفهم بما يولد البغضاء والشحناء من الأعمال، وهى فى الأساس جباية الضرائب واصطناع العنف فيها، وقمع الانتفاضات الشعبية. وذلك كله فضلا عن ازكاء التنافس بين طوائف المصريين والسودانيين والسوريين . وبهذا كان المصريون فى الإدارة السودانية معزولين عن الاتصال بالإدارة المصرية الا من خلال البريطانيين ، معزولين فى الأساس عن احتمالات النشاط السياسى بين زملائهم السودانيين بحكم المنافسة ، معزولين عن

الرأى العام السودانى نفسه . ونلحظ الظاهرة نفسها فى الجيش المصرى الذى تحقق عزله عن الحكومة المصرية بواسطة القيادات البريطانية المسيطرة عليه، وعن الرأى العام المصرى بابتعاده فى السودان، وعن الرأى العام السودانى بما كان يمارس بواسطته من قمع لحركات التحرر السودانية.

وقد صحب ذلك تقطيع لمكنات الاتصال الاقتصادى بين البلدين، وجد علامته الواضحة فى انشاء ميناء بورسودان لتحويل تجارة السودان عن طريق مصر إلى البحر الأحمر، وتم انشاء الميناء فى ١٩٠٩ بالأموال المصرية وبجهد العاملين المصريين، كما أن خطوط السكك الحديدية تمت على أساس مقاييس لاتسمح بوصلها بالخطوط المصرية من وادى حلفا إلى أسوان. وتحقق فضلا عن ذلك انفصال فى التعليم. اذ أنشئت كلية غوردون فى ١٩٠٣ لتكون بديلا عن التعليم المصرى هناك أو عن ارسال المبعوثين إلى مصر ، وكانت نمطا من التعليم المتوسط الذى يمد الإدارة السودانية بمن يشغلون وظائفها الصغيرة. ثم أنشئت المدرسة العسكرية بالخرطوم فى ١٩٠٥ لتكون بديلا عن التعليم العسكرى المصرى وليلتحق خريجوها بوحدات الجيش هناك.

واذا كان الحكم المصرى للسودان خلال القرن التاسع عشر ، قد عرف ما لم تعرفه الإدارة البريطانية بعد ذلك من اختيار

السـودانيين لوظائف الإدارة العليـا والمديرين والوظائف القيـادية بالجيش ومنحـهم الرتب السـامـية واشـتـراك بعضـهم فى الثـورة العرابية واشـتـمال دسـتور العرابيين على تشكيل لمجلس النواب يسـاهم فيـه السودان بعشرين عضـوا، اذا كان ذلك فان الدعاية البريطانية قـد أمعنت فى التـركيز على مسـاوىء الحكم المصرى هناك مما كان صنوا لمساوىء الحكم نفسه في مصر ، وذلك لتأكيد العزلة بين البلدين شعبا وحكما. ودعـمت تلك الدعـاية بما ناطته الإدارة البريطانية بالموظفين المصريين من جباية الضرائب بوسـائل العنف، لتـثـير سـخط السـودانى على المصرى لا سـخط الحـاكم الظالم على المحكوم المظلوم. وبما ناطت بوحدات الجيش المصرى من قمع الانتـفاضـات السـودانيـة الشـعـبية ، وقـد لاحظ البـاحث (المحزون) ، «إننا لا نقيم فى السودان المصرى ، بل فى مستعمرة انكليـزية أظهـر ظواهرهـا صلف الحـاكمين نفـور المحكومين لا من هؤلاء ولكن منا نحن المصـريين..» كـمـا لاحظ أن السـودانيين يعتقدون «أننا أداة تمكين المستعمرين من رقاب المستعمرين، وآية ذلك عندهـم انه كلمـا هم السـودانيون بخلع نيـر الانكليـز أصلتـهم النيران أيد مصرية ورؤوس انكليزية» ، ثم حكى قصة مؤداها أن السـودانيين كـانوا لايردون على تحـيتـه إن بدأهم بـهـا إلا بنظرة

الجفوة والبغضاء ، اعتقادا منهم أن «جميع الترك وأولاد الريف» من الكفار لأنهم استنصروا بغوردون في حكمهم. ثم يقول أن السوداني «مغبون مظلوم، لايستطيع أن يدرأ عن نفسه ذلك الظلم المبين الا بالضراعة إلى الله أن ينقذه من استعمار الانكليز والمصريين على السواء ، بل المصريين على الأخص لأن المصريين هم الذين يتولون جباية الضرائب الفادحة ويستعملون في جبايتها الطرق التي ذكرتها لك ..» ويأسف أن يتحمل المأمورون تبعات تلك الأعمال الشائقة دون أن يأخذهم الإباء والشمم إلا في النزر اليسير من الحالات (٧٣).

مصر والسودان قبل ١٩١٩ :

لا يلحظ ان الحكومة المصرية وقتها قد عارضت في واحدة من تلك السياسات البريطانية. كانت خاضعة للنصائح الملزمة، بها أجلت جيشها عن السودان في ١٨٨٤ ، وبها عادت إليه في ١٨٩٦، وبها أبرمت اتفاقية الحكم الثنائي . هي حكومة بلد محتل. فلا يكاد يلحظ في هذا الشأن الا ما كان يذكر بمجلس شورى القوانين عند نظر الميزانية وعند الموافقة على الإعتمادات المالية الخاصة بحكومة السودان . من أن السودان يعتبر جزءا من مصر. إنما ما يستحق التتبع هو موقف الحركة الوطنية المصرية من مسألة السودان.

صادف دخول الجند المصرية السودان وتوقيع اتفاقية الحكم الثنائي، فترة المهد للحركة الوطنية الديمقراطية المصرية فى القرن العشرين .. وكان لاحداث السودان تلك ردود فعل عليها . خطب مصطفى كامل فى ٢٣ ديسمبر ١٨٩٨ يقول انْ مصر فتحت السودان بأموالها ودماء أبنائها الذين جاهدوا «فى سبيل استرداد السودان، ثم تسلم إلى الدولة المحتملة هذه البلاد الزاخرة وهى من مصر الروح والفؤاد» . ثم جاء توقيع اتفاق ١٨٩٩ مفاجأة أسيفة للرأى العام المصرى ، لم تسبقه مقدمات ولا مفاوضات ولا أخبار تنبيء عنه . نشر مصطفى كامل بصحيفة فرنسية خطابا فى ٦ فبراير أبان فيه أن الاتفاقية «باطلة قانونا» لمخالفتها للفرمانات السلطانية التى ناطت السودان بمصر ولم تجز لمصر النزول عن جزء من أرضها . وأهاب بتركيا وأوربا الاحتجاج على الاطماع البريطانية ، مشيرا فى ذلك إلى أن من مصلحة دائنى مصر الأوروبيين أن تكون مصر قادرة علي دفع ديونها مما لايضمن «الا اذا كان مالكا لمنابع النيل» ، وأن لأوروبا أملاكا فى أفريقيا «يهددها وجود الانجليز بالسودان، وأن بريطانيا تستهدف جعل أفريقيا هندا ثانية» . ثم خطب بلندن فى ٢٦ يوليو ١٩١٦ ، فأشار إلى أن السودان روح مصر الذى ضحت من أجله بالمال والرجال

فلم يعد لها فيه شيء (٧٤) . وجرت «اللواء» في كل مناسبة على التعرض لأمر الاتفاقية ، وهاجمت الحكومة لتوقيعها اتفاقية تسليم المجرمين مع حكومة السودان في ١٩٠٢ لأن ذلك يعتبر اعترافا منها بانفصال السودان (٧٥) . وترحمت على زمان مضى رفرفت فيه أعلام مصر بنفوذها المطلق وأمرها النافذ حتى قرب خط الاستواء (٧٦) . وأشارت إلى الخطر العظيم الذي يتهدد مصر من فصل السودان عنها بسبب وجود منابع النيل فيه، وأشارت إلى أنه ليس لمصر موظف كبير واحد هناك ، وحتى موظفي وزارة الاشغال المصرية يختارون من المهندسين الانجليز، رغم أن مصر تتحمل الجزء الأكبر من تكاليف الجيش والإدارة السودانية (٧٧).

فلما نشأ الحزب الوطني في ١٩٠٧ وضع في مقدمة مبادئه أولا : «الاستقلال التام لمصر مع سودانها وملحقاتها استقلالا غير مشوب بأي احتلال أو حماية أو شبه سيادة أجنبية أو أي قيد يقيد هذا الاستقلال»، وفي الخطاب الشامل الذي ألقاه مصطفى كامل في ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ بمناسبة تأسيس الحزب ، أشار في سطور قليلة إلى بطلان اتفاقية ١٨٩٩ لابرامها تحت الضغط وبالمخالفة للفرمانات السلطانية، واحتج على التنكر «لحقوق مصر في السودان» (٧٨) .

فلما رأس محمد فريد الحزب الوطنى ، أشار فى بعض خطاباته إلى موضوع السودان ، انتقد فى ١٩٠٨ تشتيت الجيش المصرى فرقا صغيرة هناك، واعتاد الحزب على الاحتجاج على توقيع اتفاقية ١٨٩٩ في كل عام عندما تحل ذكرى توقيعها، وذلك ببرقيتين ترسلان إلى الحكومتين المصرية والبريطانية. وقد تضمن مؤتمر الشبيبة المصرية بجنيف فى سبتمبر ١٩٠٩ تقريرين عن السودان أعدهما على الشمسى ومصطفى الشوربجي، كما تضمنت أعمال مؤتمر استكهلم في ١٩١٠ قرارا ببطلان اتفاقية السودان، وذكر محمد فريد أنه يقصد بالجلاء تحرير «وادى النيل العزيز» ، ولكنه عاد يقول «نحن أمة تتألف من ثلاثة عشر مليونا..» مشيرا إلى أن فكرة الأمة لديه قاصرة على مصر (٧٩) .

وأن حزبى الأمة والاصلاح على المبادىء الدستورية اللذين ظهرا مع الحزب الوطنى فى ١٩٠٧ ، لم يشر واحد منهما فى أى من بنود برنامجه إلى مسألة السودان . وقد ظهر فى ١٩٠٩ ما سمى بالحزب المصري الذى أنشأه اخنوخ فانوس . وهو تنظيم لم يتمتع بتأييد ما فى الحياة السياسية ، وأشار في برنامجه إلى «اعتبار مصر والسودان التابع لها قسما طبيعيا واحدا لا ينفصل بعضه عن بعض لكون السودان مجرى النيل فيه إلى مصر أصبح

جزءا متمما لحياة مصر» (٨٠) . وهي صيغة لم تشر إلى استقلال أى من مصر أو السودان وتؤيد فى عمومها اتفاقية ١٨٩٩ .

والملاحظ أولا بالنسبة لموقف الحركة الحزبية المصرية من مسألة السودان فى الفترة السابقة على ثورة ١٩١٩ ، أن الحزب الوطنى كان تقريبا الحزب الوحيد الذى أولى هذه المسألة جزءا من عنايته . على أن موقفه لم يزد عن أن يكون مجموعة من ردود الفعل للسياسات البريطانية بالنسبة للسودان. ولا تكاد تلحظ مبادرة تصدى بها الحزب لتلك السياسات يواجه بها خطة عزل السودان عن مصر، الا الموقف «القانونى» من اعلان بطلان اتفاقية ١٨٩٩ ، والا الاحتجاج الدورى المتكرر فى المناسبات عليها. ويبدو الفارق واضحا بين موقفه ذلك، وبين موقفه من مسألتى الجلاء والدستور فى مصر . كان محمد فريد يؤكد أن أهداف حزبه «الجلاء عن مصر وانشاء مجلس نواب وتأسيس حكومة أهلية محضة» ، وكانت مؤتمرات الحزب السنوية على عهده ، تتضمن العديد من الدراسات والتقارير التى تحيط بمشاكل مصر فى مختلف المجالات كالتعليم والصحة والزراعة والتعاون والحريات والصحافة وغيرها، ويأتى ذكر المسألة السودانية بها أحيانا فى صيغتها العامة، بطلان الاتفاقية وما يثور من حجج قانونية تؤيد

البطلان . مع نقد سياسة الحكومة المصرية المتخاذلة والهجوم علي كل خطوة تتخذها بريطانيا أو حكومة السودان لعزله عن مصر ، قانونيا أو فعليا.

والملاحظ ثانيا ، أن الحركة الوطنية المصرية في مطالبتها ببطلان اتفاقية ١٨٩٩، وفى موقفها العام بالنسبة للمسألة السودانية، حصرت نظرتها اليه فى اطار العلاقة الثنائية بين مصر وبريطانيا. وهي نظرة لم تكن تتسع لقيام السودانيين بدور فيها ولا لحساب دورهم. وعلى هذا فان الحزب الوطنى الذى بذل اهتماما طيبا فى ذلك الوقت بالجانب التنظيمى من النشاط الشعبى، فاهتم بتوحيد الحزب وتخليصه من الخلافات الداخلية، واهتم بانشاء اللجان الفرعية له فى الاحياء والأقاليم، واهتم بالتنظيمات النقابية العمالية، والتنظيمات التعاونية للفلاحين وانشاء مدارس الشعب، وكانت مؤتمراته السنوية تتضمن متابعة لهذه النشاطات ، هذا الحزب لم يلحظ أن توجه بأى جهد من هذا النوع للسودانيين، ولا تلحظ محاولة قام بها للاتصال بشعب السودان أو تبادل الاضداء معه. وأن هذا الابتعاد قد يجد تفسيرا له فى تصور مدى العنف والشراسة اللذين كان خليقا بحكومة السودان والاحتلال البريطانى أن يلجأ اليهما لضرب أية محاولة للاتصال بين

الشعبين، وفي ضعف الحركة الوطنية المصرية وقتها وكون الحركة الوطنية السودانية كانت لاتزال في عمر الأجنة. علي أن هذا التفسير يمكن أن يواجه ، بأن القمع يمكن أن يفشل المحاولة ، ولكنه حتى في أعنف صوره لايفسر عدم قيام المحاولة أصلا، والظاهر وفق المتاح من وثائق التاريخ أن المحاولة لم تقم أصلا . وان ضعف الحزب الوطنى لم يمنعه من أن يرعى جمعيات للاغتيال السياسي ظهر نشاطها في مصر منذ ١٩١٠، وعرف فيما بعد أنها نمت في أحضان الحزب الوطني، رغم ما كان يتهدد هذا النشاط غير السلمي وغير المشروع من جبروت سلطان الاحتلال. وأن الشعب السوداني وإن لم يكن قد تمخض عن حركته الوطنية الحديثة ، فقد كان في انتفاضاته الدينية التي لم تهدأ في أنحاء السودان والتي يحسب عددها بالعشرات منذ ١٨٩٩ ، كان فيها ما يغري بمحاولة الاتصال ، مع وجود المصريين هناك جيشا وموظفين بالإدارة، ومن ثم فانه يتعين لفهم تلك المسألة النظر في وجهة الحركة الوطنية المصرية بالنسبة للسودان.

والملاحظ ثالثا ، أن الحركة الوطنية المصرية نظرت إلى السودان لا في اطار علاقة بين شعبين، ولكن في اطار علاقة بين بلد هي مصر وأرض في السودان ، أرض يجري فيها نهر النيل

شريان الحياة لمصر، أى روح مصر وفؤادها كما يقول مصطفى كامل . وحتى نهاية القرن التاسع عشر ، لم تكن مبادىء حق تقرير المصير والمساواة بين الأمم قد سادت بعد فى العلاقات الدولية. توحدت ألمانيا بقوة الجيش البروسى ، وتوحدت ايطاليا بالسلاح أيضا، وامتدت من قبلهما روسيا القيصرية بالحرب . وبالعنف كانت الممالك تنشأ والدول تؤسس والبلدان تتوحد . «والفتح» مبدأ يكاد يكون مسلما فى ذلك جميعه . ولم يكن العنف فى السياسة الدولية قاصرا على الغزو واستعمار الأمم والشعوب . انما كان وسيلة تحققت به وحدات قومية كألمانيا وتأسست به دول على تعدد فى القوميات كروسيا، وامتدت به أمم إلى أقصى الفيافى الممكنة كالولايات المتحدة. دخل محمد على السودان فى ١٨٢٠ وكان غالب السودان قد تكامل له التكوين العربى الاسلامى منذ القرن السادس عشر الميلادى ، وكان على علاقات مع مصر والجزيرة العربية وباقى الامبراطورية العثمانية (٨١) . وكان السودان ممالك شتى مضعوفة متناحرة .

وجاء دخول محمد على السودان باذن من السلطان العثمانى باعتبار ما كان له من حقوق السيادة على السودان منذ القرن السادس عشر (٨٢) . وأن غلبة العرب والاسلام بين السودانيين ،

لما يترجح معه أن يكون دخوله منطلقا من سياسات التوحيد وفقا لمفاهيم الجامعة الاسلامية السائدة وقتها . وفى نطاق هذا المفهوم السائد وقتها يجيد صنيع محمد على باعتباره من سياسات التوحيد لا الغزو والاستعمار ، وذلك أيا كانت بواعثه السياسية الشخصية. كما كان يفهم دخوله أرض الشام باعتباره من سياسات التمرد على السلطنة العثمانية لا غزوا واستعمارا ، وكما كان يفهم صنيعه فى الجزيرة العربية باعتباره من سياسات قمع الثورات لصالح السلطان العثمانى لا الغزو والاستعمار . وفى هذا الاطار التاريخى جاء فهم رجال الحركة الوطنية المصرية لعلاقة مصر بالسودان فى بداية القرن العشرين باعتبار كونه جزءا من مصر يكون معها وحدة سياسية . ومن هذا المنطلق تكرر على ألسنتهم الحديث عن «حق» مصر فى السودان وسيادة مصر على السودان وفتح السودان. ولم يكن بعيدا عن أذهان هذا الجيل ما شاهده آباؤهم الأقربون من امتداد دولتهم من حدود تركيا شمالا إلى السودان جنوبا، وما شاهدوه أنفسهم من امتدادها جنوبا إلى قرب خط الاستواء . فاتسمت نظرتهم التحريرية بما يمكن أن يسمى الوطن الكبير، كنظرة يمتزج فيها التحرر بأمل بناء امبراطورية كبيرة كانت قائمة بالفعل على مشارف ذاكرتهم.

واذا كان الباحث الموضوعى ينظر اليوم إلى هذا المزاج كشائبة شابت الحركة الوطنية الديمقراطية المصرية، فان عليه التزاما بالموضوعية أيضا أن يضع فى حسابه ظروف العصر وما كان يسوده من فكر سياسى . وان حديثهم عن السيادة المصرية على السودان، كان يصاحبه حديث عن السيادة التركية على مصر باعتبار وحدة الجامعة الاسلامية، وكما أن اعترافهم بالسيادة التركية على مصر لم يكن يصدر عن فهم استعمارى لهذه السيادة، والا لعارضوها كما عارضوا الاستعمار البريطانى ، فان حديثهم عن السيادة المصرية على السودان لم يكن يعنى ادعاء بحق استعمارى هناك.

وأيا كانت الأسباب والظروف والملابسات، وبصرف النظر عن محاكمة الماضى ، فان وضع المسألة السودانية فى اطار علاقة ثنائية بين مصر وبريطانيا، كان من أخطر ما عانت منه الحركة المصرية فى تناولها لهذه المسألة . وأن ما فرض على تلك الحركة أو ما فرضته على نفسها من تغافل عن السودانيين . كان هو الجذر الأساسى الذى قاد إلى انفصال الشعبين فيما بعد .

٢

ثورة ١٩١٩ والسودان

الموقف من السودان :

لما قامت ثورة ١٩١٩ ، لم ينطرح موضوع السودان بسرعة انطراح غيره من أهداف الحركة الوطنية . فلا تظهر اشارة إليه فى حديث سعد وفهمى وشعراوى مع وينجت المندوب السامى فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨، وهو الحديث الذي افتتح المواجهة المصرية البريطانية . فلما بدأت حركة التوكيلات المشهورة لم ترد بالتوكيل اشارة إلى السودان وجاء مقصوراً على مصر بعبارته الشهيرة «.. أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا في استقلال مصر استقلالا تاما» ثم جاءت لائحة هيئة الوفد خالية من الاشارة إليه أيضا (مادة ٢ من اللائحة) .

وفى ٦ ديسمبر حدد الوفد مطالبه فى المذكرة التى وجهها إلى معتمدى الدول الأجنبية ، بأنها استقلال مصر التام وانشاء حكومة دستورية لها مع طمأنة الدول على امتيازاتها ودينها العام وعلى حياد قناة السويس دون اشارة إلى السودان (٨٣) ، ويبدو أن أول

تحريك لموضوع السودان جاء فى ثنايا مذكرة أعدها أمين الرافعى فى ٢٠ نوفمبر عن المسألة المصرية وتضمنت بندا عن «السودان المصرى وملحقاته» استعرض فيه أحداث السودان منذ احتلال مصر ، وركز الحديث على بطلان اتفاقية ١٨٩٩ وعلى ما تكبدته مصر من نفقات فى تعمير السودان ، وعن سياسة بريطانيا عزله عن مصر ومخاطر تحكم حكومة السودان الانجليزية فى مياه النيل. وذكر أن حياة مصر فى اتحادها مع السودان ، واستنكر ما يثيره البريطانيون من استهداف مصر استعماره مؤكدا أن البلدين متمم كل منهما للآخر يخضعان معا لواجبات وحقوق واحدة ويتفقان فى اللغة والدين والعادات والتقاليد والطبائع (٨٤). ويظهر أن أول ما تدارك به الوفد موقفه من السودان ، ما أشار إليه سعد زغلول فى خطابه الشهير بمنزل حمد الباسل فى ١٣ يناير ١٩١٩ «من الفضلة أن نقرر بأن كل ما نقوله عن مصر ينسحب على السودان لأن مصر والسودان كل لايقبل التجزئة» (٨٥) . ومن بعدها اطرد الحديث عن السودان . وقد جاء برنامج الحزب الديمقراطى المصرى يشير إلى وادى النيل عامة . كما ورد فى برنامج الحزب الاشتراكى المصرى ما يشير إلى تحرير مصر واقصاء الاستعمار من وادى النيل (٨٦) .

يذكر الاستاذ محمود سليمان غنام أن خطة سعد زغلول فى مسألة السودان حسبما سمعها منه فى مجالسه فى ١٩٢١ ، مؤداها أن يترك موضوع السودان لاتفاق خاص يعقد بعد انتهاء موضوع مصر ،لأن مصر القوية تستطيع «الحصول على حقوقها كاملة فى السودان» وان الوفد وافق بالاجماع على هذه الخطة فى مشروعه إلى ملنر (١٧ يوليو ١٩٢٠) (٨٧) . والحاصل أنه لما بدأت مفاوضات سعد ملنر فى ٥ يونيه ١٩٢٠ ، لم تحظ مداولاتهم ولا مذكراتهم باشارة إلى السودان حتى انتهت الجولة الاولى من تلك المفاوضات فى ٨ يوليو ، إلا كلمة جاءت على لسان سعد فى الجلسة الأخيرة «اننا لم نتكلم فى مسألة السودان والسودان ومصر قطر واحد وكلاهما مكمل للآخر ، ولا يمكن الفصل بينهما بحال من الاحوال، بل لا غنى لأحدهما عن الآخر باعتراف كبار البريطانيين أنفسهم» فرد ملنر «هذه مسألة أخرى نرجىء الكلام فيها إلى فرصة أخرى» (٨٨) . ثم جاء مشروع الوفد لملنر فى ١٧ يوليو متضمنا فى مادته الأخيرة «١٣ - مسألة السودان تكون موضوع اتفاق خاص» ولم ترد بمشروع ملنر المقابل أية اشارة إلى السودان . فلما قدم لمنر مشروعه الثانى (١٨ أغسطس) أوضح أنه لا يمس السودان بحال وذكر فى مقابلة مع المصريين

فى ١٣ أغسطس أن السودان «الذى لم نتناقش فيه قط نحن وزغلول باشا وأصحابه، خارج بالكلية عن دائرة الاتفاق المقصود لمصر ، فان البلدين يختلفان اختلافا عظيما فى أحوالهما. ونحن نرى أن البحث فى كل منهما يجب أن يكون على وجه مختلف .. إن السودان تقدم تقدما عظيما تحت إدارته الحالية المؤسسة على مواد اتفاق ١٨٩٩ ، فيجب والحالة هذه ألا يسمح لأى تغيير يحدث فى حالة مصر السياسية أن يوقع الاضطراب فى توسيع نطاق تقدم السودان..» ثم عرج على ما لمصر من مصلحة حيوية فى ايراد الماء الذى يصل إليها مارا فى السودان . ووعد باقتراح ما يزيل قلق مصر ويكفيها حاجاتها الحالية والمستقبلة . وحرر خطابا إلى المصريين بالنص نفسه (٨٩) .

ثم جاءت التحفظات المصرية على مشروع ملنر الأخير مشتملة بالنسبة للسودان على «أ – ضمان مياه النيل اللازمة لرى أرض مصر المنزرعة الآن وأراضيها القابلة للاصلاح والزراعة، ب – أولوية مصر فى أخذ المياه عند عدم كفايتها للقطرين ، جـ – تمتع مصر فعلا بحقوق سيادتها فى السودان» (٩٠) .

تعرض تقرير لجنة ملنر لموضوع السودان ، فقطع فى البداية باستحالة تسويته على أسس تسوية المسألة المصرية مبررا ذلك

بالمفارقة بين التجانس والتوحد المصرى، وبين الكثرة السودانية وعدم توحدها . وذكر أن الروابط بين البلدين واهية ، واذا كان الدين واللغة يربطان مصر بعرب السودان فان زنوج السودان بمنأى عن هذا الرباط ، ومصر لم تخضع السودان قط اخضاعا حقيقيا ولا ادمجته وجعلته بعضا منها . وكان فتحها له في القرن الماضى نكبة عليهما معا . ثم عرض لنظام حكم السودان الذى يسيطر عليه البريطانيون، واعترف لمصر بمصلحتها الحيوية فى مياه النيل وعدم تحويلها بما يقلل أرضها المزروعة أو يعوق اصلاح مليونى الفدان الممكن اصلاحهما . وذكر أنه اذا كان فى تلك المصلحة ما يبرر وجود رابطة سياسية بين البلدين فان «هذه الرابطة لايمكن أن تكون صورتها خضوع السودان لمصر ..» ومن ثم فان اتفاقية ١٨٩٩ تعتبر كافية الآن. وبعد أن نصح بابقاء تلك الاتفاقية كاطار عام يحدد العلاقات المصرية البريطانية، أشار إلى تعديل نظام الحكم لتقليص الوجود المصرى المحدود هناك ، وذلك بادخال نظام الإدارة اللامركزية الذى يتيح للسودان المشاركة فى الإدارة المحلية للاقاليم تحت الرقابة والسيطرة البريطانية و«الغرض الذى ترمى إليه السياسة البريطانية يجب أن يكون اخلاء جانب مصر من كل مسئولية مالية للسودان، وتقرير

العلاقات بين البلدين فى المستقبل على قاعدة تضمن ارتقاء السودان ارتقاء مستقلا ومصالح مصر الحيوية فى ماء النيل» . وأن ضمان تلك المصالح يكفى لتسكين «روع المصريين» . ثم ذكر «أن وظيفتى الحاكم العام على السودان والقائد العام للجيش المصرى لا تزالان مجتمعتان فى شخص واحد ، وكانت الأسباب التى تقتضى ذلك وجيهة فى الماضى ، ولكن لايمكن الدفاع عنه اذا أريد أن يكن ذلك دائما . لذلك يجب تعيين حاكم عام ملكى عند سنوح أول فرصة» (٩١) ، فكانت بريطانيا بهذا تتحين الفرص لا لفصل الوظيفتين فقط، بعد إذ أصبح وجود بريطانى على رأس الجيش المصرى أمرا غير مضمون المستقبل بعد ثورة ١٩١٩ ، ولكن لكى يكون الحاكم العام ملكيا أى معينا من لدن الحكومة البريطانية. كما استهدف التقرير فيما أوصى به ، منح الزعامات المحلية حق إدارة الأقاليم تحت السيطرة البريطانية، وتعليم بعض السودانيين للحلول محل المصريين فى الوظائف الفنية والمتوسطة وتطعيم الإدارة المركزية بهم . وفى ١٢ يونيه ١٩٢٢ صدر قانون سلطات المشايخ المنظم للحكم المحلى على تلك الصورة (٩٢) ، منظما الاستعانة بزعماء القبائل والمشايخ فى الإدارة المحلية للأقاليم تحت اشراف مفتشى المراكز البريطانيين. كما توسعت

الحكومة نسبيا من هذا التاريخ أيضا فى تعيين خريجى كلية غوردون فى الوظائف الفنية للمهندسين والزراعيين وموظفى البرق مما كان يشغله من قبل المصريون وجهدت في تخريج مساعدي الاطباء من مدرسة كيتشنر للطب (٩٣) .

ولما بدأت مفاوضات عدلى – كيرزون واصل الطرفان بالجلسة الثانية (١٣ يوليو ١٩٢١) استعراض التحفظات المصرية على مشروع ملنر، فلما جاء دور تحفظات السودان، طلب عدلى ارجاء الحديث عنها «لأن المسألة من المسائل المشكلة ولنا فيها وجهة نظر وطلبات أبعد مما هو وارد فى هذا التحفظ» (٩٤) . ثم لم يتطرق الحديث إليها الا فى الجلسة التاسعة عشر عند ذكر مستر لندس أن السودان «ملك مشترك» فاعترض عدلى بأن حق السيادة لمصر وحدها واشتراك مصر وبريطانيا يتعلق بالإدارة فحسب «والسودان أرض مصرية» وحق مصر فى السيادة عليه لا نزاع فيه، ولم يكن رفع العلمين المصرى والبريطانى عليه الا إتقاء لنفوذ الامتيازات الأجنبية اليه . وذكر ان مصر لم يعد لها من واقع السودان الا مجرد ان تبلغ بقرارات الحاكم العام ، وان الواجب أن تتقرر حقوق مصر فيه بمظهر خارجى . ثم حدد عدلى مصالح مصر فى السودان بأنها مياه النيل ، ووجوب تبعية جيش السودان

للجيش المصرى واخلاصه لولى الأمر بمصر ، وهجرة المصريين إلى السودان وتمتعهم بكافة التسهيلات وبجميع الحقوق «وتموين السودان لمصر» وذكر أن هذا كله يرد على سبيل المثال لا للحصر، ثم أكد على مسألة المياه بصفة خاصة، فرد لندس بأن كيرزون مستعد أن يعترف «بقسمة مياه النيل» ، فاعترض عدلى طالبا أن يكون لمصر وحدها حق الرقابة على المياه لضمان الزراعة الحالية والمستقبلة ، فعقب لندس بأن لا حق لمصر فى الانفراد بهذا الأمر ، وكل ما لها أن تشارك فيه (٩٥). وبالجلسة التالية التى عقدها عدلى مع لويد جورج رئيس الوزراء (٢ نوفمبر)، أثار الحديث عن أهمية مصر للمواصلات البريطانية، وتطرق إلى تلك الأهمية بالنسبة لمواصلات بريطانيا إلى السودان ، باعتبار أن ميناء بورسودان لايكفى لضمانها ، فشاء عدلى أن يغلق باب النقاش عن السودان لأنها «مسألة لم يأت دورها بعد» رغم أن المفاوضات كانت فى خواتيمها ، فتصدى له لويد جورج «لمصر شأن غير شأن السودان» واذا كانت بريطانيا تكتفى من مصر بمعاهدة تضمن مواصلاتها ، فهى لن تنزل عن مركزها بالسودان بالصورة نفسها. فأصر عدلى على ارجاء الحديث عن هذا الأمر . ثم جاء مشروع كيرزون متضمنا فى المادة ١٧ منه «حيث أن رقى السودان فى

هدوء وسكينة ضرورى لأمن مصر ولحفظ مئونتها من المياه، تتعهد مصر بأن تستمر فى أن تقدم لحكومة السودان نفس المساعدات الحربية التى كانت تقوم بها فى الماضى، أو أن تقدم بدلا من ذلك لتلك الحكومة اعانة مالية تحدد قيمتها بالاتفاق بين الحكومتين . وتكون كل القوات المصرية فى السودان تحت أمر الحاكم العام . وعدا ذلك تتعهد بريطانيا العظمى بأن تضمن لمصر نصيبها العادل من مياه النيل ، وقد تقرر من أجل ذلك أن لا تقام أعمال رى جديدة على النيل أو روافده فى جنوب وادى حلفا ، بدون موافقة لجنة مؤلفة من ثلاثة أمناء يمثل أحدهما مصر وآخر السودان وثالث أوغندا» . وتضمن رد عدلى الذى رفض به مشروع كيرزون كله «أما مسألة السودان التى لم يكن قد تناولها البحث ، فلابد لنا من أن نوجه النظر إلى أن النصوص الخاصة بها لا يمكن التسليم بها من جانبنا ، فان هذه النصوص لا تكفل لمصر التمتع بما لها على تلك البلاد من حق السيادة الذى لانزاع فيه وحق السيطرة على مياه النيل» (٩٦).

كانت خطة بريطانيا بالنسبة للسودان ، أن تفصله عن مصر بقدر ما تنفصل مصر عنها . وأن يتزحزح الوجود المصرى المتواضع فى السودان ، مادام خضوع مصر لبريطانيا قد صار مشكوكا فى استمراره بعد ١٩١٩ . ورسم ملنر لهذا الهدف

وسيلتين ، هما تعديل نظام الادارة السودانية بما يكفل تقليص الوجود المصرى ، وتحين الفرصة لفصل وظيفة الحاكم العام للسودان عن وظيفة سردار الجيش المصرى. لتصبح الوظيفة الأولى من سلطات ملك بريطانيا لا سلطان مصر. ثم جاء مشروع كيرزون لا يشير إلى اتفاقية ١٨٩٩ ، بما ينبىء عن شروع الانجليز فى التنكر للسلطة الشكلية التى يملكها سلطان مصر (الخديو سابقا) فى تعيين الحاكم العام ، كما يتضمن تعهد مصر بتقديم العون العسكرى أو المالى لحكومة السودان بما ينبىء عن حلول هذا التعهد محل احكام الاتفاقية المذكورة، فضلا عن النص على خضوع القوات المصرية فى السودان لأمر الحاكم العام، بما ينبىء عن الرغبة فى فصل منصب الحاكم العام عن سردار الجيش المصرى ، ويكون خضوع القوات المصرية للحاكم العام فى هذه الحالة وفقا لنص المعاهدة، بدل أن يكون هذا الخضوع مترتبا على كون الحاكم العام للسودان هو سردار الجيش المصرى. ويفيد مشروع كيرزون أيضا أن يكون التزام مصر بتقديم المال أو الرجال لحكومة السودان البريطانية ، مقابل حصول مصر على مياه النيل وحقها فى المشاركة فى القرارات الخاصة بتوزيع المياه . وأن تكون قرارات توزيع المياه شركة بين

ثلاثة أطراف تسيطر بريطانيا على اثنين منها ، هما السودان وأوغندا .

السودان في دستور ١٩٢٣ :

لما فشلت مفاوضات عدلي - كيرزون ، صدر تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ مشتملا فى تحفظاته الخاصة باستقلال مصر ، على مسألة السودان ، باعتبار بقاء الوضع الراهن بشأنها حتى تسفر المفاوضات بين مصر وبريطانيا عن تسوية لها . ثم جاء أول امتحان لهذا التصريح متعلقا بهذا التحفظ السودانى . اذ اضطرت لجنة الثلاثين التى أعدت مشروع الدستور المصرى ، إلى مواجهة المسألة السودانية فى أمرين ، تحديد لقب الملك، وتحديد نطاق سريان الدستور، فنص المشروع فى المادة ٢٩ على أن «الملك يلقب بملك مصر والسودان» . وفى المادة ١٤٥ على أن «تجرى أحكام هذا الدستور على المملكة المصرية ماعدا السودان فمع أنه جزء منها يقرر نظام الحكم فيه بقانون خاص» . ورأت اللجنة فى هاتين الصيغتين أنهما تعترفان بأصل «الحق المصرى فى السودان» مما لم تجحده اتفاقية ١٨٩٩ ، وتتنزلان فى الوقت نفسه على موجبات السياسة العملية بتقرير نظام خاص لحكم السودان لن يتأتى وضعه إلا بعد المفاوضة مع بريطانيا ، ومن

ثم يكون الدستور قد أكد «حق» مصر دون أن يمس الوضع الراهن للسودان ودون أن يفتات على تحفظات تصريح ٢٨ فبراير (٩٧).

شاهدت تلك الفترة، التى أعد فيها دستور ١٩٢٣ ، مناورات سياسية واسعة بين الاطراف الثلاثة فى السياسة المصرية، الانجليز والملك والوفد . أغضب الملك تقييد سلطاته بمشروع الدستور، وأزعجه تحالف الانجليز مع الأحرار الدستوريين واستنادهم اليهم مما من شأنه إضعاف نفوذه، فبدأ مناوأته لوزارة ثروت وتقاربه مع الوفد . وتقارب الوفد مع الملك للاستفادة منه فى مواجهة حلف اللنبى - ثروت الذى اتخذ خطة ضرب الوفد . وترتب على ذلك استقالة وزارة ثروت فبادر الملك فى ٣٠ نوفمبر ١٩٢٢ إلى اسناد الوزارة إلى محمد توفيق نسيم بغير استشارة اللنبى ، مما استاء له الانجليز. وبدأت الوزارة تعدل من مشروع الدستور بما يوسع من سلطات الملك. وكانت الوزارة تستهدف لعداء الأحرار الدستوريين، ولعداء الانجليز الذين لم يرضهم مغاضبة الملك لثروت حليفهم وتقاربه مع الوفد مما كان يهدد بافساد السياسة البريطانية التى خطط لها تصريح ٢٨ فبراير (٩٨) . وكان الانجليز قد اعترضوا على النصين الخاصين

بالسودان فى مشروع الدستور على عهد وزارة ثروت، باعتبار تعارضهما مع تصريح ٢٨ فبراير الذى قبلته تلك الوزارة وقامت على أساسه، كما يتعارض مع اتفاقية ١٨٩٩ التى خلت من تلقيب الخديو بخديوى مصر والسودان ، ولأنه ان جاز اعتبار ملك مصر ملكا على السودان «لأصبح هناك مبرر قوى لتسمية صاحب الجلالة الملك جورج ملك السودان» (٩٩) . ويلاحظ من مطالعة مراسلات اللنبى وكيرزون حول هذه المسألة، أن اللنبى صاحب سياسة تصريح ٢٨ فبراير التى كانت لاتزال تمهد لها المسالك، كان يخشى من فرط التشدد أن يؤدى إلى قطيعة مع الملك فؤاد تلقى به فى أحضان الوفد كلية، أو تقيم من العقبات ما يهدد انجاح سياسته، فاقترح على كيرزون صيغة وسطا، تتضمن أن يكون لقب الملك «ملك مصر وحاكم السودان» وأن تعدل الصيغة الثانية إلى «يطبق هذا الدستور على الأراضى المصرية ، باستثناء السودان. ولا يخل الحكم الوارد بالفقرة السابقة بحقوق السيادة ولا بأى حقوق لمصر فى السودان»، واقترح إذا لم يصل الطرفان إلى صيغة يقبلانها، أن تصدر الحكومة البريطانية بيانا بعدم موافقتها على الصيغة المصرية ، وتعلن أنه فى حالة حدوث أى انتهاك لاتفاقية ١٨٩٩ ، فانها ستعتبر نفسها فى أية مفاوضات

مقبلة عن السودان حرة وغير مقيدة بأى مزية تقررها تلك الاتفاقية لمصر (١٠٠) . فرد كيرزون معترضا على صيغة اللنبى لأنها تتضمن أن السودان أرض مصرية . وباقرار تلك الصيغة سيظن أن بريطانيا لا تستطيع أو لا تريد أن تقف فى وجه الادعاءات المصرية فى السودان ، وانه مع حرصه على عدم حدوث قطيعة مع حكومة مصر، فان هذه القطعة ستكون حتمية إذا أصرت مصر على تقويض وضع بريطانيا الذى حدده تصريح ٢٨ فبراير. واقترح كيرزون نصين بديلين «الملك يلقب بملك مصر، ولا يخل هذا الحكم بأية حقوق يمكن أن يتمتع بها جلالته فى السودان» و«تجرى أحكام هذا الدستور على المملكة المصرية ولا يخل بأية حقوق لمصر فى السودان» . فإذا أصرت الحكومة على إصدار الدستور بنصيه الحاليين أو بنصين غير مناسبين، فان بريطانيا ستسلم بياناً إلى الحكومة المصرية يتضمن اتهامها بمحاولة الغاء تصريح ٢٨ فبراير فضلا عن انتهاك اتفاقية ١٨٩٩ ، وان الحكومة البريطانية ستعتبر نفسها غير مقيدة بهذه الاتفاقية وتحتفظ بحريتها كاملة فى التصرف على هذا الأساس فى السودان ، وذكر أنه على الحكومة المصرية أن تختار واحدا من هذين الحلين (١٠١) . فرد اللنبى مستحسنا عدم اطلاع حكومة مصر على هذا البيان

الأخير حتى يظهر المدى الذى يمكن أن تصل اليه اقتراحاتها ، وأنه أطلع توفيق نسيم على النصين المقترحين من كيرزون ، فذكر نسيم أنه قد صار فى وضع صعب للغاية ، وأن حكومته لا يسعها أن تقبل هاتين الصيغتين ، وقدم مذكرة غير موقعة بوجهة نظره، فلما طالعها اللنبى أنذر نسيما بأن مسلكه يعتبر غير ودى بما سيترتب عليه من آثار بعيدة ، وطلب من كيرزون أن يفوضه فى الاتصال المباشر بالملك ليلقى عليه بيانا يتضمن عما سبق ذكره أن الحكومة البريطانية تنظر بقلق إلى محاولات الملك فؤاد استرداد سلطته الاوتقراطية ، مما يعيد إلى الذاكرة شرور النظم الفردية التى استوجبت تدخل بريطانيا فى ١٨٨٢، فإذا أصر الملك على موقفه فانه سينشر هذا البيان (١٠٢) . وذكر فى رسالة أخرى أن الملك يتقارب من الوفديين أملا فى زيادة سلطاته ، وهم يؤيدونه أملا فى الافراج عن سعد زغلول، الأمر الذى لا يريده الملك ولكنه يتوقع أن رفض الافراج عن سعد سيأتى من جانب الانجليز لا من جانبه. وأن خطة الملك الآن هى محاولة الظهور بمظهر الحريص على الدستور تهدئة للرأى العام ، مع تحويل الاهتمام إلى النصين الخاصين بالسودان، ليتمكن من تعديل أحكامه الأخرى استزادة من السلطة . وان الملك بهذا يميل إلى كسب الوقت على حساب

الانجليز. وانه حتى لا ينجح الملك في القاء عبء تأخير اصدار الدستور على عاتق الانجليز يتعين انذاره، واقترح اللنبى صيغتين تصدر أولاها إذا أصر الملك على التمرد ، أو الثانية في حالة ركونه إلي الأذهان . مع الحرص على الاشارة إلى أن بريطانيا في موقفها ذلك ليس لديها أية نية في المساس بحقوق مصر الكاملة في استعمال مياه النيل(١٠٣) . ثم طلب أن يدعم تقديمه تلك المذكرة باستعراض عسكرى لوحدات بحرية في ميناءى الاسكندرية وبورسعيد (١٠٤) . ويبدو أن بريطانيا كانت تحاول في الوقت نفسه الاتصال بالخديو السابق عباس حلمي . وثمة برقية من كيرزون إلى اللنبى عن حديث مع السفير سيف الله يسرى باشا، نصح فيه السفير الحكومة البريطانية بعدم اتصال وفدها في لوزان بالخديو السابق ، خشية أن يتسرب الخبر إلى مصر عن طريق أنصار الخديو ، مما قد يدفع الملك فؤاد إلى الارتماء في أحضان الوفد . وكان سيف الله يسرى في هذا الوقت موضع ريبة الملك فؤاد لظنه أنه يتصل بالخديو السابق (١٠٥).
فلما وافق كيرزون على هذه الخطة، قابل اللنبى الملك فؤاد في ٢ فبراير ونبهه إلى الآثار الوخيمة التى تترتب على عناده هو وحكومته ، ثم تلا عليه بيانا طلب منه أن يوقعه بامضائه ، ويشتمل

البيـان على أن الحكومـة البـريطانيـة ترى فى النصين الخـاصين بالسـودان مـا لا يتـمشى مع اتفـاقيـة ١٨٩٩ ولا مـع تصـريح ٢٨ فبـراير ، وانهمـا يتـضـمنان تغـييرا فى الوضع الراهن بالنسبـة للسـودان ، وان الحكومـة البـريطانيـة لتـأمل ألا يكون اصـدار الدستور موضعا للجدال، وهى قد ألغت الحماية استجابة لمصالح الشعب المصرى . ولا تنظر بعين العطف للتأخير المستمر فى منح المصريين حرياتهم الدستورية . وان الحكومة البريطانية اذ تأمل فى حل المسائل المعلقة بطريق المفاوضات ، فهى راغبة فى تأسيس نظام دستورى بمصر يمكن أن تجرى المفاوضات بعده مع ممثلين رسميين للشعب المصرى ، وليس لدى الحكومة البريطانية رغبة فى المساس بحقوق مصر فى السودان ولا حقوقها فى مياه النيل . وأن الملك فـؤاد ليـخـول المندوب السـامى فى أن يبلغ الحكومـة البريطانية أنه أخذ فى اعتباره كل تلك الأمور وأنه يقدرها قدرها الخطير ، وأنه ليس أقل رغبـة من الحكومـة البـريطانيـة فى قيـام المؤسسات الدستورية بمصر بغير جدال ولا تأخير .

ثم ذكر اللنبى للملك أنه إذا لم يوقع بامضـائه على هذا البيان، فان الحكومة ستنشر بيانا آخر تلاه عليه ، وهو يتضمن أنها لا تعترف بادعاء ملك مصر أنه ملك على السودان، وأنها تعتبر مثل

هذا الأمر عملا غير ودى يشكل انكارا لاتفاقية ١٨٩٩ ، ودحضا لتصريح ٢٨ فبراير، مما ستعتبر نفسها ازاءه حرة فى تحديد مركزها ، بغير أن يكون لديها أية نية فى المساس بحقوق مصر الكاملة فى مياه النيل. وان الحكومة البريطانية لا تدرك الأسباب التى تجعل الحكومة المصرية تستخدم مسألة الدستور لتصادر بها المفاوضات المستقبلة بشأن السودان ، وبهذا تضع الحكومة البريطانية فى وضع تظهر فيه كما لو كانت تعارض فى عودة المؤسسات النيابية فى مصر . رغم أنها ما ألغت الحماية الا توقعا لاقامة تلك المؤسسات ، وهى لا توافق على التأخير المستمر فى اقامة الحريات الدستورية التى وعدت بها. وهو تأخير يتضمن استدامة النظام الاوتقراطى الذى تدينه الحكومة البريطانية . وهى تأمل أن تحل المسائل المعلقة بين البلدين بمفاوضات تجرى مع ممثلين رسميين للشعب المصرى، الأمر الذى لا يتحقق الا فى ظل نظام دستورى وهى «تراقب من وقت مضى بقلق جهود الملك (فؤاد) العنيدة لانتحال السلطة الاوتقراطية وتضع فى اعتبارها شرور النظام الفردى الذى أدى إلى تدخلها فى مصر فى ١٨٨٢».

وبعد ذلك وجه اللنبى إلى فؤاد رسالة شخصية منه أكد فيها على قلق حكومته من اتجاه الملك إلى انتحال سلطات أوتقراطية فى

مصر، وأن الاوتقراطية الطليقة غير المقيدة هى ما أدى إلي التدخل الأوروبى فى شئون مصر وإلى الاحتلال البريطانى لها، وأشار إلى أن بريطانيا هى من منح فؤاد اتاج مصر، وهى راغبة فى اقامة نظام دستورى حقيقى بمصر دون أى تأخير ، وان الملك فؤاد لا يدرك ما يوجبه الحكم الدستورى من ضوابط على حركته السياسية . ثم ذكره بعدد من الأعمال التى تجاوز فيها الملك حدوده ، ومنها ابتعاده عن حزب ما (يقصد الأحرار الدستوريين) وتقاربه مع حزب آخر (يقصد الوفد)، فضلا عن تدخله فى الادارة والصحافة السياسية ، وحذره من أخطار هذا المسلك وأن الحكومة البريطانية التى أيدته فى فترات صعبة ، يمكن أن تتخلى عن تأييدها له.

لم يكن الانجليز بطبيعة الحال حريصين على النظام الدستورى المصرى، الا بقدر حرصهم على دعم حلفائهم الأحرار الدستوريين، وضمان مشاركتهم فى الحكم من خلال الدستور ، بما يكفل وضعا مستقرا فى مصر وبما يمكن من حسم المسائل المعلقة فى تصريح ٢٨ فبراير معهم . فلما وجدوا الملك يناوىء مسلكهم هذا ويتقارب إلى الوفد ، ويستغل نصوص السودان فى الظهور بمظهر الحاكم غير المفرط فى «حقوق» مصر ، مستعينا بذلك على استرداد ما

افتقده بالدستور من سلطانه ، وملقيا بالمسئولية على الانجليز . لما وجدوا ذلك أداروا عليه الدفة كاشفين ميوله الاوتقراطية محاولين فضح محاولاته تلك أمام الرأى العام المصرى ، ومهددين له بتخليهم عنه وهم سنده الرئيسى . وقد أدرك الملك ذلك فور تلاوة اللنبى بياناته العديدة، فاحتج لديه على اتهامه بالاوتقراطية ، وعلى أن لديه نية فى العدول عن سياسة التعاون المخلص مع المندوب السامى ، وهى السياسة التى التزمها خلال السنوات الخمس الأخيرة. والتمس من اللنبى أن يرجىء قبوله للانذار من السابعة مساء اليوم نفسه حتى اليوم التالى . ليستطيع أن يجمع مجلس الوزراء ويشركه معه فى المسئولية . وفى الوقت نفسه كان أحد مرءوسى اللنبى يقابل توفيق نسيم ذاته اتصل نسيم باللنبى وعرض عليه صيغتين جديدتين لمسألة السودان ، ثم طلب اليه فى الصباح أن يكون وزير الخارجية محمود فخرى هو من يوقع على البيان لا الملك ، لأن ذلك مما يتمشى أكثر مع «الأساليب الدستورية» فرفض اللنبى، كما رفض وساطة قام بها روبرت رولو (رأسمالى يهودى مصرى من أصدقاء الملك فؤاد) فى الظهيرة ، وحدد موعدا نهائياً الساعة الواحدة والنصف ظهرا ، فاتصل سعيد ذو الفقار عارضا أن يوقع البيان توفيق نسيم ومحمود فخرى،

فرفض النبى مصرا على توقيع الملك شخصيا، وهدد بأنه إذا لم يحصل على توقيعه فورا سيطلب مقابلته ، فهرول ذو الفقار إلى القصر الملكى ثم اتصل بالنبى واعدا أن يصله البيان موقعا من الملك فؤاد فى السابعة مساء. وفى السابعة أرسل البيان موقعا من الملك ولكن بصيغة معدلة ، فرفضها النبى فعاد اليه ذوالفقار فى التاسعة مساء بالصيغة المقبولة أمضاها الملك بنفسه (١٠٦).

هذا ما كان من أمر الانجليز مع المصريين . أما ما كان من أمر المصريين بعضهم مع بعض ، فان وزارة ثروت لم تكن تمانع فى حذف النصين الخاصين بارتباط السودان بمصر من الدستور، بعد أن ظهرت معارضة الانجليز لهما ، وكانت صحف لندن تحض ثروت على الحذف، وتقول ان ثروت من الشجاعة بحيث يستطيع أن يصنع هذا الصنيع، وبدا أن وزارة ثروت كانت تنوى عرض المشروع على الملك معلقة عليه بأنها رغم تأييدها لجنة الدستور بالنسبة لاعتبار السودان جزءا من مصر، فهى ترى أن هذه المسألة مما يتعين الاحتفاظ بها للمفاوضات التى تجرى مستقبلا بين مصر وبريطانيا . ولكن ثروت قد خانته شجاعته أن يقف هذه الوقفة فى ظروف كان مركز وزارته فيها محفوفا بالأخطار (١٠٧). ثم جاءت استقالته لتنقذه من هذا الحرج العظيم. ورغم ذلك فانه

بعد قبول وزارة نسيم تعديل نص السودان ، كانت «السياسة» صحيفة الأحرار الدستوريين تهاجمه على موقفه هذا.

أما الملك فقد بدا موقفه غامضا غير محدد على عهد وزارة ثروت . فلما أطاح بهذه الوزارة وشكل وزارة نسيم الملكية التى بدأ عن طريقها تعديل الدستور زيادة لسلطاته الفردية ، وتسويفا فى اصداره على الصورة التى رفع اليه بها من لجنة الثلاثين، ظهر موقف الملك كمتمسك بنص السودان طموحا منه لشمول مملكته بلاد السودان أيضاً ، كما كان رائده من ذلك أن يظهر بمظهر التمسك بأحد المطالب الوطنية ازاء الانجليز، الذين يتحالفون مع الأحرار الدستوريين بما يضعف سلطانه فى الحكم ، فضلا عن أن القاءه الضوء على نص السودان كان يمكنه من تأجيل اصدار الدستور حتى يتمكن من تعديل أحكامه المقيدة لسلطانه . ولكنه عندما ووجه بالإنذار البريطانى ، كفته أربع وعشرون ساعة فقط ليعدل عن موقفه كلية ويتنازل عن النصين منصاعا للمشيئة البريطانية. وانحصرت محاولاته خلال تلك الساعات ، لا فى المناورة للحفاظ بمركز مصر في السودان ، كما جاء بمشروع الدستور، ولكن فى المناورة ليتحمل نسيم عنه وزر حذف النصين . فلما أصر المندوب السامى على توقيع الملك بنفسه على الإنذار،

انصاع لذلك، ولكن تحمل نسيم عنه أمام الشعب المصرى الوزر دون اشارة منه ولا من غيره إلي مسألة التوقيع . وفى نطاق ولاء نسيم للملك، وانه كما كان يكرر فى خطاباته الرسمية اليه «الخادم الخاضع المطيع والعبد المخلص الأمين»، فى هذا النطاق حاول نسيم أن يحفظ لنفسه أمام الرأى العام المصرى بعضا من ماء الوجه فقدم استقالته وترك الوزارة، وعرض فى كتاب تركه الوزارة لبعض من وقائع الحادث مشيرا إلى الإنذار البريطانى وإلي سابقة تمسك وزارته بالنصين ، وأنه ما كان يقبل تعديل النصين إلا استجابة إلى «نداء الواجب نحو العرش».

أما الوفد ، فقد كان على سعة من المناورة والحيلة عجيب فى هذه الفترة ، التى واجه فيها السياسة البريطانية الجديدة ، سياسة تصريح ٢٨ فبراير ودستور ١٩٢٣ . واجه تحالف الانجليز والأحرار، بأن تحالف مع الملك. وأسمع الملك لأول مرة هتافات شعبية بحياته ، كانت غريبة على أذن الجالس على العرش. أدرك أن الملك يخاف الدستور ، وكان الوفد يخاف أيضاً من نظام دستورى ينشأ فى غيبة الوفد بعد نفى واعتقال قياداته . وأدرك أن لابد من تحالف مؤقت يواجه حلف الانجليز والأحرار، ولابد من عزل الملك عنهما . فأيد وزارة نسيم الملكية فى البداية على شروط

وضعها ، أن يعاد المنفيون ويفرج عن المعتقلين وتلغى الأحكام العرفية . ولم تمض أسابيع حتى بدأ فى ١٥ ديسمبر ١٩٢٢ ضغطه على الوزارة التى «تريد أن تحكم البلاد بسياسة الصمت وطلب الصبر والانتظار» ولكن طال الانتظار وفرغ الصبر. ثم زاد جرعة الهجوم على الوزارة فى ٢٠ ديسمبر مستنكرا خطة الصمت وعدم الافراج عن المنفيين والمعتقلين وعدم الغاء الأحكام العرفية ، ثم عرج إلى الهجوم على عزم الوزارة المساس بحقوق الأمة فى الدستور ومسألة حذف نصوص السودان الذى «يكون نكبة وطنية كبرى..»، ثم لخص طلباته وكلها تتعلق بالأحداث المصرية وليس فيها اشارة إلى السودان. وفى ٣١ يناير ١٩٢٣ كرر هجومه على الوزارة لعدم الافراج عن المعتقلين والمنفيين، ولم يشر إلى السودان الا فى نهاية البيان بذكره أن الأمة ستتابع الكفاح حتى تتحقق أمانيها العادلة «فى الاستقلال التام لمصر والسودان» (١٠٨) .

وبهذا كان الوفد يتصاعد بموقفه ضد الوزارة من الضغط إلى النقد إلى الهجوم والتهديد بمتابعة الكفاح. وكان يذكر ضمن ما ينتقد به الوزارة مسألة نص السودان . فلما وقعت الواقعة بالإنذار وحذف النصين السودانيين، هجمت الصحافة كلها على توفيق نسيم رامية اياه بالتفريط فى الآمال الوطنية ، ومنها صحف

الأحرار الدستوريين والحزب الوطنى، وخصص أمين الرافعى لمسألة السودان ثلاث من مقالاته الأربع عشرة عن الدستور، هاجم فيها تسليم نسيم المخزى بوجهة النظر البريطانية ، وأن النصين البديلين يتضمنان اعترافا بتحفظ تصريح ٢٨ فبراير عن السودان اذ سلما بذلك أمره للمفاوضات (١٠٩)..

وجرت صحافة الوفد فى الأيام الأولى على هذا المنوال ، لولا أن فوجئت وفوجىء الجميع بنشر برقية أرسلها سعد زغلول من منفاه فى جبل طارق إلى رئيس الوزراء المستقيل توفيق نسيم نصها «انكم بعملكم الشريف المفعم بالوطنية والحكمة استحققتم تقدير الوطن ، فأهنئكم على ذلك وأهنىء زملاءكم الكرام» (١١٠) . فصمتت صحف الوفد لم تلو على شىء . وموقف سعد مدهش لا لمعاصريه فحسب ، ولكن لقارىء التاريخ فى يومنا هذا . وهو بعد الدهشة، يوضح إلى أى مدى بلغت بسعد سعة الحيلة والمناورة فى تلك الفترة العصيبة ، التى كانت تتشكل فيها المواقع السياسية للقوى المختلفة، وهى على مشارف مرحلة جديدة . أن الانذار البريطانى للملك فؤاد لم يكن القصد منه حذف نص السودان فحسب ، وان اللنبى الذى كان ينصح بالملاينة بالنسبة لهذه المسألة، اصطنع التشدد فى وسائله مع كيرزون كما سبقت

الاشــارة ، بعــد أن ثبت لديه حلف الملك والوفـد، وتلكؤ الملك فى اصـدار الدسـتور راميا وزره على الانجليز ، ومـقـاومـتـه الأحـرار الدسـتوريين، القـوة المرشـحة لاحـتلال بعض مؤسسات الدسـتور مدعومة بالإنجليز . وكان من أهم أهداف الإنذار إذن ، وقف الملك عند حدوده ومنعه أن يقوم بلعبة التحالف مع الوفد ضد الانجليز، وتعريته من ادعاء الوطنية وإلباسه لبوس المعاداة للديمقراطية. وكانت هزيمة الملك أمام اللنبى مما من شأنه أن يجرجر الملك إلى معسكر الانجليز . هنا سارع سعد لينتشل بيد الوفد القوية الملك من عثرته ويقيمه من جديد على قدميه، ليصحبه فى تلك الجولة السياسية التى لم تكن قد تمت بعد . وهذا ما تحقق بالضبط لسعد وللوفد من بعد ."

إن اللنبى عين وزارة ثروت بعـد تصـريح ٢٨ فـبـراير ، ثم أسقطها الملك متحالفا مع الوفد ، وعين الملك نسيما . فلما أسقط الانجليز نسيمـا بعـد أزمـة السـودان ، كـان فى أيديهم هم أن يختاروا الوزارة التالية، وكان مرشحهم عدلى يكن . فجاءت برقية سـعد تعـيـد تحـالف الملك والوفـد لسـابق عـهـده ، ونشط الوفـد بالبـيـانات والمظاهرات والاضطرابات لمنع عـدلى يكن والأحـرار الدسـتوريين من العـودة للحكم. وقـد تـأتى له ذلك فـعـلا ، بوزارة

يحيى إبراهيم التى مثلت توازنا نسبيا والتى لم تكن منحازة للمندوب السامى انحيازا كاملا . جاء ت بعد أكثر من شهر مر على البلاد من غير وزارة . جاءت لتصدر الدستور على صيغة متوازنة، ليست كما صاغتها لجنة الدستور ولا كما أرادها الملك . ولتعترف بتصريح ٢٨ فبراير .

فجاء ت وزارة يحيى إبراهيم فى ١٥ مارس ١٩٢٣ ، الذى رشحه الملك وقبله الانجليز خروجا من مأزق بقاء البلاد بلا وزارة أكثر من شهر (١١١) . مع تصاعد الاضطرابات والاغتيالات السياسية . وقد أصدر الدستور على صيغة وسط بين مشروع لجنة الدستور وبين تعديلات توفيق نسيم . فأجابت بعض مطالب الملك وبعض ماتمسك به الديمقراطيون . واعترفت بتصريح ٢٨ فبراير وبحذف نص السودان ، وأصدرت قانون تعويضات الموظفين الأجانب كما طلب الانجليز . أما عن الوفد فقد أعيد سعد والمنفيون وأفرج عن المعتقلين وألغيت الأحكام العرفية . وبقى سعد على دفاعه عن توفيق نسيم الذى كان همزة الوصل فى التقارب الملكى الوفدى، خطب بعد عودته من المنفى يقول إن نسيما وقف موقفا شريفا فى مسألة السودان ، ولم ينصح الملك بقبول طلب المندوب السامى الا بعد الضغط والتهديد بالعنف ، مما لا يعتبر

معه صنيع نسيم تفريطا فى حقوق مصر بالسودان ، لثبوت عنصر الاكراه فى هذا الصنيع ، كما أن تعديل النصين لم يتضمن ضياعا لحق مصرى بالسودان وان الوزر كله يتحمله ثروت الذى قبل تصريح ٢٨ فبراير ، وحقوق مصر بالسودان لا يضيعها «الا قبول تصريح ٢٨ فبراير» . ثم ذكر ان لو كان سعد مكان نسيم لاستقال دون أن يقبل حذف النصين ، ولكن حتى قبول نسيم حذفهما ينبغى أن تقدر فيه عوامل الضغط الحاصل وتهديد العرش وان التعديل لم يتضمن ضياعا لحق مصرى (١١٢). وبقى سعد بتحالفه هذا مع الملك حتى ضمن فى المعركة الانتخابية التى أجرتها وزارة يحيى إبراهيم انتصارا مؤزرا للوفد، تولى بعده تشكيل أول وزارة برلمانية فى ظل دستور ١٩٢٣.

كان القصد من هذا الاسهاب والتفصيل فى بيان حادثة الدستور عن السودان، ايضاح دلالة هامة للحادثة ، وهى أن القوى السياسية المختلفة قد تناولت مسألة السودان هذه لا من حيث كونها هدفا فى ذاته ، ولكن من حيث أثرها فى الصراعات والتحالفات الدائرة بين بعضها البعض حول الجوانب المختلفة للسياسات المصرية . واتخذ كل من تلك القوى موقفه من نصوص السودان لا من حيث أهمية تلك النصوص الدستورية فى تحقيق

استراتيجيته السياسية بالنسبة للسودان، ولكن من حيث أثر هذا الموقف فى توثيق تحالفاته أو اضعاف خصومه فى نطاق السياسات المصرية، وفى سياق الأحداث السياسية المصرية الصميمة. وقد لان كل منهم واشتد ، ونظره معلق فى الأساس على مشروع الدستور ومدى ما سيشغله من قوة ونفوذ في المؤسسات المزمع بناؤها ، ومدى ما سيستطيعه ازاء تصريح ٢٨ فبراير ، وعودة المنفيين والانتخابات المقبلة . والملاحظ أيضا أن حادثة «السودان» تلك والصراعات التى دارت حولها ، توضح نوع الصراعات والمناورات التى جرت بين الأطراف الثلاثة فى السياسة المصرية، الملك والانجليز والوفد ، ليدعم كل طرف نفوذه فى مواجهة الآخرين فى مرحلة ما بعد تصريح ٢٨ فبراير . وتوضح كفاح الوفد لاستخلاص ثمار ثورة ١٩١٩ فى المرحلة المقبلة، وإلى أى مدى كان سعد زغلول السياسى العجوز محنكا وأريبا فى سعة الحيلة لاستخلاص أقصى ما يمكن من تلك الثمار.

٣
الوفد والسودان

أين كانت الحركة السياسية المصرية والوفد خاصة ، من مسألة السودان بعد ١٩١٩؟ لقد جاء المطلب المصرى عن السودان بطريق الاستدراك بعد أكثر من شهرين من تشكيل الوفد. وكان يمكن ألا يكون لهذه الملاحظة أهمية ما، لولا أن سياق الأحداث من بعد، يكشف عن تلك الأهمية ويؤكدها . وكان الحزب الوطنى قبل ١٩١٩ يبلور مطلبه السودانى فى «بطلان اتفاقية ١٨٩٩» . فارتقى الوفد بهذا المطلب إلى «الاستقلال التام لمصر والسودان» . وهو ارتقاء هام لولا أن لم يصاحبه ارتقاء ملائم فى النظرة السياسية والفكرية للمسألة السودانية ، ولا فى وسائل النشاط السياسى المحقق لهذا المطلب. ولولا أن الوفد استصحب نظرة الحزب الوطنى السابقة بشأن «مركز» مصر فى السودان .

ومن جهة أخرى، فقد سبقت الاشارة إلي أن الوفد والمصريين عامة ، نظروا إلى السودان كهدف مرجأ ، وباعتبار أن لاستقلال مصر التام ولاقامة النظام الديمقراطى بها ، أولوية على المسألة السودانية. ومن هنا يبدو حرص سعد زغلول مع ملنر ، ثم عدلى

مع كيرزون، على تحاشى المواجهة بالنسبة للأوضاع السودانية . وكان يكتفى فى هذا الصدد ، بإثارة الموضوع عرضا فى نهايات جولات المفاوضات ، لتذكير الجانب الآخر بأن ثمة مسألة أخرى ستثار فيما بعد ، على عادة رجال القانون عندما يتحفظون بعبارتهم الشهيرة «مع حفظ كافة الحقوق». ولا يستطيع القارىء من مطالعة محاضر المفاوضات وأحاديث الساسة، أن يستنبط مشروعا مصريا وطنيا يعالج تفاصيل هذه المسألة . إنما جرى تناولها في صيغتها المجردة ، وانحصر جهد المجتهدين فى «اثبات» الحقوق و«دحض» دعاوى الانجليز. استمرارا لما جرت عليه الحركة الوطنية منذ ١٨٩٩.

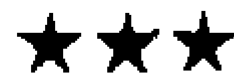
اطرد الحديث فى بيانات الوفد وبيانات وزارته أو برلمانه ، عن الاستقلال التام لمصر والسودان ، وذلك فى أية مناسبة يرد الحديث فيها عن مطالب مصر الوطنية أو عن المفاوضات . وورد من هتافات الجماهير «ملك مصر والسودان» والهتاف لسعد زغلول أحيانا باسم «رئيس الأمة المصرية السودانية» . كما أشير إلى الأمة المصرية السودانية فى استجواب قدم بمجلس النواب لوزارة سعد بجلسة ١٠ مايو ١٩٢٤ . وتحدث سعد إلى مراسل التايمز قائلا : «إن السودان ليس ضروريا لبريطانيا العظمى ولكنه حيوى

لمصر» وأنه يمكن الوصول إلي اتفاق بشأنه ما لم يكن لبريطانيا أطماع استعمارية به (١١٣) . وبمناسبة ما أثاره عبد الرحمن الرافعي عضو مجلس النواب عن مشروعات الانجليز بشأن رى أراضى الجزيرة بالسودان بجلسة ٢٤ مايو ، استطرد الحديث إلى الأهداف المصرية فقال سعد «نريد حيازة السودان دون الانجليز .. المسألة ترجع إلى أمر واحد وهو من الذى يجب أن يضع يده على السودان . أنحن أم الانجليز .. نحن نقول ونكرر ونؤكد ونقيم الحجج على أننا مالكون للسودان وهم لنا معارضون..». وفى نقاش آخر بين الرافعى وسعد بجلسة ٢٣ يونيو، احتج الرافعى ، وكان من الحزب الوطنى، على ما أسماه اعتداء الانجليز على «حقوق السيادة المصرية» بالسودان. وشرح عبارته بقوله «.. لا أرمى إلى الاستعمار والتحكم، وإنما أقصد بالسيادة حقوق الولاية العامة التى يشترك فيها المصريون والسودانيون على السواء..»، ثم دلل على معناه بحديث طويل عن تعمير مصر للسودان ببناء المرافق والطرق وغيرها ، لا لمغنم، بل للقيام بواجب وطنى علينا.. إذ لا فرق بين مصر والسودان» على عكس «العمران المصطنع» الذى يدعيه الانجليز لأنفسهم هناك فهو «استغلال محض لأن الشركات

الانكليزية الاستعمارية فى تلك البلاد تنزع الأراضى من أيدى الأهالى لتحل محلهم..». وجاء فى جواب سعد الذى وافق فيه على ما قيل «إذا تمكنت من الذهاب إلى المفاوضة فلا أقول أن السودان غير مملوك لنا، بل أقول انه ملكنا وانه جزء لا يتجزأ من مصر». وفى نقاش آخر بين سعد وعبد اللطيف الصوفانى عن ميزانية حكومة السودان التى لم تعرض على مصر (مجلس النواب ٧ يونيو)، استطرد الحديث إلى ما دفع سعدا إلى القول.. «إن السودان لنا يجب أن نحوزه ويجب أن نتصرف فيه كما يتصرف المالك فى ملكه، هذه حقيقة يجب أن نسعى جميعا إلى تحقيقها ولكن بأى طريقة؟ واضعو اليد على السودان أقوياء» وقد اتخذ مجلس النواب (٢٣ يونيه) قراراً يحتج فيه على بطش حكومة السودان بالسودانيين الموالين لمصر ورد به «يعلن المجلس عطفه على السودانيين جميعا لتمسكهم بارتباطهم الوثيق بمصر.. ويعلن تمسك الأمة المصرية بمبدئها الخالد، وهو أن السودان جزء لا يتجزأ من مصر».

وبجلسة ٢٨ يونية أفاض سعد فى بيان وجهة نظره عن السودان، ردا على تصريح للحكومة البريطانية بمجلس اللوردات أعلنت فيه أنها لن تترك السودان وأنها ملتزمة إزاءه بموقف وزارة

لويد جورج السابقة، رد سعد بأنه لن يتنازل عن السودان مطلقا، « لا لأنه مستعمر بل لأنه جزء من كياننا بل لأنه منبع حياتنا بل لأنه لا يمكن لمصر أن تعيش بدون السودان أصلا» ثم تحدث عن اضطرار مصر تركه (سنة ١٨٨٤) ثم استعادته بالنفيس من الأموال والعزيز من الدماء، وما انفق عليه بعد ذلك من أموال طائلة.



لم تغلب على سعد حرفته القانونية، كما غلبته فى المسألة السودانية، فظهر كمحام قح، يتكلم عن الملكية والحيازة ووضع اليد، وعن الحق والتصرف، مما لا شك يثير الدهشة وقد يثير الحفيظة لدى قارىء التاريخ، وخاصة المصريين والسودانيين اليوم.

وبلغ ولع سعد بتلك الصيغ هنا، أن كان يقول «إذا قدمت هذه الأوراق أمام أى محكمة، فلسان مصر يقول : إنها باطلة» مشيرا إلى العرائض التى استكتبها الانجليز من السودانيين لصالحهم (١١٤).

ولا يعود هذا الأمر فحسب إلى غلبة الثقافة القانونية على سعد وغالب قيادات الحركة الوطنية بالوفد أو الحزب الوطنى، فهو أمر قد يفسر ولعهم بالمصطلح القانونى كتعبير عن مواقف

سياسية عملية، ولكنه لا يفسر هذا الاستغراق فى «الموقف القانونى». إنما قد يعود إلى وضع سياسى وجدت الحركة الوطنية نفسها فيه بالنسبة للسودان، وهو المطالبة بتحقيق هدف لا يتوافر لديها أى من ممكنات تحقيقه العملية بالممارسة المباشرة، فضلا عما شاب النظرة إلى السودان من اعتباره أرضا ونهراً فى الأساس. وفضلا عن الطابع البرجوازى الرأسمالى للقيادات الوطنية وقتها وغلبة مصالح ملاك الأرض الزراعية عليهم. وهو طابع يبلور المصالح الاقتصادية فى مفهومى «الملكية» و «العقود» ، والحاصل أن الطابع البرجوازى لقيادة الحركة الوطنية الديمقراطية بمصر، لم يتكشف بأنصع مما تكشف به فى تناوله لمسألة السودان.

على أن ما يسترعى الانتباه. أن تلك الحركة «البرجوازية» كانت تقوم فى مصر فى تلك الظروف بانجاز تاريخى هام وخطير لصالح التقدم والحضارة ولصالح الشعب المصرى عامة. وأن نظرتها إلى السودان كانت فى التحليل النهائى تتجه إلى المطالب باستقلاله واجلاء الأستعمار الانجليزى عنه هو ومصر. وان كل هذا الحشد من عبارات سبقت الإشارة إليها كانت تعبيراً «حقوقيا» يريدون به تأكيد أن ثمة علاقات وثيقة ومصالح حيوية

تربط البلدين، وان مصر والسودان بلد واحد، وأن السودان جزء لا يتجزأ من مصر. مع بيان أن تلك الصلة ليست استعماراً ولا استغلالا، إنما هى أمر مما يعبر عنه في المصطلح السياسى الحديث بوحدة التراب الوطني. والسودان ألزم لمصر من الاسكندرية كما كان يجرى التعبير أحيانا على ألسنتهم.

فرأوا السودان جزءاً من وطنهم كالاسكندرية أو سيناء أو أسوان مثلا، لو تهدد بالفصل لثار الوطنيون مطالبين ومؤكدين انه جزء من مصر، ولمصر عليه حق السيادة وهو «ملك لنا» وهكذا، دون أن تثير تلك التعبيرات قط شبهة طمع أو استعمار أو تحكم من شعب فى شعب آخر، وأن كلمات الوطنيين المصريين توضح هذه النظرة، من سعد زغلول إلى أمين الرافعى إلى عبدالرحمن الرافعى إلى غيرهم.

ويذكر داود بركات «رئيس تحرير الأهرام» «من العبث قول هؤلاء السياسيين الانجليز أن المصريين يريدون حكم السودانيين، فإن المصرى لا يتطلع إلى ذلك ولكنه يقول للسودانى إننا أخوة متساوون يندمج أحدنا بأخيه وتندمج مصلحة كل منا بمصلحة الآخر..»

ويؤيد قولا قاله الأمير عمر طوسون فى بعض رسائله «إن لم نحكم السودان فليحكمنا السودانيون» (١١٥).

هذا ما أحاط بالنظرة السياسية والفكرية للحركة الوطنية المصرية وللوفد خاصة بالنسبة للسودان. أما بالنسبة لأساليب النشاط السياسي المصرية حول مطلب السودان، فقد سبقت الاشارة إلى أن الاستغراق في الموقف القانوني، كان يعني فيما يعنيه التحصن في موقف المطالبة بهدف لم ير المطالبون به أمامهم مكنة عملية للشروع في تحقيقه، كان يعني عجزا عن الممارسة. ولعل من أوضح ما يظهر هذا الموقف، الحوار الذي دار بمجلس النواب في مايو ويونيه ١٩٢٤ بين سعد زغلول وبين كل من عبداللطيف الصوفاني وعبدالرحمن الرافعي، مما سبقت الإشارة إلى طرف منه. كان سعد يعترف بعباراته الخطابية الضخمة بكل ما يطالب به نائبا الحزب الوطني هذان. ولكنه يعجزهم بتكرار القول «ماهي الطريقة العملية التي توصلنا إلى ذلك». «ما هي الطريقة العملية للتفرد بالسودان، إن كنت تعرف هذه الطريقة ولا تريد أن تفضي بها علنا، فتعال وقلها لي سراً..». (جلسة ٢٤ مايو) «ليس عندي طريقة لأدلي بحجتي ولأحافظ على حقوقي، بل لأزحزح خصمي عن مكانه، إلا بمناقشة ذلك الخصم واقناعه بأنه مستولٍ على السودان بغير حق، وأن السودان من حقنا» فلما علق الصوفاني بأن المفاوضات غير منتجة، سأله سعد عن الطريقة

الأخرى التى يقترحها فقال الصوفانى «رجالك هناك (يقصد الموظفين). والقوة المصرية أيضا، ولك أن تتصل بالشعب السوداني.. (مقاطعة) لا تحرجونى ولا توجهوا مجهود الأمة إلى الخيال..» (٧ يونيه).

كانت هذه هى «الكلمة»، أن يتصل بالشعب السودانى والموظفين والجيش، فقوطعت وانقطع السياق وعاد الحوار من جديد «ما هى الطريقة». إن الاتصال بالجيش والموظفين أمر كان على قدر كبير من الصعوبة لما سبقت الاشارة إليه من عزلة تلك الأجهزة عن الحكومة المصرية، فضلا عن أن حكومة سعد لم تكن قوية القبضة فى جهاز الحكومة المصرية نفسها. ولكن سعداً هو حزب قبل أن يكون وزارة.

فلم لا يتصل بالشعب السودانى؟ كانت هذه هى صميم مشكلة الحركة الوطنية المصرية بالنسبة للسودان. وها هنا الخلل والمأزق والمنزلق.

ويمكن القول استعجالا للأحداث. أن الوفد المصرى، تنظيم الحركة الوطنية الديمقراطية المصرية لثورة ١٩١٩، الذى استطاع أن يجمع المصريين ويستوعب نشاطهم وطموحهم الوطنى

والحضارى، وحقق بذلك أسمى ما يمكن تحقيقه فى إطار ما تتيحه الظروف التاريخية، والذى أسهم بتكوينه الجامع فى بلورة الجامعة المصرية، هذا الوفد المصرى منذ اليوم الأول الذى لم يرع فيه وجوب قيامه على أساس مصرى سودانى جامع، قد حكم بانفصال السودان عن مصر وجاءت مطالبه عن استقلال السودان تفتقد وسائل تحقيقها، وجاءت صياغاته الفكرية عن علاقة مصر بالسودان ناشزة عن معناها التحريرى الأصيل.

إن حركة التوكيلات الشهيرة التى بدأ بها تأسيس الوفد فى ١٩١٨، قد اقتصرت على مصر وحدها، ولا يبدو أن منظميها فطنوا إلى أهمية اشراك السودانيين فيها. ويلزم الاعتراف بأن هذا الاشراك كان على قدر عظيم من الصعوبة فى ظل السيطرة البريطانية المطلقة هناك. ولكن لا يبدو أن محاولة وفدية بذلت فى هذا الصدد. بل كان الانجليز هم من بادروا بمحاولة عكسية، إذ أوحوا بتشكيل وفد سودانى من كبار الشخصيات الموالية لهم وقتها، ومنهم السيد عبدالرحمن المهدى والسيد على الميرغنى والشريف الهندى، فشخص إلى لندن فى يوليه ١٩١٩ مهنئا بالنصر فى الحرب العالمية مثبتا الولاء لبريطانيا، مما امتدح من أجله كيرزون السير لى ستاك (الحاكم العام) بمجلس اللوردات فى

ديسمبر ١٩١٩ مشيراً إلى أن السودان على عكس مصر يوالى الحكم الانجليزى. ثم دفع الحاكم العام فى ١٩٢٤ حركة لجمع العرائض من السودانيين تفيد تمسكهم بحكومة السودان الانجليزية (١١٦). ويحكى (المحزون) أن شرع بعض شباب السودان (ومنهم على عبداللطيف وصالح جبريل) فى التصدى لهذا العمل بحركة مضادة ليحصلوا على توقيعات السودانيين، ومنهم توقيعات الاشخاص أنفسهم على عرائض تفيد أن مصر والسودان «جزء لا يتجزأ» بما يهدر أثر النشاط البريطانى، ويؤكد عنصر الإكراه فيه. وبادر «المحزون» «بمخابرة أولى الأمر» بمصر ولكنه أمر برقيا بوجوب التريث وانتظار التعليمات. فتوقف بعد أن كان جمع ٣٠٠٠ توقيع فى بضعة أيام، ثم جاءه كتاب بأن «أولى الأمر لم يقروا رأيى ولم يوافقوا على عملى» (١١٧). وقد أرسلت هذه التوقيعات مع اثنين أسلماها إلى مأمور وادى حلفا المصرى الذى بعث بها إلى الوفد، وعرض على مجلس النواب المصرى برقية احتجاج من وفد سودانى منع من السفر إلى القاهرة، وناقش المجلس فى ١٩، ٢٣ يونيه عرائض الولاء لمصر وعرائض الولاء المصطنعة لبريطانيا محتجا على مسلك حكومة السودان. ووقف الأمر فى مصر تقريبا عند حدود هذه المظاهرة.

ومن جهة ثانية، فمن المعروف أن الحركة الوطنية السودانية الحديثة بدأت بنشأة (الاتحاد السودانى) فى ١٩٢٠ من موظفين وتجار وطلبة سودانيين، وكانت تطالب بجلاء الانجليز عن مصر والسودان ورفض مشروع الجزيرة ومهاجمة احتكار السكر، وتطبع منشوراتها بمصر والسودان، وانقسمت الحركة فى ١٩٢٢. وكان على عبداللطيف عضوا بها وأرسل مقالا نشره أمين الرافعى فى صحيفته «الأخبار» وقدم للمحاكمة وسجن عاما وطرد من الجيش المصرى بالسودان، وحاول وفد من المحامين المصريين برئاسة مرقص حنا، من زعماء الوفد، السفر للدفاع عنه فمنع من دخول السودان. وأثار ذلك الرأى العام المصرى وانتقد حمد الباسل من زعماء الوفد حكومة مصر وقتها لأنها لم تدافع عن ضابط مصرى فى جيشها. وبعد خروج على عبداللطيف من السجن أنشأ جمعية اللواء الابيض فى أواخر ١٩٢٣، وافتتحت نشاطها ببرقية أرسلتها لمجلس النواب المصرى وقناصل الدول بالخرطوم فى مايو ١٩٢٤، تطالب بأن يكون السودان وحدة سياسية فى اطار حكومة تضم مصر والسودان. ونشطت فى حركة العرائض المؤيدة لمصر التى لم يكتب لها الاستمرار، وبعثت مندوبين عنها للكتابة بالصحف المصرية، لتعريف المصريين والوفد خاصة بأهدافها وآمالها (١١٨).

ويذكر الدكتور محمد أنيس، أن تردد الوفد بالنسبة لمسألة السودان قد دفع الحزب الوطنى إلى تركيز اهتمامه عليها ليكسب بها نفوذا سياسيا فى مواجهة الوفد. وقد زار حافظ رمضان زعيم الحزب السودان فى ديسمبر ١٩٢٣، وقابل على عبداللطيف وغيره من الشخصيات التى نشطت نشاطا منظما فيما بعد، ووعده حافظ رمضان بعد انتصار حزبه فى انتخابات ١٩٢٤ على الوفد، أن يجرى اتصالا منظما به بواسطة توفيق وهبى القاضى المصرى بالخرطوم.

وكان على عبداللطيف يتردد على اجتماعات النادى المصرى بالخرطوم، وجرت محاولة «لوضع التنظيم فى القاهرة على أرضية أفضل عن طريق تأسيس (حزب لتحرير مصر والسودان) وذلك بواسطة عدد من الضباط السابقين غير المرتبطين عضويا بحزب ما. وأن عبيد حاج الأمين كتب مقالا بصحيفة الأهرام فى ١٦ يوليه ١٩٢٤، اتهم فيها الزعماء المدنيين والقبائليين بالسودان بالعمالة للانجليز، ودعا لوحدة وادى النيل عن طريق التاج الواحد والبرلمان الواحد والقانون الواحد والمساواة بين الجميع، وممن كان على اتصال بالسودانيين من رجال الوفد، حمد الباسل وكيل الوفد، وحمدى سيف النصر رئيس لجنة السودان بالبرلمان، والذى

قضى أربعة عشر عاما ضابطا مصريا بالسودان، وعبدالرحمن فهمى الذى انشأ اتحاد عمال وادى النيل، ولكنها لم تكن صلات تنظيمية، وقد خلص الأستاذ المؤرخ «نحن نقطع بأنه لم تكن هناك علاقة مباشرة بين قيادة الحركة الوطنية فى مصر وبين حركة اللواء الأبيض، وليس صحيحا بالمرة انه كان هناك ضابط مصرى فى السودان يمثل سعد زغلول، وأن سعد زغلول قد أبلغ بعض السودانيين فى القاهرة بذلك ليتلقوا تعليمات سعد كما يدعى المؤرخ السودانى محمد عبدالرحيم، غير أن فقدان الصلة المباشرة بين قيادة الحركة الوطنية فى مصر وحركة اللواء الابيض فى السودان لا ينفى مطلقا أن نموذج الثورة فى مصر كان يبهر السودانيين..» (١١٩).

كان القصد من العرض السابق، بيان أن عزله الوفد عن حركة السودان من الناحية التنظيمية، لم يكن قدراً تاريخيا مفروضا رغم صعوبة الاتصال ، ولم يكن الوفد يتخلف عن ممارسة الصعب فى مصر، بدليل قيام التنظيم السرى للوفد، وممارسته ما مارس من أعمال العنف والاغتيالات السياسية، وأن الوفد الذى ضرب المثل فى جامعيته وشموله، وقف عند الحد الفاصل بين البلدين لا يمد ولو طرف سبابته، مكتفيا بالحديث عن استقلال البلدين ومتسائلا فى حيرة «ما العمل» بالنسبة للسودان.

فلما صاح الصوفانى أن اتصلوا بالسودانيين قوطع ليعود السؤال الحائر «ما العمل». لم يغب عن فطنة سعد أن موقفه فى مفاوضاته المقبلة مع ماكدونالد يكون قويا لو أظهر السودانيون مشاعر التعاطف مع مصر. وتلقف على عبداللطيف هذه الرغبة وعمل على تنفيذها.

ولكن الموقف الوفدى وقف عند حدود طلب «إظهار المشاعر» وإعلان الاستعداد عن دفع التعويضات لمن يلحقهم ضرر من جراء ذلك (١٢٠).

وإذا أمكن الحديث الآن بلغة الوفديين القانونية وقتها، فيمكن القول أن طلب إظهار المشاعر هذا كان تعبيرا وفديا عن أن وكالة الوفد مقصورة على المصريين وحدهم، وأن تلك العزلة التنظيمية بين الحركتين لا شك أفقدتها امكانية البحث الرشيد فى هدفهما المشترك . إن الوطنيين المصريين لم يغب عن وعيهم السياسى، أن حزب الاستقلال لا يقوم بهدف الاستقلال وحده ولكن بتحديد تصوره لنظام الحكم بعد الاستقلال.

ومنذ مواجهة ١٣ نوفمبر ١٩١٨ بين سعد ووينجت، كان واضحا أن الحركة الوطنية المصرية تريد بالاستقلال أن تقيم النظام الدستورى الديمقراطى على تفصيل كان يرد فى مناسبته.

أما بالنسبة للسودان، فلا يكاد يلحظ تصور دقيق لعلاقة القطرين فيما بعد الاستقلال، رغم حرص المصريين على تأكيد نزوعهم إلى تحقيق المساواة فى الحقوق والواجبات بينهم وبين السودانيين. وأن افتقاد هذا التصور كان مما يوضح حسن نية المصريين تجاه السودان، إذ لا يطرحون تصورا منفرداً من جانبهم للعلاقة بين البلدين، ولكنه بهذا المعنى يعتبر قصورا تفرع على افتقاد تلك الصلات التنظيمية بين الحركتين.

وما كان يمكن لحركة قاصرة على مصر أن تنجح فى طلبها استقلال بلد آخر. ولو كان هذا البلد جزءاً منها، ولا لتنظيم قاصر أن يحقق وحدة بين بلدين، وإذا كان الحزب الوطنى قد مس تلك النقطة مساسا كما سبقت الاشارة، فلا يبدى أنه عمل بعد ذلك على تطوير علاقته بالسودانيين وما كان لغير الوفد بتمثيله غير المنازع للحركة الوطنية واسهامه التاريخى فى بناء الجماعة المصرية، ما كان يمكن لغيره أن يقوم بهذا الانجاز التاريخى الضخم مع السودان. ليبنى بالكفاح الواحد والتنظيم الجامع الواحد أمة واحدة تقوم على أساسها دولة شرعية متحررة واحدة.

لم قوطع الصوفانى لما صاح أن اتصلوا بالسودانيين وحركوا ضباطكم وموظفيكم هناك؟ كان المقاطعون هم نواب مصر وهم

ثوار ١٩١٩، ومنهم من عرف السجن والاعتقال والتشريد. ولكنهم في الوقت نفسه، بلغ عدد كبار الملاك منهم الذين تزيد ملكية الواحد منهم على مائة فدان، بلغ ٩٥ عضواً نسبتهم ٤٣,٥٪ من مجموع أعضاء المجلس (١٢١) والباقى ينتمون جميعا الى الطبقة المتوسطة تجاراً أو مهنيين من المحامين أو الأطباء أو غيرهم، وقد كان الجديد الضخم الذى أتت به الثورة ، إنها مكنت رجال هذه الطبقة والأفندية أن يصلوا إلى مقاعد البرلمان وكراسى الوزارة، بعد أن كانت مقصورة على النخبة الارستقراطية. وقد أمكن لهذه الطبقة التى قادت ثورة ١٩١٩ أن تستثمر التطور الحضارى السابق للجماعة المصرية وتطور الحركة الديمقراطية خلال القرن التاسع عشر، وما اتسم به المصريون من درجة عالية من التوحيد، استثمرت ذلك كله فى إدارة الصراع الثورى المحقق لاستقلال مصر، بأسلوب سلمى ومشروع فى الأساس، يعززه نشاط الجهاز السرى فى الاغتيالات السياسية، لاقلاق الاعداء وازعاجهم، ولضبط الحركة الثورية وفرض هيبتها واحترامها على العناصر التى تنجذب للاحتلال، وقد سبقت الاشارة فى صدر هذا البحث إلى طبيعة أجهزة الحكم المصرية، وما تمكنت به الحركة السياسية المصرية من حصارها والتهديد بعزلها عن سلطة الاحتلال، مما كان له أثره الكبير فى تهذيد تلك السلطة.

أما بالنسبة للسودان، فقد كان الوضع جد مختلف . والحركة الوطنية الحديثة هناك لاتزال فى نشأتها، والسودان الفسيح يتسم بالكثرية والتعدد من حيث الأقاليم والقبائل ومستويات النمو الحضارى، وأجهزة الحكم فى قبضة الانجليز تماما. لذلك لم يكن فى مكنة أسلوب الكفاح المصرى وقتها أن يحقق فى السودان ما كان يحققه في مصر. ولو اقتحم الوفد الحواجز البريطانية وصولا إلى السودانيين لكان تعين عليه أن يصير وفدا آخر، والا لما كان فى مكنته أن يحقق هناك ما يحققه هنا. وفضلا عن ذلك فان هذا الاقتحام لو كان تم، لكان خليقا به أن يواجه فى مصر نفسها من الانجليز مقاومة لم يكن فى المقدور حساب مدى عنفها وفظاظتها. ولم يكن التكوين الاجتماعى للوفد مما يمكنه من قيادة صراع كان يمكن أن يسير فى طريق الحرب الثورية، التى تشمل مصر والسودان معا، على نحو ما بدأت الصين تعرفه فى الحقبة نفسها مما استطال إلى نهاية الأربعينات ، لهذا قوطع الصوفاني بك فسكت ، وهو إن كان قالها . «اتصلوا بالسودانيين» ، فلم يعرف عنه ولا عن الحزب الوطنى أنه فعلها.

★★★

ماذا كان أمر السودان إذاً بالنسبة للحركة الوطنية المصرية؟ إذا نظر إليه فى جوانبه الملموسة؟ أى بالنسبة للمصالح التى رأت

تلك الحركة من اللازم عليها أن تصونها ؟ اطرد الحديث عن السودان من قبل مصطفى كامل وحتى استقل القطر الشقيق فى ١٩٥٦، على انه روح مصر وحياتها، وانه «انسان العين» كما يقول الشاعر أحمد شوقى. وأن انفصاله يهدد مصر بما يشبه الدمار ويصيبها فى مقتل. وأن لا أمن لها بدون السودان. وأن النيل الذى اعتبرت مصر هبة له منذ فجر حضارتها، والذى أثر فى حياة المصريين ونظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية بما لا يظهر أن نهرا آخر أثر به فى حياة شعب، والذى عبده المصريون القدماء ووجدوا فيه بعضا من وحدانية الله وفرديته قبل نزول الرسالات السماوية، هذا النيل ليس غريبا أن يكون مجال اهتمامهم الحيوى على مدار العصور، فلما بدأ عصر الخزانات والتحكم فى مياه النيل، كان لابد للمصريين أن يفكروا فى سياسة نهرية تضمن الا تكون إمكانية التحكم فى مياه النيل تحكما فيهم.

لقد خطب مسيو برونت المهندس الفرنسى فى المعهد العلمى المصرى فى ٢١ يناير ١٨٩٣ مشيرا الى أن اقامة خزان للمياه على مجرى النيل يعرض مصر لأشد الأخطار، وانه يكفى للقضاء على مصر أن ينشأ سد على فوهة بحيرة نيانزا ليحرم مصر من المياه التى تأتيها فى موسم الجفاف، كما كتب سير مونكريف إلى

المعهد العلمي البريطاني في أول أكتوبر ١٨٩٥، يقول انه إذا ملكت دولة متمدنة أعالي النيل وأنشأت الخزانات على مسارب بحيرة فيكتوريا «صارت تغذية النيل من تلك المسارب بيد الدولة المالكة..» بما يمنحها سلاحا يمكنها من تهديد مصر بالغرق أو الجفاف. كما ذكر سير بورنال مندوب بريطانيا في أوغندا في ١٨٩٤، أن أوغندا أقوى دول شرق أفريقيا لسيطرتها على منابع النيل، وأن «موقفنا في أوغندا ومصر موقف واحد لا ينفصل أحدهما عن الآخر، لأن من ملك أعالي النيل يتصرف بمصر على هواه ومشيئته ويكون باستطاعته أن يقضي على مصر» (١٢٢).

وأن عصر الخزانات هذا قد نقل مصر عبر القرن التاسع عشر. من ري الحياض إلى الري الدائم، ومن المحصول السنوي الزراعي الواحد، إلى تعدد المحاصيل السنوية، مما جعل مصر ونظامها الاقتصادي أكثر تبعية لوسائل تنظيم تدفق المياه عبر السنة كلها، فلم يعد خوفها فقط من امتناع وصول المياه إليها، ولكن من تباين السياسات النهرية. وعدم ملاءمتها مع تنظيم الدورة الزراعية، ولم يعد الخطر عليها يتمثل في الصورة الفجة، صورة جفاف النيل مثلا، ولكن في عدم وصول الكميات المطلوبة في المواعيد المطلوبة ، الأمر الذي يهدد أيا من محصولاتها

السنوية بالهلاك، وإذا كان السد العالى الآن يضمن لها مخزنا للمياه يكفيها المفاجآت العاجلة، ويكفل لها فسحة من الوقت تتدبر فيه أمورها بغير خطر داهم تفاجأ بسقوطها فيه، فقد كان نظام التخزين قبل السد العالى، وحتى بعد بناء خزان أسوان، لا يكفل لها الا تخزينا سنويا فقط مما لا يجنبها المخاطر العاجلة، والحاصل أن تهديد مصر بالتحكم فى مياه النيل لم يكن مجرد ظن ظنه المصريون، ولكنه كان سياسة عبرت عن نفسها بأقوال الانجليز أنفسهم حسبما سبقت الاشارة.

وفى التسعينات أرسل رياض باشا مذكرة إلى السير افلين بارنج (اللورد كرومر فيما بعد) تقول أن النيل حياة مصر والنيل هو السودان «فلا جدال فى أن الروابط والعلاقات التى تربط مصر بالسودان لا يمكن أن تقبل أى انفصال.. وإذا تمكنت دولة من الاستيلاء على منابع النيل فإن هذا الاستيلاء يكون بمثابة حكم الاعداء على مصر». ثم كتب بطرس غالى وزير الخارجية الى حكومة بريطانيا أن حكومة مصر لا يغيب عن نظرها «العودة إلى استئناف احتلال الأقاليم السودانية التى هى مصدر الحياة ذاتها لمصر..» وعند مناقشة لجنة الدستور وضع السودان، أعد حسين رشدى رئيس اللجنة مذكرة فى ١٧ مايو ١٩٢٢ بدأها بقوله «إنما

السودان لهو الحياة بذاتها لأنه منبع النيل.. (١٢٣). كما ورد بمذكرة الوفد المصرى بباريس فى ١٩١٩ عن السودان «أن المسألة ليست مسألة قانون أو مسألة تاريخية فقط.. فإذا تسلطت دولة أجنبية على السودان كانت مصر التى لا تعيش الا من النيل عرضة لأفدح الأخطار.. » والشواهد على هذا الموقف لا تكاد تنحصر.

والحاصل أيضا أنه منذ ١٨٩٩، لفت سير وليم جارستون مستشار وزارة الأشغال المصرية، النظر إلى مشروع لرى سهل الجزيرة بالسودان بإقامة خزان على النيل الأزرق. وتأيد ذلك بتقرير إلى كرومر فى ١٩٠٤ وذلك لزراعة القطن هناك، وشرعت حكومة السودان فى مد السكك الحديدية من الخرطوم إلى سنار على النيل الأزرق فى ١٩٠٩، واتمته فى ١٩١٢ ثم اخترقت به أرض الجزيرة إلى كوستى والأبيض على النيل الأبيض، وبدأت تجرب زراعة القطن فى نحو ثلاثة آلاف فدان فى ١٩١١ بواسطة نقابة زراعة السودان، وأظهرت التجربة انتاجا طيبا فى ١٩١٣. فشرعت فى إقامة خزان سنار، وتطلب المشروع ثلاثة ملايين من الجنيهات رفضت الحكومة المصرية ضمان إقراضها ، فوافق البرلمان البريطانى على الإقراض، وبدأت الأعمال التمهيدية فى

١٩١٤ حتى أوقفتها الحرب العالمية الأولىٰ، ثم استؤنفت بعد الحرب، وكان من المقرر أن يشمل المشروع ثلاثمائة ألف فدان من نصف مليون يكفيها الخزان. وهي أرض أخذت من ملاكها السودانيين الذين اعتادوا من قبل زراعتها حبوبا على الأمطار، أخذت بإيجار عشرة قروش للفدان في العام، كما استهدفت السياسة البريطانية استغلال ثلاثة ملايين فدان من أرض الجزيرة مستقبلا بواسطة مشروعات خزانات على بحيرة تسانا (١٢٤).

وكل ذلك أثار حذر المصريين من حيث عدم كفاية المياه لكل تلك المشروعات المستقبلة، ومن حيث تعارض مواعيد الري مع ما يتلاءم مع احتياجات مصر الفعلية، فصار هذا الأمر من العوامل ذات التأثير الوجداني الكبير على المصريين بعد الحرب الأولى، وزادت من خشيتهم التقارير التي أعدها مهندسون بريطانيون مثل ولكوكس وكندي (١٢٥).

كما ضاعف منها أن مصر كانت تصارع الانجليز بطلب الاستقلال والجلاء عنها. وأن الانجليز لابد سيعتاضوا بقطن السودان عن قطن مصر، مما يزيد من احتمالات التوسع في تلك المشاريع المهددة لاحتياجات مصر.

وأنهم لابد ملوحين بتحكمهم في المياه للضغط على الإرادة المصرية، لو استطاعت تلك الارادة أن تتخلص من نفوذهم داخل

مصر. ويكفى بيانا لأساس هذا الخوف، أن مصر حكومة ورأى عام، لم تخضع للسياسة البريطانية بالسودان تماما منذ ١٨٩٩، ولم تقدم ما قدمت من رجال ومال، وهى عالمة بأن ما تقدمه يخدم السياسة البريطانية بالسودان ويخدم سعيها لعزل السودان عن مصر ، لم تفعل ذلك إلا تحت ضغط مسألة المياه، وبمراعاة أن ما تقدمه يقابل ما تحصل عليه ويقابل تأمين مياه النيل التى تصل إليها، كما كانت تذكر تقارير كرومر وغيره، وحتى بعد خروج المصريين من السودان فى ١٩٢٤ وفصله عن مصر، التزمت بإداء ثلاثة أرباع مليون جنيه سنويا لحكومة السودان المعادية لها، مقابل تأمين المياه، وأن نص السودان الوارد بمشروع كيرزون الذى سبقت الاشارة إليه لشاهد على ذلك .. ويؤكد هذا الشعور المصرى إبان الثورة ما سجلته الوثائق البريطانية من مشاعر المصريين فى ٦ مارس ١٩٢٠ من أن المصريين يركزون على «أن مشروع الرى السودانى الذى يستهدف خراب مصر ووضع المصريين تحت رحمة بريطانيا..» وأن الجماهير يتأثرون «بما يسمعونه عن اقتراب المجاعة وقطع مياه النيل وغيرها من الكوارث التى يحملون الانجليز مسئوليتها..» (١٢٦) «فلقد ، واجهت مصر ما لم تواجهه قط فى تاريخها، وهو احتمال وجود اقليم يخضع

لحماية دولة كبرى يستغل مياه النيل التى تعتبر ضرورة حياة لها» (١٢٧).

ويذكر داود بركات، أن سياسة الانجليز تتحصل فى «القبض على نواصى الأمم بالماء والبوليس»، وهم منذ الساعة الأولى حرصوا على وضع أيديهم على البوليس وعلى كبار وظائف مهندسى الرى بوزارة الاشغال، وبهذا استعبدوا مصر، وأنهم يتمسكون بحكمداريات البوليس فى كل من القاهرة والاسكندرية وبورسعيد، ويتمسكون فى الوقت نفسه وللهدف نفسه بالسودان منبع النيل، «لقد جعلوا الرى غلا فى عنق مصر وقيدا فى رجلها دون الاستقلال،، فالذين وكلتهم الأمة بطلب استقلالها موكول إليهم البحث عن هذا الاستقلال بكل أجزائه ، والأمة من ورائهم تسند ظهورهم وتؤيدهم كل التأييد» (١٢٨).

تلك هى المساحة المصرية الحقيقية التى شغلتها المسألة السودانية فى ذلك الوقت. ومنها يظهر أن المصريين وإن عاب نظرتهم إلى السودان انحصارها فى نطاق العلاقات الثنائية بين مصر وبريطانيا، فإن هذا العيب يصبح بافتراض ما يبدو من ظاهر موقفهم وأقوالهم، من أن سعيهم هو تحقيق السيادة على السودان بغير اهتمام باشراك السودانيين فى الأمر.

أما إذا نظر إلى المسألة في سياق ما سبق بيانه من مصالح حيوية رآها المصريون، ومحاذير محدقة استشعروها مهلكة، فإن موقفهم يكتسب مضمونا آخر يمكن به استنباط مفاد آخر لأقوالهم ، من حيث مقصودهم الحقيقى منها، وعلى وفق البيان السابق، يظهر أنهم ما حصروا السودان في نطاق العلاقات المصرية البريطانية ، الا لأنهم وجدوه سودانا لا يحكمه السودانيون ، بل يسيطر عليه أعداؤهم الانجليز بقوتهم العسكرية والاقتصادية والعلمية، وبأطماعهم في مصر ذاتها، أى نظروا إلى المسألة باعتبار ما يتهدد استقلال مصر من سيطرة الانجليز على السودان. لأن حكم السودان يفيد تحكما فى مصر. واحتلالهم السودان كاحتلالهم مصر تماما، من جهة أثره الضاغط على الارادة المصرية ونفيه لاستقلالها. ولا يكفى لاستقلال مصر أن تنفلت قبضتهم عن «البوليس» ، إنما يلزم أن تنفلت أيضا عن «الماء». كانوا طلاب استقلال تام لمصر، فوجدوا أن استقلالها لا يتم الا باستقلال السودان أيضا، فنادوا بالاستقلالين معا، وعازتهم الصفة السياسية كمصريين في المطالبة باستقلال السودان وخروج الانجليز منه. فتكلموا عن السيادة وعما بذلت مصر للسودانِ من قبل، وعن أن السودان جزء لا يتجزأ من

مـصـر. وانحـصـرت المسـألة فى العـلاقـات الثنائيـة بين مـصـر وبريطانيا. لأن «الخطر السودانى» على استقلال مصر لا يتأتى إلا فى نطاق تلك العلاقات الثنائية.

وفى نطاق وضع السـودان فى إطار العـلاقـات الثنـائيـة تلك، حـصـر البـريطانيـون المسـألة فـى ضـمـان رى الأراضـى المصـرية المزروعة والقابلة للزراعة، وحصروا هـذا الضمـان فى تصـريحـات يعدون بها واتفاقات يبدون استعدادهم لابرامها مع مصر، تنظم توزيع مياه النيل بين دوله الثلاث مصر والسودان وأوغندا، بينما نظر الوطنيون المصريون إلى المسألة بإعتبار أن الضمـان الوحيد لهم لا يقل عن خروج الانجليز من السودان.

وأن أية اتفـاقـات أو وعـود ليس من شـأنـهـا أن تتناسب مع خطورة وحيـوية تلك المسـألة، وهى مع قـوة بريطانيـا الهـائلة وضـعف مصـر البـين، لا تكون لهـا قـيمة تزيد على قـيمـة الورق المكتـوبة عليه. وكـمـا أن اسـتـقـلال مـصـر لا يتـأتى إلا بجـلاء الانجليز عنها ، ولا يحققه أى اتفاق مع بقاء القـوات الانجليزية فيها، كذلك الشـأن بالنسـبة للأمن الاستراتيجى لمصر المستقلة لا يتـأتى الا بـالجلاء عن السـودان باعـتبـاره من متممـات اسـتقـلال مصر.

كما نظروا إلى التحفظ السوداني الوارد في تصريح ٢٨ فبراير ، لا من ناحية انه يعني مجرد ارجاء تسوية مسألة السودان بين البلدين مع حفظ الأوضاع الراهنة، ولكن باعتباره تحفظا أو قيدا على استقلال مصر، شأنه في ذلك شأن النقاط الثلاث السابقة عليه. ولما كانت الحركة الوطنية السودانية الحديثة لا تزال في مهدها، ولا تقوى علي انجاز استقلال سوداني يتعاصر مع ما يمكن للحركة المصرية انجازه في مصر، فقد أهملوا فكرة استفتاء السودانيين حول علاقتهم بمصر أو بريطانيا، باعتبار قدرة حكومة السودان الانجليزية على التحكم في نتيجة الاستفتاء ، وقدرتها على اصطناع نتيجة له تعزله عن مصر وتلقيه في قبضة بريطانيا المنفردة . ولم يجدوا فكرة يعبرون بها عن هذا الضمان الاستراتيجي إلا فكرة السيادة على السودان ، بمعنى السيادة على النيل . ولم يرد على لسان واحد منهم قط أن لمصر حقاً أو سيادة على السودانيين ، ولم يرد حديث عن السودانيين قط الا في صدد الحديث عن المساواة في الحقوق والواجبات ، أو الحديث عن وحدة الدين واللغة والتقاليد .

أما الخلاف بين اتجاه عدلي يكن وسعد زغلول في هذه المسألة، فيظهر في أن عدلي كان يكتفي - تحقيقا لضمان مصر - باتفاقية تعترف فيها بريطانيا بحق مصر وحدها في السيطرة على

مياه النيل وأولوياتها فى أخذ احتياجاتها من المياه ، كما أشار فى مفاوضاته مع كيرزون . بينما كان سعد زغلول لايرى دون خروج الانجليز من السودان ضمانا لأمن مصر . والحاصل أنه حتى الصيغة التى طرحها عدلى يكن لم يصدر فيها عن ضمان لحق مصر فى المياه فى مواجهة السودانيين ، بل فى مواجهة التحكم البريطانى فى السودان .

بلور سعد زغلول نظرته الحقة الى السودان فى حديث أجراه معه مراسل صحيفة المانية فى يونيو ١٩٢٤ ، ونشر بصحيفة البلاغ فى ١٥ يوليو ورد به «ليس القول بأن مصر حرة بمستطاع ما لم يرد السودان إلى المصريين . ذلك ان امتلاك السودان معناه حكم مصر ، والنيل هو ثروة البلاد الوحيدة ، وأنفس ماتملكه . وانه ليكون جنونا من مصر أن تأخذ بالاتفاقات والوعود فى هذه المسألة ، التى يمكن أن تعرض كيانها للخطر . إن لانجلترا بالسودان وسيلة للضغط تستطيع بها أن تخنق كل رأى سياسى يدلى به الشعب المصرى . ومبدأ الجنسيات يقضى بتبعية السودان لمصر ، اذ كان الأصل المصرى راجحا فى سكان تلك البلاد .. ان لا فائدة من استفتاء السودان ، مادامت انكلترا ترتكز فيه على قوة الجنود وما دام فى استطاعتها أن تخرج نتيجة الاستفتاء

حسبما تريد .. » (١٢٩) ومن ثم فإن الحركة الوطنية المصرية كانت مصرية فحسب ، وحزبها الوفد كان مصريا فقط . واستقلال السودان عندهما هو من متممات استقلال مصر ومن مكملاته . ولم تكن الحركة الوطنية تلك حركة توحيد ، ولا كان الوفد حزبا وحدويا .

بقيت نقطتان صغيرتان ، الأولى مسألة الهجرة إلى السودان كهدف احتياطي سعى إليه المصريون . أو كمصلحة مصرية مستقبلة تغيوها من صلتهم بالسودان . وذلك على نحو ما ورد على لسان عدلي يكن في مفاوضاته مع كيرزون . وقد فصل هذه المسألة داود بركات في كتابه ، فذكر أن مصر بالثلاثة عشر مليونا من سكانها المتزايدين سنويا ثلاثة في كل مائة ، وبالخمسة ملايين ونصف من فدادينها المتزايدة بما لن يجاوز مليونا ونصف آخرين، لن تجد بعد خمسة وعشرين عاما ارضا تكفي سكانها ، الا أن يركبوا النيل جنوبا إلى السودان . على أنه لا يلحظ أن المصريين بساستهم ومفكريهم قد ركزوا على هذا الأمر أو انه احتل بؤرة اهتمامهم السوداني . وكان مبنى فكرة داود بركات أن التطور الصناعي في مصر «محدود من المستحيل أن ينتفع به عدد عظيم من السكان » (١٣٠) فلم تنم فكرة الهجرة تلك بسبب تزايد أملهم في النمو الصناعي وفي التوسع المحصولي في الزراعة .

والنقطة الثانية ، أشار اليها الدكتور عاصم الدسوقى فى بحثه القيم عن كبار ملاك الأراضى الزراعية . اذ أشار الى أن أصحاب المصالح الزراعية «لم يكن يهمهم فى تصريح ٢٨ فبراير من يحكم السودان بقدر ماكان يهمهم تأمين مصادر مياه النيل » (١٣١) . وما يستحق التعليق هو ما قد يفهم من عبارة الأستاذ الباحث من أن الاهتمام بتأمين مصادر مياه النيل ، أمر قاصر على أصحاب المصالح الزراعية فى مصر . والصحيح فيما يبدو أن أصحاب تلك المصالح قد يكون لهم اهتمام خاص .

بهذه المسألة ، يضاف الى الاهتمام العام بها ، وقد يكون لهم ثمة اهتمام قاصر عليهم بالنسبة لامكانيات منافسة القطن والحاصلات السودانية لانتاجهم فى السوق العالمى . أما الاهتمام «بتأمين مصادر مياه النيل » عامة ، فهو يتعلق بالأمن الاستراتيجى للوطن المصرى عامة ، وكان خليقا دائما بأن يكون على مستوى مسألة الاستقلال الوطنى من حيث الأهمية والخطورة.

الباب الثالث

حكومة الوفد

(١)

حكومة الوفد وحكومة العمال

في الشهر ذاته الذى تولى فيه سعد رئاسة أول وزارة وفدية في ظل دستور ١٩٢٣ ، تولى رامزى ماكدونالد زعيم حزب العمال البريطانى رئاسة أول وزارة عمالية فى بريطانيا . وسقطت الوزارتان أيضا فى نوفمبر من السنة نفسها . واذا كان هذا التوافق التاريخى لايحمل فى ذاته معنى ما . فان التوافق ذا الدلالة بينهما ، ان كلا منهما كان يمثل قوة تقدمية بمعنى ما فى ظروف بلده ، وانه تولى الحكم لأول مرة ، وانه لم يستطع أن يسيطر على أجهزة الحكم ولا استطاع أن يعدل تعديلا ذا بال من موازينها وروحها المحافظة التقليدية . وسقط كل منهما لأن القوى المحافظة قد تآمرت عليه وحاصرته ونجحت فى الالقاء به بعيدا .. ومن الخلافات ذات الدلالة بينهما ، انه بينما تولى الوفد الوزارة ، مؤيدا بأغلبية برلمانية كاسحة ، فان حزب العمال البريطانى كان يتولى الوزارة وتعوزه الأغلبية البرلمانية اللازمة لبقائه ، وكان يستمد تلك الاغلبية من تأييد حزب الاحرار لوزارته ، على ما بين الحزبين من تباين فى السياسات . لذلك فان ماكدونالد كان يتسم

مسلكه بطابع الاعتدال الذى يميز حزب العمال عامة ، فضلا عن مراعاته مسلك أجهزة الحكم البريطانية ، سيما بالنسبة لسياسة المستعمرات ، وفضلا عن مراعاته سياسة حزب الاحرار الذى يستند الى تأييده البرلماني فى بقائه بالوزارة .

ترجع العلاقة بين سعد والوفد من جهة وبين ماكدونالد وحزب العمال من جهة أخرى الى بدايات ١٩٢٠ . اذ صار حزب العمال قوة جديدة فعالة فى السياسة البريطانية بعد الحرب العالمية الأولى، وكان الوفد يبحث عن قوة سياسية تناصره فى بريطانيا .

ويحكى الأستاذ محمد كامل سليم عن بداية هذا الاتصال ، انه فى يناير ١٩٢٠ حضر من لندن الى الوفد فى باريس من يمثلون جمعية الطلبة المصريين فى بريطانيا ، ومنهم الدكتور حامد محمود الذى طلب من سعد أن يقبله متطوعا لخدمة الوفد ، ورحب سعد بعد معرفته علاقة حامد محمود برجال من حزب العمال ، واستغل هذه الصلة فى الاتصال بصحيفة العمال «ديلى هيرالد» ، فصارت تدافع عن قضية استقلال مصر والغاء الحماية ، وكان حامد محمود على معرفة بمستر لانسبورى رئيس تحريرها وعلى صداقة بمستر ايوار رئيس قسم السياسة الخارجية بها ، وقابل هذا الأخير سعدا بباريس مرات ونشر له حديثين هامين وقتها . ومن خلال تلك الصلة أيضا وجه عدد من نواب العمال أسئلة الى

الحكومة تبدى العطف على القضية المصرية ، ومنهم مستر مالون ومستر سبور ، كما أنشئت «اللجنة الانجليزية المصرية» من عشرين من أعضاء حزب العمال وصحفييه ، وكانت تصدر نشرة عن مصر وعن السياسة البريطانية بها ووعود بريطانيا بالجلاء عنها ، وفى مقدمة هؤلاء مستر لانجدون ديفيز (١٣٢) . وكان لهذا النشاط أثره في تكوين رأى عام بريطانى متعاطف مع مصر ، وفى دعوة الحكومة لسعد زغلول للتفاوض مع ملنر فى ١٩٢٠ (١٣٣) .

وبعد تصاعد الخلاف بين العدليين والسعديين فى مصر ، وسفر عدلي يكن رئيس الوزارة لمفاوضة كيرزون ، ومقاومة سعد زغلول له ولوزارته بمصر وتعرضه هو وأنصاره لاجراءات القمع التى كانى يجريها نائب رئيس الوزراء عبد الخالق ثروت . دعا الوفد جماعة من حزب العمال البرلمانيين الى مصر على رأسهم مستر سوان . ويحكي يوسف نحاس أن الحكومة البريطانية لم تستطع منعهم من الحضور الى مصر وطلبت من الحكومة المصرية أن تفعل ، ووافق ثروت على ذلك ، الا أن عدلي يكن لم يجسر على الموافقة على هذا القرار ، مفضلا أن يجيء المنع من كيرزون . وهكذا حضر الوفد العمالي واستقبله الوفد المصرى استقبالا

حافلا ، واستغل سعد وجود هذا الوفد وحرج الحكومة ازاءه ، لتصعيد الهجوم على الحكومة . وظهر بذلك للوفد البريطانى مدى مايتمتع به سعد من تأييد شعبى ومدى عزلة عدلى يكن فى مصر، مما كان له أثره فى اضعاف عدلى كمفاوض مصرى (١٣٤) .

وفى ٢٥ فبراير ١٩٢٢ وصل رامزى ماكدونالد الى بور سعيد من فلسطين فى طريق عودته الى بلاده حيث قضى ليلة واحدة ، أعد له فيها رجال الوفد المحليين حفلة شاى خطب فيها على بك لهيطة وأهداه هدية نيابة عن الشعب المصرى . وتحدث ماكدونالد مبديا عطفه على مطالب المصريين ، وذاكرا أن المصريين لايقفون ضد الانجليز وانما ضد حكومتهم فقط ، وان الشعب الانجليزى سيدرك سريعا سوء حكومته ، وان مصر سوف تمسك بزمام أمورها ، اذ لا يمكن حكم بلد بالقوة ، ثم عبر عن أمله فى أن يعود سعد زغلول من منفاه (١٣٥) .

وما دام حزب العمال هو القوة السياسية الفعالة الوحيدة التى أبدت قدرا من التفهم لمطالب المصريين ، فإن فرحة المصريين بتولى الوفد الحكم زادها تولى ماكدونالد حكومة بريطانيا . وعظم لديهم ولدى الوفد وسعد الرجاء فى تحقيق مطالب مصر الوطنية . كان سعد فى قمة قوته . حتى بدا كما لو كان القوة العليا فى

السياسة المصرية ، الاحرار والحزب الوطنى لا يظهر لأى منهما أثر ما ، والملك بعدما حقق الوفد من نجاح ساحق لا يجسر على معارضته . والمندوب السامى ظهر له أن تصريح ٢٨ فبراير لم يفد فى شد أزر حلفائه الأحرار ، فبدأ انقاذا لسياسة ٢٨ فبراير يتجه الى سعد زغلول بدلا من الاحرار ، وأظهر التعاطف والصداقة له . وقبيل تشكيل الوزارة زار مستر كار (من دار المندوب السامى) سعدا مرتين ، ثم زاره بعد تشكيل وزارته مخالفا تقليدا متبعا بأن يكون رئيس الوزراء هو من يتوجه بزيارة دار المندوب السامى أولا. وتوسم اللنبى فى سعد ملامح رجل الدولة (١٣٦) . فلما طلب سعد موافقة الانجليز على الافراج عن المسجونين السياسيين فيما عدا من حكم عليه فى حوادث ضد الانجليز ، وافق ماكدونالد على الافراج عن الجميع بغير استثناء (١٣٧) . ثم ارسل برقية الى سعد مع افتتاح البرلمان فى ١٥ مارس حيا فيها مصر «وريثة أقدم المدنيات بين جماعة الشعوب الحرة المتقدمة فى العالم » ، وعرض استعداد حكومته للتفاوض معه ، الأمر الذى أعتبره اللورد لويد فيما بعد سقطة من السياسة البريطانية فيما أفصحت عنه من تلهف على المفاوضة .

ومن الواضح ان كان الانجليز متلهفين على المفاوضة . وقد سبقت الاشارة الى أنهم - من وجهة نظرهم فى تصريح ٢٨

فبراير - دفعوا معجلا مايريدون تحصيل مقابله فيما بعد . وخانهم التوفيق مع الأحرار الدستوريين ، ولم يبق الا الوفد وسعد يستميلونه للحصول على مقابل الاعتراف باستقلال مصر ، وهو عقد الاتفاق الذى يقرر شرعية وجودهم بها . ويذكر اللورد لويد أن اللنبى كان يتصور أن سعدا صار هو الأمل الوحيد للانجليز فى مصر ، مما يتعين معه معاملته برفق ، واستمالته للمفاوضة بأية طريقة ممكنة ، لذلك اقترح فى ١٦ ابريل على ماكدونالد أن يعرض على سعد الموافقة على حلف دفاعى هجومى ، تكون به مصر بلدا محاربا فى أى وقت تجد بريطانيا نفسها فيه فى حالة حرب ، وذلك مقابل ان تنظر الحكومة البريطانية فى جلاء قواتها عن القاهرة والاسكندرية ، وتسحب ادعاءها بحماية الأجانب والاقليات، وتمنح مصر اشتراكا فعليا فى ادارة السودان ، وتنظر فى الغاء منصبى المستشارين المالى والقضائى (١٣٨) . على أنه لم يقدر لهذا العرض أن يصل الى سعد اذ بقى هدف الانجليز ان يحصلوا منه على «اعتراف بوجود بريطانى فعال» فى مصر (١٣٩) .

على أن سعدا الذى لم يستجب من قبل مع المصريين للقمع والبطش ولا لمناورات ملنر وحصار المعتدلين له ، ولم يلن مع

الشـعـور البـين بالضـعف فى أواخـر ١٩٢٠ ، هذا سـعـد بدا انه لايستجيب أيضـا لمحاولات الاستمالة ، فاستمر على موقفه فى رفض تصـريح ٢٨ فـبـراير وغيـره ، مما سـبقت الاشـارة اليـه بالنسبة لتصـريحاته المتتابعة فى مـجلس النواب المصرى . وقد استـشـعـر بوصـوله الى الوزارة بـهذا التـأييـد الشـعـبى الضـخـم ، استشعر قوة اراد أن يستثمرها فى صراعه الديمقراطى مع الملك، وصـراعه الوطنى مع الانجليـز . كـان فى البـداية يأمل الخـيـر من وجـود مـاكدونالد ، وعبـر عن ذلك فى ٢٥ يناير «ومن عـلامـات اذن الله بنجاح مسعانا أن تقوم فى الأوقات الحاضرة وزارة انجليـزية مـعـروفة بالميل الى مطالبنا الحقـة ، والى تسوية الخلاف بيننا » . وسـرعـان مـا اكـتـشـف موقـف وزارة مـاكـدونالد من تـصـريح أعلنه رئيـسـهـا فى مـجلس العـموم فى ٢٥ فـبراير ١٩٢٤ ، بأن وزارته مقيدة بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ . وقد سبقت الاشارة الى الموقف الثـابت للوفـد من رفض هذا التـصـريح منذ صـدوره . فكشف بيـان مـاكدونالد أن ثمة فـجـوة بعيـدة القـا ع بين موقف الحـكومتين ، ورد سـعـد متمسكا بسـياسـته وبـالا يدخل مفـاوضـات الا طليـقـا من كل قـيـد . وكـان شـديد الحـذر عظيـم الشك فى نوايا الانجليـز . كـمـا كـانت تصـريحـاته تشيـع التـوتر لدى الحكومـة البـريطانيـة . كـتب

ماكدونالد الى اللنبى مرات يقول له أنه لن يكون مستعدا لمفاوضة سعد ، الا اذا علم أن مطالب سعد لاتتعارض مع مطالب بريطانيا بشأن السودان والدفاع عن قناة السويس . وان سعدا يبالغ فى تصوير الصعوبات التى تعترضه بمصر فى طريق التفاوض ، مستهدفا من ذلك أن يظهر للانجليز انه لن يكون لتصريح ٢٨ فبراير فاعلية بدون اعتراف مصر به ، وان يظهر الحكومة البريطانية فى مظهر المتلهف بأى ثمن على التفاوض لتكسب وضعا شرعيا ، وانه اذا بقى سعدا ملتزما بتصريحاته العلنية فلن يكون ثمة أمل فى المفاوضات (١٤٠) . كما أن اللنبى لم يتحمس لأن تبدأ المباحثات فى مصر ، لأن سعدا يريد اجراءها مع ماكدونالد نفسه من جهة ، ولأن جو القاهرة المتفجر لايسمح بمباحثات تجرى بعيدا عن تأثير الصحافة والمتطرفين (١٤١) . فوافق ماكدونالد على دعوة سعد للمباحثات بلندن فى غضون يونيو ويوليو ، مؤكدا انه لن يناقش تنازلات مع سعد ولن يبادر بتقديم مقترحات من جانبه .

ثم تفجرت مشكلة السودان لتقطع الطريق على احتمالات التقارب الضعيفة . وبدأ الاحتكاك من جانب سعد زغلول ببرقية إلى حاكم عام السودان السير لى ستاك فى ابريل ١٩٢٤ ، يحتج

لديه فيها على اشتراك حكومة السودان فى معرض ويمبلى الذى أقيم للمستعمرات البريطانية ، وقال له «كيف قبلتم أن تشتركوا فيه من غير إذن الحكومة المصرية » ، فأحال ستاك الأمر الى اللنبى وفقا للتقليد المتبع من قبل ، من أن حكومة السودان تخاطب الحكومة المصرية عن طريق المندوب السامى ، وارسل اللنبى الى سعد بأنه طلب معلومات الحكومة البريطانية . ولكن سعدا بعث الى ستاك يعنفه على أنه لم يرسل ردا اليه مباشرة ، فرد عليه معتذرا عن التأخير وذاكرا انه رد عليه بالطريق المعتاد من خلال المندوب السامى ، فرد سعد فى ٩ يونيو مستنكرا ان يكون المندوب السامى حلقة اتصال بين الحكومة المصرية وموظف مصرى يعين بمرسوم ملكى هو الحاكم العام للسودان . وإزاء جنوح الانجليزى الى التهدئة مع سعد وقتها. اكتفى بإثبات هذا الموقف ، وحرص الا يوصد الباب مع الانجليز ، فأبدى عدم اعتراضه على اشتراك السودان متى كان المعرض غير قاصر على المستعمرات البريطانية. وعبر عن أسفه لأن يحدث هذا الحادث وهم على أبواب المفاوضات التى ستشمل السودان .

وفى ٨ مايو أرسل ستاك الى اللنبى يخطره أن الدعاية المصرية تتصاعد فى السودان ، مما صار له أثره فى هياج مدن

الشمال خاصة ، ونصحه بوجوب مواجهة هذه الحالة باجراءات محددة . وفى تلك الفترة كانت حكومة السودان تجمع توقيعات من رؤساء القبائل والرؤساء الدينيين تعلن الولاء لها ولبريطانيا ضد مصر ، ونشطت العناصر الموالية لمصر فى حركة مضادة حسبما سبقت الاشارة . وكانت جمعية اللواء الأبيض بزعامة على عبد اللطيف قد بدأت نشاطها الجماهيرى ، وبعثت وفدا لمصر يحمل عرائض تأييد لها من السودانيين ، فقبضت عليهم السلطات البريطانية وأرسل المقبوض عليهم برقية احتجاج لمجلس النواب المصرى فى ١٧ يونيو ، فعبر المجلس وسعد رئيس الوزراء على احتجاج المجلس والحكومة على اجراءات الحكومة البريطانية وحكومة السودان فصل السودان عن مصر (جلسة ٢٣ يونيو) . وذلك فى وقت كانت فيه المظاهرات تنتشر فى مدن السودان منذ ١٩ يونيو ، مما واجهته حكومة السودان باجراءات القمع والقبض على منظمى الحركة وزعماء اللواء الأبيض ، وعلى رأسهم على عبد اللطيف الذى حكم عليه فى يوليو بالسجن سبع سنوات . وواجهت الحكومة البريطانية الموقف المصرى بتصريح أفصح فيه اللورد بارمور بمجلس اللوردات فى ٢٥ يوليو ، عن أن الحكومة لن تنوى ترك السودان أو التفريط فى مركزها فيه . فقوبل التصريح

بموجة عاصفة من الاستياء والاحتجاج فى مصر ، عبرت عنها المظاهرات التي ازدحمت بها شوارع القاهرة فى ٢٧ يونيو ، وعبر عنها مجلس النواب فى ٢٨ يونيو حيث ألقى سعد بيانا هاجم فيه التصريح البريطاني ، واستنكر ماورد به من اعتبار تصريح ٢٨ فبراير أساسا للمفاوضات المقبلة ، ثم قدم استقالته فى ٢٩ يونيو. وكان من الطبيعي أن يقف البرلمان وراء سعد مدعما موقفه ، وان يضطر الملك الى رفض استقالته ، مما علق عليه اللنبى ان كان هدف سعد من تقديم استقالته أن يعود الى الحكم فى مظاهرة يشترك فيها الملك والبرلمان والشعب ليعلم الانجليز ان الأمة كلها وراءه .

لم تقض تلك الأحداث على امكانيات المفاوضة وان اضعفت من احتمالاتها . وقد أخبر اللنبى ماكدونالد فى ٢٩ يونيو ان سعدا يرى أن احتمالات المفاوضة آخذة فى الابتعاد (١٤٢) . وفى الوقت نفسه فيبدو أن الطرفين كانا حريصين على تخطى العقبة . فأرسل ماكدونالد الى اللنبى يطلب اليه أن يخطر سعدا بأنه اذا كان يطلب تأكيدا من ماكدونالد بأنه لاينوى تقييد نطاق المباحثات المقبلة ولا الأسس التى تقوم عليها ، فان ماكدونالد سبق أن أوضح للوزير المفوض المصرى بلندن فى ١٥ مايو «بأن توضيح أى طرف

لموقفه فى المفاوضات لايقيد الطرف الآخر بالاعتراف بهذا الموقف». كما أوضح فى ٢٧ مايو انه مستعد لسماع أية اقتراحات يقدمها سعد ، وان لسعد الحرية فى اضافة أية مسألة لجدول الأعمال . وأنه بمناسبة موقف سعد من اشتراك السودان فى معرض ويمبلى أرسل مذكرة الى وزير مصر المفوض فى ٢ يونيو تتضمن أن ماكدونالد ليس لديه «أية رغبة فى عدم اشتراك دولته فى المفاوضات المقبلة على قدم المساواة التامة » . ثم ذكر انه رغم كل ذلك فان سعدا طلب في ٨ يونيو ضمانا أكبر بأن المفاوضات ستكون خالية من أية شروط تقيده وان اشتراكه فيها لن يؤخذ عليه . وعلق ماكدونالد على ذلك بأنه يشعر ان سعدا لن يقتنع بأى ضمان آخر . وأن الظروف اضطرته لأن يحدد موقفه بشأن السودان قبل المفاوضات ، ويؤسفه أن سعدا وجد فى ذلك عقبة فى طريق المفاوضات (١٤٣) . وقد أبلغ اللنبى سعدا بفحوى هذا الكتاب فى ٣ يوليو ، وتلقى منه ردا عليه فى ٦ يوليو تضمن شكر سعد لماكدونالد على عنايته بتحديد موقفه ، وعلى مايعلقه من أهمية بالنسبة للتوصل الى اتفاق بين البلدين ، وأبدى ارتياحه أن المباحثات ستجرى على قدم المساواة بين البلدين ، ولن يتقيد طرف بما سيتخذه الطرف الآخر من موقف ، ولن يتأثر بالاشتراك فى

تلك المناقشات الحرة ، وانه لن تحدد أسس للمفاوضات التي ستجرى ولا لموضوعاتها . ومن ثم لايعنى الدخول فيها اعترافا بحدوث تغيير في موقف أى طرف ولا فى وجهة نظره . ثم طلب تحديد التاريخ الذى فيه «سيكون لى شرف اللقاء مع مستر ماكدونالد» علما بأنه سيسافر الى فرنسا فى ٢٥ يوليو وسيكون تحت تصرف ماكدونالد فى الزمان والمكان اللذين يحددهما (١٤٤).

وفى ١٤ يوليو أخطر ماكدونالد اللنبى بأن ضغط الأعمال عليه، وحاجته وحاجة سعد الى الراحة ، يجعل من الملائم تحديد لقائهما فى أواخر سبتمبر ، وانه يأمل فى المرحلة الأولى من المباحثات أن تكون غير رسمية محصورة بين سعد وبينه ، فى الموضوعين الكبيرين : الحامية البريطانية والسودان ، لأن الاخفاق فى الوصول الى اتفاق فى واحد من هذين الاساسين ، يجعل المفاوضات عديمة الجدوى ، وانتقد طريقة سعد فى معالجة المسألة «مما جعل لدى بعض الشك فى اقتراح أى شىء قد يجعله يظن أننى مستعد أن ادع الوضع القائم للاشياء معلقا الى ما لا نهاية»، وعرض على اللنبى أنه قد تكون فرنسا هى مكان اللقاء بين الطرفين (١٤٥) . وقد تراخت المراسلات فى هذا الشأن أياما

بسبب محاولة الاعتداء على حياة سعد زغلول فى ١٢ يوليو بواسطة أحد المتطرفين . وقد علق النبى على تلك المحاولة بما يفهم منه أن سعدا قد صار بعدها أكثر قوة وصار خصومه أكثر انزواء ، مما قد يجعله أكثر عنادا . ووافق النبى على رأى ماكدونالد أن تكون المباحثات المقبلة تمهيدية فحسب ، وانه يعتقد أن سعدا يستحسن ذلك أيضا ، واقترح أن يجرى اللقاء فى انجلترا بدلا من فرنسا ، وذلك حتى لايبدو الجانب البريطانى مفرط القلق والتلهف بعد كل ما اتخذ من مبادرات نحو المفاوضة ، فى وقت كان سعد فيه يتخذ خطواته بدقة أكثر . فضلا على أن سعدا فى فرنسا سيكون خاضعا للمؤثرات الاجنبية ولنفوذ واصف غالى الذى يعتقد «أنه أكثر تشددا من سعد» . ثم اقترح على حكومته أن توضح لسعد أن رفضه توقيع اتفاقية مع بريطانيا لن يمكنه من استبقاء الوضع الحالى الى مالا نهاية (١٤٦) . واقتنع ماكدونالد بهذا وبوجوب أن يجرى اللقاء فى لندن وطلب من اللنبى تكذيب ما أشيع من احتمال ذهابه الى فيشى لمقابلة سعد ، ورأى أيضا ان ليس من ضرورة للتعجل فى تحديد موعد اللقاء الا بعد مرور شهر (١٤٧) .

يظهر من هذا السياق ، انه رغم حرص الطرفين على أن يجرى بينهما اللقاء ، فان كلا منهما يقف على أرض منفصلة .

ماكدونالد يعلن صراحة أن حكومته متمسكة بتصريح ٢٨ فبراير ، ويصرف النظر عن أية نوايا حسنة أظهرها الرجل ، فإن هذا التمسك يفيد أن سياسته في جوهرها هي سياسة سلفيه لويد جورج واللورد كيرزون . وعلى النقيض تماما يتمسك سعد بموقف الوفد الثابت من رفض هذا التصريح . ومن الجلي على ماسبقت الاشارة أن التمسك بالتصريح من جانب ورفضه من الجانب الآخر، انما يتعلق كلاهما بالتحفظات الواردة بالتصريح لا بما تضمن من اعتراف باستقلال مصر . فالتحفظات هي أساس الوجود الشرعي البريطاني بمصر مما يستمسك به الانجليز ويرفضه المصريون . وكان سعد عظيم الحذر من أن تُأوَّل أية خطوة له في طريق التفاوض على أنها اعتراف أو قبول للتحفظات، ومن هنا كان سعد يلح في أن يستخلص من ماكدونالد اعترافا بأن المحادثات ستجرى حرة من كل قيد ، هادفا من ذلك أن جريان مباحثات طليقة من أى قيد بين بريطانيا وبين مصر المعترف باستقلالها ، من شأنه أن ينحى تحفظات التصريح عن مائدة المفاوضة . وكان ذلك يكون مكسبا لاشك فيه لموقفه كمفاوض ، وقد استغل في سبيله كافة الوسائل المتاحة له من استعراض للقوة واستغلال للتلهف الانجليزى على المفاوضة . على

أن ماكدونالد المرتبط بتصريح ٢٨ فبراير ، قد وصل الى ماظنه صيغة وسط، وهى أن أيا من الطرفين لا يتقيد بما يبديه الطرف الآخر من آراء ولا يلتزم بها ولا يتأثر بها موقفه . وهى صيغة تمكن الطرفين من اللقاء الذى يحرصان عليه ، ولكنها تعنى أنه لقاء يتم بغير اتصال بين بعضهما البعض . وهى تعني أنهما سيجلسان معا ولكن على مائدتين منفصلتين .

والظاهر ثانيا ، ان ماكدونالد فى تركيزه على مسألتى حماية القناة (القاعدة العسكرية) والسودان ، لم يكن يتنازل عن أى من تحفظات تصريح ٢٨ فبراير . فالقاعدة العسكرية تشغل التحفظين الأولين الخاصين بحماية المواصلات الامبراطورية وحماية مصر من التدخل الأجنبى ، والسودان تشغل التحفظ الرابع . أما التحفظ الثالث الخاص بحماية الاجانب والاقليات فى مصر ، فلم ترد أية اشارة صريحة أو ضمنية بتنازله عنه . وضمان القاعدة العسكرية هو ما يضمن للسياسة البريطانية نفوذا فعليا على الحكومة المصرية مما قصد بالتحفظ الثالث توفيره . ومن ثم كان موقف ماكدونالد يعني التمسك بجوهر السياسة البريطانية السابقة عليه ، دون أن يتنازل عن شيء من تفاصيلها حتى الآن . وان ما ورد فى مراسلات ماكدونالد واللنبى سالفة الذكر من أن

الوضع الراهن لن يستمر اذا بقى سعد رافضا توقيع الاتفاق مع بريطانيا ، ليدل على أن وعد الانجليز بجريان المباحثات على قدم المساواة بين البلدين ، هو مجرد وهم وتضليل، فلا مساواة بين طرفين يملك أحدهما تعديل الوضع الراهن بالنسبة للآخر ، وينوى أن يفعل ، ويخطر الطرف الآخر بهذا الذى ينويه ، أى يهدده به . وقد حدث فى بداية حكومة سعد أن طلب تعديل القانون ٢٨ لسنة ١٩٢٣ الخاص بتعويضات الموظفين الأجانب لما رآه فى تلك التعويضات من مبالغة ، فرفض ماكدونالد وحذره من ذلك ، مما جعل سعدا يتراجع عن التعديل ويثير المسألة بمجلس النواب بعبارته الشهيرة ، أن ثمة فارقا بين أن تعلن بطلان شئ وجوره وبين أن تمتنع عن تنفيذه. واذا كان ماكدونالد لم تلن قناته فى تعويضات لبعض الموظفين، فكيف به يفعل بالنسبة للوجود البريطانى فى مصر، وكيف يمكن تصور وجود قاعدة عسكرية على أرض بلد ما بغير نفوذ سياسى على حكومة هذا البلد. وكان هذا المنطق واضحا لدى سعد منذ مفاوضاته مع ملنر على ما سلفت الاشارة، وهو لا شك كان مصدر تردده وشكه العظيم فى كل الصيغ الوسط التى طرحها عليه ماكدونالد كأساس للمفاوضة. فكان سعد يقرأها وعينه لا تغمض عن تحفظات تصريح ٢٨ فبراير.

والظاهر ثالثا، أن المسألة السودانية قد عمقت بها الفجوة بين الطرفين. ولماكدونالد مع جهاز المستعمرات البريطانية موقف حازم في ألا يتركوا السودان ولا يتخلوا عن مراكزهم به. وللوفد موقف حازم أيضا في أن استقلال السودان لا يتم استقلال مصر المبتغى إلا به. وزاد الفتق على الراتق بأحداث أغسطس ١٩٢٤، اذ خرج طلبة المدرسة العسكرية في ٩ أغسطس مخترقين الخرطوم وأم درمان يهتفون لعلى عبد اللطيف، واستقلال وادى النيل، وحياة مصر والسودان، وحياة ملك مصر والسودان وحياة سعد زغلول. فتصدت لهم أورطة انجليزية واستولت على ذخيرة المدرسة، وامتنع الطلبة عن تسليم أسلحتهم وهددوا باستعمالها اذا استخدم الانجليز معهم القوة. ثم خرجت أورطة السكة الحديد بعطبرة في مظاهرة قمعتها فصيلتان من الجيش فقتل عدد وأصيب عدد آخر فقررت حكومة السودان طرد أورطة سُكة حديد عطبرة المصرية من السودان واستجاب الرأى العام المصرى للاحداث بمظاهرات واسعة. وأصدر مجلس الوزراء المصرى بيانا وصف فيه الأحداث، وسجل انه ارسل إلى الحاكم العام يستعلم عن تفاصيلها، وانه أبلغ وزير مصر المفوض بلندن باحتجاجه على تلك التصرفات، وطالب بوقف المحاكمات وتشكيل لجنة مصرية سودانية لفحص

الحالة. فردت الحكومة البريطانية ببيان أعلنت به تأييدها لحكومة السودان فيما اتخذته من اجراءات لحفظ النظام، وأنها فوضتها فى ابعاد أورطة السكة الحديد وكل قوة أخرى يلزم ابعادها، وأنها تعتبر البرلمان والصحافة المصرية مسئولين عن تلك الحوادث. فردت حكومة مصر بأنها لا تعترف بأن حاكم السودان يتصرف فى الجيش المصرى هناك بدون رأيها، والحاكم العام هو سردار الجيش المصرى وهو موظف مصرى، ورفضت أن تكون حكومة السودان مطلقة التصرف باذن بريطانيا، فردت بريطانيا بأن أعادت فعلا أورطة السكة الحديد إلى مصر وعززت الحاميات البريطانية بالخرطوم.

بعث ماكدونالد إلى سعد محاولا وقف تدهور الموقف، وعبر عن رغبته في بحث تسوية للمسائل المعلقة، مع حفظ الأوضاع الراهنة بالنسبة لكل ما سيكون محلا للمفاوضة، واتهم حكومة مصر بأنها وراء أحداث السودان الأخيرة وانها مولتها، وأن الحكومة المصرية اذ تلقى تبعة تلك الاحداث على حكومة السودان انما تكشف عن سوء النية لديها، مما خيب أمل ماكدونالد فى التعامل «مع رجال شرفاء» يسعون إلى تسوية المسائل بوسائل شريفة مستقيمة. وذكر أن مصر تريد أن تصل إلى نتائج بغير مفاوضات. وأن الحكومة

البريطانية لا ترهبها تلك الوسائل التى تصير معها كل مفاوضة ودية مجرد حسن ظن في غير موضعه. فبعث اليه سعد من باريس فى ٢٩ أغسطس محتجا على ما نسبه لوزارته من تمويل للاحداث، وذكر أن الأحداث كانت رد فعل لحملة عرائض الولاء التى أوعزت بها بريطانيا، وانه اذا كان هناك رجال غير شرفاء فيسهل التعرف عليهم بالبحث عمن له مصلحة فى ابقاء الحالة الحاضرة. ثم لوح مهددا أن تلك الأحداث أضعفت أمله فى تحقيق الهدوء والطمأنينة بمصر بواسطة اتفاق صريح مع رجل صريح، ثم عبر عن رغبته فى إعادة حسن النية المتبادلة وتبديد السحب الكثيفة التى تمنع رجالا شرفاء من أن يتعرفوا على رجال شرفاء آخرين .. ورد ماكدونالد يأسف على عدم إمكان اجراء المفاوضات وإن كان يوافق على اقتراح سعد تبديد السحب ومحاولة اعادة حسن النية، واقترح لذلك موعدا هو ٢٤ سبتمبر، فرد سعد فى ١١ سبتمبر يعبر عن ارتياحه لرغبة ماكدونالد هذه ويقبل الدعوة ويحدد موعدا لوصوله إلى لندن ٢٣ سبتمبر ليكون تحت تصرف ماكدونالد فى ٢٥ سبتمبر (١٤٨). وأعلن سعد في باريس أن المفاوضات قد صارت مستحيلة وإن كان يوافق على إجراء مباحثات لتصفية سوء التفاهم(١٤٩).

بهذا تحولت آمال المفاوضة بين الرجلين، والتى تبادلا الترحيب فيها منذ توليا الحكم فى شهر واحد، تحولت إلى مباحثات لا يلتزم طرف فيها بوجهة نظر الطرف الآخر فى يوليو، ثم إلى مجرد مباحثات لتصفية سوء التفاهم، مع الادراك المتبادل أن المفاوضات قد صارت مستحيلة. وفى هذه الظروف الخشنة تقابلا.

٢

المشروع البريطانى

قبيل اجتماع ماكدونالد بسعد زغلول، عقد ماكدونالد اجتماعا فى ٢٣ سبتمبر مع السير لى ستاك حاكم عام السودان وبعض كبار موظفى ومستشارى الخارجية البريطانية هم، مستر بونسنبى، سير وليم تيريل، كولونيل شوستر، مستر سلبى، مستر موراى. وأهم ما يكشف عنه هذا الاجتماع، الموقف الشخصى لماكدونالد فى اطار السياسة البريطانية ازاء مصر والسودان، وهو موقف لا يبدو أنه يتناقض مع أسس تلك السياسة وان اختلف عنها فى أنه أقدر على الاعتراف بنقاط الضعف فيها وأقل حسما فى اقتراح المبادرات بشأنها. كما يكشف عن أن مسألة السودان كانت ذات الأولوية فى اهتمامهم جميعا فى ذلك الوقت اذ شغلت الوقت الغالب للاجتماع.

بدأ ماكدونالد حديثه بأنه يرى تصريح ٢٨ فبراير قد حرمه من أن يصل إلى اتفاق مرض مع الحكومة المصرية، اذ جعل مصر

بلدا مستقلا، فصارت كل محاولات البريطانيين للتدخل فى شئون مصر تقودهم إلى الخطأ. وحدد أن أهم نقطتين تناقشان مع سعد، هى تأمين المواصلات الامبراطورية ومسألة السودان. ولم تشغل المسألة الأولى أكثر من فقرة واحدة من حديثهم، ذكر فيها ماكدونالد أن تصريح ٢٨ فبراير ترك الحكومتين البريطانية والمصرية فى وضع شاذ، اذ منحت مصر استقلالها ولكن بقيت حامية بريطانية فى عاصمة البلاد، فبقيت الحكومة البريطانية مسئولة عن حفظ النظام وتحمل العبء عندما تسقط الحكومة المصرية، ومن ثم فهو يرى انه حان الوقت لالقاء تلك المسئولية عن عاتق البريطانيين وحصر مسئوليتهم فى نطاق حماية القناة والمواصلات الجوية الامبراطورية، ولكنه أثار ما قد تواجهه هذه الخطوة من معارضة من المصالح التجارية البريطانية والأجنبية، فعقب السير لى ستاك بأنها خطوة جديرة بأن تلقى تلك المعارضة، ولكنه أوضح أن ما يوفره وجود تلك القوات بالقاهرة من أمن يمكن الحكومة المصرية من القيام بمخاطر تهييج الرأى العام المصرى وإثارة المتاعب فى السودان، وأن عدم وجود تلك القوات بالقاهرة قد يحمل مصر على النكوص عن تلك المغامرات.

وأن تلك الملاحظة الوحيدة التى أبديت عن المسألة المصرية لتوضح، أن انسحاب القوات البريطانية من القاهرة، لم تكن

محسومة تماما فى السياسة البريطانية، لما ظنه ماكدونالد وما رجحه ستاك من معارضة المصالح الأجنبية والبريطانية للانسحاب، وهى المصالح التى أشير اليها فى التحفظ الثالث من تصريح ٢٨ فبراير، وهى المصدر الأساسى الذى يدعى به البريطانيون حقا لهم فى التدخل فى شئون الحكم والادارة المصرية، كما أن فكرة الانسحاب من القاهرة هذه، إنما التقى عليها كل من ماكدونالد وستاك لا بهدف الاعتراف بأن لا حق لبريطانيا فى التدخل فى شئون مصر، ولكن بهدف أن يتهدد النظام والأمن بمصر، وأن تتخلى بريطانيا عن مسئولية حفظ النظام فيها. ومن الطبيعى أن تكون الحكومة المصرية دون البريطانية هى المسئولة عن حفظ النظام فى بلدها، وكان هذا من أهم أهداف الحركة الوطنية المصرية ومن أسس الاستقلال المصرى. ولكن إثارة ماكدونالد وستاك لهذه المسألة بهذه الصورة، يبدو منها كما لو كان للسياسة البريطانية مصلحة، لا فى تخليها عن حفظ الأمن بمصر، ولكن فيما تصوراه مترتبا على ذلك من تهدد الأمن والنظام، مما يعيد إلى الذاكرة أحداث ١٨٨٢ عندما ساهم الانجليز والأجانب فى اثارة الاضطرابات وخاصة بالاسكندرية توطئة لاحتلال مصر بدعوى حماية الأمن وحفظ

النظام. ومن الطبيعى أنه لم يكن فى مقدور السياسة البريطانية إثارة الشعب ضد الحكومة المصرية وتحميلها نتائج هذا الشعب، ما دامت قواتها موجودة بالقاهرة ولها حق التنقل فى كافة الأقاليم. لقد كانت بريطانيا تسيطر على الحكومة المصرية قبل ١٩١٩ ، فكان وجود القوات البريطانية مما يضمن هذه السيطرة ومما يحفظ الأمن حماية لأعمال تلك السيطرة، فلما ترتب على تصريح ٢٨ فبراير ودستور ١٩٢٣، أن تولت حكم مصر حكومة الوفد الوطنية التى لا تخضع للسيطرة البريطانية، فقدت تلك القوات وظيفتها. أو على الأقل هددت بفقدها، من حيث ضمان السيطرة البريطانية على الحكم. ومن ثم فلن تعدو وظيفتها أن يثير وجودها حفيظة المصريين. وصار ما عسى أن يكون بقى عليها من مسئولية ولو فعلية عن حفظ الأمن، صار ذلك مما يخدم سياسة مصرية وطنية معادية لها.

وعلى الأقل فقد صار وجود تلك القوات بالقاهرة، مما يعوق السياسة البريطانية، عما قد ترى اللجوء اليه من أعمال الشعب ضد حكومة معادية لها. وقد جاء مقتل السير لى ستاك بعد هذا الاجتماع بأقل من شهرين، واتخذت السياسة البريطانية بعده من الاجراءات ما كشف إلى أى مدى كانت تتحرق شوقا إلى الشغب،

لتبرر استعادة ما تريد من نفوذها المتقلص، ودعم وجودها المهدد بمصر والسودان. وعلى أى حال فقد أرجأ ماكدونالد البت فى مسألة القوات البريطانية بمصر للرجوع إلى وزارة الحربية.

وبالنسبة للسودان، فقد حدد رئيس الوزراء هدفه الكامل ، بأنه اكتشاف صيغة اتفاق تبقى للانجليز حريتهم الطليقة غير المقيدة، وفي الوقت ذاته تمكنه من اجراء تنازل ما للحكومة المصرية. فعلق شوستر بأنه إزاء موقف الحكومة المصرية الحالى، فمن المستحيل ايجاد أى شكل من أشكال الاشراف الثنائي على السودان، واقترح كاشتراك مظهرى للمصريين فى حكم السودان أن تنشأ مجالس استشارية مشتركة، شريطة أن تجتمع فى لندن بعيدا عن البرلمان المصرى.

وتحدث ماكدونالد عن صعوبات الموقف البريطانى، التى تنجم عما أعلنته الحكومة البريطانية منذ الثمانينات من أنها تعمل بالسودان نيابة عن مصر ووكيلة عن حكومتها، على ما حدث فى فاشودة . وإن اتفاقية ١٨٩٩ لم تخول بريطانيا أكثر من نصيب فى إدارة السودان، فلم تقلل من كون السودان تركيا أو مصريا ولا جعلته بأى حال من الممتلكات البريطانية. فشرح له كل من شوستر وموراى بذلاقة لسان استعمارية أصيلة، ما غم على فكره

المستقيم من التواءات. باعتبار أن الاتفاقية سوت بريطانيا ومصر، فصارتا معا شريكتين أصليتين من الناحية النظرية، ولبريطانيا القدح المعلى عمليا. وهى إن لم تجعل السودان جزءا من الامبراطورية البريطانية، فقد فصلته تماما عن مصر فصار دولة متميزة تماما، وأن الاتفاقية صيغت على هذا النحو لمجرد الحرص على كرامة مصر.

ثم عرج الحديث إلى النقطة الأساسية، وهى رسم الخطة العملية التى يتعين على الانجليز اتخاذها بشأن السودان، فاقترح ستاك أن يطلب ماكدونالد من سعد فى لقائهما، رحيل مصر من السودان، بعد أن أنشأ سعد بمسلكه أوضاعا تجعل من المستحيل اشتراك البلدين فى حكم السودان. فذكر ماكدونالد أن هذا الاقتراح مما يصعب تبريره، وأبدى خشيته من أن إخراج جميع المصريين من السودان قد يحدث ثورة في مصر، وقد يستقيل سعد من الوزراء ولا ينجح الانجليز فى الحصول على وزارة مصرية تدير البلد «مع وجود كل موظف مصرى ضدنا». ولكن سيلبى إشارة إلى ما ظهر أخيرا من ضعف المقاومة المصرية، فان سياسة التشدد البريطانى لم تنتج رد فعل مصرى عنيف كما كان منتظرا. ولعله يقصد بذلك الاشارة إلى أن نفى

سعد زغلول فى ديسمبر ١٩٢١ لم ينتج العنف المصرى ذاته الذى أنتجه نفيه فى مارس ١٩١٩. وأن ما كان يخشاه اللنبى من استحالة حكومة مصر فى ١٩٢١، وهى الخشية التى دفعته ودفعت الحكومة البريطانية إلى إصدار تصريح ٢٨ فبراير، لم يتحقق بعد ذلك. على أن ماكدونالد رفض كلام سلبى مصرحا باستحالة الاعتماد على مثل ذلك الاستنتاج.

ثم أشار شوستر إلى أنه ما لم تظهر بريطانيا رفضا قاطعا لمطالب المصريين بالسودان فان الزعماء المحليين بالسودان سيحاولون الاتصال بمصر. ثم أشار إلى أن موقف حكومة سعد جعلت ولاء الموظفين المصريين بالسودان لحكومتهم المصرية متعارضا مع ولائهم لحكومة السودان. ومن ثم يصبح وجودهم وخاصة الجيش المصرى، مصدر خطر حقيقى. وأكد ستاك هذه النظرة، فذكر أن الجيش المصرى يحتفظ بولائه لمصر، وحكومة مصر تسئ لحكومة السودان، ومن ثم يستحيل منع انتشار الكراهية لتلك الحكومة، مما يهدد بخطر الانفجار فى جميع أنحاء السودان . وأطنب فى الدفاع عن اجلاء الجيش المصرى من السودان ووجوب تعزيز الحامية البريطانية هناك، مع تحويل المجندين السودانيين إلى قوات درك. فنبهه ماكدونالد إلى خطورة ما ينجم عن ذلك واحتمال أن تندلع ثورة لا يعلم متى تنتهى. وقال

أنه بفضل الاستمرار فى سياسة الاجلاء الفورى لأى فرد يظهر التآمر على النظام، فلا يلجأ للاجراء الشامل الذى يقترحه ستاك الا اذا ترتب على بقاء المصريين ثورة عنيفة. فعارضه ستاك قائلا ان الشر قد لا يكتشف الا بعد أن يستشرى، وأنه من الصعب الوصول إلى ما يدل على أن المصريين يثيرون السخط وسط كتائب السودانيين. ولم يكن ستاك يعلم أن مقتله بعد ذلك بأقل من شهرين هو الذى سيمنح الوزارة البريطانية المبرر لتنفيذ تلك الخطة التى دعا اليها بهذا الحماس .. وهى طرد الجيش المصرى عامة من السودان.

وفى النهاية أثار ماكدونالد التساؤل عما سيحدث عندما تنتهى مدة عمل السير لى ستاك، وترفض حكومة مصر تعيين خلف له ممن تختارهم بريطانيا. فقال ستاك ، كما لو كان يكتب بظهر الغيب وصيته، انه ندب من ينوب عنه كحاكم عام، ويمكن لهذا النائب أن يقوم مقام الحاكم العام حتى تصل الحكومتان إلى اتفاق. ولكن ماكدونالد أبدى تشككه فى قانونية هذا الاجراء (١٥٠) .

★★★

والوثيقة المهمة الأخرى التى لم تتح للجانب المصرى معرفتها والتى تعكس تفكير الجانب البريطانى، تتعلق بمشروع معاهدة

أعدته وزارة الخارجية البريطانية أثناء محادثات سعد - ماكدونالد في أول أكتوبر ١٩٢٤، وقد أعد حسب التعليمات الشفهية لماكدونالد. ويظهر من المذكرة التي قدم بها المشروع إلى ماكدونالد من الوزارة، أنه يمثل فحسب اطارا عاما للمعاهدة، وأنه يتضمن «أقل ما يكون من الترضية للاحتياجات البريطانية التي لا يمكن انقاصها بدون التفريط في القيود التي تفرضها هذه الاحتياجات على الاستقلال التام لمصر». ولم يقدر لهذا المشروع أن يعرض على سعد زغلول لأنه مبني على أساس بقاء قاعدة عسكرية بريطانية في مصر مما رفضه سعد في مباحثاته رفضا جازما.

تضمن المشروع معاهدة تحالف بين الدولتين، اذ تساعد بريطانيا مصر في الدفاع عن أراضيها ضد العدوان (مادة ١) وتمد مصر بريطانيا داخل الأراضي المصرية بكل التسهيلات والمساعدات التي يقدمها حليف أثناء حرب يشترك فيها كلاهما، وذلك في وقت توتر العلاقات، أو في حالة الحرب، حتى ولو لم تهدد وحدة الأراضي المصرية (مادة ٢). وقد أشر تعليقا على هذا النص، بأنه صيغ على نحو يعطي بريطانيا «سلطات واسعة ولكنها موضوعة على أن تمد الحكومة المصرية بالوسائل التي تبرر موقفها أمام النقاد الوطنيين..».

وتيسيرا لهذا التعاون تتعهد مصر فى جميع الأوقات وخاصة فى حالة احتمال الطوارئ :

(أ) بأن تحصل على موافقة بريطانيا لشراء الأسلحة والمعدات المطلوبة للقوات المسلحة المصرية بجميع أنواعها، وتشغيل غير المصريين.

(ب) تشغيل غير المصريين سواء الضباط أو المعلمين أو الموظفين الذين تراهم مصر ضروريين لتدريب العاملين بها عسكريين أو مدنيين.

(جـ) تؤجر إلى بريطانيا الأراضى الواقعة بين قناة السويس غربا وحدود مصر مع فلسطين شرقا، فضلا عن شبه جزيرة سيناء مقابل مبلغ نقدى.

(د) «عمل الترتيب لما يتخذ من الاجراءات الوقائية التى تعتبر ضرورية لحماية الأراضى المصرية»، وذلك فى حالة توتر العلاقات بين بريطانيا وأية دولة أخرى (مادة ٣) . وقد أشر تعليقا على هذا النص أنه موضوع لمنع الجيش المصرى والادارة المدنية المصرية من الخضوع لنفوذ أجنبى، وأن تأجير الأراضى المصرية شرق قناة السويس يتضمن فيما يتضمن السيطرة على سكة حديد القنطرة - رفح ذات الأهمية الكبرى لدى وزارتى الطيران

والمستعمرات، وأن البند الأخير يتضمن ضرورة الرقابة البريطانية على البريد والبرق.

وفضلا على ذلك تسمح مصر لبريطانيا باستخدام المطارات والتجهيزات اللاسلكية ومصانع الغاز غربى قناة السويس، فضلا عن التسهيلات اللازمة فى الموانىء والمطارات والاعفاءات الجمركية والتنقل والنقل بالسكك الحديدية (مادة ٤). وفى مقابل ذلك توافق بريطانيا ألا تبقى قوات بريطانية فى الأراضى المصرية الا فى الأراضى المحددة بالمادة الثالثة، والا فى الظروف الموضحة بالمادتين الأولى والثانية ، وتجلو عن القاهرة خلال عامين، وعن ثكنات مصطفى باشا بالاسكندرية خلال خمسة أعوام ، وعن مطار أبو قير ومخيمات المعسكر فى عشرة أعوام. وأن ما ستتخلى عنه بريطانيا من أراض وثكنات ومبان ومصانع بما فيها محطة أبو زعبل اللاسلكية فتستولى عليها مصر بقيمة تقدرها لجنة مشتركة (مادة ٤ , ٥).

وتضمن أن يكون التمثيل السياسى بين مصر وبريطانيا بدرجة سفير، وأن تتعهد مصر بألا يكون تبادلها التمثيل السياسى مع البلاد الأخرى بأعلى من درجة وزير مفوض (مادة ٦) . وأن تتعهد مصر بتعويض الموظفين الاجانب وفقا للقانون ٢٨ لسنة ١٩٢٣ فضلا عن ضمانات أخرى لهم (مادة ٧).

وبالنسبة للسودان تضمن المشروع اتفاقا بين البلدين على «تحسين مصالح السودانيين واستقلال البلاد النهائى» بضمان استمرار النظام القائم بمقتضى اتفاقية ١٨٩٩ الذى لا يعاد النظر فيه الا بعد خمس وعشرين سنة، وأن يكون الدفاع عن السودان بواسطة قوة سودانية تحت قيادة الحاكم العام، تلحق بها كتيبة بريطانية وأخرى مصرية، ويفوض مجلس عصبة الأمم بتقرير ما يضمن حقوق المصريين فى مياه النيل وتقدير ديون مصر على السودان (مادة ٨ . ٩). وأشر أمام هذين النصين أنهما لا يكفلان فقط استمرار الوضع القائم ولكن تحقيق الغرض النهائي وهو استقلال السودان مع اطلاق سلطة الحاكم العام.

وورد بالمذكرة التى أرفق بها المشروع، أن ثمة ثلاث نقاط لم تذكر بعد بالمشروع رغم أهميتها الكبيرة، وهى:

(أ) استبعاد خطوط الكابلات الأجنبية من الرسو بمصر بمد احتكار الشركة الحالية التى ينتهى امتيازها فى ١٩٣٢.

(ب) تأمين الفنارات المصرية على البحرين الأبيض والأحمر وتزويدها بموظفين يعتمد عليهم.

(جـ) مدى خضوع القوات البريطانية غرب القناة للسلطان القضائي ولسيادة الدولة المصرية. (١٥١).

من هذا المشروع تتضح نوايا حكومة ماكدونالد كاملة ازاء المسألة المصرية. ويتعين النظر إلى هذا المشروع فى ضوء ملاحظتين وردت احداهما فى المذكرة المرفق بها، والأخرى فى الملاحظات المسجلة عليه، وهما أن المشروع يتضمن الاطار العام فقط والحد الأدنى الذى لا يمكن النزول عنه، وأنه صيغ ليمنح بريطانيا سلطات واسعة، ولكنها مصوغة بشكل يمكن حكومة مصر من أن تبرر موقفها أمام نقد الوطنيين لها. وأن هاتين الملاحظتين، فضلا على معناهما الصريح، فهما يعنيان أن المشروع مصوغ على نحو يمكن فى التطبيق من تحريك أحكامه بطريقة تلائم مصالح من أعدوه، بمعنى أنه مصوغ بطريقة بعيدة عن موجبات حسن النية بين الطرفين.

وفى هذا الضوء يمكن ملاحظة:

أولا: أنه أقام حلفا دائما غير مقيد بمدة، ووجودا عسكرياً غير مقيد بمدة وسيطرة رسمية على شرق قناة السويس غير مقيدة بمدة ما.

والملاحظ ثانيا: أنه جعل أساس الوجود العسكرى البريطانى فى شرق قناة السويس وهو وجود يمتد إلى غرب قناة السويس امتداداً غير محدد تحديدا جغرافيا وإن كان يجد حدوده فى

الاستفادة الدائمة المنظمة بالمطارات والموانىء والسكك الحديدية ومحطات اللاسلكي أي كل المرافق وقنوات الاتصال، كما أن هذا الوجود العسكرى يتسع ليمثل مصر كلها كمجال لنشاط القاعدة العسكرية يتسع ليشمل مصر كلها كمجال لنشاط القاعدة العسكرية لا فى حالة الحرب التى تكون بريطانيا طرفا فيها فقط، ولكن فى حالة وجود توتر ما في العلاقات بين بريطانيا وبين أية دولة أخرى، ولو لم تهدد الأراضى المصرية. وبهذا تكون المواد ١، ٢، ٤، ٥ قد غطت التحفظين الأول والثانى من تصريح ٢٨ فبراير. واذا كان مشروع كيرزون في ١٩٢١ لم يعترف بمبدأ انحصار القاعدة العسكرية البريطانية فى أماكن محددة (مادة ١٠) مما يجعل مشروع ماكدونالد أصلح بلا شك للمصريين منه، فإن مشروع ملنر الأول (١٧ يوليو ١٩٢٠) كان سلم بمبدأ تحديد المكان أو الأمكنة التى تعسكر فيها القاعدة وأحال فى تحديدها إلى اتفاق لاحق (مادة ٣). وجاراه فى ذلك مشروع ملنر الثانى (١٨ أغسطس ١٩٢٠) فى المادة ٤. أما مشروع الوفد إلى ملنر (١٧ يوليو ١٩٢٠) فقد وافق على وجود القاعدة وحصرها فى الشاطئ الشرقى من قناة السويس ويجرى تحديدها بواسطة لجنة مشتركة (مادة ٨). ومن ثم فإن مبدأ تحديد مكان القاعدة معترف

به فى مشروعى ملنر وإن لم يجر تحديده جغرافيا. على أن مشروع الوفد حصرها فى مكان محدد على الشاطئ الآسيوى لقناة السويس، بينما أتى مشروع ماكدونالد ليخضع القسم الآسيوى من الأراضى المصرية كله للسيطرة البريطانية دون اكتفاء بقاعدة محددة فيه. أما حق استعمال الموانىء والمطارات وطرق المواصلات فى كل الأوقات لا فى وقت الحرب فقط، فقد ورد بمشروع ملنر الأول ومشروع كيرزون، وأشير اليه فى مشروع ملنر الثانى (الذى اتخذ شكل مذكرة لا شكل مشروع متكامل) بعبارة «وتسوى ما تستتبعه من المسائل التى تحتاج إلى تسوية».

بهذا يظهر أن تحديد مكان القاعدة العسكرية البريطانية فى مصر كان أظهر فى مشروع ماكدونالد منه فى المشروعات البريطانية الثلاثة السابقة عليه، ومن ثم كان أصلح للمصريين منها، وإن كان أقل صلاحية من مشروع الوفد إلى ملنر، وقد عوض البريطانيون هذا التنازل بما أشير اليه من حقهم فى استعمال بعض المرافق كأجهزة اللاسلكى واحتكار خطوط الاتصال الخارجية. وفضلا على ذلك استعاضوا عن تنازلهم هذا بما ورد بالمادة ٢ من المشروع، بأن تقدم مصر اليهم كل تسهيل ومساعدة لا فى حالة الحرب أو التهديد بها فقط ولكن فى حالة

«توتر العلاقات»، وهى عبارة لم ترد فى أى من المشروعات السابقة وتتيح للجانب البريطانى - إن واتته الظروف السياسية - أن تتحول حالة التوتر هذه إلى حالة دائمة فى صدد تنفيذهم للاتفاقية.

والملاحظ ثالثا، ان مشروع ماكدونالد أسقط ما سبق أن ورد بمشروعى ملنر ومشروع كيرزون فيما يتعلق بالمستشارين المالى والقضائى ، وهو نهج لا شك فى أفضليته للمصريين من نهج المشروعات السابقة. وهو نهج فرضه على الجانب البريطانى أن مشروعه هو أول مشروع يصاغ بعد تنفيذ تصريح ٢٨ فبراير الذى اعترف باستقلال مصر، وبعد صدور دستور ١٩٢٣ الذى أقام نظاما برلمانيا يتعارض مع أية سلطات تخول لمستشارين بريطانيين على الحكومة المصرية فهذا التنازل يعتبر أثرا من آثار تصريح ٢٨ فبراير. على أن المشروع حاول فى المادة ٣ منه أن يفتح نافذتين يطل منهما الانجليز على أجهزة الحكم المصرية، الأولى اشرافهم على الأسلحة والمعدات الخاصة بالجيش المصرى، والثانية اشرافهم على تشغيل غير المصريين فى الحكومة المصرية، سواء كانوا فى القوات المسلحة أو فى جهاز الحكومة المدنى. وكانت مصر فى ذلك الوقت فى حاجة ماسة إلى الخبرات الأجنبية

سواء بالنسبة لتطوير الجيش واعادة بنائه، أو بالنسبة لبعض فروع الخبرة فى الأعمال المدنية. كما أن قيام الامتيازات الأجنبية كان يفرض عليها اتصالا بالأجانب ضمانا لتلك الامتيازات ولديون الأجانب على مصر، مما كان من شأنه عندما يثار أن يتيح للانجليز التدخل فى هذه المسألة.. ومن ثم فإن المادة الثالثة هذه تتعلق بالتحفظ الثالث من تحفظات تصريح ٢٨ فبراير الخاصة بحماية الأجانب والأقليات فى مصر.

والملاحظ رابعا، أن المشروع أسقط ما ورد فى المشروعات السابقة من قيود تتعلق بسياسة مصر الخارجية وعلاقاتها مع الدول الأخرى، والاشراف البريطانى على تلك السياسة ولكن وجود القاعدة العسكرية مع اتفاقية التحالف مع الاشراف على توظيف الأجانب بمصر كان من شأنه أن يضمن للانجليز فى الواقع ما لم يرد بالمشروع صراحة فى هذا الشأن. وفضلا عن ذلك فقد صيغ الوضع الممتاز لبريطانيا فى مصر الذى حرصت المشروعات السابقة على تأكيده، صيغ فى شكل أكثر لياقة وهو أن يكون التمثيل السياسى بين البلدين هو التمثيل الوحيد لمصر الذى يتم على مستوى السفراء.

والملاحظ خامسا، أن المشروع تضمن بالنسبة للسودان ما لم يرد فى المشروعات السابقة كلها من تأكيد اتفاقية ١٨٩٩ التى

كان ينادى المصريون ببطلانها، ومن اطلاق سلطات الحاكم العام وتأكيد هيمنته على أجهزة الحكومة بالسودان، حتى ولو لم يكن هو ذاته سردار الجيش المصرى مما سبق أن نصح به تقرير لجنة ملنر، ومن تقلص الوجود المصرى العسكرى بالسودان بقصره على كتيبة واحدة، ومن اقرار مصر صراحة بفصل السودان عنها تحت عبارة «استقلال السودان»، بما كان يعنى فى ضوء أحكام الاتفاق كلها استقلال السودان تحت السيطرة البريطانية المنفردة، أى فصله عن مصر لصالح بريطانيا.

أما بالنسبة لجلاء القوات البريطانية من القاهرة وثكنات الاسكندرية، فقد سبقت الاشارة إلى ما ورد على لسان ماكدونالد وستاك فى اجتماع ٢٣ سبتمبر بالنسبة للدوافع البريطانية من هذا الجلاء.

وفى ضوء تلك الملاحظات جميعا، فإنه يظهر من جهة، أن المشروع كان أفضل للمصريين من كل المشروعات البريطانية السابقة عليه، وهو مشروع جرى اعداده بعقلية تصريح ٢٨ فبراير، وصيغ على نحو يتناسب من حيث الشكل مع ما يليق بدولة معترف باستقلالها وليست تابعة ولا محمية. وهذا وجه خلاف بينه وبين سوابقه. كما أنه صيغ بلهجة سياسية مهذبة تليق بكونه يقدم

إلى زعيم معترف به في بلده وشعبه، زعيم مرهوب الجانب قاد ثورة من قبل، وله القدرة على تفجيرها من جديد والاضرار بمصالح الطرف الآخر. وذلك على عكس ما عومل به عدلى يكن ، تماماً ، على ما تؤكد المقارنة بين عدلي وسعد فى هذا الشأن.

ويظهر من جهة ثانية : أن المشروع قد خطط بأسلوب التنازل عن كل التفاصيل والاعراض من أجل المحافظة على الجوهر. والجوهر هو وجود القاعدة العسكرية. وقد سبقت الاشارة فى بدايات هذه الدراسة، إلى أنه لا ضمان لوجود القاعدة العسكرية فى بلد ما الا بالتأثير على سياسة هذا البلد وحكومته، كما أن القاعدة العسكرية تفقد وظيفتها الرئيسية، وهى الوظيفة السياسية لها - اذا لم يستطع وجودها أن يكفل سيطرة على سياسة هذا البلد . وحتى لو اقتصر هدف الانجليز على حماية طرق مواصلاتهم، فليس هذا الهدف محصورا فى قناة السويس بل يمتد عبر الأراضى المصرية عامة. وحتى لو اقتصروا على قناة السويس، فليس للقناة وجود عمرانى مستقل عن مصر وعن وادى النيل من حيث ضرورات الحياة ولوازم العمل والنشاط. ويستحيل وجود القاعدة العسكرية الا ممتدة إلى القاهرة والا شائعة فى السياسة عبر الأراضى المصرية عامة . وقد سبق ايضاح مسالك هذا الامتداد التى رسمها المشروع من خلال المواد ٢ ، ٣ ، ٤

منه خاصة . على أن تحصن الجانب البريطاني في مسألة القاعدة العسكرية أساسا ، قد أعدم مجال المناورة والأخذ والعطاء بين الطرفين . فالانجليز ارتدوا الى ما ليس في نيتهم التفريط فيه ، والمصريون أعلنوا على لسان سعد مرارا أنه «لا مناسبة بين الاستقلال والاحتلال» . كما أن تمسك الانجليز بالسودان على هذا النحو المتصلب أعدم فرص اللقاء أيضا .

بقيت نقطة في التعقيب على هذا المشروع ، ماذا كان يمكن للحركة الوطنية المصرية أن تكسبه لو قدر أن عرض المشروع على سعد وقبله ؟ يمكن القول بأن هذا المشروع لو كان عرضه ملنر أو كيرزون قبل تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ لكان له شأن غير مشروعات هؤلاء . ان التحفظات التي قدمها الوفد المصري على مشروع ملنر الثاني ، تعلقت بإلغاء الحماية صراحة وبالامتيازات الأجنبية والمستشارين المالي والقضائي وبانطلاق حرية مصر في عقد الاتفاقات التجارية والاقتصادية وعقد الاتفاقات السياسية بما لا يضر بالمصالح البريطانية . فضلا على ضمان مياه النيل وسيادة مصر على السودان . وفيما عدا وضع السودان . فلا شك أن مشروع ماكدونالد بعد الاعتراف باستقلال مصر والغاء الحماية ، أحسن ، بما لا يقارن ، من مشروع ملنر لو عدل حسب التحفظات المصرية .

على أن تلك المقارنة لا تصلح أن تكون المقارنة الأساسية ، فقد جرت مياه كثيرة بعد مشروع ملنر ، لصالح الحركة الوطنية . وأهم تلك التغييرات أن العنصر المعتدل الذى كان يمثل الغالبية فى قيادة الوفد ، قد صفى من قيادة الوفد مع بقاء الوفد محتفظا بشعبيته الكاملة .. انما يلزم أن يجرى تقدير المشروع اعتبارا من تصريح ٢٨ فبراير خاصة . لقد سبقت الاشارة فى صدد تقييم هذا التصريح ، أن مصر حصلت به على الغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال ، وأعطى الانجليز هذا التنازل ليتقاضوا ثمنه فيما بعد. وكانت خطة الوفد أنه حق استرد لا يؤدى عنه ثمن ، لذلك أصر على موقف رفض التصريح قاصدا رفض ما اشتمل من تحفظات ، ووصم قابلى التصريح من المصريين بالخيانة ، لأن قبولهم له لا يعنى الا قبول التحفظات ، أى قبول القيود التى وضعها الانجليز على استقلال مصر . بينما رفض التصريح هو خير موقف يمكن به تخليص الاستقلال من التحفظات ، واستخلاصه مما علق به من قيود . وبهذا نظرت الحركة الوطنية الى عرض ماكدونالد ، كبلد مستقل يحتله الانجليز ، لا كبلد محمى . فى عهد الحماية – قبل التصريح – كان الوطنى المصرى يطلب تحقيق الاستقلال التام ، أى الغاء الحماية واجلاء الاحتلال

البريطاني معا . ولكنه كان كمفاوض ومساوم ، يعرض أن يعترف بوجود قاعدة عسكرية محدودة الزمن والمكان (مشروع الوفد ١٧ يوليو ١٩٢٠) مقابل أن يحصل على الغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر . أما بعد أن حصل على هذا الالغاء والاعتراف ، فهو لم ينس أنه مطالب باستقلال تام يتضمن الجلاء التام عن أرضه ، وهو لا يؤدى ثمنا عن حق استرده ، لذلك اتخذ فى مفاوضاته ومساوماته وضعا جديدا جديرا بموقفه المستقل ، وهو أن يعرض معاهدة تحالف مشترك بين مصر وبريطانيا فى حالة الحرب ، مقابل أن يحصل على الجلاء التام . وكان هذا موقف سعد فى مباحثاته مع ماكدونالد . وبالنسبة للمسألة المصرية .

أما بالنسبة للسودان ، فقد كان مشروع ماكدونالد من وجهة النظر المصرية ، جديرا بأن ينظر اليه باعتبارهترديا وانحدارا عن أى موقف سابق . لأنه كان يعنى صراحة فصل السودان تماما عن مصر لصالح الانجليز لا لصالح السودانيين . وقد سبقت الاشارة الي أن الوجود البريطاني فى السودان كان مما ترى فيه الحركة الوطنية المصرية قيدا خطيرا وتهديدا حالا لاستقلال مصر ذاتها ولسياستها كبلد مستقل .

لذلك فإن السؤال يتبلور فى أنه ، ماذا كانت تكسب مصر من مشروع ماكدونالد أكثر مما كسبته من تصريح ٢٨ فبراير ؟ .. كانت ستكسب جلاء للقوات البريطانية عن القاهرة والاسكندرية (على مدى زمنى من عامين الى عشرة) ، مقابل اعترافها وتسليمها بشرعية الوجود العسكرى البريطانى الدائم والتحالف الدائم ، ومقابل تسليمها السودان للانجليز تسليما شرعيا أيضا . يمكن القول بأنها كانت ستكسب اسقاط النص على الاشراف البريطانى على الحكومة المصرية من خلال المستشارين المالى والقضائى . ولكن تلك المسألة لم يكن من شأن مشروع ماكدونالد أن يحقق للمصريين فيها كسبا كبيرا ولا حاسما ، لأن اغفال المشروع لهما لا يفيد يقينا تفريطا بريطانيا فيهما . ويمكن أن يعود الانجليز الى التمسك بهما عن طريق مناورات سياسية دولية أوسع مع الدول صاحبة الامتيازات . وقد سبقت الاشارة الى أن المشروعات البريطانية الثلاثة السابقة ، كانت تربط بين هاتين الوظيفتين وبين مسألة الامتيازات الأجنبية . ويمكن أن تثيرها مع حكومة مصرية أخرى غير حكومة الوفد . كما سبقت الاشارة الى ما منحته المادة ٣ من مشروع ماكدونالد من نوافذ على أجهزة الحكومة المصرية ، وهى نوافذ يمكن أن تضيق وأن تتسع حسب موازين

القوى والصراعات المستقبلة . وفضلا على ذلك فإن وظيفتى المستشارين المالى والقضائى ، قد صارتا محاصرتين من الجانب المصرى بعد تصريح ٢٨ فبراير والعمل بدستور ١٩٢٣ ، بحيث صارت الحركة الوطنية المصرية تملك بعد توليها السلطة وفى ظروف سياسية مواتية أن تصفيهما بإرادتها هى . بمعنى أن هاتين الوظيفتين صارتا خاضعتين لحصيلة الصراع الديمقراطى بين القوى السياسية المصرية . فلم يكن مشروع ماكدونالد مما يفيد مصر كثيرا فى هذا الصدد . وبهذا تصير الحصيلة النهائية للمشروع ، هى الجلاء عن القاهرة والاسكندرية وغيرهما من الأراضى المصرية غرب القناة ، مقابل الاعتراف بالقاعدة الدائمة شرق القناة ، ومقابل التحالف الدائم وامتداد الوجود العسكرى البريطانى الى كل اراضى مصر فى حالة «توتر العلاقات» ، ومقابل تسليم السودان نهائيا للانجليز .

واذا كان الوفد والحركة الوطنية قد قبلا عروض ماكدونالد ووافقا على مشروعه بعد عرضه ، فلا شك ان حزب الحركة الوطنية كان خليقا به أن يسلك فى تنفيذ الاتفاقية مسلكا يتفق مع المصالح المصرية وفرض القيود على الأطماع البريطانية ، وذلك فى اطار تنفيذ الاتفاق .

ولكن هل كان الوفد يبقى على قوته بعد الاتفاق واحتمال ظهور معارضة وطنية قوية له . وهل كان الانجليز يحرصون على بقائه ويحتملون تشدده فى التنفيذ معهم ، أم كانت وظيفته لديهم أن يستخلصوا منه توقيعه على الاتفاق فحسب ، فإن خضع لهم فى التنفيذ بعد ذلك بقي ، وإن تشدد عاد الاحرار الدستوريون على أنقاضه يرثون تركته . ان الاتفاق لو كان تم لكان من شأنه أن يؤثر فى التوازنات الداخلية وفى حصيلة الصراع الديمقراطى داخل مصر بما لا يضمن معه أن يجرى تنفيذ الاتفاق بعد ذلك بتفسيرات تحقق المصالح المصرية الوطنية .

٣
بين سعد وماكدونالد

التقى سعد زغلول رئيس وزراء مصر ، ورامزى ماكدونالد رئيس وزراء بريطانيا ووزير خارجيتها فى صباح ٢٥ سبتمبر ١٩٢٤ .. بدأ الحديث بتبادل الأسف حول ما وقع من أحداث أبعدت روح التفاهم ، وتبادل العزم على اعادة حسن النية ، ثم عرج ماكدونالد على الفور الى موضوع السودان ، الذى استنفد الجلسة كلها . بدأ بنقد ماكدونالد لسعد عن تصريحاته بالبرلمان فى شهر يونيو التى رأى ماكدونالد أنها أغلقت الباب الى حد ما دون الاتفاق ، فرد سعد بأن تصريحاته ليست جديدة فهى تعكس طلبا مصريا دائما باستقلال السودان . ثم انتقل الحديث الى القاء كل طرف مسئولية أحداث السودان الأخيرة على الطرف الآخر ، سعد يتهم حكومة السودان بالعداء لمصر ، وماكدونالد يتهم حكومة مصر بتمويل «الاضطرابات» فى السودان . ثم انتقل الى بيان الحكومة المصرية فى أغسطس ورد الانجليز عليه ورسالة ماكدونالد الى سعد التى أشار فيها الى أن الحكومة غير شريفة ،

وعمل سعد على محاصرة ماكدونالد ليعترف بخطئه عن استخدامه هذا التعبير ، حتى اضطر ماكدونالد بعد لأي أن يؤول عبارته بأن كان القصد منها ان البلاغ غير أمين . وانتهى الاجتمـاع الأول على غير طائل . وأهم ما يلحظ عن هذا الاجتماع ، أن سعدا وان أبدى صلابة شديدة ازاء وجهة النظر البريطانية ، وشجاعة واضحة في ادانة السياسة البريطانية في السودان . فإن هذا الموقف كان ظاهره القوة وباطنه الضعف ، لأنه استغرق في مناقشة أحداث السودان الأخيرة ، دون أن يظهر أن ثمة رؤية سياسية مستقبلية تهديه في موقفه العملي ، ويحاول طرحها في النقاش . وكما غلب على تصريحاته السودانية في يونيو السابق طابع الحديث المجرد عن الحقوق ، يغطي به غموض الأهداف العملية ، غلب على حديثه مع ماكدونالد الاستغراق في مناقشة الأحداث التفصيلية ، يغطي بها أيضا فيما يبدو غموض الأهداف السياسية العملية . فكان محاميا يقف عند حدود التفاصيل الجزئية أكثر منه سياسيا يستشرف المسالك العملية ، واهتم بتقديم الحجج لا بطرح الحلول . والحق أن ماكدونالد كان هو من حاول أن ينقل الحوار الى مجال رسم السياسة المستقبلية ، فتحدث عن الوضع الرسمي للسودان والحكم المشترك ، وعن

الوضع العملى له والسيطرة البريطانية ، وأن التغييرات التى حدثت فى مصر تستوجب اعادة النظر فى العلاقات بالنسبة للسودان ، وأن أحداث السودان الأخيرة شكلت أزمة فى غير أوانها ، وأن المشكلة المطروحة هى كيف تستمر بريطانيا فى الوفاء «بما تعتقد أنه التزاماتها الأدبية نحو السودانيين» (أى السيطرة على السودان) مع ارضاء الحكومة المصرية فى الوقت نفسه . فأبدى سعد استعداده للحديث فى هذه المسائل ، بشرط أن يعرف أن «سوء الفهم بينه وبين رئيس الوزراء قد زال تماما» ثم عاد الى الحديث عن تفاصيل الأحداث الأخيرة (١٥٢) .

والحاصل فيما يبدو من مطالعة محاضر تلك الجلسات ، أن سعدا لم يكن على استعداد للتعرض فى مباحثاته لأسس المسألة السودانية . وبعد انتهاء الاجتماع أرسل ماكدونالد الى سعد خطابا يحدد فيه موعد الاجتماع الثانى ، ويوضح أنه يلزم فى هذا الاجتماع أن «تعالج أولا المشاكل الرئيسية» وأنه يستحيل عليه الموافقة على أى اقتراح «يتعارض مع التعهدات التى تقدمها الحكومة البريطانية للسودانيين» (١٥٣) . فاستثار هذا الخطاب فى سعد حذره التقليدى من فرض أى قيد على حرية المباحثات ، معبرا عن استحالة تفاوضه على أى أساس مقيد (١٥٤) فرد عليه ماكدونالد مصححا ما فهمه سعد (١٥٥) .

وفى الاجتماع الثانى فى ٢٩ سبتمبر ، وبعد حديث سريع عن تفسير ماكدونالد لقصده من خطابه السابق ، أعاد ماكدونالد طرح مسألة السودان فعاد سعد يتحدث عن «ازالة سوء الفهم» ، وألح سعد على هذه المسألة مما أدى بماكدونالد الى توجيه تساؤل مغيظ اليه عما «اذا كانوا فعلا يتكلمون عن أشياء جوهرية أم أنهم فقط يحومون حول الموضوع» . وقرر أنه راض أن يترك مسائل «سوء الفهم» تلك فى وضعها ، فوافقه سعد الا فيما ورد بكتاب ماكدونالد الأخير عن السودان ، فنبهه ماكدونالد الى أن السودان نقطة مفاوضة ، وليست نقطة سوء تفاهم ، فذكر سعد أنه صار مستعدا تماما لبدء المناقشة . فلما طلب ماكدونالد مناقشة مسألة السودان بصفتها المسألة العاجلة المتفجرة ، أصر سعد على البدء بالحديث عن مصر ، واستغرق النقاش حول هذه النقطة وقتا ، تمسك فيه سعد بوجوب البدء بمصر حتى وافقه ماكدونالد على مضض ، مع تنبيهه سعدا الى أن مسألة السودان لا ينبغى أن تترك معلقة لأن الموقف بشأنها يعالج من يوم لآخر .

وهكذا علقت مسألة السودان فى مباحثات الرجلين . لم يشتمل الحوار بشأنها على أى مغزى سياسى مهم . وإذا كان يبدو من هذا الموقف أن سعدا لم يكن لديه ما يقوله عن السودان ، وأنه

كان ينظر الى المسألة السودانية كأمر مرجأ ، لا تثور المفاوضة بشأنه الا بعد تصفية المسألة المصرية تصفية تقبلها الحركة الوطنية المصرية ، فإن هذا الموقف قد أضاف شاهدا الى ما سبق ايضاحه من شواهد ، عن غموض الفكر السياسى المصرى وتضاربه بشأن المسألة السودانية . وأنه لم يستطع فى ذلك الوقت أن يصل الى تحديدات عملية لا للوسائل ولا للأهداف . ولم يكن مرجع هذا الموقف الى مجرد ضعف فى قدرات سعد زغلول على المفاوضة ، بل لعل اصراره على ارجاء هذه المسألة كان مستهدفا لافتقاده وضوح الرؤية بشأنها ، واتباعا لصيحته فى نواب الحزب الوطنى من قبل «لا تكشفوا عن ضعف الأمة» ، على أنه ان كان يقصد بمجلس النواب وقتها الاشارة الى ضعف الأمة فى الوسائل المادية (العسكرية) ، فإن حقيقة ضعفها فى هذه المسألة كان يتعلق بالوسائل السياسية عامة ، مما سبقت الاشارة اليه ، بدليل أن سعدا لم يستعمل هذه العبارة قط فى حديثه ، عن المسألة المصرية ، بل على العكس يتحدث عن قوة الضعفاء باتحادهم ، أى القوة السياسية للضعفاء عسكريا .

ولم يقدر لسعد زغلول أن يطالع مشروع الاتفاق البريطانى الذى سبقت الاشارة اليه ، ولكن من الراجح أنه كان يدرك نوايا

البريطانيين تماما بشأن السودان حسبما بلورها هذا المشروع ، وأن ماكدونالد لم يترك هذه النوايا خفية في اشاراته العابرة خلال المباحثات . وعلى ذلك فلا يبدو لمطالع التاريخ اليوم أن سعدا قد قصر كمفاوض في اصراره ارجاء الحديث عن السودان ، لأن طرح المشكلة كان خليقا بقيام مواجهة بين الطرفين ليس في مقدور أيهما حلها . وكان خليقا بالمفاوضة أن تفشل كما فشلت فعلا ، ولكن قبل الحديث عن المسألة المصرية . وقد أوضح ماكدونالد في هذا الاجتماع أن فشل المباحثات في إحدى المسألتين سيعرقل الاتفاق كله .

انتقل الحديث الى مصر ، وهنا وقف سعد على أرضه ، قويا واضحا مصادما لا يتهرب ولا يلتوى . بدأه ماكدونالد بالسؤال عما يطلبه ، فأجاب سعد بأن الدار داره وأن مصر للمصريين ، فما عسى أن يطلب ماكدونالد . فقال ماكدونالد ان ثمة أمرا واقعا وسعد يريد تغييره فماذا يريد ، فقال سعد ان الأمر الواقع شاذ وأنه يريد استقلال مصر . ثم عرضا لعناصر المسألة ، فسأله ماكدونالد عما يريد بالنسبة للموقف العسكرى ، فأجاب «أن للبريطانيين جيشا في مصر وأنه يريد انسحابه» ثم «ألا تمارس الحكومة البريطانية أى نوع من الرقابة على الحكومة المصرية» ،

وأن المستشارين المالى والقضائى شأنهما كشأن الجيش يتعين سحبهما ، ثم ألا تقيد علاقات مصر بالدول الأجنبية بالاعلان البريطانى الى هذه الدول فى ١٥ مارس ١٩٢٢ ، وأن يكون ممثل بريطانيا كغيره من الدبلوماسيين ، ثم أن تتنازل بريطانيا عن دعواها حماية الأجانب بمصر والأقليات وقناة السويس . هنا توقف ماكدونالد واستعاد سعدا : هل يقصد ألا تتدخل بريطانيا فى حماية القناة ، فأجاب سعد «اطلاقا» ، فعلق ماكدونالد أنه يأسف لسماع ذلك ، فرد سعد أنه يأسف هو أيضا ؛ «أليست القناة أيضا فى مصر» .

هكذا كان طريق «المطالب المصرية» طريقا مغلقا فى وجه الاتصال المصرى البريطانى ، ولكن بقى طريق «المطالب البريطانية» . ومن هنا كان سعد محقا كمفاوض فى أن يقترح فى البداية طرح الموضوع من وجهة المطالب البريطانية ، لولا أن ماكدونالد أصر على البداية من «الأمر الواقع» أى الوجود البريطانى بمصر . فلما بلغت المطالب المصرية إلى حد رفض سعد حماية بريطانيا لقناة السويس ، «اطلاقا» ، انتقل ماكدونالد الى فكرة معاهدة التحالف والرباط الوثيق بين بريطانيا ومصر ، وذكر أنه عندما مر بمصر أبدى من قابلهم من رجال الوفد استعدادهم

لتلك المعاهدة ، فأجابه سعد «أنه يريد مخلصا أن يعقد تحالفا خاصا مع بريطانيا العظمى» ، فوجد ماكدونالد فرجة في الجدار المصمت ، بعد أن استعاد سعدا فى مبدأ التحالف فأعاد عليه سعد موافقته ، وذكر أن مثل هذا التحالف يكفل ضمانا كافيا للبلدين ضد مخاطر تهدد المواصلات الامبراطورية وغزو مصر وما شابه ، وأن أول ما يتعين عمله هو الوصول الى أساس لهذا التحالف . وبعد أن تحسس ماكدونالد بحذر طريقه الى موقف سعد هذا ، قفز به الأمل الى أن «فى امكانهم الرجوع الى النقاط الأخرى التى ظلت دون حل» ثم أجل الاجتماع بعد مناقشة فى طريقة اعداد مشروع اتفاق يعرض بعد الاجتماع التالى الذي حدد له يوم الجمعة ٣ أكتوبر (١٥٦) . وفى ضوء ما أسفرت عنه مباحثات الاجتماع الثانى هذا طلب ماكدونالد من مستشاريه اعداد مشروع الاتفاق السابق الاشارة اليه ، والذى قدم اليه فى أكتوبر ولم تتح الفرصة لعرضه على سعد .

بدأ الاجتماع الثالث فى موعده ، بمحاولة حذرة من ماكدونالد للتأكد من صحة ما ساقه اليه أمله المتعجل فى نهايات الجلسة السابقة ، فبدأ بقناة السويس ووجوب حماية بريطانيا لها لأن «جميع استراتيجية الامبراطورية تدور حولها» . فرد سعد بأن

التحالف يكفى حماية لها «ولا ضرورة لأن يكون أى جزء من مصر تحت الحكم البريطانى أو الاحتلال البريطانى» ، فعلق ماكدونالد بأن لا فائدة من الحديث عن التحالف أو أية تأكيدات غامضة . ولما سأله سعد عما يريد بالضبط أجاب أنه يريد «مواقع تتخذها الجيوش البريطانية محطات بغرض حماية القناة» فرفض سعد جازما . وتبادل الطرفان الحجج التى يمكن أن تثور والتى ثارت من قبل بين مصر وبريطانيا منذ ١٩١٩ فى أية مواجهة سياسية . ماكدونالد يتحدث عن حماية القناة ، وسعد يسأل ضد من تكون الحماية ؟ ويسأل هل المسألة قوة أم حق ؟ فيجيب الآخر «مسألة اتفاق» . وسعد يقول احموا القناة من فلسطين التى احتلها الانجليز ومن البحر وهم سادة البحار . وماكدونالد يتحدث عن أهمية القناة لهم ، فيقول سعد إنها مصلحة عالمية فلماذا يطلب الانجليز احتكارها ، والأول يقول ألا ضمان لمصالح بريطانيا بغير الجيش ، والثانى يقول ألا ضمان لاستقلال مصر مع وجود هذا الجيش . والأول يقول ان برلمانه سيرفض حتما الجلاء عن مصر ، والثانى يقول وشعبه سيرفض حتما احتلال مصر . والأول يتحدث عن الثقة بين البلدين ، والثانى يقول ان للمصريين عذرهم فى انعدام الثقة بعد ستين وعدا بريطانيا بالجلاء عن بلادهم لم يتحقق منها واحد. وتوقف الحوار بقول سعد إنه

عاجز عن فهم الموقف البريطانى «منذ رفض اقتراحه الخاص بالتحالف ووضع القناة تحت اشراف عصبة الأمم» وقول ماكدونالد «لا فائدة من الكلام عن تحالف دون أساس» وتبادلا الأسف لما انتهت اليه المباحثات من فشل .

وقبل أن يفترقا تبادلا حديثا فى مسألتين طرحهما ماكدونالد ، أولاهما : موقف حكومة سعد زغلول العدائى من الموظفين الأجانب . وثانيتهما : مسألة الديون التركية المضمونة بالجزية المصرية ؛ وهى ديون يستحقها دائنون أوروبيون استدانت منهم تركيا فى القرن التاسع عشر بضمان ما تدفعه مصر اليها من جزية بحكم تبعية مصر السياسية لها . وكانت وجهة نظر حكومة مصر أنها لم تعد مسئولة عن دفع الجزية بعد انفصالها عن تركيا ، ولم تشأ الامتناع عن الدفع ، فأودعت أقساط الديون المستحقة فى حساب خاص توطئة لعرض المسألة على محكمة العدل الدولية ، وأغضب الحكومة البريطانية هذا الموقف ، وهدد ماكدونالد سعدا بأن عدم الوفاء يفيد امتناعا من الحكومة عن الدفع مما يلحق بسمعتها المالية أوخم العواقب . ورفض سعد الدفع بغير اللجوء الى محكمة العدل الدولية . وبدا فى حديث الرجلين بشأن هذه المسألة الجزئية ، أن فشل مباحثاتهما قد ألقى فى نفسيهما شحنة من التوتر الواضح (١٥٧) .

خاتمة وتعقيب

لم تنشر من قبل المحاضر الرسمية لتلك المباحثات . وإن مجموعة الوثائق الرسمية التى أصدرتها الحكومة المصرية فى ١٩٥٥ عن «القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٤» . لم تشر لتلك المباحثات الا فى فقرة واحدة حددت زمان جريانها وطلبات سعد الأساسية ورفض ماكدونالد لها (١٥٨) . ولا يكاد يظهر منشورا متداولا من الوثائق عنها الا ما يسمى بالكتاب الأبيض ، وهو عبارة عن رسالة بعث بها ماكدونالد الى اللنبى فى ٧ أكتوبر لخص فيها ما جرى فى تلك الجلسات . وقد نشرته وقتها الصحف المصرية ونشره الأستاذ الجزيرى والأستاذ أحمد شفيق (١٥٩) . ومن هذا المأخذ ومن خطب سعد عقب المباحثات استندت دراسات الباحثين المصريين ومنهم الأستاذ عبد الرحمن الرافعى والدكتور شفيق غربال والدكتور عبد العظيم رمضان . أما الكتاب الانجليز ، فالراجح أن اللورد لويد قد أتيح له اطلاع عليها بما أثبته عنها فى كتابه «مصر منذ عهد كرومر» ، وكذلك المارشال ويڤل فى كتابه عن اللورد اللنبى ، وكان لكل منهما بحكم وظيفته

أن يطالع تلك المحاضر حتى قبل أن يتاح الاطلاع العام عليها . ثم أمكن للباحثين مطالعتها من أرشيفات الوثائق البريطانية . على أن أحدا فيما نعلم ممن أتيحت له مطالعتها لم يقم بنشرها أو الاتيان بملخص واف لها ، الا ما كان من الدكتور عبد الخالق لاشين الذى طالع نص محاضر الجلسات فى مذكرات سعد زغلول واهتم بأن يسد هذا النقص بما أثبته فى كتابه عن «سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية» من تلخيص واف لما جرى فى تلك الجلسات . فكان صنيعه أول مطالعة مصرية لمحاضر المباحثات فيما نعلم .

أما بالنسبة لاجتماع ماكدونالد مع مستشاريه وحاكم عام السودان فى ٢٣ سبتمبر ، ومشروع المعاهدة الذى أعدته الخارجية البريطانية لماكدونالد فى أول أكتوبر ، فلا يبدو أنهما تدوولا فى البحث فيما أتيحت معالجته من دراسات . وأهميتهما تتركز فيما يفصحان عنه من نوايا السياسة البريطانية وقتها مما يلقى ضوءا على السؤال الذي تردد كثيرا لدى الساسة والباحثين : هل أخطأ سعد أم أصاب فى موقفه هذا البالغ التشدد ؟ وهل خسرت به الحركة الوطنية أم كسبت ؟ .

ان اللورد لويد مثلا يسمى مباحثات سعد - ماكدونالد «مهزلة» تردى فيها الأمر جميعه (١٦٠) . والمارشال ويقل يذكر

أنها انتهت بالفشل الكامل وأن موقف سعد كان متشددا غير قابل للمصالحة وأن سعدا مضلل يستطيع إهاجة الجماهير ولكن تعوزه الحكمة والشجاعة للسيطرة عليها ، وأنه ضيق الأفق وشكاك وليست لديه موهبة الأخذ والعطاء ولا موهبة التفاوض ، وهو يستطيع أن يتناول قضيته بقوة ويخوض معركته بجسارة ولكنه يتوقع أن تتدلى ثمار النصر اليه مقطوفة على صحفة (١٦١) .
وبهذا التعليل الذى يرد الفشل الى تعنت سعد زغلول ، جرى الساسة الانجليز والعديد من كتابات الباحثين مثل جون مارلو (١٦٢) وجورج كيرك (١٦٣) . وإن حصر المسألة فى سعد «المتصلب» أو «ضيق الأفق» لهو أدخل فى السياسات الجارية منه فى التحليل الموضوعى . ولا يعدو هذا التعليل الا الدعوة لاعتدال المصريين حتى يكسبوا استقلالهم ، وأن التشدد ينطوى على التفريط فى حقوق الوطن . وهى دعوة طالما روجها المعتدلون فى السياسة المصرية . على أنه لا يبدو فى دراسات المحدثين تركيز على هذه النقطة . فقد غابت تلك النغمة لدى الباحثين الذين نظروا الى سعد فى اطار الحركة الوطنية المصرية ومطالبها مثل فانيكيوتس (١٦٤) وبيتر مانسفيلد الذي ذكر أنه لم يكن ثمة سياسى فى مصر يجرؤ على تسوية تحفظات تصريح ٢٨ فبراير

بطريـقة يقبلها الانجليز (١٦٥) ، ودزموند سـتيورات الذى عزا الفشـل إلى أن ماكـدونالد المثـالى قد صار واقعـيا بطـريقة محزنة (١٦٦) .

ومن وجهة النظر المصرية ، فلا يظهر أن دارسا رمى باللائمة على سعد فى فشل المباحثات . والأستاذ الرافعى رغم خصومته الظاهرة لسعد وللوفد ذكر أن موقفه هنا كان سليما صحح به سعد موقفه مع ملنر فى ١٩٢٠ (١٦٧) . واستدل الدكتور عبد العظيم من موقف سعد على نضج الوعى السياسى القومى بعد ذلك الكفاح الدائم منذ عام ١٩١٨ (١٦٨) . ويعلق الدكتور يونان لبيب رزق بأن سياسة بناء الجسور بين الطرفين كانت مقضيا عليها بالفشل ، ما دام الانجليز يصرون على وجودهم الفعال بمصر، والمصريون يصرون على استقلالهم الوطنى الحقيقى (١٦٩) . والدكتور عبد الخالق لاشين «لا يملك الا أن يبدى تقديره واعجابه بصلابة سعد وقوة حجته» (١٧٠) ، رغم أن الأستاذ الباحث فى كتابيه عن سعد زغلول انما يغتصب نفسه اغتصابا عند الحديث عن أى محمدة فى هذا الذى قاد ثورة المصريين فى ١٩١٩ . وهو يرجع سبب هذا التشدد المحمود من سعد «المتهاون» الى أن تجربة ثمانية شهور من الحكم علمته ما لم يكن يعلم عن «حقيقة الاستقلال» .

على أن لعبد العظيم رمضان ، يؤيده لاشين ، مأخذا على قبول سعد مبدأ المباحثة فى تلك الظروف السيئة ، اذ أجهض بذلك فرصة كان يمكن أن تجىء مواتية فى ظروف أفضل ، وأن سعدا لم يقدر ما سيترتب على الفشل بالنسبة لآمال الأمة وبالنسبة لما ينبغى على حكومته عمله ، وأنه «استخف باللقاء .. دون أن يفكر لحظة واحدة فى نتائجه .. فدهمته هذه النتائج قبل أن يستعد لها ، وجنى وجنت مصر معه عواقب هذا الخطأ» .

ولا يبدو أن سعدا اختار ظرفا سيئا ليفاوض فيه استخفافا من جانبه وافتقادا للتقدير ، لا يبدو ذلك بقدر ما أن البادى أنه فرضت عليه المباحثات فى ظرف سيىء . لقد كانت الوسيلة الأساسية للحركة الوطنية المصرية لتحقيق أهدافها هي المفاوضة ، وقد تولت قيادة تلك الحركة الحكم ودعاها الانجليز للتفاوض وأبدوا معها فى البداية الكثير من مظاهر المجاملة ، واشترط المصريون دخول المفاوضة بغير قيد ولا شرط فوافقوا . فلم يعد ثمة مندوحة من خوض التجربة . والا بدت القيادة المصرية فى موقف هازل ، إما من حيث صدق اقتناعها بالمفاوضة كوسيلة منتجة ، وإما من حيث حرصها على السير فى طريق يترجح لديها احتمال تحقيق مطالبها من خلاله ، وإما من حيث تحملها مسئولية شعاراتها

السياسية . وقد ظلت حذرة متوجسة لا تمل من طلب التأكيدات أنها تدخل مفاوضات طليقة من كل قيد ، فكانت تعطى هذه التأكيدات . ثم جاءت أحداث السودان فوقفت ازاءها موقفا فيه من الحزم ما ينفى تكالبها على التفاوض ، وكانت تصريحات سعد واجراءات حكومته تؤكد هذا الموقف . وكان التكالب من جانب ماكدونالد واللنبى أوضح منه من جانب سعد . ورغم تصريحاته وتصرفاته التى أغاظت الانجليز ، ورغم خفوت أمله فى المفاوضة وخفوت أملهم ظلوا يدعونه للمفاوضة أو للمباحثات . وكان سعد هو الذى ذكر أن المفاوضات صارت مستحيلة فى أغسطس وكان هو من قال إنها مجرد مباحثات لازالة سوء الفهم . ومع ذلك دعوه فى حدود هذا الإطار فلم يكن بد من خوض التجربة .

ولا يبدو أيضا ان كانت ستجىء ظروف مواتية أفضل أجهضها سعد بفعلته . وسعد فى عنفوان قوته السياسية ظهر خلال تلك الشهور من حكمه كما لو كان القوة السياسية الوحيدة ، بله أن يكون القوة الأساسية فى السياسة المصرية . والاحرار الدستوريون ضامرون والملك ضامر ، والانجليز يعجمون عوده ويقبلون منه ما لا يقبلون من غيره فى نطاق أهدافهم . ومن جهة ثانية فإن وزارة ماكدونالد ان لم تكن خيرا من الوزارات

البريطانية الأخرى ، فهى ليست أسوأ منها فى علاقتهم جميعا بمصر . وهى وزارة قلقة الوجود أتت الى الحكم لأول مرة وتستند الى أقلية برلمانية لحزب العمال في مجلس العموم ، ولا يسند شرعيتها الا تأييد حزب الاحرار ، واحتمالات سقوطها أقوى كثيرا من احتمالات دعمها القريب . فالانتظار من جانب حكومة الوفد ليس من شأنه أن يتوقع معه على المدى القصير تطوراً أكثر مواتاة لمصر فى السياسة البريطانية ، وذلك أدعى لعجلة المصريين لا للتباطؤ ، ان كان للعجلة أو التأنى أن يحسم أمرا عويصا كهذا الأمر .

ومن جهة ثالثة فإن صميم المشكلة التى فشلت المباحثات عند التصدى لها لم تكن مشكلة توقيت أو مناسبة مواتية أو غير مواتية، انما كانت تتعلق بالتناقض غير القابل للتصالح بين هدف الحركة الوطنية المصرية وبين هدف الاستراتيجية البريطانية ، ولا يقال ان الظرف السيىء أفسد الفرصة بقدر ما يقال ان الفشل جاء رغم الظروف الوقتية الملائمة . والأمر لا يرد الى مجرد سوء توقيت أو فساد تدبير . والمشكلة بين سعد وماكدونالد لم تكن - حسب تعبيرات ماكدونالد - نقطة سوء فهم ، بل كانت نقطة مفاوضة . والقول بغير ذلك يستتبع القول بأنه كان يمكن - لولا

الظرف السيىء – أن يقبل ماكدونالد وحزب الأحرار البريطانى وحكومة بريطانيا العظمى التسليم بجلاء القوات البريطانية من مصر وترك السودان . أو أن يكون تفادى الفشل على حساب أن المصريين يفرطون فى مطلبهم العتيد عن الجلاء والاستقلال التام . وكلا الفرضين كان على درجة من الصعوبة ترقى الى حد الاستحالة . ان الظرف التاريخى فرض وقتها على الطرفين أن يصطدما وليس فى مقدور أحدهما أن ينفى الآخر نفيا تاما . فلم يكن من سبيل الا أن يستمر الصراع بصور وأشكال متنوعة ، وعلى جولات عديدة كما شاهدت السنون التالية ، بين استعمار فتى وحركة وطنية ناضجة طموح .

ولا يبدو ثالثا ، أن ما جنته مصر وسعد من نتائج الفشل الداهمة ، كان بسبب خطأ قبول المفاوضة ، ولا أن هذا الذى جنوه كان يمكن تفاديه لو أن سعدا لم يباحث . فخروج الجيش المصرى من السودان كان مطروحا فى السياسة البريطانية من قبل أن تبدأ المباحثات . وسقوط وزارة سعد كان خليقا أن يحدث لو أن سعدا جفل عن دعوة التفاوض وعزف عن ممارسة التجربة ، وكان يكون موقفه آنذاك أعظم مطعنا لدى خصومه السياسيين ، وأدعى لاتهامه فى جديته وقدرته على المواجهة .

والحاصل أن سعدا لم يعد من مباحثاته تلك ضعيفا ، منظورا في حساب قوته الى مدى ما يتمتع به من تأييد شعبى . بل انه تباهى بعودته «مرفوع الرأس موفور الكرامة» ، وأعلن أنه سيستأنف الجهاد المشروع . وصرح علي الشمسي ومكرم عبيد (من الوفد) بأن خلاص مصر منوط بمساعيها وجهودها وأن المصريين سيشددون المقاومة السلبية . ومضى سعد يخطب عن التمسك بالجلاء والسودان ويعبىء النفوس . انما جاء الضعف من ناحية أن الانجليز قرروا التآمر على وزارته وتحالفوا مع الملك لضربها . وبدأ الملك يعمل ، فاستغل أن للأزهريين بعض المطالب الاقتصادية ، ودفعهم الى التظاهر ضد سعد ، وروج أنصاره لإشاعة الاضطراب بين الموظفين ، ثم دفع توفيق نسيم الى الاستقالة ايحاء بتزعزع موقف الوزارة . وبدأ يتحدى السلطات الدستورية للوزارة . ورد سعد على ذلك بطريقته المعهودة ، أن بادر بتقديم استقالة وزارته مشيرا الى أن دسائس تحاك ضده ليشد انتباه الجماهير وحذرهم . وانطلقت المظاهرات تهتف «سعد أو الثورة» ثم سحب استقالته بعد هذا الاستعراض للقوة ، وبدأ يعمل لإحكام قبضته على الحكم ، فعين فتح الله بركات وزيرا للداخلية ، ومحمود فهمي النقراشي وكيلا للداخلية ، وأحمد ماهر

وزيرا للمعارف ، والأخيران كانا معروفين بأنهما من أنشط أعضاء التنظيم السرى للوفد . وكان فى تعيين بركات والنقراشى ما يدل على اتجاه الحكومة إحكام قبضتها على أجهزة الأمن خاصة . وصرح سعد بأن هدفه جعل الوزارة زغلولية لحما ودما . ثم أشار فى خطاب العرش فى نوفمبر ١٩٢٤ الى أن من أهدافه زيادة قوة الجيش (١٧١) .

ولكن جاء مقتل السردار وحاكم عام السودان السير لى ستاك فى ١٩ نوفمبر ليبتسر هذا «الكفاح المشروع» الذى جهدت وزارة الوفد فى انجازه بعد فشل المباحثات . وعجل مقتل السردار بتحرك اللورد اللنبى والانجليز لدفع سعد الى اختيار واحد من ثلاثة بدائل ؛ الاستقالة ، أو الموافقة على اخراج الجيش المصرى من السودان ، أو التهديد بالقوة المسلحة . فقدم استقالته . واذا كان سقوط وزارة الوفد يمكن أن يكون واحدا من آثار فشل المباحثات ، لأن الدسائس بدأت تحاك حول الوزارة منذ فشلت مباحثات سعد - ماكدونالد ، فإن ما عجل بها وأتمها على هذه الصورة الذاهلة هو مقتل السير لى ستاك وسرعة استغلال اللنبى وحكومته للحادث فى تصفية المسائل المعلقة بينهم وبين سعد . أما فشل المباحثات فلم يكن يتيح اسقاط وزارة سعد واجلاء الجيش المصرى على هذه الصورة السريعة الباترة .

وعلى أية حال ، فإن موقف الجانب المصرى فى مباحثات ١٩٢٤ ، كان يعكس فى صميمه رفض المصريين الاعتراف بشرعية وجود جندى أجنبى على أرضهم . وأبقى الوجود الانجليزى على حاله السابق من القلق ، وأبقى الحركة الوطنية المصرية على حالها من التهيؤ . وأتعب سعد المفاوضين بعده . ولم يقدر للانجليز أن يحصلوا على ما ظنوه ثمنا لاعترافهم باستقلال مصر ، مما كانت تعتبره مصر مجرد استرداد لحق لها اغتالوه ، واستردته هي قنصا بكفاحها وثورتها . ولم تبرم معاهدة بين مصر وبريطانيا الا بعد اثنتى عشرة سنة فى ظروف سياسية مصرية ودولية مختلفة . أبرمها الوفد في ١٩٣٦ ، ففوجىء بمن يذكره بوقفة سعد فى ١٩٢٤ .

(تم بحمد الله)

طارق البشرى

الهوامش

الباب الأول :

(١) محمد ابراهيم الجزيرى ، جمع وترتيب . آثار الزعيم سعد زغلول ، عهد وزارة الشعب (١٩٢٧) ص ٣٣٤ - ٣٥٧ .

(٢) محمد كامل سليم . أزمة الوفد الكبرى : سعد وعدلى . كتاب اليوم ، مارس ١٩٧٦ . ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٣) عبد الرحمن الرافعى . ثورة ١٩١٩ الجزء الأول (الطبعة الثانية ١٩٥٥) ص ٢٥٥ .

(٤) مؤسسة الأهرام . مركز الوثائق والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة - ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩ - ١٩٧٠ ص ٣٠٨ - ٣٣٦.

(٥) الكتاب الابيض الانجليزى . ترجمة عبد القادر المازنى المحرر بجريدة الاخبار (مارس ١٩٢٢) ص ٤ ، ٥ .

(٦) الكتاب الابيض .. المرجع السابق . ص ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٠ .

(٧) الكتاب الابيض .. المرجع السابق . ص ٣٣ .

(٨) محمد كامل سليم : صراع سعد فى أوروبا ، كتاب اليوم (يونيو ١٩٧٥) ص ٦٨ .

(٩) محمد كامل سليم : ثورة ١٩١٩ كما عشتها وعرفتها ، كتاب اليوم (مايو ١٩٧٥) .

صراع سعد فى أوروبا .كتاب اليوم (يونيو ١٩٧٥) .

أزمة الوفد الكبرى ، سعد وعدلى ، كتاب اليوم (مارس ١٩٧٦).

(١٠) محمد كامل سليم . أزمة الوفد الكبرى .. المرجع السابق. ص ٤٤ - ٤٥ .

(١١) محمد كامل سليم . ثورة ١٩١٩ .. المرجع السابق . ص ١٢ .

(١٢) محمد كامل سليم . أزمة الوفد الكبرى .. المرجع السابق. ص ١٧٩ .

(١٣) محمد ابراهيم الجزيرى .. المرجع السابق . ص ٣٦٣ - ٣٦٥ .

(١٤) محمد كامل سليم . صراع سعد .. المرجع السابق . ص ٤٣ .

(١٥) محمد كامل سليم . صراع سعد .. المرجع السابق . ص ١٠ - ١٦ .

(١٦) محمد كامل سليم . صراع سعد .. المرجع السابق . ص ٩٠ .

(١٧) محمد كامل سليم . صراع سعد .. المرجع السابق . ص ٢٠ - ٢٨ .

(١٨) محمد كامل سليم . صراع سعد .. المرجع السابق . ص ١٦ - ١٨ .

(١٩) محمد كامل سليم . صراع سعد .. المرجع السابق . ص ٤١ .

(٢٠) Cromer. Modern Egypt. Vol. II (1908) pp 430-431 .

(٢١) اللورد كرومر . تقرير عن المالية والادارة والحالة العمومية في مصر وفي السودان سنة ١٩٠٦ . ترجمة المقطم (١٩٠٧) ص ٣٥ - ٤٥ .

(٢٢) عبد الرحمن الرافعي . ثورة ١٩١٩ ، الجزء الاول . مرجع سابق . ص ٧١ - ٧٢ .

(٢٣) محمد كامل سليم . صراع سعد .. المرجع السابق . ص ١٩ - ٢٠ ، ٢٥ .

(٢٤) محمد كامل سليم . صراع سعد .. المرجع السابق . ص ٣٤ - ٣٦ ، ٩٥ .

(٢٥) محمد كامل سليم . صراع سعد .. المرجع السابق . ص ٥٨ - ٥٩ .

(٢٦) القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٤ . مجموعة وثائق رسمية (طبعة ١٩٥٥) يراجع نص المشروعين فيها . ص ٨٧ - ٩٢.

(٢٧) يراجع نص المشروع فى «القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٤» . مرجع سابق . ص ٦٦ - ٦٨ ، وكذلك فى «عبد الرحمن الرافعى . ثورة ١٩١٩ . الجزء الثانى (طبعة ١٩٥٥) ص ١٥٧ - ١٦٠» .

(٢٨) يراجع كتاب «الامتيازات الأجنبية» . محمد عبد البارى . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (١٩٣٠) . وقد ذكر المؤلف (١٧٦ - ١٧٧) .. «كان من أعظم الأخطاء ربط الكلام فى الامتيازات الأجنبية بتسوية العلاقات المصرية البريطانية ، وهو خطأ وقع فيه كل الساسة والمفاوضين المصريين ، ووجه الخطأ أن هذا يعطل

تسوية مسألة الامتيازات وحل مسألة علاقات انجلترا بمصر جميعا . لأن انجلترا ترتب على الغاء الامتيازات الاعتراف بحقوق تزعمها تذهب باستقلال مصر الفعلى . وهذا ما ينفر المصريين ويدعوهم الى النظر نحو نيات انجلترا بعين الحذر الشديد ..» .

والملاحظة صحيحة ، الا فيما يتعلق بأن هذا الخطأ كان مذهب جميع المفاوضين . فقد كشفت المادة التاريخية التى لم تكن متاحة للمؤلف ، عن أن سعدا حاول فصل المسألتين بعضهما عن بعض ، ولم يقبل ربطهما الا بضغط المعتدلين .

(٢٩) القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٤ ، المرجع السابق . ص ٦٤ - ٦٥ .

(٣٠) عبد الرحمن الرافعى . ثورة ١٩١٩ . الجزء الثانى .. المرجع السابق ص ١٦٨ .

(٣١) القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٤ .. المرجع السابق . ص ٥٨ - ٥٩ .

(٣٢) محمد كامل سليم . صراع سعد .. المرجع السابق ٧٧ - ٧٨ . ٦٢ - ١٦٣ .

(٣٣) د عبد العظيم رمضان . تطور الحركة الوطنية فى مصر من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٣٦ (١٩٦٨) ، ص ٣٠١ - ٣٠٧ .

(٣٤) د . يونان لبيب رزق . تاريخ الوزارات المصرية (١٩٧٥) ص ٢٢٤ .. الخ .

(٣٥) أحمد شفيق . حوليات مصر السياسية . التمهيد ، الجزء الثاني ص ٣٢ - ٥٢ وبه وصف تفصيلى شيق لاستقبال الجماهير لسعد زغلول .

(٣٦) القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٤ .. المرجع السابق . ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٣٧) القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٤ .. المرجع السابق . ص ١٢٤ ، ١٣١ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٦٤ ، ١٦٨.

(٣٨) القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٤ .. المرجع السابق . ص١٠٢ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٤٤ .

(٣٩) القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٤ .. المرجع السابق . ص ١١٤ ، ١٢٣ ، ١٣٢ .

(٤٠) القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٤.. المرجع السابق . ص ١٠٨ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٧٤ .

(٤١) القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٤ .. المرجع السابق . ص ١٩٢ .. الخ .

(٤٢) الكتاب الابيض .. المرجع السابق . ص٨ - ٩، ص ١٣ (رسالة ١١ ديسمبر) .

(٤٣) الكتاب الابيض .. المرجع السابق . ص ٣١ - ٤١ .

Elie Kedourie. The Chatham House Version and the Middle - Eastern Studies (1970).pp148-158.

(٤٤) F.o. 407/192 No. 144. From Allenby to Curzon. March13.1922.

(٤٥) اسماعيل صدقي . مذكراتي . دار الهلال (١٩٥٠) ص ٢٨ . يراجع أيضا خطاب استقالة عبد الخالق ثروت .

(٤٦) مجموعة خطب سعد باشا زغلول الحديثة . جمعها محمود فؤاد (طبعة ١٩٢٤) . من خطاب سعد زغلول في ٢٠ سبتمبر ١٩٢٣ . ص ٢٠ .

(٤٧) مجموعة خطب .. المرجع السابق . من خطاب سعد زغلول في ٢٣ ديسمبر ١٩٢٣ . ص ١١١ .

(٤٨) مجموعة خطب .. المرجع السابق . خطاب سعد في ٢٠ سبتمبر ١٩٢٣. ص ٢٥ .

(٤٩) مجموعة خطب .. المرجع السابق . خطاب سعد في ٧

ديسمبر ١٩٢٣ . وقد أطلق سعد على تصريح ٢٨ فبراير عبارة «استقلال بالنبوت» أى بالعصا الغليظة .

(٥٠) مجموعة خطب .. المرجع السابق ، من خطاب سعد فى ٢٣ ديسمبر ١٩٢٣ . ص ١٠٥ ، ١١١ .

(٥١) مجموعة خطب .. المرجع السابق . ص ٢٢ .

(٥٢) مجموعة خطب .. المرجع السابق . ص ١٠٦ .

(٥٣) الكتاب الأبيض .. المرجع السابق. من رسالة اللنبى الى كيرزون فى ١٢ ديسمبر ١٩٢١ .ص ١٦.

(٥٤) مجموعة خطب .. المرجع السابق . ص ٨٧ ، ١٠٦ ، ١٠٨.

(٥٥) محمد ابراهيم الجزيرى .. المرجع السابق .ص ١٤٥ -١٤٧ .

(٥٦) أحمد شفيق .. الحولية الأولى .. المرجع السابق. ص ١٧٧- ١٧٨ .

(٥٧) عبد الرحمن الرافعى . فى أعقاب الثورة ، الجزء الأول (الطبعة الثانية ١٩٥٩) ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٥٨) Lord Lloyd, Egypt since Cromer, Vol. II, 1934, PP. 88, 93.

كما أشار المارشال ويقل الى أن سعدا قد عمل علي تحويل المستشارين المالي والقضائى الى وضع لا قيمة له، وأن سعدا شعر أنه من القوة بحيث يستطيع معاملة رجال اللورد اللنبى الذين ذهبوا اليه لمناقشته بشأن المستشار القضائى، فعاملهم بصلف اقتضى تذكيره بأنه يخاطب ممثلى حكومة بريطانيا العظمى .

Wavell, Allenby, Soldier and Statesman, 1954, PP. 331,332.

(٩) Lord Lloyd - المرجع السابق - ص ٨٤ .

الباب الثاني :

(٦٠) برقية اللورد كرومر الى اللورد سالزبورى رقم ١٠٢ فى ٣٠ مايو ١٨٩٩ .

(٦١) برقية اللورد اللنبى الى ماكدونالد رقم ٤٨٢ فى ٢٦ يوليو ١٩٢٤ .

(٦٢) د. ابراهيم محمد حاج موسى . التجربة الديمقراطية وتطور نظم الحكم فى السودان (١٩٧٠) ص ٨ .

(٦٣) د. زاهر رياض . السودان المعاصر منذ الفتح المصرى حتى الاستقلال ١٨٢١-١٩٥٣ . (١٩٦٦) . ص ٢٠ .

(٦٤) «الباحث المطلع محزون» ، ضحايا مصر فى السودان وخفايا السياسة الانجليزية (١٩٣١) ص ٣٥ - ٥٠ وبالتمويل

المصرى شيدت خطوط السكك الحديدية وميناء بورسودان وشبكات البرق وغيرها من المرافق .

(٦٥) د. حسين خلاف . تطور الايرادات العامة فى مصر الحديثة (١٩٦٦) ص ١٣ - ١٤ .

(٦٦) د. زاهر رياض . المرجع السابق . ص ٢١٠ .

(٦٧) داود بركات . السودان المصرى ومطامع السياسة البريطانية (١٩٢٤) ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٦٨) داود بركات .. المرجع السابق ص ١٥٢ - ١٥٧ .

د. عبد العظيم رمضان ، الجيش المصرى فى ظل الاحتلال البريطانى . مجلة السياسة الدولية ، (يوليو ١٩٧٢) ص ٣١ - ٣٢ ، ٣٩.

د . عبد العظيم رمضان .. موقع الجيش المصرى فى ثورة ١٩١٩ - مجلة السياسة الدولية (يناير ١٩٧٣) ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٦٩) «محزون» .. المرجع السابق. ص ٥٠ .

(٧٠) مذكرتان للمرحومين أمير اللواء محمد باشا لبيب الشاهد، والأميرالاى احمد بك رفعت عن أعمال الجيش المصرى بالسودان (١٩٣٦) ص ١١ - ٢٣ .

(٧١) «محزون» .. المرجع السابق. ص ٥٧ - ٥٩ - ٦٣ .

(٧٢) داود بركات .. المرجع السابق . ص ٨٦ – ٨٧ .

(٧٣) «المحزون» .. المرجع السابق، ص ٥٥ ، ٥٦، ٥٩ ، ٦٢.

(٧٤) عبد الرحمن الرافعي . مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية (طبعة ١٩٣٩) ص ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ٢٢٥.

(٧٥) صحيفة اللواء، ٣ يونيو ١٩٠٢، نقلا عن مجلة اللواء – الجزء الثاني، ابريل ومايو ويونيو ١٩٠٢. ص ٤٩ – ٥٣ .

(٧٦) صحيفة اللواء ، ١٨ نوفمبر ١٩٠٢ ، نقلا عن مجلة اللواء الجزء الرابع ، اكتوبر ونوفمبر وديسمبر ١٩٠٢ ، ص ٣٦ – ٤٠.

(٧٧) صحيفة اللواء ، ٢٣ مايو ١٩٠٤، نقلا عن مجلة اللواء الجزء الثاني ، ابريل ومايو ويونيو ١٩٠٤ ، ص ٣١ – ٣٤ .

(٧٨) خطابة بطل الوطنية مصطفى كامل باشا ، التي ألقاها بتياترو زيزينيا بمدينة الاسكندرية في مساء يوم الثلاثاء ١٥ رمضان عام ١٣٢٥هـ ، ٢٢ اكتوبر ١٩١٧م .

(٧٩) عبد الرحمن الرافعي ، محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية (طبعة ١٩٤٨) ص ٧٦ ، ١١١، ١١٧ ، ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٥٨.

(٨٠) تراجع نصوص برامج الاحزاب الثلاثة في مجلة الطليعة – عدد فبراير ١٩٦٥ .

(٨١) عبد الرحمن الرافعى ، محمد فريد .. المرجع السابق ص ٦٨-٦٩ ، ٨٤.

(٨٢) د. محمد فؤاد شكرى . مصر والسودان وتاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ١٨٢٠ ، ١٨٩٩ (١٩٦٣) ص ٨.

(٨٣) عبد الرحمن الرافعى . ثورة ١٩١٩ ، المرجع السابق، يراجع نص المذكرة ص ١٤٣.. الخ .

(٨٤) عبد الرحمن الرافعى ، ثورة ١٩١٩ ، المرجع السابق يراجع نص المذكرة ص ١١٥ - ١٢٠ .

(٨٥) عبد الرحمن الرافعى ، ثورة ١٩١٩، المرجع السابق ، ص ١٤٧.

(٨٦) مجلة الطليعة ، فبراير ١٩٦٥ .

(٨٧) محمود سليمان غنام . المعاهدة المصرية الانجليزية ودراستها من الوجهة العملية (١٩٣٦) ص ٣٠٨ .

(٨٨) محمد كامل سليم . صراع سعد .. المرجع السابق ص ٤١-٤٢.

(٨٩) محمد كامل سليم ، صراع سعد ، المرجع السابق ص ١٠٢ ، ١٠٤.

«السودان» .. من ٢٣ فبراير ١٨٤١ الى ١٢ فبراير ١٩٥٣ - مجموعة وثائق رسمية ، (طبعة ١٩٥٣) ص ١٠ - ١١ .

(٩٠) عبد الرحمن الرافعى ، ثورة ١٩١٩ ، الجزء الثانى .. المرجع السابق ، ص ١٩١.

(٩١) «السودان» .. مجموعة وثائق ، المرجع السابق ، ص ١١ - ١٤.

(٩٢) د. ابراهيم محمد حاج موسى .. المرجع السابق ص ١٢ - ١٤.

(٩٣) Mohamed Omer Beshir, Revolution and Nationalism in the Sudan, London, 1974,PP.65-66.

(٩٤) القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٤ .. المرجع السابق ، ص ١٠١ .

(٩٥) «السودان» ..مجموعة وثائق .. المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٩٦) القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٤ .. المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(٩٧) صحيفة السياسة ، ٢١ ابريل ١٩٢٣ . نقلا عن :ألبرت شقير .الدستور المصرى والحكم النيابى (١٩٢٤) . ص ١٤٤ - ١٤٧ .

(٩٨) د . يونان لبيب رزق .. المرجع السابق . ص ٢٤١ - ٢٥٣ .

(٩٩) رسالة كيرزون الى اللنبى فى ٢٥ نوفمبر ١٩٢٢ ، نقلا عن : يونان لبيب رزق .. المرجع السابق ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ، ٣٦٨، ٣٩٢ - ٣٩٦ .

(١٠٠) F.O 407/196,No 24 From Allenby to Curzon, January 14, 1923.

(١٠١) F.O 407/196, No. 24. From Curzon to Allenby, January 18, 1923.

(١٠٢) F.O 407/196, No. 39 From Allenby to Lindsay, January 25, 1923.

(١٠٣) F.O 407/196, No. 41, 42, 43, From Allenby to Lindsay and Curzon, January 25, 26, 1923.

(١٠٤) F.O. 407/196, No. 46. From Allenby to Sir Eyre Crowe, January 29,1923.

F.O 407/196, No. 247. From Curzon to Allenby, January 30, 1923.

F.O 407/196, No. 47. From Allenby to Curzon, January 30, 1923.

(١٠٥) F.O 407/196, No 17. From Curzon to Allenby, February 1, 1923.

F.O. 407/196,No.14 From Allenby to Curzon, January 30,1923.

(١٠٦) F.O 407/196, No. 83. From Allenby to Curzon, February 11, 1923.

(١٠٧) أحمد شفيق ، حوليات مصر السياسية ، التمهيد ، الجزء الثالث (١٩٢٨) ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٩ .

(١٠٨) احمد شفيق . حوليات مصر السياسية . التمهيد ، الجزء الثالث ، ص ٣٦٧-٣٦٨ ، ٣٩٢-٣٩٦.

(١٠٩) ألبرت شقير .. المرجع السابق . ص ١٨٤ - ١٩٥ .

(١١٠) أحمد شفيق .. حوليات مصر السياسية . التمهيد ، الجزء الثالث . ص ٤٢٣ .

(١١١) د . يونان لبيب رزق .. المرجع السابق . ص ٢٤٥ .

(١١٢) مجموعة خطب سعد باشا .. المرجع السابق . ص ٨٠ - ٨١ .

(١١٣) محمد ابراهيم الجزيرى .. المرجع السابق . ص ١٤٧.

(١١٤) مجلس النواب (٢٣ يونيو ١٩٢٤) .

(١١٥) داود بركات .. المرجع السابق . ص ١٣٨ ، ١٦٨ .

(١١٦) داود بركات .. المرجع السابق . ص ٨٣ .

«المحزون» .. المرجع السابق . ص ٦١ .

(١١٧) «المحزون» .. المرجع السابق . ص ٧١ - ٧٢ .

(١١٨) د . محمد انيس . حركة اللواء الأبيض بعد ٥٠ سنة في مصر والسودان . دراسة نشرت في صحيفة الأهرام من ٢٩ يونيو ١٩٧٣ الى ٢ يوليو ١٩٧٣ .

(١١٩) د . محمد أنيس .. المرجع السابق .

(١٢٠) د . محمد أنيس .. المرجع السابق .

(١٢١) د . عاصم الدسوقى . كبار ملاك الأراضى الزراعية ودورهم فى المجتمع المصرى ١٩١٤ - ١٩٥٢(١٩٧٥) . ص ٢١٢.

(١٢٢) داود بركات .. المرجع السابق . ص ٢٤ - ٢٥ .

(١٢٣) داود دركات .. المرجع السابق . ص ٦٧ - ٦٨ .

(١٢٤) د . محمد حسين هيكل . عشرة أيام فى السودان . سلسلة كتب للجميع (١٩٤٩) . ص ٨٣ .

(١٢٥) د . محمد حسين هيكل .. المرجع السابق . ص ١٠٨ .

(١٢٦) ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩ .. المرجع السابق . ص ٤٦٤ . يراجع أيضا رسالة دكتوراه غير منشورة : د . تمام همام تمام .

(١٢٧) مواقف حزب الوفد المصرى من مسألة السودان فى الفترة من ١٩١٩ - ١٩٥١ . يوليو ١٩٧٤ . ص ٧٩ .

(١٢٨) داود بركات .. المرجع السابق . ص ١٠٨ - ١١٣ .
(١٢٩) محمد ابراهيم الجزيرى .. المرجع السابق . ص ٢٠٧ - ٢٠٩ .
(١٣٠) داود بركات .. المرجع السابق . ص ٩٩ - ١٠٠ .
(١٣١) د . عاصم الدسوقى .. المرجع السابق . ص ٢٤١ - ٢٤٢.

الباب الثالث :

(١٣٢) محمد كامل سليم . أزمة الوفد .. المرجع السابق . ص ٨٥ - ٨٦ .
(١٣٣) د . محمد أنيس . ثورة ١٩١٩ وحزب العمال البريطانى. مجلة الهلال ، أكتوبر ١٩٦٤ .
(١٣٤) يوسف نحاس . صفحة من تاريخ مصر السياسى الحديث ، مفاوضات عدلى - كيرزون (١٩٥١) ، ص ٥٥ - ٦٠ ، ٦٨.
(١٣٥) F.O 407/196, No. 154 . From Allenby to Curzon, March 5, 1922.
(١٣٦) د. يونان لبيب رزق .. المرجع السابق . ص ٢٧١ - ٢٧٢.
(١٣٧) Lord Lloyd, op. cit., P. 83.
(١٣٨) Lord Lloyd, op. cit., P. 86.

(١٣٩) د. يونان لبيب رزق.. المرجع السابق . ص ٢٧٢ .

(١٤٠) Lord Lloyd, op. cit., pp. 84-85.89.

(١٤١) Wavell, op. cit., p. 327; Lloyd, op. cit., p 87.

د. يونان لبيب رزق . المرجع السابق ص ٢٧٣ .

F.O.407 / 199 No. 6. From Allenby to MacDonald, July 2, 1924. Tel. No. 222.

(١٤٢) F.O 407/199, No. 213. From Allenby to MacDonald, June 29, 1924.

(١٤٣) F.O 407/ 199, No. 136. From MacDonald to Allenby, July1, 1924.

(١٤٤) F.O 407/199, No 225 From Allenby to MacDonald, July 7,1924.

(١٤٥) F.O 407/199, No. 145. From MacDonald to Allenby, July 14. 1924.

(١٤٦) F.O 407/199, No 246. From Allenby, to MacDonald, July 28. 1924.

(١٤٧) F.O 407/199, No 154. From MacDonald to Allenby, July 31. 1924.

(١٤٨) د. عبد الخالق لاشين. سعد زغلول ودوره فى السياسة المصرية (١٩٧٥) ص ٣٩٩ - ٤٠٢ .

(١٤٩) Wavell, op. cit., p. 230.

(١٥٠) F.O 407/199, No. 214. Record to Conference held at 10, Downing Street, on Tuesday, September 23, 1924.

(١٥١) F.O 407/199,No. 222. Memorandum respecting a draft agreement between Great Britain and Egypt.

(١٥٢) F.O 407/199, No. 216..Record of Conference held at 10. Downing Street, on September 25, 1924.

(١٥٣) F.O 407/199, No. 217. Mr. MacDonald to Zaghlul Pasha, September 25, 1924.

(١٥٤) F.O 407/199, No. 221. Zaghlul Pasha to Mr. MacDonald.

(١٥٥) F.O. 407/199, No . 218. Mr. MacDonald to Zaghlul Pasha, Septemper 26, 1924.

(١٥٦) F.O. 407/199, No. 220. Record of Second Conference held at 10, Downing Street on September 29, 1924.

(١٥٧) F.O. 407/199, No. 224. Record of Third Conference held at 10, Downing Street, on October 3, 1924.

(١٥٨) القضية المصرية .. المرجع السابق . ص ٢١٧.

(١٥٩) محمد ابراهيم الجزيرى.. المرجع السابق. ص ٣٤٨-٣٥١.

احمد شفيق . حوليات مصر السياسية، الحولية الأولى ١٩٢٤ (طبعة ١٩٢٨) ص ٣٠٩ - ٣٤٥ .

(١٦٠) Lord Lloyd, op. cit., p. 93.

(١٦١) Wavell, op. cit., pp. 325, 330.

(١٦٢) John Marlowe, Anglo-Egyptian Relations 1800-1953. London 1954, pp. 265-266.

(١٦٣) George E. Kink, A Short History of the Middle East (1960), p. 167.

(١٦٤) P.J. Vatikiotis, The Modern History of Egypt (1969) , P. 276.

(١٦٥) Peter Mansfield, The British in Egypt (1971), P.253.

(١٦٦) دزموند ستيورات . تاريخ الشرق الاوسط الحديث (١٩٧١) ترجمة زهدي جاد الله (١٩٧٤) ص ٢٥٦ .

(١٦٧) عبد الرحمن الرافعى . فى أعقاب الثورة ، الجزء الأول، (طبعة ١٩٥٥)، ص ١٨٠.

(١٦٨) د. عبد العظيم رمضان . تطور الحركة الوطنية فى مصر ، المرجع السابق ، ص ٤٥٣.

(١٦٩) د. يونان لبيب رزق .. المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .

(١٧٠) د. عبد الخالق لاشين .. المرجع السابق ، ص ٤٠٣ - ٤١٠ .

(١٧١) طارق البشرى . ثورة ١٩١٩ والسلطة السياسية. مجلة الكاتب ، اكتوبر ١٩٦٧ .

د.يونان لبيب رزق .. المرجع السابق ص ٢٧٤- ٢٧٥ .

احمد شفيق .. الحولية الأولى .. المرجع السابق . ص ٣٢٥ - ٣٦٣ .

الوثائق

(١)

محضر الجلسة المنعقدة فى ١٠ داوننج ستريت، يوم الثلاثاء ٢٣ سبتمبر فى الساعة العاشرة صباحا

حضر الإجتماع رئيس الوزراء والمستر بونسنبى والسير لى ستاك والسير وليم تيريل والكولونيل ليسيستر والمستر سلبى والمستر مورى.

عند افتتاح الجلسة قال رئيس الوزراء انه أراد أن يوضح بصراحة الصعوبات التى تعترض الموقف الذى وجد نفسه فيه. لقد ظهر له أن تصريح فبراير ١٩٢٢ والسياسة التى أدت بحكومة صاحب الجلالة أن تصدره قد حرمته من العوامل التى كان يمكنه بها فى الظروف المواتية أن يصل إلى اتفاق مرض مع الحكومة المصرية . لقد جعلت حكومة صاحب الجلالة من مصر بلدا مستقلا، واذا كانت الظروف قد أجبرتنا من وقت إلى آخر أن نحاول فرض نفوذنا عليها، فإن كل محاولة من تلك المحاولات كانت تقودنا إلى الخطأ.

كان زغلول باشا فى طريقه إلى لندن ذلك اليوم، وكان عليه أن يقابل (ماكدونالد) يوم الخميس ، وأهم موضوعين كان عليهما أن

يتناقشا فيهما، هما الطريقة التى تؤمن بها المواصلات الامبراطورية فى مصر، وكيف يحل الموقف فى السودان . وفيما يتعلق بالموضوع الأخير (السودان) فإنه سيقابل بالنقد الذى يحدث كلما بدأنا الاهتمام بهذا الموضوع، أى منذ الثمانينيات من القرن الماضى، أن الحكومات المتتالية أعلنت دائما أنها كانت تعمل فى السودان نيابة عن مصر وكوكيل عن الحكومة المصرية وكان ذلك هو الحال فى وقت حادثة فاشودة وبعدها كما كان قبلها.

وأشار الكولونيل تشوستر Schuster إلى أن المعاهدة الإنجليزية المصرية فى ١٨٩٩ قد حددت مركز كل من الحكومتين . وبمقتضى تلك الاتفاقية كان من الواضح أن الحكومة البريطانية ليست مجرد وكيل ولكنها كانت شريكة اصلية وقد وضعت المعاهدة عمدا لتؤكد أن الحكومة البريطانية كانت هى الشريك الأعلى . (ملاحظة – وقعت حادثة فاشودة التي أشار اليها رئيس الوزراء قبل توقيع معاهدة ١٨٩٩ وقبل أن يتحدد الموقف بمقتضى تلك المعاهدة فإن الاتجاه الذى اتخذه اللورد كتشنر فى فاشودة كان صحيحا بلا شك).

وهنا قرأ رئيس الوزراء مقدمة تلك الاتفاقية، وأشار إلى أنه بمقتضاها لم تطالب الحكومة البريطانية بأكثر من نصيبها فى

ادارة السـودان، وأنه على الرغم من أن المادة الثالثة كانت تنص على أن ترشح الحكومة البريطانية الحاكم العام، الذى لا يخرج من الخدمة الا بموافقتها، فإن الجانب الفعال الحقيقى فى الموضـوع كان تعيين ذلك الضابط بمرسوم خديوى. وأنه لا يرى ان الاتفاقية قللت من كون السودان تركيا أو مصريا. ولا أنها جعلته بأى حال نوعا من الممتلكات البريطانية.

وأوضح المستر مورى Murray أن اللورد كـرومـر لم يخف حقيقة أن الاتفاقية قد صيغت عمدا بهدف الحرص على كرامة مـصـر ، واذا كـانت الاتفـاقـيـة لم تـضف فى ظاهرها كـثـيـرا من الحقوق على حكومة صاحب الجلالة فإن حقيقة أن الحاكم العام يختاره الانجليز ويمارس وظيفته بموافقتهم ، هذه الحقيقة منحتهم فى الواقع الاشراف التام على الادارة واذا كانت المعاهدة لم تجعل من السودان جزءا من الامبراطورية البريطانية فإنها قد فصلته تماما عن مصر ، ولو لم يكن الامر كذلك لطبقت الامتيازات على السـودان . وقـد طرح هذا الأمـر أمـام المحـاكم المختلطة المصـرية التى قررت فى عام ١٩١٠ أو ١٩١١ أن السودان هو فى الحقيقة دولة منفصلة ومتـمـيـزة عن مـصـر، وأن له طبيعة الحكم الثنائى الانجليزى المصرى . وإذا أخذ فى الاعتبار الهدف الذى من أجله

وضعت المعاهدة، لكان من الصعب تعديلها تعديلا يقبله المصريون ولا يسلبها المميزات الاساسية من وجهة النظر البريطانية.

وقال رئيس الوزراء إن كل غرضه أن يكتشف إن أمكن صيغة للاتفاق تتيح لنا في السودان حرية غير مقيدة كما كان الحال في الماضي، وتمكنه في الوقت نفسه من تقديم نوع من التنازل للحكومة المصرية.

وأشار الكولونيل شوستر إلى أنه ازاء الاتجاه الحالي للحكومة المصرية بالنسبة للبريطانيين في السودان فإن أي شكل للإشراف الثنائي على الادارة الداخلية للبلاد يعتبر مستحيلا ، واذا أريد اعطاء المصريين اشتراكا مظهريا في حكومة البلاد فلا يمكن ذلك الا باختيار ممثلين لهم في نوع من المجالس الاستشارية المشتركة التي تجتمع في لندن ، وقد وضع فعلا اقتراح على هذه الأسس في مذكرة حكومة السودان بتاريخ ٢٥ مايو ١٩٢٤ وإنه من الامور الجوهرية أن يجتمع هذا المجلس في لندن وليس في القاهرة حتى لا تصبح أعمال السودان موضوعات دائمة للمناقشة في البرلمان المصري.

وقال رئيس الوزراء انه فهم أن السير لي ستاك يقترح عليه أن يقول لزغلول «انك قد أقمت أوضاعا تجعل من المستحيل اقامة أي

نوع من الاشتراك فى حكم السودان، وعلى ذلك يجب عليك أن ترحل من السودان». وأن هذا الاقتراح لهو من أعمال القوة القاهرة التى يصعب تبريرها. وسيكون موقف زغلول منا كما يلى: انكم أنفسكم قد احتفظتم بمسألة السودان إلى مناقشات تالية - وكل ما عملته هو أن أقرر ما أعتزم أن أقدمه كمطالب للمصريين فى مثل هذه المناقشات.. وإن هذا لا يبرر لك أن تتجاهل كل حقوق المصريين!! إنه (ماكدونالد) ليخشى أننا لو اتخذنا فى مثل هذه الحالة اجراء تعسفيا بإخراج جميع المصريين من السودان وأعلنا عزمنا على ادارة البلاد بأنفسنا، فإن ذلك حرى به أن يحدث ثورة عنيفة فى مصر ، ومن المحتمل أن يستقيل زغلول وأن يلقى على عاتقنا ادارة حكومة البلاد دون أن يكون فى الامكان اقامة وزارة مع عداء كل موظف مصرى لنا - بينما ينتظر كل صاحب متجر أجنبى أو تاجر صغير من قواتنا أن تحميه ضد حوادث العنف.

وأشار مستر سليى الى أنه بناء على التجربة الأخيرة فإن اتباع الحكومة البريطانية لطريق التشدد لم ينتج رد فعل عنيف فى مصر كما كان منتظرا ، بل العكس.

وقال رئيس الوزراء، إنه من المستحيل الاعتماد على ذلك، ثم عرج الى تحديد مشكلة الحامية البريطانية فى مصر، وكانت فكرته

أن الوقت قد حان لانهاء الوضع الشاذ الذى ترك فيه تصريح فبراير ١٩٢٢ كلا من الحكومة البريطانية ومصر، لقد منحت مصر استقلالها ولكن حامية بريطانية استمرت فى عاصمة البلاد، وبقيت الحكومة البريطانية مسئولة فى النهاية عن حفظ النظام فيها والاستمرار فى العمل اذا سقطت الحكومة المصرية ، وكان (ماكدونالد) يفكر فى أنه قد حان الوقت للتنحى عن هذه المسئولية وحصر واجب القوات البريطانية فى مصر فى حماية القناة وكذلك خطوط مواصلاتنا الجوية الامبراطورية . وقد سلم بأن مثل هذه الخطوة قد تلقى اعتراضا من المصالح التجارية البريطانية والأجنبية فى مصر، وطلب رأى السير لى ستاك فى هذه المسألة.

وقال السير لى ستاك انها بلا شك ستلقى هذه المعارضة، ولكنه أشار إلى أن الأمن الذى هيأه وجود القوات البريطانية فى القاهرة للحكومة المصرية، مكنها من القيام بمخاطر ربما كان من المحتمل أن تحجم عنها بدونه، وأنه اعتمادا على هذا الأمن كانوا يخاطرون بتهييج الرأى العام فى مصر واثارة الاضطرابات العنيفة فى السودان.

وقال رئيس الوزراء، على أى حال، فإن مسألة القوات البريطانية فى مصر لهى من المسائل التى سيناقشها مع وزير الحربية.

وأشار الكولونيل تشستر إلي أن مسألة السودان كانت قد بحثت من زاوية تبرير التصرفات البريطانية ردا على ما يمكن أن يسوقه زغلول من حجج، ولكن من المستحيل في الوقت نفسه التغافل عن حقائق الموقف المحلي . وقد علم أبناء السودان أن حالة البلاد ستناقشها الحكومتان البريطانية والمصرية وقد طال انتظارهم لهذه المباحثات، وهم سيعلمون أن زغلول باشا كان الآن في لندن . لقد ذكر رئيس الوزراء أنه لن تكون هناك مفاوضات ولكن مجرد محادثات، وأن انتهاء المحادثات لن ينظر اليه كإخفاق مما يعجل بحدوث أزمة ، ولكن السودانيين لا يدركون هذا التمييز فإذا انتهت المحادثات دون أي علامة قاطعة بأن مطلب المصريين قد رفض نهائيا فستستمر فترة القلق، وسيكون من المستحيل وقف تفاقم أخطار الوضع المحلي من الازدياد . فإذا تطرقت الفكرة الى الخارج فإن المصريين سيصبحون أخيرا سادة البلاد وأن الزعماء المحليين سيحاولون – حماية لأنفسهم – أن يحسنوا علاقاتهم بهم . وقد قال رئيس الوزراء ان زغلول لم يطرح سوى ادعاء فقط، ولكن الطريقة التي طرح بها ادعاءه، واساءته معاملة البريطانيين ، جعلت كل مصري في السودان في وضع يشعر فيه أن ولاءه لبلاده لا يتفق مع ولائه للادارة الحالية في السودان . واذا لم ينكر زغلول

علنا هذه التصريحات فإن وجود المصريين سيكون مصدرا لخطر محقق وبصفة خاصة وحدات الجيش المصرى.

وأشار السير لى ستاك إلى أن الجيش المصرى فى السودان كان هو النقطة المحيرة فى الموقف كله، فبينما بقى الجيش المصرى محتفظا بولائه لمصر، وبينما كانت الحكومة المصرية تسئ للادارة البريطانية فى السودان وتقاومها، صار من المستحيل منع انتشار الكراهية فى ظل النظام القائم ، واذا لم يوقف هذا فقد ينشأ موقف يولد انفجارا فى جميع أنحاء البلاد . وقد وافق (لى ستاك) على أن ابعاد العنصر المصرى من الجيش وتحويل العناصر المحلية من المجندين الى قوات درك، سيكون عملا تحكميا ولكن زغلول نفسه بمقدرته الخطابية وموقف البرلمان المصرى والصحافة لم يتركوا لنا مجالا للاختيار فى هذا الأمر، وقد اعترف بالمصاعب التى أشار اليها رئيس الوزراء فى تبرير مطلبنا باتخاذ اجراء ما يصا غ بالشكل المشار اليه وفقاً لأى وضع قانونى، وأنه يحسن تجنب الدخول فى مناقشات على مثل هذه الأسس.

ان تصرفاتنا يجب أن تؤخذ حسب ما يتيحه الموقف من مزايا فعلية . لقد تعهدنا صراحة ألا نسمح للسودانيين مرة أخرى أن يكونوا رعايا للحكم المصرى السيئ ، إن واجبنا هو خدمتهم، واذا

كان المصريون بتصرفاتهم الخاصة جعلوا من المستحيل علينا أن نتركهم فى السودان، فإنه يجب علينا الاختيار بين اخراجهم منه أو أننا نكون قد خنا الأمانة التى فى أعناقنا . إن مشروع اجلاء الوحدات المصرية واخراج الضباط المصريين من الوحدات العربية والسودانية كان عرضة بلا شك لكثير من الاعتراضات كما أشير اليها فى خطابه المؤرخ ١٦ سبتمبر ولكنه (سير لى ستاك) أعاد التفكير فى الموضوع المرة بعد المرة ولم يتضح له طريق آخر . إن الأمر يحتاج إلى تعزيز مبدئى للحامية البريطانية فى السودان.

وقال رئيس الوزراء انه شعر باعتراضات جسيمة بالنسبة للطلب الأخير وتعزيز القوات البريطانية . وقال انه كان يؤمن بتحاشى التفكك النهائى للنظام القائم ما أمكنه ذلك . وأن مجرد اندلاع لهيب الثورة لا يجعلك تدرى متى تنتهى . وأنه ليفضل كثيرا أن تستمر الحكومة السودانية فى سياسة الاجلاء الفورى لأى فرد من المصريين الذين يظهرون التآمر ضد النظام القائم - وأنه لن يلجأ الى الاجراءات التى أوصى بها السير لى ستاك، الا اذا ترتب على هذا اندلاع عنيف للثورة ، وفى تلك الحالة سيكون لعملهم ما يبرره.

وأشار السير لى ستاك إلى أنه من الصعب جدا الاستدلال على ما يثيره الضباط المصريون من عوامل السخط فى صفوف

الكتائب السودانية ، وقد لا يكتشف الشر الا اذا استشرى بعد فوات الوقت. ه

وقال رئيس الوزراء انه لم يقرر بعد مجرى عمله، وانه يريد أن يعقد اتفاقا مع زغلول اذا كان ذلك ممكنا، وانه مستعد أن يواصل المباحثات الى فترة طويلة ، وانه سيرتب اجتماعا آخر بعد أن يكون قد بدأ مباحثاته وبعد أن تتاح له فرصة التعرف على موقف زغلول.

ولقد تساءل رئيس الوزراء عما يجوز أن يحدث حينما تنتهى مدة عمل السير لى ستاك، اذا رفضت الحكومة المصرية أن تعين خلفا له تختاره حكومة صاحب الجلالة . ذكر أن الاتفاقية لم تضع احتياطا مسبقا لمثل هذه الحالة الطارئة.

وأوضح السير لى ستاك أنه هو نفسه كحاكم عام قد انتدب أحد الافراد لينوب عنه وأن يقوم بكل أعماله . إن هذه السلطة انما يخوله اياها كونه حاكما عاما ولا علاقة لها بمجلسه (مجلس الحكم العام). واذا رفضت الحكومة المصرية تعيين من ترشحه حكومة صاحب الجلالة فإن حكومة السودان تستمر فى عملها تحت اشراف قائم بأعمال الحاكم العام حتى تصل الحكومتان المصرية والبريطانية الى اتفاق فى هذا الشأن.

وتساءل رئيس الوزراء عما اذا كانت سلطة القائم بعمل الحاكم العام الذى يعينه السير لى ستاك ستستمر حتى بعد انتهاء مدة خدمته هو نفسه.

فقال السير لى ستاك انه يظن أنها ستستمر.

وقال رئيس الوزراء انه يشك فى ذلك وينبغى أن يترك بحثه للخبراء القانونيين.

(٢)

محضر الجلسة المنعقدة فى ١٠ داوننج ستريت في ٢٥ سبتمبر ١٩٢٤ الساعة العاشرة والنصف صباحا

حضر الاجتماع رئيس الوزراء (رامزى ماكدونالد) وصاحب الدولة سعد باشا زغلول والدكتور حامد محمود، وكامل بك سليم والمستر سلبى والمستر مورى.

افتتح رئيس الوزراء الجلسة معربا عن أسفه لعدم تمكنه من اجراء اتصال مباشر مع زغلول من عهد بعيد، قبل وقوع الحوادث التى جعلت الأوضاع أكثر صعوبة لكل منهما.

كذلك تأسف زغلول باشا لأن الظروف الحالية ليست ملائمة بالمرة ، ومع ذلك فقد أيقن أنه مع حسن النية فإن كل شئ ممكن.

وقد وافقه رئيس الوزراء على ذلك وأكد له أن الجانب البريطانى لا يعوزه حسن النية . وأنهم هنا اليوم فى حديث عام لا لبس فيه . وكان التعبير المستعمل «لإزاحة الضباب».

ووافق زغلول باشا على ذلك.

وقال رئيس الوزراء ان أول المسائل العديدة هو السودان ، فقد أثار صعوبات كبيرة جدا بين الحكومتين البريطانية والمصرية.

وتساءل زغلول باشا كيف كان ذلك وبأى طريقة يحول السودان دون الاتفاق.

وقال رئيس الوزراء ان هناك سببين مهمين بين عديد من الأسباب الأخرى، أولهما، تصريحات زغلول نفسه فى البرلمان المصرى فى شهر يونيو ، التى أغلقت الباب الى حد ما دون الاتفاقية . وثانيهما الحوادث التى أجبرت الحكومة البريطانية على القيام بعمل كان يأمل ألا تكون له ضرورة . وقد لاحظ انها كانت غلطة كبيرة أن يحاول أن يستبق اجراء معاهدة باختلاس خطوات يتقدم بها على الطرف الآخر من المفاوضات، كما انها تضع ذلك الجانب فى موقف لا يطاق.

وقد لاحظ زغلول باشا فى اجابته على هذه النقاط أن تصريحاته العامة بخصوص السودان لا تمثل شيئا جديدا ؛ فقد كانت هناك دائما مطالبة مستديمة فى مصر باستقلال السودان . ومنذ ألف وزارته كان الرأى العام فى مصر يطالب بالسودان الذى يعتقد المصريون أن البريطانيين قد أرغموهم على الجلاء عنه وأن

أى تصريح أعلنه بنفسه انما كان مجرد تعبير عن رأى مواطنيه . ومن الناحية الأخرى فإنه يعتقد أن الموظفين البريطانيين فى السودان كانوا يحاولون اغراء السودانيين بتفضيل الحكم البريطانى والتعبير عن كراهيتهم للمصريين . والمقصود بهذه المناورات قلب الوضع الشرعي للسودان الذى استقر منذ وقت طويل . واستشهد كمثال على ذلك بوفد السودان الذى أرسل الى انجلترا ليطالب باستمرار الحكم البريطانى ، وقد جمعت توقيعات على عرائض بهدف التعبير عن غرض مماثل فى جميع انحاء البلاد . ووفقا للوضع الراهن فإن ادارة السودان تقع على عاتق الحكومتين البريطانية والمصرية ، وأن مسألتى العرائض والوفد السودانى ، هاتين ، لتتعارضان مع استمرار هذه الحالة الراهنة.

وقد سعت حكومة السودان بهذه الوسائل الى جعل السودانيين يميلون الى الجانب البريطانى ، وقد بذلوا ما فى وسعهم لتشجيع أى حركة فى صالح بريطانيا العظمى، فى حين كان يعاقب كل سودانى يحاول أن يظهر ولاءه لمصر.

وقد تساءل رئيس الوزراء : متى ؟

وأجاب زغلول باشا أنه يظن أن الحادثة التى يذكرها وقعت فى مايو من هذا العام ، والى جانب ذلك فقد منع من حاولوا مبارحة

السودان الى مصر للتعبير عن ولائهم للملك فؤاد والحكومة المصرية . واستشهد على سبيل المثال فقط بموضوع أحد القضاة السودانيين الذى عاقب شخصا هتف «فؤاد ملك مصر والسودان».

وقال رئيس الوزراء ان كل شئ يتوقف على الظروف؛ فإذا كان العمل الذى قام به هذا المصرى فى السودان يستهدف إحداث اضطراب مدنى فمن المؤكد أن القاضى الذى أدانه كان على حق ، وحكم القاضى اكثر تبريرا ان كان اتخذ فى لحظة عرف فيها ان الاختلافات بين مصر وبريطانيا العظمى ستشكل موضوع المفاوضات المقبلة . انه لا ينتظر من البريطانيين ان يمنعوا اعلان الولاء لبريطانيا العظمى ، وهى تصريحات لا تحدث أى اخلال بالنظام، إن عمل المصريين هو الذى أوجد ذلك الإخلال . لقد كنا مسئولين عن حفظ النظام وعلينا اتخاذ ما يلزم لوقف الاضطرابات، لقد قمنا بذلك وسنفعل ذلك مرة أخرى متى كان ضروريا .

وقال زغلول باشا انه اذا حدثت اضطرابات فى السودان فعلى الحكومتين البريطانية والمصرية أن تتعاونا فى قمعها. لقد ظهر أن الحكومة البريطانية تميل الى العمل منفردة : منذ متى كان لها

الحق فى ذلك ؟ ان الوضع الراهن يقتضى التعاون ولكن الحكومة البريطانية قد انتحلت لنفسها الحق فى أن تعمل منفردة . وهو لا يعارض لحظة واحدة فى حقيقة ان أى شخص يخل بالنظام أو يسفح دما يجب أن يعاقب . وهو يضرب الامثال فحسب ليصور موقف حكومة السودان . إن الشخص الذى يهتف باسم فؤاد يعاقب ، ولكن أى فرد يهتف باسم بريطانيا العظمى لا يمس بسوء . إن الناس الذين يوقعون عرائض الولاء لبريطانيا العظمى لا يعاقبون.

فأجاب رئيس الوزراء أنهم بتوقيعهم العرائض لم يحدثوا اضطرابا فى النظام العام . ان الوفود السلمية لزغلول باشا من أجل مصر ما كانت لتعاقب ، وظروف الحال يجب أن تكون دائما فى الاعتبار، فمثلا اذا هتف بعض الناس هنا «الى الجحيم أيها البابا» فى حي كنيسة كاثوليكية وجب القبض عليهم فى الحال وايداعهم السجن.

وقال زغلول باشا ان الرجل الذى هتف للملك فؤاد لم يفعل ذلك فى لحظة هياج جماهيرى، ودليل ذلك تبرئته فى الاستئناف.

وتساءل رئيس الوزراء : لمن تقدم بالاستئناف ؟

فأجاب زغلول باشا أنه لا يعرف جنسية قاضى الاستئناف ولكن نتيجة الاستئناف تشير إلى أن قاضى محكمة أول درجة

أبدى وجهات نظر ساعدت على تكوين اقتناعه (اقتناع زغلول).

فأجاب رئيس الوزراء أنه أكبر سناً من أن يسقط فى شرك هذا النوع من التعليل . رجل يهتف في الشارع ويحدث اضطرابا من الذى يقبض عليه؟ شرطى . لقد حوكم أمام محكمة أول درجة، حسب كلام زغلول، بواسطة قاض انجليزى أو أى قاض يعمل تحت النفوذ المباشر للحكومة البريطانية . ولكن النفوذ البريطانى اذا كان له أى تأثير، فإنه يكون على المحكمة العليا لا على محكمة أول درجة، بله على رجل الشرطة.

وقال زغلول باشا ان الاستئناف حدث بعد وقوع أحداث معينة حاولت حكومة صاحب الجلالة أن تلقى تبعاتها على الحكومة المصرية.

فأكد له رئيس الوزراء أن هذه لم تكن الحالة .

وقال زغلول باشا انه لا يجادل فى أن الحكومة البريطانية قد أوحت الى الحكومة السودانية أن تسلك هذا السلوك، ولكن ظروف السودان جعلت الموظفين الانجليز يظنون أنهم - بعملهم هذا - يرضون الحكومة البريطانية . وبعد أن وقعت أحداث عطبرة وغيرها ظنوا أن الحكومة البريطانية قد غيرت رأيها وتبعا لذلك عدل الموظفون سلوكهم.

وأشار رئيس الوزراء الى أنه فى القضية الخاصة التى أشار اليها زغلول باشا كان القائم بأعمال الحاكم العام هو الذى أمر بتبرئة الرجل وكان ذلك بعد حوادث العطبرة.

وهنا اعتبر زغلول باشا التبرئة كأنها حكم سياسى.

وقال رئيس الوزراء ان زغلول باشا قد غير رأيه كلية، وإنه يحاول الآن أن يعطى دلالة جديدة تماما لهذه المسألة، وأن رئيس الوزراء حريص على اثبات أن تفسير زغلول الثاني خاطئ تماما كتفسيره الأول.

وقال زغلول باشا انه لا يدعى ان القضاة كانوا يعملون تحت أى ايحاء ولكن الجو (السياسى) فى السودان جعل الموظفين البريطانيين هناك وكأنهم تخلوا عن حيادهم، يعملون لمصلحة حكومتهم وضد مصر.

وقال رئيس الوزراء انه فهم تماما النقطة التى يحاول زغلول باشا طرحها.

وقال زغلول باشا ان الموظف الصغير ملزم أن يبذل جهده ليرضى رئيسه.

والرئيس فى مركزه السامي وباتصاله بحكومته قد يرى من الضرورى أن يجعل وضعه ملائما لأوضاعهم، وهكذا يعدل

تصرفاته ، وليس للموظف الصغير مثل هذا الاتصال المباشر، ومن ثم يتصرف تحت تأثير الجو الذى يحيط به وحده.

وقال رئيس الوزراء انه ليس هناك من هو مسئول عن ذلك.

وأجاب زغلول باشا أن الذى أوجد هذا الجو يجب أن يتحمل المسئولية.

وأجاب رئيس الوزراء بأن الذى أوجد هذا الجو هو الله ، وسلسلة كاملة من الظروف التاريخية، مثل اختيار الحاكم العام بواسطة حكومة صاحب الجلالة، وتنظيم مختلف المصالح السودانية برياسة البريطانيين . اننا لم ندخل تغييرات مفاجئة فى عام ١٩٢٤، وان الظروف التى وصفها تجنح كلها الى خلق الجو الذى وجد فى السودان.

وعلى أى حال فقد وجد نوع آخر من الجو . وإذا اتفق أن سمع ضابط صغير بالجيش ان ثمة نقودا يمكنه الحصول عليها ان هتف للملك فؤاد فإن ذلك يكون طريقا آخر لخلق جو ما، والضابط الصغير بسلوكه هذا يحاول أن يرضى رئيسا خلف الستار ، وقد لا يكون بعيدا جدا عنه.

واذا كان الادعاء ضد بريطانيا العظمى يتمثل فى أن صغار الموظفين كانوا يعملون تحت تأثير الجو وسوء فهم رغبات حكومة

جلالته فإن زغلول باشا يكون قد هبط بالمسألة الى ما يستحق حجز هؤلاء لخمس دقائق.

وقال زغلول باشا ان كل ما يحاول الوصول اليه أنه كان هناك نوع خاص من الجو في السودان .

وقال رئيس الوزراء «نعم» ولكنه تساءل عما اذا كان لا يمكنهم الوصول الى الشئ الحقيقي. فمنذ سنوات عديدة مضت قام نمط معين من التنظيم الحكومي في السودان وكان له وجهان، وجه على الورق ووجه عملي، واذا هو تطلع الى التصريحات والاتفاقيات القديمة لوجد أن هناك دائما اشتراكا بين انجلترا ومصر، وهكذا فإن الخديو كان يعين الحاكم العام، ولكن حكومة صاحب الجلالة هي التي تختاره، وكان في امكان الخديو أن يعزل الحاكم العام، ولكن تلزم موافقة حكومة صاحب الجلالة.

ذلك هو الوجه القائم على الورق ، أما الآن بالنسبة للوجه الواقعي الفعال، فماذا ترى؟ سردار بريطاني يقود الجيش المصرى وجميع القوات الموجودة في السودان ، وحاكم عام بريطاني، ورؤساء بريطانيون للمصالح ، وأعضاء بريطانيون في مجلس الحاكم العام ، وكحقيقة واقعة فإن حكومة صاحب الجلالة هي المسئولة عن القانون والنظام وعن التطور الاقتصادى للسودان.

وعلى أى حال فقد حدث تغيير فى مصر. انها ليست بعد ولاية تابعة لتركيا ولا هى تابعة لبريطانيا العظمى . انها تريد أن تعرف موقفها فى السودان ، وان ذلك لأمر طبيعى . ولكن بينما تسير الامور سيرها هذا فإن أزمة كبيرة يعجل بحدوثها اضطراب فى غير أوانه . ان الذى يريد أن يعرفه هو ما اذا كان من الممكن للحكومة البريطانية أن تفى بما كانت تعتقد أنه التزاماتها الأخلاقية نحو السودانيين ، وأن ترضي فى الوقت نفسه الحكومة المصرية . وأن من واجبه أن يقول فى الحال انه يستحيل تماما عليهم الاتفاق على أى شئ يمكن أن يمس الوفاء بهذه الالتزامات.

وأجاب زغلول باشا أنه مستعد تماما أن يمضى فى هذه المسائل اذا ما عرف أن سوء الفهم بينه وبين رئيس الوزراء قد زال تماما، ويبدو له ذلك فى سبيل التحقيق.

وقال رئيس الوزراء انه يريد أن يعرف لماذا يلزم نفسه قبل أن يقبل ذلك الاقتراح . والموقف لا يزال مضطربا، وهناك احتمال لحدوث اضطراب خطير فى السودان.

وقال زغلول باشا انه وحكومته ليسا مسئولين.

وأشار رئيس الوزراء إلى أنه اذا كان الاضطراب موحى به وممولا من مصر فإن الأمر يكون مختلفا تماما. ان على زغلول أن يقدم برهانا بحسن نيته يقضى على هذا الاضطراب . انه لا يمكن

أن يزعم بالمسئولية المشتركة عن القانون والنظام في السودان، وفي الوقت نفسه يلحظ أنشطة هدامة تحدث في مصر وتصدر عنها.

ورد زغلول باشا مؤكدا أن الحكومة المصرية تجهل تماما صدور أية أموال من مصر الى السودان . وقد سبق له ذكر الكثير من ذلك في خطاب الى رئيس الوزراء.

وقال رئيس الوزراء انه بالطبع يقبل تأكيدات زغلول دون تحفظ، ولكن معلوماته على أية حال تفيد أن أموالا تسربت الى السودان.

وتساءل زغلول باشا عما اذا كان يعرف من أرسل الأموال، ومقدارها ومن تسلمها!

وتعجب مستر موري قائلا انه اذا حصلت حكومة السودان على كل هذه المعلومات فإن الاموال لن تصل الى الجهة المقصودة، ولن تسبب أي أضرار.

وتساءل رئيس الوزراء - تاركا الموضوع الآخر جانبا - عما اذا كان يمكن إنكار إرسال تلك البرقيات الهدامة علنا من مصر الى السودان.

وتساءل زغلول باشا : لأي غرض ؟ وهل كانت لاثارة المتاعب؟

فرد رئيس الوزراء بالايجاب وقال ان ذلك هو الموقف.

وقال زغلول باشا انه يتوق أن يعرف رئيس الوزراء أن السودانيين لا يكرهون المصريين، بل على العكس يحبونهم ، وهم في الحقيقة يفضلونهم على الانجليز، واذا وضع رئيس الوزراء ذلك في اعتباره لكان فيه عون كبير . وقال زغلول باشا انه يتكلم عن علم، وهو فى مصر على صلة بالموقع، وهو ملم بكل ما يتحدث فيه، ويزيد على ذلك أن السودانيين لا يحبون الانجليز ، وليس من رابطة توحد بينهم، لا الدين ولا اللغة ولا حتى الشراب . انه لا يستطيع أن يدرك كيف يتصور رئيس الوزراء أنهم يرغبون فى الانجليز؟

وقال رئيس الوزراء ان هذه مسائل كبيرة تتعلق بعلم أصول الانسان (الانثروبولوجى) وعلم الاجتماع (سوسيولوجى).

وقال زغلول باشا انه يأمل جادا أن يتقبل رئيس الوزراء تأكيده بأن السودانيين لا يحبون الانجليز كما تقبل تأكيده الآخر.

وقال رئيس الوزراء انه يعتقد أن ذلك هو رأى زغلول.

وقال زغلول باشا ان رئيس الوزراء اعتبر تصريحاته (تصريحات زغلول) مسئولة الى حد ما عن المتاعب فى السودان، ولكن لماذا تعتبر هذه

التصريحات أكثر مسئولية من تصريحات رئيس الوزراء نفسه.

وأجـــاب رئيس الوزراء أن المتـــاعب قـــامت قـــبل أن يدلى بتصريحاته التى أدت فى الحقيقة إلى تهدئة الحال .

ولم يسـتطـع زغلول باشـا أن يتـقـبل هـذا الرأى فـإذا كـانت تصـريحـات رئيس الوزراء قد أدت إلى اعـادة النظام فلمـاذا وجب ارسال الطائرات والجيوش والسفن ؟

وقـال رئيس الوزراء انه اذا لم يكن لتـصـريحـاته أثر مـهـدئ لاضطر أن يرسل ضعف هذا العدد.

وقال زغلول باشا ان الحكومة المصرية لن ترسل شيئا.

وقال رئيس الوزراء انه لم تكن ثمة ضرورة اذا كان ضباطهم المحرضون على نشر الفتنة موجودين فى جميع أنحاء السودان.

وقـال زغلول باشـا ان الكتـيبـة التى اتصلت بالاضطرابات لم توجد فى السـودان للمحـافظة على القانون والنظام ولكنها وجدت منذ ١٨٩٩ لانشـاء السكك الحديدية وغيرها من الأعمال العامة، بينما أرسلت الحكومة البريطانية طائراتها للمحافظة على القانون والنظام.

وتهكم رئيس الوزراء قـائلا إنهـا أرسلت لاسـتـعـادة القـانون والنظام اللذين قلبت أوضاعهما الدعاية المصرية.

وأنكر زغلول باشا انه كانت هناك دعاية فى السودان لصالح مصر، وحتى لو قبلنا من باب الجدل ذلك، فليس فى الأمر جريمة.

وأجاب رئيس الوزراء «لا» ولكن خلق الاخلال بالنظام جريمة . وان القوات لم تتحرك الا بعد أن استوجبت الاضطرابات هذا التحرك . لقد ثارت الاضطرابات فى كتيبة مصرية، وكان على القوات البريطانية أن تحمى تلك الكتيبة من القوات العربية.

وتساءل زغلول باشا أية محكمة حاكمت أولئك الذين اتهموا بإثارة الفوضى؟

وأجاب رئيس الوزراء انها محكمة مختلطة تضم موظفين مصريين وبريطانيين.

وتساءل زغلول باشا عمن الذى شكلها ؟

وأجاب رئيس الوزراء أن السلطات المختصة هى التى شكلتها وهو لم يوقع اتفاقية ١٨٩٩ وتساءل عما اذا كان ثمة زعم بأن المحكمة أسئ اختيارها.

وأجاب زغلول باشا أن أعضاء المحكمة من المصريين كانوا من صنائع الحكومة البريطانية يدينون لها بكل شئ.

وتساءل رئيس الوزراء عم اذا كان المفروض أن يعين القضاة ممن يستفيدون مباشرة من سقوط النظام الحالى . إن القضايا التى تقدم للمحاكمة قضايا عسكرية، تمرد وخرق للنظام العسكرى. فأى نوع من المحاكم ينظر هذه القضايا مدنية كانت أم

عسكرية فى ظل الدستور المصرى؟ ورئيس الوزراء مستعد أن يساند الاجابات التى يدلى بها زغلول.

هذا صنف من القضايا، ولكن هناك المدنى الذى أيد وأغرى المتمردين العسكريين . أين حوكم؟ وهل زعم أن محاكم خاصة خارج القانون أو الدستور قد عقدت لمحاكمته؟ اذا لم يكن حدث ذلك فليس هناك قط أساس للشكوى من السلطات البريطانية.

وقد فهم أن زغلول باشا يعبر عن موافقة عامة.

وقال رئيس الوزراء إنه ربما كان حدث سوء تفاهم بينهما فى الماضى ولكنه كان دائما يتلاقى معهم فى نفس الطريق وكان دائما مستقيما تماما.

وأجاب زغلول باشا انه يدرك تماما ان رئيس الوزراء شخصيا مستقيم دائما.

وأضاف رئيس الوزراء انه كان كذلك فظا للغاية.

وقال زغلول باشا إن ثقته فى رئيس الوزراء جعلته لا يستسلم لمشاعره حينما تسلم خطابه بتاريخ ٢٣ أغسطس.

وقال رئيس الوزراء انه لاقى بعض الصعوبة فى التحكم فى مشاعره حينما قرأ بيان الحكومة المصرية، وانه اذا لم يكن يعرف زغلول شخصيا لكان خطابه صيغ فى عبارة أشد.

وقد عبر زغلول باشا عن أسفه لأن رئيس الوزراء انتقد بيان الحكومة المصرية وقرأه بتلك الروح . وانه هو نفسه كان من الممكن أن ينقده بطريقة مخالفة تماما . ولو كان فى مصر لما نشر البلاغ ولكنه كان ينشر مذكرات مستر كير نفسها . إذ أشارت احداها الى فصيلتين بريطانيتين أرسلتا لحفظ النظام، وذكرت الأخرى ان لم توجد فى الواقع قوات بريطانية . وكان عليه أن يدع المصريين يصلون الى استنتاجهم.

وقال رئيس الوزراء انه للعمل بهذه الطريقة فلابد من اخفاء بعض الحقائق.

لقد تيقنت الحكومة المصرية فى الوقت الذى نشرت فيه بلاغها بتاريخ ١٥ أغسطس ان القوات التى اطلقت النار على كتائب السكك الحديدية كانت قوات عربية برياسة ضابط مصرى.

وقال زغلول باشا انه اذا كانت المستندات قد نشرت بالنظام الذى سلمت به، لفهم المصريون ان القوات البريطانية هى التى أطلقت النار وقد صححت الأخبار الواردة فيما بعد - بالطبع - هذا الأثر وبينت انها كانت - فى الحقيقة - قوات عربية وكان البيان الرسمى حسبما كتبت مسودته فى صالح الحكومة البريطانية الى حد ما . انها لم تكن مسألة خداع لقد قالت

. الحكومة البريطانية ان القوات البريطانية قد أرسلت لغرض خاص – هو استعادة النظام وحينما حدث اطلاق النار أخيرا كان من الطبيعى استنتاج ان القوات البريطانية هى التى قامت بالضرب.

وقال رئيس الوزراء إن الفصيلتين البريطانيتين قامتا حقيقة بحفظ السلام . ولكن حدث ذلك بين فرق السكك الحديدية والقوات العربية التى كانت تحرسها .

وقال زغلول باشا إنه لايريد أن يتوغل فى الموضوع ولكنه لايعتقد أنه كان من الإنصاف وصف الحكومة المصرية بما وصفت به ، وإن فى حوزته قصاصة من «الديلى إكسبريس» فيها نص برقية من مراسلهم بالخرطوم (وقد أورد ذكر اسمه) ذكر أن ضابطا أبلغه (وأورد اسمه أيضا) أنه أعطى الأمر بإطلاق النار فى حالة الإثارة البالغة وحدها ومع الأسف .

وقال رئيس الوزراء إنه لايثق فى كلمة تظهر فى «الديلى إكسبريس» التى يقوم عليها مجموعة من أفراد يتسترون برداء من الاحترام ، حسب الاصطلاح الصحفى . وقال ذلك دون رغبة فى إلصاق أى تهمة شخصية بمراسلهم فى السودان . وقد جرت معلوماته إلى إظهار الحكومة المصرية عارفة بالحقائق ، ومع ذلك أصدرت بلاغها الرسمى الذى صيغ – إما خطأ أو عمدا – بطريقة

تضلل الشعب المصرى . إن ذلك هو ما أثار مشاعره إلى حد بعيد.

وقال زغلول باشا إن معلومات رئيس الوزراء ليست صحيحة .

وقال رئيس الوزراء إن ما يلفت النظر أنه كان يجب أن تحتج دار المندوب السامى فور نشر البيان . وقد اتهمتنا الصحافة المصرية قبل ذلك النشر مباشرة بإثارة الاضطراب لأهدافنا الخاصة وبقتل الوطنيين الأبرياء ، ثم جاء هذا البيان الرسمى . ثم تعمدت الحكومة المصرية - مع معرفتها جميع الحقائق - نشر مايشعل المشاعر التى كانت أثارتها الصحافة فعلا .

وقال زغلول باشا كم كان من الأفضل لو نشرت الحكومة المصرية مراسلاتها مع دار المندوب السامى ، دون البيان الرسمى . إنه يعتقد أن ذلك كان سيثير نقمة أشد .

وقال رئيس الوزراء أن ليست تلك هى المسألة . إن الحكومة المصرية تعلم جميع الحقائق . وتعلم أن الموضوع المهم فى المحادثات هو عطبرة ، ومع ذلك تركوا الجمهور عمدا يظن أن القوات البريطانية هى من أطلق النار .

وأعاد زغلول باشا ما يعتقده جازما أن كان واجبهم نشر الرسالة لا البيان ، حتى يصل الشعب المصرى إلى نتيجة واحدة ،

وهى أنه مادام اطلاق النار حدث بعد وصول القوات البريطانية ، فتكون هذه القوات هى من أطلق النار .

وقال رئيس الوزراء إن هذا التسليم يثبت حقه .

وقال زغلول باشا إنه إذا فرضنا أن الحكومة المصرية لا تطمئن إلى المعلومات المبلغة إليها ، فهل من الصواب اعتبارهم غير شرفاء ؟

وقال رئيس الوزراء إنه يجب أن يدعه يقرأ معلوماته بطريقته الخاصة ، وليس من الضرورى أن يكون ذلك بنفس الطريقة التى يقرأ بها زغلول باشا معلوماته . فاذا افترضنا أن الحرس الإسكتلندى وجد هذا الصباح فى داوننج استريت من باب الاحتياط ، وقامت بعض الاضطرابات بعد وصول زغلول ، واستدعى رئيس الوزراء الحرس الأيرلندى زيادة فى الأمن ، ونشر فى اليوم التالى بلاغ رسمى بأن الاضطرابات قامت وأن القوات أطلقت النار وأن زغلول باشا جرح لسوء الحظ ، فسيعتقد كل الناس أن الحرس الأيرلندى هو الذى أصابه ، وربما كانوا هم فى الحقيقة من أنقذ حياته . إن بعض الحق كثيرا ما يكون باطلا متعمدا .

وقال زغلول باشا إن هناك درجتين : الخطأ أو الميل المتعمد للتضليل وهو يعتقد أن من الأمور الشاقة افتراض أن الحكومة المصرية صدرت عن هذا الدافع الثانى .

وقال رئيس الوزراء إنه لابد أن يفترض أن الحكومة المصرية تتكون من رجال على جانب كبير من الذكاء .

وقال زغلول باشا إنه حتى الأذكياء يخطئون أحيانا .

وقال رئيس الوزراء إن عليه أن يقدر ظروف الوقت فاذا لم يكن يذكر شىء فى الصحافة المصرية عن ١٤ أغسطس أو ماقبلها ، أو إذا كانت تعليقاتهم على الحوادث معتدلة ومنصفة ، فلم يكن لرئيس الوزراء أن يقول كلمة واحدة وعليه أن يفترض أن البيان كان غلطة .

وقال زغلول باشا إنه كثيرا مايحدث أن ينسى شخص احدى الحقائق مع علمه بها جميعا . فمثلا ذكر رئيس الوزراء فى أحد خطاباته إلى زغلول أن زغول قرر ألا يتفاوض ، بينما كان رئيس الوزراء نفسه هو من قرر ذلك فى الحقيقة .

رجع رئيس الوزراء إلى نص خطابه المؤرخ ٢٣ أغسطس وقرأ الفقرة : «إننى مضطر على كره منى أن أفترض أن الحكومة المصرية متنبهة تماما إلى هذه الاعتبارات وأنها تتابع سياقها

الحالى لتمنع المفاوضات التى بدأت بيننا .. إنهم يقضون على الأساس الوحيد الذى يمكن أن تقوم عليه المفاوضات ، وأن المسئولية بتمامها لتقع على الحكومة المصرية» . وقد أبعد زغلول عن تصرفاتهم (الحكومة المصرية) . وأباح لنفسه أن يخطابه كصديق خاص لا كعضو أو رئيس للحكومة المصرية . وأن نص الجملة يفيد أنه يفترض رغبة كليهما فى المفاوضات . انه لم يقل إن الأساس الوحيد قد قضى عليه ولكن الحكومة المصرية كانت تعمل على القضاء عليه - وهناك اختلاف واضح فى التعبيرين .

وقال زغلول باشا إنه يوجد سوء فهم آخر . إن رئيس الوزراء كتب وقال إن المفاوضات قد تجرى فى أواخر سبتمبر ، وأخبر زغلول اللورد اللنبي أن هذا الموعد يناسبه ، وانتظر أن يصله التاريخ المحدد ، ثم صدر بيان وزارة الخارجية يذكر أن زغلول لم يجب أبدا دعوة رئيس الوزراء ، وأنه لم يعرف ما إذا كان اعتزم الحضور إلى انجلترا أم لا .

وقد أوضح رئيس الوزراء أن لم يكن له شأن بهذا البيان فإن كان قد صدر من وزارة الخارجية - الأمر الذى يشك فيه كثيرا - فإنما يكون قد صدر وهو غائب عن لندن . وكثيرا ما تعلن الصحافة أن بيانات ما رسمية رغم عدم وجود شىء يتصف بهذا

الوصف . ولا يستطيع زغلول تحديد متى صدر البيان ، هل صدر في أغسطس أو أوائل سبتمبر . وهو لابد أن يتذكر أن كثيرا جدا من التصريحات حول نواياه أو ما يشبهها كانت تنتشر فى ذلك الوقت .

وقال زغلول باشا إن الموقف يتلخص فى ثلاثة أمور : أولا - أن المسلم به أنه ليس هو الذى اتخذ القرار بعدم المفاوضة ، وثانيا - انه انتظر تحديد موعد ، فلم يتم الا بعد أن اقترح ترك الباب مفتوحا ، وثالثا - أن الحكومة المصرية التى يرأسها لم تكن مخادعة .

وأجاب رئيس الوزراء أنه بالنسبة للنقطة الأولى فقد كان كلاهما سواء . إن واحدا منهما لم يقرر عدم المفاوضة ولو انه حذر زغلول من أن الحوادث تجعل أمر المفاوضات صعبا . وهو على استعداد أن يقبل رأى زغلول فى النقطة الثانية . وأما فيما يختص بالنقطة الثالثة فقد أوضح موقفه بأمانة تامة . وهو لايزال عاجزاً عن فهم كيف نشرت الحكومة المصرية ذلك البيان .

وقال غلول باشا انه عاجز تماما عن أن يوافق على أن حكومته كانت بأية حال غير أمينة .

وقال رئيس الوزراء انه أوضح سبب استعماله العبارة التى قالها . إن زغلول باشا لايقدر على تقبلها ، وهكذا لابد أن تستقر

الأمور . والنقطة التى صاغها رئيس الوزراء فى خطابه أن البيان كان غير أمين ومضللا . ومع كل مافى الوجود من رغبة فى عدم الهجوم فانه لايفهم أن البيان كان أى شىء آخر إلا انه غير أمين . والآن فان هناك نقطة رابعة وهى أنه هو وزغلول قد تلاقيا أخيرا .

وافق زغلول باشا ولكنه قال إنه لايزال يأسف أن رئيس الوزراء يعتبر نفسه يخاطب رئيس حكومة غير أمينة .

وقال رئيس الوزراء (لا) إن ما قاله كان عن بيان غير أمين .

وقال زغلول باشا إن الصفة لاتنطبق اذن على زملائه .

وقال رئيس الوزراء انه من الواضح تماما انه كان يشير إلى البيان .

وألح زغلول باشا إلى أنه لايمكنه العمل أبدا مع حكومة غير أمينة .

وأجاب رئيس الوزراء انه متأكد أنه لا يمكن ذلك .

وقال زغلول باشا انه قال ما فيه الكفاية وبوده أن يرى رئيس الوزراء مقتنعا .

وقال رئيس الوزراء إن زغلول باشا قد أوضح موقفه وهو يأمل أن يتحقق زغلول من أن شعوره (شعور رئيس الوزراء) عند

الاطلاع على البيان كان شعورا بالغ السخط . وإذا كان قد شعر أن زغلول باشا مسئول عنه فما كان في وسعه أن يكون له ثقة بعد ذلك .

وقال زغلول باشا إن رئيس الوزراء قد غضب بسبب البيان ، وإنه مستعد أن تقف المسألة عند هذا الحد .

وقد عمل الترتيب بعد ذلك أن يعقد اجتماع آخر ، في اليوم التالى إذا أمكن ، على أن يقرر ذلك فى فترة بعد الظهيرة .

وقد ووفق على القرار التالى للصحافة وانتهت الجلسة فى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر .

«عقد اجتماع هذا الصباح فى ١٠ داوننج استريت بين صاحب الدولة سعد زغلول باشا ورئيس الوزراء ، وكانت المباحثات ذات طبيعة تمهيدية قصد بها جلاء موقف كل من الحكومتين البريطانية والمصرية فيما يتعلق بمختلف وجوه سوء التفاهم التى كانت تنشأ بين حين وآخر منذ وجهت الدعوة الأولى إلى زغلول باشا فى أبريل . وقد تقرر عقد اجتماع لاحق» .

(٣)

من المستر ماكدونالد إلى زغلول باشا
وزارة الخارجية فى ٢٥ سبتمبر ١٩٢٤

عزيزى رئيس الوزراء

لقد سعدت بأن محادثاتنا الودية الطويلة التى جرت هذا الصباح ، قد مكنتنا من اقامة علاقة شخصية وثيقة كنت أقدر دائما أنها لازمة للوصول إلى تسوية مرضية بين بلدينا .

وأشعر أنه في لقائنا القادم الذى أقترح أن ينعقد هنا فى الثانية والنصف بعد ظهر يوم الاثنين ، سنحاول أن نعالج المشاكل الرئيسية التى نرغب رغبة صادقة أن نجد لها حلا . ومع مراعاة هذا الأمر فانه ليسعدنى أن أسمع وأن أبحث أى الاقتراحات قد ترغب دولتكم في طرحها للتوفيق بين المطالب المصرية المشروعة ، وبين المسئوليات البريطانية التى يتعين على النهوض بها .

وفى تشكيل هذه المقترحات ، يلزم أن أرجو دولتكم أن تتذكروا - كما أبلغتكم هذا الصباح - أنه من المستحيل على اطلاقا الموافقة على أى اقتراح يتعارض مع إنجاز ماتعهدت به الحكومة

البريطانية للسودانيين أو يمنعنا من ضمان استمرار سياسة التطور الداخلي والتهدئة التي نعتبر مسئولين عنها دواما ، وبمثل النجاح الحاصل .

وإني أتطلع إلى لقائكم إذا تلاءم هذاالموعد مع راحتكم وتأكد أنني .. الخ .. الخ .

ج . رمزي ماكدونالد

من زغلول باشا إلي المسترماكدونالد (تسلم في وزارة الخارجية ١ أكتوبر) .

فندق كلاردج شارع بروك

٢٦ سبتمبر ١٩٢٤

عزيزي رئيس الوزراء

يسرني كل السرور أن ألحظ ما كان لاجتماعنا من نتائج سعيدة بإقامة اتصال شخصي وثيق مرغوب فيه بين شخصينا . وإنني سعيد بالمثل ، لما فهمته من اقتراحكم التبكير بالمفاوضة من أن سوء الفهم الذي نشأ أخيرا بين حكومتينا قد تبدد .

وعلى كل حال فإنه يلزمني أن أسجل أسفي العميق من أن الاقتراحات المبينة في خطابكم لاتتفق مع ما تحمله المراسلات المتبادلة بيننا مباشرة أو عن طريق اللورد اللنبي .

وكان المفهوم بيننا أن المفاوضات ستكون حرة وغير مقيدة ، وأن حقيقة اشتراكنا فيها لاتجحف ، بأى حال ، بالحقوق المصرية.

إن القيود المفروضة على المفاوضات الحرة كما يقررها خطابكم، على الأقل فيما يختص بالسودان ، قد تخطت تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى أيدته حكومتكم ورفض من جانبى .

وفى ظل هذه الظروف ، يؤسفنى أنه على الرغم من رغبتى المخلصة الصادقة لإقامة اتفاق ودى بين بلدينا ، فمن المستحيل اطلاقا على أن أتفاوض على هذه الأسس ، وأن أخضع للقيود المبينة فى خطابك .

وأنى آمل ، على أى حال ، أن تسنح فرصة أخرى لنجتمع ونبحث ، على قدم المساواة ، أحسن الوسائل الموصلة إلى تسوية ودية بين بلدينا .

ولا زلت الخ .. الخ .

س . زغلول

من المستر ماكدونالد إلي زغلول باشا
وزارة الخارجية فى ٢٦ سبتمبر ١٩٢٤

عزيزى رئيس الوزراء

أتقدم لدولتكم بالشكر على خطابكم المؤرخ ٢٦ الجارى * وبغير التعرض لمحتوياته التي لا أظن أنها تقوم على أساس ما قصدت كتابته ، فانى أفترض أنك مستعد لمواصلة محادثاتنا ، وأنك توافق على اقتراحي لعقد اجتماع يوم الاثنين فى الثانية والنصف مساء ، بعد الغداء الذى أمل أن تسعدنى فيه رؤيتك .

وتأكد أننى .. الخ .. الخ .

ج . رامزى ماكدونالد

***

محضر الجلسة الثانية المنعقدة فى ١٠ داوننج استريت في ٢٩ سبتمبر ١٩٢٤ في الساعة الخامسة مساء .

حضر الاجتماع رئيس الوزراء ، وزغلول باشا ، والدكتور حامد محمود ، وكامل بك سليم ، والمستر سلبى والمستر مورى .

تأسف زغلول باشا أن جاءت زيارته فى وقت انشغال رئيس الوزراء .

---

* من المستر كير إلى المستر ماكدونالد (تسلم فى ٢٩ سبتمبر) (رقم ٣١٨) الاسكندرية فى ٢٨ سبتمبر ١٩٢٤ (بالبرق) .

أبلغ زغلول باشا الملك فؤاد أن اجتماعه بكم يوم ٢٥ سبتمبر كان مرضيا، وأنه ليس فاقد الرجاء فى أن تكون المفاوضات ممكنة .

وقال رئيس الوزراء إنه يأسف بالمثل ولكن متى يمكن أن يتوقع ألا يكون مشغولا ؟

وقال زغلول باشا حين لاتكون هناك مسألة ايرلندية ولا معاهدة روسية تقلقان باله .

وقال رئيس الوزراء إن عليه أن يتناول الأمور كما وجدها ، وسيمر وقت طويل قبل أن يتمكن من أن يعتبر وقته ملكا له ، وبوده أن يوضح أن عبارات خطابه المؤرخ ٢٥ سبتمبر لا تعنى قط مايبدو أن زغلول باشا قد فهمه منها . فاذا كان زغلول باشا يريد إبلاغه أن الرأى العام المصرى ألزمه باتخاذ موقف معين ، فان رئيس الوزراء لايعتبر نفسه مقيدا بذلك أكثر مما ينوى إلزام زغلول به ، مما يأخذه رئيس الوزراء فى اعتباره من المؤثرات ، وكلاهما خاضع للقيود التي يفرضها عليه الرأى العام لديه ، وليس أى منهما فى موقف يسمح له بفرض أى قيود على الآخر . وعلى هذا الأساس فهو مستعد أن يصغى لما يريد زغلول قوله .

وقال زغلول باشا إن مفهومه عن المفاوضات يعنى أن شخصين تقابلا لمناقشة مسألة ما على أساس المساواة التامة . لقد فهم من خطاب رئيس الوزراء أنه (زغلول) مطلوب منه صياغة اقتراحات تراعى الوضع البريطاني فى مصر ، وساعتها يزن رئيس الوزراء

اقتراحاته (زغلول) ويقدرها . والإجراء الصحيح فى رأى زغلول أن تطرح المشكلة أولا ثم يبحثها الجانبان على قدم المساواة . والحادث من الناحية العملية أنه محظور عليه التقدم بأى اقتراحات ، مادام أنه لايرد ذكر السودان حتى تفرض القيود فورا .

وقال رئيس الوزراء انه كتب خطابه بوضوح لكى يحدد المشكلة، وليضعها على بساط البحث ، لا ليحد من حرية زغلول .

وقال زغلول باشا إنه يكتفى بهذا التوضيح .

واستفسر رئيس الوزراء عما إذا كانا بلغا درجة يستطيع فيها زغلول باشا أن يذكر مايقترحه عن السودان .

وقال زغلول باشا انه لايريد أن يصل إلى هذه المسألة الآن ، وما يريد معرفته هو هل تبدد سوء الفهم بخصوص مصر ولم يبق ما يأسف له رئيس الوزراء .

وقال رئيس الوزراء إن الاقتراح الأخير فضفاض إلى حد ما ، وفى رأيه أن سوء الفهم قد تبدد إلى درجة أنهم صاروا فى موقف يسمح لهم بمعالجة المشاكل الكبرى وهو على استعداد تام للبدء إن كان زغلول مستعدا بالمثل .

وتساءل زغلول باشا هل يفهم فى هذه الظروف وبغض النظر عن المشاكل الكبرى ، انه لايوجد خلاف آخر معلق بين الحكومتين المصرية والبريطانية .

وقال رئيس الوزراء إن هناك التحفظات الأربعة وأى شىء آخر يرغب زغلول باشا فى إثارته .

وكرر زغلول باشا أنه يرغب فى الاطمئنان أن سوء الفهم قد تبدد .

وتساءل رئيس الوزراء عما يعتزم زغلول باشا بالضبط أو ماذا يريد .

وأجاب زغلول باشا أن مايدور فى رأسه هو المسائل المشار اليها فى خطاب رئيس الوزراء المؤرخ ٢٣ أغسطس ، فهل هذه المسائل التى سببت أسف رئيس الوزراء قد أزيلت الآن إلى الحد المرضى .

وقال رئيس الوزراء انه لابد من جلاء هذه المسألة تماما . إلى أى الأحداث يشير زغلول باشا ؟ .

وافترض زغلول باشا أن رئيس الوزراء يشير إلى خطابه الخاص .

وكرر رئيس الوزراء استفساره «إلى أى الأحداث يشير زغلول باشا؟» .

فأجاب زغلول باشا انه كانت هناك نقاط أربع : –

١ – المسائل المذكورة بصورة عامة .

٢ – تخلص الحكومة المصرية من كل المسئوليات عن حوادث السودان ووقوع تلك المسئوليات على كاهل بريطانيا العظمى .

٣ – بيان الحكومة المصرية .

٤ – تصريحاته الخاصة فى البرلمان .

وتساءل رئيس الوزراء إذا ما كانوا فعلا يتكلمون عن أشياء جوهرية أم أنهم فقط يحومون حول الموضوع . إن جميع هذه الموضوعات قد درست فى لقائهم الأخير ، وهو راض أن يتركها فى هذا الوضع . فهل زغلول كذلك ؟

وقال زغلول باشا انه راض أيضا اللهم إلا عن التحفظ الخاص بالسودان .

وتساءل رئيس الوزراء «أى تحفظ» ؟

وأجاب زغلول باشا انها النقطة التى ذكرت فى مناقشتهم الأخيرة والتى أكدها خطاب رئيس الوزراء المؤرخ ٢٥ سبتمبر

ومفادها أنه يستحيل على الحكومة البريطانية أن تتنازل عن مسئولياتها .

وقال رئيس الوزراء إن هذه لم تكن نقطة سوء فهم ، بل كانت نقطة مفاوضات . فهل زغلول باشا مستعد لمناقشتها ؟

وقال زغلول باشا إنه وقد انجلت جميع النقاط التى أسيء فهمها فهو مستعد تماما لبدء المناقشات .

وسأل رئيس الوزراء عما إذا كان زغلول مستعدا للإفصاح عن موقفه ، فهو مستعد بدوره أن يدلى لزغلول باشا برأيه .

وقال زغلول باشا إن عليهم أن يتبعوا النظام الطبيعى للأشياء وأن يبدأوا بالحديث عن مصر ثم يناقشون مسألة السودان فيما بعد .

وقال رئيس الوزراء إن مسألة السودان مسألة عاجلة ، وإن الأحداث تتوالى بسرعة وتلح فى طلب الحل ، وليس الأمر كذلك بخصوص مصر .

وكرر زغلول باشا انه لايريد قلب النظام الطبيعى للأشياء .

وأوضح رئيس الوزراء أنه ما كان ليخفى أمرا عن زغلول ، وعليه أن يعالج الموقف فى السودان من يوم إلى آخر . ولا يمكنه

أن يتركه معلقا إلى مالا نهاية ، وهو يريد أن يعرف دون توان ، هل يمكن أن يصلا إلى اتفاق بشأنه . وتساءل عما إذا كان زغلول مستعدا أن يصل بالمناقشة إلى مثل هذا الاتفاق .

وأكد زغلول باشا لرئيس الوزراء أنه لايرتاب فى احتياله بلوغ هذا الوضع . وأنه يثق فى كونه مخلصا كإخلاصة هو لهذه المسألة، والخلاف الوحيد بينهما هو مجرد تباين فى الرأى . إذ يريد رئيس الوزراء أن يبدأ بالسودان ويريد هو أن يبدأ بمصر .

وقال رئيس الوزراء إن عبارة «النظام الطبيعى» ، لاتعنى شيئا فى نظره .

وقال زغلول باشا إنه إذا كان لا خلاف بين الأمرين فى رأى رئيس الوزراء ، وإذا كان من رأى زغلول أن تبدأ المناقشة بمصر ، فلم يرفض رئيس الوزراء أن ينزل على رأيه ؟ .

وقال رئيس الوزراء انه منذ تولى زغلول الوزارة ، كانت حكومة صاحب الجلالة تتسلم عشرين رسالة عن السودان مقابل كل رسالة عن مصر ، مما جعله يتصور أن مسألة السودان هى مايشد اهتمام زغلول باشا .

وقال زغلول باشا إن السودان لايزال يعتبر فى مصر حتى اليوم أكثر أهمية من أية مسألة أخرى . فهل ثمة فرصة لايجاد حل له ؟

وقال رئيس الوزراء إن أى اتفاق يصلان اليه يجب أن يشمل كلا من مصر والسودان . وقد يفشلان فى واحدة أو أخرى ، وفى هذه الحالة لن يكون ثمة اتفاق .

ورجا زغلول باشا أن تبدأ المناقشات بمصر .

وقال رئيس الوزراء إنه سحب اعتراضه وإنه يسأل زغلول باشا عن اقتراحاته .

وأجاب زغلول باشا إن مصر بيته . وأن البيت له .

وقال رئيس الوزراء إن لبريطانيا مصالح هناك .

وتساءل زغلول باشا عن تلك المصالح وأية ضمانات يطلبها رئيس الوزراء من أجلها .

وقال رئيس الوزراء إن عليهم أن يعتبروا بالأمر الواقع ، وقد احتفظ بالأمر الواقع للمفاوضات ، لقد وصف زغلول باشا مصر بأنها «منزله» ، ما معنى هذه العبارة إزاء الأمر الواقع ؟ وما التغيرات التي يجب أن تحدث حتي يرضى زغلول باشا ؟ .

وقال زغلول باشا إن الأمر الواقع يشكل وضعا شاذا ، والوضع الطبيعى أن تكون «مصر للمصريين» . فلِمَ يتكلم رئيس الوزراء عن الأمر الواقع ؟ .

وقال رئيس الوزراء إنه يجب أن يكونوا ذوى نظرة عملية . فما هى التغييرات التى يريد زغلول باشا أن يراها نافذة في الأمر الواقع ؟ .

وأجاب زغلول باشا إنه يريد أن تكون مصر مستقلة .

وقال رئيس الوزراء إنه لا حاجة بزغلول باشا أن يؤكد ذلك له . إنه يريد أن يعرف نقطة نقطة . فمثلا فيما يتعلق بالوضع العسكرى ، والتغييرات المتعددة التى يريدها زغلول باشا .

وقال زغلول باشا إن للبريطانيين جيشا فى مصر وهو يريد انسحابه .

وتساءل رئيس الوزراء عما يريد أيضا . انه لم يعش فى القاهرة ولم يكن مصريا ، لقد علم أن الأمر الواقع غير مقبول لدى زغلول ، ولكنه يريد أن يعرف تماما ما على الحكومة البريطانية أن تصنعه لتحقق أمانى المصريين فى الاستقلال . وعلى فرض أن الجيش البريطانى قد انسحب فهل هذا كل ما كان هنالك ؟ انه يريد أن يعرف الموقف بدقة نقطة نقطة .

وأجاب زغلول باشا أنه سبق له ذكر النقطة الأولى (عن الجيش) . أما النقطة الثانية فهى وجوب ألا تمارس الحكومة البريطانية أى نوع من الرقابة على الحكومة المصرية .

وقد طلب رئيس الوزراء مثالا لهذه الرقابة .

وقال زغلول باشا إن هناك المستشار المالى والمستشار القضائى مثلهما كالجيش الذى سلفت الإشارة اليه .

وتساءل رئيس الوزراء عما إذا كان يريد اقصاء المستشارين المالى والقضائى .

ورد زغلول باشا بالايجاب .

وتساءل رئيس الوزراء عما إذا كان ثمة نوع آخر من الرقابة يريد رفعه .

وقال زغلول باشا إن العلاقات بين مصر والدول الأجنبية مقيدة بإخطار حكومة صاحب الجلالة إلى الدول الأجنبية (١٥ مارس ١٩٢٢) . كما أن المندوب السامى يجب أن يكون مجرد وزير كغيره من الممثلين الدبلوماسيين .

وقال رئيس الوزراء إنه يريد أن يعرف بالضبط أين يقفون . النقطة الأولى هى الجيش . والنقطة الثانية هى الرقابة . وإذا كان زغلول باشا نسى تفاصيل ، فيسهل اضافتها إلى الثبت . وهو لايريد محاسبته على كل كلمة قالها . والآن ماهى النقطة الثالثة ؟.

وأجاب زغلول باشا انه لايمكنه أن يتذكر عفو الخاطر كل نقطة ، ولكنه بصفة عامة يريد أن يختفى كل أثر للرقابة البريطانية .

وقال رئيس الوزراء انه أراد أن يعرف بالضبط أين موضع الألم .

وقال زغلول باشا إن حكومة صاحب الجلالة يجب أن تتنازل عن دعواها حماية الأجانب فى مصر ، والأقليات وقناة السويس (المواصلات) .

وتساءل رئيس الوزراء عما إذا كان من لوازم مطلب الاستقلال للمصريين حقا ، ألا يكون لحكومة صاحب الجلالة شأن البتة بحماية القناة .

وأجاب زغلول باشا «اطلاقا» .

وقال رئيس الوزراء انه يأسف لسماع ذلك .

وقال زغلول باشا انه يأسف لذلك هو الآخر .

وسأل رئيس الوزراء عما إذا كان ثمة نقاط أخرى .

وسأل زغلول باشا أليست القناة أيضا فى مصر ؟ .

وقال رئيس الوزراء إن كثيرا من الدول قامت حمايتها على اتفاقيات خاصة .

وقال زغلول باشا انه يرحب بأى حل يقوم على هذه الأسس . وفى رأيه انه يمكن جعل القناة دولية .

وتساءل رئيس الوزراء عما إذا كان قد ذكر جميع المطالب المصرية . وعلى فرض الاستجابة لكل هذه الطلبات فهل تكتفى مصر ؟ .

وأجاب زغلول باشا أن هذا كل ما هنالك حتى الآن .

وقال رئيس الوزراء إنه لايصر على طلب إجابة فورية فى الحال، ولكنه يريد أن يعرف ما اذا كانت الحكومة المصرية مستعدة لعقد معاهدة مع حكومة صاحب الجلالة على أسس الاتفاق التى ناقشها أعضاء من الوفد معه حينما كان فى القاهرة ، أيرضى زغلول باشا أن يناقش معاهدة كهذه معه أم أنه لا يرى قيام رباط بين بريطانيا العظمى ومصر أوثق مما يكون بين مصر وروسيا أو الصين مثلا ؟ .

وأجاب زغلول باشا أنه يريد مخلصا أن يعقد تحالفا خاصا مع بريطانيا العظمى .

وأراد رئيس الوزراء أن يكون واضحا تماما فى هذه النقطة .

وأجاب زغلول باشا أنه إذا كانت حكومة صاحب الجلالة راغبة فى ذلك ، فهو راغب فيه أيضا .

وقال رئيس الوزراء إن هذه هى النقطة الأساسية عنده ، وهو لايريد من زغلول باشا أن يلتزم فى الحال بلا أو نعم . وليعلم زغلول باشا أنه ربما أمكنه كسب تأييد كبير فى البرلمان ، إذا استطاع أن يؤكد لهم أن مصر وبريطانيا العظمى قد ارتبطتا بمعاهدة من هذا النوع الذى يقيم بين البلدين فعلا علاقات خاصة من الصداقة الطيبة ، فهل يريد مثل هذه المعاهدة ؟ .

ورد زغلول باشا بالإيجاب .

وقال رئيس الوزراء إنهم يجب أن يكونوا معا على جانب كبير من الصراحة . فقد تتعرض المواصلات البريطانية لخطر جسيم إذا تدخلت دولة أجنبية وغزت مصر ، أو إذا استطاعت بالمناورات الدبلوماسية أن تضع مصر رهينة فى بعض من ألاعيب السياسية الدولية التى تمارس ضد المصالح البريطانية . لقد أوضح تماما ما يعترضه من مصاعب فى هذا المجال .

وأجاب زغلول باشا أن تحالفا بين مصر وبريطانيا العظمى يكفى ضمانا ضد هذه المخاوف .

وقال رئيس الوزراء إن مثل هذا التحالف يزيل الكثير من مصاعبه إذا غطى النقاط الجوهرية من الاحتياجات البريطانية . ويظهر له أن مايلزم السعى اليه هو نوع هذا التحالف . فاذا أمكن

الوصول لنوع من الاتفاق بغير أدنى التزام على الطرفين ، ففى الإمكان الرجوع إلى النقاط الأخرى التى ظلت دون حل .

وقال زغلول باشا إن أول مايعملونه هو إيجاد أساس لمثل هذا التحالف .

وقال رئيس الوزراء إن هذا هو الهدف الذى كان يرنو اليه باستمرار . فهل لدى زغلول باشا فى انجلترا من يستطيع مع بعض الأعضاء من مكتب رئيس الوزراء أن يتحرى طبيعة المعاهدة المقترحة دون التزام رئيس الوزراء أو زغلول بأى شىء منها ؟ .

وتساءل زغلول باشا عن نوع الخبراء الذين يعنيهم رئيس الوزراء .

وقال رئيس الوزراء إنه يرى أن الدكتور محمود (حامد محمود) يعرف ما يدور فى ذهن زغلول باشا ويمكنه أن يمضى فى إعداد المعاهدة المقترحة مع المستر مورى ، وهو لايتوقع لهما اتفاقا سريعا ، ولكنهما سيعملان من أجل رئيس الوزراء وزغلول باشا مما يوفر لهما الكثير من الوقت والجهد .

وقال زغلول باشا انه لايرى أن يقصر هذا العمل على المرؤسين . وعلى رئيس الوزراء وعليه هو نفسه أن يقوما به معا إذ إن تدخل المرؤسين سيعقد الأمر .

وقال رئيس الوزراء إنه وزغلول باشا لن يسمحا بحدوث ذلك . إن زغلول باشا رغم كل المعوقات التى تؤثر عليه فى انجلترا ، له ميزة عظيمة وهى أنه يفكر فى شىء واحد فقط ، بينما رئيس الوزراء لديه جميع أنواع المشاكل الملحة التى لايمكنه إهمالها . وهو يفكر فى إمكان ترك مسألة المعاهدة قليلا للجنة تقوم بها مما يوفر له ولزغلول وقتا ثمينا جدا .

وقال زغلول باشا انه فى مثل هذه الظروف يتخلى عن اعتراضه.

وأوضح رئيس الوزراء أنه سيعقد اجتماع خاص لاحدى اللجان يوم الخميس لتبدى المشورة فى بعض النقاط التى أثارها زغلول باشا . وعليه أن يناقش مستشاريه ويرى بالضبط إلى أى مدى يمكنه أن يسير لأن عليه أن يراعى الرأى العام تماما ، شأنه فى ذلك شأن زغلول . وفى هذه الظروف لايمكنه أن يلتقى بزغلول ثانية قبل يوم الخميس ، واقترح موعدا فى العاشرة من صباح الجمعة القادم .

وقد وافق زغلول باشا على هذا الترتيب .

وقال رئيس الوزراء إنه قبل أن ينفضوا يجب أن يقول كلمة عن السودان . فان البرلمان سوف ينعقد فى اليوم التالى وربما يطلب

منه الإجابة عن بعض الأسئلة . وهو لايريد أن يقول أى شىء يزيد الصعاب ، وربما كان هو ذلك أحد الأسباب التى جعلته يفضل أن يزيل مسألة السودان بأقل تراخ ممكن . فالبرلمان مملوء بالفضول وكثيرون يطيب لهم أن تنتهى المحادثات دون نتيجة .

وقال زغلول باشا إن كلا منهما ، هو ورئيس الوزراء . يعرف جيدا كيف يروغ من الأسئلة .

وقال رئيس الوزراء إنه ليس متأكدا من أن أيا منهما قد نجح فى ذلك تماما فى الماضى .

وقد استفهم مستر مورى عما إذا كان ، فى محادثاته المقترحة مع الدكتور - محمود - يجب أن يصطحب أحدا من وزارة الحربية ومن وزارة الطيران . وذكر رئيس الوزراء أنه سبق أن وعد باصطحاب مستشار عسكرى فى أى مفاوضات تحدث . وعبر عن الرأى القائل أنه إذا كانت جرت مناقشات غير رسمية بينه وبين الدكتور محمود دون حضور أحد من هؤلاء المستشارين فربما شعرت المصالح الحكومية الأخرى أن الأمور تجرى خلف ظهورها.

وبعد مناقشات أخرى تقرر ألا تجرى المحادثات المقترحة مع الدكتور محمود الا بعد محادثات يوم الجمعة .

واتفق أن يقدم البلاغ الرسمى التالى الى الصحف :

«جرت مناقشات أخرى اليوم بين صاحب الدولة زغلول باشا ورئيس الوزراء ، واتفق على أن تواصل فى صباح الجمعة» .

★★★

وزارة الخارجية في ٢٩ سبتمبر عام ١٩٢٤ :
من المستر كير الى المستر ماكدونالد - (تسلم فى ٢٥ سبتمبر)
(رقم ٣١٣)
(بالبرق) الإسكندرية في ٢٤ سبتمبر عام ١٩٢٤

ولو أن زغلول فى خطابه اليكم بتاريخ ٢٩ أغسطس قال إن المفاوضات المتوقعة لا يمكن أن تتم ، الا أننى فهمت من الملك فؤاد، الذي هو على صلة وثيقة به ، أن زغلول لا يزال يأمل أن تتطور محادثاته معكم الى مفاوضات . ويشاركه في هذا الأمل بحرارة الملك فؤاد الذى بعث الىّ برسالة يطلب منى أن أرجوك أن تشجع زغلول ما أمكنك .

إن رأى الملك فؤاد فى المفاوضات أن مصر قد حصلت فعلا على ٨٠٪ من استقلالها . ومن العشرين فى المائة الباقية يجب على زغلول (ومن المحتمل أنه يرغب) أن يقنع نفسه بثمانية أو عشرة فى المائة . وقد أوحى هو بهذا الرأى الى زغلول مشددا .

إن افتراض أن زغلول كان ولا يزال يتوق حقيقة للتفاوض قد أكدته التقارير التى وصلتنى من مصادر سرية . وبقدر ما يمكننى

أن أحكم على الأمـور ، فـان رأى الزغلوليين الذى كـان مكتـئـبـا للأخبار القائلة بأن زغول قد أغفل زيارته الى لندن ، أصبح متفائلا ومرتقبا وليس في موقف عدائى . ويبدو أن قادة الحزب والصحافة يقدرون أنه لا يحصل على كثير مما يأمل الحصول عليه وبخاصة فيما يتعلق بالسودان وهم يهيئون أتباعهم لذلك فـى حيطة . ولكنى أشك فى أنه قد تحقق الى مدى كبير من أنه سيفشل فى تنفيذ آماله المعقودة .

وبأوضح المعانى فانه من المعتقد ، على أى حال ، أنه لم يرجع خـالى الوفـاض . ان حـالة القـائم بأعـمـال رئيس الوزراء وهيـئة الوزارة . كما قيل لى ، غير محدودة الآمال .

إن العناصر المحافظة فى البلاد والتى يمثلها بصفة أساسية حزب عدلى الذى هو قليل الأهمية السياسية فى الوقت الحاضر ، يقال إن لديهم الأمل فى أن يفشل زغلول ولو أنهم يرجون له خلال صحـافـتـهم النجاح . وانما يحرك هذا الوضع من جهـة دوافع شخصية ، ومن جهة أخرى فانه يعكس التذمر المتزايد فى البلاد من نظم الإدارة فى العهد القائم .

أما الحزب الوطنى فـانه مستمر فى النقد المرير لأى محادثات أو مفـاوضـات ، وربمـا يعتـمد عليـه فى مـعـاداة أى اتفـاقيـة يمكن تصورها .

(٤)
رقم ٢٢٢
مذكرة بشأن مشروع اتفاقية بين بريطانيا العظمى ومصر

إن الموجز المرافق لمشروع الاتفاقية بين بريطانيا العظمى ومصر قد أعد وفقا للتعليمات الشفهية للوزير .

ومن جهة الشكل فإنها تتبع مقدمة اتفاقية ١٨٩٩ الانجليزية المصرية ، دون ما يتبع عادة فى المعاهدات الدولية .

ولا يشير المشروع البتة لخدمة قروض الجزية . والاغفال متعمد ، بسبب ادراك أنه فى حالة استعداد زغلول باشا لتوقيع معاهدة وفقا لهذه الأسس ، وهو احتمال بعيد ، فان الأفضل أن يكون التسليم بقروض الجزية مسطورا فى مذكرات غير رسمية متبادلة بدل أن يبدو الاتفاق بشأنها بارزا فى أحد بنود معاهدة رسمية .

وهناك نقطة أو نقطتان لم تذكرا في مشروع المعاهدة وأن أهميتها جديرة بالاعتبار رغم كونها نقاطا ثانوية :

(أ) أهمية منع خطوط الكابلات البحرية الأجنبية من الحصول على حق الرسو فى مصر . ويمكن ضمان ذلك بمد الاحتكار الذي

تتمتع به حاليا الشركة الشرقية للبرق التى ينتهى امتيازها فى عام ١٩٣٢ .

(ب) أهمية تأمين الفنارات المصرية على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، والبحر الأحمر بصفة خاصة ، وذلك بالاعتناء بها وتزويدها بموظفين يعتمد عليهم .

(جـ) وضع الدولة وسلطانها القضائى على أفراد قوات حضرة صاحب الجلالة فى الأراضى المصرية غرب قناة السويس .

وكان الشعور العام أن اضافة بنود جديدة لتغطى النقط المذكورة قد يثقل ماكان مزمعا أن يكون مجرد اطار للمعاهدة ، وهى تمثل الحد الأدنى الذى لا يقبل الانقاص فى ارضاء الاحتياجات البريطانية بغير تفريط فيما تفرضه هذه الاحتياجات على الاستقلال التام من قيود .

وزارة الخارجية فى ١ أكتوبر عام ١٩٢٤ .

مرفق رقم ٢٢٢
مشروع اتفاقية بين حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية والحكومة المصرية

حيث إن حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية وحكومة جلالة الملك فؤاد تعترفان أن مصالح بلديهما تتطلب قيام علاقات وثيقة وودية بينهما على الدوام .

وحيث إنهما تقدران أن هذه الغاية تتحقق على خير وجه بإبرام معاهدة للتحالف .

لذلك اتفق الموقعان على هذا وأعلنا بما لهما من التفويض اللازم فى هذا الشأن مايلى :

المادة ١

تساعد حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية كما كان الحال فى الماضى الحكومة المصرية فى الدفاع عن وحدة الأراضى المصرية ضد العدوان .

المادة ٢

تمد الحكومة المصرية الحكومة البريطانية داخل الأراضى المصرية فى وقت توتر العلاقات ، أو فى حالة الحرب – حتى ولو لم

تهدد وحدة الأراضى المصرية - بكافة التسهيلات والمساعدات التي يقدمها على النحو اللائق حليف لحليفه أثناء حرب يشترك فيها كلاهما .

(تعطينا هذه المادة سلطات واسعة ولكنها موضوعة على نحو يعزز الحكومة المصرية بالوسائل التى تبرر موقفها أمام انتقادات الوطنيين بسبب موافقتها إيانا على ممارسة تلك السلطات)

المادة ٣

تيسيرا للتعاون الانجليزى المصرى فى جميع الأوقات وخاصة فى حالة (احتمال الطوارىء) تعمل الحكومة المصرية بالتشاور والاتفاق مع حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية تحقيقا للأغراض الآتية :

(أ) شراء الأسلحة والمعدات المطلوبة من وقت الى آخر للقوات المسلحة المصرية بجميع أنواعها .

(ب) تشغيل غير المصريين من الضباط والمعلمين والموظفين الذين تراهم الحكومة المصرية ضروريين لتدريب العاملين بها من عسكريين ومدنيين .

(جـ) تأجير الأراضى الواقعة بين قناة السويس والحدود الجنوبية الغربية لفلسطين بما يشمل شبه جزيرة سيناء كلها ،

لحكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية مقابل مبلغ سنوى قيمته .. جنيه انجليزى .

(وضعت هذه المادة لمنع الجيش المصرى والإدارة المدنية من الخضوع للنفوذ الأجنبى ، تتضمن فيما تتضمن هذه العبارة حلا لمشكلة سكة حديد القنطرة - رفح التى تعلق عليها وزارتا الطيران والمستعمرات أهمية كبرى) .

(د) عمل الترتيبات لما يتخذ من الاجراءات الوقائية التى تعتبر ضرورية لحماية الأراضى المصرية فى حالة توتر العلاقات بين بريطانيا العظمى وبين أية دولة أو دول أخرى .

(وضعت هذه العبارة الأخيرة بالفقرة (د) بصفة خاصة لمواجهة ضرورة الرقابة على البريد والبرق.).

المادة ٤

وحتى لا يعترى استقلال مصر أى صدع ، توافق حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية ، فى غير الظروف والأحوال المحددة فى المادتين ١ ، ٢ ، ألا تبقى قوات بريطانية ولا مؤسسات عسكرية بريطانية ولا محطات لاسلكية فوق الأراضى المصرية غير ما تحدده المادة الثالثة .

(جـ) وذلك عدا ما ينص عليه فيما يلى : ومع ذلك فان الحكومة المصرية تسمح باستخدام المطارات وأعمدة الارساء ومصانع الغاز

والتجهيزات اللاسلكية غربى قناة السويس وما جاورها ، وتقدم التسهيلات اللازمة للهبوط والصعود دون جمارك ولا تكاليف أخرى فى الموانىء المصرية ، وكذلك الانتقال الى هذه الموانىء ومنها بواسطة سكك الحديد الحكومية بنصف الأجور العادية المفروضة فى الوقت الحاضر من الموانىء المصرية الخاصة بالتموينات ، وكذلك الرجال فى طريقهم من والى القوات البريطانية الموجودة فى الأراضى المذكورة .

المادة ٥

تستولى الحكومة المصرية على الأراضى والثكنات والمبانى والمصانع الموجودة بمصر بما فى ذلك محطة أبى زعبل اللاسلكية، التي تحتلها وتمتلكها حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية ، والتى يتعين اخلاؤها كما هو مبين فيما بعد ، وذلك بقيمة تقدرها لجنة تشكل من اثنين من البريطانيين واثنين من المصريين مندوبين عن بلادهم ورئيس يعينه رئيس محكمة الاستئناف المختلطة .

(نحن نمتلك محطة أبى زعبل اللاسلكية ، ونرغب فى التخلص منها ، كما أننا نمتلك الكثير من المعسكرات والمبانى الأخرى التى هى الآن فى أيدينا)

يتم جلاء القوات البريطانية الموجودة الآن فى القاهرة وضواحيها خلال عامين ، ويتم جلاء تلك القوات عن ثكنات

مصطفى باشا فى الإسكندرية خلال خمسة أعوام ، وعن مطار أبى قير ومخيمات المعسكر خلال عشرة أعوام من بدء تنفيذ المعاهدة .

(هذه الأزمنة هى مجرد اقتراحات غير نهائية) .

المادة ٦

تتخذ حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية – عند بدء تنفيذ المعاهدة – الخطوات لرفع مرتبة ممثلها فى مصر الى درجة سفير . ولن تقبل الحكومة المصرية من جانبها تعيين ممثلين دبلوماسيين للدول الأجنبية فى مصر ، ولا تعين ممثلين دبلوماسيين مصريين فى الخارج بدرجة أعلى من درجة وزير مفوض .

المادة ٧

تقدم الحكومة المصرية التسهيلات للمتقاعدين عن وظائفهم من الموظفين الأجانب دون الاخلال بالتعويضات التى تضمنتها أحكام القانون رقم ٢٨ لسنة ١٩٢٣ ، وتوافق على عدم اتخاذ الاجراءات التأديبية – التى بينتها المادة ١١ من ذلك القانون – ضد أى موظف أجنبى ، بدون موافقة سابقة من الممثلين الدبلوماسيين للدولة التى يكون الموظف المذكور من رعاياها . وتوافق الحكومة

المصرية أيضا على أن تطبق أحكام المادة ٢٠ من ذلك القانون على معاشات الموظفين الأجانب الذين استقالوا من الخدمة المصرية قبل صدور القانون المذكور .

المادة ٨

يتفق الطرفان الساميان المتعاقدان على تنمية مصالح السودانيين واستقلال البلاد النهائى باستمرار النظام القائم بمقتضى الاتفاقية الانجليزية المصرية لعام ١٨٩٩ ، وأن يعاد النظر تبعا لذلك فى شروط ذلك الاتفاق فى نهاية خمسة وعشرين عاما من بدء تنفيذ المعاهدة .

(هذه المادة مخططة لا لمجرد المحافظة على الوضع القائم ولكنها تحدد غرضنا النهائى - استقلال السودان - ولا ترمى لتقييد حرية الحاكم العام فى السير فى ذلك الاتجاه لتشجيع الحكم المحلى .. الخ)

المادة ٩

يتفق الطرفان الساميان المتعاقدان أن يعهد أمر الدفاع عن السودان من الآن فصاعدا الى قوة دفاعية مجندة محليا تحت قيادة الحاكم العام ، وتلحق بها كتيبة بريطانية وأخرى مصرية وكذلك بطارية مدفعية بريطانية وأخرى مصرية . ويتفقان أيضا على دعوة مجلس عصبة الأمم لأن يقرر :

(أ) الطريقة التى يضمن بها حفظ حقوق المصريين فى مياه النيل .

(ب) المبالغ التى يرى السودان ، بالعقل والعدل أنه مدين بها لمصر ، والطريقة التى يمول بها الدين ويسدد بعد تحديده ، مع مراعاة تحقيق المزايا المكفولة لضمان الأمن من الغزو وحرية الوصول الى المنابع التى تمدها بالمياه .

وزارة الخارجية فى ١ أكتوبر عام ١٩٢٤

(٥)

محضر الاجتماع الثالث،المنعقد فى ١٠ دواننج استريت، فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٤،الساعة العاشرة صباحا .

حضر الاجتماع ، رئيس الوزراء ، وزغلول باشا ، والدكتور حامد محمود ، وكامل بك سليم ، ومستر سلبى ، ومستر مورى .

اعتذر رئيس الوزراء لتأخره بضع دقائق . فقد استغرقته أعمال مجلس العموم فى اليوم السابق .

وعبر زغلول باشا عن أسفه لانشغال وقت رئيس الوزراء الى هذا الحد .

وذكر رئيس الوزراء أن ليس الخطأ خطأه ، وأن ضغط العمل البرلمانى مزعج حقيقة .

وذكر زغلول باشا أنه يفهم ذلك جيدا ويقدره .

وتساءل رئيس الوزراء عما إذا كان زغلول باشا قد فكر ، الى أى مدى يمكنه أن يلتقى مع آراء رئيس الوزراء بالنسبة للمعاهدة التى أشير اليها فى محادثتهما الأخيرة .

فذكر زغلول باشا أنه بعد العرض الذى طرح فى اللقاء الأخير، فقد كان لديه الانطباع أن رئيس الوزراء يزمع اعداد

اقتراح مضاد للمناقشة . وقد فهم في الواقع أن خبراء رئيس الوزراء يعدون مشروعا بوجهة نظرهم .

وذكر رئيس الوزراء أنه يتعين أولا الاتفاق على أساس المشروع. وأن قناة السويس عليها مدار استراتيجية الامبراطورية البريطانية كلها ، ويلزم أن تكون الحكومة البريطانية في وضع يمكنها من حماية القناة .

وقال زغلول باشا أن سيكون هناك تحالف بين بريطانيا العظمى ومصر ، وهو في ذاته يكفل تلك الحماية . وان لا ضرورة لأن يكون جزء من مصر تحت الحكم البريطاني أو الاحتلال البريطاني .

وذكر رئيس الوزراء أنه لا فائدة من الحديث عن تحالف أو تأكيدات غامضة من هذا النوع . وأنه يتعين على الحكومة البريطانية الاصرار على نوع من التنظيم يكفل للقناة ان تكون طريقا مائيا آمنا للمواصلات الامبراطورية في جميع الأوقات.

وتساءل زغلول باشا عما يريده رئيس الوزراء بالضبط..

فأجاب رئيس الوزراء أنه يريد مواقع تشغلها القوات البريطانية لحماية القناة،. ولا يكون لهذه القوات بأى حال التدخل في شئون مصر أو الحكومة المصرية، وهذا آخر ما يرغب فيه رئيس الوزراء.

وأجاب زغلول باشا ان هذا الاقتراح يعتبر - في المحل الأول - متعارضا مع صميم فكرة التحالف. وفي المحل الثاني فهو يود معرفة ضد من تكون هذه الحماية ضرورية. وضد غزو من أي اتجاه من بر أو بحر.

فأجاب رئيس الوزراء ان خطة الدفاع، انما تدخل في حسابها احتمال الغزو من أية ناحية.

وذكر زغلول باشا أنه إذا جاء الغزو من البحر، فان بريطانيا العظمى سيدة البحار. وإذا جاء من البر، فإن حقيقة ان مصر حليف لبريطانيا سيضمن لها حماية القناة، حتى يكون لبريطانيا العظمى من الوقت ما يمكنها من تقديم المساعدة.

وذكر رئيس الوزراء انه بقدر ما تنهض اقتراحات زغلول باشا العسكرية ، فان عليه هو أن يسترشد بنصيحة الخبراء البريطانيين ، وأن هذه المسألة على أي حال، هي مسألة مفاوضة. ولكن المفاوضات لن تكون مجدية ما لم يتم الاتفاق على ان الاقتراح البريطاني يمكن قبوله. وإذا طالبت مصر بألا تكون القوات البريطانية أقرب إلى القناة من فلسطين . فليس من مستشار عسكري يوافق على أن تكون هذه التسوية تسوية ملائمة.

وتساءل زغلول باشا عما إذا كان له أن يفهم من هذه الأمور ان المسألة مسألة قوة وليست مسألة حق.

فأجاب رئيس الوزراء انها ليست كذلك قطعا. ولكنها مسألة اتفاق. ولا فائدة من الحديث عن أية تسوية لا تسمح لحكومة بريطانيا بحماية القناة كطريق عالمى. وإذا عرض تسوية كهذه على مجلس العموم فسيكون مآلها الرفض بغير تردد.

وذكر زغلول باشا انه يود ان يسترعى الانتباه لاتفاقية ١٨٨٨ لانشاء منطقة محايدة.

وشرح مستر مورى ان اتفاقية ١٨٨٨ تعتبر أداة دقيقة، لقد وقعتها بريطانيا العظمى، وفرنسا ، وألمانيا ، والنمسا، والمجر، وايطاليا، وإسبانيا ، وروسيا ، وهولندا ، وتركيا وكان ذلك لضمان حرية الملاحة فى قناة السويس فى جميع الاوقات، وهى لا تتحدث عن منطقة محايدة، ولكنها تخول كلا من الدول الموقعة عليها حق إرساء اثنتين من سفن الحراسة فى البوغازين، وقد شرطت بريطانيا العظمى عند توقيع الاتفاقية، الا تنفذ مادام الاحتلال البريطانى لمصر مستمراً.. فلما قام الوفاق الودى فى ١٩٠٤ ، سقط هذا الشرط. ولكن لم يطبق الحكم الوارد بالاتفاقية متعلقا باجتماع القناصل العموميين للدول المختلفة بمصر للتثبت سنويا من التنفيذ القانونى لاحكام الاتفاقية.

وذكر رئيس الوزراء ان الوضع قد تغير كثيرا منذ اعدت الاتفاقية وحتى منذ وضعت موضع التنفيذ فى ١٩٠٤.

وأقر زغلول باشا بتغير الوضع بالنسبة للقناة، ولكنه أرجع ذلك إلى تغير وضع مصر. لقد كانت ألمانيا، وتركيا ، والنمسا والمجر تشكل قبل ١٩١٤ أخطارا محتملة على القناة ولم يعد الأمر كذلك، كما ان انجلترا الآن باحتلالها فلسطين تقطع الطريق الى القناة.

وذكر رئيس الوزراء ان لا فائدة ، وأنه يستحيل حماية القناة من فلسطين.

وأجاب زغلول باشا بأنه لا يستطيع الموافقة، وان بريطانيا العظمى تهيمن على الأرض الآتية من فلسطين ، واسطولها يسيطر على البحر، وفضلا عن ذلك، فإن قناة السويس ذات نفع عام، فلم تطالب الحكومة البريطانية بها تحت سيطرتها المنفردة.

وذكر رئيس الوزراء ان المسألة التى يطرحها تتعلق بمعاهدة خاصة مع مصر، وان القناة تشكل اهتماما بريطانيا جوهريا ، ولا يوجد مجلس عموم يمكنه التخلى عن أمنها، مقابل نوع من التعهدات الورقية مثل اتفاقية ١٨٨٨، التى اظهر الوقت

عدم فاعليتها عند الشدة، وهى فى حال الحرب ستذهب أدراج الرياح.

وذكر زغلول باشا انه إذا كانت بريطانيا العظمى، وهى الاقوى لا تجد ضمانا فى اتفاق مكتوب، فهل يمكن ان يتوقع من مصر، وهى الاضعف، أن تركن الى مثل هذا التعهد.

وذكر رئيس الوزراء ان لمصر أن تعمل لان مصالحها الحيوية ليست موضعا للمخاطرة.

وذكر زغلول باشا ان رجال الدولة البريطانيين قد اعطوا نحو ستين وعدا بالجلاء عن مصر، ولا تزال القوات البريطانية هناك، وان هذه الحقيقة تزوده ببعض العذر فى ارتيابه.

وذكر رئيس الوزراء ان خير ما يجيب به هو وجودهما معا للحديث عن خير ما يمكن به اقامة نظام جديد.

وأكد زغلول باشا ان هذا ما يرغب من اجله فى تحالف، يحمى الطرفان كلاهما القناة فى ظله.

وتساءل رئيس الوزراء عن نصيب بريطانيا فى هذه الحماية.

وذكر زغلول باشا ان الجنود المصريين سيتولون أمر القناة، وأنه سيلجأ إلى بريطانيا العظمى حيثما يتطلب الأمر مساعدتها.

وذكر رئيس الوزراء ان ليس هذا اتفاقا عمليا، وإذا كان لبريطانيا ان تعتمد على مصر بالصورة المقترحة، فعلى الحكومة

البريطانية ان تستعيض لنفسها بالتفتيش الفعلى على الجيش المصرى ليكون على كفاءة، وسيعتبر ذلك تدخلا فى شئون مصر الداخلية، وهو آخر ما يرغب فيه، وأن هدفه أن تكون مصر حرة تدير شئونها بطريقتها الخاصة.

وذكر زغلول باشا انه لا يفهم لم اعتبر اقتراحه غير عملى، ان قواته ستكون هناك تحمي القناة، ومن المؤكد ان سيكون للحكومة البريطانية وقت كاف للانذار فى حالة الخطر.

وذكر رئيس الوزراء ان هذا الاقتراح في رأيه ، غير عملى على الاطلاق .

وذكر زغلول باشا انه مستعد تماما للانصات إلى أى اقتراح يستند إلى العقل لا إلى القوة، وهو لا يزال غير قادر على فهم لماذا لا تقبل اقتراحاته .

وذكر رئيس الوزراء ان الوضع العام الذى يتبناه ، هو وضع معقول تماما ، على افتراض ان مصر وبريطانيا العظمى ستتعاونان. وانه لن يكون اكثر من مخادع لزغلول باشا، إذا زكى أى أمل فى أن يقبل مجلس العموم أى شىء دون التعاون فى كفالة أمن القناة، وأن المسائل التفصيلية، مثل عدد القوات وتوزيعها وغير ذلك من التنظيمات ، يتعين احالتها إلى مستشاريه

العسكريين ولكن إذا أمكن الاتفاق مع زغلول باشا بالنسبة لمبدأ التعاون بين بريطانيا العظمى ومصر، فساعتها يتولى الخبراء التفاصيل، وهو ليس رجلا عسكريا ولا يمكنه المساس بهذا الجانب من الامور.

وذكر زغلول باشا انه يستحيل تماما على الامة المصرية وعلى البرلمان المصرى الموافقة على وجود مواقع عسكرية بريطانية على القناة أو على أى جزء من الأراضى المصرية.

وتساءل رئيس الوزراء عما إذا كان البرلمان المصرى لا يوافق حتى على تأجير أرض لبريطانيا العظمى من أجل هذا الغرض.

وأجاب زغلول باشا ان ذلك مستحيل استحالة مطلقة.

فذكر رئيس الوزراء ان هذه هى الصعوبة الأولى.

وذكر زغلول باشا انه لا يمكنه الاقتناع بأن رئيس الوزراء غير قادر على اقناع البرلمان بقبول نصيحته، وأن لديه وسائل جد عديدة لضمان استجابتهم. وقد بقى هو نفسه غير مقتنع ان انجلترا مصيبة فى ادعائها حماية القناة، لماذا لا يقبل اقتراحه ان توضع القناة تحت اشراف عصبة الأمم؟

وذكر رئيس الوزراء انه لم يرفض شيئا، ولكنه يود أن يوضح تماما نقطة واحدة. ان أية تسوية يمكن أن يضعها فى اعتباره

يتعين أن تحسم مسألة أمن القناة، وسيطرحها كمجرد اقتراح عام. هل يستحيل تماما على مصر، بعد كل ما صنعته بريطانيا العظمي من أجلها، خيرا أو شرا ، أن تعتبر بريطانيا العظمى على قدر من العلاقة الخاصة بها يسمح بالتعاون المصرى معها لتأمين المواصلات الامبراطورية البريطانية؟ هل له أن يفهم أن زغلول باشا يقول «لا»! ان المصريين يكرهون ويرتابون فى البريطانيين الذين يتعين عليهم ان يدبروا أمر حماية القناة من فلسطين، وان يتركوا الحكومة المصرية تجهز قواتها فى الميدان؟ وفى حالة الحرب، يمكن الا تكون مصر فى الجانب البريطانى. والحقيقة ان رفض مصر التعاون . وان موقفها المحدد العداء لبريطانيا هو ما يزعج رئيس الوزراء.

وذكر زغلول باشا انه إذا كانت مصر تخاصم بريطانيا، وإذا تكشف عداؤها بين الحين والآخر، فان مرد ذلك ان بريطانيا العظمى تطمع فى الكثير، وان موقفها واضح العدوان، وستصبح مصر ودودا فى اللحظة التى ترى فيها اختفاء هذا الموقف العدوانى.

وذكر رئيس الوزراء ان معاهدة التحالف المقترحة هى خير دليل على النوايا الطيبة البريطانية ولا فائدة من مناقشة ما إذا

كان البريطانيون سيتركون القناة، وان أى امرىء فى مكانه لابد ان يتخذ الموقف ذاته فى هذه المسألة، وقد يتصور ان تكون مصر فى حالة تمرد أو تنفجر الاضطرابات الداخلية، وهذا واحد من الأمور المجهولة، وعلى الحكومة البريطانية ان تؤمن نفسها بغير أن تضع ثقتها كاملة فى امكانيات لا تتحقق أبدا، خاصة أن ثمة احتمالات اخرى قد تحدث فى يسر.

وذكر زغلول باشا انه إذا لم يكن رئيس الوزراء يشعر بالاطمئنان بالنسبة للاحتمالات الخاصة بمصر. فكيف لمصر ان تطمئن إذا بقى الاحتلال البريطانى للقناة.

وأجاب رئيس الوزراء ان الحكومة البريطانية لا ترغب فى التدخل فى شئون مصر على الاطلاق، وإذا امكن لزغلول باشا ان يقبل بقاء القوات فى مراكز ملائمة لحماية القناة، فسيعطيه أى ضمان يريد، حتى لا يكون ثمة تدخل فى السياسات المصرية أو مع الساسة المصريين، وما لم يقبل زغلول باشا هذا الاقتراح، فان أية مناقشة تكون عديمة الجدوى. وبغير هذا القبول، فإن أى رجاء فى الاتفاق لن يعدو ان يكون خداعا لزغلول.

وذكر زغلول باشا انه يقدر موقف رئيس الوزراء، ولكن كيف يمكنه اقناع شعبه ان مخاوف بريطانيا العظمى تخولها حق

احتلال مصر، في حين يعلم الشعب المصرى والعالم كله ان الاحتلال مناقض لكل حق.

واجاب رئيس الوزراء ان لعبارة «احتلال» عدة معان. وان المعنى الذى يضعه لها يخالف الاحتلال القائم الآن.

وذكر زغلول باشا انه بغير ان يقيد نفسه، يود معرفة الهدف المحدد لرئيس الوزراء ، أين سيضع قواته وكم منها سيوجد.

وأجاب رئيس الوزراء انه تمشيا مع هدفه، فان المسألة مسألة سياسية، وأنها تحدد بما يلزم لحماية القناة، ولا شيء آخر.

وتساءل زغلول باشا ، ضد من؟

وأجاب رئيس الوزراء، لا أحد انها محض حماية، ضد التخريب والعدوان، وضد ألف طريقة وطريقة يمكن للعدو أن يحتال بها. وبالنسبة للنقطة الثانية، وهى مكان وجود القوات، فهى مسألة عسكرية لا يجدر به ان يناقشها، وبالنسبة للنقطة الثالثة الخاصة بعدد القوات، فهى عسكرية أيضا، وإذا صادف مبدؤه القبول، يمكن للخبراء العسكريين من الجانبين مناقشة النقطتين الثانية والثالثة وحسمهما، واقترح ان يتدبر زغلول باشا فى الأمر بضع دقائق، وان يتركه لذلك رئيس الوزراء ومستر سلبى ومستر مورى.

وعند عودتهم تساءل زغلول باشا عما إذا كان رئيس الوزراء يرى الاحتلال والتحالف متناسبين.

فذكر مستر مورى أن المستشار التاريخى لوزارة الخارجية قد ابلغه عن امثلة لمثل تلك الحالات.

وذكر رئيس الوزراء ان فكرته الخاصة هى أن تعترف مصر بالحق البريطانى فى التعاون دفاعا عن القناة، وعلى كل حال، فقد أمضى البريطانيون فى هذا الشأن أكثر من أربعين عاما، دون مدعاة للشكاية من أحد. وقد سبق له الحديث عن موقف مجلس العموم، وهو يتحدث الآن عن موقف دول الدومنيون، فهم مهتمون اهتماما حيويا بهذا الأمر، وسيحضر ممثلوهم فى المفاوضات قبل اتمام التسوية، ولن يقبلوا قط أى شىء من شأنه الاضرار بأمنهم للاستخدام الحر لقناة السويس.

وذكر زغلول باشا انه إذا كان ينبغى ان يؤخذ فى الاعتبار موافقة دول الدومنيون أو رفضها ، فان الواجب أن يؤخذ فى الاعتبار موقف الشعب المصرى.

وأجاب رئيس الوزراء مؤكداً، وأضاف ان زغلول باشا يملك من التأثير الكبير على الشعب المصرى، ما يدعو رئيس الوزراء إلى اليقين التام بأنه (زغلول) قادر على حمل المصريين على قبول أى مشروع يحبذه.

وذكر زغلول باشا انه ربما كان الأمر كذلك لو أنه كان مقتنعا ولكنه فى هذه الحالة غير مقتنع.

فذكر رئيس الوزراء ان ليست مصر إذن هى من يلزم اقناعها، ولكن زغلول باشا نفسه.

وذكر زغلول باشا ان مرجع تأثيره هو كونه يتحدث عن اقتناع. وما لم يكن مقتنعا هو نفسه، فلن توجد فرصة تمكنه من اقناع شعبه.

وذكر رئيس الوزراء انه لا يطلب منه أن يعمل ضد اقتناعاته ، ولكنه يرجو أن يقتنع زغلول بمعقولية اقتراح رئيس الوزراء .

وذكر زغلول باشا انه على أتم استعداد لأن ينصح مصر بالقبول اذا كان هو نفسه مقتنعا تماما. والا فلن يمكنه يقينا اعطاء هذا النصح .

وذكر رئيس الوزراء أنه يسلم جدلا بذلك كله.

وذكر سعد زغلول انه لا يكاد يفهم كيف يكون لبريطانيا العظمى أى حق فى حماية قناة السويس . قد يكون لبريطانيا العظمى مصالح فيها، ولكن ليس لها يقينا أية حقوق. وفضلا عن ذلك لايقدر على فهم الموقف البريطانى، مادام لم يقبل اقتراحه الخاص بشأن التحالف وبوضع القناة تحت اشراف عصبة الأمم .

وذكر رئيس الوزراء أنه والوضع كذلك ، لافائدة من الحديث عن تحالف فى الهواء. والتحالف يقوم من اجل هدف خاص محدد. ولا يستطيع أن يفهم لم لا يتضمن التحالف حكما بأن تتفق مصر وبريطانيا العظمى تعاونيا على حماية حرية الملاحة فى القناة. ويحسن التأمل فى هذه المشكلة أكثر قليلا .

وذكر زغلول باشا انه يلحظ استغراق رئيس الوزراء بالعمل. ومن جهة فان الطقس هنا لايناسب صحته. ولايرغب فى ريادة أعباء رئيس الوزراء. وهو يفكر فى مغادرة انجلترا خلال سبعة أيام أو ثمانية ، خاصة أن برلمانه سيفتتح فى الشهر المقبل.

وذكر رئيس الوزراء أنه يسيئه حقا ما يسمعه عن صحة زغلول باشا .

وشكر زغلول باشا رئيس الوزراء مخلصا وعبر عن أسفه لفشلهما فى بلوغ تسوية محددة . ولكن انجاز هذا الأمر يستلزم عملا كثيرا لا يسمح به وقت رئيس الوزراء .

وذكر رئيس الوزراء أن الأمر ليس كذلك تماما. ولكنها المشاكل التى ورثها كل منهما، والتى لايمكن حلها فى جلستين أو ثلاث. ولو كان زغلول باشا وجد طريقة لقبول اقتراح رئيس الوزراء الأساسى لأمكنهما السعى حثيثا الى الأمام .

وذكر زغلول باشا أنه آسف.

وذكـر رئيس الوزراء أنه آسف كـذلك ، ولكنه يرى أن الوضع الذى بلغاه فى هذا اليوم يكشف عن صعوبات تستلزم وقتا للتغلب عليها ويأمل ألا يكون الباب قد أوصد تماما .

وذكر زغلول باشا أن محادثاتهما على العكس قد جعلت علاقات الصداقة بينهما أوثق ، وأنها لم تغلق الباب.

وذكر رئيس الوزراء أنه يقدر ذلك كثيرا ، ويسعده ما قال زغلول باشا وأن ما يؤسفه فقط انه رغم انفراج الباب لم يستطيعا الولوج منه .

وذكر زغلول باشا انه يلزم للمرور أن يكون أحدهما أنحف .

وذكر رئيس الوزراء ان ذلك يكون معاكسا لقوانين الخليقة وان الطريقة البريطانية فى التعامل مع الرجل البدين والباب الضيق، هى أن يوسع الباب لا أن تمزق أوصال الرجل ! وذكر أن ثمة مسائل أخرى تخرج عن مجال المفاوضات ، مما يهتم به مجلس العموم ، ومما وعد باسترعاء انتباه زغلول باشا اليه.

وهنا قرأ رئيس الوزراء على زغلول باشا المذكرة التالية وسلمه نسخة منها : -

«أود أن أذكر كلمة عن عزم الحكومة المصرية الذى أفصحت عنه بشأن تخلفها فى سداد القروض العثمانية لأعوام ١٨٥٥ , ١٨٩١ , ١٨٩٤ المضمونة بالجزية المصرية.ان الفائدة نصف السنوية وأقساط استهلاك القرضين الأخيرين قد حل أجلهما فى هذا الشهر. وقد سلم الوكلاء اشعاراً بعدم الدفع. وتقترح الحكومة المصرية احالة المسألة الى محكمة العدل الدولية فى لاهاى.ورأينا أن الأمر لا يتعلق بالتحكيم الدولي، ولكنه أمر احتيال عن جانب الحكومة على دائنيها ، وهم حملة السندات فى هذه الحالة.

«ولا أود مناقشة وقائع القضية الآن ، ولكنى أشعر بالالتزام لأن أؤكد لسعادتكم أن حكومة جلالة الملك لا تقر لحظة واحدة حق الحكومة المصرية - بالقانون والعدل - فى التهرب من التزاماتها الخاصة بهذه الديون ، وانها ان سمحت بالماطلة ان تحدث على مدى هذا الشهر ، فخليق بذلك أن يحدث آثارا مدمرة لسمعة الحكومة المصرية والثقة بها ، مما لن تبرأ منه قبل وقت طويل.

«وثمة نقطة أخرى ، تتعلق بما يبديه بعض موظفى الحكومة المصرية. واداراتها من عداء للموظفين الأجانب . وان حالة المستر انتونى لمثل صارخ على ذلك ، وثمة حالات اخرى عديدة ، بعضها ضئيل فى حد ذاته ولكن النظر أليها مجتمعة يكفى لأن يسبب

الأسى والقلق العظيم لهؤلاء الموظفين الاجانب ، ممن لا يستطيعون ترك الخدمة قبل ٣١ مارس ١٩٢٧ بغير التضحية بما وعدوا من تعويضات. ان سياسة وخز الابر التى تتبع مع هؤلاء الموظفين الأجانب ، ليست جائرة فحسب ، ولكنها سياسة بالغة فى قصر النظر من جانب الحكومة المصرية وان الموظفين الذين يشعرون أن رؤساءهم وزملاءهم المصريين يتربصون الفرص للايقاع بهم ، لخليق بهم الا يؤدوا من العمل الجيد ما يمنحون عنه مرتباتهم.»

ذكر زغلول باشا أنه يود ابداء ملاحظاته على هذه المذكرة .

وذكر رئيس الوزراء انه غير مستعد لمناقشة التفاصيل ، وأنه يفضل جوابا مكتوبا .

وذكر زغلول باشا ان ملاحظات ابديت له ، وهو مضطر للحديث ردا عليها . ان الحكومة المصرية تنطوى على أطيب المشاعر تجاه العاملين البريطانيين لديها وهو يؤكد ذلك لرئيس الوزراء وعلى استعداد لان يسوق الأمثلة ، خاصة منذ أن اعتلى رئيس الوزراء منصبه . وهو يستشهد باللورد اللنبى على صدق ما يقول. أما بالنسبة لحالة مستر انتونى فقد كان على صلات وثيقة بموظف مصرى كبير ، وكيل وزارة بحيث استحال فصل الحالتين.

وقد حوكم الموظف المصرى وأدين وطرد من الخدمة. وكان يستحيل تماما معاملة مستر أنتونى معاملة مختلفة.

وأشار رئيس الوزراء أن محل الشكوى ، انه قبل توجيه أى اتهام الى مستر أنتونى. فقد وجهت المحاكمة فى قضية الموظف المصرى واذيعت على نطاق البلاد على نحو ما من سعة الانتشار ، بحيث شكلت اتهاما لمستر أنتونى فى شرفه وأمانته . وهذا مما يناقض المبادىء البريطانية عن العدالة ، وأثار قدرا عظيما من الغضب بين الموظفين والبريطانيين والأجانب.

وشرح زغلول باشا انه وفقا للقانون المصرى لم يكن لديه خيار فى الأمر. وكان يلزم نشر المحاكمة . وليس ثمة عداء شخصى لمستمر أنتونى الذى كان فى الحقيقة أثيرا لديه.

وبالنسبة لقروض الجزية، فقد نظرت الحكومة المصرية فى الأمر فوجدت أنها ليست مدينا ولاضامنا ، ولكنها مفوضة فحسب فى أن تؤدى الى حملة السندات ما يستحق عليها من الجزية لتركيا . ومادامت لم تعد الجزية مستحقة فلا اداء عليها. وعلى أى حال، فقد برهنت الحكوم المصرية على حسن نيتها، بأن أودعت المستحقات فى حساب خاص لدى البنك الأهلى. وقد علم اليوم أن بعضا من حملة السندات قد رفع دعوى ضد الحكومة المصرية

أمام المحاكم المختلطة . وايا ما كان الامر ، فقد كان فى تصرفه ممتثلا لأمر البرلمان المصرى. وكان البرلمان هو من قرر التوقف عن الدفع.

وأشار مستر سلبى الى التدهور الذى لابد حادث للسندات المصرية فى كل من باريس ولندن.

وأجاب زغلول باشا انه اذا كان حملة السندات يخسرون مالا يسبب عزوف مصر عن الدفع، فان لهم فقط أن يلجأوا الى المحاكم، واذا خسرت مصر دعواها فستقوم بالدفع بطبيعة الحال.

وأشار رئيس الوزراء الى أن الائتمان المصرى سيعانى من ذلك فى الوقت نفسه.

وذكر زغلول باشا انه لا يستطيع دفع شىء لا يلزمه القانون بأدائه . ولن يعانى الائتمان المصرى ما دامت الحكومة المصرية قد أودعت المدفوعات فى حساب مجمد بالبنك .

وذكر رئيس الوزراء أن الحكومة البريطانية ينحصر اهتمامها المباشر فى قرض ١٨٥٥ ، الذى اشتركت مع الحكومة الفرنسية فى ضمان الوفاء بفوائده . اما القرضان الآخران فهما مثار اهتمام رجال المال وليس الحكومات.وهو غير مسئول ، اذا حل ١٥ اكتوبر وأدرجت الحكومة المصرية فى قائمة المتنعين عن الدفع فى بورصة الاوراق المالية بباريس ولندن .

وذكر زغلول باشا ان ذلك يكون امرا جائرا للغاية .

وذكر رئيس الوزراء انه ليس من رجال المال ولا من المضاربين، ولكنه يراهن بكل ما يحوز من مال، انه اذا لم تؤد الأقساط المستحقة فى ١٥ اكتوبر ، فسيدرج الانذار.

وتساءل زغلول باشا عما اذا كان رئيس الوزراء ينصحه بمخالفة برلمانه.

وذكر رئيس الوزراء أن لديه ما يكفيه من المتاعب مع برلمانه، دون أن يضيف اليه متاعب البرلمان المصرى. وانه يستحيل عليه أن ينصح زغلول باشا بمشورة سيئة. ولكنه يجدها بالغة الصعوبة أحيانا أن يحمله على قبول المشورة الحميدة التى تعرض عليه.

واكد زغلول باشا لرئيس الوزراء أن الحكومة المصرية مستعدة لدفع كل ديونها، ولكنها غير مستعدة لاداء ما لا تلتزم به.

وحذر رئيس الوزراء زغلول بأنه سيواجه اسئلة برلمانية حول هذا الموضوع ليجيب عليها فى الاسبوع المقبل.

وذكر زغلول باشا انه اذا عرضت القضية على المحكمة الدولية فيحسن انتظار قضائها. وليست لديه معلومات رسمية عن الأمر. ولكن يمكنه أن يبرق إلى المستشار (المستشار القضائى) بتعليماته عن التعجيل فى نظر الدعوى. ويمكنه أن يؤكد لرئيس الوزراء -

فى الوقت نفسه ان قرار الحكومة المصرية لم يصدر عن أية رغبة فى المماطلة، ولكنه صدر عن الاقتناع.

وذكر رئيس الوزراء أن الناس فى بورصة الأوراق المالية وأن من فقدوا أموالهم لا يهتمون بصفة خاصة باقتناعات الحكومة المصرية. ولكنهم يهتمون فقط بمماطلتها. وليس ذلك فى الحقيقة شأن وزارة الخارجية ولا مما يهتم به هو. ولكن وزارة الخزانة حثته بشدة أن يحذر زغلول باشا، فاضطر لأن يفعل.

وذكر زغلول باشا أنه آسف وليس فى وسعه أن يصنع فى الأمر شيئا.

وذكر رئيس الوزراء أن عديدا من أعضاء البرلمان يهتمون بالأمر وسيوجهون اليه الاسئلة.

وذكر زغلول باشا أنه على ثقة من أن الأجوبة ستستند إلى الحق فى هذا الشأن.

وأشار مستر سلبى إلى أن المسألة تندرج فى «الأمر الواقع» الذى حدده تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢. وهو يدرك عدم اعتراف الحكومة المصرية بشرعية هذا التصريح، ولكن حكومة جلالة الملك ملتزمة به. وأن الحكومة البريطانية هى من أنهى السيادة التركية وليست مصر. وان خدمة قروض الجزية ذات مساس بالمصالح الاجنبية. ومن ثم جاز بشأنها التدخل البريطانى.

وذكر رئيس الوزراء أن ثمة نقطة أخرى تتعلق بالعدالة. ان الاقاليم الأخرى التى انفصلت نتيجة الحرب عن تركيا. عليها سداد حصتها من الديون التركية. ولم يطلب إلى مصر ذلك لأنها تؤدى قروض الجزية. وهى تنوى الامتناع لتفلت مما ضرب عليها.

وذكر زغلول باشا انه لا وجه قط للزعم بأن مصر تتحمل جزءا من الدين التركى. وقد كانت مصر مستقلة فعلا عن تركيا منذ أمد بعيد، حتى قبل الحرب، وفضلا عن ذلك ، لم تكن مصر طرفا متعاقداً عندما أبرمت اتفاقية لوزان.

وذكر رئيس الوزراء ان زغلول باشا يعامله كما لو كان قاضيا فى المحاكم المختلطة. انه لا ينوى المجادلة فى أسانيد الدعوى. ولكنه سلم زغلول باشا مذكرة فى هذا الصدد، ويترك الأمر على هذا الوضع، ويتوقع جوابا مكتوبا.

وقد تقرر أن يصدر البيان المشترك الآتى للصحافة:-

«جرى اجتماع آخر فى الثالث من اكتوبر بين صاحب السعادة زغلول باشا وبين رئيس الوزراء. وقد تمت المحادثات فيما بينهما.. وسيعود زغلول باشا قريبا إلى مصر بسبب حالة الطقس البارد، ولما يتوقع من انعقاد البرلمان المصرى فى شهر نوفمبر».

مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام

مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية مركز علمى مستقل يعمل فى اطار مؤسسة الأهرام ومن اهدافه دراسة العلاقات الدولية بهدف تقديم بحوث علمية للتطورات وللصراعات ذات التأثير على الشرق الأوسط عامة وعلى الصراع العربى الاسرائيلى بصفة خاصة. ويدخل فى هذا الاطار:

- التغييرات الرئيسية التى يمر بها النظام الدولى.
- المنازعات الدولية المعاصرة وطرق تسويتها.
- المنظمات الدولية والتكتلات والتحالفات السياسية والاقتصادية والعسكرية.
- الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمع العربى عامة والمجتمع المصرى بوجه خاص.

● يتكون البناء التنظيمى للمركز من مجلس المستشارين، مجلس الخبراء، رئيس المركز، مدير المركز.

● يتناول جهاز البحوث بالمركز بلبحث والدراسة الاهتمامات الرئيسية للمركز وهى:

(أ) الدراسات السياسية والاستراتيجية.

(ب) الدراسات العربية والفلسطينية والاسرائيلية.

(ج) الدراسات التاريخية المعاصرة.

● تضم مكتبة المركز الكتب والدوريات والنشرات والاحصاءات والاطالس المتخصصة التى تخدم موضوعات البحث والدراسة بالمركز، فضلا عن قسم خاص بالرسائل الجامعية وارشيف للمعلومات.

ادارة المركز: مبنى جريدة الاهرام - شارع الجلاء - القاهرة - ت: ٥٩٠١٠، ٥٩٥٦٠، ٤٦٤٦٤.

رئيس المركز : دكتور بطرس بطرس غالى

مدير المركز : السيد يسين

مطبوعات مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام

- تجسيد الوهم (دراسة سيكولوجية للشخصية الاسرائيلية) تأليف : د. قدرى حنفى .... (١٩٧١)

- محاضر الكنيست الاسرائيلى ١٩٦٦ -١٩٦٧ - الكتاب الأول (بالاشتراك مع مؤسسة الدراسات الفلسطينية فى بيروت .... (١٩٧١)

- محاضر المؤتمر الصهيونى الـ ٢٧ لعام ١٩٦٨ - الكتاب الاول - جزءان (بالاشتراك مع مؤسسة

الدراسات الفلسطينية فى بيروت) .... (١٩٧١)

- نمو الاقتصاد الاسرائيلى تأليف: عثمان محمد عثمان .... (١٩٧٢)

- العسكرية الصهيونية (المؤسسة العسكرية الاسرائيلية . النشأة والتطور) المجلد الاول ، تأليف : مجموعة من خبراء المركز .... (١٩٧٢)

- نهاية التاريخ (مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيونى) تأليف د. عبد الوهاب المسيرى .... (١٩٧٣)

- وثائق عبد الناصر (الكتاب الأول : يناير ١٩٦٧ - ديسمبر ١٩٦٨، الكتاب الثانى: يناير ١٩٦٩ - سبتمبر ١٩٧٠) .... (١٩٧٣)

- الشخصية العربية (بين المفهوم العربى والمفهوم الاسرائيلى) تأليف : السيد يسين .... (١٩٧٤)

- التوسع الاسرائيلى (عرض وتحليل مشروعات السلام الاسرائيلى) اعداد محمد فيصل عبد المنعم وابراهيم كروان - تقديم : د. على الدين هلال .... (١٩٧٤)

– العسكرية الصهيونية (العقيدة والاستراتيجية الحربية الاسرائيلية) – المجلد الثانى تأليف مجموعة من خبراء المركز .... (١٩٧٤)

– حرب اكتوبر (دراسات فى الجوانب الاجتماعية والسياسية) – بالاشتراك مع المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة .... (١٩٧٤)

– ازمة الطاقة فى الولايات المتحدة الامريكية تأليف : د. مصطفى خليل .... (١٩٧٥)

– تاريخ الوزارات المصرية (١٨٧٨ – ١٩٥٣) تأليف: د. يونان لبيب رزق .... (١٩٧٥)

– «موسوعة المصطلحات الصهيونية» تأليف د. عبد الوهاب المسيرى .... (١٩٧٥)

– مصر وامريكا (عرض تاريخى لتطور العلاقات المصرية الأمريكية – وتسجيل لرحلة الرئيس السادات لأمريكا) تأليف: مصطفى علوى وعبد المنعم سعيد ...... (١٩٧٦)

– استراتيجية اسرائيل بعد حرب اكتوبر. تأليف : اللواء: مصطفى الجمل .... (١٩٧٦)

– الاتجاهات الجديدة فى مجلس الشعب، إشراف: السيد يسين .... (١٩٧٦)

- الانتخابات الأمريكية وازمة الشرق الأوسط -
بقلم د. سعد الدين ابراهيم .... (١٩٧٦)
- الصهيونية والعنصرية - اعداد : احمد يوسف
القرعي .... (١٩٧٧)
- قرار الحرب فى السياسة الاسرائيلية - د. السيد
عليوه .... (١٩٧٧)
- التضامن العربى الافريقى - نبيه الاصفهانى .... (١٩٧٧)
- مؤتمرن چنيف واحتمالات السلام - د. محمد
ربيع .... (١٩٧٧)
- الأحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢ - د. يونان
لبيب رزق .... (١٩٧٧)
- البحر المتوسط فى الاستراتيجية الدولية - د.
اسماعيل صبرى مقلد .... (١٩٧٧)
- الثورة الادارية - د. نزيه نصيف الأيوبى .... (١٩٧٧)
- الديمقراطية فى مصر : ربع قرن بعد ثورة ٢٣
يوليو .... (١٩٧٧)

الفهرس

تقديم ٥

الباب الأول : مصر تواجه الاستعمار ٢٣

١ - ثورة ١٩١٩ .... ٢٤

٢- مفاوضات ما قبل الاستقلال ٥٢

٣- استقلال مصر - تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ .... ٨٧

الباب الثانى: السودان فى السياسة المصر ١٢٣

١- السودان بين مصر وبريطانيا ١٢٤

٢- ثورة ١٩١٩ والسودان ١٤٨

٣- الوفد والسودان ١٧٧

الباب الثالث: حكومة الوفد ٢٠٩

١- حكومة الوفد وحكومة العمال ٢١٠

٢- المشروع البريطاني ٢٣١

٣- بين سعد وماكدونالد ٢٥٦

خاتمة وتعقيب ٢٦٦

روايات الهلال تقدم

الرجل الأول

تأليف

البير كامى

ترجمة

لبنى الريدى

تصدر ١٥ سبتمبر ١٩٩٨

كتاب الهلال يقدم

الحملة الفرنسية فى محكمة التاريخ

بقلم

د. ليلى عنان

يصدر ٥ أكتوبر ١٩٩٨

رقم الايداع ١٠٧٣٨/١٩٩٨
977-07-0610-8

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٥ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

هذا الكتاب

يستطيع اليوم الكاتب الكبير طارق البشرى أن يتفرغ لاستكمال مشروعه الفكرى، بعد أن تخفف من عبء العمل فى مجلس الدولة، حيث كان جمع فى مشقة بالغة بين العمل فى مجلس الدولة قاضياً ومشرعاً، وبين نشر أعماله الفكرية التى تعبر عن قضايا وهموم مجتمعه.

والمستشار طارق البشرى المفكر، والمؤرخ، والناقد، والباحث، هو مثقف هادئ.. رصين، فيه حياء وتواضع، مشغول بما هو حوله، انشغل بالبحث فى التاريخ حيث كان بالنسبة له نوعا من الحوار بين الحاضر والماضى، يعكس حاجة كل عصر للعودة الى الماضى بحثا عن اصول المسائل واجابات الأسئلة. فالاحتفاء بطارق البشرى هو إعتراف بقيمة المثقف المصرى ونزاهة رجال القضاء وجهادهم من أجل العدل وانصاف الحق..

واحتفاء بالمستشار طارق البشرى تنشر دار الهلال أحد كتبه المهمة وهو كتاب «سعد زغلول مفاوضا»الذى يعد مرجعا ووثيقة مهمة لفترة كان لها اثر كبير فى حياة المصريين فى العصر الحديث.. حيث يمكن اجمال أثر ثورة ١٩١٩ فى السلطة السياسية فى مصر، فى أنها نجحت فى تحقيق ما دعا إليه لطفى السيد وحزب الأمة، قبل الثورة، بما يشارف الخمس عشرة سنة، وهو أن تكون الأمة قوة ثالثة، مؤثرة وفاعلة بين السلطتين الشرعية والفعلية. وثورة ١٩١٩ لم تسقط السلطة الشرعية (الخديو او السلطان او الملك) ولا أجلت السلطة الفعلية (الاحتلال البريطانى) ولكنها أوجدت قوة ثالثة..

وهنا يأتى دور سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ الذى بدأ الخطوات الأولى للمطالبة باستقلال مصر فى نوفمبر ١٩١٨، بوصفه كبيرا لفريق حزب الأمة واستجاب بكفاءة وشرف لامكانات الثورة الشعبية المصرية وليعدل مفهوم الأمة على يديه، وهذا هو الدور الشخصى لهذه الزعامة الفريدة.

وتأتى أهمية هذا الكتاب فى ضوء المفاوضات المتعثرة القائمة بين السلطة الفلسطينية وبين الاحتلال الإسرائيلى، والتى تكشف، علاوة على فن التفاوض، فن استخدام ما لدى الشعب الفلسطينى من إمكانيات.

د. ليلى عنان

الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ

• الجزء الثاني •





سلسلة شهرية تصدر عن
دار الهلال
الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

سكرتير التحرير **عادل عبد الصمد**

مركز الادارة

دار الهلال : ١٦ ش محمد عز العرب

ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٥٧٤ - جماد ثانى - أكتوبر ١٩٩٨

NO - 574 - OC - 1998

أسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش

سوريا١٧٠ ليرة - لبنان٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ ديناراً - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي / أبوظبى ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال

الحملة الفرنسية

فى محكمة التاريخ

(الجزء الثانى)

بقلم

أ . د . ليلى عنان

أستاذ الحضارة الفرنسية
جامعة القاهرة

دار الهلال

الغلاف للفنان

حلمى التونى

مدخل الجزء الثانى

سبق أن تعرف القارىء فى الجزء الأول من هذه الدراسة «الحملة الفرنسية ، تنوير أم تزوير : عصر الأساطير» ، على الجذور التى نبتت منها فكرة الحملة على مصر ، والجو الذى نشأت فيه، وتتبع تطورها حتى أصبحت أسطورة يفخر بها كل فرنسى ، حتى يومنا هذا .

إذ كانت فرنسا ثورة ١٧٨٩ هى الحرب ، الحرب فى الداخل والخارج . ومنذ الأشهر الأولى لقيامها ، اعتبر الجميع أن فرنسا أصبحت على دراية تامة بكل شئون البشر فالثوار – حسب تعريف أحد الصحفيين المعاصرين لهم – قد تحولوا إلى آلهة، وغدت هناك تجربة رائعة للثورة لابد أن تطبق نتائجها على شعوب العالم التى تنتظر الخلاص على يديها ، ففرنسا الثورة هى روما العصر الحديث ، ولابد لها ، بالتالى أن تستولى على العالم لتفرض قوانينها الحكيمة على الجميع .. مثلما فعلت روما القديمة فى الماضى. كان هذا جزءا من ميراث فلسفة التنوير ، وانبهاره بالإله الجديد ، «العقل البشرى» ... الفرنسى. أصبحت تلك الفكرة خير تبرير للتوسع الاستعمارى «للأمة العظمى» ، التى هى فرنسا الثورة، فكان القتل مصير كل من يناهضها؛ وكان الفرنسيون الرافضون للحكم الجديد على رأس قائمة القتلى .

وباسم الحرية ، وقوانين أكثر الأمم حكمة فى الوجود ، قامت حكومات الثورة باحتلال البلدان المتاخمة لحدودها ، وقد عوملت تلك البلدان ، سواء كانت بلچيكا أو إيطاليا ، كمستعمرات يستنزف الجيش الفرنسى المحتل كل مواردها من أجل الجمهورية الجديدة ، مما أثار ردود الفعل الوطنية والثورات التحريرية . وقد كشفت الدراسات ، التى نشرت بمناسبة مرور قرنين من الزمن على قيام تلك «الثورة الكبرى» ، زيف أسطورة الجند الفرنسيين الذين نشروا مبادىء الحرية والمساواة والإخاء فى البلاد التى «حررتها» اسماً واستعمرتها بالفعل، لأن فاقد الشىء لا يعطيه ، وكان كل ذلك لإيجاد حل للأزمة الطاحنة التى تعصف بالاقتصاد الفرنسى ، وكان أكثر المؤرخين فضحا لذلك الواقع المؤسف، هو «فرانسوا فوريه» فى كتبه عن «الثورة الفرنسية» .

كان جو الأساطير مسيطرا على كل أدبيات آنذاك ، فكان انتصار الجنرال بونابرت فى إيطاليا سبباً فى بزوغ نجم أسطورة جديدة ، عرف هو كيف يستغلها .

وكما نقرأ فى كتب «جان تولار» الحديثة ، فقد كانت سيطرة بونابرت التامة على العقول من خلال الدعاية المكثفة لشخصه ، من أحسن مؤهلات هذا الجنرال العبقرى الشاب ، وذلك بمساعدة فريق ناصره ، وجعل منه منقذ فرنسا المنتظر . وقد زاد الانبهار ببونابرت آنذاك ، عندما احتل مصر ذلك البلد البعيد الغامض ، الذى يعد هو أيضا من أساطير الفكر الفرنسى ، بسبب أهرامات أسطورية كان يعيش فيها كهنة الفراعنة الحكماء . وبما أن بونابرت وحزبه لم يتحدثوا إلا عن

انتصاراته التى ضخمت للغاية ، كما فعلوا أثناء حملته السابقة على إيطاليا ، فقد عاد بونابرت ، بعد فشل الحملة على مصر ، حاملاً لقب «المنتصر الذى لا يهزم أبداً». واستولى بونابرت على الحكم بعد شهر واحد من عودته إلى فرنسا ، بعد انقلاب عسكرى سافر على الشرعية النيابية. وبدأ تاريخ بونابرت الطاغية الذى سيصبح الإمبراطور نابليون ، الأسطورة الجديدة وتحول كل ما يمس شخصه إلى معجزة لا يقدر عليها إلا إله؛ وقد شبه بالرب فعلا كما قرأنا فى الجزء الأول من دراستنا هذه، وفى كتب «چان تولار» أيضا.ولقد كانت العبقرية الإعلامية لنابليون - امبراطور الثورة - أقوى من أية حقيقة فقام بتجريد فرنسا من مكاسب الثورة الديمقراطية كلها ، بعد أن ألغى كل الحريات ، بما فيها الحريات الشخصية. ولكن نجمه بدأ فى الأفول عندما بدأت هزائمه تتوالى إلى أن جاءت النهاية : احتلت جيوش أوربا كلها فرنسا ، وعادت الملكية ، ونفى الإمبراطور المخلوع إلى جزيرة «سانت - هيلانة» الاستوائية . وبدأت فى الوقت ذاته أخطاء ملوك فرنسا ، فأخذت الأساطير تحكى عن نابليون «المهزوم العظيم» الذى مكن فرنسا ذات يوم من كل بلدان أوربا .

زادت الأسطورة انتشارا عندما ظهرت فى المكتبات مذكرات «لاس كاز» التى كونت كتاب « الميموريال» الشهير ، حيث قال نابليون فيه ما كان يريد أن يقال عنه وعن حكمه ، وحبه للحرية ودفاعه عن القوميات ! وصدق الجيل الجديد من الفرنسيين التهويمات التى أطلقها الأسير العبقرى من جزيرته النائية ، وتغنى الشعراء والكتاب بأمجاد الرجل

العظيم ، وأخذوا يرددون كل ما قاله هو عن نفسه . وقد كانت رحلته الباهرة إلى بلاد الأساطير ، مصر الغامضة ، أهم درة فى تاريخ نابليون المجيد ؛ فأصبحت الحملة عليها جزءا من أسطورة كاذبة ، هى أسطورة نابليون نفسه .

جاءت أخيرا مبادىء ثورة ١٧٨٩ إلى الحكم مع الجمهورية الثالثة، عام ١٨٨٠ ، لتمحو ذكرى هزيمة فرنسا النكراء فى عام ١٨٧٠ ، عندما احتلها البروسيون لإنشاء «إمبراطورية ألمانيا» فأكدت الجمهورية الثالثة على كل أمجاد فرنسا السابقة خاصة الأمجاد الحربية ، وكان لنابليون - بالطبع - نصيب الأسد فى تلك الأمجاد .

وبدأت تلك الجمهورية ، فى الوقت ذاته ، تتوسع فى الحروب الاستعمارية وقد جعلت الحملة على مصر ، خير مثل يحتذى به ، لبلد ناءٍ متخلف ، حملت له الجيوش الفرنسية الحضارة والحرية. فقد كان إرساء الحضارة فى البلاد المتخلفة ذات الأجناس الدنيا - كهدف نبيل - أفضل حجة لتبرير تصرفات الرجل الأبيض فى القرن التاسع عشر ، وهو - بالتالى - خير وسيلة لطمس فكرة استنزافه موارد الدول الضعيفة فى افريقيا وآسيا . فتغنى المؤرخون بالحملة على مصر ، للتأكيد على الدور التحضيرى الأبدى للجند الفرنسيين، مغفلين كل ما يمكن أن يمس ، بسوء ، سمعة الجيش الفرنسى، حامل لواء الحرية والحضارة للعالم . وعلى الرغم من اعترافهم بفشل الحملة ، إلا أنهم قد

نشروا تلك الأفكار مؤكدين أن الحملة على مصر كانت لها «نتائج باهرة». ولم تزد تلك النتائج - باعترافهم - على ثلاث : اكتشاف حجر رشيد، كتاب «وصف مصر» وإنجازات المعهد الفرنسى، دون توضيح ماهية تلك الإنجازات بالضبط ، أو مدى استفادة المصريين منها .

ناهيك عما قيل فى حب المصريين لبونابرت والجيش المستعمر ، وفرحتهم بهما ؛ علاوة على إطلاق مسلمات لا حصر لها ، كلها مبهمة لا تستند إلى واقع محدد ، أو مرجع موثوق به. والغريب أن كثيرا من الفرنسيين كان قد فند صحة تلك المسلمات الخادعة ، وهم ممن لا نستطيع رد كلامهم ، لأنهم شهود الحملة العيان .

وإذا كنا قد تعرفنا - فى الجزء الأول من دراستنا هذه «عصر الأساطير» - على المناخ الذى ترعرعت فيه الأسطورة ، وتابعنا تطورها؛ فإننا نكمل هنا ما قد بدأناه ؛ فنعرض لكتابات بعض هؤلاء الفرنسيين التى تتسم بنزعتها المستمرة لتمحيص المفاهيم والتصورات الراسخة عن الحملة وتأثيرها على مصر والمصريين ، ومن ثم فإنها تعتبر كتابات تحطيم الأسـطورة القديمة وتفنيدها بالانفلات من أسر المسلمات العتيقة، وذلك فى إطار محاولتنا حصر دلائل التأثير الواقعى للحملة على مصر والمصريين المعاصرين لها ، وما بعدها أيضا : الأمر الذى يهيىء لنا معرفة الوجه الآخر للحملة .

ونبدأ «بشاتوبريان» الذى كان أول من وضع أسس أسطورة الحملة على مصر فى كتابه «المسار من باريس إلى أورشليم» كما سبق أن قرأنا .

الفصل الأول

شاهد من أهلها المعاصرين

«كنا نتخيل أن الرعب من أسلحتنا ، والقوة التى أخمدنا بها مثيرى الشغب ، سيفرضانا نهائيا على المهزومين . ولكن حكمنا كان خاطئا لأننا سمعنا مباشرة بثورة القاهرة» .

كابتن «مواريى»

إذا درسنا ما كان يقوله عن نابليون ألد أعدائه من الأدباء، فإن الصورة تكون أكثر وضوحا ، ومن ثم ، نستطيع أن نتفهم التأثير الذى أحدثته أسطورة نابليون على عقول بعض الفرنسيين ، حتى يومنا هذا .

لقد كان مؤلف «المسار من باريس إلى أورشليم» الكاتب الكبير «الفيكونت رينيه دى شاتوبريان» وهو عملاق من عمالقة أدب ذلك العصر والعدو اللدود لنابليون ، يلتقى مع العملاق «فيكتور هوجو» فى نقطة واحدة، وهى أن فرنسا عرفت – أيام نابليون – مجدا لا حد له ؛ ولكنه يختلف معه بعد ذلك ، اختلافا جذريا(*) .

فعلى الرغم من أن «شاتوبريان» كان ألد أعداء نابليون ، إلا أن انتصارات الإمبراطور كانت تدغدغ شوفينيته المتوهجة. لقد قال فى الرجل ما قاله مالك فى الخمر ، وجاءت الدراسات الحديثة لتؤكد صحة كل ما قاله «شاتوبريان» عنه ، خاصة دراسات «چان تولار» – كما أسلفنا فى الجزء الأول – عن نابليون وأساطيره المصطنعة . ومن هنا ، كانت أهمية قراءة الوجه الآخر لأسطورة نابليون بونابرت فى مصر ، كما قالها «شاتوبريان» فى القرن التاسع عشر ، قبل أن نقرأ شهادة من شارك فى الحملة لقد قال مؤلفنا الشهير الحقائق التى لم يهتم أحد بالرجوع إليها ، إلا أخيرا جدا . وعلينا أن ننوه هنا إلى ظاهرة لم نؤكد عليها فى حينها – أى فى الجزء الأول – وهى أن «شاتوبريان» ، فى كتابه الشهير «المسار من باريس إلى أورشليم» ، مجد جند فرنسا فى مصر، ولم يقل كلمة عن قائدهم كما أنه «رأى» آثار الحضارة الفرنسية، فكان من أوائل من أرسوا أسطورة الحملة التحضيرية على مصر. كانت

---

* ارجع إلى الجزء الأول من هذه الدراسة.

الحقائق قد عرفت من خلال نشر مذكرات شهود عيان للحملة ، وإن كانت تلك المذكرات لم تحدث تأثيرا يذكر لدى القراء ، حتى يومنا هذا . ولكن «شاتوبريان» ، كان قد تعرف على بعضها ، بعد نشره لكتاب «المسار من باريس إلى أورشليم» .

نشـــر هذا الكتاب – كما سبق أن أشرنا فى الجزء الأول – سنة ١٨١١ ، ونشر الميموريال سنة ١٨٢٣(*). وهلع «شاتوبريان» من الأسطورة التى بنيت لتؤله نابليون ، وحاول جاهدا أن يحطهما فى «مذكرات ما وراء القبر» ولكن هذا المجلد لم ينشر إلا بعد وفاة كاتبه ، أى بعد ١٨٤٨ فجاء مهملا من القراء ، مثله مثل كل ما يمكن أن يمس أسطورة الحملة عندما يتعرض الكاتب إلى ما حدث للمصريين على يد جيش المجد ، أى «جيش إيطاليا» .

ولكن الأمر هنا له دلالة كبيرة بالنسبة لنا ، إذ رأينا «شاتوبريان» ، سنة ١٨١١ يرسخ أول فكرة موضوعية عن أمجاد الجيش الفرنسى فى مصر ثم نراه يتراجع عن نظرته المنبهرة تلك ، بل يغير رأيه تماما بعد ذلك ، كما سنرى ؛ لم يؤثر ذلك على القراء الفرنسيين مطلقا، كما سنراهم دائما ، لا يهتمون إلا بالتمجيد ويهملون ، إهمالا تاما ، كل ما يمكن أن يفضح حقيقة بذيئة ، لا يحتمل الضمير الفرنسى أن يعترف بها. إلى أن جاء جيل ما بعد انهيار الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، أى جيل ما بعد ستينات القرن العشرين .

---

* ارجع إلى الجزء الأول .

لقد بهر «شاتوبريان» ، في وقت سابق ، بـ «خمسة جنود فارين من الخدمة» ، عندما رآهم على وشك السيطرة على مصر سنة ١٨٠٦ ، وهم يفتحون له الطريق في أزقة القاهرة . ورأيناه يتغنى بأمجاد الحضارة التي أهدتها فرنسا بجندها إلى مصر ، وبما رآه من آثارها التي لم نتعرف منها إلا على حديقة صغيرة. فكيف غير «شاتوبريان» رأيه بعد ذلك ؟ وماذا قال بعد أن قرأ - حسب اعترافه ، وبعد أكثر من ربع القرن- مذكرات شهود الحملة العيان ، والتي سنعرض لها فيما بعد ؟

نتذكر طبعا أن غضبه من نابليون ينصب على كون الجنرال سياسيا ملحدا ، يلعب بانتماءاته الدينية المتغيرة حسب الظروف ؛ في حين أن واجبه كان يحتم عليه ، من وجهة نظر شاتوبريان ، أن يقوم بدحض الإسلام ، وتمجيد المسيحية ، ثم تنصير مصر. فقد كان واجبه الأول أن يكمل ما فشل فيه الملك لويس التاسع ، وباقي الصليبيين ولكننا نرى «شاتوبريان» ، بعد ذلك ، وقد توصل إلى معرفة بعض ما تم من فظائع على يد الجيش الفرنسي ، حتى أنه يعترف - ويا للعجب - بحق المصريين في الدفاع عن أنفسهم .

وفي «الميموريال» ، وقبله ، نرى أن نابليون كان قد نفى كلية أمر تسميم جنده ؛ وكانت هذه التهمة قد لاحقت نابليون منذ عودته من مصر، حتى أنه قد أمر برسم لوحة تؤكد زيارته لمرضى الطاعون ، والعناية بهم، بل ولمسهم أيضا ، كما سبق أن رأينا ولكن «شاتوبريان» يدين نابليون ، ويؤكد جرمه - مدللا على ذلك بشهادة الأطباء الذين حضروا تلك المأساة - وينفي في الوقت نفسه ، أي ادعاء يعمل على تبرئه نابليون من تلك الجريمة .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن الفرنسيين أخذوا ينظرون إلى نابليون وكأنه السيد المسيح بعد أن وصلت الأسطورة إلى ذروتها سنة ١٨٤٠ عندما عاد رفاته إلى باريس ، فأصبحت تلك الاسطورة ، بالتالى ، أقوى من أى دليل أو شهادة يمكن أن تمس شعرة من سمعة الرجل .

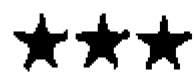
وعلينا أن نقرأ – حرفيا – ما كتبه «شاتوبريان» فى مؤلفه الذى نجح نجاحا باهرا وإن كان قراؤه قد أصروا على عدم رؤية هذه السطور التى تجرح إعجابهم برجل عظيم آخر ، هو نابليون .

«شاتوبريان» : «مذكرات ما وراء القبر»

ولد «شاتوبريان» فى ١٧٦٨ ، أى أنه كان يكبر بونابرت بسنة واحدة ؛ ولذا فقد جاءت شهادته مختلفة اختلافا جذريا عما رآه باقى الأدباء الذين كتبوا عن الإمبراطور : فهم لم يتأثروا إلا بما قيل عنه ، فى حين أن «شاتوبريان» نفسه كان معاصرا لحياة نابليون من بدايتها إلى نهايتها .

فقد مات الإمبراطور فى ١٨٢١ ، ولم يمت «شاتوبريان» إلا فى ١٨٤٨ . أى أنه قد تعرف أيضا على مدى الإطراء والتضخيم اللذين أضفاهما باقى الأدباء على أسطورة نابليون المنفى المتوفى . وكان «شاتوبريان» من النبلاء الذين هاجروا بعد الثورة ، ولكنه عاد سنة ١٨٠٠ ، عندما أصدر بونابرت عفوا شاملا عن كل من يعود إلى فرنسا من المهاجرين شريطة أن يقبل حكمه ، وينسى مطالبة «آل بوربون» بعرش الملكية. وبالفعل ، عاد كثير منهم ، وأصبحوا من أخلص معاونى الحكم الجديد . وعين «شاتوبريان» دبلوماسيا سنة ١٨٠٢ ، بعد أن

أصبح ، بين عشية وضحاها ، أشهر كاتب فى فرنسا ، عندما نشر روايته «آتالا» ، ثم كتاب «عبقرية المسيحية» . وقد واكب نشرهما - بما لهما من طابع دينى مؤمن إيمانا مطلقا - المصالحة التى تمت بين بونابرت والبابا ، وعودة الكنائس إلى وظيفتها الأساسية ، بل وعودة الفرنسيين إلى دين أجدادهم . ولكن نابليون أمر باختطاف «دوق دانجيان» من الأراضى الألمانية ، وأصبح هذا الأمير الشاب رمزا لتعسف نابليون ، عندما حوكم محاكمة صورية ، وأعدم فى الليلة نفسها دون سبب يذكر ، اللهم إلا ضرورة إرهاب التيار اليمينى فى البلاد . قدم آنذاك «شاتوبريان» استقالته ، وأصبح من ألد أعداء نابليون ، وانضم إلى معارضة الأدباء التى تزعمها بعض أصدقائه من مشاهير ذلك العصر . ثم سافر بعد ذلك إلى الشرق وزار من بين الدول التى مر عليها فى سنة ١٨٠٦ ، مصر محمد على ، ثم نشر كتابه «المسار من باريس إلى أورشليم» .



إن ما يهمنا الآن هو ذلك المجلد الضخم لسيرته الذاتية الذى أسماه «مذكرات ما وراء القبر». ومثلما رسم نابليون لنفسه صورة مجملة فى «الميموريال» ، جاءت هذه المذكرات ، التى دونها «شاتوبريان» طوال حياته ، ليحكى فيها ما يريد هو أن يعرف عنه ، وعن آرائه السياسية وحياته الخاصة ، وكان قد لعب بالفعل دورا فعالا فى سقوط نابليون ، وإحلال عائلة «البوربون» بدلا منه على عرش فرنسا ، عندما نشر فى

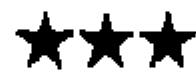
١٨١٤ ، منشورا بعنوان «عن بيونابرته والبوربون»، ومجرد استعماله للاسم الإيطالي لنابليون ، يفصح عن رأيه الذي تضمنه ذلك المنشور .

ولعب «شاتوبريان» خلال الحقبـــة الملكيـة بعد ذلك دورا ســـياسيا محدودا ، ولكنه صدم في الحكم الملكي ، لرفضه ليبرالية سياسية كان «شاتوبريان» ينشدها دائما ، وكان غيابها سببا في كراهيته لنابليون .

وتعتبر «مذكرات ما وراء القبر» من أجمل ما كتب في الأدب الفرنسي، وهي في شموخها كالجبل الذي يبهر بعظمته ، وإن كان المؤلف يرهق القارئ بذاتيته المفرطة ، وبادعائه المستمر تواضعا لا يخدع أحدا. وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يكف عن ذكر نابليون الذي نجده تقريبا في كل فصل من فصول هذه المذكرات الضخمة ، بل نجد فصولا بأكملها تفرد لسرد تاريخه العاصف. وما هذا ، بالطبع، إلا دليل قاطع على سيطرة فكرة هذا الرجل الفذ على كل من عرفه أو عاش في عصره ، حتى وإن ناهضه بقوة ، كما فعل «شاتوبريان» .

والمنشور المسمى «بيونابرته والبوربون» يعرف الفرنسيين بكل ما كان يقال عن نابليون من شائعات واتهامات ، أصبحت بفضل أسلوب «شاتوبريان» الساحر ، ذات مصداقية أقنعت من كان رافضا لها ؛ بما في ذلك فكرة أن نابليون، في حقيقته، لم يكن إلا «بيونابرته»، أي ذلك الإيطالي الذي يدعي أنه فرنسي ؛ فبأي حق يتولى حكم فرنسا وهو غير فرنسي ؟ وكان نابليون ، بالفعل ، يكتب اسمه بهذه الطريقة عندما كان يشترك في حركة تحرير جزيرته كورسيكا ، قبل أن ينضم إلى مؤيدي

الثورة الفرنسية، فى أول حياته. وكان لمنشور «شاتوبريان» صدى جعل الملك ، العائد إلى فرنسا ، يعتبره من أهم دعائم ملكه الجديد. كل هذا يؤكد لنا درجة كراهية «شاتوبريان» للإمبراطور المهزوم ، ويجعلنا نهتم جدا بما كتبه عنه حتى بعد أن خيب آل «بوربون» آماله. توالت بعد ذلك الثورات وأصبحت لنابليون سيرة عطرة يتغنى بها الجميع، فكانت محاوله تفنيد ما قيل فى «الميموريال» من أهم أهداف «شاتوبريان»، وبالتالى دحض الأسطورة المنيرة التى اكتسحت أعمال الأدباء، وأغرت السياسيين، حتى نسوا حقيقة حكم نابليون القاتل للحريات. كان «شاتوبريان» قد ترك السياسة، وكرس وقته كله لتدوين باقى مذكراته، لنجد فيها ما يهمنا من رؤية معاصر فذ، لشخصية نابليون الفذة، فتكون الوجه الآخر للأسطورة التى ترعرعت فى حياته: إنها الأسطورة السوداء «للغول»، «السفاح»، «الطاغية» .. إلخ..



أول ما يلفت النظر فى هذه المذكرات بعد اصطدامنا بالذات المتضخمة لكاتبها، إيمانه المطلق المتعنت بالمسيحية، بمذهبها الكاثوليكى طبعا، وحبه الشوفينى لبنى وطنه. كما يلفت النظر، أيضا إيمانه وتمسكه بالأفكار الليبرالية، التى أثبت إيمانه بها برفضه حكم نابليون عندما لم يجدها فيه، كما كان غيابها عن الحكم الملكى لعائلة «بوربون» نفسها، سببا فى معارضته لها، فكان رفضه لكليهما، على الرغم من إيمانه بشرعية عائلة «بوربون» وولائه لها.

والمؤلَّف الذى سنقرأ أجزاء منه، يقع فى أكثر من ألف صفحة، ولا يسعنا بطبيعة الحال إلا تقديم ترجمة لبعض الفقرات التى نرى أنها أكثر دلالة، حتى تتضح لنا الصورة، عندما يحكم «شاتوبريان»، عبقرى الأدب، على نابليون، عبقرى الحرب والسياسة.

★ ★ ★

نقرأ فى الصفحات الأولى من المجلد، وفى الصفحة السادسة تحديدا: «فى الرابع من أكتوبر عام ١٨١١ ،...، هذا الرجل الذى لا يهدى سلطة العالم إلى فرنسا إلا ليسحقها هى نفسها تحت أقدامه، هذا الرجل الذى أعجب بعبقريته وإن كنت أمقت طغيانه، هذا الرجل يحيطنى بتعسفه وكأنه صحراء تحيط وحدتى، هذا الرجل يطحن الحاضر، ولكن الماضى يتحداه». نلاحظ أن هذه الكلمات، الواضح معناها، والتى قد كتبت منذ ١٨١١، تلخص بدقة متناهية كل ما سيقوله «شاتوبريان» عن نابليون بعد ذلك، على مدى حياته الطويلة؛ إنها ببساطة، رأيه فى هذا الرجل « العبقرى ... الطاغية» خاصة أن ما سيؤكده «شاتوبريان» بعد ذلك من محاربته للطغيان، حقيقة تاريخية، تثبتها كل أفعاله حتى وفاته سنة ١٨٤٨. ويقول صادقا: «دافعت عن حريات فرنسا لأنها وحدها الكفيلة باستمرار شرعية العرش». ولذا، سنجد أن كره الطاغية، فى كتابه، يتزامل دائما مع انبهاره بعبقرية نابليون. فهو كثيرا ما يلقبه «بالجائر على حرياتنا»، كما يعترف، فى الوقت نفسه، أن «هذا الرجل العملاق الذى شاهدته يهوى، هو بحق سيد أوربا». وعندما تم إعدام «دوق دانجيان» وترك «شاتوبريان» خدمة

نابليون، وتحول إلى معارض له، نرى الكاتب يعجب لمثل تلك السقطة من رجل مثل نابليون: «إن العقلية الفذة لا تلد الشر دون ألم، لأن الشر ليس نبتها الطبيعي، وما كان عليها أن تحمله» . ورأيه فى نتائج الإمبراطورية لا شك فيه: «لقد مررنا، دون أية فائدة بالعديد من الجرائم وبالكثير من المجد، إن الثورة والإمبراطورية لم يكن لهما أية فائدة». وعلى الرغم من ذلك، فهو يرى أن «جيلا جديدا وقويا نبت من كل هذه الدماء، وكبر وأصبح لا يهدر إلا دماء الغرباء، تحول الجمهوريون على مر الأيام إلى إمبراطوريين، ومن طغيان الجميع إلى طغيان شخص واحد»، الذى هو بالطبع طغيان «بونابرت». إن «شاتوبريان» يعذر الفرنسيين إلى حد ما «لأن الجمهور سئم الفوضى، فعاد طواعية إلى عبودية القانون»، ولكنه كان قانون «الطاغية بونابرت» فقد «أغرق (هذا الرجل) أرض فرنسا بأمجاد تتساوى فى عددها بعدد الكوارث». وعلى الرغم من ذلك، فهو يكتب قائلا: «إعجابى ببونابرت كان دائما كبيرا وصادقا، حتى عندما كنت أهاجمه بضراوة».

ولذا، فهو يعيب عليه جريمتين، قتل الدوق الشاب البرئ، وغزو أسبانيا، لأنه «عندما كان يخرق القوانين الأخلاقية، كان، فى الوقت ذاته، يهمل ، بل يحتقر قوته الحقيقية، وأعنى بذلك ميزاته الرائعة من نظام وعدل»، وكأن «شاتوبريان» لا يحتمل أن تكون لشخصية نابليون وجه قبيح، وهو المعجب المنبهر به. إن كاتبنا يتمزق بين حبه لوطنه، الذى حرم من كل الحريات أثناء حكم نابليون، ويفخر فى الوقت نفسه، أى فخر، بالمجد الذى وصلت إليه الجيوش الفرنسية فى عصر الإمبراطور.

ولكن ما الثمن الذى دفعه الفرنسيون فى سبيل ذلك المجد؟، وأين الحرية التى لا يرى «شاتوبريان» قيمة تعلو قيمتها؟

إن «شاتوبريان» يذكر القارئ أن أول عمل لفت الأنظار إلى بونابرت كان أثناء حصار مدينة «تولون»، «حيث أراق لأول مرة الدماء، وكانت دماء فرنسية». لقد أعاد «بونابرت، القنصل الأول، النظام إلى فرنسا، ولكنه فعل ذلك كطاغية».. «إن بونابرت كان يعتبر أى استقلال ثورة على سلطته»... «كان يغار من أية شهرة، ويعتبرها اغتصابا لحق خاص باسمه وحده: كان لابد أن يكون اسم نابليون هو الاسم الوحيد فى العالم». وإذا ما قارنه بالإسكندر الأكبر، الذى حاول نابليون محاكاته، قال: «كان المقدونى ينشئ الإمبراطوريات وهو يركض، بينما كان بونابرت يحطمها وهو يركض؛ وكان هدفه الوحيد أن يصبح وحده سيد الكرة الأرضية، دون أن يزعج نفسه بوسائل الاحتفاظ بها»... «لقد ورث كل ما بنته الملكية الفرنسية على مر القرون وما اكتسبته الثورة من أراض لفرنسا: جلس على هذه المنصة الرائعة ومد ذراعيه، واستولى على الشعوب وجمعها من حوله، ولكنه فقد أوربا بالسرعة التى استولى بها عليها، وأجبر الحلفاء على احتلال باريس مرتين، على الرغم من عبقريته العسكرية. كان العالم تحت قدميه، ولم يفز فى نهاية الأمر إلا بالسجن لنفسه، وبالمنفى لعائلته، وبضياع كل التوسعات التى حصلت عليها فرنسا، بل وجزء من أرضها العتيقة». ثم يتحول «شاتوبريان» إلى أسلوب السخرية المريرة «مجد مولانا لم يكلفنا إلا نحو مائتين أو ثلاثمائة ألف رجل فى السنة، ولم ندفع إلا ثلاثة ملايين من جندنا ثمنا

له، ومواطنونا لم يدفعوا له إلا خمسة عشر عاما من العذاب وفقدان حرياتهم: هذه الترهات، ألها أية قيمة؟... إن مصائب الثورة خدمت الجميع، ولكن مصائبنا أثناء الإمبراطورية كانت لها نتيجة أكبر: لقد ألهت بونابرت! وهذا يكفينا طبعا».

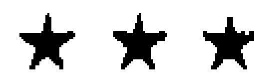
إنه يذكر القارئ بما حدث عندما فشلت محاولة اغتيال بونابرت سنه ١٨٠١: «لقد صدر أمر بنفي مائة وثلاثين من الجمهوريين دون أية محاكمة، إلى جزر سيشيل، وجزر القمر، ،...، وهناك، مات أغلبهم».. «ولذا لا يمكن أن يحارب بونابرت إلا بما هو أكبر منه، وهو الحرية: لقد كان مذنبا فى حقها، وبالتالى، فهو مذنب أمام الجنس البشرى أجمع» لذا، عندما أعيد رفاته إلى باريس في عام ١٨٤٠، وفتحوا نعشه، قال «شاتوبريان» : «وجدوا أن أظافره قد طالت، وأنا أظن أن هذا حدث ليسمح له بأن يمزق ما تبقى من حرية فى العالم»!

وعلى الرغم من ذلك كله، فإن «شاتوبريان» لا يزال يعترف بعظمة الرجل الذى وصفه «بالعملاق»، والكلمة تلخص نابليون كما يراه كاتبنا الثائر عليه، فذلك العملاق ذو الشخصية النابغة، لم يكن على المستوى الذى ينتظره المرء من مثله: كان طاغية، وقتل الحريات، وأخطأ أخطاء ليست جديرة - لفداحتها - بعظمته كعملاق. وعلى الرغم من أن حكمه كان نقمة على فرنسا لما دفعته من ثمن له، إلا أن فرنسا قد ألهته. إن كانت الجيوش الفرنسية قد غزت العالم، وأسعدت فرنسا بمجدها الحربى الرائع، فالفضل فى ذلك يرجع إلى جيل من عباقرة الجند الفرنسيين.

فإن «شاتوبريان» يشكـك دائما فى العبقرية العسكرية «لبونابرت» – كما كان يسميه – بينما يرى فى الضباط الآخرين الفضل فى اكتساح جيوش العدو. واللافت للنظر أن الدراسات الأخيرة عضدت الكثير مما عابه «شاتوبريان» على نابليون، القائد الحربى الأسطورى.

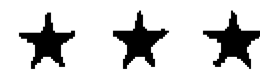
ولا ننسى أن نضع لمسة أخرى على الصورة التى قدمتها لنا تلك المذكرات عن الإمبراطور، ألا وهى إعجاب «شاتوبريان» الذى لا حد له «بجورج واشنطن»، فقد قابله مرة واحدة أثناء الرحلة التى قام بها إلى أمريكا فى شبابه، وهو يقول عنه «الجندى المواطن، محرر عالم بأسره».

فالقيمة الأولى عند «شاتوبريان» هى الحرية السياسية، وقد كتب هذه الجملة بعد أن توفى نابليون، ثم أفرد فصلا كاملا يقارن فيه بين الرجلين وقال ملخصا رأيه: «إن واشنطن لم يهتم إلا بمصير وطنه، بينما بونابرت لم يكن له هدف إلا مجده الشخصى»، فماذا كانت النتيجة؟: «بقيت جمهورية واشنطن وتحطمت إمبراطورية بونابرت. لقد خرج واشنطن وبونابرت من عباءة الديمقراطية، ولد كلاهما من الحرية، فكان الأول وفيا لها، وخانها الآخر. ويعيد «شاتوبريان» الكرة بعد ذلك بسنوات، ليؤكد بإيجاز شديد، أين يرى العظمة الحقيقية: «لقد شاهدت واشنطن فى بيته الصغير «بفيلادلفيا»، وشاهدت بونابرت فى قصوره».



يقال إن منشور «شاتوبريان» سنة ١٨١٤، هو الذى استفز الرأى العام، والأدباء الذين ردوا عليه بخلق أسطورة مضادة لدحض اتهاماته التى حولت الإمبراطور إلى أفاق، قاتل، مستبد ... إلى آخر تصويره له،

كوحش مفتصب لعرش فرنسا. ودارت الأيام، وكان على «شاتوبريان» أن يواجه ما أثاره هجومه من تأليه للإمبراطور المهزوم مع أنه قاتل الحريات وقاتل الأبرياء. فكان هذا الحكم على نابليون فى المذكرات التى لم تنشر إلا بعد وفاة كاتبها، والتى يصل فيها «شاتوبريان»، نسبيا، إلى قدر من الموضوعية، فى محاولته فصل فضائل نابليون عن جرائمه: اعترف بعظمته كعملاق آدمي، له صفات لا توجد عند غيره، وأخطاء قاتلة له ولفرنسا، لا توجد هى أيضا عند غيره .



إذا ما وضعنا فى حسباننا ذلك الكسل الإنسانى الذى غالبا ما يجعل المرء يكتفي بوجه واحد من العملة، دون أدنى محاولة لمعرفة الوجه الآخر، نستطيع، من خلال رأى «شاتوبريان» السابق، أن نستخلص مدى انبهار الأجيال التى توالت بعد حكم نابليون بشخصيته الفذة، حتى وإن كانوا، على شاكلة كاتبنا، ممن لا يؤلهون بونابرت، وبالتالى عدم التشكيك فى مشاعر بدائية قد تكون كلها رافضة، أو كلها منبهرة.

شاتوبريان والحملة على مصر

كان لحملة بونابرت على مصر مكان الصدارة فى أسطورة إنجازاته الرائعة، كما سبق أن رأينا مع الشعراء والفنانين الذين عرضنا بعض كتاباتهم (*). وكانت الأسطورة المضادة تستغل، أيضا، تلك الحملة، ليس فقط لشهرتها، ولكن لما أذيع عن جرائم بونابرت فيها. وقد لاحقت سيرة

* فى الجزء الأول من هذه الدراسة.

تلك الجرائم نابليون طوال حياته، حتى أنه حاول تفنيدها فى «الميموريال» كما أسلفنا. ولكن «شاتوبريان»، كان قد وجد فيها ما يؤكد طغيان نابليون، ويدل على أنه سفاح قاتل مرتد دينيا؛ فما كان من مؤلفنا إلا أن رد على دفاع نابليون بالدليل القاطع على صدق الاتهامات الموجهة له.

وهكذا أصبحت الحملة على مصر من أهم عناصر أسطورة نابليون السوداء، كما كانت درة الأسطورة المنيرة.

★ ★ ★

ويمكن أن نؤكد، فى تلك الأسطورة السوداء، أن الحملة تعتبر فى بعض أحداثها - من وجهة النظر الغربية -أسود ما فى تاريخ نابليون كله. ولذا فقد أفرد لها «شاتوبريان» عشرين صفحة، ليؤكد صحة الجرائم التى اتهم بونابرت باقترافها أثناء وجوده فى مصر. ولم تكن جرائم ضد المصريين، ولكنها ضد الجند الأسرى العزل، بل وضد جنوده هو نفسه.

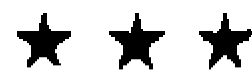
ويتهم «شاتوبريان» بونابرت بجريمة أخرى ، وهى جريمة فى حق المسيحية وفى حق فرسان الحروب الصليبية، متناسيا تماما أن بونابرت كان فى شبابه صديقا «لليعاقبة»، بل كان صنيعتهم بالفعل، وبالتالى، كان، وأثبت طوال حياته، أنه من تلاميذ التنوير الملحدين، وأن الدين فى يده، أيا كان، لا يمكن أن يكون إلا سلاحا يستعمل عند اللزوم. ولذا، كان «ستندال» قد فهم، كما سبق أن قرأنا، تصرف بونابرت مع الإسلام فى مصر، لأن «ستندال» كان شديد الإعجاب بنابليون السياسى

الداهية، أولا؛ ولأنه ، ثانيا، كان هو نفسه من تلاميذ التنوير فكان يشارك بونابرت عدم مبالاته، ولنقل احتقاره للإيمان، ولكن إيمان «شاتوبريان» المطلق، يجعله لا يحتمل أن يهزأ بونابرت هكذا بالدين المسيحى، حتى يتعامل معه كما يتعامل مع الإسلام... وما أدراك ما كان يقوله «شاتوبريان» عن الإسلام والمسلمين! ويتضح لنا هنا الوجه الصليبى «لشاتوبريان» بإيمانه المطلق بالمسيحية المنتصرة على الإسلام من خلال الحروب الصليبية، ورفضه بالتالى لحملة لم يكن هدفها الأول والوحيد تنصير مصر فهو يؤكد بمرارة شديدة، وبعد هذا الندم، على ما كان يقوله القائد الفرنسى المنتصر للمسلمين فى القاهرة حتى يستميلهم بعدائه للمسيحية وحبه للإسلام، ثم يضع بجانب ذلك مباشرة ما كان يقوله للبابا فى روما حتى يستميله: إن «شاتوبريان» لا يحتمل أن يكون بونابرت سياسيا ملحدا، لا يدين إلا بدين مصلحته الذاتية. ويقوم «شاتوبريان» بعقد مقارنة بين ما فعله الإسكندر الأكبر، ومحاولة برنابرت التمثل به فى الشرق، وفشله فى هذا الميدان: فقد نجح الإسكندر فى إقناع العالم بأنه ابن الإله آمون، وفشل بونابرت «فى إقناع المسلمين بأنه محمد آخر». كذلك، تحدث عن بؤس الجند فى بلد لم يجدوا فيه ما كانوا يحلمون به، بعد أن غنموا فى إيطاليا وتمتعوا بكل ما كان مباحا أو غير مباح.

ثم، وهو الأهم طبعا، جاءت، فى تلك الصفحات قصة مذبحة أسرى الحرب الأتراك فى يافا وبونابرت فى طريقه إلى عكا، ثم قتل مرضى الطاعون من جنده بتسميمهم» فى يافا أيضا، وهو فى طريق العودة.

وكان «الميموريال» قد حاول تفنيد هذين الاتهامين البشعين كليهما. وقد رفض المعجبون بنابليون دوما الاعتراف بحقيقة تلك الأحداث ، كما سبق أن رفضها من ألهوه فى القرن التاسع عشر، إلى أن جاءت آخر الدراسات لتؤكد صدق ما قاله «شاتوبريان» ، فى صفحاته العشرين تلك. والمفاجأة، أن كاتبنا يدرك فجأة، أن صفحة الجيش الفرنسى فى مصر لم تكن ناصعة البياض كما كان يظن، حتى أنه نقل وصف بعض ما قد اقترف من مذابح.

ومذكرات «شاتوبريان» التى يحكى فيها كل الفظائع التى اقترفها بونابرت فى مصر، من أشهر كتب الأدب الفرنسى، ومن أهم أعمدة الثقافة الفرنسية، وكثيرا ما تؤخذ منها كاملة وعلى الرغم من ذلك فتلك الصفحات لا يذكر مصدرها أبدا، وكأنه لا وجود لتلك المذكرات، حتى أننا قرأنا أخيرا كتابا عن الحملة، يأخذ كاتبه، المؤرخ الفرنسى، منها أفكارا ومقاطع، دون أن يذكر مصدرها، وهو على يقين، طبعا، أن أحدا لم يلحظ عملية السطو تلك؛ فمن ذا الذى يقرأ ما يقال عن الحملة عندما يتهم الجيش الفرنسى بالسوء؟!



فـ «شاتوبريان» يقول ، مثلا: «يالها من مجزرة؛ لقد كتب الجنرال المساعد «بواييه» إلى أهله:عندما حوصر الأتراك (فى الاسكندرية) من كل جهة، ذهبوا ليحتموا عند إلههم ونبيهم، لقد ملأوا مساجدهم، رجالا، نساء، شيوخا، شبابا، أطفالا، ولقد ذبحوا كلهم».

ونقرأ فى الصفحة التالية، ما يؤكد أن «شاتوبريان» لم ير فى الواقع، أثناء وجوده فى مصر، من آثار للحضارة الفرنسية، إلا تلك الحديقة التى سبق أن تحدثنا عنها، فهو يقول «عندما مررت بالقاهرة، كانت المدينة قد احتفظت بآثار مرور الفرنسيين: حديقة عامة ، كانت من صنع أيدينا (الفرنسيين) مزروعة بالنخيل، كانت تحيطها المطاعم فى الماضى، ومع الأسف فإن جنودنا قد تصرفوا مثل قدماء المصريين، فقد طافوا بتوابيت الموتى حول احتفالاتهم» فكانت ذكرى ضحاياهم تحوم حول تلك الاحتفالات. ويدل مايقوله بعد ذلك على أنه قد اطلع على كثير من المذكرات التى كتبها جنود الحملة وضباطها يشكون فيها بؤسهم فى ذلك البلد البعيد، الذى لايشبه ما صادفوه من قبل فى الحملة على إيطاليا. ولا يمنع هذا شوفينية «شاتوبريان» من الإصرار على أن الحملة كانت «شعاع نور تسلل فى ظلمات الإسلام، وفتحت فجوة فى قسوة البربرية». ومرة أخرى لم يقل كيف أو لماذا ؟!

كلامه متناقض طبعا، وقد تمزق الكاتب بين حبه لوطنه ولبنى جلدته، والاعتراف بما لا يحتمل الشك، وهو أفعالهم الشنيعة: نظرته إلى ما يقترفه نابليون من فظائع تجعله يصرخ أحيانا بكلمات نعجب لها تحت قلمه، فهو يحكى مثلا كيف أعدم بونابرت فى يافا ثلاثة آلاف سجين حرب، استسلموا وهم عزل، وهى الجريمة التى قيل إن السماء قد أرسلت الطاعون عقابا للفرنسيين عليها.

ويعلق «شاتوبريان» قائلا: «هل أنقذت مجازر يافا جيشنا؟... إن كانت القضية مسألة حق، (كما قال نابليون فى «الميموريال» عند مناقشة تلك الصفحة السوداء من تاريخه)، فبأى حق استولى الفرنسيون على

مصر؟».. كلام غريب إن عرفنا أن كاتبه هو «شاتوبريان» الصليبى الاستعمارى. ولكنه أخذ يسرد بعد ذلك على صفحتين، ماقرأه فى مذكراته «مييو»، أحد ضباط الحملة:

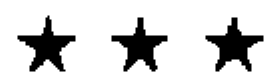
«إن «مييو» فى أول طبعة من مذكراته (١٨٠٤)، لايقول شيئا عن تلك المجازر، وأنت لن تجدها إلا فى طبعة ١٨١٤. وقد كادت هذه الطبعة تختفى نسخها، وقد توصلت إليها بعد مشقة. ولكن، كان لابد لى من شهادة شاهد عيان، ليؤكد لى مثل هذه الحقيقة المؤلمة»: إن الشهود لم يكونوا ينشرون إذن الحقيقة كاملة عندما كان بونابرت فى أوج مجده، ولم تظهر تلك الحقيقة إلا بعد هزيمته عام ١٨١٤! وقد سبق أن عرفنا كيف كانت الرقابة شديدة على المطبوعات، بل محكمة على كل ما كان يمكن أن يمس سيرة «القنصل الأول»، ثم الإمبراطور. وهذا مثل لا نستطيع الشك فيه ، لأن «شاتوبريان» نفسه كان يرفض دائما أى خبر يمكن أن ينال من سمعة الجيش الفرنسى وقد نقل «شاتوبريان» الكثير من البشائع التى تمت أثناء العودة من الحملة الفاشلة على الشام تلك الحملة التى قرأنا عنها ما قاله «لاس كاز»، عن لسان نابليون، عن جيش «فى حالة رائعة، وفى ثراء مدهش» (*) ولكن شهادة «شاتوبريان» جاءت وقد سبق السيف العذل، جاءت وقد كانت أسطورة نابليون، وأسطورة الحملة، أقوى من أية شهادة يمكن أن تزعزع سلطانها، حتى جاء، بعد نشر «مذكرات ما وراء القبر» مباشرة، انتخاب الأمير «لوى - نابليون»، كرئيس للجمهورية، مكتسحا منافسيه، لا لشئ إلا لأن اسمه «بونابرت» وهو ابن أخ لنابليون.

★ ★ ★

---

* أرجع إلى الجزء الأول.

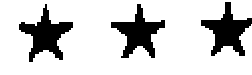
وأعتقد الآن أن الصورة قد بدأت تتضح ؛ فمن البديهى، أننا لو جمعنا كل خيوط تكوين أسطورة نابليون من جهة، وما قاله نابليون نفسه، وهو «أعلى مستوى»، على حد قول «لاس كاز»، من جهة أخرى، لاتضحت صورة الحملة فى أسطورتها، كما عرفتها الأجيال المتتالية بعد ذلك، فما دام المرجع الأساسى هو «الميموريال»، فلا شك أن مشايخ القاهرة انبهروا ببونابرت، ولا شك، أيضا، أن الشعب المصرى قد أحب الفرنسيين، ولم يثر عليهم، لأن نابليون لم يذكر فى حديثه مع «لاس كاز» الثورتين اللتين قامتا فى القاهرة. ومن البديهى أن جمهور القراء قد اكتفى بالمرجع الوحيد الذى وجدوا فيه ما يشبع تهويمات تطمئن النفس الفرنسية التى وجدت فى أسطورة نابليون الكثير من تطلعات العقلية الاستعمارية آنذاك. ونقول ذلك لأن الجيل الذى نشأ بعد انهيار الهيمنة الإمبريالية الفرنسية، والذى قرأ التاريخ دون أن تعميه عقد يبحث لها عن حلول فى واقعه التاريخى (وإن كان من نسج الخيال)، ذلك الجيل، جيل «المؤرخين الجدد»، رأى الأمور بنظرة مختلفة ، فحطم الأوثان، كما قرأنا فى الجزء من هذه الدراسة.



«فيفان دينون» : «رحلة إلى مصر السفلى ومصر العليا»

من البديهى أن «شاتوبريان» لم يقرأ إلا جزءا ضئيلا مما نشر من المذكرات العديـدة التى ظهرت بعد عودة الجيش الفرنسى من مصر. ولكن الغريب، أنه لم يقـرأ أشهـر تلك الكتب، وهو كتاب «فيفان دينون»، أو ربما قرأه كما قرأه الآخرون، أى دون أن يعى ما فيه من صفحات

تدين الجيش وتصرفاته فى مصر. وكتاب «دينون» كان قد لقى نجاحا ساحقا عند نشره فى عام ١٨٠٢، حتى أنه قد أعيد نشره ست مرات حتى عام ١٨١٢.



«رحلة إلى مصر السفلى ومصر العليا، أثناء حروب الجنرال بونابرت» كتاب فى جزءين (١) ، ويعد أشهر ما كتبه «شاهد من أهلها» وقد أعيد نشره أخيرا، وذلك لأهميته.

وقد اشتهر هذا الكتاب للأهمية الكبيرة فى تعريف المثقف الفرنسى بنوع جديد من الجمال المعمارى والفنى الذى تعرف عليه «دينون» عندما قابل الآثار المصرية، فقد أعجب «دينون» بذلك الفن الذى لا ترضخ قوانينه لقوانين الفن الإغريقى الصارمة، التى لم تعرف أوربا غيرها على مر القرون، فلم يكن هناك تقريبا، إلا الفن النيو - كلاسيكى، وهو الذى - يحاكى مبانى الإغريق والرومان وفنونهم فى الرسم والنحت. ليس ذلك فحسب، بل إن الجمود الذى سيطر على الفنون المرئية، كان مسيطرا أيضا على الآداب بأنواعها، وحتى على كتابة التاريخ؛ ولم يجرؤ أحد على التحرر من محاكاة فنون الماضى السحيق إلا نادرا. ومن البديهى أن القراء الكثيرين لكتاب «فيفان دينون» الشهير، لم يهتموا إلا بتلك الناحية، خاصة أن التعرف على جمال الفن الفرعونى كان وراء خلق نمط جديد فى الفنون الجمالية: لقد أراد نابليون لعصره نمطا خاصا، فاستوحى الفنانون، فيما سمى «بالنمط الإمبير» (أى «نمط الإمبراطورية»)، كثيرا من الآثار المصرية، نراها، حتى الآن، فيما شيد

فى باريس من مسـلات وتماثيـل مصغـرة لأبـى الهـول، كما نـرى ذلك النمـط يزيـن، بالنحـاس المطـروق، أثـات عصر الإمبراطور، وهـو يحاكـى حتـى يومنـا هـذا، ويحمـل الاسـم نفسـه. وكانت الرسـوم العديـدة التـى نشرهـا «فيفـان دينـون» فـى الجزء الثانـى مـن مؤلفـه ، رائعـة ، علـى الرغـم مـن أنـه كـان قـد رسمهـا فـى ظـروف صعبـة، حيـث كانـت المعارك تدور من حوله فى مصر العليا (*). وتعتبر تلك الرسوم المحاولة الأولى لما سيصبح، على يد الفنانين الآخرين بعد ذلك رسوما لكتاب «وصف مصر» الشامل لكل مظاهر الحياة آنذاك. ولكن «دينون» لم يكن يدرس البلد من أجل حسن استغلاله، ولكنه كان منبهرا بذلك الجمال الفذ الذى لم ير مثله من قبل، والذى لا يخضع لأى من تلك القوانين الكلاسيكية المقدسة فى أوربا، ولذا فقد كانت أهميته بالنسبة للقراء تعادل أهمية اكتشاف جديد، يغير النظرة الكلاسيكية المتحكمة فى أذواق أوربيى ذلك العصر.

وبناء على ذلك ، فقد أهمل القراء أو تجاهلوا ما قصه «دينون» عما يقترفه الجيش من أعمال غير إنسانية فى فتحه لمصر، ولم نر مؤرخاً واحداً، أو حتى كاتبا يشير إلى صفحات تدمغ الجيش الفرنسى بوصمة البربرية. والصفحات التى سنترجمها للقارئ المعاصر لها أهمية كبرى، ليس فقط لأن كاتبها شاهد عيان، ولكن، وهذا هو الأهم، لأن هذا الشاهد كان من أشد المعجبين بالجنرال بونابرت، وكان أيضا من أشد

* بعض منها فى كتابنا هذا.

المتحمسين للمشروع الاستعماري الاستيطاني للحملة. وسنلاحظ هذا في حينه .. وإليكم الآن أهم ما قاله في هذا المضمار (*) .

هذا الكتاب ، الذى ينبئ عنوانه الخادع أنه مذكرات رحالة وليس فنانا ، قد كتب أساسا ، لقارئ فرنسى ، يجهل كل شئ عن مصر. ولاننسى أن «دينون» ، الفنان ، الاستعمارى ، قد استفاد بصورة خاصة من مصاحبته للجيش الذى ذهب ، تحت قيادة «ديسى» ، لمحاولة السيطرة على جنوب الوادى ، الذى كان يتمركز فيه مراد بك ، ومماليكه.

★★★

إن «دينون» يبدأ كلامه بتأكيد أهمية رؤيته ، لأنه - كما يقول - تجول «فى بلد لا تعرف عنه أوربا غير الاسم ، فكان كل شئ مهما للوصف» ، وكان أول ما عرفه - بالطبع - هو الهجوم على الاسكندرية ، عندما نزلت قوات الحملة فى غربها. وهو يؤكد أن المدافعين كانوا شرسين : «لم يهرب منهم أحد ، فكان لابد من قتل كل من وجد على الأسوار، وقد مات منا مائتا جندى»، مما يدحض أسطورة عدم مقاومة المصريين للغزو الجديد ، ونكتشف الآتى: أن «أسطورة قديمة كانت قد أكدت أن دخول مركب من الفرنجة إلى الميناء القديم ، يعنى انتهاء سيطرة المسلمين على الاسكندرية ، وقد حققنا بمركبنا هذه النبوءة» . ولن نعجب لمثل تلك النبوءة التى لم يتحدث

* بعض هذه المصطلحات سبق نشره فى «الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة» للدارسة نفسها.

عنها غيره ، ولكن علينا أن نعتاد مثل تلك الخزعبلات التى لن يعرفها إلا الفرنسيون ، وغالبا ما تشرح لنا عقليتهم أكثر مما تصور حقيقة الأمر آنذاك . وترشدنا تلك الخزعبلات إلى ما كان يراه الفرنسيون من طباع الهنود الحمر فى المصريين: إذا كان يقال إن نبوءة كانت تؤكد للهنود الحمر أن سيطرتهم على بلادهم ستنتهى عندما تحضر إليهم آلهة من البحار الشرقية ؛ وقيل إن تلك النبوءة جعلت الهنود يتخاذلون فى دفاعهم ليقينهم أن الأسبان القادمين إليهم ، آلهة وليسوا بشرا. وبالنسبة لمصر فإن الموقف يثير العجب بسبب سذاجة «دينون» ، لأن تلك المذكرات لم تنشر فى فرنسا ، إلا بعد عودة البلاد إلى «المسلمين» بالفعل ، مما يؤكد كذب النبوءة ، وليس صحتها كما يقول .

يحكى لنا «دينون» كيف خرج وحده ليلا فى مركب صغير مع رجل مصرى ، فيقول : «بدأت أشعر أننى استهنت بنفسى ، فأنا موجود فى هذه الساعة ، تحت رحمة الرياح ، وسط بحر هائج ، وحيدا مع رجل يستطيع ، مثله مثل باقى مواطنيه ، أن يبغض الفرنسيين ، وذلك دون أى ظلم ، وقد يريد الانتقام منى» . نلاحظ هنا أنه على الرغم من تحمسه الشديد للمشروع الاستعمارى وإعجابه الشديد بمشروعات بونابرت ، إلا أنه يفهم أن من حق المصريين كراهية الفرنسيين ، وهو أمر لا نجده عند باقى زملائه بشكل عام . إنه ، فى هذه الأسطر القليلة، يعترف – وياللعجب – بحق المصريين فى بغض المستعمر ، مما ينبئ (أو المفروض أن ينبئ !) بنظرة موضوعية ، قد تتأكد فى باقى تعليقاته .

يعلق «دينون» على ما شاهده قائلا : «بونابرت ، الذي استولى على الإسكندرية بالسرعة نفسها التي استولى بها القديس لويس على دمياط، لم يقترف فيها الخطأ نفسه» : يعجب القارئ المعاصر ، طبعا ، لربط الحملة الحديثة لبونابرت بالحملة الصليبية للملك لويس التاسع ، وبعد مرور خمسة قرون من الزمن ، والكاتب ليس مسيحيا متزمتا مثل «شاتوبريان» . ولكن ذلك لن يبدو لنا غريبا بعد قراءة باقى مذكرات الشهود المثقفين للحملة . ويقول «دينون» عن معركة إمبابة : «إن أفضل فرسان في الشرق ، وقد يكونوا أفضل فرسان في العالم ، انكسروا أمام حفنة من الجند المدججين بالسناكي» : من هنا ، نفهم بدايات أسطورة المعركة التي سميت «معركة الأهرامات» في فرنسا ، لأن الدراسات الحديثة أثبتت أن عدد الجند الفرنسيين كان ، في حقيقة الأمر ، أضعاف أضعاف عدد المماليك المحاربين ، حتى قيل إنها كانت «مجزرة أكثر منها معركة» (٢) . ولكن بونابرت نفسه أراد لها أن تكون معركة أسطورية مثل كل انتصاراته ، كما سبق أن رأينا في معارك إيطاليا . والدليل على ذلك ، أنه أصر على تسميتها «معركة الأهرامات» مع أنها وقعت في إمبابة ، أي على بعد أكثر من عشرة كيلومترات عن الأهرامات ، لأن الجمهور الفرنسي سيفرح بالاسم الاسطوري ، وهو يجهل كل شئ عن إمبابة . وقد رأينا بالفعل كيف كان لهذا الاسم صدى كبير عند الكتاب ، وفي شعر «فيكتور هوجو» بالذات ،

وكان بونابرت قد أكد بعد تلك المعركة ، فى بياناته للشعب المصرى، ما قاله من قبل ، بأنه لم يحضر إلا لتخليصه من جبروت المماليك وطغيانهم .

وبعد حديث «دينون» عن تلك المعركة ضد المماليك ، يعلق كاشفا عن ضمير حى ، من البديهى أنه أرقه كثيرا ، أثناء الحملة ، فيقول : «لقد استطعنا طرد المماليك ، وهذه حقيقة ، ولكن ، ألم نحل محلهم بعد أن طردناهم ؟ . ونلحظ هنا بداية أسطورة أخرى ، هى أسطورة «طرد المماليك» .

ومرة أخرى ، نقابل كلمات تحاول التصوير الموضوعى لما حدث ، فهو يقول : «إن قسوة حياة البدو لا مغالاة فيها : فالأسرى الذين أخذوا من بيننا ، يصفون ما عانوه من عذاب أثناء أسرهم ، وهم يعتبرون هذا العذاب جزءا من طريقة عيش هؤلاء القوم ، وليس نتيجة لبربريتهم ... ، وهؤلاء الضباط لم يشكوا من أية معاملة سيئة ، ولم يحتفظوا بذكرى أليمة ، فى ظرف بائس ، كان عليهم أن يشاركوا فيه حياة سجانيهم الخشنة» : هذه لفتة إنسانية ، تحاول وضع الأمور فى نصابها ، لتصحيح كل ما قيل عن البدو ، وهم الذين أذاقوا الفرنسيين مر العيش والحرب .

أما عن مقاومة المصريين ، فنقابل مشهدا سيتكرر مرارا فى كتاب رحلة «دينون» : «بعد أن جرحوا كلهم ، قبض عليهم ، وأعدموا كلهم . أيقن الجنرال «مينو» آنذاك أنه لابد من تلقينهم درسا قاسيا . فانطلقنا ومعنا مائتا جندى ... ، وجدنا العدو على الجياد أمام القرية ، مستعدا

للمعركة . هجموا علينا فى أول الأمر ، وحاربنا حتى الارتشاق بالسناكى (وتكون الغلبة للفرنسيين ، بالطبع ، لكثرة عددهم) . تركت القرية للسلب والنهب إلى آخر اليوم ، ثم أحرقت عن آخرها فى المساء : كان اللهب ، وصوت المدافع ، يخبران الناس طيلة الليل ، وعلى بعد عشرة فراسخ ، أن انتقامنا كان كاملا ورهيبا» . وعندما نقرأ مثل هذا الوصف من شاهد عيان ، نفهم لماذا قال «دينون» قبل ذلك إن الفرنسيين - على حد قوله - قد حلوا محل المماليك بعد طردهم . أهكذا كان يتخيل الفرنسيون أن المماليك يعاملون الفلاحين ؟

ويستمر الوصف : «عدنا إلى فوة ، حيث استقبلنا كمنتصرين ، يعرفون كيف يحدون من انتقامهم (ثم ...) استمع السكان باحترام وخضوع إلى البيان الذى قرئ عليهم بالنسبة للحملة ، والأسس التى ستنظمها الإدارة الجديدة (للمنطقة)» . من البديهى أن «فيفان دينون» لا يستطيع أن يتفهم نفسية مدنيين مهزومين وعقليتهم . لقد حكى من قبل كيف يُعامل المقاومون من المصريين ، فكيف يعجب من خضوع المدنيين أو يزهو به ؟ ولكن الغريب أنه يرى فى ذلك الخضوع - المفهوم فى ظروف الحرب - احتراما يذكرنا بترجمة «السلطان الكبير» «بأبى النار» ، أى تحويل كل ما يمس المصريين ، حتى أقوالهم ، ولكل ردود أفعالهم، على أنها انبهار يدغدغ مشاعر الشوفينية الفرنسية ، يحدث هذا حتى عند فنان مثل «فيفان دينون» وهو الذى يحاول أن يكون موضوعيا ، بل ويؤرقه ضميره ، أحيانا ، لما يحدث على أيدى جند الحملة .

نرى الآن مثالا آخر للمنطق الفرنسى آنذاك ، ذلك المنطق الأعرج

الذى يسمح بكل شئ ، أو بالأصح ، بالشئ ونقيضه معا : إنه المفارقة التى تسمح بالاستفادة من الوضع الراهن ، وضع الغازى الباطش ، والتمتع براحة الضمير ، لأن نياتهم حسنة . صحيح أن تلك النيات لم توجد إلا فى خيالهم ، ولكنها بقيت فى الأسطورة المتداولة ، وإن لم يكن لها أى أصل فى الحقيقة . فنرى «دينون» يقول : مندوبو هذه المنطقة قدموا ما تبقى لديهم من دجاج وأوز للجند الذين حضروا ليخلصوهم من تأنيب الضمير (تأنيب ضمير أهل البلد) ، هذا التأنيب الذى كان يؤرق الفلاحين منذ ثلاثة أسابيع . كنا نستقبل فى كل قرية على الطريقة الإقطاعية ؛ وكانت أهم شخصية فى البلدة تستقبلنا ، وتجعل الأهالى يدفعون الثمن بعد ذلك . كان لابد لنا أن نتعرف على هذا التعسف قبل معالجته ، ولو أننا كنا مبهورين بالسهولة التى أتاحت لنا دراسة تقاليد بلد ، كنا سنغير من طباعه ، فكنا نترك الأمر على ما هو عليه فى هذه المرة» . هكذا يتحدث «دينون» بروح المفكر الساذج الذى يظن أنه، إذا استفاد مؤقتا من وضع يراه خاطئا ، فما ذلك إلا أمر مرحلى ، لأنه «سيعالجه» . ولم يعالج أى شئ فى إيطاليا من قبل ، فلماذا يعالج فى مصر؟ والجيش فى الحالتين كلتيهما هو المستفيد الأول . ولكن لن تفوتنا هنا النية فى «تغيير طباع البلد» ، دون الإدلاء بأية تفاصيل ؛ أمر لم نقابله عند غزو البلاد الأوربية ، التى تم تغيير نظامها السياسى ، بل والاقتصادى ، ولم تمس «طباعها» . ولن نتعجل فى الحكم قبل قراءة باقى ما كتبه ، وكان أول من فضح ، علانية ، الأفعال الحقيقية للجيش

الفرنسى فى مصر .

مشهد يتكرر كثيرا ، وهو على أية حال ، مشهد معروف فى كل البلاد المهزومة ، وهو مشهد الانتقام من المدنيين العزل ، إذا ما هاجم سكان البلد أحد الضباط الغزاة ، فقتلوه ، وهو ما يسمى بلغة الفرنسيين أنفسهم : «بطولات المقاومة الشعبية» ؛ ولكن الاسم يختلف طبعا ، إن كانت تلك البطولات تنفذ على أيدى أعداء ، هزمتهم القوة الفرنسية المحتلة . ولذا ، نقرأ الكلمات الآتية ، وقد كتبها الفنان الرحالة الموضوعى ، دون أى تأنيب لضمير ، نراه حيا فى فقرات أخرى .. إن «دينون» ، والحق يقال، فى مفارقاته المستمرة ، لا ينكر الدور البذئ الذى قام به الجند . نقرأ إذن : «رسمت قرية «ألقان» ، هذه القرية التى قتل فيها الضابط «جوليان» وخمسة وعشرون من جنده ، وقد طرد سكانها ، وأحرقت كلها» .

الأسطورة تقول إن الجيش الفرنسى جاء ليعلم الشعب المصرى مبادئ الثورة والتنوير ، وليحرره من سطوة المماليك ، ولكن الحقيقة التى يفضحها لنا «دينون» ، تثبت عكس ذلك ، أن الجيش الفرنسى كان، فى الواقع – مثلما كان فى إيطاليا – جيش مرتزقة لا يهمه إلا السلب والنهب ، ويحكى شاهدنا العيان : «فى كفر شاباس ، عاد الطبيب مسرعا وهو يقول : إنهم ينتظروننا بالبنادق ... أخذوا يطلقون النار علينا ... ، سقط الضابط فى الماء ، بينما تشتت الجند جريا وراء الأهالى ، الذين كانوا يحملون أمتعتهم ؛ عندئذ ، ركض الجنرالان وراءهم ، فى محاولة لتنظيم هذه الفوضى ، ولجمع شمل الفرقة ؛ وكانت

نتيجة ذلك ، أننا اضطررنا إلى المرور تحت نيران العدو ، وقد مات وجرح الكثير من العسكر (بسبب نهمهم للسلب)» .

سبق أن عرَّفنا «دينون» نفسه أن الهدف الرئيسى من الحملة كان تغيير تقاليد المصريين ؛ ولذا ، نراه يؤكد: «إن سعادتى كبيرة لرسم المصريات فى اللحظة التى تسبق تأثيرنا على التقاليد الشرقية ، التى قد ترفع الحجاب الذى يغلفهن». ونتساءل ، لماذا يريد الفرنسيون تحويل المصريين إلى فرنسيين ؟ لأن «الفرنسى» ، هو «الحضارة» ، حتى إذا تصرف كما نرى فى كتاب «دينون» .

وتستمر المقاومة ضد الجندى الفرنسى الغازى ، ونراها فى هذا الكتاب لا تهدأ يوما واحدا ؛ وأمثلة البطولات المصرية لا تتوقف ، ومنها هذه الصفحة : «كان العدو يسير (نحونا) ، وشاهدنا أعلامه ... أرسلنا إليهم القناصة ، وفى اللحظة نفسها ، احتدم العراك ، وعلى الرغم من مدافعنا ، فإنهم لم ينسحبوا : كان تفانيهم وشجاعتهم يحلان محل الأسلحة التى افتقروا إليها . ولكن بعد أن دحرنا هذه المقدمة أكثر مما حطمناها، وجدنا المقاومة فى القرى بعد ذلك أشد ضراوة» : كلما ازداد قمع المقاومة عنفا ، ازدادت ضراوة واتساعا ؛ ولم يمنع ذلك نابليون من الإصرار على ذكر محبة المصريين لجيشه الرائع فى «الميموريال» . وعلينا أن نذكر هنا أن الثورة الفرنسية على الطغيان كانت موضع فخر لا حد له للفرنسيين ؛ أما إذا ثار المصريون أيضا دفاعا عن حريتهم واستقلالهم ، يكون تعليق «دينون» على ثورة القاهرة الأولى ما يلى : «إن الغوغاء ، وبعض الكبار وكل الاتقياء ، أثبتوا منتهى التعصب الدينى

الأعمى الشرس أثناء الثورة» . لقد نسى «دينون» ما قاله سابقا عن حق المصريين في بغض الفرنسيين المحتلين البلد .. إن المفارقة هى أساس تفكيره ، بلا أدنى شك .

ثم يرحل «دينون» بعد ذلك مع الجنرال «ديسى» ، فى حملته على مراد بك فى صعيد مصر ، ولم يستطع الجنرال التخلص منه أو من مماليكه وفرسانه ، وعاش الفرنسيون أثناء تلك الحملة الثانية حربا يومية طاحنة ؛ ولم يهدأ لهـم بال لليـلة واحـدة . وتتأكد تلك الحقيقة التاريخية عند قراءة مذكرات «دينون» ، الصادقة حتى فى مفارقاتها ، وهو يقول : «لم نستطع إنقاذ إحدى القرى من النهب والسلب لأننا وصلنا متأخرين ؛ لم يمض ربع الساعة ، إلا وخلت البيوت من كل شئ ؛ هرب السكان العرب إلى الحقول ، فقيل لهم أن يرجعوا ، فأجابوا ببرود شديد : وعم نبحث فى بيوتنا ؟ أليست هذه الحقول الجرداء بالنسبة لنا مثل منازلنا ؟ ولم نكن نستطيع الاجابة على هذه الجملة البليغة» . لقد قام الجند بتفريغ المنازل من كل شئ ، وجاء الضباط بعد ذلك يحاولون ترضية الأهالى بطريقة ساذجة بدلا من معاقبة الجند . فكان «الرد البليغ» لفلاحين عزل ، لم يعد لهم إلا قرية خاوية ، أكلتها جرذان الجيش المتعطش للنهب والسلب . وتستـمر ملحـمة «الأرض المحـروقة» كمـا سبـق أن حدث فى «فانديه» فرنسا . ويستطرد المؤلف ليحكى باقى قصة الملحمة : «ذهبـنا مع فرقة مكونة من ثلاثمائة رجل لنحصل الميرى، أو ضريبة الأرض ، ومصادرة الخيل والجاموس : كنا فى ذلك نتبع

وسائل المماليك الذين يقومون بالرحلة العسكرية نفسها فى المقاطعات التي ولوا عليها ، وهم يعسكرون أمام المدن والقري، ويأكلون علي نفقة أهلها إلى أن يدفع لهم ما جاءوا فى طلبه» ، «كانوا يقولون عنا إننا ابتلاء من عند الله أرسله الله عليهم ليعاقبهم على خطاياهم ؛ وكان يجدر بهم - في الحقيقة - أن يطلقوا علينا اسما أكثر عنفا» . والكلام هنا واضح لا يحتاج إلى أى تعليق أو توضيح .

وعندما قاومت جزيرة فيلة مقاومة عنيفة ، وصدت الفرنسيين أكثر من مرة ، قال «دينون» : لم يكن فى إمكاننا (ونحن على ضفاف النيل) تغيير قرارهم . ولكن ، هل نترك حفنة من الفلاحين الوقحين علي بعد أربع خطوات من إقامتنا ، ليكونوا قدوة سيئة للآخرين ، ولذا فقد قررنا العودة مرة أخري في اليوم الثاني ،..... وعدنا بالفعل ومعنا مائتا جندي ؛ وعندما رأونا ، بدأوا يستعدون للقتال ،..... صرخنا فيهم أننا لا نريد لهم مكروها ، ولا نطلب منهم إلا الدخول الودى إلى الجزيرة» ، ويدأ ضربهم بالمدافع ، وتم سحقهم طبعا ، «كان تفريغ ما فى مخازن الجزيرة عملية قام بها الجند حتى آخر النهار» . وهكذا ، وضح معنى «الدخول الودي» . ويصف «دينون» كيف كانت الأمهات يشوهن بناتهن حتي لا يغتصبن ، ويعجب من وحشيتهن . . ونذكر هنا - بالمناسبة - ما كان بونابرت قد قاله لجنده في أول بيان له قبل الوصول إلى مصر : «... الشعوب التي نذهب إليها تعامل النساء بطريقة مختلفة عنا ؛ ولكن الذي يغتصب امرأة في أي بلد في العالم وحش كاسر ، والسلب لا يثرى إلا قلة من الرجال ، ولكنه أمر مخز لنا ويبدد مواردنا ؛ ويجعلنا أعداء

للشعوب التى نريدها صديقة لنا ، من أجل مصلحتنا» . وقد نسخ أغلب المؤرخين هذه الكلمات ، ولم يتحدثوا ، بعد ذلك ، عن السلب والنهب والاغتصاب ؛ فكانت النتيجة أن القارئ - خاصة من قرأ فى «الميموريال» عن حب المصريين للجيش الهمام - كان يظن ، دائما ، أن الجند الفرنسيين تصرفوا كملائكة رحمة فى مصر ولم يكونوا جيشا غازيا ومستعمرا بكل المعانى المعروفة للكلمة ولقانون الحرب فى ذلك العصر .

كيف نتخيل مشاعر شعب عومل كما يحكى «دينون» الذى يكتب بالحرف الواحد : «كان لابد من تجويع البلد لنبعد العدو (...)، كنا نأخذ معنا الأهالى فيتحول البلد بعد مرورنا إلى أرض جرداء»، «بعد ثلاث عشرة ساعة من السير، وصلنا لنبيت فى «جمارسييم» وكان هذا لسوء حظ هذه القرية لأن صراخ النساء جعلنا نفهم أن جنودنا قد انتهزوا فرصة حلول الليل ليتصرفوا بحرية، فعلى الرغم من تعبهم إلا أنه كان مازال لديهم فائض من الطاقة، وكانوا ينتزعون بالفعل ما هم فى غير حاجة إليه، بحجة البحث عن مؤن؛ فما كان من السكان، وقد فاض بهم الكيل بعد أن نهبوا واغتصبوا إلا أن هجموا على الدوريات التى أرسلناها للدفاع عنهم ورد جنود الدوريات بقتل الأهالى، لأنهم لا يستطيعون التفاهم مع أهل القرية، ولا يستطيعون شرح الموقف لهم»... والحق أننا لا نتخيل كيف يشرح الموقف.. وأى موقف...؟!

ولا تفوت بشاعة «هذا الموقف» على شاهدنا الموضوعى فيعلق قائلا:

«ما أكثرك يا حرب بريقا فى التاريخ ! ولكن إذا ما شاهدناك عن قرب تحولت إلى وجه شنيع، عندما لا تخفيه بشاعة التفاصيل» وهل نجد فى تلك الحرب تفاصيل أخرى غير التى سردها علينا هذا الشاهد الواقعى الأمين لما كان يحدث بالفعل؟

ولكن ما أعجب منطق «دينون» فى الصفحة التالية : «فى الثالث والعشرين، علمنا أن فرساننا قابلوا تجمعا فى المنشية، وقتلوا ألفا من هؤلاء المنحرفين ؛ درس لا أخوة فيه، ولكن موقفنا يجعله ضروريا: هذه المقاطعة التى كانت دائما ثائرة ، كانت لها سمعة فظيعة ، وكان لابد لها أن تتعلم ألا تقارن بنا (.....) ربما كان لابد لهم أيضا أن يقتنعوا أننا أكثر انتقاما وأقل تسامحا مما يظنون» .

«وأخيرا ، قد يكون السبب أننا لا نجد وقتا لوعظهم ، فلابد - نظرا للظروف البائسة التى تمر بنا - أن نعاقب بشدة من يصرون على عدم تصديقنا عندما نقول لهم إن كل ما نفعله ما هو إلا لصالحهم».

لم ير المصريون - وعلى حد قوله هو نفسه - إلا القتل والسلب والنهب والاغتصاب ، ولكنه يريدهم أن يفهموا أن كل ذلك لم يكن إلا لصالحهم ! منطق غريب ، خاصة إذا لاحظنا أن «دينون» ، يعتبر من يدافع عن نفسه «منحرفا» ، «سيئ السمعة» ، «بائسا» ... ولا يفوتنا صلفه وهو يتحدث عن قوة جيشه .

ويتأكد خطأ منطقه ، أو مفارقات أقواله ، فى السطور التالية ،

عندما نراه يريد تعليم المصريين الشجاعة ، أثناء وصفه هؤلاء الفلاحين، في حربهم ضد الفرنسيين . ولسنا نعرف فى أى فريق نجد الشجاعة إذا كان الجيش الغازى يحارب بمدافعه وبنادقه ، والمصريون سلاحهم الوحيد هو العصى ، وهم مع ذلك لا يهابون الموت ويحاربون من أجل حريتهم .

يقول «دينون» : «من الممكن أن نقول إن أى مصرى ، على المستوى الشخصى ، حاذق وماهر (....) ، ولا أعرف إلى أى مدى نستطيع أن نجعله يتعلم الشجاعة ؛ ولكن يجب أن نرى بحرص ، بل وبنوع من الفزع ، صفات الجند التى يتحلون بها ؛ فهم غاية فى الزهد، يسيرون كأحسن عدائين ، يركبون الخيل وكأنهم من الأساطير ، يسبحون كالدرافيل ؛ إنهم شعب مكون من ملايين كثيرة ، وله كل هذه الصفات ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن أربعة آلاف فرنسى منعزلين يحكمونهم بعنف على مساحة مائتى فرسخ ! لأن عادة الطاعة طريقة مثل عادة القيادة ، حتى ينام البعض فى تعسف سلطته ، بينما يصحو الآخر على صوت أغلاله» . وفى الصفحة نفسها من الكتاب ، وبعد هذا الكلام مباشرة ، يجئ الدليل القاطع الواقعى على افترائه : «ألفان من العرب على الجياد وخمسة أو ستة آلاف فلاح من المشاة، ظنوا أنهم يستطيعون سحق الخيالة (الفرنسية) ،......، تقدموا أمام طهطا ، عندما اكتشفهم الفرسان ، مستعدين للحرب» .

إن «دينون» ، مثله فى ذلك مثل كل مثقفى الغرب ، لا يستطيع

تغيير آرائه المسبقة ، التى قرأها فى كتب مثل كتاب «كوندرسيه» الذى سبق أن تحدثنا عن افترائه على «المسلمين» - فى الجزء الأول. ولذا ، فهو لا يعزو انتصار الفرنسيين لمدافعهم التى تصوب إلى صدور فلاحين سلاحهم الوحيد هو العصا . يتحدث عن الآلاف التى تتقدم دون خوف نحو مدافعهم ، ثم يرى أن حكم «أربعة آلاف فرنسى» يحكمون «بعنف» - على حد قوله - يرجع إلى «عادة الطاعة» . وما فائدة التعليق إن كان حتى رأى العين لم يقنعه ؟ إن كان هو نفسه لا يعى معنى ما يقوله ، وكأن الفرنسيين يطاعون دون مدافع .

والأمثلة عند «دينون» كثيرة للبطش الفرنسى : «وصلنا أمام قرية ، ما عرفنا لها اسما إلا فى اليوم التالى ، وكان اسمها «البيرا» ، فقد وصلنا إليها مساء ، ولم نجد بها ساكنا واحدا ليخبرنا باسمها . وأنا أحب أن نجد القرى بلا سكان ، حتى لا أسمع صراخ الأهالى ونحن مضطرون لتجريدهم من كل شئ ، لم يتبق فى القرية إلا الحوائط ، فالأبواب والأخشاب كلها كانت قد نزعت وأخذها أهل القرية معهم ، وكانت القرية تبدو - بعد تركها بساعتين - وكأنها أثر له من العمر قرن من الزمن (.....) ، توجهنا ، (بعد ذلك) ، إلى ... «فارشنت»، ....، تلك القرية البائسة، كانت قبل بضع ساعات ، قد سلبت على أيدى المماليك ... ، وصلنا ، وسلبنا ما تبقى فى المخازن ؛ حاولنا جمع العسكر لمنع تلك الفوضى ؛ ولكن كيف ومعاقبة الجيش بأسره كانت ضرورية فى حالة كتلك .... وكى نتفادى نظرات اللوم فى عيون

الأهالى ، تركنا القرية فى منتصف الليل ....، وصلنا فى الحادية عشرة إلى قرية كبيرة ، لم أعرف لها اسما أبدا ، حيث تجول العسكر لسوء حظها ولخراب أهلها» .. «فى اليوم التالى ، لم يكن متبقياً لنا إلا ثلاثة أرباع الفرسخ ، حتى نصل إلى فرساننا الذين لم يتقدمونا إلا لأكل البلد قبلنا» ، .. «كنا نحارب – منذ ست ساعات دون توقف – عدوا عديم الخبرة ، لكنه شجاع ومتعصب دينيا ، ويقاوم بإصرار : لم يكن ينسحب إلا جماعة ، فكان واجبا علينا قتل كل من تقدم منه» .

ونعجب أن «فيفان دينون» ، على الرغم من كل ما يحكيه هو نفسه من تفاصيل بشعة ، إلا أنه يصر على أن ما يحرك الأهالى هو التعصب الدينى . ولكن ، ألم يكن «دينون» واحدا من جيل تلاميذ فلاسفة التنوير ذلك الجيل الذى لا يرى فى أى إيمان إلا «تعصبا» و «تطرفا» ؟ فما دام المحاربون مسلمين ، فلابد لهم أن يكونوا «متعصبين دينيا» ، حتى وإن كانوا يدافعوا عن قريتهم وحياتهم وأعراضهم . ونعجب هنا أيضا لاعترافه بشجاعة المحاربين ، وقد رأيناه من قبل ، يتساءل عن كيفية تعليمهم الشجاعة .

ثم تكون هذه الصفحة بالغة الأهمية ، لأن «دينون» يقول فيها ما ينبغى أن نقوله نحن : «كنا نتباهى بأننا أكثر عدلا من المماليك ، وكنا، مع ذلك ، نقترف كل يوم ، مضطرين ، عددا كبيرا من المظالم . كانت صعوبة تمييز أعدائنا بناء على الشكل واللون ، تجعلنا نقتل يوميا فلاحين أبرياء ؛ كان الجند الذين نرسلهم للاستكشاف ، يظنون

أن التجار المساكين، من أهـل مـكة (الذين حضروا لمساعدة المصريين). وقبل أن نصل إليهم لنعيد العدل - إذا ما كان هناك وقت للعدل - يكون الجند قد قتلوا اثنين أو ثلاثة ، وتكون قافلتهم قد سلبت أو بددت ، وجمالهم قد تم تبديلها بجمالنا الجريحة (...) ، وعندما كان الفلاحون يذعنون لتهديدنا ، ويحضرون لدفع الميرى ، كما يحدث أحيانا ، كنا نظن تجمعهم ، بسبب كثرتهم ، عداء لنا ، ونظن عصيهم أسلحة فكان عليهم أن يتحملوا رصاص القناصـة ، أو رصـاص الدوريسات، قبـل أن يشرحوا موقفهم ؛ فكانوا يدفنون موتاهـم ، ونظـل أصدقـاء إلـى أن تتاح لهم فرصة انتقام مؤكد ، والحق أنهم عندما يبقون فى منازلهم، ويدفعون الميرى ، ويوفون باحتياجات الجيش كلها ، ويستسلمون لنا، كانوا يوفرون علـى أنفسهـم مشقـة السفـر والبقـاء فى الصحراء. وفى تلك الحالة، كانوا يرون مواردهم تؤكل بانتظـام ، فيأكـلون نصيبـهم ، ويحتفـظون ببعـض أبوابهم ، ويبيعون البيض للجند ، ولا يغتصب إلا القليل من نسائهم وبناتهم» ، نرى ماذا كان يعنى الاستسلام من نتائج حميدة ومنظمة فى السلب والنهب والاغتصاب . ولكن الأهم والجديد ، ما نقرؤه فى أول النص ، عما تثيره رؤية عصى فى أيدى الفلاحين ؛ إنها كفيلة بإرسال القناصة ضدهم : أين تقع الشجاعة هنا ، إن كانت مجرد عصى تثير مثل ذلك الفزع ؟

ونستمر فى التعرف على الحقائق التى شاهدها «دينون» ؛ وهو

يقول : «أما مصير السكان ، الذين جئنا إلى مصر لإسعادهم ، دون شك ، فلم يكونوا أحسن حالا (مما سلف) ؛ إذا ما اقتربنا منهم خافوا وتركوا منازلهم ، ولا يعودون إليها إلا بعد رحيلنا ، ولا يجدون فيها إلا الطين الذى بنيت به ؛ فالأدوات ، والمحاريث ، والأبواب والأسقف كلها، كانت تستعمل لإبقاء النار (من أجل طهى طعام جنودنا) كانت الأوعية تكسر كلها والغلال تؤكل كلها ، ويشوى الدجاج والحمام كله ؛ ولا تتبقى إلا جثث الكلاب لأنها أرادت حماية ممتلكات أسيادها . ولو أننا مكثنا فى تلك القرية ، يصدر الأمر لهؤلاء البؤساء بالعودة ، وإلا عوملوا على أنهم متمردون متواطئون مع أعدائنا ، وتضاعف بالتالى الغرامة التى يدفعونها» .

ونقرأ هذا الاعتراف الأخير ، وهو يصف الخدم وكثرتهم فى ذلك البلد الفقير : «يجب أن نعترف أننا أصبحنا ، رويدا رويدا ، شركاء فى هذا الفساد ، وأننا كنا نتشبع بعقلية الشرقيين ونحن نتنفس هواءهم نفسه ، وأننا أصبحنا لا نعرف كيف نتخلص من هذه الحاشية كلها (من الخدم) » . ألم يقل «دينون» نفسه فى أول كتابه إن الفرنسيين قد حلوا محل المماليك ؟ وكم مكث «دينون» مع بونابرت فى مصر ، حتى يؤثر «هواء الشرقيين» عليه بهذه السرعة ؟

•

ملاحظة أخيرة : كتاب «فيفان دينون» هذا يتحدث عن «المصرى» وعن «الفلاحين»، فكلمة «مسلمون» نادرة الاستعمال ، مما يدل على أن المقاومة كانت من جميع المصريين ، مسلمين وأقباطا ، خاصة أن ما رآه المؤلف يقع أغلبه فى صعيد مصر ، حيث أغلب السكان أقباط حتى

يومنا هذا . وتنطبق هذه الملحوظة إذن على كل من تحدث بعد ذلك عن الفلاحين والمصريين ، أقباطا ومسلمين . وهى جديرة بالتنويه لما جلبه «الجنرال يعقوب» رئيس مخابرات الجيش الفرنسى من تهمة على بنى دينه ، وهم أبرياء من أفعاله الخائنة المشينة .

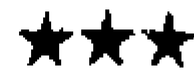
★★★

ختاما ، نذكر أن «دينون»، الذى كان من أكثر المتحمسين للمشروع الاستعمارى ، كان يحلم بجلب الأوربيين والأمريكان للاستيطان فى مصر ، وهو - بالطبع - لا يذكر شيئا عما سيكون لأهل مصر فى تلك الجنة المرتقبة ، التى رأينـــاها منفـــذة ، بالفعل ، فى الجزائر بعد ذلك بسنوات .

وسافر بونابرت خلسة إلى فرنسا فى الثالث والعشرين من أغسطس سنة ١٧٩٩ ؛ وكان من الرفاق المختارين لمصاحبته فى تلك الرحلة ، «فيفان دينون» ومذكراته .

واللافت للنظر أن كتابه ، على نجاحه وانتشاره ، لم يعرف إلا كدليل للفنانين فى جولة بين الآثار، يحكى فيها الكاتب انبهاره بالنمط الجمالى الجـديد الذى يختلف كلية عن أنمـاط الجمال الكلاسيكية المعهودة آنذاك . ويعجب الدارس لإهمال كل القراء ، إلى يومنا هذا ، لكل ما قصه «دينون» ، دون مواربة ، عن تصرفات الجيش فى البلد؛ ومن خلال وصفه لتلك التصرفات ، فإننا لا ندرى كيف ومتى استطاع هذا الجيش تلقين المصريين أصـول حضارة غربية ، تتمثل فى مبادىء الثورة الكبرى ؟

و «چان = كلود فاتان» ، الذى أعد المقدمة للطبعة الجديدة ، كان = على حد علمنا ، والله أعلم - أول من أشار إلى حقيقة هذا الجيش الذى لا يمكن أن تفخر به دولة . إنه جيش لا يحارب بقدر ما يغتصب ويسلب وينهب ويحرق فلاحين عزلا ، لا يجدون غير عصيهم ليصدوا بها مدافع الطغيان الجديد الذى حل محل طغيان المماليك ، على حد قول «دينون» نفسه .



هذه الصفحات الدامغة للحكم الفرنسى ، مأخوذة ، كما سبق أن قلنا من «رحلة إلى مصر السفلى والعليا» لـ «فيفان دينون» ، وقد نشرت سنة ١٨٠٢ ، أى أثناء حياة المؤلف . ولم يكتب أى ممن كانوا معه أثناء الحملة ، كلمة واحدة مما قيل فى هذه المذكرات . وقد نجحت نجاحا كبيرا ، قبل أن تترجم إلى الإنجليزية والألمانية وقد درسها كثير من النقاد ، وأعجب الجميع بأسلوب هذا الفنان ، الذى قدم أيضا ، لوحات جميلة ، وخرائط غاية فى الأهمية فى الجزء الثانى من كتابه الشهير ، وعلى الرغم من ذلك ، لم يعلق على هذه الصفحات إلا آخر من أعاد نشرها ، وهو «جان = كلود فاتان» ، الذى يعد من الجيل الجديد للمستشرقين الفرنسيين ، الذين لا يتورعون الآن عن ذكر الحقائق كاملة. وكانت كل التعليقات ، قبل ذلك لا تشير إلا لما أثبته «دينون» من رؤية ثاقبة ، عندما رأى الآثار المصرية لأول مرة : بدأ النفور منها لعدم وجود علاقة بينها وسنن الجمال الكلاسيكى ، الذى تؤخذ قوانينه من الفن الاغريقى القديم ، ثم نرى نظرته ، على مر الصحفات ، تتحول

رويدا رويدا ، حتى يفهم أن لهذا الجمال المصرى القديم ، قوانين أخرى ، خاصة به ، فيعجب به ، ويفهم أن فى العالم شيئا آخر غير النمط الأوربى ، الوارث للفن الإغريقي . وعلى الرغم من تكرار وصف العنف - كما سبق أن رأينا - إلا أن أحدا - عدا «جان - كلود فاتان» طبعا - لم يعلق على طريقة معاملة الفرنسيين للفلاحين ، تلك الطريقة التى يفضحها «دينون» واستمر الجميع بعد نشر وقراءة مذكراته ، فى الإشادة بالتنوير والحرية اللذين جلبهما الجيش الجمهورى إلى مصر .

قد يكون خير مثال على تلك النظرة الجزئية ، بل المتحيزة - إن كنت تدرى فتلك مصيبة - ما قاله الأستاذ «جان - مارى كاريه» فى رسالته الشهيرة : «الرحالة والكتاب الفرنسيون فى مصر» ، وهى من الكلاسيكيات فى هذا الموضوع ، وقد أعيد نشرها لنجاحها ، بعد ظهورها لأول مرة سنة ١٩٥٦ ، فهو لم ير ، ولم يقرأ ، من كتاب «دينون» ، إلا ما يخص الفن ، وشخصية «دينون» المحببة إلى النفس. وكيف لا ، وقد أهدى الأستاذ «كاريه» هذا جزءى رسالته الضخمة «إلى ذكرى كل الفرنسيين الذين ساهموا فى اكتشاف مصر القديمة ، وساهموا فى نهضة مصر الحديثة».

إلى هنا، والأمر يمكن أن يكون مقبولا فتلك هى سنة المستشرقين حتى عهد قريب ، ومع ذلك ، فالقارىء لا يسعه إلا العجب ، عندما يقرأ فى الجزء الثانى من الكتاب أن «المعهد الفرنسى» ، ذلك المجلس العلمى الشهير ، قد «دخل مصر مرتين بصورة رسمية ، المرة الأولى مع بونابرت (..) والمرة الثانية مع ليسبس (..) . وبين هاتين البعثتين

السلميتين ، بعثة ١٧٩٩ وبعثة ١٨٦٩ ..» وعلى الرغم من أن «كاريه» قد قرأ وقدم بإسهاب كبير ، مذكرات «دينون» ، بل وتحدث عنها فى ٢٦ صفحة فى الجزء الأول من بحثه ، إلا أنه ، وبعد كل ما عرفه ، مازال يسمى الحملة «بعثة سلمية» ، كأن بونابرت كان على رأس رحلة استكشافية ، أعضاؤها من علماء «المعهد الفرنسى» ، ولا يصحبه فى رحلته تلك ستة وثلاثون ألف جندى من الغزاة . وتزداد الدهشة ، عندما نقرأ بعد ذلك تقديمه لخطابات مؤرخ يدعى «جوزيف ميشو» ، زار مصر أثناء حكم محمد على ؛ ويعلق عليها «كاريه» قائلا : «هل يعنى ذلك أن «ميشو» يوافق على أساليب محمد على ؟ لا ؛ إنه يعترف بذكاء الباشا ونشاطه ، ولكن ، كيف يوافق على استغلاله للفلاحين دون رحمة ؛ كيف يوافق على نظام الضرائب الظالم والرعب البوليسى الذى كان يسود البلاد أثناء حكمه ؟ صحيح أن مصر كانت تطيع ، وتسير ، وتحفر القنوات (.. إلخ) ولكنها كانت تفعل ذلك تحت ضغط الغرامات وضرب العصى» (...) ، «كان نتيجة ذلك النظام ، عذاب الشعب وبؤسه» (٣) ، .. نعم ، يدهش القارىء ، لأن الأستاذ «كاريه» لم يتوقف ولم يقل الكلام نفسه ، عندما تحدث بإسهاب عن مذكرات «دينون» ، مع أن بها تفاصيل أكثر عما عاناه الفلاحون ، كما سبق أن قرأناها مترجمة ، ولم يتوقف عندها الدارس الأستاذ «كاريه» ، ألأن الضرب والبؤس كانا ينبعان من الحكم الفرنسى .. فلا يبدو الأمر غريبا عليه ؟! أم أن «ضرب الحبيب ..»؟ ولكن عندما لاحظ كاتب آخر البؤس نفسه ، والضرب نفسه أثناء حكم محمد على ، يصبح الكلام جديرا

بالتعليق ، بل ويشار إليه بالبنان على صفحتين من القطع الكبيرة فقد شعر الأستاذ «كاريه» هذه المرة بالظلم الذى يقع على شعب مصر المسكين المقهور. وكان الأجدى أن يذكره هذا القهر ، بقهر آخر ، سبق أن نزل على الشعب نفســه ، ولكن على أيدى الفرنسـيين الغازين ، لكنه لم يفعل ، لأنه لا يريد أن يرى .

وهكذا نتلقن درسا قاسيا فى موضوعية العلماء الغربيين . وللعلم ، فقد درّس الأستاذ «جان - مارى كاريه» لمدة ثلاث سنوات فى جامعة القاهرة ، ومن يدرى كم من الحقائق المزيفة قال لطلبته المصريين . وسبق أن رأينا .. ما كانت المدارس الفرنسية تقوله لتلاميذها المصريين فى العصر نفسه ، أى قبل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢(*) .

وبعد أن عرفنا ما كتبه الفنان «فيفان دينون» فلنقرأ الآن ما كان يكتبه مدنى آخر ، من خطابات لأهله ، فى العصر نفسه .

«فرانسوا برنوابيه» : «مع بونابرت، فى مصر وسوريا(**)»

كان الفنان «دينون» من المقربين جدا للجنرال بونابرت، وعندما سافر القائد العام من مصر إلى فرنسا سرا كان من بين من انتقاهم لصاحبته أيضا، جنرال آخر، لم يكن من العسكريين، إذ كان «مديرا لشغل جيش الشرق». ويقول «كريستيان تورتيل» إنه وجد، بين اوراق عائلته القديمة، خطابات هذا المسئول إلى زوجته وابن عمه، وقد نشرها «تورتيل» هذا فى عام ١٩٨١ (٤٠).

---

* انظر الملحق.

** بعض من هذه الصفحات سبق نشره فى «الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة» للدارسة.

يحكى الجنرال «برنوابيه»، فى أحد خطاباته الأولى زيارته سرا للسفينة التى يسافر عليها القائد العام لجيش الشرق، وهى سفينة لوريان : «لم أر فى حياتى مافاجأنى وأعجبنى مثل قاعة الاستقبال بها : كانت مصممة لملك ولد فى الرخاء أكثر منها لجنرال جمهورى، ولد من أجل مجد وطنه .. وقيل لى إن أصول المراسم مراعاة بدقة فى هذا المكان : إنهم يحاولون نسخ العادات القديمة للبلاط الملكى، وبدا لنا الأمر مضحكا للغاية وكأننا نشاهد نبيلا كبيرا مرفها وسط معسكر من الجند الاسبرطيين»:

تدل هذه السطور على عقلية «فرانسوا برنوابيه» نفسه فهو يتكلم كالثوار الذين أرادوا التخلص من بذخ النبلاء السابق كله؛ وفى الوقت نفسه تشير هذه السطور الى نمط الحياة التى سيحياها بونابرت فى مصر، والتى تذكرنا بحياته فى ايطاليا .

وفى الطريق إلى الاسكندرية قابل الأسطول الفرنسى سفينة حربية تركية : «أبلغ بونابرت قبطان هذه السفينة نية الفرنسيين الدخول فى أراضى سيده، بصفتهم أصدقاء، ما جاءوا إلا لمعاقبة بكوات المماليك، لما يوجهونه من إهانات للمسيحين يوميا. ولذا فبونابرت ينصحه أن يستقبلنا كأصدقاء، وإلا أغضب السلطان» : كان هذا بالفعل ما قاله أيضا بونابرت لجيشه ، وكان الجميع يعتقد - كما سنرى لا حقا - أن فرنسا وإسطنبول متفقتان معا على تلك الحملة .

وينزل الجيش على شاطىء الإسكندرية : «عندما رأى حاكم الاسكندرية أننا نستعد للنزول الى الشاطىء ، أخذ يصلح بسرعة فائقة

تحصيناته السيئة، وأثار الغوغاء ضدنا» هكذا يوصف كل من حاول التصدى للحملة الغازية. ثم يصف «برنوابيه» نزول الجيش الى الشاطيء: «كان المنظر مهيبا ، وكنا نعجب له ، وكان لابد أن يستغربه المصريون ، فمما لا شك فيه ، أنهم لم يروا مثله من قبل ولكننى عجبت أنا نفسى لعدم المبالاه التى قبولت بها تحركاتنا كلها، ومن المؤكد أنهم كانوا يحتقرون المنظر أكثر مما يعجبون به، فمن كان يراهم يظن أنهم هم المنتصرون علينا (...) وعلى الرغم من تحركات أكثر من ألف رجل ومعداتهم إلا أننى رأيت أهل البلد يتوجهون إلى شاطىء البحر ويغسلون وجوههم وأجسادهم ، ثم يفرشون جلابيبهم الكبيرة على الرمال، وينظرون نحو الشرق ، ويقومون بالصلاة فى منتهى الهدوء ، ثم ينسحبون دون أن يلتفتوا إلى ما يحدث حولهم ، ما أعجب هذا البلد !»: بل ما أعجب رؤية الفرنسيين لأهل البلد ، فهم يعتقدون أن المصريين كالهنود الحمر، سينظرون إليهم وكأنهم آلهة هبطت من السماء أو جاءت من وراء البحار الشاسعة كما كان يقال عنهم .

وتبدأ الحياة فى الاسكندرية المفتوحة ، ويبدأ استياء الجيش كله من البلد الجديد الغريب. وعلى الرغم من أن «برنوابيه» كان متحمسا جدا لتلك الحملة، إلا أنه يكتب قائلا : «مهما يكن الأمر، فأنا ألعن مائة مرة من كان سببا فى حضورنا إلى هنا ، فى مثل هذا البلد.. كلما فكرت فى حالنا ، وجدتنا تعساء، فإذا ما صادفنا فى الشوارع نساء، أو أطفالا ، نراهم يهربون أمامنا، وكأننا حيوانات كاسرة ، حتى الحيوانات التى تجدها أكثر ألفة من حيوانات أى بلد آخر، مرعوبة منا، خاصة الكلاب :

وهي فعلا تتبعنا بعناد شديد لدرجة أننا لا نستطيع التخلص منها إلا بالسلاح». قصة الحملة مع الكلاب طريفة ، وقد أمر بونابرت بإعدامها في القاهرة لإزعاجها إياه أثناء الليل. ويقول الجبرتى إن الكلاب تنبح وراء الفرنسيين لأن لباسهم كان غاية في الغرابة !

خرج الجيش من الاسكندرية فى طريقه إلى القاهرة عبر الصحراء. وكانت المأساة – ولا ننسي أن تلك الرحلة تمت فى شهر يوليو : «إننى أرى ولكن بعد فوات الأوان ، أننا ضحية ، وظيفتها تحقيق مشروعات نبتت فى الخيال الهائج المجنون لبعض الرجال، ليحققوا طموحاتهم المفرطة ، غير مبالين بضحاياهم . وأكثر شيء أدهشنى أن الجنرال بونابـــرت لم يفكـــر فـــى توفير مياه الشرب لجيشه»، ومن ثم بدأ التعرف على السراب فى الصحراء ، ونتائج هذا الاكتشاف ، وتأثيره على الجند : «اجتاح اليأس كل النفوس ، وكانت النتيجة أن السير أصبح أكثر بطأ .. وكثيرا ما كنت أصم أذنى وأنا أسمع آهات وصرخات زملائى فى البؤس وهم يتوسلون لنساعدهم فى لحظة الموت، كنت أراهم يسقطون عند قدمى ، دون أن يتحرك لى ساكن ، لأن العذاب الشخصي يغلق القلب دون أى شعور غيره. كان كل منا يتبع طريقه فى صمت كئيب . كنا لا نلقى إلا بالكاد ، نظرة اشفاق على الجثث المشوهة التى نجدها بكثرة فى طريقنا». وأخيرا يصل الجيش إلى مدينة دمنهور : عندما اقتربنا هرب الفلاحون ومعهم حيواناتهم ومؤنهم كلها : لقد خلعوا حتى أبواب منازلهم . ولا بأس فقد تركوا المياه ، وكانت هى كل ما نبتغيه من متعة فى هذه اللحظة » .

ويتكرر وصف «برنواييه» لهجوم البدو المستمر عليهم، وكيف أنهم كانوا لا يتركون للجيش لحظة أمان واحدة ، إلى أن يصل الجند إلى الرحمانية : «عندما رآنا أهل هذا الكفر من بعيد ، لاذوا بالفرار. وكانت النساء تطلق العويل.. وعلى الرغم من جمال هذا المكان ، إلا أن الحزن خيم عليه، لهروب أهله منه . وعندما شاهد الجيش هذا المنظر ولم يجد أمامه أي مورد ، رأى أن الانتقام هو الأصوب ، فأحرق كل شيء، ياله من منظر بشع، وقد قضى الحريق على نصف البلدة» ، الانتقام بالحريق: ممن ؟ ولماذا ؟ .

يركب الجند بعد ذلك مركبا ، وإذا بفرقة من المماليك تظهر على الشاطيء أمامهم : «نظر إليهم الجنرال «ياوونسكي» باستخفاف ، ولم يشعر بأي خوف ، وكان يعتقد أن المصريين لا يعرفون المدفعية، كان يقول : «أريدهم أن يقتربوا لأرى المفاجأة عندما يسمعون هذا الدوي»، وجاءت المفاجأة بالفعل، ولكن على غير ماكنا نتوقع ! إذ اكتشفنا فجأة ثلاثة مدافع مخبأة على شاطيء النيل. كنا بجانبها ولا يمكن أن نحتمي من طلقاتها»، تدور المعركة وتكاد المراكب الفرنسية تهلك بمن عليها ، لولا ظهور باقي الجيش الفرنسي : «لم يهرب المماليك أمام هذا الجيش المرعب، بل رأيناهم يتراجعون بخيولهم بأقصى سرعة ، والسيوف في أيديهم .. كانت المعركة غير متكافئة ، فالعدو لم يكن لديه إلا ألف أو ألف ومائتي رجل ليصد هجومنا !»، وتنتهي المعركة لصالح الفرنسيين كالعادة للسبب نفسه الذي يعترف به «برنواييه» وهو كثرة عدد الفرنسيين، وقلة عدد المحاربين المماليك بالنسبة لهم .

ثم يجيء مشهد يدل على أن الجند الفرنسيين كانوا أقرب إلي المرتزقة منهم إلي محاربين من أجل مبدأ فلم نرهم - ولن نراهم - يهتمون بغير الغنائم: «وجدت بعض الجنود على شاطيء النيل يتعاركون من أجل بقايا ملابس أحد فرساننا الموتي ، فاشتريت منهم الحذاء والقبعة والقميص» ..

ويحرق البدو ، في إحدى القرى، موظفا فرنسيا وخادمه : «عندما رأى بونابرت تلك الوحشية، استولي عليه السخط فأمر بإحراق القرية، وذبح سكانها كلهم ، أو إطلاق النار عليهم. ولم يمنع هذا الدرس القاسي أن نقابل جثثا كثيرة في طريقنا وقد شوهها هذا الشعب المفترس»: سنقابل بتكرار ملح، هـــذا التصعيـــد في العنف ، فكلما حاول الفرنسيون قمع المقاومة ، وكلما كان العقاب قاسيا ، زاد عنف المقاومة ، واتسعت دائرة الثورة، مثلما يحدث في كل البلاد المفتوحة .

وتستمر المسيرة نحو القاهرة : «في اليوم التاسع عشر، لم يعد اثنان من الجند يتحملان هذا الطريق الشاق، فأمسكا بأيديهما، وألقيا بنفسيهما في النيل أمام زملائهما وقد فضل كثيرون إنهاء حياتهم بالرصاص ، ليهربوا من هذا العذاب الأليم ».

أما عن معركة إمبابة فهو يكتب قائلا : « لم تكن معركة .. كانت مذبحة .. حاول بعض المماليك استجداء الفرنسيين قبل سقوطهم في النهر ، ولكن جندنا لم يستجيبوا ، وأصموا آذانهم لأى شعور بالرأفة : لم يعد يهم إلا المجزرة .. » : أكدت آخر الدراسات تلك الحقيقة، حتي أن أحد المؤرخين المحدثين يقول عنها إنها لم تكن أكثر من «مناوشة لم

تذكر فى التاريخ إلا لأنها فتحت أبواب القاهرة لبونابرت» (٥). وقد أسلفنا كيف حولها الشعراء والمؤرخون إلى معركة اسطورية كجزء من مجد نابليون الاسطورى. وكان معاصرو بونابرت قد هولوا فى عدد المماليك المحاربين، وفى عدد ضحاياهم حتى يتلاءم ذلك مع سمعة الجنرال الذى لا يهزم أبدا .

وعلى الرغم من أن «برنوابيه» لم يكن عسكريا إلا أن شهادته مهمة جدا ، فقد كان كلامه موجها إلى زوجته ولا علاقة له بأى نية دعائية أو حتى تسجيلية . إنه شاهد موضوعى ، ولا ينتمى مثل غيره ، إلى الجوقة التى كانت تنشد المواويل كلما فعل بونابرت شيئا .

ويحاول مراسلنا بعد ذلك، تحليل طباع المصريين كما رآهم فى القاهرة؛ وهو يقول إنهم يخضعون لأية سلطة طاغية تستبعدهم . وكأن المقاومة التى شاهدها فى الدلتا كانت لشعب آخر، فلا مناص من ترديد الافكار المسبقة، فهو يقول مثلا : «لقد سخر المصريون لدرجة أنك تجد الخدم كثيرين وبأسعار رمزية، إنهم يفعلون كل شئ نطلبه. وهم عادة ماهرون جدا فى عملهم، وفى منتهى الأمانة »: من يقرأ هذا الكلام يظن أنه لا يوجد خدم فى فرنسا؛ والقارئ لأية قصة أو مسرحية من الأدب المعاصر لتلك الفترة، يجدها تزخر بهم، وأشهرهم شخصية الخادم «فيجارو» بطل المسرحيات المعروفة فى ذلك العصر.

نجد فى تلك الخطابات بعد ذلك، مثلا لما يمكن أن يسمى بالأسطورة والحقيقة: فـ «برنوابيه» يحلم بالأسطورة، وفى الوقت نفسه، يقص على زوجته الحقيقة التى عاشها هو نفسه : «فى اليوم التاسع من أكتوبر

مثلا . وصلنا فى الصباح الباكر إلى كفر يبدو بائسا: فأغلب المنازل كانت مبنية بالطين، وكان منظر الأطفال العرايا يثير الشفقة. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان لابد من أخذ مال هؤلاء التعساء، الذين أرعبهم مجرد اقترابنا منهم. وبينما كنا ننصب الخيام، رأينا بعضهم يهرب، وأولادهم على ظهورهم، ويسحبون وراءهم كل ما يملكون كان أول هم لنا استدعاء كبير هذا الكفر، وإبلاغه أننا حضرنا لنأخذ الضرائب. جاء الشيخ وهو يبكى، ليقول إن البدو مروا عليهم منذ أسبوع وأخذوا كل شئ. ولكن المحصل «دوفال» مع أنه رجل طيب القلب، لم يكتف بهذا الشرح – سواء كان الشرح صادقا أم كاذبا – قال إنه لابد أن يحصل المبلغ وإلا نفذ الأوامر، وضربهم بالعصى عند أى رفض. عندئذ، أخبر الشيخ أهل الكفر بالتوجه إلى معسكرنا لدفع المال».

«كانت الساعة الثانية ظهرا، ولم يظهر أحد. فأراد قائد فرقتنا أن يستعمل أعنف الوسائل ليحصل الضرائب، فذهب إلى الكفر ومعه مائة رجل (...) أما المحصل «دوفال» فقد بقى فى المعسكر حتى لايرى هذه المشاهد المزعجة. كنا نقول إنه من القسوة أن ينفذ الجمهوريون مثل هذه الأوامر، لأن مثلهم الأعلى هو أن يجعلوا الشعوب سعيدة، وأن يعاملوها كأخوة . كانوا، بهذه الطريقة، مجبرين على التمثل بأكثر الطغاة قسوة لابتزاز هذا الشعب، والعصى فى ايديهم. ألقينا اللوم على بونابرت الذى كان يستطيع أن يحسن من حال هؤلاء البؤساء ويفرض عليهم قوانين أكثر انسانية. وبهذه الطريقة ، كانوا سينعمون بحكم يدعى أنه كريم وعادل ومستقل. ولكن مع الأسف ، فالحقائق تثبت أنهم مازالوا يقاسون

من استعباد مخجل الى أقصى درجة، وظالم إلى أقصى درجة.. وبشع إلى أقصى درجة».

«كان المماليك يحكمون بسيطرة كاملة على الأقاليم : كانوا يجبون الضرائب ويختلقون أنوا ع الإهانات ضد الفلاحين .. وما كان يخزينا ، هو أن بونابرت مع الأسف الشديد، كان يستعمل وسائل المماليك نفسها».

«وفي تمام الساعة السادسة مساء، عادت فرقتنا إلى المعسكر ومعها عشرة فلاحين، مقيدين وكأنهم ممن حكم عليهم بالأشغال الشاقة، لأنهم لم يدفعوا الضريبة. وقد أحضرت الفرقة معها أيضا شيخ الكفر. وشرح له «دوفال» أن لابد له أن يجبر هؤلاء الفلاحين على دفع الضريبة في ظرف ساعة، لأنـــه هـــو وحده المسئول ، علاوة على ما سيصيبه من ضرب بالعصى، إلى أن يدفع المبلغ.. وهكذا انتهى هذا اليوم البغيض المضنى » .

«قد تظنين يا زوجتى الحبيبة ، بعد تلك الصورة التى وصفتها لك، أن مصير هؤلاء المساكين وبؤسهم ، يجب أن يجعلنا تنظر اليهم على أنهم أكثر الناس بؤسا على الأرض !... من المؤكد لو أنه كان شعبا مثقفا ومستنيرا لما تحمل مثل هذا الطغيان، وأنه سيثور ضد مضطهديه، ولا يتحمل بطشهم!.. ولكـــن هـــذا الشعب الجاهل لا يشعر بذلك ويتحمل كل شيء بصبر واستسلام ، دون أن يكون أكثر تعاسة. أنا أوافق «جان - جاك روسو» الذى يثبت بكفاءة أن العلوم والفنون مضرة

لسعادة البشر ، لأنهم لا يعرفون السعادة إلا فى حالهم الطبيعية وهى حال المتوحش» .

لا شك أن هذا اعتراف صريح ببطش الفرنسيين، وإذن واضح بالثورة لو أن الشعب المصرى كان «مثقفا ومستنيرا»، وتثور القاهرة بالفعل بعد هذا الخطاب، والمفروض أن تكون المفاجأة إذ أثبت الشعب المصرى لمراسلنا أنه ليس شعبا جاهلا أو متوحشا.

فما رد فعل «برنوابيه» إزاء هذا الدليل القاطع على أن المصريين ليسوا كما ظن فى أول الأمر، شعب عبيد مستعبدين؟ وبم سيصف الثوار الذين رفضوا البطش الفرنسى ؟

«.. الحشد الهائج المتعصب تعصبا دينيا أعمى ،...، وفى هذا الوقت، وفى المساجد، كان كهنة الدين يخطبون فى الناس ضدنا بمواعظ خبيثة ومتمردة ، حيث كانوا يدخلون سلطة الله ونبيه ليزيدوا من ثورة هذا الحشد من المتطرفين : إنها خير وسيلة يلجأ إليها دائما القساوسة ليؤثروا ويهيجوا المؤمنين كما يريدون» .

نرى المفارقة العجيبة ! فتصبح ثورة القاهرة عند من ينشدها تطرفا دينيا وتعصبا أعمى، ولا يحاول «برنوابيه» أن يربط بين الأحداث ، وما سبق أن قاله فى خطابه السابق، عن جهل شعب يقبل البطش الفرنسى دون أن يثور .

وفى خطاباته لابن عمه ، يقول مراسلنا : «يا ابن عمى العزيز، بالنسبة للنساء فإليك قصة طريفة . عندما حضر جنرالاتنا الى القاهرة، استولوا بالقوة على النساء اللاتى تركهن المماليك فى قصورهم . ظنوا

أنهن غنيمة طيبة، بسبب ثراء ملابسهن وجمال زينتهن. وهجموا عليهن دون تمييز فريسة عن الأخرى . ولكن عندما هدأت رغبتهم بدأوا يتعرفون على فرائس شهوتهم. كانت خيبة الأمل كبيرة ، عندما اكتشفوا أنهم لم يرثوا إلا بقايا مهملة ! ولذا، حاولوا التخلص منهن . ومنذ تلك اللحظة، مرت هؤلاء النسوة على كل الأيادى، حتى أصبحن ملكاً للجنود».. وكان «برنوابيه» يحكى لابن عمه عن مغامرات، يخفيها طبعا عن زوجته، نفهم منها ان همه الوحيد فى القاهرة – عندما كان ينتهى من تلبية أوامر بونابرت الخاصة بملابس الجند – هو البحث عن فتيات يشبعن رغبته الجنسية . وقد اشترى – بمعنى الكلمة – فتيات مسلمات ومسيحيات، وصفهن بالتفصيل الفاضح، وما شعر به من لذة معهن. وقد زوج احداهن إلى خادم عنده ثم دخل بها والعريس مسجون فى حجرة أخرى : كانت تلك هى الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذه الفتاة التى رآها فرغب فيها .

والأحلام التنويرية لهذا الثورى المدنى لا تنفصل عن الواقع الغريب الذى يعيشه، فى ازدواجية لم نعد نستغربها من رجال جيل الثورة، فمراسلنا يكتب فى أحد خطاباته ما يلى : «أما نحن – الفرنسيين – فواجبنا يحتم علينا تخفيف معاناة هذا الشعب البائس وآلامه، بأن ندخل عليه تقاليدنا وقيمنا . لقد بدأنا فى كسر سياستهم الطاغية وسلطتهم المطلقة، ولكنى لا أعرف إن كنا نستطيع إلغاء الفقر»..من البديهى، ومن واقع خطابات «برنوابيه» نفسه، ان المصريين لم يروا من التقاليد

الفرنسية، إلا حرق القرى، والضرب بالعصى، والبحث عن العذراى الجميلات. ولا يزال مراسلنا لا يفهم ثورة المصريين على الوجود المستعمر : « يريد الإنجليز طردنا من مصر : ومن أجل هذا الهدف، دبروا للمرة الثانية خطة لا مثيل لها في جبنها . استعملوا السلطان لإثارة سكان الأقاليم علينا . والبلاط العثماني يعرف جيداً التعصب الدينى الأعمى للمصريين، وهو أعنف تطرف فى الشرق كل . فاستغلوا سذاجة المؤمنين الغبية، لخدمة الهدف الإنجليزى . كل الوسائل كانت متاحة، حتى أكثرها بغضاً» .

«إن البلاط العثمانى لا يخجل من سحق أى إحساس بالعدالة أو الإنسانية، من أجل تحقيق طموحاته الآثمة وجشعه النهم، فألقى بملايين الأفراد فى هـوه من البؤس والعذاب، وخطة هجومه دليل كاف على نفاقه» . من البديهى أن «برنواييه» قد نسى تماماً ما قاله هو نفسه فى خطاباته الأولى عند وصوله الى مصر، ورأيه فيمن خطط لهذه الحملة...

وتحرك جزء من الجيش تحت قياده بونابرت صوب الشام : «أخذ بونابرت معه عشرة من أغنى وأشهر سكان هذا البلد كرهينة ، حتى يأمن سلامة المدينة الكبيرة أثناء غيابه»، مما يؤكد لنا خشية الفرنسيين الدائمة من ثورة المصريين . وفى الطريق الى عكا «كنا ننوى التوقف فى قرية ... وعندما اقتربنا منها، شاهدنا ناراً عالية . ظننا فى أول الأمر ان السكان قد أوقدوا هذه النار ليعبروا عن فرحتهم بمرور بونابرت عليهم . ولكن عندما اقتربنا فهمنا أن حريقا هائلا قضى على القرية كلها . ولدى وصولنا، انتابنا الفزع امام هذا المنظر البشع الذى يصعب وصفه . فلم

نجد إلا رماداً وجثثاً من كل جنس وسن، كانت ترقد في كل اتجاه وقد اخترقتها الطعنات . ولابد انهم اصيبوا هكذا وهم يحاولون الفرار من النار . لم يكن يرفرف فوقهم إلا الصمت الرهيب (السبب) كان الجنرال بونابرت مع اثنين من قواده ... وتجمع حولهم بعض الفلاحين، وظن الفرنسيون أنه حب الاستطلاع (ثم اتضح ان معهم عصا انهالوا بها علي بونابرت ورفاقه ضرباً) فما كان من الفرسان إلا ان انهالوا عليهم بسيوفهم، ثم حكم على سكان القرية كلهم بالقتل، وأحرقت عن آخرها» :

هذه القصة، علي قسوتها، لا تخلو من عنصر فكاهي، فعلي الرغم من المقاومة المستمرة في مصر كلها، وعلي الرغم من ثورة القاهرة، إلا ان بونابرت مازال يعتقد ان الالتفاف حوله أمر عادي ولايزال «برنوابيه» يظن ان النار تعبر عن فرحة اللقاء بهم !

ماسنقرؤه بعد ذلك يؤكد مدى تهويمات الجيش الغازى، فعندما تقدم بعض الأتراك نحوهم في غزة «قال لهم بونابرت إنه يجئ اليهم كصديق، وان هدفه الوحيد هو معاقبة الطغاه الذين يعذبون الشعب، ليعطى هذا الشعب الاستقلال المطلق. كانت هذه الكلمات جديرة بكهربة أى شعب غير الشعب السوري، لأن الشعب السوري تعود العبودية منذ قرون طويلة . وكلمات حرية واستقلال غريبة كل الغرابة عليه، ولا معنى لها بالنسبه له»، ولم يشرح لنا «برنوابيه» ما كان يعنيه بونابرت بكلمة «الاستقلال المطلق»، الذي جاء بونابرت خصيصاً ليهديه إلى الشعب السورى، بعد الحروب والمجازر التي شاهدها . خاصة اننا نرى معه بعد هذا التطبيق العملي لهذا «الاستقلال المطلق» : « لو ان خبر انتصاراتنا

فى سوريا وصل إلى فرنسا، فلا شك أنهم سيبتهلون هناك الى الله شاكرين له . ولكن، إذا ما شاهدوا مثلى الآثار الحزينة لمدينة يافا المسكينة، والجرائم البشعة التى راح ضحيتها السكان، فإن الفرنسيين سيتساءلون بسخط عن الآلهه التى تحمى مثل هذه الأفعال . وإن كان قانون الحرب يسمح بذلك، إلا أن ما شاهدته يجعل البدن يقشعر ...»».

«وصلنا يوم ٢٢ تحت أسوار يافا. وكانت الفرق التى تدافع عن هذه القلعة مكونة من محاربين من دول مختلفة، الذين سرعان ما تجمعوا . ومع ذلك فإن هذا التجمع من الأجانب كان يدافع بإصرار، عن قلعة لا يحميها إلا سور دون خندق . فقد كان التعصب الدينى الاعمى يقوى من عزيمة هؤلاء الجند الذين لم يخافوا محاربة الفرنسيين وهم وراء تلك الأسوار الضعيفة» . أرسل بونابرت ضابطا يطلب من الحامية أن تستسلم، فما كان من قائد الحامـية إلا ان أمـر بقتلـه، لما اعتبره فى ذلك من وقاحة فادحة، فكان الهجوم : «لم أكن أتخيل مجزرة أبشع مما رأيت : كانت فرقنا تنتقم لوفاة رسولنا! وعلاوه على ذلك، فالإصرار المتعجرف الذى جعل المحاصرين لا يستسلمون، كان يشعل ثورة جندنا (...)، قتل كل شئ وحرق؛ لم تتوقف فرقنا عن القتل إلا عندما أعياها الجهد لكثرة الذبح : لم يمنعهم الجنس أو السن» .

ثم يعد بونابرت ألفا وخمسمائة جندى أن يعيدهم سالمين إلى حدود الشام إذا ما استسلموا وعندما وافقوا، أمر بقتلهم كلهم رمياً بالرصاص : «وبعد ذلك، شاهدنا مناظر مؤسفة تتلاحق أمامنا : رأينا الجند يعودون الواحد تلو الآخر إلى المعسكر، محملين بكل أنواع

البضائع . ولكن حدث ما لم أره من قبل، شاهدت تجارة الفتيات، وهم يبدلونهن بألف شئ» . وقالت فريسة أحد الضباط إنها ابنه الحاكم ولا يحق له أن يأخذها، فذبحها بسيفـه أمام الجميع . وعندما عرف بونابرت بما تسببه تلك البائسات من فوضى فى المعسكر، أمر بإعدامهن كلهن» ..

ثم أرسل بونابرت بياناً الى سكان نابلس، يطلب فيه من السكان تسليمه المماليك، وإلا حاربهم، وكان فى الوقت نفسه يؤكد نياته السلمية لمن يثبت انه صديق: «أرسل بونابرت بيانه هذا الى القدس أيضا ...، وإلى بيت عانيا وبيت لحم وأريحا، ليبشر الشعوب بمجيئه وبنيته السلمية» ويبدو ان الشعوب كانت قد فهمت معنى كلمة «النيات السلمية» بالفرنسية، ولذا، كتب «برنوابيه» معلقاً : «ولكن هذا البيان لم يهدئ من روع الشعب الذى عرف ما بدر من بونابرت فى يافا» .

وبعد فشل حصار عكا، عاد بونابرت أدراجه والطاعون والجوع والعطش يحصدون من رجاله المئات . ولكن البطش لم يتوقف : «حتى يعاقب بونابرت سكان هذه المنطقة على الاستقبال السيئ الذى قابلونا به فى طريقنا الى عكا، أرسل بعض الجند : فانتشروا فى كل القرى، وجعلوا كل السكان يهربون، وأخذوا منهم كل حيواناتهم، وأحرقوا كل مساكنهم . وبعد فترة وجيزة، أصبحت هذه المنطقة الجميلة صورة للخراب . استطاع بونابرت، بانتقامه هذا من السكان، أن يحرم عدونا من كل موارده، فى حاله ما إذا فكر فى متابعتنا ... وفى يافا، بقى الجيش ثلاثة أيام لينتهى من تدمير المدينة ، وتحطيم كل التحصينات».

قابل بعض زملاء مراسلنا من الضباط ديرا فى طريقهم فتوقفوا وهددوا الكهنة، فأعطاهم هؤلاء المحاصرون الطعام الخاص بهم . ودعا الضباط كبير الكهنة الى الأكل معهم : «وبسرعة أثر نبيد قبرص الذى كنا نشرب منه الكثير على عقولنا ، وذكرنا بحماسنا الجميل للحرية. ذلك الشعور النبيل بالاستقلال. أخذ كل منا يتخيل الحكومة المثلى لإسعاد الشعوب. ولكن كبير الكهنة أيضا كان قد تأثر بالنبيذ وأراد أن يعبر عن رأيه هو أيضا فأخذ يدافع عن الدين. أثارنا كلامه فاندفعنا نحوه وكأننا الموج الهائج ، ونحن ننعته بأقذر الحماقات»... وهكذا انتهى درس التنوير الوحيد الذى قابلناه ، ولم يكن أكثر من حماقات سكارى .

كان كل من «فيفان دينون» و«فرانسوا برنواييه» من المقربين جدا إلى بونابرت.. ولذا فقد اصطحباه عندما سافر خلسة من مصر ولكن كان هناك العديد من الضباط الذين بقوا مع الجيش ممن نشروا مذكراتهم ، نقرأ منها ما نشر أخيرا .

★★★

«مارى - جوزيف مواريى» :
«مذكرات عن الحملة على مصر»

«مارى جوزيف مواريى» نقيب فى الجيش الفرنسى، شارك فى غزو مصر واحتلالها وكتب مذكراته عن تلك الأعوام الثلاثة ، وكانت تلك المذكرات معدة للنشر فور عودته ، ولكن المشروع فشل، إلى أن حصلت إحدى الدور أخيرا على حق نشرها(٦).

و«مواريى» من الجند المحترفين ، ويفهم من كلامه أنه شارك فى عديد من حروب الثورة الفرنسية فى أوربا : إنه ، بالنسبة لنا، نموذج ممتاز لضابط جيش الثورة ، ولم تكن الحملة على مصر، ، بالنسبة له ، إلا حربا وسط حروبه الأخرى، لا تختلف إلا من حيث تغيير القارة. وقد نجد فى مذكراته ، إذن ، ما لم نجده فى كتاب الرحالة الفنان «فيفان دينون»، الذى لم يحضر إلى مصر إلا لأسباب فنية : إن «مواريى» ابن الثورة الذى يحارب فى جيش ينشر مبادئها ويموت ليدافع عنها . هكذا تقول الأسطورة على الأقل ، ولابد أن يشعر القارىء بنوع من التشويق فى قراءة مذكرات مثل هذا البطل ... ترى ماذا نجده يقول؟

★★★

يحكى «مواريى» أولا خيبة أمل أفراد الجيش فى جزيرة مالطة ، لما وجدوه ، أو بالأصح ، لما لم يجدوه هناك ؛ فيقول : « .. فحولنا آمالنا نحو مصر : أخذ خيالنا، الذى تغذيه ذكريات التاريخ ، يرى فى كل مصرية، مفاتن كليوباترا وإغرائها كليهما . ولكن وصولنا إلى مصر، وحياتنا فيها، قد بددا ذلك الوهم الجميل ، فأخذنا نتحسر على شواطىء (أنهار إيطاليا وألمانيا) فى أوربا» . نلاحظ أولا أن الأحلام لم تكن غير أحلام متعة ليس إلا ، وأنها لا تترك شيئا للثورة ومبادئها ، أو للحضارة الغربية وسموها. ونلاحظ ، ثانيا، أن هذا الضابط يتمتع بثقافة تتيح له الحلم بكليوباترا كما يراها التراث الكلاسيكى ، غانية تتلاعب بحواس الرجال ، وليست ملكة كادت تهزم روما . وتتوالى الأحلام : «ياللفرحة! سنرى الأرض العتيقة ، مهد العلوم والفنون ! سنجد تلك الوديان حيث

كان بنو إسرائيل يذهبون بغنمهم ؛ سنرى تلك المباني السرمدية ، رمز قوة الفراعنة ، تلك الأهرامات، والمسلات ، وحطام المعابد القديمة ، تلك المدن والأماكن الشهيرة التى رأت انتصارات المقدونيين والرومان ، والمسلمين وأقدس ملوكنا ! (....) ، إننا نتشوق للتفوق (فى مصر) على الأبطال الوثنيين، والانتقام لدم المسيحيين أجدادنا». نلاحظ، طبعا ، مقدار ثقافة هذا الضابط التاريخية ، وارتباط مصر، فى ذهنه ، بتاريخ العهد القديم أولا ، وبالحروب الصليبية ثانيا : ذكرى هزيمة الملك «القديس» لويس التاسع فى المنصورة . ونلاحظ ، أيضا ،كيف أنه لا يرى فى الحملة إلا فرصة للانتقام من المصريين والمسلمين : ألا يذكرنا ذلك «بشاتوبريان» ؟. كل الأحلام هنا أحلام مجد حربى فقط ، وما يصاحبه من سبايا حسان .

ويسترسل «مواريى» فى آماله : « كان أملنا أن نعيد إليها الحضارة، وحكم العلوم والآداب ، أن نعيد إليها الرخاء والخصوبة والسعادة ... ستعوضنا هذه المستعمرة الجديدة عما فقدناه بسبب الدهاء الإنجليزى، الذى سلبنا ممتلكاتنا فى العالم الجديد (أمريكا). من يستطيع التعبير عن أوهامنا اللطيفة التى كانت تشغل همومنا فى هذه اللحظة ، والتى كنا كثيرا ما نتحدث عنها فى لقاءاتنا؟».

إن الأحلام فى مفارقة غريبة ، بين الحقيقة، وهى استعادة بعض النفوذ الفرنسى على مستعمرات جديدة ، وبين خيالات فلسفة التنوير فى تصدير الحضارة الغربية إلى البلاد التى يرونها متخلفة، لإيجاد

سبب أخلاقي للغزو الاستعماري. ولكن ، أنلاحظ مرة أخرى أن الثورة ومبادئها لم تذكر في تلك المشروعات البناءة بتاتا؟.

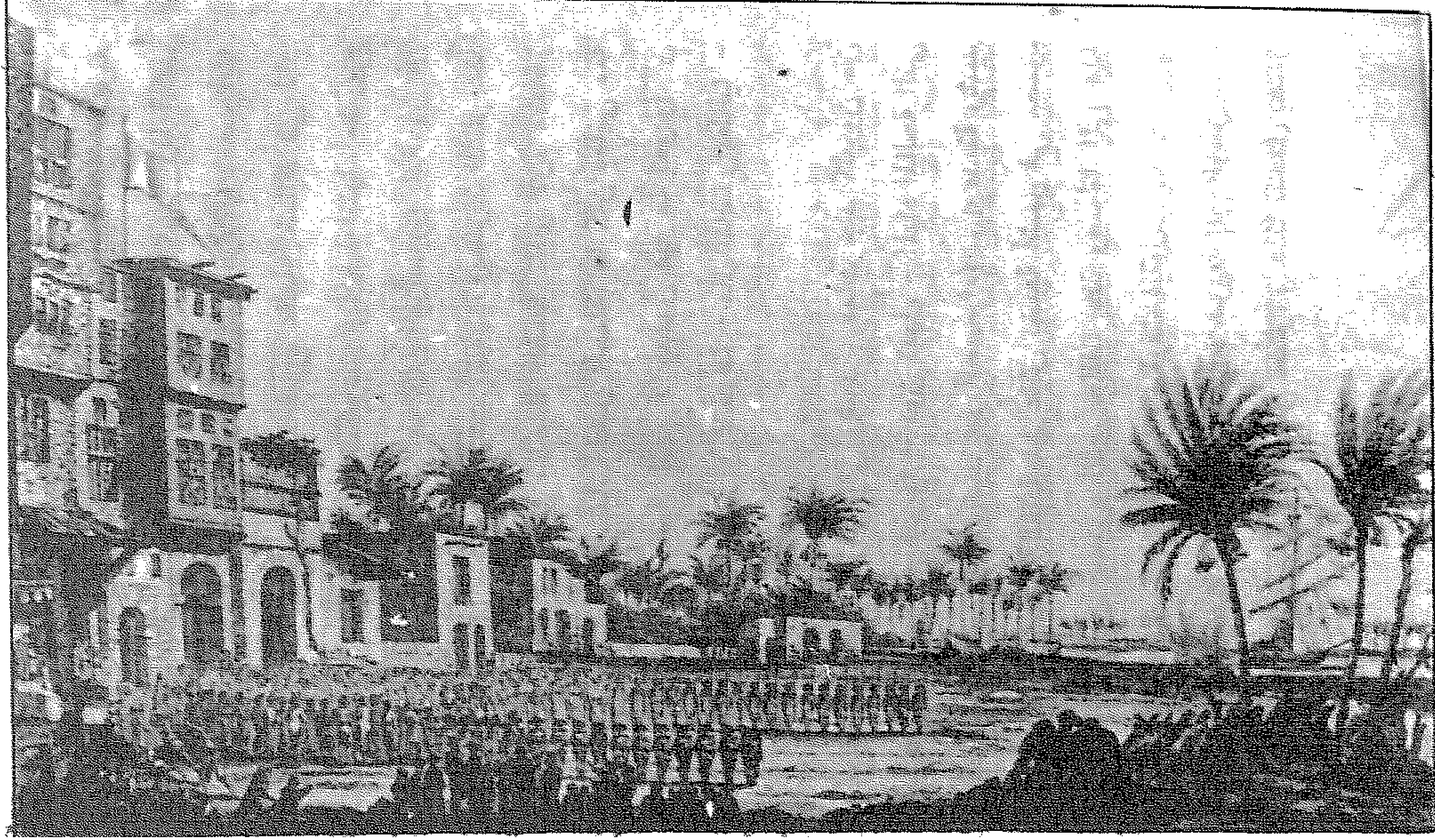
ثم ، كان الهجوم على الإسكندرية: «كان السكندريون الذين قاومونا ينتظرون انتقاما رهيبا ، انتقاما كانوا يستحقونه. لقد كانوا يعتقدون أن مدينتهم التي استولينا عليها ستتحول إلى بركة من الدماء وحريق كبير، كما هي الحال في قوانين الحرب. فكم دهشوا، بل أعجبوا بنا، عندما رأونا وكلنا مودة، نتمتع بتلك الإنسانية الهادئة التي قالت عنها بعض الدول الأخرى إنها تعوزنا . لقد احترمنا دينهم ، على الرغم مما قيل لهم بأنه لا دين لنا؛ وحمينا الأشخاص والممتلكات؛ كل شيء جعل هذا الشعب المرعوب والمخدوع يطمئن ، خاصة عندما استمع إلى بيان الجنرال بونابرت».. وما العجب في ذلك ، وما الذي كان ينتظر من شعب هزم بعد أن قاوم بقدر استطاعته كي يبقى حرا؟ إن أوهام الفرنسيين لاحد لها، و«مواريي» يجهل مثلا رد الفعل ، عندما ذبح الجند الفرنسيون كل النساء والشيوخ والأطفال الذين احتموا بالمسجد ، أثناء الدفاع عن المدينة، وقد ذكر الحادثة ضابط آخر قرأ «شاتوبريان» مذكراته كما أسلفنا. وسنقابل أوهاما كثيرة من تلك، عن حب المصريين واحترامهم للفرنسيين إلى أن جاءت مقاومة السيد كريم، وثورتا القاهرة مفاجأة تامة لهم. أما عن تأثير بيان بونابرت ، فما هو ، أيضا، إلا جزء من تهويمات النرجسية الخاصة بالشوفينية الفرنسية آنذاك.

ويصف «مواريي» ما رآه بعد المعركة: «لم تعد مدينة الاسكندرية إلا حطاما لمدينة كانت مشهورة ومزدهرة، ولم نر فيها إلا رذائل شعب أبله

مستعبد، سرعان ما أدركنا استحالة تحضره ، وعودته إلى شهرته السابقة. هذا الفتح الأخير (الغزو الفرنسى) لم يساو فى نظرنا قلائل الرجال الذين كلفنا إياهم». قد نتسائل عن معنى «رذائل شعب أبله ومستعبد»؛ ولكن الجملة بليغة من حيث شرح عقلية الضابط فى ذلك الغزو، وسيطرة الأفكار المسبقة على تفكيرهم. ونلاحظ انتهاء مشروع «تحضير» المصريين بسرعة فائقة ، بينما كان الفرنسيون ينتظرون أن تعود مصر إلى أمجادها الفرعونية ، تحت إمرتهم، وبصرف النظر عما حدث لها منـــذ قرون عديدة . ثم نلاحـظ الضيق الذى لازم مشاعر رجال الجيش، وكان من أهم أسباب فشل الحملة، ما كان يعانى منه الرجال فى بلد غريب عليهم كلية؛ إنهم لا يجدون فيه ما تعودوا أن يجدوه فى البلاد الأوربية التى سبق أن فتحوها - مثل ألمانيا وإيطاليا - من متع.

ثم ذهب «مواريى» مع فرقته إلى رشيد : «مات جند كثيرون من العطش ، ومات آخرون لأنهم شربوا - دون تمهل - المياه المالحة التى قابلناها (ونحن فى الطريق إلى رشيد عبر الصحراء) ،...، مدينة رشيد تبدو فى غاية الجمال وممتعة للغاية لمن عاش بضعة أشهر فى مصر، ولكنها أكدت لنا الشعور السيىء الذى حالفنا منذ وصولنا إلى هذا البلد». نراه يتجه، بعد ذلك ، إلى القاهرة مع فرقته فيقول:

«وفى الرحمانية ، وعدنا القائد العام بعودة سريعة إلى الوطن ،...، وقد جعلنا هذا الوعد ننسى ما قاسيناه فى مصر، وأخذنا نتحمل بصبر



«مشهد رشيد» (نلاحظ عدد الفرنسيين المستعمرين)

مايستجد من إرهاق» . ثم استمرت المسيرة نحو القاهرة عبر الدلتا، والرجال سعداء بالوعد الكاذب الذى وعدهم إياه القائد العام : «حينئذ، رأينا كيف يتعذب الضباط أكثر من الجند ، لأن الجند كانوا يحصلون على الأكل بالنهب والعنف، مما يحرم الضباط من فرصة شراء أى شيء.. فبينما كان الجند يأكلون حماما ودجاجا وأشياء أخرى مسروقة، يكتفى الضباط، مجبرين، بوجبة مقززة وغير كافية من الفول لعدة أيام.. لم يمر علينا من قبل مثل هذا القحط ولا مثل هذا التعب : فالسير الإجبارى على رمال حارقة ، دون نبيذ أو خبز أو أى أكل مغذ ، والسهر ليلا وسط أعداء همهم الوحيد هو مفاجأتنا، كل ذلك دون ساعة واحدة من النوم أو الراحة ... ألم تكن كل تلك المصائب كفيلة بهدم عزيمتنا وصدنا؟ ولذا فقد شاهدنا العديد من العسكريين يسقطون أمواتا من الجوع والإجهاد ، وآخرين كثيرين ينتحرون من شدة اليأس . وقد رأينا أخوين ارتبطا ببعضهما وألقيا بنفسيهما فى النيل».

ثم يحكى «مواريى» حياته فى القاهرة : «كان ركوب الحمير هو الشئ الوحيد الذى يعطينا بعضا من الترفيه، وكنا نستعملها للجرى فى شوارع المدينة أو لزيارة الضواحى. تستطيع تأجير الحمير من أى مكان وبسعر ضئيل جدا، إنهم يخبون فى منتهى السرعة، وكذلك سائقوهم...».

«أما بالنسبة للنساء ، فلم نجد فى القاهرة الموارد التى قدمتها لنا مدن (إيطاليا والنمسا). ليس من الممكن ، ولا حتى من الحكمة، أن ترى

نساء الأثرياء، لأنهن دائما سجينات وتحت السيطرة الرهيبة لطغاة غيورين . هناك بعض بيوت الدعارة؛ ولكن القبح والقذارة واللغة غير المفهومة للعاهرات ، كانت تثير فينا الغثيان وتجعل أكثر الرجال فجرا يهربون مذعورين»: هكذا كان الضباط المثقفون يقضون أوقاتهم إذن، بين جرى الحمير، والبحث عن النساء.. بلا مخالطة تذكر مع أهل البلد، مما كان يمكن أن يتيح فرصة حوار يتعلم منه الشعب المصرى مبادىء الثورة الشهيرة ؛ هذا - بالطبع - إن كان فى نية الضباط تعليم أى شخص أى شىء . ولكننا سنرى ضابطنا هذا يتعرف فيما بعد على جارية شركسية ، ويحاول تهريبها معه إلى فرنسا عند رحيله.

لكن الضيق كان يطحن نفسية الجميع؛ ويقول «مواريى» : « لم نكن نخشى التعبير عن ضيقنا، وكنت تسمعنا نقول إن الجنون هو الذى خطط لمشروع هذه الحملة ، والتهور هو الذى أخذ على عاتقه تنفيذها . وكان البعض الآخر يقول ، بل إن طموح القائد هو الذى أحضرنا إلى هنا ، لقد جاء ليبنى لنفسه عرشا من عرقنا ودمائنا». أما بالنسبة للبدو، فقد كان تعليق «مواريى» طريفا : «لم يكونوا يهاجموننا كالشجعان، ولكن كانوا يفاجئوننا كالخونة ، ويذبحون الفرق التى نشرناها فى القرى. وحتى على النيل ، وتحولوا إلى قراصنة ليحاربونا . وقد كانت تلك الحرب المتقطعة أكثر ضررا علينا من حرب جسورة ونظامية ، فقد كلفتنا الكثير من الجند الشجعان؛ وإذا بخبر موت خمسة عشر من رجالنا فى إحدى القرى، يصل إلينا فى السادس والعشرين من

أغسطس. فصدر الأمر بحرق تلك القرية وبالانتقام الشرس منها. ولكننا وجدنا القرية خاوية: فسكانها كلهم كانوا يعلمون بقدومنا، فهربوا؛ فاضطررنا إلى الاكتفاء بتخريبها بالنار. ولكن ثورة الجند وجدت منفذا لها مع عجوز وزوجته الكهل، وجدت ملابس فرنسية ملطخة بالدماء عندهما . كذلك وجد الجند حماماً ، ومنه الكثير فى مصر، وكانت هذه هى الغنيمة الوحيدة التى حصلنا عليها من تلك القرية البائسة». الجيش يتحرك إذن ، من أجل الانتقام أولا، ومن أجل الغنيمة ثانيا . ولو أننا تذكرنا ما قاله «مواريى» نفسه عن الانتقام لأجداده الصليبيين لفهمنا روح هذا الجيش الذى لا يبغى إلا عنفا. ثم نذكر أيضا ما قاله عن إعجاب السكندريين بسماحة الفرنسيين، التى لا نرى لها أى أثر هنا، وهم يهاجمون قوما وينتقمون منهم لدفاعهم عن حريتهم، بعد أن استعمرهم جيش مغتصب؛ ثم سلوك هذا الجيش الذى لا يعرف إلا الحرب النظامية، حيث تتحرك الفرق حسب قواعد صارمة، وكأنها تلعب الشطرنج ، بينما الحرب الشعبية للتحرير تختلف فى قوانينها وفنونها عن حرب بين حكومتين . وسيقابل الإمبراطور نابليون فيما بعد هذا النوع من الحروب عندما ستثور عليه شعوب البلاد المستعمرة فى أوربا، وأشهرها حروب أسبانيا وروسيا، وكانت الثورات الشعبية مندلعة أيضا فى النمسا وألمانيا. وسيقابلها نابليون، العبقرية العسكرية الفذة بالاندهاش نفسه ، للجوئها إلى حرب العصابات الفتاكة ، مثل ما فعله البدو فى مصر . ويفهم مراد بك هذا القانون ؛ ولذا كانت له النصرة فى

صعيد مصر ، حيث لم يستطع الجنرال «ديسى» هزيمته لأنه لم يفلح يوما فى مواجهته فى معركة نظامية تكون الغلبة فيها له ولمدافعه.

ويستمر «مواريى» فى حديثه : «كانت الشكوك دائمة، لسبب واحد، وهو إيمانا بأن شقاءنا وتضحياتنا لا عائد من ورائها ، ولا فائدة لها لمجد وطننا الحبيب وسعادته». كانت لتلك الروح الانهزامية أسباب كثيرة، أهمها المقاومة المستمرة فى الأقاليم ، وقد وصلت أنباؤها إلى «مواريى» وفرقته «هذه الأنباء جعلتنا نتوقف للتفكير بجدية، فقد ظن كثير منا أن مصر كلها ستقوم ضدنا ، وتهجم علينا فى سبيل سحقنا تحت وطأة حجمها الهائل . كانت تلك الفكـرة جديرة بإرعاب أى جيش غير جيشنا ،.... فالحقيقة أن حياتنا البائسة التى عشناها فى هذه الأجواء، جعلتنا لا نبالى بالحياة أو الموت » ... «كان البدو فى منطقة دمياط يجعلوننا ، دائما، نعيش وكأننا على شوك ،...، وكان القديس لويس قد نزل فيها فى الرابع من يونيو سنـة ١٢٤٩ ، عندما قام بأول حملة على الأرض المقدسة . ووقع أسيرا فى المنصورة فى العام التالى»: ذكرى لا تفارق الضابط «مواريى» ، وكأنها تذكرة دائما بضرورة الانتقام لتلك الهزيمة القديمة قدم القرون السالفة كم من الضابط لم يحلم إلا بهذا الانتقام فى جيش الثورة الإنسانية الأخوية؟. وتصلهم أخبار ثورة القاهرة الأولى وهم فى دمياط، فيصفها «مواريى» بالوحشية وتعليقه وحده يثبت إلى أى مدى كان الفرنسيون غافلين عن حقيقة مشاعر المصريين : «كنا نتخيل أن الرعب من أسلحتنا ، والقوة التى أخمدنا بها مثيرى الشغب ، سيفرضانا نهائيا على المهزومين . ولكن تحكمنا كان

خاطئا، لأننا سمعنا مباشرة بثورة القاهرة ،...، ولم تنته تلك الزوبعة، إلا وقامت زوبعة أخرى فى مصر السفلى . فقد قام (الإنجليز والأتراك) بنشر الكثير من فرمانات الباب العالى المزيفة ، كان يقال فيها إننا حضرنا إلى مصر على غير إرادة السلطان» . وهنا، علينا أن نشرح ما قد يبدو سذاجة من قبل «مواريى»؛ فالحقيقة أن الجيش الفرنسى كان يجهل أن السلطان لم يوافق يوما على قيام الحملة ضد مماليك مصر ، كما كان يزعم بونابرت . ومن عجائب سياسة بونابرت أنه كان يكرر تلك الأكذوبة ، إلى أن أرسل السلطان جيشا ليحاربه، فانفضح الأمر.

ولن نعود إلى مشاكل «مواريى» التى لا حصر لها ؛ فقد ظهر الطاعون بعد أن أصيب الجيش بالدوسنتاريا ، والتراكوما التى تسببت فى كف بصر كثير من الجند . يقول ضابطنا : «... فبدأنا نفهم مدى المخاطر التى تحاصرنا ، واستحالة العودة إلى الوطن، أو الاستمرار فى امتلاك هذه الأرض ، إلا إذا أرسلت لنا فرنسا مزيدا من المؤن» . ولكن كيف والإنجليز يحاصرون مصر بعد أن دمروا الأسطول الفرنسى فى «أبو قير».

ويسجل «مواريى» بفخر شديد أقوال بونابرت للمصريين بعد ثورة القاهرة - وقد قال القائد العام للمشايخ مايلى : «... بلغوا الشعب وعرفوه أنه منذ بدء الخليقة ، كان مكتوبا ، أن بعد تحطيمى لأعداء الاسلام، وبعد تكسيرى للصلبان سأحضر من أقاصى الغرب لأتمم المهمة التى وكلت إلىّ . أرشدوا الشعب إلى أكثر من عشرين فقرة فى كتاب القرآن المقدس ، تقول إن ما حدث كان مكتوبا؛ وكذلك أن ما

سيحدث كان مشروحا . فليعرف إذن من يلعننا ولا يخشى أسلحتنا، أن عليه تغيير مشاعره، لأنه إذا رفع إلى السماء دعوات ضدنا فهو يتمنى هلاكه . فليبارك المؤمنون الحقيقيون انتصار أسلحتنا».

«وأستطيع أنا أن أحاسب كل واحد منكم على مشاعره الدفينة فى قلبه ، لأننى عليم بكل شىء ، حتى مالم تبوحوا به لأحد. ولكن سيجىء اليوم الذى يرى فيه العالم أن كل المجهودات البشرية لاتستطيع شيئاً ضدى».

كانت تلك هى دروس الديمقراطيـة وتعليـم مبادىء الثورة التى كان يلقنها بونابرت لمصر . وهى طبعا تتلخص فى كلمتين .. تأليهه، والرعب منه . ويعلق «مواريى» على هذا الكلام قائلا : «أما منجمو مصر، فكانوا إما ضحية هذا الاسلوب العجيب، أو أنهـم أخذوا، سـرا، بعـض الرشاوى فهدأوا من ثـورة الشعـب (...) وتنبـأوا بطريقـة غامضـة، أن السلطان الفرنسـى سيتحـول إلى الدين الإسلامـى ، ويلـبس العمامـة، ويجعل الجيـش كلـه يتـبع قانون محمـد» . إن رجال الدين في عرف أتباع فلسفة التنوير، خاصة إذا ما كان أتباع هذا الدين من الهنود الحمر أو المصريين ، يلقبون «بالمنجمين» أى الدجالين . ولا يفطن «مواريى» إلى أن الثورة، بعـد دحـرها ، لـم تكـن تحتاج إلى من يهدىء من عنفها ، بعد القمع الرهيـب الذى ذهـب ضحيتـه آلاف الثائـرين لحريتهـم ، كما أن بونابرت قد أمر المشايخ ، بعد تهديدهـم ، بكبح جماح الثـورة ، ومـا فخـر «مواريـى» بلباقـة

القائد العـــام ، إلا مثل يعرفنا بما كان يراه أو يظنه الضباط المثقفون لجيش الحملة .

وتوجه «مواريى» مع حملة بونابرت على ما كان يسمى آنذاك بسوريا؛ وكان على الجيش أن يسير مرة أخرى فى الصحراء . فيقول كاتبنا : «ولكن المجاعة ازدادت شيئا فشيئا واضطررنا إلى أكل الجمال، والخيل وكل ماكنا نجده ، بينما كان المماليك تحت أعيننا ينعمون بموكب رائع من المؤن». ثم يصف «مواريى» ماحدث لهم بسبب الطاعون الذى أهلك ثلثى الفرقة التى كان ينتمى إليها .

وينقل إلينا «مواريى» التقارير الكاذبة التى سيرسلها بونابرت إلى حكومة «الإدارة» عن انتصاراته، وهو شاهد عيان على الهزيمة ، مما يثير غضبه واستياءه. يقول بونابرت مثلا : «بعد أن نقلنا الحرب إلى قلب سوريا ومعنا حفنة من الجند ، أخذنا أربعين من مدفعية الميدان، وخمسين من العلماء، وأسرنا ستة آلاف أسير، ومحونا تحصينات غزة ويافا وحيفا وعكا، ونحن نعود الآن إلى مصر ..» . يرسل بونابرت هذا الكلام إلى الحكومة فى فرنسا، و«مواريى»، والجيش كله، يعرف أن الحملة على الشام قد فشلت بفشل حصار عكا . وبدأت مرة أخرى العودة إلى مصر عبر الصحراء : «لم يكن بإمكاننا الشك أكثر من ذلك ، فعلينا الآن أن نعود أدراجنا فى هذه الصحراء البشعة ، حيث كان عذابنا كبيرا ،...، لم يعد مرضى الطاعون، والجرحى ، وكثير من الجند يتحملون عذاب العطش ، فكانت نهاية حياتهم فى هذه الصحراء

الفظيعة» كانت عودة قاسية ، حتى شبه اثنان من «المؤرخين الجدد» تلك العودة في حر الصحراء ، بما لقيه الجيش الفرنسي من عذاب في ثلوج روسيا سنة ١٨١٢ ، بعد هزيمته في موسكو وعلى الرغم من عذاب الجيش الفرنسي إلا أن تخريبه لم يتوقف . فيقول «مواريي» : «قام الجيش بنسف كل التحصينات ، وبحرق القرى وكل حقول الغلة التى وجدها في طريقه ، حتى يؤخر مسيرة أعدائه الذين يطاردونه؛ ولم يكن ذلك إلا النتيجة المؤسفة للحرب». غريب أن يقول جندى مخضرم مثل «مواريي» هذا التعليق : أتراه لم يقابل مثل تلك القسوة من قبل؟ . ويأمر بونابرت مدينة القاهرة بالاحتفال بعودته من الشام. وعلى الرغم من كل ما قاله «مواريي» من قبل، نراه يؤكد: «كان دخول القائد العام عند عودته إلى القاهرة سبب فرحة كبيرة للشعب (...). ولكن علينا أن نعترف أننا لم ندع الشعب المصرى يعرف إلا الأخبار التى كانت فى صالحنا، ومنها مثلا أننا قضينا كلية على عكا، وخربنا كل ضواحيها، وقتلنا كل الجند الذين كانوا يدافعون عنها، وأننا لم نترك سوريا إلا لأن الأقدار تنادينا إلى مصر ، إلى آخره . ولابد لك أن تعاشر هذا الشعب، لتتخيل مقدار جهله وسذاجته . وكانت النتيجة أن الدواوين والمشايخ وجهوا نداء إلى الرعية يطلبون منهم أن يساعدوا مشروعات هذا الرجل العظيم الذى كان، على حد قولهم، يقرأ القرآن كل يوم، لأنه سيتحول إلى الدين الإسلامى».

مرة أخرى، لا يرى «مواريي» – مثله في ذلك مثل باقى الفرنسيين – الشعب المصرى إلا كما يريد أن يراه هو. وهو يظن أن أوامر بونابرت

التى نفذها المشايخ المهزومون وهى ردود فعل تلقائية لشعب جاهل وساذج. والساذج هنا ، بلاشك، ليس الشعب الذى يصدق إسلام بونابرت، وإنما «مواريى» الذى ظن أن الشعب من السذاجة بحيث يصدق تلك الخدعة. وسنرى فيما بعد إلى أى مدى كانت رؤيته مجرد تهويمات صلف المنتصر وغروره الأعمى.

لا يكف «مواريى» وزملاؤه عن الحلم بترك مصر. ويعترف ضابطنا بحقائق مؤلمة قائلا: « قامت فتنة فى الاسكندرية هدفها تسليم المكان إلى الإنجليز، فكانت، علاوة على شكنا فى الانتصار، وازدرائنا وتعبنا، وأشياء أخرى كثيرة تجعلنا ، نحن الجيش، نريد ترك مصر» ... أليست تلك الشكوى مكررة وسبق أن قالها منذ وصوله إلى مصر؟

وينقل إلينا «مواريى» حديثا دار، على حد قوله ، بين الشيوخ وبونابرت، بعد عودته من معركة «أبو قير» الثانية ، التى انتصر فيها على الأتراك . ولنذكر أن «مواريى» – مثله فى ذلك مثل أفراد الجيش كلهم – لم يكن يتحدث العربية، وإليكم هذا الحوار:

«– سيدى الجنرال، لقد وعدت أن تصبح مسلما.

– أنا لم أعد بشىء . وعليكم أن تعرفوا أننى مسلم وقد أكون أكثر إسلاما منكم؛ وانكم إن لم تتصرفوا بطريقة صحيحة ، وأحسن مما تصرفتم حتى الآن، فسأعود إلى المسيحية، لأعاقبكم» : لم يكن «مواريى» من كبار الضباط حتى يحضر هذا الحديث المزعوم؛ ومع ذلك فهو يؤكد أن المشايخ اقتنعوا بكلام القائد العام.

وسافر بونابرت ؛ وإليكم تعليق «مواريى» على ذلك الحدث المفجع: «يختلف طبع كليبر المعروف، بعض الشىء عن طبع بونابرت، وجعلنا ذلك نأمل فى أنه سيفاوض أعداءنا ، ويعيدنا إلى وطننا . بونابرت كان لا يعمل إلا لحسابه الخاص، ولم يكن يهتم إلا بتقدمه على طريق النجاح؛ ولكن «كليبر» لم يكن يفكر فى نفسه ، ولا يهتم إلا براحة جنده وسعادتهم .. لو أن بونابرت استطاع الحصول على الحكم المطلق فى وطنه الجديد، لمكث فى مصر، ونحن ندفع له الثمن من دمائنا . إنه مثل قيصر، يفضل أن يكون الأول فى القاهرة على أن يكون الثانى فى باريس ، ... ، أما «كليبر» فلم تكن له أية مصلحة خاصة لإبقائنا فى بلد ، عرف بفراسته أننا لن نستطيع أبداً البقاء فيه ..».

لن نعجب بعد قراءة هذا الكلام لحالة التذمر التى اجتاحت الجيش الفرنسى أنذاك ؛ تذمر وصل إلى حد جعل «كليبر» يحل فرقة كاملة ، على الرغم من قسوة القرار.فعل ذلك عندما تمرد المدافعون عن حصن العريش، حتى أنهم سلموا الحصن للأتراك.

ومرة أخرى، نعرف رأى «مواريى» فى الشعب المصرى ، وهو يقول دون أية مواربة : «لم يكن من الممكن إخفاء أنباء مفاوضاتنا مع الوزير العثمانى عن الشعب المصرى . وحتى نمنع أى رد فعل متطرف ، لأن هذا الشعب مثله مثل شعب إيطاليا ، يتوجه دوما نحو المنتصر...»؛ ويفوت «مواريى» أن هذا شأن أى شعب فى بلد هزم جيشه ، سواء كان ذلك فى إيطاليا، أو مصر، أو حتى فرنسا . إذا هزم بلد وأصبح فريسة

مستعمر لا يستطيع محاربته بأسلحة متكافئة، فهو عادة ما «يتوجه» فعلا ، ولكن لأنه مجبر على الطاعة، والفارق كبير . أيا كان ، فهذا الكلام يدلنا على حقيقة مشاعر الشعب الإيطالى ..

إن كل صفحات هذه المذكرات تحكى على الدوام ، كل ما كان يقوم به الجيش من نهب وسلب، كما سبق أن قرأنا فى كتاب «فيفان دينون»؛ ومع ذلك «فمواريى» يقص علينا كيف وجه «كليبر» خطابا إلى المصريين، بعد أن قرر الرحيل عن مصر ، بعد مفاوضات العريش؛ يقول فيه : «إننا لا نترك أى ذكريات عنف ضدكم..»، وهذا الكلام يثبت لنا إلى أى مدى يمكن للمغالطة أن تصل . وهل نعجب بعد أن عرفنا أن «السلطان الكبير» تحول فى إدراك الفرنسيين إلى «أبى النار» (*) .

من الطريف أن «مواريى» يحكى ظروف العودة المنتصرة للجيش الفرنسى بعد معركة هليوبوليس (أى عين شمس) وكيف استقبلتهم مدينة القاهرة بالمدافع ، بينما كان الفرنسيون ينتظرون مواكب الفرح! يصف «مواريى» ما حدث بعد ذلك باقتضاب شديد : «كنا أحيانا نضرب المدينة بالمدافع أو نستولى على بعض المنازل فنحرقها فى الحال» .

«واقتحمنا حى بولاق الوقح البائس . وقد دافع عن نفسه بإصرار، وبعد ساعات من القتال ، كسرنا الأبواب ودخلنا بالقوة. كم دفع هذا الحى المسكين ثمنا لفتنته الطائشة! رأيت السكان وقد ذبحوا عن

* ارجع إلى الجزء الأول من هذه الدراسة.

آخرهم، بينما المنازل تحرق بعد أن نهبت على أيدينا ولم يعد ممكنا لمن رأى بولاق من قبل أن يتعرف عليها بعد تلك الأفعال المحزنة القاسية، وما ذلك إلا نتائج حق الحرب البشع. كأن جهنم قد انتقلت إلى المدينة».

نذكر القارى أن صاحب هذه الكلمات جندى محترف، حارب كثيرا من قبل ومن البديهى أن ما رآه هنا يفوق ، بكثير ما تعود عليه فى الماضى. ولكن كلمة «بولاق الوقح البائس» تلفت نظرنا ، فالازدراء موجود ، حتى وإن امتزج بالشفقة.

ثم ننتقل إلى الصفحات التى يحكى فيها «مواريى» كيف بدأ «كليبر» يستعد لزيارة الدلتا : «بدأت الشائعات، وقيل إن كليبر سيفعل مثل بونابرت، وأنه سيهرب إلى فرنسا، ويأخذ معه غنائم عديدة ماهى إلا نتاج أعمالنا وتعبنا» .. ولكن «كليبر» يُقتل: «كان بيننا عقول مضللة ، أو سيئة النية ، قالت إن كل تلك الاحتفالات بدفن «كليبر» ماهى إلا أكذوبة، لأن الجنرال قد رحل إلى فرنسا ... وأن نعشه خال ، ولكنه دفن فى حفل مهيب لإلغاء خبر سفره» . إنها دلالة على الحالة النفسية لجيش فقد كل مقومات الثقة فى قواده ، ثم نقرأ بيان الجنرال «عبد الله مينو» إلى جنده:

«وصلتنى شكاوى بالغة الخطورة ،..... أيها الجند ، كونوا كرماء مع المصريين، ولكن ماذا أقول . إن المصريين اليوم هم الفرنسيون؛ إنهم إخوانكم . فاعرفوا كيف تحترمون الشيخوخة ؛ كيف تحترمون النساء؛ كونوا عادلين ..» . كلمات مقتضبة، لها دلالتها . وتعرفنا كيف يعامل

الجند الشعب نساءً وشيوخا، وتشرح لنا كيف ستكون الحال لو أن الجيش استمر هكذا فى تلقين مبادى الثورة الانسانية للمصريين.

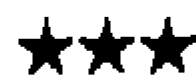
وكلمات «مينو» غاية فى البلاغة: إنه مقتنع تماماً أن مصر أصبحت فرنسية، وأن المشروع الاستيطانى فى طريقه إلى التنفيذ، بعد أن سافر بونابرت بسبب فشل المشروع، وتأكد «كليبر» من استحالة تنفيذه، ففاوض الباب العالي على هذا الأساس. وها هو رأى «مواريى» نفسه في الموضوع: «لو أن القدر أراد لنا مستوطنة دائمة فى مصر، لما كان لأحد أن يجعلها تزدهر أكثر منا ولا أن يقويها أكثر منا؛ ولكن يبدو أن هذه المنطقة التعسة، التى كانت غاية فى الثراء والتنوير ، محكوم عليها بالبربرية لأجل طويل ، محكوم عليها بالبؤس والخرافات المؤسفـــة». ونرد على «مواريى» بقول المفكر الفرنسى الكبير «ألكســى دى توكفــيل»، فى تقريرة عن استعمار الجزائر ، فى عام ١٨٤٧ : «لقد انطفأ التنوير من حولنا ... لقد جعلنا المجتمع المسلم أكثر بؤسا، وأكثر فوضى، وأكثر جهلا وأكثر وحشية مما كان عليه قبل أن يعرفنا» (٧). ولكن ألا نفهم من كلام «مواريى» خيبة الأمل أمام فشل المشروع وازدرائه الكاذب لما لا يستطيع أن يصل إليه؟.

يؤكد هذا الشرح ما سينقله ضابطنا عن «مينو» بعد ذلك، بما فيه من تناقض وأسف : «تذكــروا أننــى دائـــما مسئــول عــن الحفاظ على مصالح الجمهورية (الفرنسية) ، ومصالح الجيش ومصالح شعب مصر الذى أتولى حكومته . تذكروا أنه يجب علىّ من أجل الوصول إلى

هذا الهدف، أن أنتزع من مصر كل مواردها المادية التى تستطيع أن تزودنا بها، وأن أعمــل ، فى الوقت نفسه، على إسعاد الشعب الذى يسكنها » . ونعجب للاعتراف بما كانوا يسمونه «سياسة الليمونة المعصورة» ، مع ضرورة إسعاد شعب «تنتزع» موارده كلها من أجل جيش بلد آخر. وكان من حق الرجـل أن يشكــو ، فالمعادلة حقا مستحيلة .

ثم تتوالى الأحداث ، ويحاصر ما تبقى من الجيش الفرنسى فى الاسكندرية ، حيث نجد فى خطاب التاسع من يوليو سنة ١٨٠١ ، وصفا لحالة البؤس ، والمجاعة والأمراض التى يعانى منها الجميع . ثم يتم أخيرا ترحيل الجيش ، فيقول «مواريى» : «تركنا ونحن فى أعظم فرحة ، هذه المنطقة ، المضرة للفرنسيين القدامى والفرنسيين المعاصرين، هذه المنطقة الموبوءة بكل آفات البشريــة ، من الطــاعون إلى العمى..» (٨).

ونلاحظ مرة أخرى أن صورة «الفرنسيين القدامى»، أى الصليبيين لا تفارق، حتى آخر لحظة ، مخيلة «مواريى» ، أحد ضباط الحملة المخضرمين .



وتنتهى مذكرات «مواريى» مع رحيله إلى فرنسا؛ وتثبت لنا هذه المذكرات ، أن ضابطا ممن كانوا يتمتعون بثقافة تاريخية وأدبية لا بأس بها فى ذلك العصر، لم يفكر لحظة واحدة فى مخالطة المصريين و«تنويرهم»، على حد قول المستعمرين، ولا يكن لهم إلا الاحتقار

والازدراء، كأي غاز متعجرف ، في ذلك العصر وفي كل العصور. ولن نراه يتبادل الحديث إلا مع جارية شركسية، اتصلت به وحاولت الفرار معه، فالنقيب «مواريي» جندي محترف لا يفكر إلا في الانتصارات الحربية ، والانتقام للهزيمة التي لحقت بأجداده . وكانت غالبية الجيش ، إن لم يكن كله ، على شاكلته : كانوا كلهم جندا محترفين مثله ، لم يجدوا في مصر المتعة التي كانوا ينتظرونها في بلد ثم فتحه ، لأن واجب البلد المهزوم ترفيه الجيش المحتل، وإشباعه قبل كل شيء ، ولا يفوتنا أن نلاحظ أن المشروع الحضاري لم يجد فرصة واحدة للتنفيذ .. هذا إن كانت هناك ، أساسا، نية جادة لتنفيذه.

★★★

كليبر فى مصر

قرأنا ما كتبه أربعة من معاصرى الحملة وعرفنا أن ثلاثة منهم قد عاشوا – بالفعل – أحداثها ، ورأينا أن ذكرى هزيمة الملك لويس التاسع فى القرن الثالث عشر ، والرغبة المحمومة فى محو تلك الذكرى الأليمة بانتصار جديد ينتقم للماضى السحيق ، هى التى جمعت ما بين النبيل الصليبى ، والفنان المفتون ببونابرت ومشروعه الاستعمارى ، والضابط المحترف المثقف ؛ وهى أيضا التى رسمت لهم توجهاتهم وسيطرت على كتاباتهم. ولأسباب لا علاقة لها بحقيقة الأحداث ، لم يجد القارئ فى كتبهم إلا إشارة عابرة لذلك المشروع الذى اتصفت به الحملة فيما بعد ، ولم تؤكد تلك الأسباب إلا بعد ذلك بعدة عقود .

شاهدنا أيضا معهم تلك الأحداث فى عنفها الدموى ، ولم نر ، خلاف ذلك ، إلا «حديقة صغيرة» فتنت «شاتوبريان» الذى نرجع إعجابه بها إلـى أنـه ربما لم ير – سنة ١٨٠٥ – أثرا ملموسا للفرنسيين يفخر به ، غيرها (*).

قد يقال إن تلك الكتابات سطحية ، ترى التفاصيل دون أن تفصح عن حقيقة المشروع من ورائها ، كما خطط له كبار القادة ، وقد يقال إن تلك الكتب الأربعة ليست بأكثر من انطباعات شخصية .

---

* كما قرأنا فى الجزء الأول: عصر الأساطير .

ولكن ما القول عندما تعرض علينا أوامر قائد نستشف من خلالها واقع الأمر بموضوعية ؟ ولذا ، فإننا فرحنا لنشر مكاتبات كليبر وهو من أكبر كبار القادة الفرنسيين ، حتى أن بونابرت ترك له القيادة العامة عند رحيله المفاجىء ، وإن كان ضابطا صغيرا مثل «مواريى» لا يهتم إلا بحياته اليومية ، ولم نسمع منه أنه تلقى يوما أمرا غير عسكرى ، إلا أن نيات القواد قد تكذب ذلك الجهل بالنيات الحسنة للحملة ، فمن البديهى أن مكاتبات كليبر لابد أن تزيح الستار عما أراده مخططو الحملة ، فى جانبيها العسكرى والفنى . وقد ظهر فى أربعة أجزاء كتاب «كليبر فى مصر ، ١٧٩٨ - ١٨٠٠» (٩) ، يعرض فيه «هنرى لورانس» ما وجده من أوراق كليبر قبل وبعد توليه قيادة الحملة .

وكما سبق أن قرأنا الكتب الأخرى ، فإننا لن نهتم إلا بما يساعدنا على معرفة حقيقة تلك الحملة ، التى حملت رسالة حضارية ، بل وإنسانية ، لم نقابل حتى الآن ما يمكن أن يعضد وجودها قد تكون مكاتبات كليبر - نظرا لأهمية دور الرجل فى استعمار مصر - هى الفيصل فى تقييم حقيقة تلك الحملة ، التى نراها حربا استعمارية مثلها مثل حروب الثورة الأخرى فى أوربا نفسها ، وإن اختلفت معاملة الجيش لشعب يختلف عنه جنسا ودينا ولغة ، وحسب منهجنا ، ونظرا لتكرار الأوامر نفسها بعد الأحداث نفسها ، لأن السياسة فى معالجة الأمور واحدة ، فإننا لن نعرض إلا ما يبدو لنا مثاليا فى تصوير تلك السياسة ، وما كانت تقابله من صعوبات ، وما كانت تلجأ إليه من حلول لمشاكلها .

أما باقى تلك المكاتبات فمراسلات إدارية ، وأوامر تنظيمية وتحركات الضباط وتنقلات الفيالق ، ولا تعنى شيئا بالنسبة لقضيتنا .

★★★

نقابل كليبر ، أول ما نقابله ، حاكما على الإسكندرية فقد جرح فى رأسه ، إثر الهجوم على المدينة ، واستلزم علاجه بقاءه هناك ، فعينه بونابرت حاكما عليها ، كما عين «مينو» حاكما على رشيد . وكتب كليبر، بصفته حاكما ، عدة خطابات إلى بونابرت ، وإلى الجنرالات الآخرين ، كما كتب العديد من البيانات لجنده وسيساعدنا ذلك الكم الضخم من المكاتبات على تقييم حقيقة الوجود الفرنسى فى مصر ، من حيث الموقع المتميز لكاتب تلك الخطابات والبيانات .

ويكون أول بيان يلفت نظرنا ، تصويرا فجاً لحقيقة الأمور :

«العاشر من يوليو ١٧٩٨ : لقد بلغ الجنرال أن كثيرا من الفرنسيين يتبولون ويتبرزون بجوار المساجد والمقابر : ونظرا لأن هذا الأمر يجرح الاحترام الذى وعدنا به الدين الاسلامى بصفة خاصة ، فعلى القواد (أن يمنعوا حدوث مثل هذا التصرف فيما بعد)». فالأوامر شىء – وهى تصدر عادة عن فكرة سياسية بعينها ، وهى كسب ود المصريين خاصة المسلمين منهم – والحقيقة التى تنفذ شىء آخر : لا علاقة طبعا بين عقلية الجند والهدف السياسى وهو احترام دين الغالبية من سكان البلد المستعمر؛ فالجند أناس بدائيون ، لا يعرفون معنى الحضارة حتى ينشروا تعاليمها، وتلك الحادثة ، فى ذاتها ، دليل واضح على أنهم بعيدون كل البعد عن أية فكرة للتعاطف مع الشعب ، الذى قيل إنهم

حضروا ليجلبوا له الحرية والتنوير ، إن كانت تلك الفكرة قد وصلت إلى أنفار الجيش البسطاء .

فأفكار المثقفين الذين يزينون الحملة بالنيات الحسنة ، غريبة تماما على جمهور هؤلاء الجنود الجهلة ، كما سبق أن تعرفنا على أحدهم فى قصة «بلزاك» الشهيرة «طبيب الأرياف» (*) .

ننتقل بعد ذلك إلى ما تبع هذا البيان من خطابات وبيانات أخرى ، نقرؤها حسب تأريخها : «الحادى عشر من يوليو سنة ١٧٩٨ : الجنرال المواطن ، بحارة الأسطول الذين يقودون السفن ، والذين أمر بإرسالهم إلى اليابسة ، يتسببون فى أكبر فوضى . وقد اشتكى لى قائد أبو قير منهم مر الشكوى فهم لا يكتفون بقطف الثمار ، ولكنهم يقتلعون الشجر من الجذور. ولك أن تتخيل كم يتسبب هذا التصرف فى الإضرار بنا أمام سكان من مصلحتنا مراعاتهم» ، لاحظ كلمة «مصلحتنا» ، وهى طبعا محور كل التعاملات. ومرة أخرى ، نرى أيضا التناقض بين فكرة القائد الذى يرغب فى اكتساب مودة الشعب المستعمر لغرض فى نفسه، وبين جنود يعيشون الحقيقة ، وهى حقيقة جيش مستعمر ، يتصرف بحرية مطلقة ، بل وبغوغائية تامة ، فى بلد مفتوح .

وتبدو هذه الحقيقة جلية ، عندما قام سكندرى بطعن طوبجى بحرى فرنسى ، ثم هرب ، فظهرت أنيات من يخطب ود الشعب : قبض فى الحال ، على ثمانى رهائن ، ثم اتسع الأمر ، وأخذت رهينة من كل حى

* كما أسلفنا فى الجزء الأول من هذه الدراسة.

.. ويشرح لنا البيان التالى حقيقة أمر الجيش مع أهل البلد من خلال تلك الحادثة :

«أيها الجند ، ستتعرضون لمثل هذه الحوادث ، ما دمتم لا تنصاعون لأوامر القائد العام ولا تحترمون أملاك الأهالى ، وعاداتهم وعقيدتهم ، ونظرا لأننى ملزم بحمايتهم ، كما أننى ملزم بالسهر على أمنكم ، فقد وجدت نفسى مجبرا على إصدار الأوامر التالية ، بعد ما سمعته من تجاوزاتكم وفوضاكم :

المادة الأولى : من دخل حريم مسلم ، سيعتبر محرضا على الفوضى ، متهما بالقتل ويعاقب بالإعدام .

المادة الثانية : من تسلق سوراً لبيت مسلم ، أو لأى بيت آخر ، أيا كانت حجته ، سيعتبر لصا ، ويعاقب بالإعدام .

المادة الثالثة : من اصطاد داخل المدينة ، وأطلق نار بندقيته على الحمام ، وعرض السكان للموت أو الجرح ، كما سبق أن حدث ، سيعتبر قاتلا ، ويعاقب بالإعدام ...» ، (الخ) ..

ولم نسمع أن أحدا عوقب بعد ذلك ، وكأن الجند تحولوا ، فجأة ، بعد هذا التحذير ، إلى ملائكة ، لا يضرون أحدا ولا يستهزئون بمشاعر أحد. ولم نعرف أيا من تلك الجرائم اقترفها ذلك الطوبجى البحرى المطعون، فقتله السكندرى طعنا ، ولكن جملة كليبر «.. كما سبق أن حدث » ، تثبت أن تلك الأفعال كانت شائعة .

«الرابع عشر من يوليو سنة ١٧٩٨ ، إلى مينو ، قائد رشيد : من

السهل الحصول على وسائل نقل ، لإحضار مؤن إلى هنا ، لولا أننا قد نسينا أن السياسة تمنعنا من المصادرة ، وبالتالى ، فلابد من إيجاد المال الضرورى لنا». وبسبب ذلك الاحتياج ، سنراهم يتوسعون فى السياسة المضادة لرغبتهم الأولى - إن كان لها أية قيمة غير إعلامية فى واقع الأمر - ويصادرون كل ما يحتاجون إليه .

«أخذت كتب قانون ، مكتوبة بلغة البلد ، من بيت المفتى . فمن كانت معه تلك الكتب ، عليه أن يعيدها إلى قائد المنطقة. وبما أنه لا شك فى أن المصادفة البحتة هى التى أوصلتها إليه ، فلن نعاقبه على هذا الشأن ...»

«المسلم الذى قال إنه سيضرب الفرنسيين ، ضرب على بطن قدميه مائة ضربة عصا بأمر الشريف كان هذا أمام فرقة فرنسية» .

على الرغم مما ورد فى البيان سالف الذكر شديد اللهجة ، الموجه إلى الجند السارقين ، إلا أن اللص الفرنسى لن يعاقب ، بينما تصادر حرية الكلمة لدرجة أن أحد المصريين يعاقب أشد عقوبة لمجرد أن تفوه بتهديد خاوى المعنى ، لا يعبر إلا عن ثورة غضب عابرة نتيجة للاستفزازات الفرنسية. ونرى الشريف ، وكان ، آنذاك السيد كريم ، يتولى بنفسه تنفيذ أمر الفرنسيين ، وضرب «المسلم» بالعصا. كانت تلك سياسة كريم التى أوهم بها الفرنسيين أنه يتعاون معهم ، وهو يدبر فى الوقت نفسه حركة المقاومة إلى أن انكشف أمره ، وحكم عليه بالإعدام .

«السابع عشر من يوليو سنة ١٧٩٨ : إن خشب التدفئة هو أكثر ما

ينقصنا بعد المال ولذا فقد ذهب الجند إلى ممارسة أفعال يصعب السيطرة عليها ؛ فقد سرقوا حتى السواقى وناعوراتها» : وكان ذلك - بطبيعة الحال - خير دليل على جهل الجنود ، إذا تسببت تلك الأفعال فى تهديد الإسكندرية حيويا ، فقد شحت مياه الشرب ، ثم منعت بعد ذلك.

طعن سكندرى آخر جنديا فرنسيا ، فحكم عليه بنسف منزله ، ولكن الجندى الفرنسى لم يمت ، وطلب العفو عن السكندرى . فكتب كليبر فى ذلك الشأن قائلا : «فليقنع هذا المثل للكرم الفرنسى المسلمين أننا - عندما حضرنا لنخلصهم من اضطهاد المماليك - لم نكن نبتغى إلا حسن التفاهم الذى تحتمه السياسة والحكمة على الأمتين كلتيهما»، هذا ما قاله فى العلن ، ولكنه ، فى الحقيقة كان لا يوافق على مثل ذلك «الكرم» ، فهو يكتب فى التاسع عشر من يوليو سنة ١٧٩٨ إلى بونابرت قائلا : «لا أمل لى فى إحراز أى نفع من وراء مثل هذا الكرم : فهؤلاء الناس يأخذون كل علامات الطيبة التى أعبر عنها ، على أنها دلالات ضعف ؛ ومن جهة أخرى ، إذا ما أثبتّ نوعا من الحزم ، ولا أقول صرامة ، تجدهم جاثين عند قدمى ». ثم يقـول للجنـدى المطعون : «أيها المواطن ، إنك أول من ضربته خناجر التعصب الدينى المسلم الأعمى..» : نلاحظ مرة أخرى أن فكرة دفاع المصريين عن حريتهم الحقيقية أو كرامتهم لم ولن تخطر لحظة واحد على بال أى من الجند الفرنسيين أو ضباطهم ، وعلى ذلك فإن أية مقاومة أو ثورة تحدث فى أى

مكان ، سواء كانت فى الإسكندرية أو القاهرة ، أو الأقاليم أو الوجه القبلى ، فهى تعزا دائما إلى «التعصب الدينى المسلم الأعمى» كما سبق أن قرأنا فى الكتب الأخرى .

«التاسع عشر من يوليو سنة ١٧٩٨ ، إلى بونابرت : إن المتطلبات التى تجد ، تهاجمنا باستمرار ، قد أجبرتنى على طلب مقدم من تجار هذه المدينة ، ثلاثون ألف جنيه ، لحين تحصيل الجمارك . وسأرسل هذا المبلغ ، على الفور ، إلى خزينة أمين الصندوق الذى يستغيث » . نذكر طبعا ، أن سياسة حكومة «الإدارة» كانت أن يعيش الجيش على خيرات البلد المفتوح ، الذى ينهب إلى أقصى درجة ، وكانوا قد سموا هذه السياسة رسميا وبحق «سياسة عصر الليمونة» . وجاء الجيش إلى مصر، على أنه فى بلد غنى سيجد فيه الجيش كل ما يحتاج إليه ، بل وسيثرى أيضا كما حدث فى إيطاليا التى نهبت عن آخرها . ولكن موارد مصر أثبتت عجزها حتى عن سد متطلبات الجيش .

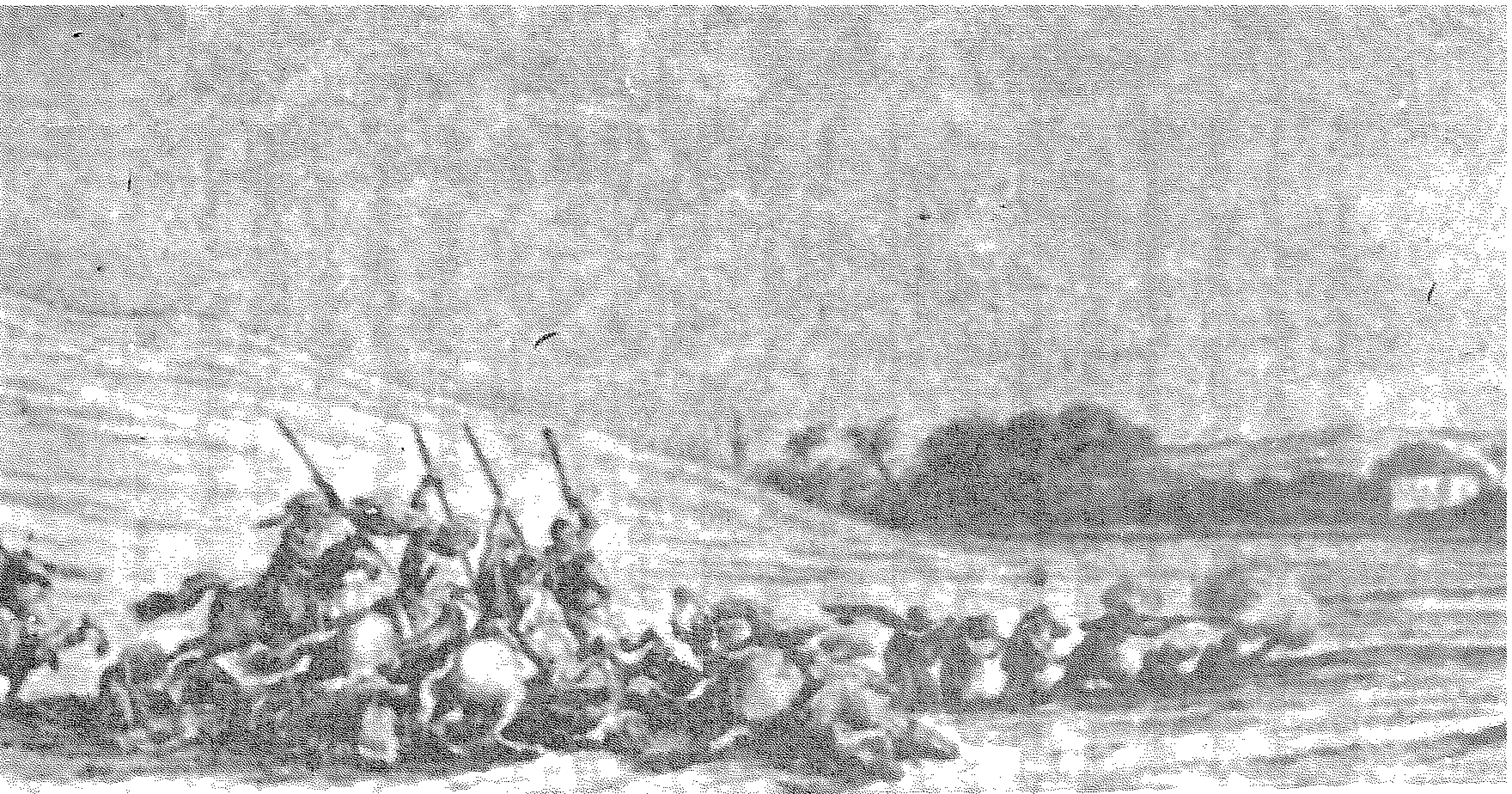
«الحادى والعشرون من يوليو سنة ١٧٩٨ : ... سأكتفى بمبلغ الخمسة عشر ألف جنيه قيمة السلفة التى قدمها التجار الفرنجة والمحايدون ؛ أما بالنسبة للمسلمين الذين لا يقدرون رأفة الأمة الفرنسية، وكرمها ، فقد فرضت عليهم ضريبة مائة ألف جنيه تدفع فى ظرف أربع وعشرين ساعة ، وسيبقى أربعة من أهم التجار الموجودين هنا ، تحت سيطرتى لهذا الأجل ، وقد انسحبت بعد إصدارى هذا الأمر ؛ فحاولوا التحدث معى ، لكنى أمرت بإبلاغهم أننى لن أستمع إلى أى شىء حتى

يصل المبلغ إلى خزينة أمين الصندوق» . سنقابل ، كثيرا ، ذلك النوع من تناقض الكلام ، الذى ينبىء عن منطق خاص جدا بهؤلاء القوم المتحضرين؛ فبينما يتحدث كليبر عن «رأفة الأمة الفرنسية وكرمها» ، نجده فى اللحظة نفسها ، يحتجز الرهائن ويفرض الضرائب الباهظة .

نقرأ بعد ذلك عن المقاومة خارج الإسكندرية : «الحادى والعشرون من يوليو إلى الجنرال مينو : ذهب الجنرال دوموى مع رتل من الجنود إلى دمنهور (ليعاقبها على تمردها) ، ولكن البدو من سكانها استقبلوه استقبالا سيئا للغاية ، فعاد إلى الإسكندرية مسرعا دون أن يذهب إليك كما كان مخططا، وقد فقد فى هذه العملية ثلاثين أو أربعين رجلا»، الرابع والعشرون من يوليو سنة ١٧٩٨ : «أنا محاط بالبدو من كل جهة . فما حدث «للدوموى» فى دمنهور جعلهم أكثر جرأة . لقد نزلنا على ثلاثين أو أربعين من البدو بالسيوف تقطيعا على بعد نصف فرسخ من المدينة ، واليوم يزخر بهم الوادى ، وسنضربهم بالسيوف مرة أخرى» .

ولكن النغمة التى لم ولن تنقطع ، تستمر : «الثلاثون من يوليو سنة ١٧٩٨ : لقد أخبرت الفرقة أنه لن يوزع عليهم ، مستقبلا ، لحم بقر مملح ، وستحل البقول محل هذه الأكلة مؤقتا » ، فقد كان الجيش فى مجاعة يرثى لها ، وستكون تلك المجاعة من أهم أسباب انهيار مينو ، وفى الإسكندرية أيضا ، فى آخر أيام الحملة .

ويستمر البدو فى هجومهم الخاطف : «الحادى والثلاثون من يوليو سنة ١٧٩٨ : خرج اثنان من فرسان البدو من كمين، وقتلا أحد الفرنسيين بطلقة مسدس، وجرحا الآخر فى مقتل ، سيكون ذلك دائما



«هجوم البدو عند أسوار القاهرة» (وهو اعتراف بما تكبده الفرنسيون من جراء تلك الهجمات)

جزاء استهتار جندنا»، فقد كان البدو يتصيدون أى جندى خارج صفوف جيشه. وقد قاموا ، أثناء الحملة ، بالدور الذى قام به فرسان القوقاز أثناء غزو روسيا بعد ذلك بسنوات ؛ وكان يساعدهمْ على تلك الهجمات الخاطفة ، سرعة جيادهم وصغر حجمها .

ونقرأ بعد ذلك خطابا من السيد كريم : «حتى الصهاريج والأدوات الخاصة بالرى ، حطمها الجند عند دخولهم » ، وكان هذا الخطاب سبب بيان إلى الجند : «فى السادس من أغسطس سنة ١٧٩٨ : ... رأى الجنرال كليبر بسخط شديد تصرفات لا تغتفر لبعض الجند الذين تسيطر عليهم روح تخريبية ، ولا يراعون المصلحة العامة ؛ أهدروا هذه المبانى، ويمنعون اليوم مَنْ يقومون بإصلاحها من إتمام عملهم ...». نتعرف مرة أخرى ، على تصرفات الجند الجهلة الذين لا يدركون نتائج تخريبهم ، رغم أنهم أول من يقاسى منها ، إذ لن يجدوا ماء للشرب بعد ذلك ، وهذا خير دليل على مستواهم الثقافى. ويعبر المثل التالى تعبيرا دقيقا عن حقيقة شخصيتهم : «وصل إلى الجنرال كليبر أن رجالا فى خدمة الجمهورية ، غير جديرين بلقب فرنسى ، يبددون ما يتسلمونه من المخازن ، ويبيعون للأفراد حتى أسلحتهم ..» .

وبعد معركة «أبو قير» البحرية ، التى قضت تماما على الأسطول الفرنسى ، نقرأ ما يلى : «إلى القائد البحرى جانتوم فى الثامن من أغسطس ١٧٩٨ : أبلغنى الجنرال دوموى أن نصف البحارة وصغار

الضباط البحريين الذين مركزهم الكابتن بارريه في بحيرة سابيس ، قد فروا من الخدمة» .. ترى أين ذهبوا ، وكيف كانوا يعيشون؟!

«الثالث عشر من أغسطس سنة ١٧٩٨ : المواطن الكومندان ، نحن على علاقة ودية بقبائل من العرب المسلمين الذين يساهمون في ازدهار الرخاء هنا ، ويحضرون لنا الحيوانات والمؤن المختلفة . وقد بلغني أن كثيرا منهم قد أهينوا وارتكبت ضدهم أعمال عنف» : بدأت علاقة الفرنسيين بالعرب بداية سيئة في الإسكندرية كما سبق أن قرأنا ، ولكن خيانة الجيش الفرنسي هذه ، لا تشرح ، طبعا كل ما تكبده بعد ذلك من حرب العرب المقاومين له؛ ويوضح لنا هذا الخطاب طريقة معاملة الجند حتى لأصدقائهم من البدو .

«الخامس عشر من أغسطس سنة ١٧٩٨ : إن أول استجواب لأخي عبد الكريم يجعلنا نأمل في الحصول على موارد سخية من المال، ستفي بمصروفات هذا الشهر ، وهكذا ينتهي على الأقل موضوع من الموضوعات التي تقلقنا» : إن ما فعله الفرنسيون في سبيل الحصول على ممتلكات السيد كريم وأمواله يجعلنا نعتقد أن السبب المباشر للقبض عليه قد يكون الطمع في ماله ؛ لقد قالوا إنه رفض دفع الفدية التي طلبوها منه بسبب بخله ، ويبدو أن المبلغ كان أكثر بكثير مما كان يمكن أن يدفعه ، فنفذ فيه حكم الإعدام ولو أنه دفع الفدية ، لما قتلوه ؛ فالمسألة كلها إذن تهديد للحصول على المال ، كما يفعل قاطع الطريق إذا خاب أمله في استسلام فريسته .

«الثامن عشر من أغسطس ١٧٩٨ : ... ومن أجل هذا ، فعلى قائد الرحمانية أن يقبض على بشير شاوس وبطاني شاوس وشريف شاوس والأمير إبراهيم قائد دمنهور ، ويصدر أوامره لاثنين منهم ، ويحتفظ بالآخرين كرهائن إلى أن تصل الجياد والرجال إلى الإسكندرية». فكان الإرهاب المستمر هو وسيلة الحصول على متطلبات الجيش ، ونلاحظ أن أخذ الرهائن كان شيئا عاديا بالنسبة لهم لضمان تلبية طلباتهم ، مما يدل على حالة عدم الأمان المستمرة التى كانوا يعانون منها. وتدل الرســـائل التالية على أنهم كانوا فى حاجة ماسة إلى الاستيلاء على أى شىء ، كى يخرجوا مما أسماه كليبر «حالة البؤس التى (يعانون) منها » :

«إلى بونابرت فى العشرين من أغسطس سنة ١٧٩٨ : أيها الجنرال المواطن ، ألفت نظركم بصفة خاصة إلى أحوالنا المالية . الإنجليز لا يسمحون بدخول أية سفينة أو خروجها . وقد توقفت التجارة تماما ، والجمارك التى كنتم تأملون فى ريعها ، لا تنتج شيئا بتاتا » . «إلى الجنرال مينو فى الحادى والعشرين من أغسطس ١٧٩٨ : إن حظنا وملاكنا الحارس هما وحدهما اللذان يستطيعان إخراجنا من حالة البؤس التى نعانى منها» .

«إلى بونابرت فى الثالث والعشرين من أغسطس ١٧٩٨: إن الجمارك التى كانت توفر فى الماضى حوالى خمسين ألف «إيكو» (١٠) شهريا ، لن تنتج مليما واحــدا مادام الإنجليز يسدون الميـنـــاء ، ومادمنا لا ننعم بالهـدوء فى داخل البلاد» . ونلاحظ أن الجملة الأخيرة

ستترد كثيرا وكأنها لازمة للترنيمة الأخرى : من أين الموارد ، والأمن غير مستتب؟

«إلى الجنرال بونابرت فى السابع عشر من أغسطس سنة ١٧٩٨ : أيها الجنرال المواطن ، لدينا وسيلة أخرى تجعل المسلمين يباركوننا وهى أن نعدهم برد المائة ألف جنيه ، التى أوجبنا دفعها للمجهود الحربى ، عقابا لهم على الصعوبات التى أثاروها فى تغطية سلفة الخمسة عشر ألف جنيه فى الوقت المناسب ، عندما طلبتها ، ... ، لاحظت أيها الجنرال المواطن ، أن هؤلاء الرجال لا يقبلون أية ضريبة مباشرة ، بينما تراهم متمرسين على دفع الضرائب غير المباشرة وقبولها » .

ثم ها هى المواد التى تنظم وظائف الديوان السكندرى ، تفضح ما قيل عن الدور الديمقراطى لتلك المجالس . ونأخذ بعضاً من بنود تلك اللائحة التنظيمية لنرى حقيقة أمرها :

«الديوان السكندرى :

... فقوتهم إذن قوة معنوية ووسائلهم وسائل إقناع .

(وظيفتهم الحفاظ على الهدوء) وإذا احتاجوا مساعدة خارجية فعليهم التوجه إلى الحاكم الفرنسى .

المادة الثالثة : وسائل التأكد من الهدوء الداخلى والخارجي ولا يستعمل الأغا القـــوات التي يأتمـــرها إلا بعد إخطار الحاكم الفرنسى (...) .

المادة السادسة : أعضاء الديوان سينهمكون بصفة خاصة فى الحفاظ على الوفاق (بين الجيش و) شعب الإسكندرية ، هذا الوفاق الذى نتمتع به منذ فترة والذى سيجلب السعادة للجميع » .

نستخلص إذن أن دور الديوان الوحيد هو فى الحقيقة ، الحفاظ على أمن الفرنسيين من غضب السكان وثورتهم؛ وعلى الرغم من ذلك فإن أعضاءه لا يتحركون إلا بإذن من القائد الفرنسى ، حتى فى هذه المهمة التى يقومون فيها بوظيفة الشرطى التابع للمستعمر الفرنسى .

«إلى الجنرال بونابرت فى الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٧٩٨ : نظرا لما أنا مقتنع به من أن السلام القوى لا يضمنه إلا وجود رهائن ، فقد رفضت أن أستمع إلى أى اقتراح قبل أن يسلموا لى أربعة من دمنهور نفسها ، وشيخ من كل قبيلة من القبائل الأخرى ، وقريب لكل شيخ من المشايخ الآخرين لهذه القبائل نفسها ... وسأرسل أهمهم إليكم فى القاهرة ، وحينئذ سنتمكن من تنظيم الضرائب · وفى هذه الحالة ، نأمل وصول دفعة جديدة من الجياد العربية» . «تنظيم الضرائب» هو إذن الهدف الوحيد لهذا «السلام القوى» الذى ينشده كليبر .

«إلى اللجنة الإدارية فى الخامس من سبتمبر سنة ١٧٩٨ : أرسل إليكم بيانا عن توزيع ضريبة المائة ألف جنيه التى سبق أن فرضتها على المسلمين»، وفى اليوم التالى ، فى خطاب إلى بونابرت بتاريخ السادس من سبتمبر : «أمرت فورا بمساهمة مسببة ، قدرها أربعمائة ألف جنيه كما سترون فى القرار التالى ،...، ليس هذا كل شىء ، ولكن مسئول

المال القبطى أمر فى الوقت نفسه بالاستيلاء على مائة وستين قنطارا من الزيت، وهكذا ، فبينما أمرت أنا بمساهمة قدرها ثلاثمائة ألف جنيه من جهة ، يكون هو قد تحرك من جهة أخرى . لا أعرف إن كانت الإسكندرية قد مرت فى عهد المماليك ، بمثل هذا الأسلوب العنيف ،...، وهكذا سيدخل مبلغ صاف من مائة وتسعين ألف جنيه»، يعترف كليبر إذن لأول مرة ، وبعد وصولهم بشهر واحد ، أن المماليك أنفسهم لم يلجأوا إلى مثل طغيان الفرنسيين وجبروتهم فى تكبيد الأهالى ما يفوق طاقتهم من ضرائب ، ولا يسعنا هنا إلا ذكر ما قاله «فيفان دينون» فى هذا الموضوع نفسه .

«إلى المواطن برتليمى، فى الثالث عشر من سبتمبر سنة ١٧٩٨ : ستتوجهون إلى قرية غطاس ، ولتقبضوا على كل من يقاومكم، واحتجزوا النساء والأطفال والشيوخ بعناية . أما عرب القرية الذين سيموتون فى هذه الحملة ، فلتفصل رءوسهم بيد أهل البلد الموجودين معكم (المرشدون) وتوضع على قمة زانة ليراها المارة. ولتدمروا بعد ذلك ، القرية عن آخرها ، ثم أشعلوا النار فيها » ... «إلى بونابرت فى السادس عشر من سبتمبر سنة ١٧٩٨ : أيها الجنرال المواطن لقد عوقبت قرية بركة غطاس على تحالفها الخبيث مع العرب أولاد على ، وأعتقد أن أمر القبض على كل من يقاوم قد نفذ بكثير من الاتساع» . والكلمات هنا - على اقتضابها - تعنى ما تعنيه من عنف مبالغ فيه ووحشية لا ضرورة لها . إن الكابتن «مواريى» لا يشكو وحده إذن من ضراوة هذه الحرب ، وما العجب ، وقد كان كليبر من الضباط

المنتصرين على متمردى حرب الفانديه فى فرنسا ، والتى عرفت ببشاعتها (*) ؟.

«إلى الجنرال مانسكور فى الثامن عشر من سبتمبر سنة ١٧٩٨ : أمر القائد العام أن تفرض ضريبة على منازل الإسكندرية للإنفاق على أعضاء الديوان والأغا ، ولدفع أجور الانكشارية ، وكذلك لتغطية تكاليف نظافة المدينة .. » ، وهكذا بررت نظافة المدينة باقى التكاليف التى تخدم أغراض الجيش .

«الثامن عشر من سبتمبر سنة ١٧٩٨ (بمناسبة الاحتفال بأحد أعياد الثورة الفرنسية) : ... ولكن هذا الاحتفال الذى أمر به ، ما كان ليعجب القائد العام ، لو أن سكان الاسكندرية لم يشتركوا فيه والمسلمين منهم بصفة خاصة . ولذا ، حاولت كل ما فى وسعى لأجعلهم يتوجهون معنا إلى عامود بومبى بالذات (الذى يسمى حاليا عامود السوارى)» : وقد كتب كثير من الفرنسيين عن فرحة المصريين بالاشتراك فى أعياد الجيش ؛ وهذا الخطاب القصير يؤكد لنا طبعا عكس ذلك ، فقد كان تصرف المصريين هو التصرف الطبيعى لشعب مستعمر ، مغلوب على أمره .

وقبل سفره إلى بلاد الشام مع حملة بونابرت عليها ، كتب كليبر فى الثامن من فبراير سنة ١٧٩٩ قائلا : «أخبرنا الجند بالبؤس الذى ينتظرهم حتى نصل إلى سوريا ، وقد تقبلوا تلك الأنباء بشجاعة . ولكن

* ارجع إلى الجزء الأول.

من الصعب إخبارهم أننا لن نعود إلى أوربا عن طريق الدردنيل ، رأيت أن أترك لهم هذا الوهم ...» : إن هذا الاعتراف خير دليل على استياء الجيش من حياته فى مصر ، ودليل قاطع على أن القواد كانوا يعرفون ذلك وعلى أعلى مستوى. لقد كان الرحيل أمل الجند الوحيد ، حتى إن كان عن طريق حرب ضروس فى الشام ثم التوجه إلى فرنسا من الشرق. ونرى هنا كيف كان القواد يكذبون على جندهم حتى يرغموهم على تنفيذ خططهم ، والجند فى غفلة عن مصيرهم ولا همّ لهم إلا العودة إلى الوطن ، حتى إن كان ذلك يجبرهم على الالتفاف من الشرق .

«من دمياط إلى الجنرال فردييه ، فى العاشر من فبراير سنة ١٧٩٩: بالنسبة للجمال ، لا تحترموا أية ملكية خاصة فالكل مأمور بأن يستولى على كل شىء فى هذه اللحظة العاجلة. يجب أن تظهر فى هذا الأمر أشد الحزم ..»

«إلى الجنرال مورا فى الثامن والعشرين من مايو سنة ١٧٩٩ : أيها الجنرال المواطن ملحق مع هذا، أمران تلقيتهما من القيادة العامة، أحدهما خاص بتخريب البلد الذى سيتولاه فرسانك..»، وكانت أوامر بونابرت كالتالى: «سيتولى الجنرال كليبر أمر حرق كل المحاصيل حيث يمر، وسيسير بحيث يستطيع أن يرسل دوريات مكثفة من الفرسان، يساندها بعض المشاة، لنهب القرى الموجودة على الطريق، والاستيلاء على الحمير والحيوانات والجياد.... إلخ».. كلام وأوامر لاتحتاج أى تعليق.. فكان الخراب التام لكل المنطقة. والرسالة التالية تلخص حقيقة ما اقترفه الجيش آنذاك من فظائع:

«إلى الجنرال دوجوا، دمياط فى الحادى والعشرين من يونيو سنة ١٧٩٩: لقد ارتكبنا فى الأرض المقدسة معاصى بالغة الخطورة، وسخافات كبيرة، ولكن، يجب أن نترك ستار المحظورات ينسدل على هذا كله، وألا نرفعه، خشية أن يعاقبنا المولى فى غضبه على جبرنا...»، نلفت النظر، مرة أخرى، إلى أن كاتب هذه السطور هو الجنرال كليبر الذى سبق أن اشترك مع الجيش الجمهورى، فى تخريب المناطق الثائرة فى فرنسا، وفظائع تلك الحرب الأهلية مازالت تحكى حتى يومنا هذا، ولم نقرأ شيئا لكليبر يدل على أنه ندم يوما على مااقترفه من ذنوب فى حرب «الفانديه» التى كان من المنتصرين فيها. ولكن من البديهى أن مافعله، وفعله الجند الفرنسيون فى فلسطين، يفوق بكثير كل ما مر به من قبل، والدليل، هذا الخطاب الصريح.

ثم سافر بونابرت عائدا إلى فرنسا، وترك لكليبر أمر الحكم فى مصر، فأرسل كليبر إلى حكومة «الإدارة» تقريرا قال فيه من بين ما قال: «..... مع أن مصر هادئة ظاهريا، إلا أنها ليست مطيعة. الشعب قلق، ولايرى فينا.. مهما فعلنا، إلا أعداء ملكيته، وقلبه متفتح دائما لأى أمل فى التغيير لصالحه».. تلفت نظرنا كلمة : «مهما فعلنا»، وبعد ما قرأناه عما «فعلنا» هذه، قد لايسع القارىء إلا التعجب لمنطق الفرنسيين.. وتجىء الأسطر التالية لتؤكد سخرية الموقف: «.... كان فى إمكان العرب وحدهم أن ينظموا لنا قوافل فى الرمال الحارقة؛ إلا أنهم خدعوا مرات عديدة لدرجة أنهم لم يعودوا يعرضون علينا خدماتهم الآن، ولكنهم يبتعدون عنا ويختفون».

تكاد هذه الفقرة الأخيرة تكون من أبلغ ماسطره كليبر فى الموضوع الذى يهمنا، لأنه يفضح بقلم شاهد من أهلها، معاملة الفرنسيين لمن ساعدوهم بغية الكسب المادى؛ فما بالنا بمعاملتهم لمن لم يساعدوهم؟

★★★

نكتفى بهذا القدر من خطابات كليبر قبل أن يصبح قائدا عاما لجيش الشرق فى مصر، والتعليق الوحيد الذى نراه ضروريا، قبل أن ننتهى من الأجزاء الأربعة لخطابات كليبر، هو ملاحظة ماحدث أثناء حكمه للإسكندرية فى شهر يوليو، أى قبل أن يحطم «نيلسون»، الإنجليزى، الأسطول الفرنسى فى «أبوقير» أول أغسطس من عام ١٧٩٨. قيل مرارا إن هذه الحادثة حولت الجيش الفرنسى إلى جيش سجين فى مصر، كان عليه أن يعيش بعد ذلك، على موارد البلد فقط، لاستحالة وصول أية إمدادات بسبب الحصار الإنجليزى للشواطيء: ولكننا نرى، بعد قراءة مخاطبات كليبر تلك، أن الاحتياج إلى فرض الضرائب الباهظة كان سمة هذا الاستعمار، منذ الأسابيع الأولى لوصوله إلى مصر، فخطابات يوليو التى قرأناها - أى مخاطبات ماقبل دحر الأسطول الفرنسى - لاتدع أية بادرة للشك: لقد جاء الجيش منذ اليوم الأول كالجراد، يقضى على الأخضر واليابس، وكلمات «لابد من إيجاد المال الضرورى لنا» شبه لازمة لكل خطاب، مع أوامر المصادرة العنيفة واللجوء الدائم إلى أخذ الرهائن، هذا من جهة. وقرأنا، من جهة أخرى، الأوامر التى كانت تصدر للجنود، فلم نقابل، ولو لمرة واحدة، أية بادرة «تحضير» لمصريين يُسلبون وتلوث قبورهم ومساجدهم، لم نقابل

جنديا أو ضابطا واحدا صدر له أمر، أو نفذ أمرا لنشر مبادىء الثورة، تلك الثورة التى لم نسمع عنها إلا فى احتفال فرنسى أجبر «المسلمون» - بالذات - على الذهاب إليه.

من البديهى إذن أن الجيش الفرنسى - بجنده وقواده - لم يتصرف إلا كما يتصرف أى جيش غاز، إن حافظ على المواطنين المهزومين، فهو يحافظ عليهم لأنهم كالبقرة الحلوب، إذا نفقت، انتهى مورد الرزق، فلابد إذن من الحفاظ على بعض مظاهر التودد، حتى تستمر البقرة البائسة فى إدرار لبن يعيش به الغازى.

وتتضح هذه الصورة أكثر وأكثر عندما ننتقل إلى مكاتبات كليبر بعد أن أصبح حاكما مطلقا على مصر: من هذه المخاطبات، تتضح لنا، بصورة فجة، معاملة القيادة العليا للشعب المصرى، وبالتالى، معاملة كل من كان تحت إمرة هذه السلطة العليا، أى كل الفرنسيين الموجودين آنذاك مع الجيش فى مصر. فلنقرأها معا، لعلنا نجد ولو إشارة واحدة إلى تلك المبادىء التى جاء الجيش من أجل تعليمها للشعب المصرى، سواء طبقها الفرنسيون أو علموها لشعب يجهلها.

★★★

إذا انتقلنا إلى الجزءين الثالث والرابع من كتاب «كليبر فى مصر»(١١) وجدناهما من تسعمائة وسبعين صفحة، نتعرف فيها على مكاتبات عديدة، أهمها طبعـا خطابات وبيانـات الجنرال كليـبر الذى أصبح - بعد سفر بونابرت - القائد العام لجيش الشرق، نجد فيها من الخطابات التى يهمنا أمرها أكثر بكثير مما وجدنا بالجزءين الأول

والثانى، وهذه الخطابات تحتاج ـ لكثرتها ـ إلى نوع من العرض يختلف عما لجأنا إليه فيما سبق. بعضها لن يهمنا بحثه بصورة مباشرة أو حتى غير مباشرة، مثل مكاتبات المفاوضين الفرنسيين والعثمانيين والإنجليز من أجل اتفاقية إجلاء القوات الفرنسية، التى عرفت «باتفاقية العريش»، والتى كان فشلها سببا فى المعركة التى دارت بين الفرنسيين والعثمانيين فى «هليوبوليس» ، أى عين شمس، وكان انتصار الفرنسيين فى تلك المعركة سببا مباشرا في استمرار بقاء القوات الفرنسية فى مصر، على الرغم من رغبة كليبر وجيشه فى العودة إلى الوطن، لأن الحملة كانت فى نظرهم فاشلة من بدايتها، ولا أمل يرجى من ورائها، كما نجد تقارير مطولة عن حالة الفرنسيين في مصر، كان القائد العام يرسلها إلى حكومة «الإدارة»، وهو يجهل أن بونابرت أصبح فور وصوله إلى فرنسا المسيطر على كل مقاليد الحكم هناك، بعد تلك المخاطبات المهمة التى قد تفيدنا معرفة بعض منها، نجد كما هائلا آخر يوضح بصورة مباشرة القضايا التى تهمنا، وسنصنفها حسب موضوعاتها، لننتقى منها مايبدو لنا أكثر دلالة؛ فلا داعى لتكرار ممل، خاصة أن المشكلات هى نفسها، لاتتغير، والحلول المطروحة أيضا لاتتغير. وقد تعرفنا على بعض منها، عندما كان كليبر حاكما على الإسكندرية.

فكيف يكون الأمر وهو الآن حاكم على مصر كلها؟

★★★

ولنبدأ بالخطابات التى تعبر بصورة واضحة عن حالة الجيش، بعد أن تركه بونابرت، لنستشف منها ما سنقرؤه بعد ذلك، عن معاملة

الجيش المستعمر للمصريين تلك المعاملة التى تحتمها ظروف الجيش المشار إليها من قبل.

بادىء ذى بدء، يتضح لنا الأمر عندما نقرأ ما أرسلته الحكومة من باريس إلى القائد العام، الجنرال بونابرت، فى الثامن عشر من سبتمبر ١٧٩٩، أرسلت خطابا يفيد بأن المفاوضات ستبدأ مع العثمانيين من أجل إجلاء القوات الفرنسية عن مصر، وأن خبر هزيمة بونابرت أمام عكا كان قد وصل «منذ بضعة أيام»؛ كما أن الخطاب ينبىء بونابرت بحال القوات الفرنسية المهزومة فى فرنسا، ويأمره بالعودة لاحتياج البلاد إلى جيشه: المعنى واضح، فحكومة «الإدارة» قد اعترفت إذن بفشل مشروع الحملة بعد بدئها بسنة واحدة، واحتياجها لجيش الشرق؛ أمر مصر لم يعد يهمها، وفرنسا فى حاجة إلى كل قواتها، خاصة جيش الشرق هذا الذى سبق أن أثبت جدارته الفائقة فى إيطاليا. وصل هذا، الخطاب بعد رحيل بونابرت بمفرده من مصر طبعا، وأصبح على كليبر وحده أن يواجه الموقف: رحل بونابرت، وترك الجيش، والحكومة فى باريس لم تعد تهتم بإنجاز ماسافر من أجله بسبب فشل الحملة، ولا نعرف متى وصل هذا الخطاب إلى مصر، فقد كان الحصار على شواطىء الاسكندرية قاسيا، والأخبار والمراسلات تصل، إن وصلت، بعد شهور من إرسالها؛ ولكن المؤكد أن الرسالة وصلت بعد فترة من سفر بونابرت، وقد يكون بعده بشهور عديدة.

نرى بعد ذلك كليبر يشكو إلى مينو، فى الثامن عشر من سبتمبر

١٧٩٩، سوء الأحوال التى تركها بونابرت وراءه، فلا يوجد شىء فى الخزائن ينفق منه؛ وكان حكم كليبر على إدارة بونابرت أن «نظام الإدارة (....) كان غاية فى السوء»، ثم نراه يطلب من مينو فى خطاب آخر، أن يتودد إلى الأسطول الإنجليزى، الذى يحاصر الشواطىء، ليحصل منه على بعض الصحف، حتى يكون على دراية بما يحدث فى فرنسا وأوربا، وبما يفعله بونابرت، وهو طبعا لم يتخيل أن بونابرت كان قد سيطر على الحكم فى باريس فى ذلك الوقت.. ونراه يشكو فى خطاب بتاريخ الرابع من أكتوبر ١٧٩٩ إلى مينو مرة أخرى، يشكو مما يسببه الرمد والطاعون من مصائب للجيش الفرنسى.

وبعدها بأيام معدودة، وبالتحديد فى التاسع من أكتوبر ١٧٩٩، يرسل أحد المسئولين تقريرا مطولا إلى حكومة «الإدارة»، يصف فيها الحال فى مصر، وهو يجهل طبعا أن هذه الحكومة قد انتهى عهدها. إنه يرسل صورة بائسة يائسة: فالعدو والطاعون على الأبواب، والموارد شحيحة إن وجدت، والضباط والجنود «متأكدون أنهم يضحون بحياتهم وصحتهم من أجل الوطن وذلك دون جدوى»، هذا المسئول الكبير يناقش فى تقريره مشروع احتلال مصر، وننتقى من صفحاته العديدة مايبدو لنا ذا مغزى: «لاشك فى أننا لو كنا الأسياد المؤمّنين لمصر، لاستطعنا أن نخلصها فى بضع سنوات من معظم الآفات التى تخربها، مثل الطاعون والعرب (البدو) ،....، فتكون مصر أجمل مستعمرة فى العالم،....، ونظرا لما استجد من ظروف» بعد احتلال مصر، دون موافقة الباب العالى «فشعب مصر الذى كان علينا أن نعده صديقا،

أصبح، فجأة عدوا لنا»... ومن مناقشته لسياسة فرنسا، نصل إلى حقيقة الحملة ومغزاها: «ينظر الآن إلى الإمبراطورية العثمانية على أنها مبنى قديم على وشك الانهيار، وأوربا مستعدة منذ وقت بعيد لتقسيم أشلاء هذا المبنى، وكثير من السياسيين يعتقدون أن هذا الحدث قريب، ويرون أن على فرنسا أن تأخذ نصيبها، وأن مصر هى هذا النصيب»، ولكن هذا المسئول يرى أن الوقت لم يحن بعد لهذا الحدث المنتظر، وأن الحل الوحيد للخروج من المأزق الذى يجد الجيش الفرنسى نفسه فيه، هو أن تعلن روسيا الحرب على الباب العالى، حتى تذهب القوات العثمانية إلى تركيا نفسها لحمايتها، فلا تمثل بعد ذلك خطرا على القوات الفرنسية فى مصر، ويلفت نظرنا طبعا كلامه عن الشعب المصرى الذى أصبح إذن، حسب منطقه، عدوا بعد أن كان صديقا!

وقد تدل الكلمات التالية على حالة الفتور التى كان يحارب بها الفرنسيون، أو على منهج حروبهم، وكليبر هو الذى يكتب هذه المرة إلى حكومة «الإدارة» فى السادس عشر من نوفمبر ١٧٩٩، يصف لها الإجراءات التى اتخذها لحماية موارد مصر من التهريب لصالح «جيش الأعداء»، أى الأتراك: «.... لقد منحت الفرق الحق فى الاستيلاء على أية غنيمة تحصل عليها من القوافل الخارجة من مصر. وبهذه الطريقة حصلت، فى وقت وجيز، على ثمانمائة من الإبل، وزعتها على الفرق المختلفة»، وبما أن جيوش الأتراك قد تنزل قريبا إلى أرض مصر، فقد «ابتسم جنودنا عند التلويح بهذا الأمل، لأنهم - بصرف النظر عن سعادتهم بإحراز انتصارات جميلة - سيغنمون بكثرة»، الجيش يحارب

من أجل الغنائم، مما يسعد الجند، ولكن التقرير ينتهى بتلخيص الحالة العامة للجيش، فيقول كليبر: «ولكنى أرجو منكم أن تدركوا أن حالتى تسوء كل يوم أكثر فأكثر، وأن المستشفيات وحدها تحرمنى من حوالى ثلاثمائة رجل فى الشهر وأن الطاعون حاليا بالإسكندرية، وأن كل الظروف تتضافر لتدفعنى إلى النهاية الحتمية التى كان الجنرال بونابرت قد تنبأ بها، ولكنه أراد أن يتفاداها»، فكليبر يرى إذن أن المفاوضات من أجل الخروج من مصر، وبالتالى إعلان فشل الحملة، هو «النهاية الحتمية» للحملة والحالة التى وصل إليها الجيش الفرنسي، حتى قبل أن يذهب بونابرت إلى فرنسا سرا.

وجاء ليعضد هذا التقرير، تقرير آخر للسياسى «تاليان»، الذى كان قد لحق بجيش الشرق فى مصر بمحض إرادته، مما جعل تقريره، كما يقول هو نفسه، مجردا من أية أغراض ذاتية، وهو مدون بتاريخ الحادى والعشرين من ديسمبر ١٧٩٩. وقد كان «تاليان» بصفته موجودا فى مصر، لايزال يجهل أن بونابرت قد سيطر على الحكم، وسنجد فى تقريره، مرة أخرى، الأسباب الحقيقية ـ بل الوحيدة ـ لغزو مصر، وهو يؤكد أنه لن يناقش الحملة، أو أسبابها، التى كانت ترمى إلى «الحصول على تعويضات من إنجلترا»، وهو يقصد الحصول على مستعمرات تحل محل المستعمرات التى أخذتها إنجلترا سابقا من فرنسا، ولكنه يتكلم عن النتائج مثل: «ثورات القاهرة والمنصورة ودمنهور التى ذبح فيها كل الفرنسيين (الذين كانوا فى هذه المدن) بالإضافة إلى العديد من حركات التمرد علينا التى كلفنا إخمادها حياة كثير من الشجعان»، نراه يشكو

أيضا مما يعانيه الفرنسيون من «العرب (البدو) الذين لايبغون إلا النهب»، ويقول «تاليان» إن بونابرت كان يضمر منذ زمن ترك مصر، لأنه عند وصوله إلى هذا البلد اكتشف سريعا أنه «خدع بالنسبة لإمكانات هذا البلد، وما كان يستطيع تقديمه سواء لفرنسا، أو لجيشه».

«فهذه الملايين التى جنتها باريس وسهولة الحصول عليها من القاهرة، لم تكن فى الحقيقة إلا بعض آلاف من أكياس الضريبة على الأهالى، دفعت بعد صعوبات جمة (....)، الضرائب التى فرضت، وهى أقل بكثير من احتياجات الجيش نفسه، لم تحصل إلا بسلطة القوة (....)، لو كانت هذه الحملة قد نجحت (نلاحظ أن هذا التقرير بتاريخ ديسمبر ١٧٩٩) (.....) لكان من الصعب جدا ـ فى اعتقادى ـ أن نخلق مستعمرة أوربية فى بلد تتعارض معنا دائما عاداته وتقاليده ، خاصة دين الأهالى.وعلى الرغم من حكمة تصرفاتنا منذ ثمانية عشر شهرا، فإننا لم نجد حتى الآن إلا بضعة رجال يتحالفون معنا تحالفا مؤقتا، وغير مضمون، بضعة رجال يرون أن مصالحهم تتماشى مع مصالحنا، ومن المؤكد أنهم سيتركوننا عند أولى هزائمنا (لأننا فى بلد) شعبه كثير ودائما على أهبة الاستعداد للثورة (.....) فالجيش مسئول دائما عن تحصيل الضرائب لأن الفلاح المصرى لايدفع إلا إذا استخدمنا القوة، فلا يستطيع الجيش أن يحارب العدو ويكون ـ فى الوقت نفسه ـ بالداخل لتحصيل الضرائب (....) خاصة أنه منذ هروب بونابرت ، والجنود فى حالة ثورة ولايرون أصغر مركب يعد للسفر إلا ويقولون إنه

يعد لهروب الجنرالات؛ فسبب ثورات الجند ليس فقط ضيق ذات اليد.....».

وبعد هذا التقرير الطويل بثلاثة أيام، أى فى الرابع والعشرين من ديسمبر ١٧٩٩، نقرأ خطابا من كليبر لأحد قواده يهنىء فيه فرقة لم تنجذب «لعدوى» تمرد الجند المنتشرة آنذاك، نقرأ فى هذا الخطاب أن سبب ذلك التمرد كان سفينة ظن الجند أنها تقل القواد الفارين من مصر، بينما لم يكن على ظهرها سوى «رجال أصحاء وموسسات (......) من بلاط بونابرت»، وفى خطاب آخر بتاريخ السادس عشر من يناير ١٨٠٠، يكتب كليبر رأيه الصريح، مرة أخرى، فى بونابرت الذى «كان قد ضحى بهذا البلد قبل سفره بمدة طويلة. ولكن، كان عليه أن يجد الفرصة السانحة للهروب منه؛ إنه لم يفعل ذلك إلا ليتجنب مصيبة تسليمه (وقد ترك هذه المهمة لكليبر الذى يؤكد) فأنا لا أريد أن أرى باقى الجيش يذبح واحدا تلو الآخر، دون أية فائدة حقيقية للوطن: أنا الذى اعتبرت هذه الحملة خاسرة كلية بعد كارثة أبوقير وإعلان الحرب علينا من طرف الباب العالى ـ سأتحمل مسئوليتى كاملة ـ ولكنى وصلت إلى نهاية المطاف ولم يعد بيدى شىء».

وعندما اجتمع كليبر بقواده لبحث الحالة الراهنة، قيل فى تقرير الجلسة من بين ماقيل: «..... وفى حالة الهزيمة الحربية، كيف نستطيع إنقاذ حياة عشرين ألف جندى من موت محقق على أيدى جند (عثمانيين) جامحين وشعب من المتعصبين الذين يجهلون كل حقوق الحروب والشعوب المتمدينة (.....)» !!.

«ولم يعد هناك أى أمل فى حكومة لن ترسل أية إمدادات، بعد المبادىء التى أعلنتها، والتى تلوم فيها الحملة بطريقة قاطعة، وتجعل من هذه الغزوة تهمة توجهها إلى من أصدر أمرها أو تركها تنفذ، معلنة أن هذه الفعلة كانت ضارة بكل مصالح الجمهورية، بعد أن حولت أكثر حلفائها قدما وأمانة إلى عدو انضم إلى أوربا كلها ضدها....» (يقصد الإمبراطورية العثمانية).

أصبحت الحملة إذن اتهاما لمن أمر بتدبيرها، وكأنها سبة يتهم بها من أنجزها لأنها قد فشلت، ولم تدر على فرنسا إلا الخراب، فقد تحولت الدولة العثمانية من حليف إلى عدو، كانت حليفة لفرنسا منذ القرن السادس عشر، فتحولت إلى عدو لدود انضم إلى روسيا وانجلترا فى التحالف الثانى ضد الجمهورية، وذلك لأن فرنسا قد غزت مصر دونما سبب، بل حتى دون إعلان حرب وكانت تلك هى النتيجة الوحيدة التى جنتها فرنسا من الحملة، كما اعترف بذلك معاصروها من السياسيين.

ونستمر فى قراءة التقرير الذى يصف أوضاع الجيش الفرنسى فى مصر، وقد دب اليأس فى قلب كليبر أكثر عندما عرف أن بونابرت أصبح المسيطر على كل الأمور، ولم يرسل - مع ذلك - إمدادات للجيش الذى «هرب» وتركه فى مصر، وبعد أن استعرنا من هذا التقرير بعض الجمل التى بدت لنا مهمة لدراستنا، فإنه يستمر لصفحات عديدة سنترك قراءتها مؤقتا لنعود إليها فيما بعد فى محاولة منا لاستجلاء أمور الفرنسيين فى مصر من زاوية أخرى، ولكن كليبر يبلغ بعد ذلك - فى

الحادى والعشرين من يناير ١٨٠٠- أن الجند الفرنسيين قد سلموا العريش للأتراك، ولم يكن ذلك وحده كافيا كمصيبة، فقد زاد الأمر سوءا أن منهم من انضم بالفعل إلى الجيش العثمانى.

ونرى كليبر الذى عرف أخيرا أن بونابرت قد استولى على حكومة «الإدارة»، وقد أرسل خطابا آخر، فى الثامن والعشرين من يناير ١٨٠٠، موجها إلى تلك الحكومة ولم يدرك بعد أن اسمها نفسه قد تغير إلى «حكم القناصل»، ويشكو كليبر فى هذا الخطاب مرة أخرى من المقاومة التى يلقاها من البكوات (المماليك) ومن «شعب ثائر» من البديهى أنه يعمل له ألف حساب.

وبعد ذلك بيومين، يعيد كليبر الكلام نفسه فى خطاب آخر إلى حكومة «الإدارة»، يشكو فيه من استمرار خطر «البكوات» وأنصارهم فى مصر العليا على وجه الخصوص، وهو كلام له أهميته بالنسبة لما قيل مرارا عن سيطرة الفرنسيين عليها، بينما مراد بك يمثل الخطر الدائم هناك. وفى الصفحة التالية، نجد مرة أخرى الشكوى من خطر «العرب وسكان البلد» ولكنه يشكو أساسا من «أنه يكفى للرد على الأفكار المبالغ فيها عن إيراد مصر السنوى، ذكر ما تركه الجنرال بونابرت من ديون تصل إلى أحد عشر مليونا، مع أنه وجد، عند وصوله إلى هذا البلد، موارد هائلة قد نضبت كلها فى الوقت الحالى».

يعرفنا مرة أخرى أن «الحملة على مصر التى أصبحت مهملة كلية، أصبحت أيضا اتهاما صريحا ضد من أمر بها»، ولا يفوت شوفينية كليبر أن ينهى تقريره الأليم بالكلمات التالية: «أيا كان، فالجيش

الفرنسى ترك عند السكان (المصريين) أثناء وجوده فى مصر، أحسن ذكرى لانتصاراته، وذكرى العدالة والاعتدال اللذين حكمنا بهما، والإحساس بقوة الجيش وسلطة الأمة التى ينتمى إليها، الاسم الفرنسى سيظل محترما ليس فقط فى هذا الإقليم من الامبراطورية العثمانية، بل فى الشرق كله»، يبدو أن كليبر قد نسى ماكتبه هو نفسه عما اقترفه هذا الجيش فى يافا وكل فلسطين من فظائع، ولن ننسى مقارنة هذا الكلام بما سنقرؤه، بقلمه عن معاملته للمصريين، وقد اكتفت الذاكرة الفرنسية بهذه الجمل الإنشائية الرنانة لتؤكد بعد ذلك محبة المصريين لجيش كانت له تلك الصفات، صفات لم يذكرها إلا كليبر نفسه.

ومما يؤكد هذا الكلام، الخطاب الذى وجهه كليبر إلى أعضاء ديوان القاهرة، وقد أوشك على انهاء مفاوضاته للخروج من مصر، دون أن يدرى أن رفض انجلترا لشروط معاهدة الجلاء، سيجبره على البقاء.

إنه يقول لهم ماسبق أن قرأناه فى مذكرات «مواريى»، وكان ذلك فى الأول من فبراير ١٨٠٠، يتكلم كليبر عن الذكرى العطرة التى سيتركها عدل الفرنسيين وسط الشعب الذى حكموه بتعقل وحكمة. ويزيد علينا، لنعرف لغة الذئب عندما يتحدث إلى ضحاياه، يزيد علينا واجب قراءة الأسطر الأخيرة من الخطاب: «إن شعوب مصر، الذين تبعوا نصائحكم قد انصاعوا لأوامر السلطة: إن الوفاق الذى دام دائما بيننا وبينهم ماهو إلا نتيجة جهدكم ومكافأته، وأرجو ألا تكدر هذه الوحدة حتى تنفيذ بنود المعاهدة، وإذا ظهرت أية اضطرابات غير متوقعة لتعكر صفاء هذه الوحدة، سأضطر إلى قمعها بالسلاح . والسلام».

وهكذا انتهى الخطاب، وقارىء التاريخ يعرف ماحدث، إذ فشلت المباحثات ثم قامت معركة عين شمس، وتلتها مباشرة ثورة القاهرة الثانية التى استمرت شهرا كاملا على الرغم من تحذيرات كليبر، ولكننا نرى هنا أن «الديمقراطية» التى علموها للديوان لا مكان لها فى هذا الخطاب، فالأمر واضح بالنسبة للمهمة التى كانت موكلة للديوان وأعضائه.

ومن خطاب فى الخامس والعشرين من فبراير ١٨٠٠، نعرف من كليبر أن الفرنسيين قتلوا شخصا وأنه يخشى نتائج تلك الجريمة. ولذا، ونظرا لدخول «ثلاثة أيام العيد» فلابد أن يكون الاحتياط على أشده، و«ألا يخرج جندى واحد من مركزه أيا كان السبب (....) حتى يسود الأمان المدينة (القاهرة)» ، فالتوتر إذن مستمر، والخوف من الثورات قائم باستمرار، فعلى الرغم من أن الشعب مهزوم إلا أنه مازال يقاوم، ويشكل خطرا دائما، كما سبق أن فهمنا أيضا من الخطابات والتقارير السابقة كلها.

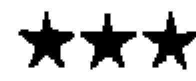
ونفهم من خطاب كتب فى الثامن والعشرين من فبراير ١٨٠٠ أن كليبر عرف أخيرا أن بونابرت هو المسيطر الوحيد على الأمور. فى فرنسا، وأن أسطورة الحملة قد بدأت تنتشر على غير حقيقة الأمور، ثم يكتب كليبر إلى وزير الحربية فى فرنسا، من بين طلباته، أن يعّرف «اليوم للجمهور المخدوع ما كان ينوي أن يقدمه مزينا بأبهج الألوان».

ونفهم من خطاب لـ «مينو» فى الرابع والعشرين من مايو ١٨٠٠ أنه

يأمل فى تأدية مهامه «عندما يهدأ البلد» مما يؤكد استمرار حالة القلق، بعد شهر من نهاية ثورة القاهرة الكبرى التى كانت قد انتهت فى أبريل.

ونكتفى بهذه النماذج لنعطى صورة سريعة لما كان يعانى منه الجيش الفرنسى فى مصر بعد سفر بونابرت، مما نستخلصه من الكتابات الرسمية وغيرها، وقد فضلنا ألا نلجأ إلى ما كان يكتبه المفاوضون الإنجليز لرؤسائهم عن حالة أعدائهم، فقد يكون فى كلامهم مبالغة، أو نية معينة، نظرا لظروف وجودهم وسط الفرنسيين آنذاك.

وقد يبدو بعد ذلك أمر الأحوال المالية للفرنسيين واضحا، لايحتاج إلى الكثير من نماذج الخطابات؛ فالخطابات التى تتحدث عن الحالة الاقتصادية للجيش تكاد ـ لكثرتها ـ تملأ كتابا خاصا بها، فلا نكاد نقرأ خطابا إلا ويشكو من الاحتياج الملح، ثم نقرأ أمر إرسال فرق لمصاحبة من كان مسئولا عن جباية الضرائب التى لاتنتهى.



فريسة تلهث وتستغيث والصياد على وشك النيل منها، وما من مساعدة تكفى لإنقاذها، هذا هو الانطباع الذى يخرج به القارىء بعد كل هذه الخطابات التى لاتكف عن طلب المعونة، وهى دائما معونة مالية لاتكفى إعاشة آلاف من الجند فى حالة تأهب مستمر، والمعونة الوحيدة هى الضرائب والتعسف فى المطالبة المستمرة، سواء كان ذلك من حق دولة الفرنسيين أم لا، فقد تكفل العثمانيون مثلا بتحصيل الضرائب على أن يكف الفرنسيون عن المطالبة بها ما داموا على وشك الخروج من مصر، سيتكفل الأتراك بمعيشتهم، ولكن هذا البند من المفاوضات لم

يمنع كليبر من المطالبة بجمع مايمكن جمعه والاستيلاء عليه، وتتلاحق الطلبات حتى يعجب القارىء للمرة الألف بعد المائة، من أين كان المصريون يدفعون كل هذا؟ ولا يفوتنا أن الأمر لم يختلف عما قرأناه في الجزء الأول من خطابات كليبر، بعد نزول الفرنسيين إلى الإسكندرية مباشرة.

فمنذ الخامس من سبتمبر ١٧٩٩، أى بعد سفر بونابرت مباشرة، يكتب كليبر أنه لم يجد مليما واحدا في خزائن دولته.

ونفهم التوتر الذى يسود الخطابات التى يطلب فيها مثلا، وقف بناء فنار كان بونابرت قد أمر بإنشائه قبل سفره، لأن بونابرت «لم يترك عند رحيله مالية مزدهرة تسمح بأن نهتم، بمثل هذا المشروع الفاخر»، وكان هذا الكلام في السادس عشر من سبتمبر ١٧٩٩، وقد يكون هذا هو السبب الذى جعله، فى السادس والعشرين من الشهر نفسه، يأمر أن يكون نصف قوافل البدو من نصيب الفرق التى ستستولى عليها، وكأن الجنود قطاع طرق، لايحاربون إلا من أجل الغنيمة. ولكن، ألم تكن تلك هى الحال عندما كان الجيش نفسه يحارب في إيطاليا تحت قيادة بونابرت؟ ؛ وكانت ضروريات الاقتصاد تحتم على كليبر أن يأمر الجيش، فى الثلاثين منه، بارتداء زى قصير، حتى يقتصد فى النسيج المطلوب وتتلاحق المتناقضات، فنرى كليبر، مثلا يستمع في الثامن من أكتوبر «لسكان المنصورية الذين يشكون أن الفرنسيين قد استولوا على بهائمهم، فلا بد من وقف مثل تلك الأفعال، والتفاهم معهم بالنسبة لما هو ضرورى لنا. وفى مثل تلك الأحوال فإن السياسة الوحيدة الرشيدة أن

يعطونا ولا تأخذ منهم»، نراه بعد هذا الكلام الجميل فى الثانى والعشرين من نوفمبر، أى بعد شهر ونصف الشهر، يأمر أحد قواده الحربيين، بالآتى: «من الضرورى أن تعيشوا على موارد البلد، سواء كان ذلك بالاستيلاء أو بأية طريقة أخرى، وإذا رأيت أن بإمكاننا الحصول على مؤن للتخزين، فعليك أن تصدر الأوامر الصريحة بذلك، وتجعلها تحترم بطريقة صارمة»، وكان أى تصرف يراه الفرنسيون فى غير صالحهم، يجازى بفرض ضريبة جديدة، تدفع بمساندة الجيش، الذى يرسل مع المسئول عن تحصيلها، قد يلخص الموقف ماكتبه كليبر فى الثانى والعشرين من يناير ١٨٠٠، بتعبير لانستغربه بعد كل ما قرأناه من وسائل شتى للحصول على المال، فهو يقول: «عزيزى الجنرال، علينا الآن أن نعصر مصر كما يعصر «الشربتلى» الليمونة، وبعد أن نقوم باستخلاص كل شىء، من نقود إلى عينيات فإننا بالكاد، نكون قد حصلنا على ما نحتاج إليه فى هذه الظروف»....

و«عصر الليمونة» كان كما سبق أن عرفناه، هو، اللفظ الذى استعمله سياسى مرموق أيام حروب الثورة التحريرية، وهو يتحدث عن الدول التى تم «تحريرها»؛ وبالتالى، فكليبر باستعماله هذا التشبيه البليغ، يعبر دون أن يدرى، عن سياسة فرنسا فى كل البلاد التى ذهبت إليها جيوشها. والعجب أن يأتى هذا الكلام بعد كل ما قرأناه من وسائل الضغط للحصول على المال، فقد كنا نظن أن البلد قد «عصر» إلى آخر قطرة فيه، وسيزداد «العصر» عنفا بعد الثورة الثانية للقاهرة، فالفريسة مازالت تلهث: حكمت عليها الظروف، وانتصارها فى عين شمس على

العثمانيين أن تبقى تلهث فى بلد سبق أن تم «عصره» إلى آخر قطرة وما من أمل فى الحصول على عون من أحد.

قد تشرح لنا هذه الخلفية عن حالة الفرنسيين، ما سنراه الآن من معاملة كليبر للمصريين؛ هؤلاء المصريون الذين لاوظيفة لهم فى الحياة، إلا الإنفاق على الجيش الفرنسى.

★★★

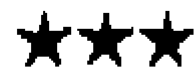
كان فرض الضرائب وسياسة الاستيلاء يجعلان كليبر يتحدث طوال الوقت عن «الأقباط»، هكذا كان يسمى تلك الفئة من المصريين الذين تولوا ــ بمساعدة الجيش الفرنسي ـ تحصيل الإتاوات والضرائب، لأن البكوات من المماليك، كانوا يوظفونهم للغرض نفسه، مما يعنى أنهم فئة معينة من أقباط مصر، وهى فئة الذين يتولون شئون الحسابات، وقد أصبحوا الملتزمين لدى الجيش المستعمر، الذى كان يبيح لهم حق تحصيل الضرائب. وقد كانت سيطرتهم تامة على اقتصاد البلاد، حتى جعلت منهم المتحدثين الرسميين للشئون المالية للجيش الفرنسى أثناء المفاوضات مع العثمانيين، ونرى كليبر يبلغ فى خطاب بتاريخ الثلاثين من يناير ١٨٠٠ أن «الوزير العثماني قد طلب أن يذهب أهم الأقباط إلى الصالحية، بعد مداولتهم مع مصطفى باشا، ليدبروا أمر المعاهدة، فيما يخص مؤن الجيش الفرنسى».

وقارئ الخطابات يصل إلى درجة الإشباع من كثرة تردد اسمهم، وكأنهم جزء من المستعمرين، فمصالحهم واحدة، وهؤلاء «الأقباط»

لايتحركون إلا بمساعدة فرق حربية، عرفنا سابقا من «فيفان دينون» كيف كانت تتصرف مع الفلاحين للحصول على المال المفروض عليهم، ففى السادس والعشرين من فبراير ١٨٠٠ مثلا، نقرأ: «إليك المرسوم التالى، الذى يفى بالترتيبات مع الأقباط، حتى يدفعوا للخزينة، شهرا بعد شهر، مبلغ مائتين وخمسة وستين ألف «باتاك» (١٢)، على حساب ضرائب مصر العليا والسفلى، ومن الضرورى حمايتهم وتوفير القوة المسلحة التى قد يحتاجون إليها ليستطيعوا الوفاء بمستلزماتهم، هذا ما أرجو أن تفعله، أن تربط هذه العملية المالية بتحركاتك الحربية، وبقدر المستطاع» . وفى الثامن عشر من يناير ١٨٠٠ : «عليك أن تمتنع عن دفع أية مصروفات لأى من خدمات المهندسين أو المشاة، فالمال كله لابد أن يذهب إلى البحرية، عليك أن تضغط على الأقباط، وتلح عليهم بالتهديد، كى يحصلوا لك على المال...» . وفى الثانى والعشرين من يناير ١٨٠٠: «اضغط على الأقباط، وهددهم، وأرسل ثلاثمائة رجل من المشاة ومدفعين للجنرال دوجوا، لا لشىء إلا لتحصيل الضرائب سواء كانت مالية أو عينية»، ولنتخيل ما فعله المدفعان فى تلك المعركة مع الفلاحين.

ثم تتغير لهجة كليبر مع «الأقباط» شيئا فشيئا، فهو مقتنع بأنهم يسرقون المال، فيبدأ فى التهديد بقطع رأس من يتأخر منهم عن دفع ما اتفق عليه؛ ثم نراه يشكو منهم عندما يرسل تقريرا إلى «القنصل الأول بونابرت» فى التاسع عشر من مارس ١٨٠٠، لأنه اكتشف أن «الأقباط قد خدعونا بأبشع طريقة فهم يقسمون إيرادات مصر إلى ثلاثة أجزاء:

ثلث للفرنسيين وثلث لهم، والثلث الأخير كانوا يرسلونه للبكوات والمماليك الهاربين.... إلخ إلخ إلخ» والاسم الوحيد الذى لم يشك فيه كليبر يوما هو اسم المعلم يعقوب، الذى يتفوق حتى على حسن طوبار، رجل الفرنسيين الآخر فى مصر، والذى كان قد بدأ مجاهدا خطرا ضدهم... ثم تحول إلى مساعدهم الأكبر، ويتقاسم هذا الشرف اسم آخر، هو اسم حسين كاشف.



ولنا أن نتخيل كيف تكون العلاقة مع باقى المصريين ، بعد أن رأينا أنهم لايعاملون إلا «كليمونة» ماخلقت لغير العصر، أو نراهم أمام المدافع يدفعون المزيد من الضرائب، وقد يكون أول ما يلفت نظرنا وسط هذا الكم الهائل من الرسائل والمخاطبات الرسمية وغيرها، ما أرسله «ديوان القاهرة» إلى قائد القاهرة فى لغة ركيكة هى ترجمة خطابهم إلى الفرنسية : «تلقينا خطابكم الخاص بالمظالم التى تحدث فى المدينة، والذى تطلب فيه من الديوان ألا يخشىء شيئا ، فأنت تظهر الحق دائما، لأنك مجبر على توفير العدل للشعب ، خاصة الفقير . وما أجمل النظام الذى تهديه اليوم إلينا ، لقد فرح به كل شخص . وسنخبرك من الآن فصاعدا ، كما أمرتنا ، بكل المظالم التى سبق أن حدثت، لتعرف كل الشرور التى تقع علينا فى المدينة، وذلك دون خوف من أى شخص، مادمت تساندنا بسلطتك، لأن واجبك أن تعرف الشعب بواجباته، والحكومة باحتياجاتها ، مما لابد أن يدركه كل عضو يعرف ما حدث فى المدينة . ونحمد الله على النظام الذى أعطيتنا إياه . حفظك الله». وتاريخ

هذا المكتوب السابع عشر من سبتمبر عام ١٧٩٩ ، ويبدو إيجازه غريبا على ذلك العصر ، وقد يكون فى هذا الإيجاز أبلغ تعبير عن الشكوى المكتومة «لما يحدث علنا فى المدينة» ، ناهيك عن «واجبات الشعب واحتياجات الحكومة» !

ومع هذا الخنوع الظاهرى ، وفى خط مواز له ، نجد فى التقرير الذى سبق أن قرأنا جزءا منه ، المرسل فى سبتمبر (أى فى الشهر نفسه) إلى حكومة «الإدارة» : «التعصب الإسلامى ضدنا لا يروض بأية وسيلة . فهذا الشعب لا يرى مسيحيين يحكمونه إلا بصبر نافذ ؛ ولا تمنع أقسى العقوبات سكان القرى من الثورة عند سماع أى خبر فى غير صالحنا أو أى فرمان ضدنا ينشر بينهم» . فالمدينة والقرى إذن فى حالة من التأهب للثورة ضد مظالم الجيش المستعمر ، ومذكرات «مواريى» أحسن دليل على تلك الحال من التذمر المستمر الذى ينبىء بما سيحدث فى ثورة القاهرة الكبرى بعد ذلك بأشهر معدودة ، بينما حركات التمرد فى الريف مستمرة .

وفى خطاب بتاريخ الخامس عشر من سبتمبر عام ١٧٩٩ ، نقرأ كلاما غريبا ، إذ يتساءل فيه كليبر عما إذا كان «حسين أغا قد دفع الخمسة آلاف «تاليرى» ثمنا لحريته (...)، والسؤال نفسه بالنسبة لمصطفى بشتيلى ، المحكوم عليه بأربعة آلاف وخمسمائة «تاليرى» ، حسب التقرير المرسل عن سجناء القلعة . وأنا أرى أشخاصا كثيرين آخرين مستعدين لشراء حريتهم» .. فكل شىء بثمنه، والحرية أولا التى

تستعمل كسلاح لإجبار المصريين على دفع ما يفرض عليهم من إتاوات، أو ربما فقط كثمن لإخلاء سبيلهم بعد القبض عليهم لسبب آخر .. أو حتى دون سبب . وهذا هو مفهوم «الحرية» التى تعلمها المصريون من الجيش الفرنسى ؛ ونلاحظ أنها المرة الوحيدة التى تستعمل فيها كلمة «حرية» ! وفى مكتوب آخر بتاريخ السادس عشر من سبتمبر، أى بعد ذلك بيوم واحد، نفهم أن الشيخ السادات قد تم احتجازه لدفع كل ما يملك . فكليبر يقول : «سيعاد إليه كل شىء ماعدا ثلاثة مراكب سننظر فى أمرها ، حتى أعرف إن كانت لازمة ضرورية لإعادة الجسر، ....، إن نيتى، بصورة عامة، هى احترام المؤسسات الدينية الخاصة بالإنفاق على المساجد ومشايخها ، ولذا، فمثل هذه الطلبات من أجل استرداد هذه الأشياء لابد أن تقبل دائما» . والنية حسنة ، حتى لا يثور الرأى العام ؛ فالمؤسسات الدينية لابد أن تحترم ، وكانت تلك هى سياسة بونابرت من قبل ؛ ولكن كلام كليبر يدل على أن الاستيلاء يتم أولا، ثم ينظر فى الأمر فيما بعد .

وكثيرا ما تصدر الأوامر لمعاقبة القرى التى لا تفى بطلبات الجيش، وهى طبعا فى تناقض مستمر مع النيات الحسنة ؛ ونأخذ كمثل لها الأمر الذى صدر فى اليوم نفسه لمعاقبة قريتين لم تمتثلا لأمر صرف الغلال والحبوب التى يحتاجها الجيش . وتلفت نظرنا جملة فى خطاب بتاريخ السابع عشر من سبتمبر ، تبدو لنا بليغة فى تعبيرها ؛ إذ يقول كليبر للقائد الحربى فى دمياط : «لن نخشى أى نزول (للأعداء) على

الشواطىء لمدة ستة أشهر ، وبالتالى ، فإن لديك من الفرق ما يسمح لك بالسيطرة على البلد وتحصيل الضرائب» .. فالضرائب لا تحصل إلا بمعونة الجيش وباستخدام القوة ، ولابد من «السيطرة على البلد» أولا؛ كلمات تتكرر لدرجة الملل ، فلا ضرائب دون قوات مسلحة بكامل أجهزتها الحربية، ولا فرقة حربية دون تحصيل ضرائب . ولا يسع القارىء إلا الابتسام بمرارة ، عندما يكرر كليبر أسفه لما يقترفه الجيش من أعمال، كالذى نقرؤه مثلا فى خطابه إلى قائد المنيا الحربى، فى الثامن والعشرين من سبتمبر، يقول فيه : «كان أمرا رائعا أن تعاقب القرى المتمردة ؛ ولكنه أمر مؤسف أن نضطر إلى مثل هذه الوسائل؛ ورأيى أن الدرس المرعب الذى أعطيته لهم سيكون عبرة وستكون نتيجته قطعا ما ننتظره (من الآخرين)» . ولا ندرى إن كان واجبا على القارىء أن يشكر كليبر على تلك المشاعر الرقيقة .

وثمة خطاب يبدو غامضا للقارىء ، إذ يقول فيه كليبر لقائد من قواده «المواطن شامبى يطالب أن يكون لتلاميذ المدرسة نصيب من الملابس التى توزع على الفرق . ولا يسعنا إلا الموافقة على طلبه ؛ ولذا أرجو أن تصدر الأوامر حتى يحصل كل تلميذ على زى كامل بأقصى سرعة» . فما تلك المدرسة التى لم نسمع عنها ، اللهم إلا إن كانت المدرسة التى يتعلم فيها المماليك الذين استولى عليهم الفرنسيون ، أو انضموا إليهم ، أو الأقباط الذين اختارهم المعلم يعقوب ، ليتعلموا نظام فن الحرب الغربى ، ونحن نميل إلى هذا الشرح بسبب أمر إلباسهم زيا

كباقى الفرق، خاصة أننا لم نقرأ ما يفيد أن الفرنسيين علموا المصريين أى شىء، أو فتحوا لهم أية مدرسة .

نجد أيضا وصفا شاملا لحالة الشعب المصرى ، فى التقرير الذى أرسله المسئول الذى سبق أن استعنا بمكتوبه، والذى أرسل إلى حكومة «الإدارة» فى التاسع من أكتوبر عام ١٧٩٩ ؛ يقول فيه مراسلنا كيف خُدع الفرنسيون فى موارد البلد حتى أن «خمسة عشر شهرا من الأبحاث والتجارب من قبل رجال مستنيرين ، لم تستطع حتى الآن محو هذه الانطباعات الخادعة (عن ثراء البلد)» فمجمل العائد «بصرف النظر عما يسرقه - بكثرة - الأقباط ، الملزمين بتحصيلها ، يوازى بالتقريب أربعة عشر مليونا لاغير» ، وقد «حصل الجنرال بونابرت، عند وصوله ، على أربعة ملايين تقريبا، من الشعوب المختلفة والتجار. ومن الضرائب غير العادية ،...، ولم تعد الظروف تسمح لنا بعمل المثل ، وعلى الرغم من ثوراته العديدة ضدنا ، فإن الشعب المصرى يمكن أن يعتبر شعبا وديعا ولكنه كتوم ، ولا نستطيع أن نقول إنه يحبنا، مع أننا عاملناه أفضل، بكثير، مما يعامل به أى شعب مهزوم ، ولكن اختلاف التقاليد ، خاصة الدين ، واختلاف اللغة عوائق لا حيلة لنا فيها ولا تسمح بأية عاطفة صادقة ،...، المصريون يبغضون المماليك ويخشون سيطرة قسطنطينية، ولكنهم سيفضلون حكمنا على حكم أى من الدول التى يسمونها مسيحية» .

«ولنا فى كل مكان عشرة آلاف عدو خفى ، وصديق واحد ظاهرى» ،

وماهذا إلا نموذج لما ينفرد بشرحه هذا التقرير الطويل الذى يصعب تقديمه للقارىء كاملا .

ويبدو أن حدثا جللا وقع فى دمياط ، لأن قائدها مينو يكتب إلى كليبر فى الثالث من نوفمبر قائلا : «كان لحادثة دمياط أحسن تأثير، فمن كان ينوى أن يرفع رأسه منهم، يحاول أن يخفيه الآن بين سيقانه» ؛ ولا نعرف ما الذى فعله حتى يصل إلى هذه النتيجة ، ولكننا نتخيله بسهولة .

وتتوالى الخطابات ، ويتغير الكلام والأهداف هى نفسها ؛ فلا نجد ضرورة لتكرارها . غير أن هناك بعض كلمات لافتة للنظر ، مثل الأمر الذى صدر ضد من تبقى من سكان بولاق على قيد الحياة، بعد المجازر والحرائق التى أعقبت ثورة القاهرة الثانية ، وذلك فى السادس عشر من إبريل عام ١٨٠٠؛ إنها المبالغ الباهظة المطلوبة ، على أن تدفع فى ظرف عشرة أيام لا غير . والذى يقرأ تلك الأوامر يتأكد أن «الليمونة (كان يتم) عصرها» بطريقة منظمة ومستمرة فى كل الظروف ، ومن توابع الثورة ، ذلك الخطاب الدورى إلى الجيش فى التاسع عشر من مايو عام ١٨٠٠، الذى يدل على أن الاضطهاد مستمر يوميا: «يتلقى القائد العام التماسات وشكاوى من سكان مدينة القاهرة يوميا ، بسبب اهانات وابتزازات أخرى يمارسها قواد المناطق بطريقة تعسفية؛ وتدلنا تلك الشكاوى ، على وقوع تجاوزات أخرى مشينة، فهناك إفرنج ومسيحيون آخرون يدعون أن أشياء تخصهم قد سلبت منهم أثناء الثورة ، يذهبون إلى هؤلاء القواد زاعمين - بحق أو

دون حق – وجـود تلك الأشياء فى منازل محمديين (مسلمين) وبناء على ذلك فإن هؤلاء القواد يصدرون أوامراهم بفتح تلك المنازل ، ويسمحون للمسيحيين – دون أى أمر رسمى – بأخذ الأشياء التى يدعون ملكيتها . مثل هذا التصرف لا تكون له إلا نتيجة واحدة، ألا وهى نشر الذعر والرعب فى النفـوس بدلاً من عودتها إلى السكينة والثقة التى توطد الهدوء العام، ولابد من وقف مثل تلك التصرفات فورا»، ولم نسمع عن معاقبة أحد بعد ذلك ..

إن قارىء التقرير الذى أرسل إلى فرنسا عن كبح الثورة ، والوصف السعيد لكل الفظائع التى اقترفها الجند أثناء ذلك كى يشفوا غليلهم ، لن يعجب – هذا القارىء – إذا ما ارتكب بعد ذلك ما يراه كليبر «مشينا» ، فمن الطبيعى أن تتحول القاهرة إلى مرتع لكل من أراد أن ينتقم لنفسه من جار أو صديق لأمر ما؛ وترشدنا مساعدة الضباط الفرنسيين إلى ما كان يحدث غير ذلك من تصرفات ، فى مدينة هزمت وأحرقت وأذلت؛ وكان كليبر نفسه يرى أن انتقام الجند منها كان أمرا مشروعا ، ومن حق الجيش المنتصر .

وبعد تلك اللفتة «الإنسانية» ، تكون الأوامر التى ترشدنا إلى معنى «السكينة والثقة» عند كليبر ، وهى الأوامر التى تخص حادثة القبض على الشيخ السادات وضربه ؛ تلك الحادثة الشهيرة التى أثارت الرأى العام، آنذاك ، بصورة فجة .

وأول حديث عنها ، نجده فى خطاب العاشر من مايو عام ١٨٠٠ ،

الذى يقول فيه كليبر : «بناء على خطاب المعلم يعقوب ، سترسل ضابطا من القيادة العامة إلى القلعة ، ليبلغ الضابط «دوبا» أن يأمر بتجهيز عدة ضرب العصا الخاصة بالسادات البخيل؛ ولحظة تنفيذ ضرب السادات ، يدخل ضابطك إلى السجن، ويسلم «دوبا» أمر وقف تنفيذ الحكم ، ويؤخذ المجرم إلى منزله ومعه عشرون جنديا تحت قيادة ضابط مسئول مسئولية تامة عن السجين ، وكذلك تابعى الذى ستحّمله أنت شخصيا هذه المسئولية . وسيقال للسادات إنه إن لم يدفع فى ظرف ستة أيام من اليوم ، مبلغ مائتين وخمسين ألف «باتاك»، سيرسل مرة أخرى إلى القصر (القلعة) هو وزوجته ولن يخرج منه» . ونذكر هنا أن السيد كريم كان قد اتهم هو أيضا بالبخل عند الحكم عليه بالإعدام. من البديهى أنه قد قبض على الشيخ السادات بعد وشاية من المعلم يعقوب. وبعد تلك الأوامر، نجد خطابا طويلا من الشيخ السادات بلا تاريخ، موجها إلى «القائد كليبر» ، يذكره فيه: «لقد كنت دائما صديقكم منذ وصول القائد العام بونابرت والفرنسيين إلى القاهرة» ؛ وأن ما أخذه منه المحروقى لم يكن إلا سلفة ؛ وأنه فى الثامنة والستين من عمره ولم يضربه أحد فى حياته ، «ولا والدى ولا من ربونى» ؛ ويذكره أيضا أنه من بيت كانت له مكانته منذ خمسمائة عام، وأن الجميع ، حتى الأمراء كانوا يحترمونه . وأن الجنرال بونابرت نفسه قد أحبه واحترمه . فهو يتوسل إليه لأنه يضرب فى اليوم مرتين ، وأن على من يتهمه بأن لديه مالاً يخفيه، أن يخرجه بنفسه . وبعد ذلك بصفحات عديدة ، نجد خطابا بتاريخ الثانى والعشرين من مايو عام ١٨٠٠، يفيد بالآتى :«فليصدر

الجنرال (داما) أوامره حتى تسلم زوجة الشيخ السادات الى الشيخ سليمان الفيومى . وسيرحل الشيخ السادات نفسه إلى القلعة ، وله حق اختيار خادمين» . ثم «إلى قائد القلعة فى الثانى من يونيو عام ١٨٠٠ .. فليترك الشيخ السادات لشأنه مادام مصرا على موقفه ؛ ولكن عليك مراقبته حتى لا يستطيع الهرب» . هكذا كان يعامل صديق الفرنسيين .. فما بالك بالآخرين .

وقد اعتبر الناس ، فى ذلك الوقت ، ما حدث للشيخ السادات وهو من أكبر مشايخهم ، رمزا لما يعانون من تعسف . ولهجة الاحتقار التى يستعملها كليبر فى الحديث عن السادات تفى بما يكفى لنتخيل كيف كان يعامل باقى المصريين ، إن كانت تلك معاملته لأحد كبارهم .

★★★

وهناك – من ناحية أخرى – قصة الفرنسيين والمماليك، وأشهرهم طبعا مراد بك ، ونكتفى بقصتهم معه . فكل الخطابات تدل على أنه وأنصاره كانوا يمثلون ، دائما، خطرا محدقا يهددهم ويمنعهم من السيطرة على مصر العليا ، أى الصعيد ، ويحرمهم من خيراتها . ونفهم – سواء كان ذلك من التقارير المرسلة إلى فرنسا ، أو الأوامر المرسلة إلى القواد الحربيين – أن البدو ومراد بك ومماليكه ، لا يتركون الفرنسيون يهنأون بالراحة يوما واحدا ؛ وإذا ما انتصر عليه الفرنسيون فى معركة واحدة ، فهم فى كل مرة يأسفون لأنهم لم يستطيعوا الإجهاز عليه . فالفر والكر كانا أساس

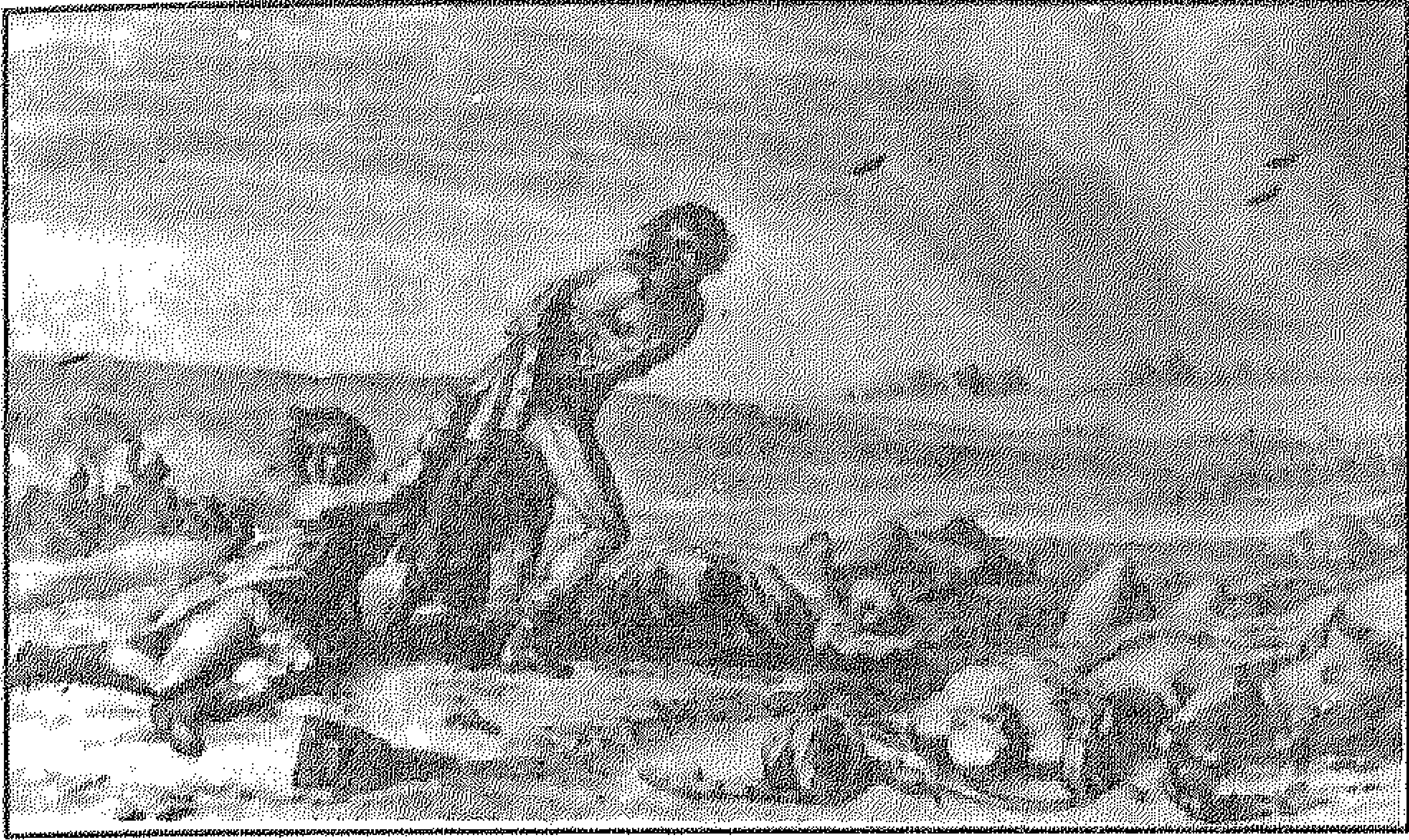
هجومه ، مما جعله هو وجنده كالسراب : كلما لحق بهم الفرنسيون ، اختفوا ، أيا كانت خسائره ، وكانت دائما ضئيلة . ونعرف من خطاب بتاريخ الخامس والعشرين من ديسمبر عام ١٧٩٩ ، أن ثلث الجيش الفرنسي يتمركزون في الصعيد من أجل محاولة القضاء عليه ، مما كان يضعف طبعًا الجيش الفرنسي كله ، ويدل على أهمية مراد بك وخطره عليهم .

ولكن الأمور تتغير عندما تدخل المفاوضات مع العثمانيين والانجليز في مرحلتها الحاسمة ، وينتظر الجميع - وأولهم الفرنسيون - أن يحل الجيش العثماني محلهم في مصر . ولذا ، لا نعجب عند قراءة الخطاب التالي ، المرسل من مراد بك ، إلى القائد الفرنسي الذي يحاربه . يقول له في الثامن من فبراير عام ١٨٠٠ : « إلى الجنرال الفرنسي . كتب لي كل من الوزير (العثماني) وإبراهيم بك أن السلام قد تم مع الفرنسيين ، وأن عليّ أن أمتنع عن أي فعل عدائي ضدكم . وعلى الرغم من ذلك ، إلا انكم مازلتم تطاردونني ؛ فإذا حدث مكروه فستكونون أنتم البادئون . لقد أخبرتكم بما حدث، وعليكم أن تتوقفوا عن مطاردتي وتأكدوا أننا في هذه الحالة، لن نضير أي فرنسي . حامل هذا الخطاب سيفيدكم بالباقي». وفي الحادي عشر من فبراير ، يهنيء كليبر الجنرال الذي تلقى هذا الخطاب على قبوله «الهدنة التي عرضها مراد بك ، نتيجة المعاهدة مع الوزير (العثماني)» .: ولا يمنعه ذلك من تهنئته مرة ثانية بعد ذلك بأسبوع، في التاسع عشر من فبراير، عما «قام به ضد مراد بك وسكان

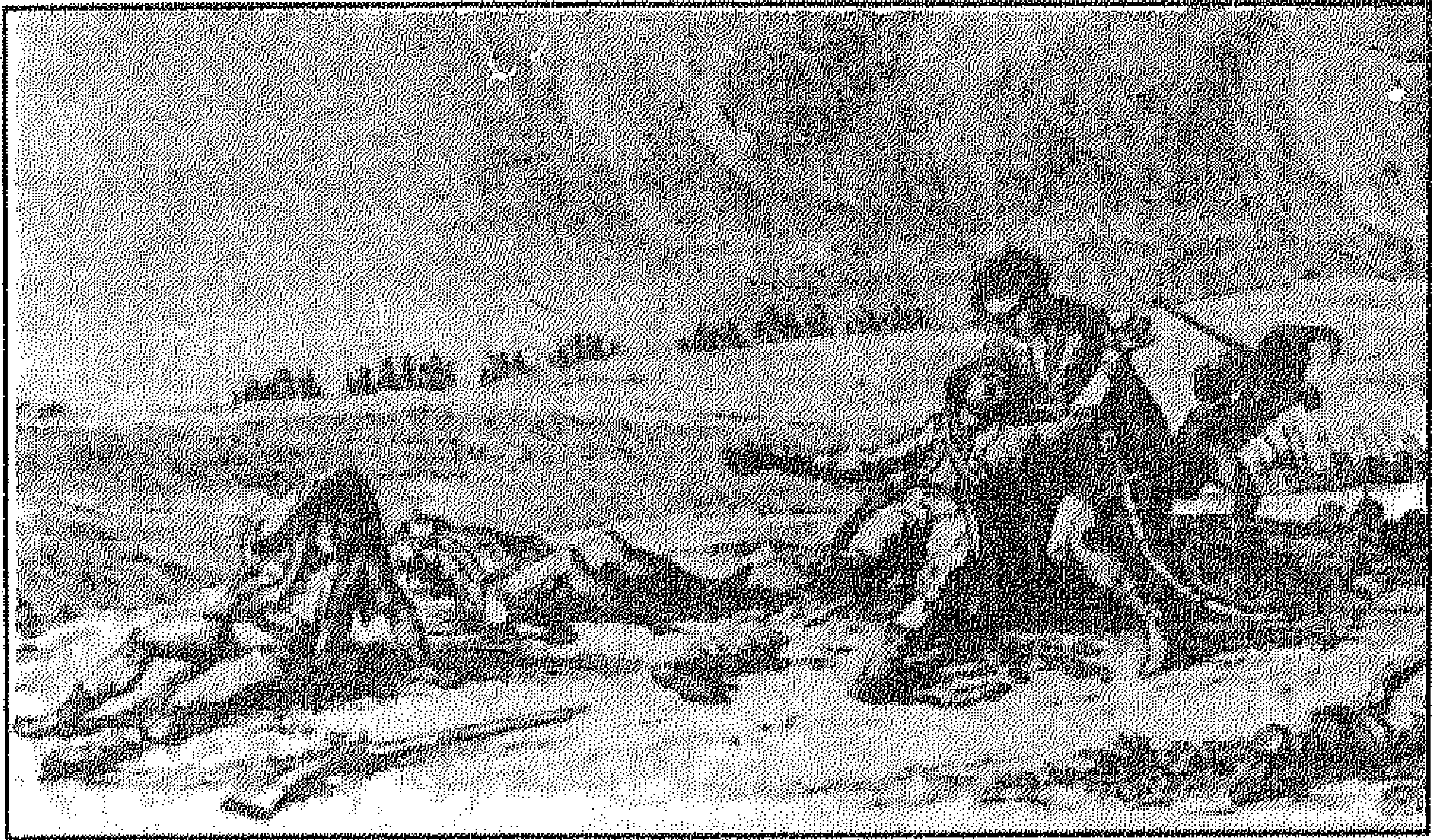
مقاطعة بني سويف»، أي أن الهدنة لم تمنعهم من مُحاربة مراد بك. ثم تكون الخطوة التالية ، عندما ذهب سكرتير المعهد الفرنسي، كمندوب لكليبر، ليعقد اتفاقا مع مراد بك ، عن طريق زوجته «الست نفيسة»، ليعرض عليها صداقة الفرنسيين لو أن مراد بك انفصل عن قوات العثمانيين؛ إنه يعرض عليها أن يقتسم الفرنسيون الحكم على مصر مع مراد بك، إلى أن تنتهي الحرب في أوربا ، فيترك له الفرنسيون الحكم على البلد كله . وينتهز الرسول فرصة وجوده مع «الست نفيسة» ليطلب عفو «جواريها وجواري إبراهيم بك اللاتي يعشن مع الجنرالات الفرنسيين، خاصة تلك التي تعيش عندك (كليبر) والتي طلب منك الجنرال دوجا حمايتها» .

صدق «فيفان دينون» عندما قال إن الفرنسيين حرروا مصر من المماليك ، وحلوا مكانهم ! وكانت جواري الجند أقل حظا . فقد أخذ أسيادهن في بيعهم عند الرحيل ، وكانت البحرية الإنجليزية هي التي تشتري منهم كل شيء : السلاح والجواري . هذا ما يصفه المؤرخ «ماكيزي» في كتابه عن «النصر البريطاني في مصر» . .

ولنعد إلى الخطاب السابق ذكره ، لنقرأ البقية : «وعدت هذه السيدة أن تضم صوتها إلى صوت الشيخ الفيومي (...) حتى لا تصاب هذه الجواري بأي أذى . سترسل «سيلون» إلى بيت الشيخ، ومما لاشك فيه أنها ستكون في مأمن عنده. وقالت الست نفيسة إن الجنرالات الفرنسيين يعيبهم أنهم خطفوا أجمل جواريهم ، وكان خطأ هؤلاء



،معركة سيدمان جنوب الفيوم بجانب بنى سويف،
(نرى فيهما ماتكبده الفرنسيون من المقاومة المصرية)



الجوارى تغيير بيوتهن. ولكن لابد أن ينظر إلى هذا النوع من الأخطاء برأفة» . ولم نعرف ماذا سيحدث بعد ذلك لهؤلاء الجوارى ..

لن نعجب، بعد هذا الخطاب ، إن قرأنا فى التقرير الذى أرسله كليبر إلى الحكومة الفرنسية عن الأحداث التى مر بها هو وجيشه منذ فشل معاهدة العريش ؛ نقرأ بقلمه : «عندما وصلت شروط المعاهدة العريش، بعث مراد بك يطلب صداقة الفرنسيين»، والدليل عندنا أن العكس هو الصحيح . والأكاذيب التى ستستجد هى التى ستصبح الرواية الرسمية للتاريخ الفرنسى ، إذ يضع كليبر على لسان مراد بك بعد ذلك، ما يحلو له ليفخم دور القوات الفرنسية التى لم تستطع ، حتى آخر لحظة ، القضاء عليه والسيطرة على الصعيد ؛ وزيارة سكرتير المعهد إلى «الست نفيسة» خير دليل على ذلك . أما علاقة مراد بك بالفرنسيين بعد ذلك ، فالكل يعرفها لأنها جزء من التاريخ المعترف به من كل جانب.

★★★

ولكن ما لا يذكره التاريخ ، هو ما يبدو للوهلة الأولى كذبة كبيرة . فالمعروف أن كليبر كان يرفض فكرة تحويل مصر إلى مستعمرة فرنسية ، مما جعله على غير وفاق مع بونابرت . وبسبب تلك المسألة ، نجد كثيرا من الخطابات المتداولة بينه وبين مينو الذى كان يحبذ الفكرة، بل كان من أكبر أنصارها ، فكانت سبب خلاف عنيف بينهما. وقد قُتل كليبر بعد ثورة القاهرة الثانية بفترة وجيزة ، ويبدو أن عدم اهتمام الحكومة

الفرنسية بحاله هو وجيشه، ويأسه من الوصول إلى معاهدة مقبولة للانسحاب من مصر ، جعلاه يعيد النظر فى خططه .. فكان المشروع التالي؛ مشروع جذب يونانيين إلى مصر ليقوموا بالدور الذى قام به الأوربيون والفرنسيون بعد ذلك في الجزائر .

وأول تنويه عن الموضوع ، نجده فى خطاب بتاريخ السادس من مايو عام ١٨٠٠ ، أى بعد ثلاثة أسابيع تقريبا من نهاية ثورة القاهرة ، يقول فيه كليبر لأحد قواده : «أنا سعيد جدا أن تجنيد نيكولو قد نجح إلى حد ما ؛ احمه بقدر المستطاع ، هو ورئيس كنيسته بالإسكندرية لأننى أظن أن هذا هو العون الوحيد الذى يمكننا أن ننتظره ، ولو أن مامن شيء مضمون» .. وبعد هذا الكلام الغامض ، تتضح الرؤية فى الخطاب المرسل إلى قائد منطقة دمياط الذى نقرأ فيه : «استمر فى حماية المراكب اليونانية التى تصلك من الموانيء المختلفة (...) وقل لهم أن يخبروا مواطنيهم بأننا سنستقبل الذين يريدون الهجرة من بلدهم ليستوطنوا في مصر ، بكل الحفاوة الممكنة . سألحق بالخدمة من كان منهم جنديا أو بحارا ، وسأعطى أرضا للفلاحين ، والتجار منهم سيتمتعون بأكبر قدر من الحرية ، وسيكون من حقهم بناء الكنائس فى كل المدن حيث سيكون لهم مطلق الحرية فى ممارسة طقوس دينهم علنا» .

ومرة أخرى، يكتب كليبر الكلام نفسه، ويقدم العروض نفسها، ولكنها لقائد الإسكندرية هذه المرة .

وقد يكون هذا المشروع ، حسب علمنا - والله أعلم - الوحيد الذى نراه فى حيز التنفيذ ، فى حالة استعمار مصر نهائيا ، ولا نرى فيه أى تنويه لأى من مبادىء الثورة أو تحضير الشعب المصرى وتعليمه .

★★★

وعلاوة على مشروع «عصر الليمونة» ، فهناك مشروع آخر لكليبر وقد نجح بالفعل . ففى التاسع عشر من نوفمبر عام ١٧٩٩، صدر «للقائد العام كليبر» ، أمر من أربعة بنود: أمر كليبر فى بنده الأول، «بتشكيل لجنة وظيفتها جمع كل المعلومات التى تساعد على معرفة الحالة الراهنة لمصر؛ معلومات عن تقارير الحكومة، والقوانين، والعادات المدنية ، والدينية والخاصة، عن التعليم العام والتجارة» .. إلخ إلخ إلخ .. وفى الثانى والعشرين من نوفمبر عام ١٧٩٩ ، يزيد على مشروع اللجنة أن «الفرنسيين ،...، الذين زاروا مصر العليا ، بالنسبة للعلـوم والفنـون ،...، عليهم أن ينضموا إلى اللجنة لأن الهدف واحد، وهو جمع المعلومات لنشر التعليم والمشاركة فى بناء نصب أدبى جدير بالاسم الفرنسى».. يلى هذا، الإجراءات الإدارية لتنفيذ المشروع، دون أن نفهم بالضبط ماذا يعنى كليبر «بنشر التعليم»، وأين؟!.. ويبدو أن الفكرة قد تبلورت مع الأيام، ففى الخامس والعشرين من نوفمبر ، يحدد أخيرا «الهدف الذى يجب الوصول إليه وهو إعفاء الأجيال القادمة من البحث - تحت أطلال القرون وفى بحر من الافتراضات - عما كانت عليه مصر فى المرحلة التى مر فيها الفرنسيون من عهد الملكية إلى عهد

الحكومة الجمهورية» .. وضحت هنا رؤية كليبر وهدفه ، وفهمنا إذن أن الفرنسيين هم المستفيدون من عملية «التعليم» السابق ذكرها . وأثناء مفاوضاته مع الإنجليز ، يطلب كليبر من المفاوض الإنجليزى فى السابع من ديسمبر ، إذنا خاصا للفنانين ورجال الأدب ، «فأوربا كلها لابد أن تنتفع بأبحاث غاية فى الأهمية ، قاموا بها فى هذه البلاد» . وعندما يرسل تقريرا إلى حكومة «الإدارة» فى التاسع من يناير عام ١٨٠٠ ، يتوقف طويلا عند «وصف مصر القديمة» . ويتحدث عن «الحيوانات والنباتات وكل المنتجات الطبيعية لهذا البلد ، التى درست ووصفت: نتائج هذا العمل ستثرى المجموعات الوطنية ،.... هذا المشروع الأدبى ستستقبله حكومات أوربا كلها وسيكون له أحسن استقبال فى بلد ، تشجع فيه الحرية كل الفنون ،..... هذه الأبحاث عن الحالة الراهنة والحديثة لمصر تمثل أمرا مهما للفلسفة والسياسة» ..

يبدو كل هذا الكلام طبيعيا من رجل القرن الثامن عشر ، تلميذ فلسفة التنوير ، المتعطش لكل جديد ، ولمعرفة كل شىء، المهتم جدا بعرض النتائج مع المجموعات المعروضة بالفعل، فى المتاحف للجمهور الفرنسى لتعليمه . ولا يفوت رجل الثورة أيضا أن يعيد ما يعتبر من مستلزمات لغة العصر عن «الحرية» وإيجابياتها ، بينما كان حب العلم فى الحقيقة، ومعرفة كل جديد ، بل حتى وإنشاء المتاحف، من موروثات العهد الملكى ؛ بما فى ذلك الهدف «السياسى» الذى يكتب عنه كليبر . أيا كان ، فقراءة التقرير طويلة ، ولا يمكننا تقديمه بالكامل ؛ ولكن، علينا أن ننتقى الجمل التى تعتبر نواة لما سيصبح كتاب «وصف مصر».

فكليبر يبلغ الحكومة عن سفر أحد أعضاء اللجنة «الذى انتخبه كل زملائه بالإجماع ليتولى الإشراف على طبع كتاباتهم ،...، وقد رأيت أن أحتجز بجانبى ، وبأوامر واضحة ، أعضاء اللجنة الذين تكون أبحاثهم خاصة بالجيش ، وبمصلحته المباشرة» .. الكلام واضح ، ولا يحتاج لتعليق : هذه الأبحاث لها هدف مباشر فى مصلحة الجيش المستعمر .

وفى الأول من فبراير عام ١٨٠٠ ، يهنىء كليبر رئيس لجنة الفنون ، ويسمح له بمراسلة الجمعية الملكية بلندن «فالتداول المتبادل بين التنويريين مهم للعلوم ، ولا يجوز أن توقفه الحروب السياسية» ، مما يثبت أهمية البحوث العلمية بالنسبة للرجل ، بصرف النظر عن أية قيمة نفعية ، لأنه فعلا – وعمره كما سبق أن رأينا يؤهله لذلك – من تلاميذ مدرسة التنوير ، وقيمها العلمية المجردة حتى إن استفاد منها أيضا سياسيا وعسكريا .

ولكننا نلاحظ أنه يبحث أيضا عن المجد لوطنه ، فتلك الدراسات التى يفخر بها – وبحق – إن نشرت ، فهى فى واقع الأمر ، المكسب الوحيد الذى غنمته فرنسا من الحملة على مصر .

ولكن خطابا خاصا إلى أحد الوكلاء الفرنسيين ، فى الثانى والعشرين من مايو ، يجعلنا نظن أن الأمر فى حقيقته ، لم يكن منزها من الأغراض ؛ فكليبر يقول : «لقد تقدمنا كثيرا فى هذا الكتاب الشهير، الذى يخص طبيعة الضرائب فى مصر؛ ولا يبقى لنا إلا معرفة الكثير من الحقوق الصغيرة، غير المكتوبة ، والتى يبدو أن التقاليد قد رسختها ؛ ثم

معرفة النسبة المطلوبة من كل قرية ، وأسماء تلك القرى كلها ؛ كل هذا طويل جدا ، لأن علينا أن نعمل مع الأقباط» : هل كان يقصد بهذا ما أصبح بعد ذلك كتاب «وصف مصر» ؟ أم أن تلك الأبحاث كانت تخص ترشيد الضرائب كي تجمع بشكل أفضل فقط ؟، ولكنه يقول : «الكتاب الشهير» ؛ هل يضرب بذلك عصفورين بحجر واحد ؟ ممكن ..

أيا كان ، فإن كليبر قد مات ، وتولى مينو تنفيذ المشروع الذى ذهب مع علمائه إلى فرنسا ، حيث عرف الإمبراطور نابليون بعد ذلك كيف يمكن أن يستفيد منه لدعايته الشخصية ، وظهر الكتاب مهدى إليه لمزيد من التمجيد الشخصى ، ويحمل شكراً «للفرنسيين الذين قاموا بكتابته» كما تقول صفحته الأولى ، وكما أسلفنا فى الجزء الأول .



وبعد، فقد انتهينا الآن من قراءة الأجـزاء الأربعـة للمكاتبات الرسمية والخطابات الخاصة التى جمعها «هـنرى لورانـس» عن عـصر كليبر، منذ أن كان قائدا للإسكندريـة، حتـى طعـنه سليمـان الحلبـى فى مقـتل. وقد تعرفنـا علـى الأوامـر والمشروعـات التـى كانت تخرج من مكتب القائد العام لمصر. ولم نجد فـى تلك المشروعات – كما سبق أن قرأنا فى كل ماكـان يمارسه كليـبر من سلطـات – أى تنويه عن أى مشروع حضارى يفيد المصريين أو يعلمهم جديـدا فـى أى ميدان، حرفيـا كان أم ذهنـيا : كان كليـبر يقـود جيشا استعماريا، يمارس عنفه الطبيعى نظرا لطبيعته كمستعـمر، ذلك

العنـف الذى ينتظر من أى جيش استعمارى فى أى بلد وفى أى وقت، لاغير .

إن الذين قتلهم كليبر بحكم إعدام فردى - والحق يقال - أقل مما فعل بونابرت بكثير ، ولكن ضحايا ثورة القاهرة الكبرى ، وضحايا السلب من بعدها ، أكثر بكثير منهم أثناء حكم بونابرت. أما ضحايا الأقاليم ، فالعدد لم يتغير طبعا . والاختلاف بين شخصيتى القائدين وفلسفتيهما ، جعل الصورة تتغير كلية من حكم إلى حكم ، خاصة فى ظل الظروف التى جدت ، والتى كان على كليبر أن يعمل لها ألف حسـاب .

وكان هدف كليـبر الأول ، أن يجمـع المال بأيـة طريقة ليشـبع جيشا كان فى حالة من التذمر المستمر ، خاصـة أن قائـده السابـق هرب وتركه يتصرف فى ظروف قاسية ، كان جيشه هو أول من دفع ثمنها . ومعاملة كليـبر للمصـرييـن لا تـدل علـى أى نـوع من الاحترام أو التقدير لأى مـركز أو هيـبة ، حتـى لأكبـر كبرائـهم ، لأنه لا يبحـث عن أى مجـد ذاتـى؛ فهـو لا يتمـلق الشخصيـات العامـة - كما كـان بونابـرت يفعـل. كـان - بصفتـه جنديا محنكا ، دون أية أطماع سياسية - لا ينظر إلى البلد المستعـمر إلا بالطريقة الوحيدة التى يمكن أن يفيده بها هذا البلـد .. إنـها «الليمونـة» ، علـيه عصـرها إلى آخر قـطرة ، وحتـى بعـد ذلك . ولا ننسـى أنـه هو نفسه قالـها فـى العديـد من الخطابـات .. إنه لا يرى أى

مستقبل لوجود فرنسا فى هذا البلد الذى يرفض فكرة استعماره لأسباب لا مجال لذكرها هنا . ومن البديهى أنه أجبر على تقبل الفكرة ، بعد انهيار اتفاقية العريش وثورة القاهرة ، فأخذ يبحث عن بديل للشعب المصرى، كأن مصر بلد بلا شعب ، لأنه يدرك تماما مدى رفض المصريين للفرنسيين ، فهو يراهم كبرميل بارود يمكن أن ينفجر فى أية لحظة - وقد كان .

★★★

تولى مينو السلطة بعد وفاة كليبر ، وخرج بالجيش مهزوما عام ١٨٠١ .. وبدأت أسطورة نابليون وأسطورة الحملة بسياسة عبادة الفرد فى عصر الإمبراطور ، وبعد هزيمة نابليون بدأت أسطورة أخرى، بأقلام الفنانين والأجيال الجديدة من الحالمين بمجد فرنسا الحربى تحت إمرة إمبراطورهم المنفى . ومرت العقود، وجاء بعض الفرنسيين فى عهد محمد على، مثل «السان سيمونيين» العابدين لنابليون ومشروعه الاستعمارى؛ وقد لعب محمد على بذكاء شديد على مشاعرهم تلك ، مؤكدا لهم أنه سلف نابليون الأمين .. وصدقوه .

ولن نتعرض لكتابات «السان سيمونيين» عن مصر ، لأنها تاهت مثل الجدول الصغير فى الصحراء ؛ ولم يتركوا أثرا يذكر ، لا فى فرنسا ولا

فى مصر . وقد استطاعوا بعد ذلك ممارسة أحلامهم الاستعمارية بنجاح كبير فى الجزائر الفرنسية ، بعد أن عرف محمد على كيف يستفيد من تقنياتهم الهندسية ، دون أن يترك العنان لأحلامهم الخاصة، ودون أن يمنحهم فرصة السيطرة على غير المشروعات البناءة لصالح مصر فقط .

ولكن فرنسيا آخر عاش فى مصر، وكانت شهادته على ما تركه فرنسيو الحملة من آثار، غاية فى الأهمية بالنسبة لنا : إنه كلوت بك ، الطبيب الشهير .

الفصل الثانى

ما بعد الحملة

«يهرب المصريون بأقصى سرعة أمام الأوربيين المسلحين: إنما ذكرى نابليون التى لا تزال حية ..... لقد قاسى [المصريون] الكثير من وحشية جند بونابرت . وقسوتهم وكبريائهم ؛ أمر طبيعى ، فهم جند مرحلة «الإرهاب» فى فرنسا» .

(جوستاف فلوبير)

«إدوارد لين» : «عادات وتقاليد المصريين المعاصرين»

لا نستطيع أن نتحدث عما كتبه كلوت بك ، دون المرور سريعا على كتاب مشهور، كان له تأثيره الفعال علي كلوت بك نفسه كما سنرى، وهو كتاب الإنجليزى «إدوارد لين» (١٣) .. وعلى الرغم من أن «لين» لم يتعرض لآثار الحملة بالذات فإنه لا يهمنا إلا بالقدر الذى يتحدث فيه ، وبطريقة عابرة ، عن هذه الآثار ، إن وجدت. فقد كان هدفه الأول ، كما يقول عنوانه صراحة ، هو دراسة المصريين أنفسهم . شهادته ، إذن ، غاية فى الأهمية ، لأنه لم يمر مرور الكرام على مصر ، كما فعل «شاتوبريان» مثلا ، وغيره من المسافرين الفرنسيين الآخرين .

لقد عاش «لين» (١٨٠١ - ١٨٧٦) عدة سنوات فى مصر . منذ عام ١٨٢٥ حتى عام ١٨٢٨ ، ثم عاد إليها مرة أخرى فى عام ١٨٣٣ وبقى فيها حتى عام ١٨٣٥ . وقد جعلته معرفته الممتازة للغة العربية وحياته وسط المصريين ، وكأنه واحد منهم ، أحسن من يتحدث عما يدور فعلا فى البلاد ، من عادات وأفكار ؛ وبالتالى، فعلينا أن نبحث فى كتابه الأمين عما يقوله المصريون ، أو يفعلونه ، فى عصره ، ويوضح ذلك ، الأثر الذى قيل مرارا إن الجيش الفرنسى وبونابرت تركاه فى مصر، وعلى المصريين .

«إدوارد لين» يصف كل شىء ، بما فى ذلك الأفراح والمآتم ، وحتى طريقة طهو الطعام ، الفتة مثلا . ولكن حديثه عن الحملة لا يأتى إلا عرضا ، فهو يقول مثلا : «هناك العديد من المساجد فى مصر ، حيث لا

يسمح لإفرنكى أو أى مسيحى آخر أو يهودى أن يدخلها فى السنوات الماضية ، وذلك منذ الحملة الفرنسية» . كما يؤكد أن «التعليم كان فى القاهرة ، قبل دخول الجيش الفرنسى ، فى حالة أكثر ازدهارا عما هو عليه فى السنوات الأخيرة . فقد تأثر التعليم جدا بسبب الحملة ، ليس بسبب اضطهاد مباشر ، ولكن نتيجة لحالة الذعر التى سببها هذا الحدث والاضطرابات التى تلتها» . هذه هى إذن الذكرى التى تركتها الحملة بين جمهور سكان القاهرة .

نقرأ كذلك ، كذكر للحملة ليس إلا : «هذه التوابيت ،... أخذها الفرنسيون أثناء احتلالهم لمصر ، وهى الآن فى المتحف البريطانى» .. وانتهى ذكر الحملة فى هذا الكتاب .

نلاحظ أن «إدوارد لين» يذكر أن «أكثر العلماء المعاصرين علما فى القاهرة ، الشيخ حسن العطار ، هو الآن شيخ الأزهر» ، دون أن يذكر علاقته بالفرنسيين . كذلك حديثه عن «السيد عمر (مكرم) نقيب الأشراف ، الذى كان أهم من ساعدوا محمد على فى الوصول إلى مركز باشا مصر» .. لا نجد كلمة واحدة عن دوره أثناء الحملة، وكأن هذا الدور قد سقط أيضاً من ذاكرة المصريين مع سقوط ذكرى أحداث الحملة. وبعد هذين الاسمين، لا يذكر الجبرتى إلا بصفته «مؤرخا لكل الأحداث التى مرت بها مصر» دون ذكر لدوره أثناء الحملة ، وتأريخه لها ؛ فما هذا الجزء إلا حدث وسط باقى الأحداث فى كتابه الشهير . يحكى «لين»، كذلك، عن الأساطير الشعبية التى تغنى فى المواسم والمناسبات،

فيذكر «سيرة أبى زيد الهلالى» و«حياة الظاهر بيبرس» دون غيرهما، على عكس ما يقوله الفرنسيون من أن المصريين يتغنون بجند الحملة حتى يومنا هذا . و«إدوارد لين» يكتب كثيرا عن «الفرنجة» فى مصر، والمفهوم طبعا أنهم الأوربيون ، وكان عددهم قد زاد بطريقة ملحوظة فى ذلك العصر ، دون أن يرجع «لين» مرة واحدة إلى سابقيهم من الجند الفرنسيين .

وقد تكون أفضل خاتمة لمن يبحث عـن آثار الفرنسيين فى مصر، فى هذا الكتاب الإنجليزى ، القصتان التاليتان : أولاهما ، يحكى فيها المؤلف ، أن أحد معارفه «من المصريين سأل مواطنا له ذهب إلى باريس ، عن أكثر شىء لفت نظره هناك ، فأجابه : إنها حفلات الرقص، حيث يسمح الزوج لزوجته بمراقصة غيره أمام عينيه» . ويعتبر ذلك خير دليل على الفجوة الحضارية التى تمنع وجود التفاهم بين الجانبين، المصرى والفرنسى كليهما . ويؤكد، بالتالى، استحالة محاكاة أحدهما للآخر . وهو ما تؤكده القصة الثانية .

يقول «لين» : «مع كل تقديرى للتجديدات الحديثة (فى عصر محمد على) إلا أننى وصلت إلى بعض الملاحظات الصغيرة فى هذا الشأن ، كانت نتيجتها أننى وجدت أن أنوار العلم الأوربى مقصورة تماما على موظفى الحكومة الذين أجبروا على التعلم على أيدى معلمين إفرنج، وأن العادات الأوربية لم يتبنها - بالكاد - إلا قلة قليلة جدا من «الأتراك» . وقد أخبرنى بعض المصريين الذين درسوا لبضع سنوات فى فرنسا

بأنهم لا يستطيعون نقل أى من المفاهيم التى اكتسبوها، حتى إلى عقول أقرب المقربين إليهم من الأصدقاء» . فما بالك بتوصيل مفاهيم جند محتلين لم يمكثوا إلا ثلاث سنوات، قضوا معظمها محاولين كبح لهيب الثورات؟

يصل القارئ إذن إلى نتيجة واضحة لاشك فيها: إن «إدوارد لين» ، فى معاشرته اليومية للمصريين، لم يقابل ما يذكره بالحملة إلا بطريقة عفوية، لابد أن تمر دون أى انتباه على القارئ العادى لأنها، فى واقعها، لا تعنى شيئا للمعاصرين فى ثلاثينات القرن التاسع عشر.

★ ★ ★

«كلوت بك» : «لمحة عامة إلى مصر»

ولكن، قد يقول الفرنسى «كلوت بك» ما يفيدنا أكثر، قد يكون الإنجليزى متحيزا، مهملا لما يمكنه أن يمجد فرنسا الغريمة، عدوة القرون السابقة، أو رجلها الكبير الذى كان يسمى «الغول» فى إنجلترا. «فكلوت بك»، مثل «إدوارد لين»، عاش هو أيضا وسط المصريين فى العصر نفسه، وقالها كلوت بك صراحة، إنه شعر بالغيرة من كتاب «إدوارد لين» (١٤)، وبذا فقد قرر هو أيضا أن ينشر كتابا يصف فيه مصر. وقارئ الكتاب يتأكد من ذلك عندما يقابل أوصاف الأفراح والمآتم، وغير ذلك من التقاليد المصرية، كما فعل «لين» بالضبط. ولكن، ثمة هدف آخر لهذا الكتاب: إنها الحرب الإعلامية المستعرة فى فرنسا

آنذاك، لأن الحكومة هناك كانت تساند محمد على، وكان بعضهم يرفض تلك السياسة، بسبب قضية الشرق وحرب الاستقلال فى اليونان. فكتب «كلوت بك»، كي يرد على هؤلاء الصحفيين، ما يفيد أن سيده حاكم مستنير، يعمل لخير بلاده. أراد أن يعضد موقف «محمد على» بعد أن اتهمه بعض الفرنسيين بالدكتاتورية الظالمة، بصفته من حكام الشرق المسلم الغارق فى ظلمات الجهل والتعنت. وظهر كتاب كلوت بك بالفرنسية سنة ١٨٤٠، ونحن نستعين بترجمته إلى العربية، التى نشرت تحت عنوان «لمحة عامة إلى مصر» فى ثلاثة أجزاء صغيرة الحجم.

يصل مديح «محمد على» - فى هذا الكتاب - إلى درجة التملق السافر: نرى «كلوت بك» لشدة إعجابه بسيده، يقول مثلا الحقيقة التى نعجب لوجودها بقلم فرنسى، وهى أن ابراهيم باشا نجح حيث فشل بونابرت، واستطاع أن يفتح عكا. ولكن الرجل مع ذلك لا يقل شوفينية عن باقى مواطنيه، عندما يتحدث عن الحملة. إنه يسرد قصتها كتاريخ، ليس إلا، ويتكلم دون أية مواربة عن هدف فرنسا الاستعمارى، ورغبتها فى تحويل البحر الأبيض إلى «بحيرة فرنسية»، إنه يتحدث صراحة عن الأمل فى أن تحل مصر محل المستعمرات المفقودة فى أمريكا، ناهيك عن قطع طريق الهند على الإنجليز. و«كلوت بك» من أكثر المعجبين ببونابرت، ويرى أن كل ما فعله صحيحا حتى إنه لا يذكر ثورة القاهرة الأولى، أو ثورات الأقاليم، ولا يتحدث بسوء طبعا عما اعتبره جند بونابرت وضباطه «هروب القائد العام إلى فرنسا» وإن كان قد ذكر ثورة القاهرة على كليبر - غريم بونابرت! - بالتفصيل. من البديهى أن

معلوماته تفتقر إلى الدقة، إذ يقول مثلا إن كليبر قد ذهب إلى الشام وراء الأتراك عندما قامت ثورة القاهرة، مما يجعلنا نشكك في كلامه كله، خاصة أن مرجعه الوحيد، وباعترافه، هو مذكرات نابليون نفسه. فتتضح الصورة، ونفهم من أين جاءت معلوماته تلك، بعد وقوع الأحداث بأربعين عاما.

كذلك نراه يقع في الفخ الذى تقع فيه الشوفينية العادية للرحالة الفرنسيين، فيكفيه مثلا، أن يقابل مصريا واحدا معجبا بنابليون، حتى نراه يؤكد أن ذلك دليل على شعور المصريين كلهم. ونجد فى سرد «كلوت بك» لأحداث الحملة، كثيرا مما سيصبح جزءا من الأسطورة الرسمية لها، مثل دحر المماليك على يد بونابرت وحب المصريين له. ولكن القارئ الذى تعرف على حقائق الأمور من الكتابات التى سبق أن قرأناها خاصة مكاتبات كليبر للحكومة المركزية فى فرنسا، يدرك ما وراء تلك الشعارات من زيف وفراغ ولا يفوت القارئ ملاحظة أن هذا السرد الإعلامى للحملة المكتوب فى مصر وعن مصر لم يحمل أى تنويه، ولو بكلمة واحدة، عن أى مشروع تنويرى للحملة: لقد أكد «كلوت بك» مرارا وبصراحة أنها حملة استعمارية فقط، وكان ضرب الإنجليز، هدفها السياسى الآخر. لكننا قد نجد فى الجزءين الآخرين من الكتاب، ما يكذب تلك القراءة للجزء الأول منه، قد نجد ما يؤكد حتى النتائج الحضارية للوجود الفرنسى فى مصر. ولكن «كلوت بك» لا ينسى - مثله فى ذلك مثل باقى من قرأنا لهم - أن يؤكد أن الجيش الفرنسى «انتقم للملك لويس التاسع الذى أسر فى معركة فارسكور التى

دحر الصليبيون فيها. ونلحظ أن كلوت بك، إذا ذكر المعهد الفرنسى فى مصر، فهو لا يتحدث إلا عن «هذا الحجر الذى يشبه فى تركيبه وشكله - كما هو مذكور فى مذكرات المعهد الفرنسى بمصر - بعض أنواع الأحجار الجصية الشائعة فى البناء...»، ولا تذكر كلمة واحدة عن أى دور تعليمى أو تنويرى لهذا المعهد. وبمناسبة وصفة المتواضع جدا لمصر، يتحدث مثلا عن السراب، فيقول: «ولم يغب عن الذاكرة ما سببته تلك الظاهرة من الخيبة واليأس لعساكرنا أثناء سيرهم بالصحراء بين الإسكندرية والقاهرة، إذ أصابهم من العطش ما كاد يودى بحياتهم أجمعين» فالحملة ليست غائبة عن ذاكرته أيا كان الموضوع الذى يتحدث فيه ومع ذلك، فهو لا يذكر كتاب «وصف مصر» بكلمة واحدة. ومن هنا تنجلى الصورة، صورة استعمار دون أية مشروعات أخرى، إذ يكون لغياب الشئ دلالة، أكثر منها بالحديث عنه فالحديث كثير عن الحملة، ولكن، فى أى موقع، ولماذا؟

من هنا كانت أهمية النص الذى سنسرده على القارئ كاملا، وقد كتبه «كلوت بك» وهو يتحدث عن النساء في مصر، تحت عنوان «حكاية نابليون بونابرته»، يقول «كلوت بك»:

«أورد نابليون بونابرت حكاية مؤامرة دبرت فى أحد الحمامات العامة يلذ لى أبرازها فى هذا المقام لما احتوته من الدليل على ان اقامة ذلك الرجل العظيم بمصر قد ادهشت العقول وحركت الخواطر كلها حتى خواطر النساء، وكانت لجميع أهل المشرق عنوانا على تبدل الاحوال بحال لم يسبق لها من قبل مثال. قال:

تزوج الجنرال منو بامرأة من رشيد وعاملها معاملة السيدات الفرنسيات اذ كان يمد اليها يده كلما هم بالدخول معها إلى غرفة الطعام ويتحرى لها اوفق المجالس ويقدم اليها خير الاطعمة واشهاها. وكان اذا سقط منديل الطعام الموضوع على فخذيها بادر بأخذه واعادته إلى مكانه. فلما ورت تلك المرأة هذه الامور على صاحباتها فى أحد حمامات رشيد لاحت لهاته النسوة بارقة الامل فى تغير احوالهن وعاداتهن، وحررن عرضا قدمنه إلى السلطان الكبير - بونابرته - ليحمل أزواجهن على معاملتهن بمثل ما يعامل «منو زوجته الرشيدية به»...» .

لا أعتقد أن قارئا جادا فى نقده، سيجد فى هذه القصة أكثر من نكته، حكاها نابليون الذى عرف عنه دوما احتقاره المطلق لجنس النساء، ولكن الأمر يكاد يكون مؤثرا بالنسبة للجوء «كلوت بك» إلى مثل تلك القصة الطريفة ليس أكثر؛ فهو لم يجد - على ما قرأنا له - إلا تلك القصة التافهة، ليثبت عمليا أن الفرنسيين قد تركوا أثرا فى مصر. «فكلوت بك» عاش فى مصر بعد ذلك بثلاثين عاما، وهو يحاول أن يصف مصر التى عاصرها، فيورد تلك القصة القديمة، ليؤكد بها شيئا، من البديهى أنه لم ير له أى أثر بعينيه . ولكن، إذا كان نابليون نفسه هو الحاكى، الا يدل ذلك على صحة المعلومة، وأهميتها، حتى إن كان «كلوت بك» لم ير شيئا من نتائجها على المجتمع؟ فهو لا يقول إنه رأى معاملة إفرنجية للأزواج المصريين كانت تلك القصة سببا فيها: إن القصة تكفيه، مثل الشعارات الفارغة، وهى ثمينة وذات دلالة مادام نابليون هو الذى قصها.

إن موقف «كلوت بك» يكاد يكون مؤثرا بالفعل، لأنه لم يجد إلا تلك القصة لتكون الدليل الوحيد على ما أثر به الفرنسيون على المصريين، ولن نعجب، بعد ذلك، إذا رأيناه مجبرا على الاعتراف أن أمورا شتى لم تتغير منذ عصرالمماليك، بل منذ أيام الرومان؛ أما بالنسبة للنساء، وبالذات قضية تعدد الزوجات، فهو يرى أن انتشار الفكر الغربى وحده، كفيل بحل تلك المشكلة، ولم يقل إن الحملة ساعدت بصورة ما فى انتشار تلك الأفكار .

وكما سبق أن رأينا، فإنه، على الرغم من ذلك لا يفوت فرصة لتمجيد الحملة. فإذا تحدث عن «أبو قير» مثلا كشاطئ لا يفوته أن يذكر أنه مكان «يثير فى نفس كل فرنسى لواعج الحزن كما يحرك فيها بواعث الفخار والمجد». نجد أيضا هذا التمجيد فيما يقوله نابليون - مرة أخرى - عن كبحة جماح البدو، بينما تؤكد لنا مكاتبات كليبر عكس ذلك. «فكلوت بك» يشكو من أفعالهم، وكأن الفرنسيين وحدهم هم الذين استطاعوا التخلص من أشرارهم.

ومثله مثل غيره من مواطنيه، يؤكد «كلوت بك» حب المصريين للفرنسيين بالذات، لطبائعهم الحسنة، «إذا أضيفت إلى ما تركوه بأرض مصر من ذكرى وجودهم بها»، دون أن يحدد ماذا! ويزيد على هذا الكلام المبهم مانقرؤه بعد ذلك أن «الحملة الفرنسية فى مصر هى مقدمة حركة الحضارة التى بدت آثارها الآن فى الشرق» وهو يؤكد كذلك عن نابليون «عندما رأيت الآثار الجليلة التى خلفها من ورائه، لم أستطع الجزم إن كان أثره فى آسيا أقل من أثره فى بلاد الغرب»: من المؤسف

أنه لم يشركنا فى رؤيته لتلك الآثار التى لم يتحدث عنها أكثر من ذلك، ولكنه إذا قص بطولة لا تنكر لإبراهيم باشا، قال إن الحادثة «فيها ما يذكر بشهامة الفرنسيين وبسالتهم»! علينا بالتالى أن نشكر أمانته، عندما يصف المصريين وهم يستمعون إلى لحن «المارسيين»، فهى «لاتهز واحدا من أوتار أفئدتهم، ولا تنشرح لها صدورهم، ولا تميل إلى التقاطها أسماعهم».

بقى أن نشكر كلوت بك أنه ذكرنا أن محمد على «طلب من الإفرنج الذين كانوا فى خدمة مصر ،..... مراعاة عادات الشرقيين فى كل شئ »، هذا من جهة، ومن جهة أخرى قوله: «إن الشرقيين، كلما اختلطوا بنا (الافرنج)، لا يأخذون فى الغالب، من أخلاقنا سوى ما كان منها سيئ العاقبة بعيدا عن الصواب...»، ولم يفكر لحظة واحدة، أنه ما دامت تلك هى حال الشرقيين، فمن المؤكد أن ذلك قد حدث أيضا أيام الحملة، فكيف تكون إذن فاتحة الحضارة التي يتحدث عنها؟!

★ ★ ★

ننتهى هنا من قراءتنا كتاب «كلوت بك» الذى خيب أملنا، إذ كان لابد أن نجد عند هذا الفرنسى الذى عاشر المصريين بعد رحيل الفرنسيين ما يؤكد تأثيرهم بصورة ما. الواقع أننا لم نتأكد إلا من أمر واحد، وهو أن صديقات زوجة «مينو» الرشيدية، كن يحسدنها على معاملة زوجها لها، وما أتفه الحادثة. وتأكدنا بالتالى أن فرنسيا من سكان مصر، مولعا ببونابرت، اعترف سنة ١٨٤٠ أن الهدف الاستعمارى كان وحده سبب الحملة على مصر. لم يكن لها أى تأثير

على الرغم من ادعاء «كلوت بك» عكس ذلك، فهو يؤكد قوة هذا التأثير دون أن يقدم أى برهان على قوله، مثله فى ذلك مثل غيره من المتحدثين عن أسطورة الحملة، وجاء كتاب «نرفال»، بعد ذلك، ليؤكد صحة ما توصلنا إليه.

★ ★ ★

«جيرار دى نرفال» : «رحلة إلى الشرق»

فى عام ١٨٥١، نشر كتاب آخر من أشهر كتب الرحالة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر، وهو كتاب «رحلة إلى الشرق» (١٥) . وترجع شهرة هذا الكتاب إلى سببين أولهما أنه تحفه أدبية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، مكانة المؤلف، وهو الشاعر الكبير «جيرار دى نرفال» (١٨٠٨-١٨٥٥).

سافر «نرفال» إلى الشرق فى اليوم الأول من عام ١٨٤٣، وعاد إلى فرنسا فى أوائل شهر ديسمبر من العام نفسه بعد أن زار كلا من مالطه، مصر، سوريا، قبرص واسطنبول، ونشر كتابا عن رحلته فى عام ١٨٥١. وقارئ مؤلفه الرائع يتأكد أنه قرأ كتاب «إدوارد لين» بإمعان ولكنه قرأ أيضا «شاتوبريان» حتى أن بعض الصفحات تبدو كأنها رد على «شاتوبريان» بصورة واضحة للدارس الناقد لكتابى «المسار من باريس إلى أورشليم» و«رحلة إلى الشرق»، وهو يفعل ذلك دون أى تداخل فج، فالكتاب مكتوب بقلم شاعر، تمر إيحاءاته ناعمة دون أن تخدش رؤية القارئ غير المتخصص. والرجل يهمنا أمره ليس فقط لأنه عاش بضعة أشهر فى مصر، على عكس باقى الرحالة فى تلك الأزمنة،

ولكن لأنه كان أيضا من أشد المعجبين بنابليون، وكتب قبل رحلته إلى الشرق ما يثبت حبا مطلقا للإمبراطور البطل .

وأول ما يلفت النظر لقارئ الجزء الخاص بمصر فى تلك «الرحلة إلى الشرق»، هو إصرار «نرفال» - مثله فى ذلك مثل «لين» - على عدم الحكم على الأمور من منطلق أوربى فحسب - لقد قال الراوى، عند وصوله إلى القاهرة، إنه يريد أن يخلع رداء الغرب، حتى يتحرر من الأفكار المسبقة فهو يقدم العادات المصرية والإسلامية لقارئه الفرنسى حسب المنطق المحلى، ولا يرفض شيئا، لأنه يتقبل فكرة اختلاف المبادئ، إنها صفة قلما نجدها عند باقى الرحالة، وحتى يومنا هذا. كما يلفت النظر أيضا أن هذا المتيم بحب نابليون، لايتحدث عن الحملة، ولكنه يتحدث عما تركته الحملة، وشاهده هو بعينيه.

فأول لقاء له مع «تركى» مثلا، كان مفاجأة له، إذ اتضح أن هذا «التركى» من أصل فرنسى، يعرفنا به الراوى قائلا: «إنه من ذلك الجيل العسكرى الذى وهب حياته لخدمة نابليون، وكثيرون من ذلك الجيل فضلوا عرض خدماتهم على ملوك الشرق على أن يصبحوا من رعايا («البوربون» لقد أصبح هذا الجندى) تركيا. وكيف ألومه؟». هذا هو تعليق «نرفال» الوحيد على مثل هذه الخيانة للوطن وللدين. وتكون المقابلة الثانية، وهى لقاؤه «بالمسيو جان (إنه) من البقايا المجيدة لجيشنا فى مصر كان أحد الفرنسيين الثلاثة والثلاثين الذين دخلوا الخدمة العسكرية كمماليك بعد انسحاب الحملة. (وبعد أن عاش هذا السيد) جان سنوات مجد وترف، فكر أن يبيع النبيذ علانية، وكان ذلك شيئا

جديدا على مصر»: ما أبعدنا عن مماليك «شاتوبريان» الخمسة الذين كادوا يستولون على حكم البلاد!

يبدو أن القدر الماكر، لم يجعل الرحالة الفرنسي يقابل إلا حطام الحملة البائسة: نراه يقابل بعد ذلك «أحد مماليك الجيش الفرنسي الذين تبعوا جنودنا (عند عودتهم إلى فرنسا) ولكن منصور المسكين، ألقى في الماء مع باقي زملائه في مرسيليا، لأنه كان يناصر حزب الإمبراطور، عند عودة آل بوربون». عاد منصور إلى مصر، وكان يعيش هو وزوجته في حالة من الفقر المدقع فاستأجرهما الراوي خادمين عنده.

تلك هي آثار الحملة على المستوى الإنساني، ولا ندري كيف كان يمكن لهؤلاء أن يؤثروا على المصريين.. اللهم إلا إذا اعتبرنا «المسيو جان»، أول من أدخل بيع الخمور «علانية» في مصر، رائدا محترما في ميدانه.

أما على مستوى الآثار الملموسة، فقد وجد الرحالة، وبفخر شديد، في داخل الهرم الأكبر «نقشا فرنسيا قد حفر على حجر كبير، يؤكد مرور جندنا على هذا النصب، قرأته باحترام شديد وكأنه بطاقة لزيارة الجيش الفرنسي»، ولكنه يكتشف بعد ذلك باندهاش، حفرا آخر، لبطاقة زيارة أخرى، «للبعثة العلمية التي أرسلها ملك بروسيا وكان رئيسها لبسيوس» وتنتهي الفقرة فجأة عند هذه الكلمات، دون أي تعليق من الراوي الذي عادة ما يعلق على كل شئ. والتحليل النقدي الأدبي لهذا النص يثبت نوعا من المواجهة بين البعثتين، العسكرية والعلمية. وصمت الراوي ، بعد الحديث عن البعثة العلمية البروسية، يؤكد نوعا من الحرج،

لايستشعره إلا قارئ الكتاب كاملا ويتأكد هذا الإحساس، عندما يمر رحالتنا، أمام جامع السلطان حسن، فنراه يلاحظ - دون أى تعليق مرة أخرى: «أن آثار المدفعية الفرنسية (على الجدران) لاتزال موجودة منذ ثورة القاهرة الشهيرة».

ويشهد الراوى عودة الحجاج بموكبهم المهيب، وينبهر به، وبالروحانية السامية التى تنبعث من الاحتفال، حتى أنه يكاد يسخر من بونابرت، مما يعجب له القارئ فعلا، فهو يقول: «كان وكأن أمة بأكملها تسير لتذوب فى شعب لا حصر له ،...، ولا مجال هنا للتفكير فى الأوبرا، أو فى القافلة الشهيرة التى جاء بونابرت ليستقبلها عند البوابة نفسها بوابة النصر»: دهشة القارئ لها طبعا سبب منطقى، لأنه لا مجال هنا لذكر بونابرت فإن كانت الأوبرا هى المسرح الذى يتحرك عليه مئات الأشخاص، من ممثلين ومنشدين وراقصين، فلا داعى بتاتا لذكر بونابرت: كأن المؤلف يقول لبونابرت إنه لم ير شيئا يضاهى مارآه هو نفسه وفهمه، بينما بونابرت لم ير حقيقة هذا الشعب وعظمته .

وتنتهى رحلة مؤلفنا. وقبل سفره، يدعى إلى حفل ختان، ليجد نفسه جالسا بجوار شيخ يغنى له، أنشودة مديح لبونابرت. وعلى الرغم من أن المؤلف لا يتكلم العربية ولا يفهمها، إلا أنه يكتب لنا ترجمة تلك الأنشودة! «وبعد ذلك - والكلمة للراوى - حاولت أن أستخلص من الشيخ بعض ومضات من ذكرياته، فأخذت أكرر عليه (.....) الأسماء المجيدة لكليبر ومينو ولكنه لم يكن يتذكر إلا الكولونيل برتليمى»، ويفسر لنا أحد هوامش الكتاب، أن الأنشودة التى ظنها «نرفال» مديحا

لبونابرت، كانت في الواقع مديحا «لبرتليمي الذى كان في خدمة المماليك قبل حضور الفرنسيين، والذى كان يلقبه المصريون بفرط الرمان». ثم يجهش الراوى بالبكاء عند «سماع الشيخ يعيد الغناء القديم الذى كان ينشده المصريون على شرف من أسموه السلطان كبير»: من حقه أن يبكى بالفعل، فهو لم يجد أثرا مجيدا آخر لمرور الرجل العظيم على مصر.

وهكذا ينتهى الجزء المخصص لمصر في كتاب «رحلة إلى الشرق». كان كاتبه، على حبه الشديد للإمبراطور، غاية في الأمانة، فهو لم يكتب إلا ما شاهده، أو عاشه بالفعل أو اقتبسه من كتاب «لين» الشهير آنذاك. أيا كانت المراجع التى ساعدته على تدوين مذكرات رحلته، إلا أنه لا يمكن اتهامه بالتجنى على الإمبراطور، ولا يمكن اتهامه كذلك بإغفال أى شئ كان يمكن أن يفخم من شأن بونابرت وحملته على مصر. «فنرفال» لا يقل حبا لوطنه عن باقى الرحالة، ولكن أمانته حلت محل الشوفينية الفجة التى اتصفت بها كتب الآخرين الذين مروا مرور الكرام على وادى النيل. فرح «نرفال» لوجود كتابة فرنسية *داخل الهرم*، فما بالك بفرحته لو أنه وجد أثرا آخر غير آثار طلقات المدافع على جامع السلطان حسن؟ لم ير شيئا يثبت أن الجيش قد ترك أى أثر ثقافى أو حضارى، وإلا كان تحدث عنه كما تحدث عن الفرنسيين اللذين أصبح أحدهما «تركيا»، أو مسلما ويعيش مثل المسلمين، والثانى صاحب حانة في أزقة القاهرة.. من هنا كانت أهمية «بكاء الراوى» بالنسبة لدارس هذا المؤلف، لأن هذا «البكاء» يقع في الصفحات الأخيرة من قصة رحلته إلى

مصر، فالموقف يلخص مشاعر المعجب بنابليون، ويرمز إليها، وهو الذى جاء إلى مصر، ولم يجد بونابرت إلا فى أنشودة شيخ هرم، أنشودة تتحدث فى الواقع عن «فرط الرمان»!

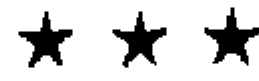
★ ★ ★

«جوستاف فلوبير»

وختاما، نلجأ إلى جملة واحدة قد تكون الدليل الوحيد على الأثر الذى تركه الجيش الفرنسى؛ جملة بقلم أحد أعظم وأشهر الروائيين الفرنسيين.

جاء «جوستاف فلوبير»، الروائى الشهير إلى مصر، حيث كان يرسل منها خطابات نشرت أخيرا، نقرأ منها رسالة مكتوبة بين السادس والعشرين من نوفمبر ١٨٤٩و الخامس من فبراير ١٨٥٠: «يهرب المصريون بأقصى سرعة أمام الأوربيين المسلحين: إنها ذكرى نابليون التى لاتزال حية ،...، لقد قاسى (المصريون) الكثير من وحشية جند بونابرت وقسوتهم وكبريائهم؛ أمر طبيعى، فهم جند مرحلة «الإرهاب» فى فرنسا»، (١٦): هذا هو كلام أحد أكبر المؤلفين الفرنسيين، الذى ترك لنا فى خطاباته انطباعات رحلته إلى وادى النيل، وهى جد شيقة: تصويره لما رآه عفوى صادق صريح لأن خطاباته لم تكن للنشر. وكلامه هنا لا يحتمل أى تعليق، عن «الذكرى» التى تركها الجيش، والتى تذكره بالفظائع التى تمت أثناء عصر «الإرهاب» فى فرنسا، فنراه يتفهم موقف المصريين من الجيش الفرنسى.

ولو أننا لا نظن أن الرعب من الجند الفرنسيين استمر بعد مرور خمسين عاما على رحيلهم، إلا أن الجملة غريبة، خاصة إذا تذكرنا أن كاتبها فرنسي؟ ومن الممكن أن تكون جنسية أخرى هى المسئولة عن هذا الانطباع السيئ ولكن تلك هى فكرته عن بونابرت، والانطباع الذى تركه «جند الإرهاب» . وكما يقول الفرنسيون، فهذا فى ذاته أمر يجعلنا نتفكر...



حان الوقت لنتعرف على ما قاله أيضا المصريون المعاصرون للحملة، غير الجبرتى. لقد كتب «الإمام الشيخ عبد الله الشرقاوى» عن الفرنسيين صفحة بليغة فى قصرها، ودوره معهم معروف.

فهو يكتب قائلا.. «وحقيقة حال الفرنساوية الذين حضروا إلى مصر أنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية ينال لهم نصارى قاتوليقية يتبعون عيسى عليه السلام ظاهرا، وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين، ويقولون إن الله واحد بطريق التعليل. ويحكمون العقل ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام بعقولهم ويسمونها شرائع. ويزعمون أن الرسل محمدا وعيسى وموسى كانوا جماعه عقلاء وأن الشرائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم. ولذا جعلوا فى مصر وقراها الكبار دواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم. وكان فى ذلك رحمة بأهل مصر. فإنهم جعلوا من جملة ديوانهم جماعة من المشايخ وصاروا يراجعون بعض أشياء لا

تليق بالشرع. والسبب الذى أوجب لأهل مصر وقراها بعض الانقياد إليهم عجزهم عن مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال» (١٧). يدل تحليل هذه الأسطر أولا على أن الشيخ العلامة لديه معرفة واضحة وصحيحة لفكر «الفرنساوية» الدينى، دون أية إشارة إلى منجزات الثورة الفرنسية، والحرية والمساواة إلخ، هذا من جهة؛ وكلماته تؤكد، من جهة أخرى، المسافة الشاسعة التى تفرق بينه وبينهم إنه ينظر إليهم عن بعد ويتدارسهم كأغراب لا يلتقى، ولايفكر أن يلتقى معهم فى أية نقطة، فهو موضوعى فى حكمه على دواوينهم ولكن مفرداته الأخيرة بخصوص العجز عن «مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال»، تعنى أن الانصياع للأوامر لم يكن عن اقتناع؛ عندنا الدليل أن الفلاحين كانوا يقاومون المدافع الفرنسية بالعصى فمن الطبيعى إذن إذا ما رحل أهل السطوة، أن ينتهى تأثيرهم المجبر المباشر.

وهناك مصرى آخر، نرى أن شهادته غاية فى الأهمية، خاصة أنه كان معاصرا لمن قرأنا لهم من كتاب سجلوا شهاداتهم عن مصر بعد رحيل الحملة بربع قرن. وهم كما أسلفنا «إدوارد لين»، «كلوت بك» و«جيرار دى نرفال». فإذا قارنا ما قالوه، بما نستنتجه من كتابه، لعجبنا لتطابق الرؤى، بين الأجانب المقيمين فى مصر، والشاب المصرى المثقف: إنه الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى وما قاله أو بالأصح ما لم يقله، عندما زار فرنسا ودون ملاحظاته فى كتابه الشهير.

«الطهطاوى» : «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» (١٨)

قيل مرارا وأعلن جهارا، أنه لولا الشيخ حسن العطار، ما سافر الشيخ رفاعة مع البعثة المرسلة إلى باريس عندما أقنع القنصل الفرنسى النشط «دروفتى» محمد على، بتحويل كل البعثات العلمية إلى فرنسا وعلاقة حسن العطار بالفرنسيين معروفة (١٩)، وكان بونابرت قد أوكل إليه مهمة تعليم بعض الفرنسيين اللغة العربية. ومن المعروف – والأصح أن الفرنسيين يقولون – إنه أعجب بعلمهم واستنار بأفكارهم. وعندما أصبح شيخاً للأزهر، كان الطهطاوى تلميذه المصطفى. فياترى ما الذى قاله العطار عن الفرنسيين؟ أو ما الذى علمه لهذا الشيخ الشاب وهو يعده للرحيل، موصيا إياه تدوين مشاهداته، كما كان يفعل دائما الرحالة العرب، وحتى يستفيد باقى مواطنيه بما يراه مندوبهم فى بلاد الفرنجة؟ وما الذكرى التى تركتها الحملة، بمحاسنها إن وجدت، وأورثها العطار تلميذه وهو أشهر المعجبين بالفرنسيين وحضارتهم؟ وما الذى وصل إليه من هذا العلم، ولابد أنه قدمه لتلميذه النابغة؟

لو أن الفرنسيين تركوا أثرا علميا أو حضاريا على أحد، أثرا له امتداد واقعى حتى إن كان سطحيا، فلا يمكن أن يرى إلا عند هذا الشيخ الشاب، تلميذ أكثر المشايخ اختلاطا بالفرنسيين وإعجابا بهم. ومن الطبيعى أن يدون هذا التلميذ النجيب، وهو يتحدث عن فرنسا، ما سبق أن سمعه أو عرفه عن الفرنسيين، من أستاذه الذى انبهر بهم. فلابد أن ما يراه يذكره بشئ قيل له عنهم وعن عاداتهم؛ أعتقد أن هذا أضعف الإيمان.

ولنترك الكلمة للطهطاوى... إن وجدت،لأن العجب كل العجب هو غياب ذكر الحملة فى كتابه. ولو أنه غياب كلى، لشككنا فى الأمر، ولكنه مثل «كلوت بك» و «إدوارد لين» يتحدث بما يدل على أنه يعرف وقوعها، ليس أكثر ، وكأنها شئ لا يستحق الذكر، وهذا مايلفت نظر القارئ منذ الصفحات الأولى لكتابه. فمنذ الصفحة الرابعة بالتحديد نقابل قولا يعجب له من سمع مرارا أن الحملة «أيقظت» مصر فالطهطاوى يقول: «وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا الكتاب مقبولا، (لدى الخاص والعام) وأن يوقظ به من نوم الغفلة سائر أمم الإسلام إنه سميع مجيب، قاصده لا يخيب» وإذا تتبعنا صفحات الكتاب بترتيب تقديمها، عجبنا أنه مثلا يقدم «جومار» الذى يشرف على المصريين، دون أن يذكر أنه كان يوما فى مصر أثناء الحملة، مع أنه إذا تحدث عن الإسكندرية، وتاريخها، قال باقتضاب شديد: «وقد تغلب عليها الفرنسيس، ثم أخرجهم الإنكليز منها، ورجعت إلى يد الاسلام»: ولا كلمة واحدة أكثر من ذلك. كلام غريب، لأن الحال كانت حال مصر كلها وليست الإسكندرية وحدها! (٢٠).

ورفاعة يذكر بونابرت بطريقة تلفت النظر، لأنه مصرى مثقف من أول جيل جاء بعد الحملة، إذ ولد عام ١٨٠١، جيل يفترض أنه تأثر بنتائجها ويعرف تاريخ بونابرت معها.

فالطهطاوى، الذى يحكى تاريخ كل منطقة يمر عليها، يقول «جزيرة قرس (كورسيكا) وقد فتحها المسلمون، ولم يمكثوا فيها زمنا طويلا، وهى وطن «نابليون» ،...، الشهير باسم «بونابرته» الذى تغلب على مصر

فى غزوة الفرنساوية، ثم تولى سلطنة فرنسا»، ليس أكثر: مرة أخرى، تتأكد فكرة أنه لولا شهرة نابليون الإمبراطور، لما ذكر تاريخ بونابرت الجنرال المنتصر.. حتى بالنسبة للمصريين. ولذا فلن يذكر نابليون بعد ذلك إلا لشرح اسم «قنطرة استرليتز، سميت بذلك باسم محل غلب فيه نابليون ملك النيمسا والموسقو».

وحديث الشيخ رفاعة عن المصريين المقيمين بميناء مرسيليا يؤكد كون الحملة صفحة من الماضى، طواها الزمن وانتهى عهدها فطريقة قصه لما قابله، وحديثه عن «مينو» دون أى تعليق على حكمه لمصر، ينمان عن عدم مبالاه لأحداث الماضى، وبُعد ذهنى يفوق الخمسة والعشرين عاما المنصرمة منذ رحيل «مينو» إنه يذكره لتنصيره لابنه. نلاحظ أنه لا يوجد أى تعليق ينم عن اهتمام خاص بهذا الجنرال الذى حكم مصر فى أواخر أيام الحملة، وكأنه لم يترك للطهطاوى ذكرى إلا بسبب زواجه من مسلمة، ثم عودته إلى المسيحية.

حدث عابر لماض طويت صفحته، فالأهم الآن هو رؤية كل ما هو جديد وغريب – وما أكثره – فى هذا العالم الذى لم يسمع عنه شيئا من قبل. فحديث رفاعة عن الفرنسيين وطبائعهم وقوانينهم... إلخ، عفويا بحق، وإن أكد شيئا، فهو جهله التام بما كان سيقابله عندهم من جديد، سبق للمصريين أن تعرفوا عليه عندما كان الجيش الفرنسى يحتل القاهرة: كل شئ غريب ومحل مدح أو نقد. وإذا ما قابل كلمة «حرية» تلك الهدية الجديدة التى احضرها بونابرت إلى مصر، حسب قول بعض

المؤرخين، نراه يشرحها لقرائه على أنها شئ جد جديد بالنسبة له ولهم، ولكن على مستوى اللغة فقط: «وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عندنا العدل والإنصاف....». وعندما يصف نظام جباية الضرائب، لا يعقد ، ولو بكلمة واحدة، مقارنة بين ما كان يحدث عندما كان هؤلاء الفرنسيون أنفسهم يفرضونها على المصريين مع أنه و في الصفحة نفسها يقوم بمقارنة نظام توارث المهن بين ما يحدث في فرنسا، وما كان يحدث في مصر، وهو كثيرا ما يفعل ذلك.

ماذا نستنتج من قراءتنا تلك؟

حصاد هزيل لبحثنا عن آثار الحملة في كتاب «تخليص الإبريز..»، لو أننا أضفناه إلى ما قاله «لين» و«كلوت بك»، لوجدنا أن حصيلة ما تركه الفرنسيون من ذكرى يكاد يكون منعدما، خاصة إذا تذكرنا دموع «جيرار دى نرفال» في نهاية بحثه عن ذكرى «الرجال العظماء» في مصر. ولنذكر أنه حتى من أنشد أمجاد جند بونابرت من المؤرخين (*)، اعترف أن النتائج الفعلية الرائعة للحملة تمثلت في اكتشاف حجر رشيد وكتاب «وصف مصر»، ناهيك عن «الأثر الثقافي» الذى لم يبدأ بالفعل إلا في عهد إسماعيل باشا. ستون عاما بعد نهاية الحملة.

ولكن، كيف يُشرح هذا التجاهل التام لآثار الحملة عند الجيل التابع لها؟ .

فلنعد إلى الجبرتي، علنا نجد لديه إجابة عن تساؤلنا، وهو الذى عاش سنوات الحملة وما تلاها من أحداث.

---

* ارجع إلى الجزء الأول.

الجبرتى : «تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» (٢١)

نظرا لوجود كتابه وضخامته، فلن نتوقف عن التفاصيل بل نستخلص سريعا ما كان من حال مصر والمصريين بعد رحيل جيش الفرنسيين، وهو جزء لم يهتم به معظم من تعرض لصفحات الجبرتى عن الحملة، والانطباع العام بعد تحليل النص هو ما يهمنا هنا، كى لا نغرق فى صفحات عديدة تحكى الأحداث الصاخبة التى ملأت الفراغ المؤقت للسلطة فى مصر.

إذا ما انتهى القارئ مما كتبه الجبرتى فى ألفى صفحة، فإنه يرى بعد الصفحات الثلاثمائة والخمسين التى يحكى فيها الجبرتى أحداث الحملة، كيف أن الحال فى مصر قد عادت إلى سابق عهدها، وكان أيامها حدث عابر عارض يمكن إسقاطه دون أن يشعر القارئ أن حلقة فقدت فى تسلسل أحداث تاريخ مصر. عاد العنف بين الفئات المتصارعة مرة أخرى، وعاد القتل والتناحر، وعادت الصفحات تقطر دما وشغبا وضوضاء . غير أن الصراع الدموى على السلطة لم يعد حكرا على المماليك وحدهم، فعلى الساحة الآن عنصر كان قد اختفى منذ سنوات، ولولا الحملة ما عاد بهذه الصورة الضارية : عادت السلطة العثمانية العسكرية لتؤكد سيطرتها على مصر، وكانت تركيا قد فقدت تلك السيطرة، فأعادت فتح مصر واستباحتها بحق السيف. لقد كان غياب السلطة العثمانية وتهميش دورها، من أهم العوامل التى أشعلت الرغبة فى غزو مصر، فكانت اطماع فرنسا، والحملة التى اجبرت تركيا

على العودة لتؤكد سيادتها على مصر. عاد العثمانيون كرد فعل مباشر للحملة وهم أكثر شراسة مما سبق، كما نقرأ عند الجبرتي . وكانت لذلك نتائج وخيمة، عاد العثمانيون بسطوة ما كانوا ليحلموا بها قبل الحملة، وانفراد المماليك بالحكم المطلق . وإن كانت الحملة قد أحدثت شيئا ملموسا وفعليا، فهو عودة مصر إلى حظيرة العثمانية فى الوقت الذى اوشكت مصر ـ وكان ذلك معروفا للعالم أجمع ـ على الاستقلال عنها، وهو الأمر الذى شجع بونابرت على الهجوم عليها، كما قالتها صراحة وزارة الشئون الخارجية فى فرنسا، لتبرير قيام الحملة. وبعد قراءة الجبرتي، يرى الباحث أن عودة السيطرة التركية على مصر ـ على المستوى المحلى – النتيجة المباشرة والوحيدة لمرور جيش الشرق العاصف على مصر. فكان، بعد رحيله، التنافس الضارى مرة أخرى، بعد حقبة عارضة عابرة من ثلاث سنوات وكأن شيئا لم يحدث. كان هذا التنافس على من يتبوأ مركز حاكم القاهرة، وقد انتصر فى هذا السباق الدموى ضابط داهية من الجيش العثمانى، لعب وكأنه من المماليك ، ولكنه عرف كيف يستخدم الصوت المصرى، ليكسب تأييد الباب العالى : فى عام ١٧٨٦ جاء الجيش العثمانى لينصر المصريين على المماليك؛ وقف المصريون مرة أخرى فى عام ١٨٠٥ ، مع هذا القائد العثمانى ضد المماليك . حكم محمد على مصر وكأنه من المماليك ، إلى أن تخلص نهائيا من منافستهم له، وبدأ فى إنشاء دولة مركزية على نمط جديد ، نقل مصر فعلا من عهد الى عهد ولم تكن مصر بحاجة الى

الحملة ليأتى محمد على إليها؛ فبصفة مركزه ونظرا لطموحه ، كان من الممكن جدا أن يأتى يوما، اليها وهو ايضا «باشا» ممثل للسلطان.

ولكن الباشا العثماني كان قد فقد كل هيبة، خاصة بعد فشل الحملة العثمانية فى ردع المماليك عام ١٧٨٦ . وكان المصريون قد أخذوا زمام الأمور بأيديهم ليدافعوا عن حقوقهم أمام تسلط ابراهيم بك ومراد بك؛ وفى عام ١٧٩٥ أى ثلاث سنوات فقط قبل وصول بونابرت. كانت الحركة الشعبية التى قادها الشرقاوى، ومعه السيد عمر مكرم لوضع شروط للحاكمين اللذين تعهدا باحترامها. وبعد تلك الزوبعة التى استمرت شهرا ، عادت الأمور مرة أخرى إلى سابق عهدها.

ولكن، هل كان المصريون سيصبرون على بلواهم بعد أن أملوا مرة شروطهم على البكوات ؟ وأملوها مرة أخرى بعد رحيل الجيش الفرنسى، وفرضوا محمد على عدو المماليك ، حاكما على مصر.. كأن شيئا لم يحدث ؟

١٧٩٥ .. والحملة فى ١٧٩٨.. لم يعط بونابرت المصريين المهلة الكافية، وأصبح خطره أهم من همومهم الداخلية . وبعد الثورات التى استنزفت دماء المصريين وهممهم أثناء الحملة ، وبعد أن عادت الفوضى الى شوارع المحروسة، سعدوا بتسليم أمرهم ليد محمد على القوية ، وعادوا الى العثمانيين من خلاله، كما سبق أن سعد الفرنسيون من قبلهم، بتسليم أمورهم لبطش بونابرت ، حتى تهدأ الأمور وتعود الحياة إلى النظام والهدوء اللذين لا يستتب الأمان دونهما .

ونزل الإنجليز رشيد عام ١٨٠٧ .

نعم فتح بونابرت صفحة جديدة فى تاريخ مصر . لقد لفت نظر الإنجليز لأهمية موقعها وخطرها على سيادتهم للبحار . هذا على مستوى المدى الطويل للتاريخ الذى لا يتحرك إلا بالقرون .

أما على المستوى الداخلى، فأين هذا التأثير على المصريين الذى طالما قرأنا عنه ؟ عاش المصريون خلال سنوات ثلاث أحداثا جساما ، فما كان رد الفعل المصرى ؟

وبم يمكن أن يشبه تأثير تلك الزوبعة على الوعى المصرى المعاصر ؟

★★★

فى الخامس عشر من ربيع ثان سنة ١٤١٣، الموافق الاثنين الثانى عشر من اكتوبر تشرين أول عام ١٩٩٢، بابه ١٧٠٩ ، زلزلت الأرض زلزالها، وقال الإنسان ما لها، تهدمت البيوت ، وسقطت المدارس وهربت الأبلوات، وتشرد الفقراء ، واستشاطت التليفزيونات، وكثرت النكات، وتبرع الأحياء ، ودفن الأموات، وانهارت الاعصاب، لأن الأرض لم تهدأ إلا بعد شهر .. عادت الحياة بعده الى ما كانت عليه من قبل، ولم يعد أحد يذكر ما حدث إلا كالكابوس الذى ضرب كالصاعقة وتبخر كأى ماض كريه، لا يحسن ذكره . ترى ما الذى كان الجبرتى سيقوله عن هذا الحدث الجلل لو أنه عاصره ؟ أتراه يزيد عما قاله عن السنوات الثلاث التى احتل فيها الفرنسيون مصر، ثم ذهبوا بلا رجعة وكأنه زلزال ضرب وانتهى ؟

ثم يظهر محمد على فى الأفق ، كالموج الكاسح ، يغرق بجبروته كل ما يصادفه من عوائق ، فرسخت اقدامه لسنوات عديدة ، تمتد حتى لما بعد وفاة الجبرتى ورسخت كذلك اقدام نسله من بعده، ولأكثر من قرن من الزمن : إنه تاريخ مصر الذي لا يمكن اسقاطه .

وعلى الرغم من أن الجبرتى قد عاشرهم عن قرب، أثناء اشتراكه معهم فى الديوان الذى عمل فى عهد «مينو» إلا أن قارىء الجبرتى ليشهد على أنه لم يذكر الفرنسيين - بعد رحيلهم - إلا عرضاً ، وكأن مرورهم السريع لم يكن تلك المقابلة الفاصلة التى فتحت للمصريين أبواب عالم آخر باهر، عالم الحضارة الغربية لقد طوى الجبرتى الصفحة، وكأنها انعراج خاطئ فى مسيرة التاريخ الذى يسرده علينا، والحروب بين المماليك بعضهم بعضا، وبينهم و«الباشا» العثمانى، تستأنف ما انقطع من تلك المسيرة مؤقتا بسبب وجود العدو المشترك . ومرة أخرى، يعود الجميع إلى السباق الدامى للحصول على السلطة .. تماما كما كان يحدث قبل وصول الفرنسيين، إلا أن السباق فى هذه المرة، كان به الفرس الرابح، محمد على .

★★★

هذا ما توصلنا إليه بعد قراءة ما كتبه المصريون أيضاً، وأكد لنا حقيقة مغايرة تماما لما يردده كثير من المؤرخين عن تأثير الحملة على تاريخ مصر والمصريين.

نتيجة كنا قد توصلنا إليها بعد قراءة ما قاله شهود عيان من الفرنسيين أنفسهم .

لقد تم اختيار شهود من الحملة، وآخرين عاشوا في مصر بعدها بحوالي نصف القرن، أو أقل، إما لأن شهادتهم لم تؤخذ قبل كتابة هذه الدراسة(٢٢)، أو لأهميتهم، أو لأمانتهم التى لم يشكك أحد فيها .

وبعد القراءة الدقيقة لكل ما كتب هؤلاء من كتب أو مكاتبات، كانت النتيجة هي نفسها، لاتتغير: لا يستطيع الباحث أن يستشعر - بعد دراسته - أى أثر يبدو أن الحملة قد تركته فعليا، خاصة فيما كتبه من عاشوا في مصر بعد رحيلها بأعوام ثلاثين أو أكثر؛ والمعروف أن ثلاثة عقود أو خمسة في تاريخ أية دولة، لاوزن لها بمقاييس الزمن، وكأنهم كتبوا في اليوم الثاني من رحيل الجيش الفرنسي؛ بينما لاتزال آثار الفتحين العربي والعثماني قائمة حتى يومنا هذا، على الرغم من مرور قرون على تاريخها .

لم يقابل دارس تلك النصوص الموثقة عن الحملة الفرنسية، ما يثبت وجود تأثيرات فعلية على المصريين، أيا كان مركزهم، اللهم إلا الذكريات التى تتوارثها الأجيال عادة، وهذه أيضا لا نجد لها إلا نصيبا ضئيلا في بعض الكتب: ذكريات سلبية لا نستغربها بعد كل ما عرفنا من حقيقة معاملة الجيش المستعمر للأهالي، وهم سكان بلد مفتوح، لا يطلب منه إلا الامتثال للأوامر والخنوع للبطش المنظم، تلبية لمتطلبات الجيش الغازي: إنها الحقيقة التى بدأت تظهر وبدأ أيضاً الاعتراف بها، عند استقرائنا لتاريخ الحملة، بعد مرور مايقرب من قرنين من الزمن، وكان أهم فاضح لها في فرنسا، رسالة «هنري لورانس» عن الحملة الفرنسية، التى تمت ترجمتها أخيرا إلى العربية، كما أسلفنا، وقد يكون احسن

دليل على عدم ترك أى أثر للحملة، كما رأينا عند إدوارد لين وكلوت بك ونرفال وفلوبير، ما أكده بعد ذلك المؤرخون الذين اسلفنا دفاعهم الحماسى عن الفكرة الرائعة التى تركها جيش التحرير الفرنسى: إن اقصى ما توصلوا اليه كان تمجيد كتاب «وصف مصر» وهو لم يترجم إلا جزئيا اخيرا، هذا من جهة ، ثم ربط التأثير الثقافى الفرنسى للحملة، من جهة اخرى، بالبعثات التى بدأت تدرس الانسانيات بإيعاز من اسماعيل باشا بعد طمس دوره : فبعد سبعينات القرن التاسع عشر نذكر أن الحملة تركت مصر عام ١٨٠١، كان التيار «المتفرنج» ، فكان «المطربشون» أمام «المعممين»» حسب تعبير طه حسين فى رائعته «الأيام» وكان الانبهار بباريس، وكتاب الاستنارة الغربية فى بداية القرن العشرين .



وبعد .. فإننا لن نعجب لتعليقات المؤرخين الجدد.. الذين درسوا تاريخ بلدهم، بعد التخلص من غشايات الأساطير الكاذبة التى فرضت عليهم شعارات إنشائية لا أساس لها فى الحقيقة، فرضتها لعقود عديدة، هى عقود المرحلة الاستعمارية.

وبدأ المؤرخون الفرنسيون يعترفون بالواقع الجديد عليهم .

الفصل الثالث

«المؤرخون الجدد»

« لايبدو - وذلك في كثير من النقاط - أن بونابرت كان ذلك الخالق لمصر الحديثة الذي طالما حُدثنا عنه . لم تدم بصمته ،.... لم تكن سياسته إلا اجابات عملية لمشكلة قديمة جداً» .

«الثورة الفرنسية»

«المؤرخون الجدد»

مما لاشك فيه أن الأستاذ «فرانسو فوريه» هو أشهر اسم في مجموعة «المؤرخين الجدد» فقد كانت كتبه عن الثورة ـ كما أسلفنا ـ بمثابة قنبلة نسفت معبدا كان اليساريون والجمهوريون يتعبدون فيه. وفي كتابه الشهير عن «الثورة الفرنسية» الذي كتبه مشاركة مع «ديني ريشيه» ونشر سنة ١٩٦٥ ، صور جند بونابرت في الحملة على ايطاليا بتفاصيل يعجب لها من قرأ أدبيات الثورة السابقة ، حيث كان «جند الجمهورية» يقدمون على أنهم محررو شعوب البلدان التي فتحوها والذين نشروا بينهم «مبادىء الحرية والمساواة والأخوة» وكان التاريخ الرسمي يجعل منهم قديسي العلمنة ، سفراء الحكمة الثورية ، وشهداء أجيال المستقبل من أجل حياة الرخاء والأخوة الجديدة من أجل ذلك سميت البلاد المستعمرة «بالمحررة» وبالجمهوريات الأخوات؛ ولكن هذا الكتاب يعدد المجازر التي رد بها الفرنسيون على ثورة الايطاليين على الاحتلال الفرنسي الواقعي ، وحرقهم للمدن واعدامهم للرهائن . ومن بين ما يفضحه المؤرخان ـ فوريه وريشيه – نقرأ ما كتبه الجنرال بونابرت المنتصر، عن تلك التصرفات التعسفية لحكومة «الإدارة» قائلا : «أنا واثق أن هذا الدرس سيكون القدوة لشعوب ايطاليا» : كلام يمكن أن يطبق حرفيا على ما سيحدث في مصر بعد ذلك . ويعلق كاتبانا على هذا التصرف بما سبق أن ذكرناه في الجزء الأول من دراستنا هذه ، ونكرره هنا لأهميته: «وبسذاجة الضمير المستريح ، كان الفرنسيون يعزون هذا الشعب الى غوغاء رافضة لقيمة الحرية، غوغاء يلهبها تعصب

وتطرف قساوسة مثل الذين لعبوا دورا فى فانديه . وقد شارك بعض المؤرخين فى تصديق هذه الأوهام ، واعتبروا أن هذه الثورات ثورة مضادة ، بينما هى فى الواقع دفاع بدائى لشعب يحمى نفسه من قطاع طرق أجانب استباحوا البلد» (٢٣). جنود الثورة أصبحوا فى نظر هذين المؤرخين اذن قطاع طرق أجانب استباحوا البلد ، وهى هنا ايطاليا ، ولو أن المؤرخين اهتما بالحملة على مصر كما اهتما بالحملة على ايطاليا لأعادا الكلام نفســه بعد أن نزعا عن جيش التحرير الثورى ، ثوب القدسية الذى أخفى جرائمه لقرنين من الزمن : إن ما قرأناه بقلم شهود الحملة العيان ، يجعلنا لا نستغرب تقييم «ريشيه» و«فوريه» «لجنود الحرية» هؤلاء .

ولكن المؤرخين ، عندما تعرضا للحملة ، اعتبراها من اختصاص بونابرت. وأغلب الظن أنهما رفضا الخوض فى موضوع لم يتخصصا فيه ، فرفضا الحديث عن تفاصيله كما فعلا مع تاريخ الثورة الذى قتلوه بحثا، مما يدل على أمانة علمية نادرة وسط أقرانهم .

وعندما نشر «فرانسو فوريه» وحده جزءى كتابه عن «الثورة» سنة ١٩٨٨ ألقى بمسئولية الحملة مرة أخرى على بونابرت لأن «مصر كانت جزءا من عالمه الخيالى » شارحا موقفه بقوله: «سأترك الحملة على مصر خارج هذا السرد ، لأن الحملة لها قصتها الخاصة ، المستقلة عن الأحداث الفرنسية ، إنها على عكس ذلك ، ضرورية لفهم مسألة الشرق فى القرن التاسع عشر (علاوة على أن) المسألة كانت محسومة منذ البداية»، عندما أغرق نلسون الاسطول الفرنسى (٢٤) : كلمات معدودة

فى نصف صفحة قصيرة ، وسط التفاصيل الدقيقة التى تحكى ثورة ١٧٨٩، وماتلاها من سيطرة نابليون على فرنسا ، يوما بعد يوم ، حتى النهاية فى عام ١٨١٤. يرفض فرنسوا فوريه إذن التحدث عن الحملة ، لأنه يعتبرها جسما كالنتوء الغريب ، لها ظروفها المحلية التى تبعده عن اختصاصه المباشر: إنه لم يتخصص الا فى دراسة غاية فى الدقة للثورة الكبرى ، وفى سياساتها الداخلية والخارجية.

«فوريه» و«ريشيه» : «الثورة الفرنسية »

ولكن كتاب الثورة الفرنسية القديم ، كان قد تعرض بصورة أدق للحملة ، بصفتها من حروب الثورة وحكومة «الإدارة». والمؤرخان لايتحدثان فيه إلا عن بونابرت ، مما يشرح أيضا رفض «فوريه» ، فيما بعد ، الخوض فى موضوعها مادام يعتبرها جزءا من سيرة بونابرت ، أكثر منها جزءا من تاريخ الثورة لذا فإن المؤرخان لن يشيرا ، فى كتابهما إلا الى المرحلة التى كان الجنرال الشاب يحكم فيها مصر وكأنهما لايهتمان بالحملة إلا بسبب اسم قائدها .

إنهما يردان فى مؤلفهما على أسلافهما من المؤرخين ويقولان ذلك صراحة ، ولذا ، فلا غنى عن قراءة أهم ما قالاه لينفذا أقاويل أشهر مؤرخى «حملة بونابرت على مصر» والذى سبق أن قرأنا لهم فى الجزء الأول من هذه الدراسة «عصر الأساطير» .



يذكرنا هذا الكتاب بأن أحد أسباب قيام الحملة أن التقارير التى قدمت للحكومة كانت تؤكد أن «الشعب المصرى سيستقبلنا بفرح بالغ»،

علاوة على كل مزايا الاستيلاء على أرض مصر الخصبة وضرب مصالح انجلترا ، ويجزم كاتبانا أن بونابرت كان فى حاجة الى نصر باهر فى الشرق ، يزيد من فرص استيلائه على السلطة فى فرنسا ، كما أن تمويل الحملة جاء من نهب كنز مدينة «برن» السويسرية. أما عن الحملة نفسها «فهذه الغزوة التى قامت فى وقت سلام تام «مع تركيا» لأرض يمتلكها السلطان، قد اثارت صعاب جسيمة»، و «كان تفوق العدد والتسلح ، سبب نجاح غزو مصر ، ولكنه لم يجهز على المماليك ، وفى هذه الاثناء وقع الجيش الفرنسى فى الفخ» ، بعد «معركة النيل» كما يسمى الانجليز معركة أبو قير البحرية «معركة النيل كانت انتصارا للذكاء على روح المغامرة» ثم نقرأ كل النتائج السلبية للحملة ، وما فقدته فرنسا بسبب انعقاد التحالف الثانى ضد فرنسا ، ردا على هذه الغزوة

وكان الكلام بالنسبة لحكم بونابرت صريحا قاسيا ، وجاء «قانون المنتصر» بمعنى «حكم القوى» عنوانا يلخص رؤيتهما وتحمله صفحات سبع تعرض مارآه المؤرخان أهم الأحداث . ويرد فيها الكتاب على ما كان يقال عن الحملة حتى أصبح واقعا ومسلمات لا تناقش؛ فنقرأ التالى: «تمجيد سياسة بونابرت فى مصر كان من المسلمات لزمن طويل ، فى التاريخ الفرنسى الرسمى على الأقل ، وقد قيل إن هذه السياسة عمل تحريرى ، وانفتاح لمصر على الحضارة الحديثة والتقدم. ولو أننا نظرنا اليها عن قرب ، فلاشك فى أننا سنجد بها بعض الجوانب المجددة، ولكنها عبارة عن اجابات تقليدية لمشاكل أزلية، فقد عرفت بلاد

النيل، خلال تاريخها الطويل ، أقليات غازية أخرى، غريبة بجنسها وحضارتها ودينها ، كانت تقابلهم كلهم الصعوبات نفسها ، رئاسة ادارة محلية كان لابد من الابقاء عليها ، التسامح لتهدئة الخطر المحدق بالديانة ، نهب الضرائب، كبت الثورات ومحاولة كسب ود الأعيان». فماذا كانت النتيجة بالنسبة لبونابرت الذى فعل مثل ما فعل سابقوه فى غزو مصر؟. كانت الثورة فى كل مكان .. ويصل المؤرخان لتقييم صريح للموقف: «لابيدو - وذلك فى كثير من النقاط - أن بونابرت كان ذلك الخالق لمصر الحديثة الذى طالما حُدثنا عنه ، لم تدم بصمته من ناحية ، ومن ناحية أخرى، لم تكن (سياسته) إلا اجابات عملية لمشكلة قديمة جدا وعلى الرغم من ذلك فقد كانت مغامرته فريدة فى ميدانين ، لقد وفرت لمثقفى وتقنو كرات القرن التاسع عشر حقلا ممتازا للتجارب العلمية»: الكلام واضح ولا يحتمل التأويل ، فالحملة اذن لم تفد أحدا غير فرنسيى القرن التاسع عشر، ولم يذكر حجر رشيد أو كتاب «وصف مصر» وكذلك لم تدم بصمة بونابرت ان كان قد ترك بصمة.

وعند تحليل أعمال المعهد الفرنسى ، أو بالاصح فرعه فى القاهرة نجد هذه الصفحات التى تقيم الحملة بموضوعية جديدة على من كان يؤرخ لها تؤكد الرؤية نفسها ، أى أنه لم يفد أحدا غير الفرنسيين .

ونقرأ التالى : «المادة الثانية تحدد الهدف المطلوب منه :

١ ـ تقدم التنوير ونشره فى مصر .

٢ ـ بحث ودراسة ونشر العوامل الطبيعية والصناعية والتاريخية فى مصر .

٣ - ابداء الرأى فى مختلف المسائل التى تطرحها عليه الحكومة».

ويقول الكتاب بعد سرد هذه الأهداف الثلاثة للمعهد فى مصر: «إن كان الهدف الأول لم يتحقق، وكان الثانى أكثرها خصوبة من المنظور التاريخى، فإن بونابرت كان يصب اهتمامه الخاص على الهدف الثالث»: الكلام واضح، فالاهتمام الفعلى كان طبعا لخدمة مشكلات الجيش فى حياته اليومية وإيجاد حلول محلية لها. لم يستفد المصريون شيئا من الأبحاث العلمية للمعهد اذن، وهذا الكلام منطقى لأن المعهد لم ينشأ أساسا من أجلهم بل من أجل رفاهية الجيش ، الأمر الذى يشرح غموض الشعارات التي طالما قرأناها عن الأثر الرائع الذى تركه المعهد ، والذى أخرج مصر من الظلمات إلى شمس التنوير .

عندما بحث مؤرخانا عن حقيقة الأمر ، لم يجدا شيئا واحدا يبرر أيا مما كان يقال : ونلاحظ نبذة غريبة وجديدة على الأدبيات التاريخية الفرنسية ، وهى الإشارة الى المؤرخين غير الفرنسيين وقد كانوا دائما موضع هجوم لأنهم يقولون الحقائق التى لا يرضى عنها «التأريخ الفرنسى الرسمى» قيل هذا بلباقة شديدة وحياء لغوى مستحب فى ذلك العصر ، باستعمال كلمتى «على الأقل». فإن «المؤرخين الجدد» الذين سيكتبون بعد ذلك سيواصلون المسيرة بالاعتراف جهارا بجدية الدراسات غير الفرنسية خاصة الأنجلو ساكسونية منها ، لأنها لم تكن تتعامل مع التاريخ الفرنسى من منطلق شوفينى ، يشوه ويدلس حتى تبدو الصورة ملائمة للهوى .

وتنتهى الصفحات السبع (والكتاب به أكثر من خمسمائة صفحة) وينتهى الجزء الخاص بالحملة برحيل بونابرت وكأن المؤلفان لم يبغيا الا نقد ماقيل عن بونابرت «وسياسته المصرية»، تنتهى تلك الصفحات بسرد لنشاط بونابرت العلمي، وتكون آخر الكلمات : «كان هذا العمل عابرا ولم يكن له أى تأثير على مستقبل مصر، لكنه أثر بعمق على جيل المهندسين السان سيمونيين» .

وقصة هؤلاء مع محمد على ثم فى الجزائر معروفة ، ولا علاقة لها بالحملة كما يقولها الكتاب صراحة قد تكون الحملة رحما شكل تجاربهم لكن تأثيرهم لم يغير شيئا من وجه مصر ، لأن محمد على لم يسمح لهم بمزاولة نظرياتهم الاستعمارية الاستيطانية .

أيا كان ، فقد توصل مؤلفا كتاب «الثورة الفرنسية» الشهير الى النتيجة نفسها التى سبق أن توصلنا اليها ، وهى أن الحملة كانت زوبعة عابرة ولم تترك أثرا فى تاريخ مصر. لقد حطم هذا الكتاب، بكلمات وجيزة، أسطورة الحملة ، كما حطم بإسهاب أسطورة الثورة الكبرى، ثورة ١٧٨٩ .

ولكن كيف كان الأمر مع المؤرخين الآخرين ؟

★★★

لن نتوقف عند ما قاله «هنرى لورانس» فى رسالته،لتوافرها فى الاسواق مترجمة للعربية، خاصة أن الكتاب يقول الكثير، فيكون الرجوع إليه بمثابه إعادة نشره، علاوه على اننا لا نريد ان نخل بتوازن ما نعرض له عند الكتاب الآخرين . ولذا، فإننا، حالياً على الأقل، ننحى كل

ما قاله جانباً، حتى نرى ما يكتبه الآخرون على ضوء الكلام التقليدى الذى اعتاده القارئ الفرنسي لما يقرب من قرنين من الزمن.

«روجيه دوفريس» : «نابليون»

فى سنه ١٩٨٧ظهر عدد من سلسله كتب «ماذا أعرف؟» العلمية الشهيرة، فى مائة وخمس وعشرين صفحة من القطع الصغير، تحت عنوان «نابليون» (٢٥) .

وكان من الطبيعى ألا يستطيع مثل هذا الكتيب – الذى يغطى كل أحداث حياة نابليون الحافلة – التحدث عن الحملة على مصر فى أكثر من صفحات أربع . وعلى الرغم من ذلك فإنه ذو دلالة مهمة، فهو نموذج آخر لرؤية «المؤرخين الجدد» . وتكمن أهميته فى صغر حجمه، وانتشاره الواسع، بسبب جدية علوم هذه السلسلة التى تساعد المتخصص، وسهولة قراءتها التى تنير العامة .

وقد ظهر هذا الكتيب في السنه نفسها التى كتب فيها «جان تولار» عن «أسطورة المنقذ» الكاذبة، فنابليون هذه المرة أيضا، لم يعد ذلك الإله الذى لا يخطئ، ولا ينجز إلا المعجزات التى لا يقدر عليها إلا عبقرى فذ مثله، ولكنه هنا الإنسان الذى اقترف من الاخطاء ما يمحى كل إيحاء بذلك الانبهار الذى اتسمت به الكتابات السابقة عند الحديث عنه .

فالمؤلف يقول صراحة ما أخفاه كثيرون، مثل تمسك نابليون باسمه الإيطالى «نابليونى بيونابرتى» (٢٦) حتى سنه ١٧٩٥، وهى السنه التى أراد فيها السفر الى تركيا مع بعثه الخبراء العسكريين المرسلين إلى اسطنبول . كما ان مؤرخنا «دوفريس» يعترف ان بونابرت استقبل فى

شمال إيطاليا كمحرر، إلا ان «الثورات اندلعت ،.... بسبب الضرائب الطاحنة التى فرضها (الفرنسيون) والتى كشفت (لبونابرت) عن قوة الشعور الوطنى الإيطالى . وبسبب تلك الاحداث، عمل نابليون كل ما فى وسعه لكبح جماح هذه الفتن، وتنازل عن فكرة خلق دويلات إيطالية مستقلة، فهو لن يسمح بعد ذلك إلا بإنشاء دول موالية لفرنسا» : مما يؤكد زيف فكرة جيوش بونابرت المحررة للشعوب .

كما نرى فى هذا الكتيب، نفاق بونابرت السياسى فى أحسن دلائله، عندما أمرته حكومة الإدارة بإنهاء البابوية، وإطفاء شعلة التعصب الدينى هذه : إنها السياسة التنويرية كما كان يفهمها رجال القرن الثامن عشر . نفذ بونابرت «الاوامر ولكنه أكد للكاردينال وزير شئون الدولة (البابوية) فى الوقت نفسه، أنه يحترم شخص البابا والديانة الكاثوليكية»، يعرف القارئ أن بونابرت سيؤكد، كذلك، فى بيانه الأول للمصريين، عداءه للبابا ورفضه تلك الديانة . ولم تترجم هذه الفقرة إلى الفرنسية عند نشر هذا البيان فى فرنسا . ولكن «شاتوبريان» لن ينسى له تلك السقطة، مثل كثير من اليمينيين الملكيين المتدينين .

الغريب فى كتاب «دوفريس»، انه لم يذكر مصر أثناء حديثه عن تصرفات بونابرت فى إيطاليا مثله فى ذلك مثل الغالبية العظمى من المؤرخين، فهو يقول : «فوجئ بونابرت بردود الأفعال العدائية للإيطاليين، وكان منهم الرعاع الذين يثيرهم الرهبان، وكان منهم ايضا اناس يؤمنون بمبادئ الثورة الفرنسية بصدق. لم يفهم بونابرت أنه أمام أولى المظاهرات الوطنية الإيطالية الرافضة للأجانب .لم يفهم انه من الممكن

التصدى لتجاوزات الاحتلال الفرنسي، مع كون الرافض لها يعقوبياً صادقاً . ولنقل بإيجاز، إنه اقترف الخطأ الذى سيتكرر فيما بعد في أسبانيا، والمانيا، وروسيا، وهو إنكاره قدر الشعور الوطنى التحررى للشعوب المستعمرة». تجاهل مؤرخنا هنا ذكر ما حدث أيضا في مصر، وطمسه تلك الحقيقة يذكرنا بكتابات مؤرخى العصر الاستعمارى، كأن لمصر وضعاً خاصاً، لا ينطبق عليه ما حدث فى البلاد الأخرى من ردود أفعال مشروعة على احتلال قاس ، يجعلها تثور لسلبها أبسط حقوق العيش الكريم.

وبعد إيطاليا، ينتقل دوفريس إلى مصر مع بونابرت، فى صفحات أربع ، نعود اليها لاحقاً، فنقرأ أولا ما قاله ، مؤرخنا ، بعد ذلك ، عن حكم نابليون، عندما استولى على السلطة فور عودته من الشرق.

ولن نتمادى فى ذكر ما كتبه، خاصة أن مؤرخين آخرين كانوا قد قالوا الكلام نفسه، وسبق أن استرشدنا بتأكيدهم لما يبدو أنه أصبح الصورة الجديدة للاستعمار الفرنسى فى ذلك العصر ، على أيدى جيش كان يصور سابقا على أنه منح أوربا الحرية ومبادئ الثورة. فبلجيكا وهولندا فى حالة ثورة بسبب تجاوزات الجند فى البلاد المحتلة «المحررة»، والضرائب الباهظة المفروضة عليها. ويقول مؤرخنا: «إن الفلاحين (فى هذه البلاد)، حين طلبوا للتجنيد، ثاروا بمساندة الكهنوت»، فقد كان دور رجال الدين المحليين ضد المستعمر الفرنسي، من أهم عناصر الثورة ضد المحتل، وهو ما يشبه إلى حد كبير، دور رجال الدين في مصر؛ ولكننا لا نجد أيه إشارة إلى هذا التشابه هنا أيضا.

ثم يكون وصف الحكم غير الديمقراطى لفرنسا، بما فيه من إلغاء لمبادئها، وتجريدها من كل مكاسب الثورة السياسية ، كما سبق أن عرفنا. ومرة أخرى، لا نجد أية مقارنة بين هذا الحكم وما كان يماثله فى مصر.

والجديد أن مؤرخنا يشير، وبالتالى يشرح سبب ثورة عبيد المستعمرات: «لقد تسببت إعادة قوانين الرق ـ بقانون السابع عشر من مايو ١٨٠٢ ـ فى الثورة، وإضاعة جزيرة سان - دومينج»، هذه الهزيمة التى قلما تحدث عنها المؤرخون، لأن قائدها لم يكن الجنرال بونابرت، ولكن زوج أخته الجنرال «لوكلير». ويشير «دوفريس» إلى أن تتويج نابليون ملكا على إيطاليا فى مارس من عام ١٨٠٥ «لم تسبقه أية استشارة شعبية تدعم هذا التغيير. لقد أدار نابليون ظهره للنظرية الثورية للعقد» الاجتماعى بين الحاكم والمحكوم ونعرف من تفاصيل الدراسات الأخرى، أن «استشارة» فرنسا فيما سبق من قرارات وتغييرات، لم تكن إلا صورية. فما الجديد إذن؟. وسيحدث الشئ نفسه فى سويسرا ثم ألمانيا، مع اختلاف اللقب الجديد فى كل من هذه البلدان. لذا، جاء الاعتراف صريحا، «فدوفريس» يستعمل كلمة «مستعمرات الإمبراطورية» عندما يتحدث عن بلاد أوربا «الصديقة» لفرنسا .

ويذكرنا وصفه لما يقترفه الجند الفرنسيون في هذه البلاد، بما كان يحدث فى مصر عندما أطلقت أيديهم، كما حدث فى أوربا: «على الجندى أن يعيش على خير البلد، فكثيرا ما يتحول إلى لص ناهب للمأكولات. فالأجور لم تكن تدفع بانتظام، وغالبا ما تكون من الضرائب المفروضة على المهزومين».

ويؤكد مؤرخنا على جانب آخر من تاريخ نابليون، وهو بذلك يعتبر من القلة الذين توقفوا عند نقطة تتويجه إمبراطورا ونتائج هذا الحدث؛ إذ «شعر نابليون منذ تلك اللحظة أنه من عائلة الملوك، وبالتالى، فإن عليه أن يتنازل عن كونه «الثورة المسلحة» فى أوربا. وحتى يثبت شرعيته أمام أوربا الملكية، أخذ يعقد الزيجات مع العائلات الملكية الحاكمة آنذاك». ويذكر «دوفريس» - والأمثلة كثيرة - كيف تم اختطاف أحد الناشرين فى مدينة «نورنبرج» الألمانية وإعدامه لأنه كان يوزع منشورات ضد نابليون. وكيف حاول نابليون أن يحرض النزعة القومية فى المجر لتثور على الحكم النمساوى، ولكن محاولاته باءت بالفشل؛ ومرة أخرى لم يذكر أن هذا بالضبط ما حاوله بونابرت فى مصر لسلخها عن الإمبراطورية العثمانية، بدعوى إحياء المجد السحيق لمصر.

كما أن مؤرخنا يلاحظ أن نابليون قد أعاد «التعذيب الوحشى» إلى القانون الجنائى الفرنسى، ونحن نعرف أن الملكية كانت قد ألغت التعذيب قبل قيام الثورة بسنوات. ولن يعجب القارئ العربى «للوحشية الإمبراطورية»، إذا تذكر ما حدث لسليمان الحلبى: حوكم حسب «العدالة الفرنسية»، ولكن طبق عليه «القانون المحلى» ليتم تعذيبه.

ويقول مؤرخنا باقتضاب: «تأكد الطغيان فى ظاهرة «التحكم» فى العقول». ليفضح مرة أخرى «تجنيد الفنانين لخدمة النظام (و) سيطرة الأسطورة الإمبراطورية على الجمهور، فأصبح هناك عبادة إمبراطورية، كان لها مثلا تقويم لطقوس دينية خاصة بها»، وذلك بمساندة رجال الدين فى فرنسا كما سبق أن قرأنا.

ثم يكون الاعتراف بالدور البريطانى فى إخراج الفرنسيين من أسبانيا: «فى عام ١٨١٠، توجه «ماسينا» على رأس مائة ألف جندى، مأمورا بتنظيف شبه الجزيرة الأيبيرية من الوجود الإنجليزى. دخل البرتغال، ولكنه طرد منها عام ١٨١١، .... ، وفى أوائل ١٨١٢، دخل ولينجتون (الإنجليزى) أسبانيا، وفى الثانى والعشرين من يوليو ،....، سحق مارمون و كلوزيل، وطرد جوزيف (أخو نابليون المتوج على عرش أسبانيا) من مدريد». فكانت مساعدة الإنجليز للأسبان مثل مساندتهم للعثمانيين والمصريين لطرد الفرنسيين، وهذا أيضا لم يذكر.

أما عن الحملة على روسيا، فهى أيضا تذكرنا بما حدث فى مصر، خاصة أن «دوفريس» يشير بوضوح إلى ماتاه فى الكتب الكبيرة التى تحدثت عن الموضوع. فالمعروف أن بونابرت جاء إلى مصر ليحدث المصريين عن مبادئ لا علاقة لها بواقع مصريى ذلك العصر، وبمنطق لا يناسب ما كانوا يعيشونه آنذاك . وكان بونابرت ينتظر أن تثور شعوب الشرق على حكامها، مثلما حدث فى فرنسا، فيكون هو محررها وقائدها. ولسان حال الموقف يعبر عنه «دوفريس» بقوله عن الحملة على

روسيا: «ذهب إليها نابليون وكله أفكار خاطئة. كان ينتظر أن يثور أقنان الأرض لأنه يجلب لهم مبادئ ١٧٨٩، مع أنهم لم يكونوا قد سمعوا عنها مطلقا. ومع ذلك، فهو لم يحررهم حتى لا يفسد المصالحة المقبلة التى كان ينتظرها، مع القيصر»: الازدواجية نفسها قابلناها فى مصر، فقد كانت البيانات تتحدث عن الحرية والمساواة، وفى الوقت نفسه تسير الأفعال فى خط مناقض تماما، فرفض المماليك مطلوب من المصريين، ولكن معاملة الفرنسيين للمصريين كانت نفس معاملة المماليك لهم .... إن لم تكن أسوأ.

كتيب «دوفريس» صغير حقا، خاصة إذا ما قارناه بالمجلدات التى نشرت ولا يقرؤها غير المثقفين المتخصصين. أما هذا الكتيب فهو للطلبة وعامة الجمهور المهتم بقضايا التاريخ، دون أن يغوص فى تفاصيل مرهقة، قد يغرق فيها القارئ فلا يواصل قراءتها؛ كتيب للعامة يثبت أن أسطورة نابليون محرر أوربا ونصير القوميات قد انتهت.

فماذا عن أسطورة الحملة، ومؤرخنا يفضح بموضوعية قاسية، الحقيقة المؤلمة وراء أسطورة نابليون؟

★★★

يقول «دوفريس» إن الحملة على مصر ليست إلا نتيجة لاستحالة غزو إنجلترا، كما كان الأمر مطروحا. وكان رأى بونابرت، عندما رأى ضعف البحرية الفرنسية، أن تُضرب إنجلترا فى أرض حليفتها «هانوفر»، أو ضربها فى مصر. ولكن ضرب «هانوفر»، الأرض الألمانية، يمكن أن يشعل حربا جديدة مع كل الدويلات الألمانية الأخرى؛ أما احتلال مصر

فسيعوض خسائر فرنسا فى مستعمراتها المفقودة، حتى إن كانت مصر ملكا لتركيا، وهى دولة صديقة لفرنسا، وليس لها أية معاهدات أمنية مع انجلترا. ومصر على طريق الهند، وفى الهند ثورة ضد الإنجلين، يمكن مساعدتها إذا كانت مصر تحت السيطرة الفرنسية. فكان قرار غزو مصر دون إعلان حرب.

وكان أول أخطاء نابليون، الذى سيكرر المأساة فى روسيا فيما بعد: إنه الجهل بمناخ البلد الغريب؛ وهكذا «ستنزل القوات مرتدية ملابس الميدان الشتوية في شهر يوليو» إلى صحراء مصر الحارقة.

أمرت حكومة «الإدارة» بونابرت بإرسال خمسة عشر ألف جندى من السويس إلى الهند لمساعدة الثوار الهنود «ولكن كان عليه أن يضمن سيطرته على مصر أولا. وعندما وصل إلى السويس فى ديسمبر ١٧٩٨، لم يجد السفن الكافية لهذه المرحلة، وكان تيبو - ساهيب (قائد ثورة الهند) قد هزم وقتل».

«كانت الحملة على مصر، على المستوى الحربى، فاشلة فشلا تاما: الجيش الفرنسي محصور فى غزوته، وإنجلترا سيدة البحر المتوسط، وقوتها فى الهند موطدة. وكانت للحملة نتائج مؤسفة، ففى ديسمبر ١٧٩٨ أعلنت تركيا الحرب على فرنسا. وبعد ذلك بقليل، سمحت للقيصر بدخول أسطوله الحربى إلى البحر المتوسط. وفى ديسمبر، عقد تحالف بين إنجلترا ونابولى وروسيا ،.....، وعندما سمحت النمسا للجيوش الروسية بالمرور فى أراضيها، أعلنت فرنسا الحرب عليها، فى مارس

«كما سبق أن حدث فى إيطاليا، حاول بونابرت فى مصر أن يستميل أعيان البلد - على الأقل - ليضمهم إلى صفه، مما أجبره على التنظيم والإدارة والتقنين، ولكنه لم يعدل عن سياسة استغلاله للبلد، فباءت سياسة الضم هذه بالفشل».

«فى الثانى من يوليو ١٧٩٨، تقدم إلى الأهالى على أنه محررهم، مؤكدا نيته فى احترام القرآن، فقد كان شديد الحرص على تفادى المشاكل الدينية. وبعد ذلك بثلاثة أيام، أطلق نداء صريحا بالثورة على المماليك، ولكن أحدا لم يتحرك، فكانت المفاجأة الكبرى له. وبعد ذلك مباشرة، بدأ فى فرض ضرائب باهظة من الذهب والفضة على تجار الإسكندرية. عندما فهم استحالة إدارة البلد بطريقة مباشرة، نصّب فى كل مدينة «ديوانا» من الأعيان، وظيفته السهر على الإدارة، والتموين والشرطة، تحت مراقبة مندوبين فرنسيين. أما فيما يخص العدالة والضرائب، فقد حافظ على الأسلوب المحلى».

«وقد أنشأ فى الثانى والعشرين من أغسطس ١٧٩٨ ما يمكن أن يعتبر فرعا لمعهد باريس، حتى يسهل على العلماء الذين اصطحبوه أعمالهم. إنه «معهد مصر» (أى المعهد الفرنسى) الذى طلب منه أن «ينشر التنوير فى مصر ويساعد على التقدم»، ودراسة كل موارد البلد وتاريخه. وإن كان الجزء الأول من المهمة قد فشل تماما، فإن الجزء الثانى قد وفر الوثائق التى سمحت بميلاد علم المصريات». ثم نقرأ عن كل المشروعات التى أراد نابليون تحقيقها، ويعترف مؤرخنا: «كان

الهدف الأكيد هو حماية الجند من الأوبئة، ولذا فقد اتخذت عدة قرارات لتحسين صحة أهل البلد، لم يكن لتلك السياسة أى تأثير مباشر، غير أنها أدهشت أطباء البلد. ولكنها كانت أصل الانطلاقة الاقتصادية المقبلة للبلد...»!: صوت نشاز، فجأة، وسط كل هذه الموضوعية العلمية، خاصة أن مؤرخنا يقول الكثير فى أسلوبه الواضح على اقتضابه، مثل سخريته من مفاجأة بونابرت بعد ندائه بالثورة على المماليك. فالجملة الأخيرة لا يبررها - من الناحية المنطقية - أى كلام سابق عن المشروعات التى تستهدف كلها حرية حركة الجند فى الوادى، ولا يرى القارئ أى صلة بين هذا الكلام عن «دهشة أطباء البلد»، وما سيحدث بعد ذلك - على المستوى الاقتصادى- فى عهد محمد على. مرة أخرى، ومع اعتراف «دوفريس» بما كان المؤرخون السابقون لا يميلون إلى ذكره، نجد لازمة كل ما يمس وجود الفرنسيين فى مصر، وهى إرجاع الفضل فى انطلاقة محمد على إلى الوجود العسكرى الفرنسى. تناقض غريب، خاصة إذا ما استمر الدارس فى قراءته ليعرف ما يقوله المؤرخ نفسه بعد ذلك: «كان أهل البلد لا يطيقون رق الاحتلال. وساءت الحال عندما أعلن السلطان الحرب المقدسة على الفرنسيين. ومنذ سبتمبر ١٧٩٨، اندلعت الثورات، وتلتها ردود الأفعال الثأرية الدموية»: كلمات مقتضبة مرة أخرى، ولكنها تدمغ الاحتلال بوصمه الوحشية.

ويلخص «دوفريس» بعد ذلك ، سريعا، معارك بونابرت، مؤكدا أن: «بونابرت لم يستطع فتح عكا، التى كان يدافع عنها المهاجر الفرنسى «فلبيو»، زميل دراسته فى الماضى، فعاد إلى مصر». وهنا، تظهر حقيقة

الأمر وتتجلى: إن «دوفريس» من ذلك النوع الجديد من المؤرخين الذى يعترف بالحقائق المؤلمة، ولكنه لايزال متمسكا، ولو فى دخيلة نفسه، ببعض خيوط الأسطورة، لزوم شوفينيته؛ فالذى هزم بونابرت فى عكا لا يمكن أن يكون إلا فرنسيا، وصحوة مصر فى القرن التاسع عشر لابد أن تكون وليدة الوجود الفرنسى، حتى وإن كان عاريا من أى دليل يؤكد به مثل هذه الادعاءات. وعلى الرغم من وضوح كلامه السابق كله، إلا أننا نجد هنا تلك البؤرة المظلمة من الإنشاء الأجوف والمسلمات الغامضة، التى تؤكّد ، دونما دليل تستند عليه.

ولكن إذا ما قورن باقى كلام الرجل بما سبق أن عرفناه فى الكتابات الأخرى، فإنه ، بالقطع ، يعتبر قفزة هائلة نحو الاعتراف بالواقع، ورد الاعتبار للمصريين الذين لايستقبلون الغزاة بالأحضان، كما سبق أن قرأنا. وكأن هذا الكتاب يقدم رجلا ويؤخر أخرى، فبه - على المستوى العلمى - من الأمانة ما يجعله يدحض ما كان يقال عن الانتصارات المعجزة لبونابرت، معبود المصريين المبهورين به؛ وإن كان لايزال أسير أسطورة جعلت من الحملة حربا خاصة، لا علاقة لها بحروب الثورة الأخرى، ولا يمكن أن يهزم قائدها على أيد غير أوربية.

بضع سنوات، وتزداد الشجاعة.... وينقشع ما تبقى من سحب كانت تحجب نور الحقيقة الكاملة.

«جان - جويل بريجون» : «مصر الفرنسية»

فى عام ١٩٨٩، نشر «هنـرى لورانس» رسالته للدكتوراه عن «الحملة على مصـر» وقال فيها كل ما يمكن أن يقوله دارس شاب

حديث، تخلص، مثل علماء جيله، من غشايات الأساطير الخاصة بفرنسا، الدولة الاستعمارية العظمى: لقد تحدث فى كتابه هذا، كما أسلفنا، عما قيل عن الحملة كله، ففضح كل مساوئها. ولكن مؤرخا آخر أراد أن يزيد على ما نشر، ففي عام ١٩٩١- أى بعد كتاب «لورانس» بعامين فقط - كان كتاب بعنوان «مصر الفرنسية فى حياتها اليومية : ١٧٩٨ - ١٨٠١» (٢٧).

يتحدث «جان - جويل بريجون» مؤلف هذا الكتاب، عن رسالة «لورانس» بتعال شديد، ومن البديهى أنه حاول التفوق عليه. ولكن كتابه، على ضخامته، لا يقدم رؤية متسقة نستشف منها موقعه الحقيقى من الأحداث التى يرويها، حتى أن خاتمة الكتاب جاءت مفاجأة تامة للقارئ؛ والمعلومات التى يقدمها مؤرخنا مفككة، لا تضيف، فى الواقع، جديدا إلى جوهر الموضوع. ولكن كتابه يهمنا لما يورده من معلومات تثبت أن ثمة حقائق لم يعد من المستطاع السكوت عنها.

يبدأ «بريجون» مقدمته بنقد ساخر «لكل المؤرخين العرب» الذين أرخوا للحملة وانبهروا ببونابرت وحملته... ثم نراه لا يذكر إلا ثلاثة كتب! فإذا جاء، فى إطار الحديث، ذكر كتاب يعارض كلامه هذا، فهو لا يتحدث عنه إلا فى أحد هوامشه ويتهم مؤلفه بالسلفية الدينية المتعنتة. ومن البديهى أنه لم يقرأ من كتب «المؤرخين العرب» إلا هذه الكتب الأربعة وإذا ما تعرض بعد ذلك لمؤرخ فرنسى حديث، عاب عليه «تجاهله المتعالى لوجهة نظر أهل البلد». أما عن «كريستوفر هيرولد»، فهو «يعبر عن وجهة نظر أنجلو - ساكسونية نموذجية (أى أنها معادية تماما

للفرنسيين). فيحلو له، فى كل صفحة تقريبا، سرد وصف لحظات الضعف، والتخبط، وحتى عيوب الرجل الكبير»، أى بونابرت .

نجد إذن، ومنذ الصفحات الأولى، إدعاء صارخا بالموضوعية التى لا يساندها فعل، فهو يعيب على الأمريكى نقده بونابرت، ولا يقدم من المؤرخين العرب إلا قلة لا تدل إلا على تحيز تيار بعينه للفرنسيين فاعتبرهم «كل المؤرخين العرب»، دون ذكر للتيارات الأخرى. وإذا قابل نموذجا لأحد هذه التيارات، همّشه ودمغه بوصمة التعنت السلفى، ثم يدخل فى صلب الموضوع. لن نناقش ما قاله كله، فيكفينا رصد بعض المعلومات الجديدة التى أوردها فى كتابه الضخم، والتى تخص قضيتنا، كما سنترجم من تعليقاته ما ينم عن نظرة حديثة للحملة ورجالاتها.

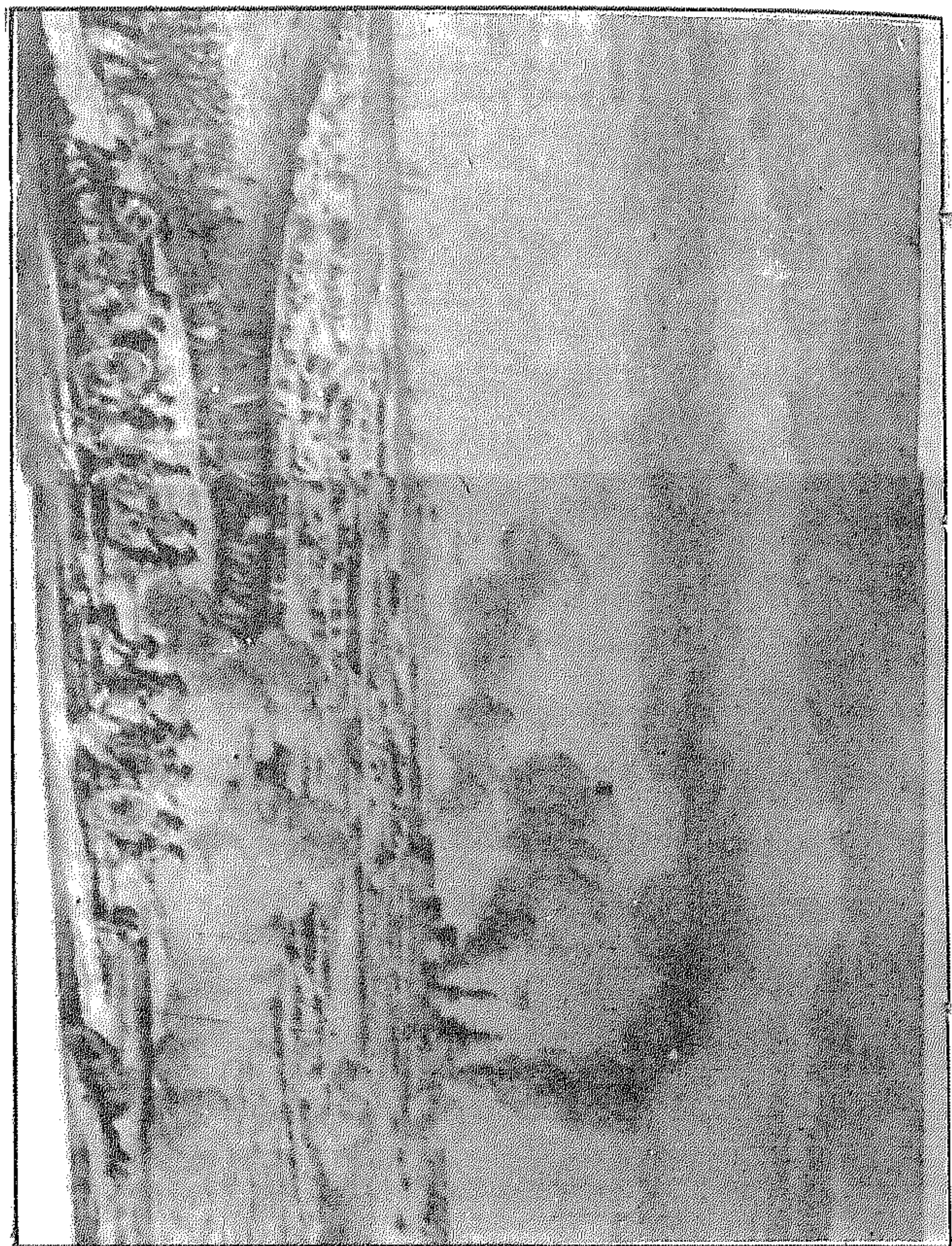
فهو يعترف مثلا بالمحاولات الدائمة للإرسًاليات الكاثوليكية الفاشلة، فى ربط الأقباط المصريين بهم كما سنقرأ - عندما يتحدث عن يعقوب - قوله إن يعقوب هذا «أحد الأقباط النادرين الذين حاربوا بجانب الفرنسيين». وعندما يتعرض للحملة، يلاحظ أن «أكثر الحجج شيوعا بين غزاة ١٧٩٨، هى الإعلان عن شن حرب تحريرية لانتزاع المصريين من طغيان البكوات. هذا الشرح، حتى وإن كان مسببا إلى حد ما، وإن كان يعبر عن إيمان صادق بالفكرة، إلا أنه تبرير ذاتى لضميرهم الحى، وواجب مفروض إعلانه من قبل كل غازٍ عشية قيامه بمشروع استعمارى!». الاعتراف بالهدف الاستعمارى المطلق واضح إذن وصريح، فكيف نتفهم أن يكون ضميرهم حى مع ذلك؟ ولكن هذه التأكيدات

ستتعدد بعد ذلك، فيبدو أن «بريجون» يناهض هذا الهدف الاستعمارى الأوحد. إنه يتحدث مثلا عن «حكومة الإدارة» وأزمتها الاقتصادية الطاحنة، بصراحة فجة، قائلا: «فهى لاتعيش إلا بالحيل والقروض ونهب «الجمهوريات» الأخوات أيضا، وهى الأراضى «المحررة». وفى نهاية ١٧٩٧، تتجه أنظار هذه الحكومة إلى الولايات السويسرية وممتلكات البابا: فهناك كنوز ترقد فى مدينة «برن» السويسرية، وفى روما، تنتظر من يأخذها»: السخرية الواضحة التى يتحدث بها «بريجون» عن معاملة الحكومة الفرنسية للدول «الأخوات» المحررة فى الجزء الأول من هذا النص، وكلامه الأخير عن فكرة استغلال البلاد وغزوها لا لشىء غير سلب كنوزها، ينم عن انتماء المؤرخ إلى الفكر الحديث، الذى يرفض مبدأ الاستعمار.

وعلى أية حال، فإن هذه الكنوز هى التى ستمول الحملة على مصر.

وسرد مؤرخنا لأحداث الحملة، يؤكد تلك النظرة السافرة لما كان يعتبر - كما أسلفنا - أساطير أمجاد التاريخ الفرنسى، فهو يقول مثلا عن «المعركة المسماة بموقعة الأهرامات (إنها) أحد الأيام العظيمة فى الملحمة النابليونية، كان للمؤرخين الفضل فى التعامل مع الحدث الذى عظم بعد ذلك بهذه الصورة».

فمؤرخنا يرى إذن أن الموقعة فى حقيقتها لاتناسب ما قيل عنها بعد ذلك ، كما أنه يقول عن «معركة النيل كما يسميها البريطانيون (معركة أبو قير البحرية) انها نموذج الكارثة التى حولتها الذاكرة الفرنسية الى حادثة حزينة ولكنها مجيدة».



«معركة أبو قير» (وهى طبعا معركة أبوقير الثانية)

اما عن مشاعر المصريين، فهو يتهم الفرنسيين بعدم ادراك حقيقتها: «كان الفرنسيون يظنون أنهم وصلوا الى سلام مستتب. وقد وجد بونابرت نفسه محاطا مرتين على الأقل، بجمهور يلقى عليه السباب، ولكن مترجميه طمئنوه مؤكدين أن هذه الجمهرة تتغنى بأفضاله!» وعلامات التعجب تكشف عن رأى «بريجون» الساخر فى المسألة. وتكون ثورة القاهرة الأولى، ويكتب بونابرت إلى «رينييه»: «عاد الهدوء التام إلى القاهرة ،...، وفى كل ليلة ، تقطع حوالى ثلاثين رأسا ، و(نقتل) كثيرا من القواد، أعتقد أن ذلك سيكون درسا كافيا»، فيعلق «بريجون» قائلا: «أثبتت ثورة القاهرة أن قلة من المصريين هى التى كانت راضية بالوجود الفرنسي، اما الآخرون كلهم فكانوا مستعدين للتضحية بحياتهم للتخلص منه». ويحكي كيف أن الجنرال «لانوس» استعاد مدينة دمنهور، التى كان «المهدى» قد استولى عليها : «فحولها (لانوس) الى رماد، وقتل كل سكانها، وبعد أن انتهى من هذا «الأورادور»...» لابد من وقفة هنا، فالأمر جد خطير فاستعمال مؤرخنا هذا الاسم الأخير «أورادور» له دلالة خطيرة، إذ أن «بريجون» بهذا الوصف، يشبّه فرنسيي الحملة، بالجيش النازى، الذى احتل فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية، و«أورادور» هو اسم قرية حرق كل أهلها فى العاشر من يونيو ١٩٤٤، وأصبح اسمها رمزا للوحشية الألمانية والبربرية النازية، فالتشبيه جد خطير وجديد على الفرنسيين المهتمين بتأريخ الحملة.

لكن هذا التشبيه الذى يدمغ فرنسيي الحملة بمثل تلك الوصمة ليس الوحيد فى كتاب «بريجون»، فهو يقارن مرارا بعد ذلك، ما حدث على أيدى الجند المستعمرين، بما فعلوه من قبل فى مقاطعة «فانديه» فى فرنسا، عندما حولوا البلد الى «أرض محروقة» بعد الإجهاز على كل السكان من نساء وأطفال وشيوخ.

وإذا ما بحث مؤرخنا عمن تعاون مع الفرنسيين من المصريين، نراه يعترف أنه لم يجد إلا قلة ضئيلة، «لاتتعدى أصابع اليد الواحدة»، لذا فقد اضطر الفرنسيون الى استخدام «وحوش» مثل برطلمى اليونانى، فكانت النتيجة أن «الفرنسيين فقدوا مصداقيتهم لدى الشعوب المستعمرة. ولكن الاحتلال العسكرى لبلد مهزوم، مجبر على مثل هذا المنطق البشع، وذلك ما يحدث فى كل العصور».

ثم نصل الى ما يقدمه «بريجون» باستفاضة، وهى «يوميات فرانسوا» الذى لقب «بجمل مصر» لاشتراكه فى جميع معارك الحملة، كبيرة وصغيرة، فقد تطوع فى صفوف الثورة منذ عام ١٧٩٢، وهو لايزال فى السابعة عشرة من عمره، فأصبح جزءا منها ومن حروبها، وارتبط مصيره بعد ذلك بحروب بونابرت فى ايطاليا قبل أن يسافر إلى مصر، وكان قد تمت ترقيته إلى رتبة ضابط ؛ إنه أحسن نموذج للجندى الثورى المحترف فى عصره. وتشكل يومياته أحسن صورة لما كان يحدث فعلا فى مصر، على أيدى جند الحملة الفرنسية. وقد استعمل هذه «اليوميات» آخرون، ولكن «بريجون» اختار أن يفرد لها أكبر نصيب، حتى يصور ما أسماه فى عنوانه «الحياة اليومية» للجيش المستعمر.

ودون اسهاب فى التفاصيل التى ينشرها «بريجون» فى كتابه، يكفينا بعض الاشارات الى ما وصفه الضابط ذاته، مثل اشتراكه «فى عمليات تمشيط تكررت كثيرا وكانت لاتترك وراءها إلا الرماد وسفك الدماء، ولم يشعر فرانسوا الا بتأنيب ضمير خفيف. إنه يفضل - على حد قوله - ألا «يشرح الفظاعة بالتفصيل». كان «فرانسوا» هذا مع فريق الكشافين المكلف بأكثر العمليات وحشية، وكانت لهم سمعة جعلت زملاءهم يلقبونهم بالجزارين» . وتستمر الملحمة الدموية للدوريات التى يشترك فيها هذا الضابط وهى «تمشيط القرى وسلب مؤنها وحرقها وقتل فلاحيها.

ويرد الأهالى بالعنف نفسه لأن دائرة البشائع مفرغة وتنتهى دائما حيث بدأت.

ويستمر «بريجون» فى سرد «يوميات فرانسوا» فنقرأ التالى:

«مقتل كليبر(الرابع عشر من يونيو ١٨٠٠) يجعل «فرانسوا» يفقد صوابه من شدة الغضب، فهو يجرى مع زملائه الى مكان الجريمة، ويقتل بالسيف أو يطعن بالسونكى كل من يعترض طريقه» (٢٨). وعندما ننتهى من قصص «فرانسوا» الدموية تلك، نعود الى كتابة «بريجون» نفسه ورأيه فى الأحداث التاريخية التى تلت جلاء القوات الفرنسية عن مصر عام ١٨٠١ وما قيل عنها.

يرد «بريجون» أولا على من قال ان المصريين كانوا يتمنون عودة الجيش الفرنسى بعد رحيله قائلا: «مع شديد احترامى للمسيو دى ليسبس، فالندم الذى تركته فرنسا لم يكن جماعيا، فالكثير من

المصريين والقوى المؤثرة فى البلد لم يكونوا راغبين في عودة الفرنسيين وعلى رأسهم محمد على. وكان الفرنسيون من جهة أخرى غير قادرين بالمرة على العودة إلى مصر وترسيخ أقدامهم فيها». أما من تبقى من الجند الفرنسيين فى مصر، فهم: «أفراد منعزلون لم يكونوا غير أنقاض للحملة، وغالبا ما كانوا مرتدين (عن دينهم) ذابوا بسرعة فائقة وسط الأهالى».

يقول مؤرخنا أيضا إن محمد على «جمع حوله مدربين أوربيين، أغلبهم من الفرنسيين، ولكنه لم يكن سعيدا بهم، حتى جاءت سنة ١٨١٥. ففى هذه السنة وصل ضابط فرنسى شاب هو الكولونيل سيف»، هذا اعتراف بأن مثل من سيصبح «سليمان باشا» لم يكن القاعدة فيمن خدم محمد على من الفرنسيين، وهذا الاعتراف يثبت عدم جدية القول بأن الفرنسيين هم سبب تحول مصر إلى دولة عصرية فى عهد محمد على.

نقرأ أيضا عن التفاصيل التى حولت الحملة الى اسطورة على أيدى فنانين لم تطأ أقدامهم أرض مصر، وهم الذين كلفوا بعد جلاء القوات الفرنسية بتمجيد «اللحظات العظيمة للحملة، وهذا الفن خاص بالبلاط الامبراطورى، وهو غاية فى المهارة وكله حركة متأججة ؛ يهدف أساسا إلى تعظيم نابليون بونابرت، ثم قواده من بعده». نقرأ كذلك كيف أن الأسطورة تبلورت فى عام ١٨٢٨ - أى بعد الحملة بثلاثة عقود - عندما نشرت الملحمة الشعرية «نابليون فى مصر» لمؤلفيها «برتليمى» و«ميرى»، ونقرأ عن نجاح هذه القصيدة التى أعيد نشرها عدة مرات.

بعد كل هذا الكلام الواضح الصريح، الذى ينم عن نقد لاذع لكل ما يمس الحملة، وأفعال جنودها، وتحويلها الى اسطورة، تكون مفاجأة الخاتمة. فبعد أربعمائة صفحة تكشف حقائق دامية وراء تلك الأسطورة التى فندها مؤرخنا تأتى الخاتمة: يتحدث «بريجون» عن الآثار الرائعة التى تركها الجيش، فعلى الرغم من كل ما سبق إلا أنه يؤكد أن عثمان جلال «موليير مصر» الذى ولد عام ١٨٢٨ وباعتراف «بريجون» نفسه، كتب مثلا مسرحيته بسبب مسرح كان «بعض الهواة» قد أسسوه أثناء الحملة، وكذلك أنشأ الخديو سعيد «المعهد المصرى» فى عام ١٨٥٩ أيضا بسبب ما رآه المصريون في المعهد الفرنسى قبل ذلك بستين عاما! كما أن الصحافة المصرية فى عصر اسماعيل باشا، لم تكن الا نتيجة الوجود المؤقت للمطبعة الفرنسية فى مصر.

ثم ينهى «بريجون» كلامه بالفقرة التالية: «إن التوازنات الجيو - سياسية تتغير بسرعة فى منطقة البحر المتوسط، وإذا تضامنت كل من مصر وفرنسا، فيمكنهما عمل الكثير فى هذا المجال، وستسهم علاقاتهما الطيبة فى استقرار هذه المنطقة من العالم، فإن المشاركة فى الأفكار والمصالح لمدينة بالكثير لجند بونابرت، فبغير إغارتهم على مصر، لما استطاعت مصر أن تجد دروب التاريخ بهذه السرعة، وبغير هذه الحملة الفريدة في نوعها، لفقدت فرنسا اسهاما ثقافيا رائعا. ولذا، علينا أن نستمر فى تكريم ذكرى بونابرت، وديسى، ومونج وديجنات» كلام سبق أن قرأناه عند مؤرخى الحملة القدامى.

وهكذا تأتى الخاتمة لتتوج التناقض الغريب لرؤية مؤرخنا، لقد حطم أسطورة الحملة الحضارية، ولكنه يأبى أن يعلن وفاتها على يديه، مؤكدا صحة المثل الفرنسى القائل بأن «الأساطير لاتموت بسهولة» وإن دلّ هذا التناقض على شىء، فإنما يدل على حالة البلبة التى يصل اليها من يرى الحقائق، مثل «بريجون» ولا يقبل أن يعترف بنتيجتها الحتمية فيكون التشويش هو كل ما يكسبه قارىء كتابه.

مرة أخرى، يقحم الحاضر متطلباته السياسية المغرضة على موضوعية مؤرخ الماضى السحيق، فكان لابد من طمس كل ما حدث فى مصر من تغييرات جذرية فى القرن التاسع عشر، حتى تبدو حملة بونابرت هى الحافز لتطوير بلد متخلف، مع أن هذا التغيير شمل فى الواقع العالم بأسره، ولم تحتج اليابان مثلا أن تتعلم من الاستعمار البونابرتى.

كما أن مؤرخنا تناسى تماما أن تنفيذ المشروع الاستعمارى الفرنسى فى الجزائر قد جاء بما لاتشتهيه فرنسا، مع أنه نفذ على أيدى تلاميذ بونابرت وحسب منهجه. وكل هذا على الرغم من الاعتراف بكل ما اقترفه الجيش من «فظاعة» على حد قول الضابط «فرانسوا»، وكان هو نفسه أول من اقترفها. ولكن الجيل الجديد من المؤرخين الجدد لم يعد فى مقدروه اخفاء الحقائق أو نفيها، حتى إن كان رافضا ـ على المستوى الشخصى ـ النتيجة المنطقية، الحتمية، لما يسرده هو نفسه من أحداث تناقض رأيه الخاص. فمقارنة مجزرة الجنرال «لانوس» فى

دمنهور بأبشع الجرائم النازية، تعد فى ذاتها ثورة مدوية على كل مايقال عن الحضارة التى جلبها الفرنسيون الى مصر.

«باتريس بريه» : «بونابرت فى مصر»

ظهر فى عام ١٩٩٥ عدد من مجلة «لستوار» العلمية، وهى مجلة لايكتب فيها إلا المتخصصون، وكان هذا العدد عددا خاصا عن مصر، يمكن أن يترجم عنوانه «بأسرار مصر الغامضة» (٢٩). فلا تزال مصر، حتى يومنا هذا، بلد الغموض - والأسرار فى الوعى الغربى، وتعالج الدراسات التى نشرت فى هذا العدد آلقضايا المصرية، منذ الفراعنة حتى تاريخ جمال عبدالناصر، و«الصحوة الاسلامية» الحديثة. ويلاحظ أن موضوع الحرب والسلام مع إسرائيل، يكتبه استاذ اسرائيلى، لانقرأ معه وجهة نظر عربية.

أيا كان الأمر، فإن ما يهمنا فى هذا العدد - الذى يعتبر ما نشر به آخر ما توصل اليه المؤرخون فى فرنسا حتى كتابة هذه السطور (والله أعلم) - سلسلة دراسات «لباتريس بريه» عنوان إحداها «بونابرت فى مصر». وينبىء تقديم المقال فى ذاته بما سنقابله من رؤية جديدة. فالكاتب يطرح اسئلة تخص أمورا كانت كما رأينا من المسلمات.

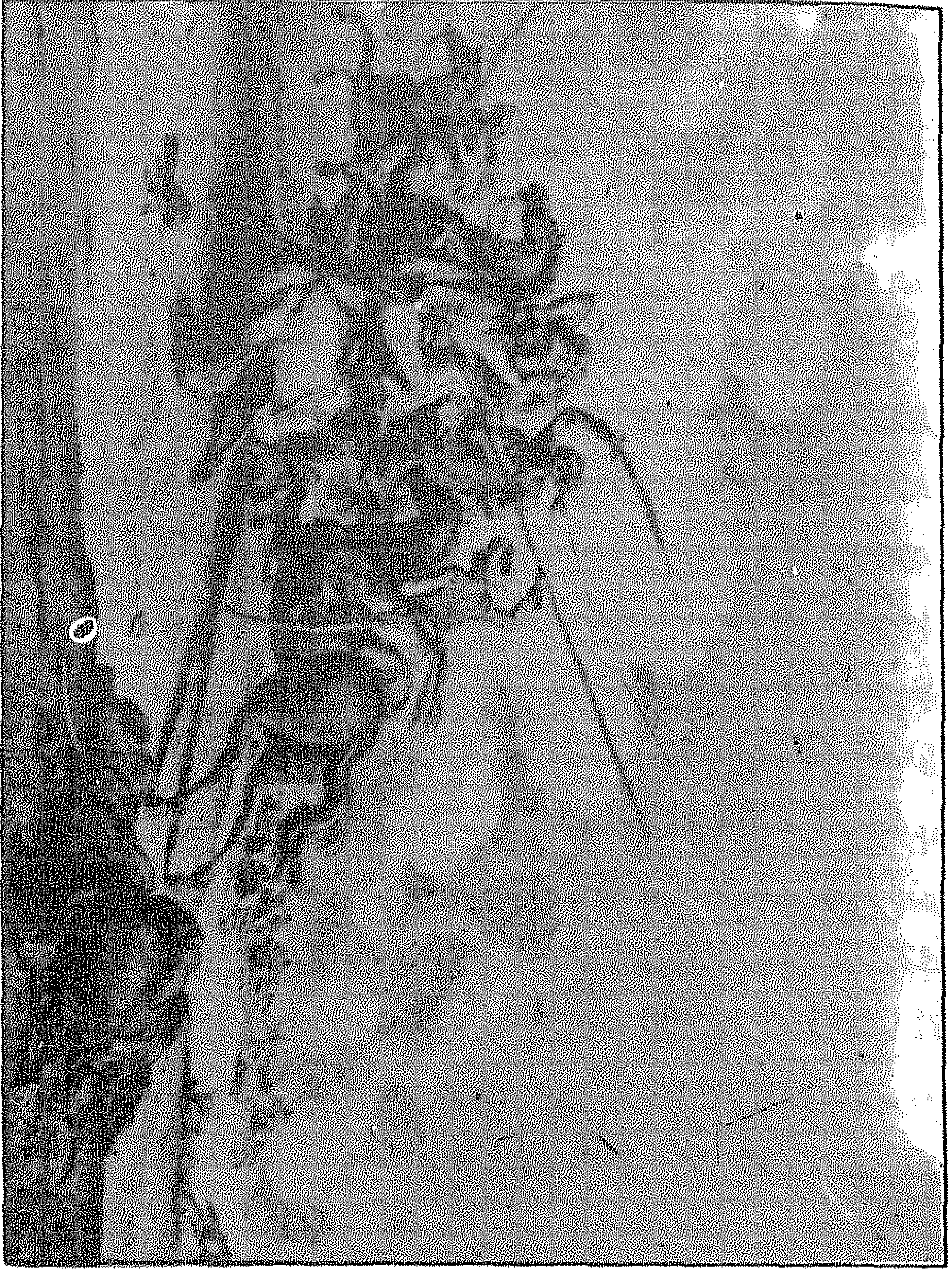
فهو يقول:«فى مايو من عام ١٧٩٨، ذهب بونابرت، قائد جيش الشرق العام، لغزو مصر، حتى يبعد (عن فرنسا) تهديد الانجليز ومعه علماء ومهندسون وفنانون، هل كانت تلك المغامرة حملة عسكرية استعمارية عادية؟ أم كانت غزوة ثقافية باهرة، أرست قواعد تحديث البلد، على الرغم من فشلها؟».

وسرعان ما تجيء الاجابة منذ الكلمات الأولى للمقال ذاته، فنقرأ التالي: «...» نزلنا على بلد لم يكن يفكر فينا، ننهب القرى، ونفقر الأهالي، ونغتصب النساء». هذا هو التقرير المرير الذى كتبه عالم نبات، ذهب إلى مصر مع بونابرت من أجل مهمة رائعة لدراسة النباتات، وكثير من العلماء والمهندسين والفنانين تبعوا، مثله، الجنرال الشعبى جدا، قائد جيش الشرق، لاكتشاف أرض مجهولة وحضارة غامضة، ليقوموا بمسح شامل لوطن الفنون والعلوم الأسطورى». نلاحظ فى الفقرة الأولى من المقال تلك المفارقة البشعة بين الهدف ونتيجته. فمرة أخرى نقرأ الرأى الصريح القاسى لشاهد عيان، لا مصلحة له فى طمس الحقيقة المؤلمة لهدف نبيل فى ذاته، جاء هذا الشاهد على أنه عضو بعثة علمية، حسب منهج فلسفة التنوير المتعطش لدراسة كل جديد، ويحب صادق للعلم المجرد، يؤمن أنه مفتاح تقدم البشرية واسعادها. فكان أول مايراه بعد شهر واحد من الوصول الى الاسكندرية النهب والخراب والاغتصاب.

ويناقش كاتب المقال رأى المصريين بعد ذلك: من اللافت للنظر انه لايستشهد إلا بآراء «محمود حسين» وفيلم المخرج يوسف شاهين عن الحملة، والمعروف أن «محمود حسين» كاتبان اختارا هذا الاسم المستعار لنشر كتبهما، وهما، مثل يوسف شاهين، يعبران عن آرائهما بالفرنسية. «باتريس بريه» لايعرف إذن ما كتبه بالعربية أمثال عبدالرحمن الرافعي وجلال كشك، وغيرهما كثيرون لايوافقون الفرنسيين على رأيهم فى الحملة.

يقدم باحثنا بعد ذلك آراء تعتبر غاية فى الجرأة مقارنة بما سبق أن عرفناه من كتابات المؤرخين القدامى، ونظرا لأن المقال - بطبيعة الحال - محدود فى حجمه، فهو يؤرخ لفكرة الاستيلاء على مصر، بذكر أهم التفاصيل بسرعة فائقة. ولايفوت القارىء أن «بريه» لايشير أبدا الى الأهداف التحضيرية التى غلفت بها حكومة الادارة غزوتها الاستعمارية.

وبدون أية مواربة يقول مؤرخنا ببساطة شديدة انه بعد استيلاء الجيش الفرنسى على الاسكندرية كانت أول مقابلة للفرنسيين «بمدفعية مراد بك واسطوله الصغير قد أزاحت بعنف شديد الأسطول الفرنسى المحدود»، فى شبراخيت على النيل فى الثالث عشر من يوليو ١٧٩٨. وبهذه الأمانة العلمية، يستمر باحثنا فى عرضه قائلا: «ولكن استسلام القاهرة لم يعن استسلام باقى البلد». ويذكر «بريه» فى عرضه السريع، أهم الأحداث ولايخفى شيئا من مقاومة الأهالى، كان يبدو أن الأمن قد استتب، «ولكنه كان فى الحقيقة مزعزعا، فلم تمض اشهر ثلاثة على الاحتلال، حتى أثبت هذا بتمرد القاهرة، الذى جاء غير متوقعا بالمرة». وقد تكون هذه الجملة من أجدد ما قيل، إذ لم يلحظ أحد قبله أن ثورة القاهرة الأولى جاءت كرد فعل مباشر للاحتلال، مما يوحيه تعبير كاتبنا بقوله:«لم تمض اشهر ثلاثة»، اذن كانت الثورة زمنيا - فى نظر مؤرخنا - سريعة جدا، اذ لم تمض اشهر ثلاثة على نزول الجيش بر مصر، ونذكر مرة أخرى أن التاريخ لايحصى بالأيام ولا حتى بالشهور او السنين.



،معركة ووفاة القائد دوبليسى، (هزيمة أخرى للفرنسيين)

وعلى الرغم من انتشار الجيش حتى أسوان، وانتصار «ديسى» على مراد بك فى معركتين، إلا أن ذلك لايمنع مؤرخنا من الاعتراف بأن الخطر كان محدقا فى، كل مكان، وأن معنويات الجند كانت فى الحضيض: «كان متطوعو ١٧٩٢، ومجندو ١٧٩٣ قد أصبحوا جندا محترفين، اشداء، إلا أن مثلهم الجمهورى الأعلى أصبح موضع شك. فالجندى الفرنسى، الذى يواجه ثورات الفلاحين الذين جاء ليحررهم ، لا يستطيع تفهم علاقة هذه الغزوة بعدو إنجليزى غائب عن الساحة ، لن يكون تأمين السلام إلا أمرا مؤقتا أثناء سنوات الحملة الثلاث ، بسبب تحركات المماليك والحكومة العثمانية، أو بسبب سوء تفاهم، تسببه القوانين الإدارية التى تصطدم بالحضارة المصـرية» : من إيجابيات هذا المقطع الجديدة ، الاعتراف بادىء ذى بدء ، بأن الغزوة لم تدم غير سنوات ثلاث ، أى مدة غاية فى القصر إذا ما نظر إليها من المنظور الزمنى الذى يتحكم فى أية رؤية تاريخية ؛ علاوة على الاعتراف بالدور الخطير الذى لعبه المماليك على الرغم من كل ما قيل عن هروبهم ، الذى كان – من منظور التكتيك المملوكي – خط دفاع بل وهجوم أيضا . كذلك ، الاعتراف «بالاصطدام بالحضارة المصرية» ، التى كان من حقها ألا تتفهم تشريعات تتنافى مع نظامها الخاص ويشرح لنا «باتريس بريه» كيف أن الإجراءات الخاصة بالنظافة والوقاية من الأمراض، كانت مثلا: «اغتصابا لخصوصيتهم وحرمة ديارهم»، كما أن «أمن المستعمر كان يجبر السكان على النفقة الباهظة لإضاءة الأزقة ليلاً» .

«كذلك، فإن الإدارة، قد أكثرت من الضرائب والوسائل البيروقراطية، فى بحثها الدءوب عن السيطرة الكاملة، وجشعها فى جمع المال»: يتقبل كاتبنا الوجه الآخر للحملة ، وهو الوجه الذى رآه المصريون ؛ فإذا ما قابلنا وجهة النظـر المصـرية ، نجد أن الجيش لم يكن فى أفضل صوره .

وكذلك يعرض مؤرخنا أيضـا رؤية المصـريين «لقـيم التـنوير والثورة ؛ فهـى بالنسبة لهم عـودة إلـى مـادية الجاهليـة ، .... ، الفرنسيـون الملحـدون لا يـصلون حتـى لمرتبـة الكـفرة المسيحيين . وأيا كان، فهم أيضا يتصرفون كأناس غير متحضـرين، .... ، تقول أغنية مصرية شعبية عنهم : الجند السكارى يطوفون المدينة بحثا عن النساء» . وبعد شرح وجهـة النظـر المصـرية، يلخـص «بريه» الرأى السائـد «لـدى النخب المثقفة والمهذبة فى مصر آنذاك، إذ كانت فرنسا فى نظرهم ، بلد التجار المحتقرين ، فأصبحت مع بونابرت، بلـد سطوة تحترم ولكنها تبغض ، لأنها تذكرهم أيضا بالحروب الصليبية الكريهة ، وكانت لا تزال حية فى الذاكرة العامة للشرق» .

«ولكن الفرنسيين يحاولون بصدق فهم المجتمع المصرى ،....، وفى نظر المصريين ، يبدو كرم الفرنسيين ضعفا ، وحزمهم قسوة ، وميلهم إلى الانتـقال من هذه الحـال إلى الحال الأخرى ، دليل تقلب وعدم ثبات» .

يهمنا بعد ذلك معرفة ما يقوله «بريه» عن البعثة العلمية التى صاحبت جيش الشرق وهو يلحظ هدفها «النفعى» فيقول : «منذ الشهادات الأولى للمهندسين الجغرافيين جومار وفورييه ، يؤكد المؤرخون أن ثمة ثورة تقنية - واجتماعية - كانت فى الطريق عندما أجبرت فرنسا على ترك غزوة بونابرت. والسؤال لا يزال قائما ، على الرغم من أن أحدث الدراسات تميل إلى تحجيم مدى حقيقة هذا التحول السريع : فهل كان قصر مدة الاحتلال الفرنسى هو السبب الوحيد فى فشل تحديث مصر .. ؟» النتيجة التى يصل إليها مؤرخنا صريحة قاطعة ، والمفردات لا شك فى معناها : «فشل تحديث مصر ..» . وإذا ما دخل بعد ذلك فى التفاصيل ، تأكدت الفكرة أكثر وأكثر ، وقيل ما لم يذكر - على حد علمنا - إلا مرة واحدة من قبل ، وهو الحدث الذى يلخص حدود تعليم الفرنسيين للمصريين : «مهارة الصناع المصريين أدهشت المستعمر ، وسرعان ما أخذ العمال المصريون يقلدون المنتجات الفرنسية ، ولكن الأوساط المالية الفرنسية توصلت إلى قرار لا يسمح لغير العمالة الأوربية بالعمل فى مصنع النسيج المنشأ فى خريف ١٨٠٠» .

«كانت الإنجازات الفعلية مقصورة على احتياجات الاستعمار الفرنسى» ، ثم نقرأ الحقيقة الواقعية المنطقية الوحيدة لتفسير عدم اهتمام المشايخ بما يدور من أبحاث علمية : «من ناحية أخرى ، لم تكن مصر مستعدة (فى ذلك العصر) لاستقبال علوم أوربا وفنونها بسرعة»، إنها حقيقة يراد بها باطل ، لأنه يتحدث بعد ذلك عن إطلاق المنطاد الذى «لم يلق إلا الاستهانة واللامبالاة من قبل القاهريين» ناسيا ، أو متناسيا

أن التجربة قد باءت بالفشل ، مما أثار سخرية الجميع ، وأولهم الجبرتى . ونقول الجبرتى لأن «بريه» نفسه يسترشد به . ولكن يبدو ، إما أنه يغالط فى المعانى ، أو أنه لم يقرأ الجبرتى بالفعل . ومرة أخرى نسمع عن معجزتى الحملة وهما كتاب «وصف مصر» ، واكتشاف «حجر رشيد» اللذين أسسا علما جادا للمصريات.

ويعترف مؤرخنا ، بعد سرد المشروعات التى كانت مزمعة إقامتها ، أن المشروع الوحيد الذى نفذ هو «بناء التحصينات» كما أنه يعترف أن «المقاومات التى قابلتها الحملة كانت تنبىء بالحركات القومية التى سيصطدم بها نابليـون بعد ذلك ، خاصة فى أسبانيا وألمانيا..» ، وهذا اعتراف طال انتظـارنا لقراءته بقلم مؤرخ فرنسى .. أو أى مؤرخ آخر .

ويعترف «باتريس بريه» أيضا ، بفضل محمد على فى إنجاح مشروع تحديث مصر، دون كلمة واحدة تعزو نجاح مشروعاته إلى أى تقليد لما كان يدعيه الفرنسيون من مشروعات تحضيرية لمصر . ثم ينهى «بريه» مقاله بقوله : «إن حملة بونابرت كانت المصادفة التاريخية التى سمحت بهذه النهضة المصرية..» . ومرة أخرى ، يجد القارىء الناقد الموضوعى نفسه فى حالة من البلبلة للتفكك المنطقى للكلام ؛ فكيف يصل إلى هذه النتيجة وكلامه كله يؤكد عكسها تماما ؟ كان يمكن أن يكون لهذه النهاية عذر لو أن مؤرخنا تحدث عن تأثير مشروعات بونابرت على محمد على ، ونقله أو تحقيقه لما بقى من نيات فرنسية على

الورق ، ولكنه نفى الفكرة بسرده السريـــع لمـا فعله محمد على ونجح فيه ، دون ذكر لبونابرت ؛ ولم يعلق «بريه» على هذا الأمر مؤكدا أن محمد على نجح حيث فشل بونابرت وجيشه وعلماؤه بسبب قصر مدة احتلالهم لمصر. كذلك، قال إن: «ثمة ثورة تقينة - واجتماعية - كانت فى الطريق» لولا جلاء القوات الفرنسية عن مصر ؛ ثم اعترف بعد ذلك مباشرة بأن: «أحدث الدراسات تميل إلى تحجيم مدى حقيقة هذا التحول السريع ..» ؛ فلـــم إذن ذكر قــول «جومـــار» و «فوربيـــه» ، وهـــما طبعا متحيزان لفكرة الحملة التحضـــرية على مصر وهـــما المشتركان فيها ؟ الغريب أن «بريه» يؤكد بعد ذلك حـــدود التأثـــير الفرنســـى على العـــامة ، بسرده قصة رفض توظيف العمالة المصرية فى مصنع النسيج ، وهى قصة ذات مغزى كبير ودلالة سيئة على أبطالها .

يبدو أن «بريه» بعد أن توصل إلى الحقيقة العلمية واعترف بها، أجبـــر على التـــراجع : إن الاعتراف بالحـــق فضيلة، ولكن هـــناك حـــقائق يصعب البوح بها ، خـــاصة إذا ما كانت تجرح المشاعر القومية، ويكون البوح بها أصعب إن كانت تمس أسطورة منيرة، تدغدغ مشاعر الفخر القومى .

وإلا ، فكيف يفسر هذا التناقض فى نهاية المقال ؟ وما كانت الحال مع هنرى لورانس ؟

★★★

«هنرى لورانس» : «الحملة على مصر»

سبق أن أشرنا إلى أن رسالة «هنرى لورانس» (١٩٨٩) قد قالت كل ما يمكن أن يقال عن الحملة بروح علمية دقيقة ، استرشدت بما قاله كل من الفرنسيين والمصريين والأنجلو - ساكسونيين الكاتبين بالإنجليزية من بريطانيين وأمريكان . لذا ، فإن «لورانس» إذا ما تعرض للأحداث ، كان غاية في الأمانة ، فاضحاً كل مساوىء الفرنسيين واحتلالهم الباغي. ولكنه ، عندما يصل إلى الخاتمة ، ليستخلص ما توصل إليه هو شخصيا من نتائج فكرية ، فإنه يؤكد المشروع الحضارى لبونابرت والحملة ! ولم يقدم دليلا واحدا على أن هذا المشروع الحضارى كانت له دلالة جدية واحدة ، اللهم إلا النيات المعلنة شفاهة ، الموروثة عن مثاليات ثورة ١٧٨٩ ، وفلسفة التنوير من قبلها وشعاراتها الجوفاء. ولكنه - فى ذلك - لم يستطع إقناعنا بشىء غير أن تلك النيات كانت تبريرا ذاتيا ، أو حلما يأسف مؤرخنا أنه لم يتم من أجل مجد الأمة الفرنسية وسيطرتها على المنطقة .

النتيجة نفسها نستخلصها من كتابه من «المملكة المستحيلة» (١٩٩٠) ، الذى يؤرخ فيه لمحاولات فرنسا ، ونابليون الثالث بالذات ، للسيطرة على المنطقة العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

ونجد فى هذا الكتاب الأخير المفارقة نفسها : الأمانة العلمية من جهة ... والخاتمة التى لا تجد فى الكتاب ما يبررها من جهة أخرى ؛ لذا ، كان استغرابنا للعنوان الذى أضيف على غلاف كتاب «الحملة على مصر» ، وهو عبارة عن جملتين : «بونابرت والإسلام» ، ثم «صدام

الحضارات» . فأين كانت الحضارات إن كان الجيش الغازى لم يقدم إلا العنف والاغتصاب والاستنزاف ، كما يصوره المؤرخ نفسه ؟. نعم ، لقد احترم بونابرت الإسلام وقال فيه مديحا لا شك فى صدقه، عندما كان يقيم للفرنسيين موضوعيا ما يراه فى الديانتين المسيحية والإسلامية . ولكن ، أيعنى ذلك أنه لم يكن يستعمل الإسلام أثناء وجوده فى مصر لأسباب سياسية مكيافيلية ، تماما كما فعل مع الدين الكاثوليكى عند عودته إلى فرنسا ؟ وهل تعارض هذا الاحترام الظاهر لدين الأغلبية الفرنسية مع إلقائه القبض على البابا فيما بعد ، عندما تطلبت سياسته التعسفية ذلك ؟ وهل كان بونابرت أثناء وجوده فى مصر يتعامل مع الإسلام، أم مع المسلمين، وهو يأمرهم بصلف الحاكم العسكرى المستعمر أن يستعملوا القرآن والأحاديث النبوية لصالحه ؟ ومنذ متى يقيّم التاريخ بالنيات فقط ؟ ألا يقول الفرنسيون إن «الجحيم قائم على أرض من النيات الحسنة» ؟

مع الأسف أن «لورانس» ، مثله فى ذلك مثل باقى المؤرخين الفرنسيين ، يطمس كلية دور المقاومة المصرية عندما أخذ يسرد أسباب فشل الحملة فى خاتمة كتابه ؛ فهو يغفل ذكر ما كان يعانيه الجند الفرنسيون من جراء المقاومة التى استمات المصريون فيها رافضين الوجود الفرنسى وبطشه . وذلك على الرغم من أنه قرأ كل ما كتبه شهود الحملة ، وعلى الرغم - أيضا - من أنه قد أكد على انهيار الروح المعنوية لهـؤلاء الجند أنفسهم فى وقت كانت انتصارات الجيش الفرنسى مستمرة على امتداد معاركه مع العثمانيين ، إلى أن هزمه كل

من جيش بريطانيا ، وجهل «مينو» في الأشهر الأخيرة من الحملة ؛ فإلى أي شيء إذن يعزو «لورانس» تلك الحالة من الانهيار والإحباط والاكتئاب التي أصابت الجند ، وهم أسياد البلد المفتوح ؟ ألم تلك الحالة ناجمة عن ذلك التوتر المستمر الذي عاشوا تحت ضغطه نتيجة للمقاومة المصرية ، كما قرأنا في مذكرات الكابتن «مواريي» ؟ ألم يسلم قائد الحملة في القاهرة بسرعة للإنجليز خوفا من قيام ثورة ثالثة ، كما يعترف الجميع ؟ .

ومرة أخرى نرى «لورانس» يتجاهل كلية - كما تجاهل غيره من المؤرخين الفرنسيين - فشل التجربة الجزائرية : لقد طبق «السان - سيمونيون» (تلاميذ نابليون الأول) ثم نابليون الثالث ، تعاليم بونابرت في الجزائر ، وكنا ننتظر أن يستشهد كل من أرخ للحملة - أو حتى بعضهم - بما نجحت فيه فرنسا عندما احتلت الجزائر لأكثر من مائة عام ، كي يدللوا به على ما فقدته مصر بفشل الحملة عليها . ولكننا نجدهم يتحـدثون بحزن شديد عما كان يمكن أن يحدث لولا فشل الحملة المزرى، طامسين بحياء شديد التجربة الفرنسية في الجزائر ، ونتائجها السلبية على أهل البلد . ولنذكر ما كتبه المفكر الفرنسي الكبير « ألكسي دى توكفيل» في تقريره عن استعمار الجزائر في عام ١٨٤٧ : «لقد انطفأ التنوير من حولنا، ... ، لقد جعلنا المجتمع المسلم أكثر بؤسا، وأكثر فوضى ، وأكثر جهـلا وأكثر وحشية مما كان عليه قبل أن يعرفنا» (٣٠) .

ولكننا نشهد لـ «لورانس» أنه اعترف «أن حملة مصر هى المحصلة المنطقية لسياسة التوسع الثورى ، ... ، وبما أن النضال يجب أن يستمر ضد بريطانيا العظمى ، ومع وجود الاقتناع باستحالة الإنزال فى بسبب التفوق البحرى البريطانى، فإن حكومة «الإدارة» لا يمكنها أن تتصور خيارا آخر غير فرض حصار قارى أو الاضطلاع بعمل ضد الهند» ؛ فكان مشروع غزو مصر مشروعا لا يخرج عن نطاق السياسة التوسعية للثورة الفرنسية . غزو آخر إذن مثله مثل ما حدث فى أوربا من حيث التخفى وراء شعار «تحرير الشعوب» والحقيقة استعمارها لاستنزاف مواردها، حسب مبدأ «عصر الليمونة» الشهير .

ولكن كلام «لورانس» فى النتيجة النهائية التى يستخلصها من دراسته الوافية ، وتعليقاته الذاتية ، تسبب نوعا من البلبلة للقارئ المنطقى . فهو يقول مثلا : «كان هدف بونابرت من مجزرة يافا الاستيلاء بالإرهاب على باقى فلسطين ، وعلى عكا بالذات ، قبل كل شيء. وعلينا أن نضيف هنا أن استشراق بونابرت كان له مظاهر محيرة. فإذا كان بونابرت يقدم نفسه بإخلاص على أنه البطل الذى لا هدف له غير إرساء الحضارة ، فإننا نراه يؤكد ، فى الوقت ذاته أن الشرق لم يكن بالنسبة له إلا فرصة سائغة للتخلص من حضارة (أوربية) تضايقه . أكد بونابرت ذلك فى اعترافاته لمدام دى ريموزا . وقد عاد الفرنسيون فى مصر - تلقائياً - إلى سلوكيات عصر الإرهاب وحرب الفانديه ؛ فقد استخدموا منذ بداية الحملة سياسة قمع فيها من العنف ما لم يعتادوه فى الأراضى المحتلة فى أوربا. فمنذ بداية العصر الاستعمارى ، وحق

الشعوب لا يطبق بسهولة على الشرقيين ، وهو الحق نفسه الذى اعترف به فى أوربا للأوربيين : ألم يكن هؤلاء الشرقيون معتادين على عنف الطغيان ، وهل كانوا يعرفون شيئا آخر غير الإكراه ؟».

الكلام واضح وجد خطير لكنه يتسبب قطعا فى بلبلة القارىء الذى لا يفهم سببا يجعل «لورانس» يرى «أن استشراق بونابرت له مظاهر محيرة» : لقد سبق لـ «لورانس» نفسه أن كتب قبل ذلك بصفحات عديدة أن بونابرت يقول فى الحادى والثلاثين من يوليو ، أى قبل قيام ثورة القاهرة الأولى فى خطاب مرسل إلى «مينو» : «إن الأتراك لا يحكمون إلا بأعنف صرامة ؛ لذا ترانى أصدر كل يوم أمراً بقطع خمسة أو ستة رءوس فى شوارع القاهرة . لقد اضطررنا إلى مهادنتهم حتى الآن، لمحو سمعة الإرهاب التى سبقتنا؛ أما اليوم ، فعلى العكس من ذلك، لابد لنا من استخدام اللغة التى تلائم هذه الشعوب حتى تطيعنا ؛ والطاعة بالنسبة إليهم ، هى الخوف» .

لو أننا اعتبرنا بونابرت «بطلا لا يهدف إلا إلى إرساء الحضارة» كما يقدم نفسه، أى لو أننا صدقنا زعم بونابرت هذا ، لشعرنا فعلا بالحيرة، مثل «لورانس» . والغريب أن «لورانس» ، على الرغم من روحه النقدية المتيقظة ، قد صدق فعلا ادعاء بونابرت هذا ، وهو الذى اعترف مرارا بكل الفظائع التى اقترفها الجند فى مصر. ولكن، لو أننا وضعنا فى الميزان أفعال بونابرت، بل وأقواله التى يعترف «لورانس» نفسه

بهـا ، لفهمنا أن استشراق بونابرت غير محير، لأنه واضح وصريح : إنه استشراق المستعمر العنصرى بكل صلفه وقسوته . هنا ، تنتهى الحيرة ، لأن المنطق أصبح سليما، لا يشوبه أى تناقض أو مفارقة بين القول والتطبيق . ولكن ، يبدو أن «لورانس» يفضل المفارقة المحيرة على الاعتراف بالحقيقة ، وهى أن رسالة بونابرت التحضيرية لم تكن إلا ذرا للرماد فى العيون ، غلالة خادعة ، وظيفتها إقناع المثقفين بحسن نية لا يدل عليه شىء .

فـ «لورانس » إذن مثل «باتريس بريه»، يتفوق على الجيل القديم باعترافه بالوقائع ، خاصة الاعتراف بأن للمصريين رأيا يحترم، لأنهما – لورانس وبريه – من الجيل الذى يعرف أن مضمون كلمة «الحضارة». لا يعنى فقط «الحضارة الغربية» : يعترف هذا الجيل الجديد أن هناك «حضارات» مختلفة فى العالم ، من حقها أن تطالب بالاعتراف بها واحترامها. ولكن مؤرخينا ، على الرغم من أمانتهما العلمية، لا يستطيعان الاعتراف بأن الحملة كانت فاشلة بل وسيئة أيضا، مثلها مثل أى حرب استعمارية استنزافية ؛ فلا يزال ذلك الأسى واضحا فى خاتمة كلامهما ، لفشل فرنسا يوما ما فى السيطرة على مصر، درة الشرق الأدنى ؛ فهما مازالا يتمسكان بفكرة أن الحملة ، وإن كانت فاشلة، إلا أنها كانت حاملة لشعلة الحضارة الفرنسية فى مصر القرن التاسع عشر ، وذلك على الرغم من كل ما يتعارض مع هذه الفكرة فى دراستيهما .

قد تكون حادثة مصنع النسيج الذى فكروا فى إنشائه في مصر خير مثال للروح التى سادت أعضاء الحملة ، خاصة العلماء منهم ، و«لورانس» بالذات هو الذى فضحها : حدث ذلك فى عصر «مينو» الذى عرف بأنه أكثر الفرنسيين تحمسا لفكرة الاستعمار الاستيطانى لمصر بعد بونابرت ؛ وكان إيمانه هذا أحسن ميزاته فى نظر بونابرت، فـولّاه - لذلك - الحكم على مصر، على الرغم من اعتراض باقى جنرالات الحملة . ويقول «لورانس»: «ويعلى مينو من شأن هذه المساواة بين الفرنسيين والمصريين، حتى فى المجال الاقتصادى. ففى أوائل شهر يوليو ١٨٠٠، يدفع نقص أقمشة الثياب مسئولى الجيش إلى اقتراح إنشاء مصنع فى مصر. يرى مينو فى ذلك، على الفور فرصة لتحويله إلى مركز لتعليم وتدريب المصريين على الطرق الحديثة . لكن المديرين، الذين يخشون منافستهم للصناعة الفرنسية فى المستقبل، يرفضون ذلك. ويؤكد «كونتيه» على الملأ أنه إن تم إنشاء هذا المشروع لن يعلم المصريين شيئا، وأنه لا يقبل الاشتراك فيه إلا بشرط السماح للفرنسيين وحدهم بدخول الورش، أما فى حالة الجلاء عن مصر، فلابد من إخراج المعدات أو تدميرها ويضطر مينو إلى التراجع أمام احتجاج» الجميع.

هكذا، يحطم «لوارنس» نفسه أسطورة العلماء الذين ساهموا فى تعليم المصريين، وفتحوا عالم المعرفة الحديثة للشعب المصرى، وطوروا مصر لنقلها من غياهب الجهل إلى نور العلم الحديث، والقرن التاسع عشر الصناعى.

نعم. خرج الجيش من مصر بعد ذلك ومعه المطبعة! ونشر كتاب «وصف مصر» الذى يقول عنه «باتريس بريه» فى مقاله السابق ذكره: «كانت نتيجة هذا الكتاب - إن لم يكن هدفه - إخفاء الفشل السياسى والحربى والاقتصادى للحملة»...

★★★

«كريستوفر هيرولد» : «بونابرت فى مصر»

بعد أن قرأنا كتابات المؤرخين الفرنسيين الجدد، فإنه يبدو منطقيا أن تكون الخاتمة الموضوعية لأحداث الحملة بقلم غير فرنسى. فالأمريكى «هيرولد» يسمى خاتمة دراسته عن «بونابرت فى مصر»: «أموات بلا جدوى»، عنوان قدم فى نصه المترجم «بأباطيل الموت». وهو يقول: «فى الثالث والعشرين من أكتوبر(١٨٠١)، عين (بونابرت) صهره الجنرال لوكلير قائداً أعلى على سانتو - دومنجو. وفى الثامن من نوفمبر وجه منشورا لسكان سانتو - دومنجو بأسلوب أتقنه فى مصر، فقال لهم: تجمعوا تحت لواء الجنرال (لوكلير)... وكل من يجرؤ على الخروج على دعوة القائد فهو خائن لوطنه وسيلتهمه غضب الجمهورية، كما تلتهم النار حقول قصبكم فى فصل الجفاف».

«وهكذا طويت صفحة عقيمة من تاريخ الاستعمار، لتفتح صفحة أخرى. وكانت فظائع الحملة الدومنيكية وأهوالها ذيلا محترما لفظائع الحملة المصرية وأهوالها، وفى وسعك أن تطبق الكلمات التى فاه بها نابليون فى سانت - هيلانة، على سبيل الرثاء، على المغامرتين كلتيهما

لتصدق عليهما جميعا: «إن حملة سانتو - دومنجو كانت حماقة كبرى ارتكبتها. ولو نجحت لما كان لها من نفع سوى إثراء أسر نواى ولاروشفوكو فوق ثرائها». وهذه الكلمات تجمل في إيجاز ما أسفر عنه استعمار القرن التاسع عشر من نتائج».

ثم يستطرد «هيرولد» بعد ذلك تحليله للوقائع: «لقد كان مآل مصر إلى التغير، سواء ظهر بونابرت في سمائها أو لم يظهر قط، وآيات الفن وروائعه في الأقصر والكرنك كان مصيرها إلى الكشف، حتى وإن لم يزحف ديزيه إلى الصعيد، وكانت الرموز الهيروغليفية حتما ستفك، حتى وإن لم يكتشف حجر رشيد إلا بعد الحملة بسنوات، وكانت قناة السويس ستحفر، حتى وإن لم يأمر بونابرت بمسح برزخ السويس. صحيح أن كل شر يحمل في ثناياه بعض الخير عرضا، وليس معنى ذلك أن الشر دائما ضروري لجلب الخير».

نرى «هيرولد» إذن يقول الكلام الذي يفرض نفسه منطقيا إذ يؤكد، في عام ١٩٦٤ - وهو تاريخ نشر دراسته - أن النظرة المستحدثة للأمور، بعد انهيار الإمبراطوريات الاستعمارية، لابد أن تضع الأمور في نصابها الواقعي، ذاكرا أيضا فشل التجربة الفرنسية في الجزائر. وكان قد تساءل من قبل: «ما الذي حققته الحملة على مصر غير خسارة الأرواح، والخراب، والقسوة؟ أما بونابرت فقد فتحت له الطريق إلى السلطة .... » (٣١).

★★★

بعد قراءتنا لما كتبه «المؤرخون الجدد» تتأكد لنا صحة النظرية

القائلة بأنه لولا اسم الجنرال بونابرت - الذى سيصبح نابليون الأول، قاهر أوربا كلها - لما اهتم أحد بهذه الحملة الفاشلة على بلد مجهول، ولطمس تاريخها، كما طمس تاريخ الحملة الفاشلة على «سان - دومينج». وقد كانت انجلترا نفسها لا تفطن، فى ذلك التاريخ، إلى أهمية مصر الجغرافية بالنسبة لمستعمرتها الغالية، الهند البعيدة. ونجد فى قراءتنا النقدية كذلك، ما يجعلنا نستغرب إصرارهم على ربط التطور الذى حدث لمصر فى عهد «محمد على» أو «اسماعيل باشا» بالحملة، فى نهاية كل جزء من كتاباتهم عن بونابرت فى مصر. ومما يعجب له، أن ذلك يأتى بعد اعترافهم الصريح بما ارتكبه بونابرت وجيشه من جور على الشعب المصرى، ودون ذكر لأى دليل يشير إلى تأثير الاحتلال الفرنسى - آنذاك - على الشعب المصرى، أو نظامه. كأن حلقة أسقطت فى التسلسل المنطقى لما يقدمونه من اعترافات بالفظائع التى اقترفها الجيش الفرنسى وما يسوقونه من أدلة على رفض المصريين للمحتل. وكأن الاعتراف بأن سنوات الحملة الثلاث القصيرة، لم تترك أثرا يذكر، يفوق قدرات المؤرخين، لما يدل عليه هذا الاعتراف من تحطيم أسطورة وجود الحضارة الفرنسية فى مصر. الغريب أنهم يعترفون بذلك أيضا، خاصة أن أسطورة نابليون بونابرت نفسها قد نسفت من أساسها، بعد أن فضح كل من «دوفريس» و «تولار» خفايا النظام الإمبراطورى، ووسائل الدعاية التى لجأ إليها الحزب البونابرتى، لتحويل الجنرال العبقرى والإمبراطور المنتصر، إلى نصف إله، إن لم يكن إلها كاملا.

لا نجد من يصل إلى النتيجة الحتمية لفضح حقائق الحملة، والاعتراف الصريح بأنها حدث مؤقت زائل، إلا «فوريه» و«ريشيه»، فى كتابهما عن «الثورة الفرنسية» إنهما يذكراننا بقصة شهيرة من الأدب الفرنسى، كانت من أهم أسباب انطلاق النقد العلمى فى تاريخ الفكر الفرنسى، وتأسيس تحكم العقل في كل الأمور، العقل الذى كان من أهم دعائم فلسفة التنوير. إنها قصة «السنة الذهب»، لكاتبها «فونتنيل» (١٦٥٧ -١٧٥٧).

يحكى فيلسوفنا هذا أن شائعة انتشرت بين بعض علماء ألمانيا فى عام ١٥٩٣: قيل إن طفلا سقطت أسنانه اللبنية فنبتت له سنة جديدة من الذهب. وبدأ العلماء يكتبون قصة تلك السنة المعجزة فى آلاف من الصفحات ويتجادلون فى شأنها لعدة سنوات، إلى أن ذهب صائغ إلى الولد، ليرى تلك السنة الغريبة. فاكتشف المتخصص آنذاك أنها سنة عادية، ألصق عليها بمهارة شديدة، ورقة من رقائق الذهب الرفيعة... وينهى «فونتنيل» قصته الفلسفية قائلا: «إن المجادلات التاريخية أكثر عرضة لمثل هذا الخطأ، إننا نناقش ما قاله المؤرخون (على أنه صحيح)، ولكن ، ألا يمكن أن يكون هؤلاء المؤرخون عاطفيين، أو سذجا، أو جهلاء، أو مقصرين؟ من المفروض أن نجد مؤرخا (يتعامل مع الأحداث) كالمتفرج على كل شئ، غير مبال، ومجتهد فى الوقت نفسه». ويبدو أن «فوريه» و«ريشيه» قد توصلا إلى تلك الحالة المثلى عندما قالا بصراحة وهدوء تامين: «لا يبدو، وذلك فى كثير من النقاط، أن بونابرت كان ذلك الخالق لمصر الحديثة، الذى طالما حدثنا عنه، لم تدم بصمته،....، لم تكن

سياسته إلا إجابات عملية لمشكلة قديمة جدا». ولذا فلا عجب إن كان محمد على قد توصل من بعده إلى النتائج العملية نفسها التى فكر فيها بونابرت، عندما أراد - محمد على - لمصر، دولة مركزية حديثة.



يبدو أن غير المتخصصين وحدهم هم الذين توصلوا إلى ما يبدو - والله أعلم - أنه النتيجة المنطقية الوحيدة لغزو مصر الفاشل، على يد جيش يدعى التحضير والتنوير وهو لا يبغى، فى الواقع، إلا الاستعمار. وكأن دارس الحملة الفرنسى لا يقوى على الصمود أمام سحر أسطورة، تجعل من أجداده جندا شهداء من أجل نشر الحضارة الرائعة لوطنهم فرنسا، ومن أجل الرسالة الإلهية التى خُولت إليهم : كان هذا بالضبط - كما سنرى فيما بعد - أساس فلسفة التعليم فى فرنسا، وكأن تأثيرها قد امتد حتى دراسى الحملة من الجيل الجديد.

فإذا قرأنا ما كتبه بعض الأساتذة الذين لم يتخصصوا فى دراسة الحملة، فاجأتنا موضوعيتهم فى تقديم نتائجها، كما حدث مع «فرانسوا فوريه»، الذى تخصص فى دراسة ثورة ١٧٨٩. فإذا ما قرأنا تقديم «جان - كلود فاتان» لآخر طبعة من كتاب «فيفان دينون» الشهير، وجدنا فرنسيا قرأ النص كاملا، بكل ما فيه من قسوة تنال من جند الحضارة، وتجريح لأسطورتهم الباهرة، مؤكدا على حقيقة تبدو جلية لمن يقرأ «دينون» دون إغفال لما يقوله عن أهل البلد ومقاومتهم، كما أسلفنا باستفاضة . «ففاتان» - على العكس من «لورانس» - يفهم من مذكرات

«دينون» الدور الخطير الذى لعبته المقاومة الشعبية المصرية، قائلا: «ترك بونابرت الشرق وسيفه منحن، لم يستطع فتح عكا، وترك البحر المتوسط فى أيدى الإنجليز بعد تحطيم الأسطول الفرنسى فى أبو قير ولم تتمكن فرقه العسكرية من المماليك أو المقاومات المحلية». كذلك «لم يكن العذاب حكرا على الغزاة وحدهم. ولكنه كان أيضا من نصيب سكان المدن والقرى» (٣٢). ثم يتحدث بعد ذلك عن دور «دينون» فى خلق أسطورة الحملة، عندما عاد إلى فرنسا، وهو مالا نستغربه، لشدة حب «دينون» لبونابرت وإعجابه بمشروعاته الاستعمارية.

وعندما يدرس «جلبير ديلانو» فترة الحملة على مصر، فى رسالته «الأخلاقيون والسياسيون المسلمون فى مصر القرن التاسع عشر» (٣٣)، نراه يقدم ملخصا للنصوص الثلاثة التى تحدث فيها الجبرتى عن الحملة، ملاحظا التحفظ التام لشيخنا أمام الدعاية الفرنسية، وأفكارها الغربية، مع الاحترام الموضوعى للإنجازات العلمية للفرنسيين. كما أن «ديلانو» يتفهم رفض الجبرتى لكل ما هو سوقى عند بعض الفئات من «الجماعات الصوفية،....، من صخب وابتذال وهمجية»، مما يعنى أن كلام الجبرتى المحقر للثوار كان طبقيا وليس تحيزا للفرنسيين.

وينقل لنا «ديلانو» أيضا ما قاله الشرقاوى عن الفرنسيين، وما اقترفوه من نهب وسلب، ليس فقط عند المماليك الهاربين، ولكن أيضا بين أهل البلد، كما أنه يفضح قتلهم العلماء واغتصابهم النساء، ودخول

جيادهم الأزهر، ونهب كنوزه العلمية التى لا تقدر بثمن. كما أن كلام الشرقاوى فى «تحفة الناظرين» يوضح - على حد قول «ديلانو» - مسئولية العلماء الدائمة عند انفجار الأزمات المحلية ، ودورهم أثناء «حركات معارضة الأهالي للحكومة» طوال القرن الثامن عشر. مما يثبت «لديلانو» أن تكوين الدواوين فى عصر بونابرت لم يكن اختراعا جديدا.

وهو يعود ليؤكد هذه الفكرة من جديد فى مقال نشره فى كتاب «مصر اليوم....» (٣٤)، وكان، «ديلانو»، قد لفت نظر القارئ ، فى مقدمة دراسته السابقة، إلى الروابط بين مصر وتركيا فى ذلك العصر، «والمتخصصون فى دراسة الإمبراطورية العثمانية يميلون إلى إبراز أهمية تلك الروابط، وذلك عن حق».

وكذلك فإن «أندريه ريمون»، صاحب الدراسة المهمة عن «الصناع والتجار فى قاهرة القرن الثامن عشر»، يؤكد فى مقال له بعنوان «لا يوجد انحطاط عثمانى»، كيف كان لمصر، قبل الحملة «نظام سياسى وإدارى يعتبر حديثا فى عصره، وكان لها كذلك نشاط اقتصادى احتفظ لها بمكانتها كمركز قوة فى البحر المتوسط، وكانت عاصمتها مزينة بروائع هندسية جديرة بماضيها العظيم. كانت لاتزال تزخر بإمكانات مادية وبشرية كبيرة: عندما ستنتهى الأزمة (أى الحملة الفرنسية)، ستكون هذه الإمكانات مسخرة لمشروعات محمد على العظيمة». ويكذِّب «ريمون» ما قاله علماء الحملة فى كتاب «وصف مصر» من أن عدد السكان آنذاك، كان مليونين ونصف المليون «فالرقم الذى يبدو الآن

معقولا حوالى أربعة ملايين،....، مما يشرح كيف استطاع محمد على أن ينطلق بمشروعات كبيرة لغزواته، والتصدى للإمبراطورية العثمانية، منذ عام ١٨٠٥» (٣٥) .

أما فى كتابه عن «القاهرة»، وهو يحكى تاريخ المدينة، يرصد «ريمون» أهمية «الديوانين، العالى والعادى، حيث كان يجتمع -كبار المسئولين من ضباط وعلماء وأعيان ، ليقدموا النصح للباشا، ولكنهم كانوا أيضا يتصدون للتصرفات التعسفية أو الاستبدادية» (٣٦): أمر لا نظن أن بونابرت كان ليسمح به فى الديوان الذى علم به المصريين الديمقراطية فقد كان يمنع أعضاءه من الخروج حتى يستجيبوا لطلباته، كما روى لنا الجبرتى تفاصيل انعقاده، وكأن الأعضاء سجناء ورهائن «لطاغية شرقى»، كما يحلو للفرنسيين تسمية مثل هذا السلوك... ! بل كيف يجرءون وهو «مندوب ماهوميه» أى النبى محمد (صلعم)؟ .

إن كان بونابرت قد جاء ليخرج مصر من ظلمات الجهل وخزعبلات الغيب، فكيف كان يقول لأعضاء الديوان «الديمقراطى» : «أليس حقا أن فى كتبكم،...، ما ينص على أن إنسانا ساميا عليكم سيصل من الغرب، منوطا بإكمال رسالة النبى؟ ،......، أليس حقا،.....، أنه مكتوب أن هذا الإنسان، مندوب «ماهوميه»، هو أنا؟» (٣٧).

★★★

وبعد، هل نصدق أن عمالقة من العالم الخارجى، نزلوا على مصر لبناء الأهرامات؟ هل نصدق أن إلها من فرنسا، نزل على مصر، ومكث فيها سنة وشهرين، فأعادها إلى الحياة، بعد أن عاشت قرونا فى غفوة لا تختلف عن الموت؟

ولكن، ألا يجدر بنا، قبل أن نستمع إلى هذا «الجنون» أن نستعمل «العقل»، ونتسائل: «من يقول هذا الكلام الغريب؟».

★★★

الخاتمة

الموضوعية العلمية فى الغرب

« .. ما يسمى بالموضوعية - ذلك الغرام الغريب بالأمانة الثقافية المطلقة وبأى ثمن ، غير المعروف خارج الحضارة الغربية ..»

« حنا آرندت»

سبق لنا أن رأينا - فى الجزء الأول من هذه الدراسة ، «عصر الأساطير» - كيف دخلت فرنسا ، منذ عام ١٧٨٩ ، عصراً من التهويمات النرجسية التى لم تلبث أن حولتها إلى وقائع أسطورية . تم ذلك منذ انعقد «مجلس طبقات الأمة» لأول مرة ؛ ذلك المجلس الذى طور نفسه إلى «جمعية وطنية» ، تصدر القوانين باسم الشعب . ذهب مرشحون عن القاعدة للمرة الأولى فى تاريخ فرنسا لمحاولة إصلاح أمور دولة لم تعد قوانينها تناسب عصرا انتشرت فيه أفكار فلسفة التنوير التى بهرت أوربا بتطبيقها فى إنجلترا ثم الولايات المتحدة الجديدة فى شمال أمريكا . ومنذ اللحظات الأولى لذلك العصر ، تقمص الفرنسيون دور الريادة العالمية التى قرروها هم ، وتخيلوا أنفسهم معلمين للبشرية، بل ومثلا أعلى لها. كما قرروا أن كل من يرفض هذا التتويج لهم ولأفكارهم، عدو لابد من إبادته. فكانت الحرب الأهلية داخل البلد ، ومجازر المعارضين ، بل وإعدام بعضهم البعض بتهمة الخيانة العظمى، و«الثورة - المضادة» . وعلى الرغم من أن الأزمة الاقتصادية كانت هى الدافع الأول لاجتماع «مجلس الطبقات» إلا أنها لم تجد حلاً ، فكان ذلك سببا آخر للاستيلاء على الأراضى المجاورة ، ثم إعلان الحرب على البلاد المتاخمة لفرنسا ، بحجة تحرير شعوبها من طغيان ملوكهم . وهكذا بدأت الحروب التوسعية ، واستنزاف كنوز «الجمهوريات الأخوات» تتحول إلى سمة من سمات تلك السنوات العنيفة . كما أنها كانت ترضى الغرور القومى بإعلاء اسم «جمهورية فرنسا» على باقى البلاد .

وتضخم الإحساس بالجو الأسطورى السائد آنذاك ، عندما جاءت أخبار معارك الجنرال بونابرت فى إيطاليا ، منتصرا على الجيش النمساوى ، أقوى جيوش ذلك العصر ولما كانت الثورة قد فقدت زهوها آنذاك فإن اسم بونابرت حلّ محلها على مذبح القومية الفرنسية . ولكن إنجلترا - العدو المتبقى - محصنة ببحار واقية ، ومن الصعب النيل منها ، فكانت فكرة الاستيلاء على مصر لضرب مصالحها ؛ ولم تكن تلك الفكرة جديدة ، فقد طرحت منذ عصر الملكية ، لأن فرنسا أرادت أن تعوض بمصر مستعمراتها المفقودة فى أمريكا ، تعوضها بجزء من ممتلكات «الرجل المريض» ، تركيا . وكما كانت الحال فى الحروب التوسعية فى أوربا ، فإن الثورة قد شنت حربا توسعية هنا أيضا باسم نشر مبادىء الثورة، تلك المبادىء التى لم يبق منها إلا شعار منقوص ؛ فقد أسقطت منه كلمة «الأخوة» فى عام ١٧٩٤ ، وأصبح الشعار الرسمى للدولة «الحرية والمساواة» دون «الأخوة» !

ثارت الشعوب «المحررة» فى أوربا على محرريها ، لأن هؤلاء المحررين لم يطبقوا أيا من تلك المبادىء «الأخوية» التى كانوا ينادون بها . وبزغ، فى تلك الأثناء ، نجم بونابرت ، تخدمه انتصاراته طبعا ، وإن كانت الدعايات التى روجها فريقه ، الذى تفوق فى رسم صورته كنصف إله، قد خدمته أكثر، خاصة أن العصر كان مشحوناً بالأساطير؛ فزادت بذلك الأساطير أسطورة أخرى . وتحول الفرنسيون، من عبدة لعبقرية الثورة ورجالاتها، إلى عبدة لإله أوحد، هو «المنقذ» بونابرت، الذى لم يهزم، حتى فى مصر : أنقذ بونابرت فرنسا بالفعل من حالة الفوضى

والانهيار التى كانت قد وصلت إليها ، بعد عشر سنوات من الأزمات المتلاحقة، والأيام «الثورية التاريخية» الدامية . تركزت، بعد ذلك، كل السلطات فى يد «القنصل الأول بونابرت» ، الذى أصبح الحاكم بأمره، القاتل لكل الحريات . ولكنه كان قد أصبح أيضا «الإمبراطور نابليون» الذى احتل دول أوروبا كلها : دفعت فرنسا ثمن انتصاراته بكل فخر، مضحية بكل الحريات التى كانت قد اكتسبتها، إلى أن بدأت تدرك أن قبيلة بونابرت تدير أوربا لحسابها الخاص ، وقد أصبح كل عضو فيها ملكا على بلد يستنزف كنوزه لمصالحه الشخصية . ومن أجل تدعيم أركان عرشه قام «الجنرال الجمهورى» ، الإمبراطور المستحدث ، بعقد علاقات مصاهرة ونسب مع أعرق العائلات الملكية فى أوربا، وأصبح هدفه الأول توطيد عرش ابنه، وهو الذى نبت من ثورة، كان هدفها تحطيم العروش . وتضخم غرور الرجل طبعا ، حتى فقد عقله الجبار قدرته على التقييم الواقعى للأمور فوقع فيما اعترف به هو نفسه كخطيئة كبرى ، الحملة على أسبانيا .

كان الجيش الفرنسى قد دخل مدريد بحجة تصفية الخلافات بين أعضاء العائلة المالكة ، فثار الشعب على المحتل الأجنبى ثورة عارمة . وما كان من الجيش الفرنسى إلا أن رد بوحشية على تلك الثورة، وحشية خلدها الفنان الأسبانى «جويا» فى لوحتيه الشهيرتين «الثانى» و «الثالث من مايو» ، وكانت الإعدامات فى الثانى والثالث من مايو ١٨٠٨ قد وصلت إلى ذروتها ، فهرب ملك أسبانيا وترك عاصمته مدريد للجيش الفرنسى الغازى ، وتوج «جوزيف» أخو نابليون ملكا على أسبانيا

فى شهر يونيو ، ولكنه هرب بعد شهر واحد أمام انتصارات المقاومة ضده : لقد أنزل الإنجليز قواتهم لمساندة الأسبان فكان ما كان . واضطر نابليون إلى الذهاب بنفسه لإنقاذ الموقف ، بعد أن أمن ظهره ؛ استطاع أن يسترد مدريد فى شهر ديسمبر ، وإعادة العرش لأخيه . وتستمر المقاومة والحرب مع الإنجليز على أرض أسبانيا ، إلى أن أجبر الإنجليز فرنسا على الانسحاب والجلاء بعد ذلك بسنوات خمس ، أى فى ١٨١٣ . ولو قرأنا تفاصيل «الحملة على أسبانيا» ، لعجبنا للشبه الكبير بينها ومثيلتها على مصر فما الذى قاله المؤرخون عنها ؟

★★★

يعتبر «جان تولار» - بادىء ذى بدء - أهم المؤرخين الذين تحدثوا عن الحملة على أسبانيا فى كتابه عن «نابليون» .

فهو يرى أن نابليون لم يستول على مدريد إلا لتأكيد سيطرته العائلية على ما اعتبره «ميراث العرش الفرنسى» . كذلك كان لما قيل عن ثراء أسبانيا ومستعمراتها وزنه فى قرار الاستيلاء على البلد . كما أن نابليون كان يعتقد أن هذا البلد «المتخلف الجاهل» سيرحب به وبمبادىء الثورة الفرنسية . وعلى الرغم من تعاطف الطبقة المستنيرة - كما يقال عما حدث فى مصر - إلا أن الكنيسة والشعب قد رفضا الحكم الفرنسى رفضا مطلقا ، ويسوق «تولار» أسماء قواد الثورة دليلا على طبقة الرافضين للحكم الفرنسى والثائرين عليه ، وهى كلها أسماء من عامة الشعب، وقد انضم إليها من النبلاء والأعيان من رفض أن تأتى الإصلاحات من الخارج .

نلاحظ أولا تذمر الجند الفرنسيين من حرب لم تقنع ضرورتها حتى المستفيدين منها فى فرنسا نفسها ؛ كما نلاحظ كذلك قول «تولار» : «كانت حرباً جديدة يكتشفها الفرنسيون ، فاجأتهم بكم الكراهية التى أثاروها عند الأسبان» ... وكأن التاريخ يعيد نفسه ، بعد أن «فاجأت» ثورتا القاهرة الجند الفرنسيين ، وكان تذمر الجيش منذ الأيام الأولى لاحتلاله مصر . ومن أوائل ضحايا تلك الحرب القومية الدينية فى أسبانيا ، فرقة المماليك الذين كان الفرنسيون قد اصطحبوهم عند جلائهم عن مصر . وتدخل الإنجليز بالمساعدة الفعلية ، واستمرت المقاومة بمساندة جيوشهم من جهة ، ومساندة الكنيسة ضد «الفرنسيين الملاحدة» من جهة أخرى ، إلى أن خرج الفرنسيون مهزومين فى ١٨١٣ .

ويعزو «تولار» الهزيمة إلى: «الظروف الطبيعية ، وصعوبات التموين فى بلد فقير لم يكن يستطيع حتى أن يغذى شعبه فى الأيام العادية» ، وأيضا إلى: «حرب العصابات، التى يقودها شعب متطرف ألهبته الدعاية الدينية المعادية للأجانب، ضد الفرق المنعزلة أو القوافل» : كلام يذكرنا بالاتهامات المستمرة التى كانت تعزو مقاومة المصريين إلى تطرفهم الدينى ضد «الكفرة» فقط . كما يذكرنا الحديث عن سوء الأحوال الاقتصادية بما حدث فى مصر بالضبط، من خيبة أمل الفرنسيين ، أمام الموارد المحدودة ، وقسوة الطبيعة الصحراوية فى الصيف . كذلك ، فإن المقاومة الأسبانية الشعبية المتفرقة ضد جيش «اعتاد المعارك النظامية ،...، ضد عدو واحد» ، تذكرنا بما تكبده

الفرنسيون من هجمات «العرب» البدو ، وثورات الفلاحين ، وسياسية الكر والفر التى انتهجها المماليك فى مصر العليا .

والأهم من ذلك كله ، أن نابليون الذى لا يهزم ، هزم جيشه فى أسبانيا حتى اضطر أخوه إلى الفرار ، ولذا فقد اعتبرت «الحملة على أسبانيا» «هزيمة نابليون الأولى» . هكذا يسميها كل من تحدث عنها أو عن نابليون ، وهكذا تحدث هو نفسه عنها ؛ والجميع يعزو إليها انهيار جيشه فى روسيا بعد ذلك ، وهزيمته النهائية أمام التحالف الأوربى . وعلى الرغم من أن نابليون نفسه قد أكد ، أثناء نفيه فى «سانت – هيلانة» ، أنه لولا هزيمته أمام عكا ، لكانت الحال غير الحال ، إلا أنه لم يقل يوما «هزيمته فى مصر» ؛ وبالتالى فإن أحداً لم يذكر أن أولى هزائمه كانت فى مصر ، حتى من اعترف بفشل الحملة على مصر فشلا مطلقا .

وعلى الرغم من أن «تولار» نفسه قد سمى المقاومات ضد نابليون – وأعنفها فى نظره المقاومة الروسية – «الحرب القومية ، وهى التى تختلط فيها الوطنية بالتطرف الدينى، وتلقى بشعب كامل ضد المعتدى» ، إلا أن «تولار»، مع ذلك ، لن يدرج المقاومة المصرية بين مقاومات الشعوب المحتلة مع أنه – أثناء حديثه عن الحملة على أسبانيا مثلا – يستعمل تعبيرات تنطبق تماما على ما حدث للحملة فى مصر . فهو يقول مثلا : «التدخل (فى أسبانيا) وليد مبادرة من نابليون نفسه ، حتى إن كان «تاليران» و «مورا» قد شجعاه بصورة ما . كان هناك هذا الخطأ الأول : كتابات الرحالة وتقارير الدبلوماسيين الذين جعلوه يظن أنه سيكون

المنقذ الذى جاء ليحيى أسبانيا المتهالكة» : فمن ذا الذى يجهل أن «تاليران» هو الذى تقدم، مع بونابرت ، بمشروع غزو مصر، مؤكدا أن المصريين سيستقبلون الجيش الفرنسى «بالأحضان» ، وأن مصر ستستعيد أمجادها السابقة على يد الفرنسيين؟؛ ومن ذا يجهل تأثير تقارير القنصل الفرنسى فى القاهرة «ماجالون» ، التى أكدت كلها سهولة غزو مصر ، وتلك الصورة المتهالكة التى وجدها بونابرت لمصر فى كتب الرحالة «فولنيه»؟. كلام «تولار» عن أسبانيا ينطبق إذن على مصر أيضا كما أن «تولار» يبرز تأكيد نابليون على أهمية غزو أسبانيا «لإدخال أفكار ١٧٨٩ الجديدة ، على بلد يئن تحت وطأة حكم متخلف» : نفس ما قيل عن مصر ، وحكم المماليك فيها .

وعن حركات التحرر التى تفجرت بعد ذلك فى ألمانيا والنمسا، خاصة فى «التيرول» ، يقول «تولار» أيضا : «كما حدث فى أسبانيا فإن الظروف كانت مهيئة لحرب عصابات فى بلد جبلى متخلف يقع تحت تأثير الرهبان ومعاد للأجانب» .

ولا يختلف هذا عما قيل عن التطرف المسلم ضد «الكفرة» ودور الأزهر فى إلهاب مشاعر المصريين، وإن كان يقال هنا عن «التيرول» البلد المسيحى الكاثوليكى. وكان «تولار» قد لاحظ منذ البداية أثر حرب العصابات على جيش نابليون الذى «لن يجد لها خط دفاع» مناسب .. فى أسبانيا .. لكنه لن يذكر كلمة واحدة عما لاقاه الجيش الفرنسى فى مصر العليا أو السفلى من ثورات الفلاحين .

نجد الكلام نفسه عند «دوفريس» فى كتابه عن «نابليون» : «يصطدم نابليون، للمرة الأولى، بمقاومة قومية وحرب لا تخضع لتكتيكه ،...، امتدت الثورة إلى البرتغال حيث نزل إنجليز ويلسلى («ولينجتون» المستقبل) وأجبروا الفرنسيين على الاستسلام . كانت تلك أولى الهزائم النابليونية » ، مع أن الأنجليز أيضا كانوا وراء هزيمة بونابرت أمام عكا ثم رحيل الفرنسيين فى النهاية عن مصر ، ناهيك عن تدمير الأسطول الفرنسى فــى أبـو قيــر فــى الأول من أغسطــس ١٧٩٨، وكان ذلك - باعتراف الجميع - نذير فشل الحملة مادام الجيش أصبح سجين غزوته .

كذلك نرى «ريمون آرون» يؤكد أنه: «أثناء حروب الإمبراطورية، هاجم الفلاحون الجند الفرنسيين مرتين ، فى أسبانيا وفى روسيا، سواء أكان السبب فى ذلك ضرائب الجيش الغازى التى لا تحتمل فى هذه البلاد وهى على شفا المجاعة، أو أن رد الفعل البدائى للوطنية الكارهة للغازى، قد لعب دوره هناك» (١) ... وهل كان الأمر مختلفا فى مصر؟ ولم لم يذكر؟ ألأن مؤرخنا يتحدث عن حروب نابليــون الإمبراطــور ، وليس عن حروب بونابرت الجنرال ؟!

قد يكون سبب هذا التجاهل، أن أسبانيا كانت بداية النهاية بالنسبة للإمبراطور نابليون، بينما كانت أسطورة الحملة هى بداية البداية للجنرال بونابرت، الذى استولى على الحكم فى فرنسا وهو متوج بانتصار زائف فى بلاد ألف ليلة وليلة ، والمماليك والأهرامات : ولكــن،

ألم يُعترف بزيف أسطورة بونابرت وزيف أسطورة نابليون ؟ وعُرف كذلك زيف أسطورة الحملة ؟

★★★

بسبب غزو أسبانيا «هزيمة نابليون الأولى» كما يقولون ، جاءت الهزائم الأخرى بعد ذلك ، وكان أبشعها طبعا فى روسيا . وجاءت آخر هزيمة عام ١٨١٥، وقد ترك نابليون فرنسا فى حالة من الوهن ، مكنت الأعداء منها، وقد فقدت من الأراضى أكثر مما كانت الثورة قد استولت عليه قبل حكمه.

ولكن الحكم الملكى الذى عاد إلى فرنسا بعد نفى نابليون، خيب كل الآمال، فبدأ الندم على «أيام نابليون المجيدة» وعاد الحنين لعصر كانت فرنسا تحكم فيه كل أوربا ، عادت أسطورة الثورة التى منحت الحريات والمساواة، وأسطورة الرجل الذى أذل أوربا بصفته «إمبراطورا للفرنسيين»، وانتشرت حروبه وانتصاراته من مصر إلى روسيا: كان اسم مصر ذلك البلد المسلم البعيد الغامض وحده يثير الإيحاءات التهويمية، من قصص الفراعنة إلى سحر ألف ليله وليلة، ألا يكفى نابليون مجدا أنه حارب هناك «المماليك» ذلك الاسم الأسطورى الآخر ؟

وعلى الرغم من كل ما نشر عما حدث فى مصر من فظائع، إلا أن الجمهور كان لا يقرأ إلا ما يرضى غروره الوطنى، وحنينه لأيام كان جند فرنسا يفتحون فيها كل البلاد وحتى النائية منها باسم فرنسا وكانت السياسة الداخلية لفرنسا القرن التاسع عشر صاخبة مدوية، بسبب التيارات المتناحرة التى أنتجت أربع ثورات، وخمسة نظم سياسية

مختلفة. فكانت المؤلفات الحزبية والدراسات التاريخية تهدف أساسا إلى خدمة تيار سياسي بعينه ليعضد من فرص فريق ضد فريق آخر إلى أن جاء انتصار الجمهوريين حوالى عام ١٨٨٠، وازدهرت السياسة الاستعمارية للجمهورية الثالثة وهكذا فإن الأفكار السائدة آنذاك قد خدمت أسطورة نابليون «بطل الحضارة»، غازى أوربا وإفريقيا وآسيا، وسياسته الحكيمة فى مصر كأحسن لواء لما أصبح عصر استعمار باسم تصدير «الحضارة» الى الشعوب الجاهلة.

وأصبحت أسطورة الثورة الكبرى، ملهمة الجمهورية الثالثة، بل أمها التى تمدها بالشرعية، أصبحت هى التاريخ الرسمى للدولة كما أصبحت انتصارات نابليون مفخرة الذكرى القومية؛ فكلاهما أحسن دليل على امتياز الحضارة الفرنسية وضرورة فرضها، ولو بالقوة على دول العالم، وما أكثر الدول الضعيفة فى القارات الأخرى. من هنا كان ذكر الفشل الذى حاق بالجيش الفرنسى فى مصر - والله أعلم - ذكرى بذيئة لابد من إيجاد حل لها، فكانت أسطورة نجاح «المشروع الحضارى» وانبهار المصريين به خاصة أن الخديو إسماعيل أراد لمصر أن تكون جزءا من أوربا، ففتح الباب على مصراعيه للنفوذ الثقافى الفرنسى وإرسالياته التعليمية لذا فقد قرر المؤرخون أن ذلك لم يكن إلا ميراث الحملة ونتيجة مرور بونابرت على مصر لمدة عام واحد، حتى إن جاء ذلك بعد قطيعة دامت ستين عاما.

وعندما جاء الاحتلال الإنجليزى، توجه المثقفون العرب إلى فرنسا، بصفتها غريم عدوهم.

كلام مضى عليه أكثر من قرن، ويبدو كأنه من غياهب الدهر، خاصة أن الحرب العالمية الثانية غيرت كل المفاهيم التى كانت سائدة فى أوربا من قبل. فقد أصبحت أوربا قوة ثانوية بعد أن كانت مهيمنة على العالم بجيوشها ومفاهيمها وعليائها. وهزمت الولايات المتحدة اليابان فى آسيا، وتسيدت على العالم الغربى. لقد فقدت أوربا هيبتها كما فقدت مستعمراتها، التى احتلتها باسم «الحضارة» وجاء إلى الدنيا جيل جديد يسخر من ادعاء آبائه وأجداده فرض «حضارة» تتسم بالعنف والدموية على حضارات تعلَّم هذا الجيل احترامها بعد أن بهر بجمال إنجازاتها وسمو قيمها. خاصة أن الحرب كانت قد شنت ضد «بربرية النازية وهمجيتها»، وباسم «حرية الإنسان» الذى اضطهد فى المستعمرات واستنزف، كما فعلت الجيوش الهتلرية فى أوربا المحتلة؛ وكما حطمت حرب فيتنام المرآة التى كان الرجل الأمريكى الأبيض يرى فيها نبل كل تصرفاته وسمو قيمه، أصبحت كل أساطير «الأمه الفرنسية» محض خيالات خدعت الجيل الجديد فى طفولته، عندما كانوا يعلمونه تقديسها فى حياته المدرسية.

إنه جيل عرف، من الواقع اليومى، التعذيب الوحشى لشعوب حاربت من أجل حريتها فى الهند الصينية والجزائر ومع اكتشاف الحقائق البذيئة، كانت أزمة هوية الغرب الأوربى، والبحث عن دور آخر غير دوره السابق، كحام للحضارة فى العالم، عندما كان هو نفسه، وفى الوقت ذاته يحطم الحضارات الأخرى.

ووسط هذا الدمار كله، بقيت واحه منيرة، هى قصة الأشهر القليلة التى اعترف فيها شعب جاهل متخلف بسمو الحضارة الفرنسية إنها قصة الحملة على مصر، حتى عندما يعترف المؤرخ بما لا يمكن إنكاره؛ وكأنهم يقولون - بل قالها «جورج سبيلمان» بالفعل - نحن لا ننكر كل هذا الواقع المرير ولكن بقى الهدف السامى .... الذى لم يتحقق!

وبالتالى، فإذا ما ذكرت هزائم نابليون بونابرت، تناسوا أولى هزائمه وهى حملته على مصر، التى باءت بالفشل فى كل الميادين باعترافهم. لذا فقد تشبثوا بذكرى «المعهد الفرنسى» وإنجازاته، التى لا يذكرونها ... لعدم وجودها، وروعة كتاب «وصف مصر» وكأنه الإنجيل أو القرآن، وحجر رشيد، الذى كان يمكن أن يكتشف دون حملة عسكرية تهدف فى واقعها إلى استنزاف البلد لصالح الفرنسيين؛ وبذلك تأتى الخاتمة فى تناقص تام مع ماسبقها من سرد ووصف للأحداث: يجد القارئ نفسه حيالها مبلبل الفكر، شارد الذهن، محاولا إيجاد منطق سليم يربط بين ما قيل وما استخلص منه، وكأن جند الجيش الفرنسى من أنصاف الآلهة، فكان مرورهم السريع لنيف وثلاث سنوات يعادل فى تأثيره بل يفوق دخول المسيحية إلى مصر أو الفتح العربى، أو الغزو العثمانى؛ وأين الاحتلال البريطانى ؟.

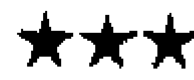
وإذا ما تحدث المؤرخون - الجدد والسابقون عليهم - عن الانتفاضات الوطنية فى البلاد التى استعمرتها فرنسا الثورة وفرنسا الإمبراطورية، طمسوا ذكر آلاف من ضحايا المقاومة الشعبية فى مصر، وكأن هؤلاء لا يدخلون فى حساب شهداء الحرية لأنهم ليسوا من شعوب

أوربا. فقد كان يؤرخ للمقاومة الشعبية ضد الحكم الفرنسى منذ قيام ثورة الأسبان، وأصبح يؤرخ لها الآن منذ أن رفض الإيطاليون والسويسريون حكم فرنسا الجمهورى .... دون ذكر للمصريين. وقد يكون ذلك موقفا منطقيا لو أنهم اعتبروا - مثلنا - أن المرور الفرنسى على مصر كان عابرا، وأن إسقاط ذكره لن يؤثر على فهم تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر، ولكنهم مؤمنون أن هذا الحدث كان الفاتحة بالنسبة لمصر الحديثة. حتى «المؤرخين الجدد» - ماعدا «فرنسوا فوريه» - يصلون كلهم إلى هذه النتيجة الغريبة؛ غريبة، خاصة إذا ما تذكرنا أن الفرنسيين يعتزون جدا بقولهم «نحن فى بلد ديكارت» صاحب مبدأ ترجيح العقل والمنطق فى كل الأمور. كان أمرا طبيعيا حين كان المؤرخ الاستعمارى يتحدث عن جند الحملة مسميا إياهم: «جندنا» وقائلا عنهم: «نحن»، ولكننا نجد ذلك أيضا عند «المؤرخين الجدد» الذين يتحدثون عن «جنود الحملة»، أو «فرنسيى ذلك العصر»، معترفين إذن بالمسافة التى تبعدهم ذهنيا وزمنيا عن أجداد ضاعت علاقتهم بهم بسبب تغير الأحوال وتطور العقليات وهم بالفعل يتحدثون عنهم بعقلية نقدية قاسية فاضحين مساوئهم وتخريبهم للبلاد.

★★★

لا مناص لنا إذن من الرجوع إلى ما قالته الفيلسوفة «حنا آرندت» فى كتابها عن «أزمة الثقافة»؛ إنها تؤكد أن: «... ما يسمى بالموضوعية - ذلك الغرام الغريب بالأمانة الثقافية المطلقة وبأى ثمن، غير المعروف خارج الحضارة الغربية ...» (٢) ... كلام يثير فينا ذكرى دراسة

أمريكية (٣)، تثبت – وياللعجب – أن الأجناس الأخرى غير البيضاء، تعرف هى أيضا مشاعر الحب! اكتشاف عجيب فقد كان الظن السائد أن حضارة الغرب وأوربا بالذات بثقافتها هى الوحيدة التى تعرف هذا الإحساس الجميل: هكذا! مما يجعلنا نتساءل عن حقيقة أسطورة أخرى غير أسطورة حملة بونابرت على مصر وهى أسطورة الموضوعية العلمية فى الغرب.



قبل أن نقرأ ما قاله الدارسون الفرنسيون أنفسهم عن هذه الفكرة، فكرة «موضوعية العلم» وعلم التاريخ بالذات، نود أن ننوه إلى أن كلمة «موضوعية» فى اللغتين العربية والفرنسية مشتقة من الجذر نفسه: فمن «يضع شيئا» أمامه، لابد أن ينظر إليه بعين مجردة، بحيث يرى الجميع المعنى نفسه، فلا يمكن مثلا أن توضع مائدة يراها البعض كرسيا والبعض الآخر مائدة. إن الناظرين إلى «الشئ الموضوع» أمامهم لابد أن يتفقوا كلهم على صحة رؤية هذا الشئ نفسه، وكلمة «شئ» هى بالضبط الكلمة الفرنسية المشتقة منها كلمة «موضوعية» العربية. فهل ينظر كل العلماء بالعين نفسها إلى الشئ المدروس ؟.. المفروض أن يكون الأمر كذلك، والمفروض عادة ليس القاعدة مع الأسف الشديد. فمصر جغرافيا مثلا تقع فى افريقيا ولكن البعض ينظر إليها على أنها جزء من أوربا، لأنهم أرادوا لها ثقافة هى الثقافة الأوربية. فالشئ يختلف إذا تدخل الفكر فى النظر إلى أموره، وإذا كانت الأمور تاريخية، فمن الطبيعى أن يختلف فكر المؤرخ عن فكر زميله فى الدراسة. ويجوز

لمؤرخين أن يحكما على الأشياء من منظورين مختلفين، لأن فكر أحدهما منبثق عن زاوية غير الزاوية التى ينبثق عنها فكر زميله. ومادامت الرؤية كالفكر ذاتية بالضرورة فمن الجائز إذن اختلاف الأحكام باختلاف الفكر من شخص إلى آخر ومن مؤرخ إلى آخر.

ولكن القضية تصطدم أيضا بعنصر آخر هو المصلحة وراء الدراسة وكما أسلفنا، وحسب كلام «فونتنيل» فى قصته عن «السنة الذهب»، قد تكون النية سليمة ولكن التعجل أو الجهل يجعلان الدارس مخطئا فى تقييمه للأمور، كما قال «فونتنيل»، فالدراسات التاريخية بالذات معرضة أكثر من غيرها لهذا النوع من الخطأ خاصة لو أننا فطنا إلى أن دراسة التاريخ ما هى، فى الواقع، إلا دراسة سياسة الماضى. وبالنسبة للسياسة بالذات، فقد عبرت «حنا آرندت» عن مكنونها الواقعى الدفين قائلة: «إن ما أقوله أمر مسلم به فالجميع يعرف دون أدنى شك، أن الحقيقة والسياسة. لا تتفقان وحسب معلوماتى، فلا يوجد من اعتبر الأمانة صفة من الصفات السياسية، فالكذب كان يعتبر دائما الأداة الضرورية الشرعية لوظيفة السياسى أو الديماجوجى ناهيك عن وظيفة رجل الدولة»، كلام لن يعترض عليه «ماكيافيل» طبعا (١٤٦٩ - ١٥٢٧) ذلك المفكر الإيطالى الداهية «الذى اتهم الفرنسيين بتحويل كل هزائمهم إلى انتصارات (٤)، واعتبر هذا الداء سمه من سمات الفرنسيين منذ عصره! لذا فقد كان نقد التاريخ الفرنسى جزءا من نقد «الموضوعية العلمية» فى الغرب.

★★★

إن المجال الوحيد الذى يمكن أن نحصر فيه «الموضوعية العلمية» فى حالتها المطلقة، هو مجال العلوم الانسانية، دون نزاع، وميدان الدراسات التاريخية على وجه التحديد، فإن كل من يتعرض للواقع، سواء كان هدفه عملاً فنياً أو دراسية أكاديمية ، لابد أن يعتمد على تلك الدراسات ، خاصة أنها لم تعد تهتم فقط بأكابر الشخصيات، أو ما يسمى «بالحدث التاريخى»، بل اتسع نطاقها ليشمل كل ما يخص الإنسان - بل والحيوان ، والطبيعة فى كل مظاهرها - وأصبح ذلك كله مجال دراسة للمؤرخ. إن ما يسمى بالتأريخ أصبح حاليا دراسة الحضارة لبلد ما، بكل فروعها، سواء كانت تلك الفروع ثقافية أو اقتصادية أو حربية.. إلخ. لذا فقد أصبحت مسئولية المؤرخ عظيمة، إذ أنه لا يقدم أحداثا بعينها، بقدر ما هو مسئول عن تقديم حضارة بأكملها. من هنا جاء سؤال «ما فائدة المؤرخين؟»، سؤال تولت مجلة «لستوار» تلخيص الإجابة عليه، كما نشر أيضا فى مجلة علمية أخرى، وكانت هذه هى الإجابة: «للمؤرخ وظيفة اجتماعية بالنسبة لمعاصريه واجبه أن ينير لهم الماضى حتى يكون فهمهم للحاضر أعمق، هذه مسئولية ليست بالبسيطة، فالمؤرخ، ، حسب تعريف إيريك هوبسباوم، «محطم الأساطير»، فعليه نقل علم سيكون «الإدراك التاريخى لليوم وذاكرة الغد». على المؤرخ إذن ألا يقتنع بأكثر المسلمات شيوعا، بل عليه أن يزعج» (٥) قراءه، لأنه طبعا سيغير كل ما يقتنعون به من مسلمات سابقة . فمسئوليته إذن غاية فى الخطورة لأنها تشكل الوعى القومى للشعوب.

وظيفة تحطيم الأساطير جد شاقة، فالقول الفرنسى «إن للأساطير حياة طويلة» قول حكيم. وقد عرفنا، من دراستنا السابقة، كيف يمكن أن تعمى المسلمات الكاذبة بصر أحسن العقول تفهما. ولكن الأساطير صعبة التحطيم لأنها تدخل عقولنا منذ الصغر، لذا كانت المشكلة التى قال فيها المؤرخ «فيليب جوتار»: «إن التاريخ العلمى ضعيف إذا ما قورن بالتاريخ الأسطورى. فالأساطير لها فعالية قوية لأنها تخاطب الخيال ،...، إنها تقوم بالفعل بالدور البدائى لذكرى الماضى بصورة أفضل من التاريخ النقدى للمتخصصين: إن وظيفة ذكرى الماضى هى الحفاظ على تماسك الجماعة» الإنسانية . وهو يرى أن الانفعال الغاضب لا فائدة منه: «من الأفضل دراسة منهجية منظمة لأساطير كثير من التركيبات التاريخية، بما فيها من تظن نفسها دقيقة. لأن خطر الأسطورة التاريخية ليس فى ذاتها، ولكن فى إنكار طبيعتها الأسطورية ، وفى التبريرات المطروحة بوسائل علمية» (٦).

وكان المجهود جد شاق بالنسبة لجيل وجد نفسه يفند اساطير الماضى، وما أكثرها فى التاريخ الفرنسى وجاءت الدراسات عديدة عندما بدأ تيار إعادة النظر فى تاريخ بلد تغير وضعه بين ليلة وضحاها: «فمنذ ١٩٧٠، بدأت الزوابع فى سماء كانت صافية (لسنوات عديدة). كيف يدرس تاريخ يدخل فى حسبانه المكان المتوسط لفرنسا فى العالم؟» (٧) بعد أن فقدت مكانتها السابقة كقوة عظمى؟ ويرى مؤرخ آخر القضية نفسها من منظور آخر: «إن الجيل المولود فى الستينات لم

يعد يحتاج إلى أسطورة تجمع شمله: أزمة الهوية التى سببتها الحرب العالمية الثانية لم تعد مشكلته» (٨).

كما يرى «فرانسوا فوريه» أن تدريس التاريخ، بعد ١٩٤٥، لم يعد يتناسب مع ما كان يدرس منذ عام ١٨٨٥ «بسبب نهاية هيمنة أوربا على العالم» (٩). ويقول «مارك فررو» إن: «التاريخ التقليدى ،...، كان هشا: إنه يقدم لشباب فرنسيى ١٩٥٨ حرباً عالمية ثانية «متناسيا» الحديث عن المتعاونين (مع الألمان)، وحكومة فيشى وبيتان» (١٠). وهى كلها من سنوات يعتبرها الفرنسيون «سنوات عار»، لأنها تثبت أن النازيين فى فرنسا كانوا على وئام تام مع عامة الجمهور والحكومة. والنتيجة لن نستغربها ، إذا ما حاول دارس آخر معرفة رأى الفرنسيين فى أحداث الحرب العالمية الثانية.

فهو يلاحظ، فى عام ١٩٨٤، أى بعد حوالى خمسين عاما من الأحداث ، أن الفرنسيين يذكرون الماضى من خلال بعض الصور «العاطفية»، التي تجعل من الجنرال «دى جول» المنتصر الحقيقى على الألمان، وإجحاف الدور الأمريكى فى تحرير فرنسا من الحكم النازى واستعماره، معلقا بقوله: «فهم يجعلون من رغباتهم حقائق تاريخية» (١١).

ويعلق مؤرخ آخر على ظاهرة الأساطير الكاذبة كاتبا: «إن الحقيقة، مرة أخرى، كما نستطيع إعادة بنائها، لا تتطابق مع الأسطورة» (١٢). الأسطورة هى مايحلو لشعب أن يرى فيه نفسه، أما الحقائق فهى عادة ما تكون مؤلمة.

وقد عبر الأمريكيون عن تلك المشكلة عندما أرادوا الاحتفال بمرور خمسين عاما على إلقاء أول قنبلة ذرية على هيروشيما فى اليابان، فرفضوا الاعتراف بواقع الحدث البشع، قائلين: «يكتشف الآن أن التاريخ كان كاذبا . وإن كان ذلك صحيحا، فهذه جريمة. ولكننا، نحن الأمريكان، لا نتخيل لأنفسنا تاريخا دمويا» (١٣).. وما العمل إن كانت تلك هى الحقيقة؟.

ولكن، هل بقى للحقيقة مكان بعد ذلك ، فى تاريخ يتلون حسب رغبات كل شعب فى تجميل صورته لنفسه وأمام الآخرين؟.

وأين بالذات تحسم هذه القضية؟ فمن هنا جاءت قوة الأساطير وصعوبة دحضها. وعادة ما تبدأ هذه الأساطير من الكتب المدرسية نفسها.

فمعرفتنا بالتاريخ تبدأ من المدرسة، ومؤلفو الكتب المدرسية هم طبعا المتخصصون، الذين سرعان ما تنسى أسماؤهم ، ولكن دروسهم تغرس فى ذاكرة الأطفال إلى الأبد.

وندر من استطاع بعد ذلك أن يتخلص من الانطباعات التى تأثر بها وهو طفل يكرر دون أى تفكير أو نقد، كل ما يقال له من خير أو شر، وهو كالرخام البكر، إذا ما حفر عليه شىء، فلن تمحيه بعد ذلك العقود أو حتى القرون.

وقد درس «مارك فيررو» فى كتابه الشهير «كيف يحكى التاريخ للأطفال»، هذه النقوش المضللة.

إنه يبدأ بهذه الحقيقة: «إن الصورة التى نعيش معها، عن أنفسنا وعن الآخرين ، هى الصورة التى لقنت لنا أثناء طفولتنا» (١٤). وفى مقدمته، يذكر «فيررو» المفكر الايطالى «بنيدتو كروتشى» الذى قال: «فى بداية القرن (العشرين) يطرح التاريخ مشاكل الحاضر أكثر مما يطرح مشاكل العصر الذى يفترض أنه يدرسه». ثم ينقد «فيررو» التاريخ الأوربى الذى لايهتم بالبلدان إلا إذا دخلت فى نطاق الاهتمام الأوربى. «فكان الغرب يعتبر أن الشعوب التى لم تمتزج بالحضارة الغربية، لا تاريخ لها»، ولا يدخلها فى سرده إلا عند «اكتشاف» الأوربيين لها ومن السهل طبعا بعد ذلك ، اعتبار كل ما سبق هذا الاكتشاف ملغياً، كما حدث مع دراسى الحملة على مصر، الذين لم يفكروا لحظة واحدة أن مصر، قبل مجيء الفرنسيين ، كان لها تاريخها وحضارتها وثقافتها (١٥): هذا تعليقنا نحن طبعا!.

ويلفت نظرنا ، فى كتابه، ما يقال بالذات ، عن نظرة التاريخ الأوربى، أو بالأصح التاريخ الفرنسي، إلى مصر: «فالشعوب الأخرى لا تشترك فى السرد التاريخى إلا بصفتها عابر سبيل، عندما كانت أوربا تتنزه فى بلادها. فمصر مثلا، نعرفها فقط قبل أن تولد (ولم نفهم ماذا يعنى بالضبط بهذا الوصف) ، ثم وهى تحت الحكم الرومانى، ثم أثناء الحروب الصليبية ، أو بونابرت ، ومحمد على، وناصر ،...، إن تاريخ هذه البلاد لا يعد تاريخا إلا عندما يلتقى بتاريخنا».

★★★

صدق «فيررو» فى مقدمته ، عندما فضح أهمية السيطرة على الخطاب التاريخى . فهو يقول: «السيطرة على الماضى تدعم السيطرة على الحاضر، وهى تأكيد لشرعية السلطات والتساؤلات. فالقوى المسيطرة – كالدول والكنائس والأحزاب السياسية أو المصالح الخاصة ـ هى التى تمتلك، أو تسيطر بطريقة ما ، على وسائل الإعلام أو أدوات الاستنساخ، من الكتب المدرسية إلى القصص المصورة (للأطفال) ، والأفلام وبرامج التليفزيون ،...، وأى من الأمم أو الجماعات الإنسانية ستقدر على السيطرة غداً على تاريخها؟».. وتأكيداً لهذا التشاؤم ، نذكر فيلما أمريكيا، عرض منذ بضع سنوات فى دور العرض بمصر. وكان جمهور الشباب فى القاعة يصفق لمهارات البطل الأمريكى، الذى يحارب ، فى شوارع القاهرة، الجيش الألمانى ، فى الأربعينات، وقد كست الأعلام النازية كل مبانى القاهرة ! وما خفى كان أعظم (١٦). ومما لاشك فيه أن هؤلاء الشباب قد خرجوا من الحفل مقتنعين تمام الاقتناع، أن النازية كانت مسيطرة على مصر... فقد شاهدوها بأعينهم! ويزداد التشاؤم إذا أخذنا فى الاعتبار أيضا ما يبث فى البيوت من خلال المسلسلات التليفزيونية المغرضة. ناهيك عما يقتحم عقولنا من خلال الانترنت، مؤكدا أن عمالقة من العالم الخارجى وبنى إسرائيل، هم الذين بنوا الأهرامات!! ...

★★★

نعم ... ومع شديد احترامنا للفيلسوفة «حنا آرندت» فقد جانبها الصواب فى مقولتها عن «الموضوعية العلمية» التى لم يهم بحبها إلا

الغرب فما قاله «فرانسوا فوريه» كان أصدق عندما أكد أن «كتابة التاريخ لم تكن بريئة في يوم ما» (١٧)، وقد يكون عرضنا، لما كتب عن الحملة على مصر خير دليل على ذلك.

وفي دراسة أسماها «ميلاد التاريخ»، قدم «فوريه» الدليل القاطع على مقولته تلك. فهو أيضا مثل «فيررو» يدرس الخطاب التاريخي الذى يطرح على التلاميذ فى فرنسا. إنه يعرض علينا كيف أن التعليم ينتهج سياسة كل حكم يطيح بسابقه فتكون مقررات التاريخ هي أول شاهد على تغير سياسة الدولة ، والحقيقة أن دراسة مناهج التاريخ فى العالم كله - حسب قوله - وفي فرنسا بالذات، تشير إلى تغييرات جوهرية في النظرة إلى ماضي الوطن وتسلسل الأحداث، من منطلق فلسفة خاصة لكل حكم وخير دليل يقدمه «فوريه» على ذلك تطور صورة الثورة الفرنسية، كما تناولها المؤرخون وتلاميذ المدارس الحكومية، على مدى مائتي عام.

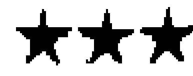
كان تدريس مادة التاريخ فى القرن التاسع عشر قد أخذ أهمية لم يعرفها من قبل. إذا كان التعليم فى القرون السابقة يهتم أساسا بكلاسيكيات الأدبيات اليونانية والرومانية ؛ وقد رأينا بالفعل تأثير هذا التدريس على رجالات ثورة ١٧٨٩. بينما أخذ تدريس العهد الحديث أهمية جديدة، عندما بدأ المؤرخون يتبارون في إثبات وجهات نظرهم، إبان الأحداث التي حولت فرنسا فى نهاية القرن الثامن عشر، من ملكية دامت حوالى ألف عام، إلى حكم جمهورى يؤكد أنه الشعب، ولا يحقق إلا إرادة الشعب. خاصة أن محاولة العودة إلى الماضي، وحكم عائلة

«البوربون» مرة أخرى، قد تسبب فى قيام ثورتين، فأصبحت ثورة ١٧٨٩ بآمالها وأحلامها، آمال وأحلام كل من صدم من حكم «البوربون» الذى اعتبر نفسه إحياء لماض عفى عليه الزمن.

من هنا، كانت أهمية منهج تدريس التاريخ بعد ثورة ١٨٧١. إنها العودة إلى قيم الثورة الكبرى، ثورة ١٧٨٩، عندما اعتبر الحكم الفرنسى الجمهورى نفسه معبرا عن الشعب، ولكنه رأى نفسه أيضا منبرا للديمقراطية العالمية. ويؤكد «فوريه»، مسترسلا فى سرده، أن فرنسا كما يقدمونها هى: «حاملة التقدم من خلال الدولة القومية، وتاريخ فرنسا أحسن مثل على هذا، بدليل تاريخها خلال عهد الملكية المطلقة فى الماضى، والثورة الفرنسية أخيرا». من هنا، كانت ضرورة تعليم الشعب مبادئ معينة، فى المدارس التى تتولاها الحكومة، حسب منهج جمهورى معين، أسماه «فوريه»: «علم تربية المواطن ،...، أصبح الهدف من تدريس التاريخ واضحا خاصة أن المدرسة علمانية، إجبارية، مجانية: كان واجب هذه المدرسة وهدفها، خلق مواطن مقتنع بواجباته، وجندى يحب سلاحه». فكانت فتوحات فرنسا الاستعمارية ...

عرفت الأجيال المتلاحقة بعد ذلك صورة فرنسا من خلال الكتب المدرسية التى تركت بصمتها على العقول الفرنسية حتى عهد قريب، لأنهم تعلموا فيها، منذ نعومة أظفارهم، أن: «فرنسا هى أكثر الأوطان عدالة وحرية وإنسانية» (١٨) ... كما عرفت تلك الأجيال أن جند فرنسا لا يحاربون الشعوب المتأخرة إلا لإهدائها الرخاء والحضارة.

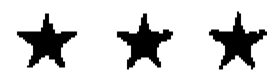
وكان بونابرت طبعا - والقول هنا لنا - أول من فكر فى إهداء هذا الكنز إلى الشعوب المتخلفة، عندما غزا مصر كانت السياسة التعليمية للجمهورية الثالثة هى وسيلتها لإرسال الفرنسيين لاستعمار إفريقيا وآسيا ... فكانت أسطورة الحملة التحضيرية على مصر، أولى غزوات تحضير الشعوب الجاهلة. فإذا عرف السبب ...



إن تدريس مادة التاريخ يعتبر من أهم، إن لم يكن أهم عنصر فى تكوين الشخصية القومية لأى شعب. والمعروف أن ألمانيا النازية، مثلا، عندما أرادت قهر الروح البولندية بعد غزو البلاد مباشرة فى ١٩٣٩، فإنها قد ألغت تعليم اللغة البولندية، ومادتى التاريخ والجغرافيا من المدارس وذلك حتى يفقد التلاميذ هويتهم نهائيا، ويتحولوا إلى أداة طيعة للحكم النازى، تماما كما كانت الحكومة الفرنسية تفعل فى مستعمراتها، حيث كانت تدرس اللغة الفرنسية وتاريخ فرنسا وجغرافيتها .... فقط؛ حتى أن التلاميذ عربا أو أفارقة أو آسيويين، كانوا يرددون الجملة الشهيرة «أجدادنا الغال» ... إلى أن فقدوا أى انتماء لأجدادهم الأصلاء.

كذلك تلعب السينما - والتليفزيون - دورا خطيرا فى تشكيل الوعى العام فى القرن العشرين. وأفلام «فرانك كابرا» مثلا فى الولايات المتحدة، معروفة بدورها الخطير فى هذا الصدد، فبسببها آمن الشعب الأمريكى بالصورة الجميلة للرجل «الأمريكى الأبيض الخير الحر» التى يراها فى تلك المرآة الباهرة، وجاءت حرب فيتنام لتتحطم المرآة، ويمر

الجمهور بأزمة طاحنة أمام واقع أليم يفضحه التليفزيون، واقع لا علاقة له بما كان يتخيله هذا الجمهور عن نفسه. كذلك كانت الأزمة عندما أرادوا الاحتفال بمرور خمسين عاما على إلقاء القنبلة الذرية على «هيروشيما» اليابانية ، ومع الاعتراف بما أصبح يذكر على أنه جريمة وصلت بشاعتها إلى حد اللاتبرير. وأمام ثورة الرأى العام، لم تلق الأزمة حلاً غير إلغاء احتفال يفضح «جريمة بشعة ضد الإنسانية»، كان الأمريكيون لا يعترفون بمثلها إلا على أيدى أعدائهم ، من ألمان ويابانيين فى الحرب العالمية الثانية .



وبعد ...

انهارت صورة الأمريكى الطيب، كما انتهت أسطورة الحروب الصليبية: إن الغرب يعترف الآن أنها كانت حروبا استعمارية أكثر مما كانت حروبا دينية، كما أصبح يعترف بالفظائع التى اقترفها الصليبيون فى الأرض المقدسة. واستمر جيل «تحطيم الأساطير» ، فأتى على أسطورة «الثورة الكبرى» ورسالتها السلمية العالمية.

كذلك ، أصبح الحديث عن نابليون يعترف ـ دون أدنى شك ـ بأن الأسطورة كانت كاذبة. والدليل، مثلا، اكتشاف أن سجن «الباستيل»، عندما اقتحم فى الرابع عشر من يوليو سنة ١٧٨٩، لم يكن به سوى خمسة سجناء .. بينما كان عدد السجناء الذين خلفهم نابليون عندما انهار حكمه، في ١٨١٤، خمسة وعشرين ألفا! أصبح هذا الكلام من المسلمات ، حتى أن إعلانا عن مزاد طرحت فيه خطابات للإمبراطور

الشهير في باريس، يقول عنها إن بها ما يكشف «جوانب مخفية (عن شخصية نابليون) أو كانت الأسطورة قد أخفتها بعناية فائقة..» (١٩).

★ ★ ★

فإن كانت أسطورة الرجل قد انهارت، ألم يحن بعد أن تفضح أيضا أسطورة الحملة الحضارية على مصر، هزيمة بونابرت الأولى، والتى كانت السبب الأول فى استعمار الإنجليز لمصر فى ١٨٨٢؟

وتنهار أيضا مقولة «حنا آرندت» عن الغرب، المغرم الوحيد بالموضوعية . خاصة أنها اعترفت بأن السياسة لا تعيش إلا بالكذب: ألم يقل المؤرخ «فرانسوا فوريه» إن: «التاريخ أمر سياسى قبل كل شيء»؟ (٢٠). فنصل إلى نتيجة أخيرة: أن التاريخ - عندهم - هو السياسة الكاذبة. والله أعلم.

«وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»

صدق الله العظيم

الهوامش والمراجع الأجنبيـة

الفصل الأول

شاهد من أهلها

١- Vivant Denon : Voyage dans la Basse et la Haute - Egypte
Présentation de Jean Claude Vatin, Le Caire IFAO, 1989

٢ - «كريستوفر هيرولد»
النص المترجم : ص ١٣٣.
وتعليق «لورانس» في كتابه يؤكد هذا الوصف: النص المترجم ص ١٤٩.

٣ - Jean - Marie Carré: Voyageurs et écri - vains français en Egypte; Le Caire- IFAO,1965.
الجزء الأول : ص ٢٥٢.

٤ - François Bernoyer : Avec Bonaparte en Egypte et en Syrie

19 lettres inétites (....) retrouvées et présentées par Christian Tortel

Collection Le temps retrouvé , éditions Curan-da,1981

«فرانسوا برنواييه»: «مع بونابرت فى مصر وسوريا».

٥ - «تولار»: «نابليون» ص ٩٧.

٦- Joseph - Marie Moiret

Mémoires sur l'Expédition d' Egypte

Pierre Bellond, 1984.

هذا ما يقوله ناشرها فى مقدمتها للنص.

٧ - عدد ١٤٠ - يناير ١٩٩١ ص ٢٥.

٨ - مما يؤكد حقيقة هذا الكلام وواقعيته ، ما كان يقوله الفرنسيون الذين استسلموا للقوات البريطانية. لذا، فإن المؤرخ «ماكيزى» يعزو سرعة استسلام الجيش الفرنسى لعلم القواد بالمعنويات المنهارة للقوات الفرنسية، ورفضها الاستمرار فى المحاربة من أجل قضية فاشلة. وكان «القاسم المشترك لكل هؤلاء الأسرى، خوفهم من أهل البلد، الذين أثيروا من المصادرات وسوء المعاملة، ورعب (الجند الفرنسية) من العادات القاسية للأتراك».

Piers Mackesy: British Victory in Egypt, 1801
The end of Napoleon conquest- Routledge - London and New York - 1995.

«بيرس ماكيزى»: «النصر البريطانى فى مصر، ١٨٠١ - نهاية غزوة نابليون»، ص ١٨٥ وص ٢٢٣.

٩ - Kléber en Egypte: 1798- 1800
Kléber et Bonaparte : 1798-1799
Présentation et notes par Henry Laurens.
IFAO - 1988- 2 volumes

«كليبر فى مصر : ١٧٩٨ - ١٨٠٠»
«كليبر وبونابرت (١٧٩٨ - ١٧٩٩)»
الجزءان الأولان ظهرا أولا.

١٠ - إحدى العملات الفضية الفرنسية فى ذلك العصر.

١١ - Kléber en Egypte -1798 -1800
Kléber commandant en chef - 1799- 1800
Volumes III et I–IFAO - 1995–Le Caire

الجزءان الثالث والرابع.

١٢ - فى مقدمة الجزء الثالث من كتاب «كليبر فى مصر» (ص٢) نجد شرحا يصف هذه العملة المسماة هنا «باتاك» «Pataque»، منقولا عن كتاب «وصف مصر» فى جزئه الخاص بالعملات المستعملة فى مصر فى ذلك العصر: كانت تعادل «الثالير» أو «التالر أو «الطالر» كما نقرأ فى «تاريخ النقود الإسلامية» (تأليف العلامة السيد موسى الحسينى المازندرانى الطبعة الثالثة - دار العلوم - بيروت - ١٩٨٨)، وهى «نقد

ألمانى الأصل من الفضة» . ولم نجد ما يقارب أو يشابه كلمة «pataque» . اللهم إلا إذا كانت هذه الكلمة تحريفا فرنسيا لكلمة «بندقى» ، وهى العملة الذهبية التى كثيرا ما كان الجبرتى يستعمل اسمها والله أعلم.

هوامش الفصل الثانى

١٣ - Edward William Lane: Manners and Customs of Modern Egyptians Livres de France. The Hague and London- Cairo, Egypt. 1989

١٤ - Clot Bey : Aperçu géneral sur l'Egypte F. Masson, 1840, 2 volumes

«كلوت بك» : «لمحة عامة إلى مصر» .

دار الموقف العربى، ١٩٨١، ٣ أجزاء - انظر ملحق ٥ .

١٥ - Gérard de Nerval: Oeuvres Complétes: le Voyage en Orient, Gallimard 1984 , 2 volumes.

١٦ - Gustave Flaubert: Lettres d'Orient, Bordeaux - L'horizon chimérique, 1990

«جوستاف فلوبير»: «خطابات من الشرق»، ص ٦٩.

١٧- «تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين».

وهو على هامش كتاب «لطائف أخبار الدول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول» تأليف العبد الفقير إلى عفو ربه الكريم الباقى محمد عبد المعطى بن عبد المغنى بن على الإسحاقى المنوفى نفعنا الله به آمين

ص ص ٢٤٥-٢٤٧ نشكر السيد المستشار الدكتور وليم سليمان الذى أرشدنا الى تلك الصفحات .

١٨- رفاعة رافع الطهطاوى «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٣ ص ٦٣ انظر ملحق ٦.

١٩- يمكن الرجوع الى أكثر الكتب تفصيلا عن الشيخ حسن العطار، وهو كتاب «بيتر جران» الأمريكى، السابق ذكره .

٢٠- لم تكن ذاكرة المصريين قاصرة حتى يشرح هذا التجاهل للحملة . فالجبرتى تحدث عن ذكرى الصليبيين؛ ونقولا ترك الذى كتب فى الحقبة نفسها، وعلى الرغم من تعاطفة الشديد مع الفرنسيين وانبهاره بقدرتهم القتالية، يقول: «وأهل مصر لم يقبلوا هذا الجنس (الفرنسى) بالكلية لأنه أولا ضد ديانتهم، ثانياً ضد لغتهم، ثالثاً ضد كسمهم، رابعاً وجود عداوة قديمة بين أهل مصر والفرنساوية من عهد السلطان بيبرس والسلطان لويس الفرنساوى حين وصل الى المنصورة، وهنالك عساكره انكسرت، وعساكر الاسلام انتصرت ،...، فجال فى خاطر أهل هذه المدينة ان يقوموا على العسكر الفرنساوية ويقتلوهم فكان الأمر ...» (ص٢٤).

فذكرى الحروب الصليبية كانت لاتزال حية . ولنقولا ترك كلمة بليغة فى رغبة الفرنسيين كسب ود أهل البلد وسبب فشلهم فى ذلك : «فما أمكنهم إلا المساواة والمواساة، وكانوا «يقدموا» لأهل البلد كل محبة لكى «يجلبوهم» على محبتهم ولكن هذا شئ ضد الطبيعة...» (ص٣٠) : شئ

«طبيعى» فهمه نقولا ترك ولم يفهمه الفرنسيون الذين كانوا هم أيضا يكرهون كل من هاجم وطنهم واستباحه .

مذكرات نقولا ترك - مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية - القاهرة ١٩٥٠.

٢١- دار الجيل - بيروت، ثلاثة. أنظر ملحق٢.

٢٢- فمثلا استبعدنا كلية مذكرات كثيرة، على أهميتها، لأن عبد الرحمن الرافعى كان قد استعملها باستفاضة فى الجزء الأول من كتابه الرائع عن «مصر المجاهدة فى العصر الحديث» - دار الهلال -١٩٨٩.

هوامش الفصل الثالث

«المؤرخون الجدد»

٢٣- «فوريه» و«ريشيه»: «الثورة الفرنسية» . ص٣٨٧.

٢٤- François Furet : La Révolution, 2vol. Hach - ette- Pluriel, 1988.

«فرانسوا فوريه» : «الثورة». الجزء الأول: ص ٣٥١ .

٢٥ - Roger Dufraisse : Napoléon, "que sais je" Presses unversitaires de France, 1987.

٢٦ - "Napoleone Buanaporte"

«نابليونى بيونابرتى» وليس «نابليون بونابرت» كما أسمى نفسه بعد ذلك، عندما فرنس اسمه الإيطالى عام ١٧٩٥. مما جعل «شاتوبريان» مصرا على تسميته بهذا الاسم الإيطالى، ليؤكد عدم شرعيته لحكم فرنسا، كما أسلفناه .

٢٧- Joél Brégeon : L'Egypte Francaise, au jour le jour 1798-1801 Perrin, 1991

«جان - جويل بريجون» : «مصر الفرنسية فى حياتها اليومية ١٧٩٨ - ١٨٠١» .

٢٨ - Journal du capitaine François dit le Droma daire Egypte, Tallandier 1823.

«يوميات الكابتن فرانسوا الشهير بجمل مصر»

وقد استعان بهذه اليوميات، من ضمن من استعان بها من كتاب المذكرات المعاصرين للحملة، وذلك منذ عام ١٩٢٩ ، عبدالرحمن الرافعي في جزءى مؤلفه عن «تاريخ الحركة الوطنية وتطور نظام الحكم في مصر»، دار المعارف، ١٩٨١.

٢٩-«لستوار»: L'histoire: Les mystéres de l'Egypte

عدد رقم ١٩٠ - يوليو - أغسطس ١٩٩٥.

"Bonaparte en Egypte", Patrice Bret

المقال ص ص ١٠٠ - ١٠٥.

٣٠ - نقلا عن مقال «مارك ميشيه» فى «لستوار» عدد ١٤٠ - يناير ١٩٩١ - ص ٢٥ كما أسلفنا.

٣١ - «هيرولد» مترجما ص ص ٥٣٠ - ٥٣١.

٣٢ - «دينون» ص ٢١ وص ٣٢.

٣٣ - - Gilbert Delanoue : Moralistes et Poli ticiens musulmans dans l'Egypte du XIX siécle: 1798 - 1882

جزءان - IFAO, le Caire, 1982

الجزء الأول: ص ٢٢ وص ٧٦.

٣٤ - مقال «القومية المصرية» فى كتاب:

L'Egypte d'aujourd' hui- Permanence et changements 1805 - 1976.
Editions du CNRS, 1977.

«مصر اليوم - الاستمرارية والمتغيرات، ١٨٠٥-١٩٧٦» ص ١٣١.

٣٥- ILn'y a pas de decadence ottomane

في «ليستوار» ، عدد ١٩٠ - يوليو أغسطس ١٩٩٠.

٣٦- André Raymond, Le Caire,Fayard 1993

ص ١٩٧

٣٧ - ترجمتنا للنص الفرنسي.

«لورانس» : ص ٢٢٠.

والمترجم : ص ٣٩٦ .

هوامش الخاتمة

١ - Raymond Aron : Dimensions de la Conscience historique.

ابعاد الوغى التاريخى» ، ص ٢٥٠.

٢ - Hannah Arendt: La crise de la culture, folio- esais1972.

«أزمة الثقافة» ، ص ٣٣٥.

٣- مجلة «نيوزويك» الأمريكية ، Newsweek .

١٨ يناير ١٩٩٣ - ص ٤٦ .

٤ - باعتراف «فرانسوا بوت» ، جريدة «لى موند» ١٦ ديسمبر ١٩٩٥ .

٥ - ملخص دون اسم كاتبه - مجلة «لستوار» - عدد ١٨٨ مايو ١٩٩٥ - ص ٨٨ .

٦ - «لستوار» عدد ٩٤ - عام ١٩٨٦ - ص ٩ .

٧ - «چان - بيير رييو» .

«لستوار» - عدد ٢٠٢ - سبتمبر ١٩٩٦ ص ٥٠ .

٨ - «روبير فرانك» .

«لستوار» عدد ٦٧ - ١٩٨٤ - ص ص ٦٢ - ٦٩ .

٩ – «فوريه» : «ورشة التاريخ» ص ٣٩ .

Marc Ferro : Comment on raconte l'Histoire aux enfants a travers le monde entier- Payot 1981. – ١٠

«مارك فيررو» : «كيف يحكى التاريخ للأطفال فى العالم كله» ص ص ١٣٠ – ١٤٠ .

١١ – «روبير فرانك» .

١٢ – «أندريه كاسبى» .

«لستوار» – عدد ١٨١ – أكتوبر ١٩٩٤ – ص ٨ .

١٣ – جريدة «لوموند».

٢٤ مارس ١٩٩٥ .

١٤ – يمهد هذا الكلام للكتاب وهو منشور على الغلاف سبق أن أشرنا فى بداية دراستنا هذه ، إلى الصعوبة التى لقيتها كاتبة هذه السطور ، فى التخلص مما درس لها فى المدرسة الفرنسية ، من أن الحملة على مصر كانت حملة ثقافية أكثر منها حملة حربية ، وأن مصر محمد على ليست إلا نتيجة حتمية لوجود الجند الفرنسيين مع بونابرت . انظر ملحق ١ .

١٥ ـ يعجب الأستاذ «روبير مانتران» ، فى دراسة عن «الجديد فى التنوير» ، كيف أهمل المتخصصون دراسة التواكب الزمنى للتجديد والإصلاحات فى كل من مصر وتركيا ، التى وصلت إلى حد التنافس بينهما ، ولا نعجب طبعا لهذا التجاهل من قبل الدارسين الغربيين ، بعد

ما قرأناه من كتابات المتخصصين ، فهذا التنافس يعني أن مصر لم تكن بحاجة إلى حملة بونابرت لتدخل الإصلاحات على نظامها ، مثلها في ذلك مثل تركيا وهو ما لابد للمؤرخين المغرضين تجاهله طبعا ، دراسة «مانتران» منشورة في كتاب «المرأة المصرية» ، ص ١٨١ .

Robert Mantran: Le Miroir egyptien ; Marseille, Jeanne Laffitte,1984.

١٦- فيلم «غزاة الكنز المفقود» للمخرج «ستيفن سبيلبرج» ، يحكي البحث عما سرقه الفراعنة من كنز ديني يهودي من المعبد في إسرائيل، كنز موجود في مصر وتريده أيضا ألمانيا النازية . وبعد استمرار العرض لمدة ثلاثة أسابيع ، في ديسمبر ١٩٨٢ ، أصدر مدير عام الرقابة على المصنفات الفنية ، قرارا بوقف عرضه !!

١٧ - François Furet : L 'atelier de l' histoire ; Champs Flammarion,1982.

«ورشة التاريخ» : ص ١١٥.

١٨ - دراسة عنوانها «ميلاد التاريخ» منشورة مع مجموعة أخرى من الدراسات في المرجع نفسه ص ٣٢٠ .

١٩ - جريدة «لوموند»، ٩ مايو ١٩٩٧ Le Monde .

٢٠ - «فوريه» : «ورشة التاريخ» : ص ٣٨.

الملاحق

ملحق ١ : «تاريخ مصر الحديث»

للجزء الأول

ما الذى كانت المدارس الفرنسية بمصر ، تدرسه لتلاميذها قبل أن تغلقها حكومة الثورة ، بعد سنة ٥٦ ؟ لقد لقنتنا تلك المدارس – وكنت من تلميذاتها – اللغة الفرنسية وكأننا من الفرنسيين ، وكنا نحصل على الشهادات الفرنسية ، من «كفاءة» و «بكالوريا» مصدقة من السفارة الفرنسية ، بعد أن تجيء إلى مصر بعثة من الأساتذة الفرنسيين ليمتحنونا فى نهاية كل عام دراسى .

والكتاب الذى نقدمه الآن ، كان مقررا على ما يعادل ، الآن ، السنة الثانية الثانوية وكانت سنة مهمة جدا ، إذ كانت الجزء الأول مما يعادل «الثانوية العامة» .

وقد قرر هذا الكتاب – المطبوع سنة ١٩٤٨ – لتدريس حقبة «الثورة والإمبراطورية» والنصف الأول من القرن التاسع عشر ، لمؤلفيه «ماليه» و «إيزاك» .

ويعد هذ الكتاب من أهم ما درس فى المدارس الفرنسية ، ويرد ذكره كثيرا عند كبار المؤرخين لكونه من تأليف «ماليه وإيزاك» اللذين

كونا الوعى القومى لأجيال من التلاميذ الفرنسيين ، ويكفى ذكر اسم مؤلفيه ، ليعرف القارىء من فوره ما يعنيه ذكرهما. والمؤلفان من المدرسة «الجمهورية الملحدة ، » التابعة للحكومة العلمانية ، وهى من مروجى أفكار ثورة ١٧٨٩ ، التى عاشت فى حرب دءوب مع تعاليم المدارس الخاصة ، التابعة للكنيسة .

أيا كان ، فالمؤلفان لا ينتميان إلى هؤلاء المعجبين بنابليون ، ولا يريان فيه المنقذ الذى حافظ على مبادىء ثورة ١٧٨٩ ، أو أنه كان امتدادا لها .

ولذا ، فلا غضاضة عندهما أن يقولا ببساطة شديدة إن الحملة قد انتهت بالفشل .

وفى الجزء الخاص بتاريخ بونابرت تؤكد ثلاث صفحات تخص الحملة على مصر - أهمية مصر بالنسبة لبونابرت ، الذى عاش عمره يحلم بالسيطرة عليها . وهى لا تتحدث عن مصر ، إلا بسبب وجود بونابرت فيها ، وأهمية هذا الجنرال في تاريخ فرنسا . ولذا ، لن يعرف التلميذ الفرنسي ما الذى حدث للجيش الذى تركه قائده وهو فى «موقف بلا منفذ». ولا تتحدث هذه الصفحات الثلاث ، إلا عن المعارك مع الأتراك والانجليز ، ولا تذكر المصريين ولو بكلمة ، وكأنه لا وجود لهم ، وكأن مصر بلد بلا سكان .

وكان هذا الكتاب ، المطبوع سنة ١٩٤٨ ، لونه أخضر ، وعلى غلافه هلال أحمر مكتوب بداخله : «طبعة خاصة بمصر». سبب ذلك أن جزءا خاصا قد أضيف فى نهاية الكتاب ، عن «تاريخ مصر» يتحدث عن

«محمد على وبدايـات مصر الحديثة ١٧٩٨ - ١٨٤٩» بقلم «شارل بوتاس ، أستاذ بجامعة باريس» .

ما يهمنا هنا ، طبعا هو ما يخص الحملة ، وكيف كان تاريخها يلقن للتلاميذ المصريين فى تلك المدارس ، التى كان يذهب إليها - أيام الملكية - أولاد علية القوم أو من يتشبه بهم، الذين يتخرجون فيها وهم لا يتحدثون حتى العربية ، وإن فعلوا ، فيكون لما بذله الآباء من مجهود ذاتى بعيدا عن المدرسة . وقد شكلت الفتيات الغالبية الساحقة من تلاميذ تلك المدارس الفرنسية - من مدارس علمانية ومدارس رهبان أو راهبات - وهن الفتيات اللاتى يصبحن بعد ذلك أمهات ، يلقن أولادهن ما تعلمنه فى شبابهن ولم يقرأن غيره من كتب علمية .

والحق إن المصريين قد أثبتوا أنهم تلاميذ نجباء ، لا ينسون الدرس، ويعيدونه بعد ذلك بأحسن ما ينتظره المدرس . والمثل أمامنا واضح إذا ما تعمقنا مثلا فى قصص المنفلوطى، المترجم منها، والآخر فهى كلها مستوحاة من القصص المدرسية فى الفصول الثانوية للمدارس الفرنسية، والتى كان يقصها على الشيخ الأزهرى أصدقاؤه من تلاميذ المدارس الفرنسية القدامى وهذا أحسن دليل على أن تعاليم هذه المدارس لا تنسى ، حتى إذا ما كبر التلميذ وأصبح رجلا ناضجا . فهو لا يقرأ ما ينشر من كتب أجنبية حديثة ، وإنما يعيش يجتر ما تعلمه فى شبابه .

ونعود إلى كتابنا ، الذى يحكى تاريخ مصر منذ عهد محمد على، لكنه ، ويا للعجب ، يبدأ بعام ١٧٩٨ ، وبالحملة على مصر، أى قبل حتى

أن يطأ محمد على بقدمه أرض مصر ؛ وذلك على الرغم من أن تأريخ بداية «مصر الحديثة» يبدأ بمحمد على وكان سبب ذلك معروفا لدينا ونحن تلاميذ ، إذ كان معروفا أن محمد على هو الجد الأكبر للملك فاروق ، الحاكم على مصر آنذاك ؛ فلم يكن من اللياقة – أو الدبلوماسية بلغة الكبار البالغين – أن يقول الفرنسيون علانية وعلي غلاف الكتاب إن دوره كان ثانويا فى تحديث مصر، وإن كان قد قيل ذلك صراحة فى داخله ، وقد تكون آخر فقرة تتحدث عن الحملة ، ملخصا شديد البلاغة لفلسفة الكتاب ؛ إذ تقول الخاتمة إن الفوضى عمت مصر بعد رحيل الفرنسيين «ولكن سكان القاهرة تذكروا سنوات الأمان التى عاشوها أثناء الحكم الفرنسى ، فحفزهم ذلك على التحرك ، وأعطاهم قوة المبادرة ، فوجدوا فى شخص محمد على ، القائد الجديد للألبان ، الأداة ، المنشودة ...» (ص ٥٦) .

وهكذا فإن الشعب المصرى ومحمد على كليهما ، مدين للاحتلال الفرنسى ، بما أنجز بعد ذلك ، وتؤكد المدرسة المركسية هذا الكلام فى تحليلها للحدث ، (دون الرجوع إلى «سنوات الأمان» المضحكة) متناسية تماما ، مثلها فى ذلك مثل المؤرخ الفرنسى ، تاريخ مصر السابق على الحملة والذى يدل على أن مصر لم تكن فى حاجة إلى من «يحركها» وخير دليل على ذلك سرعة مقاومة الغازى الفرنسى قبل حتى أن يتحرك المماليك أنفسهم لصد الهجوم المقبل على القاهرة، ناهيك عما كان يحدث من قبل .

ولكن ، كيف وصلنا إلى هذه النتيجة ، التى يؤكدها بثقة شديدة الكتاب المدرسى الفرنسى ؟

★★★

يقدم الكتاب - بادىء ذى بدء - الموضوع بإيجاز شديد قبل الإفاضة فى التفاصيل (على طريقة كتب التاريخ المدرسية الفرنسية)، ويبدأ أول ما يبدأ بقوله إن: «الحملة الفرنسية ، على قصر مدتها (١٧٩٨ - ١٨٠١) أساس التحول المصرى ، بما قدمته من نموذج لخالق مصر الحديثة ، محمد على». وهكذا ، فقد وضعت اللبنة الأولى ، لما يجب أن يلقن للمصريين ، فلولا الحملة ، ما عرف محمد على ما الذى يستطيع أن يفعله لتحديث مصر ، فتكون حتمية هذه الخاتمة : لولا الاحتلال ، ما تحرك شعب القاهرة لوضع محمد على فى مركز السلطة التى سمحت له، بعد ذلك ـ وبفضل النموذج الفرنسى ـ بتحويل مصر إلى دولة حديثة، وما كان ينبغى ، وهو جد الملك الحاكم ، أن يقال إن فرنسا بنفسها هى التى أتمت هذا التحول ، حتى إن كان يقال ذلك بين السطور تارة ، وبشكل صريح تارة أخرى .

ثم ندخل فى التفاصيل . ويتحدث الجزء الأول عن :

«الحملة الفرنسية» : «هدفها» :

«نزل الجيش الفرنسى على أرض مصر فى أول يولـيو سنة ١٧٩٨ ،...، وتركها فى سبتمبر من سنة ١٨٠١ . لم يدم الاحتلال الفرنسى إذن إلا ثلاث سنوات وبعض الأشهر ، ومع ذلك ، فقد كان هذا الاحتلال بداية تحول كامل ، بدل مقاطعة تركية تسودها الفوضى ، إلى دولة قومية حديثة» .

«وبسبب هذا التأثير أن الحملة فى هدفها ، لم تكن مجرد عملية حربية. فقد كان «لحكومة الإدارة» كثير من التقارير والشهادات المرئية، التى جعلتها تقرر بناء مركز استعمارى خصب ، يعيد إلى الزراعة والصناعة ازدهارهما ، ويعيد للتجارة الطريق القديم فى السويس ، ويثرى العلاقات مع إيران ، والجزيرة العربية والهند ، حتى يمكن اكتشاف إفريقيا ، فينتشر إشعاع مصر على الشرق بأكمله ، وقد أعيدت مصر إلى قوتها السابقة بعد أن أصبحت مرتبطة بفرنسا» . (نلاحظ طبعا غياب أى إشارة إلى العداء مع إنجلترا وكيفية ضرب طريق الهند ، وفقدان فرنسا كل مستعمراتها الأخرى قبل ذلك . وكأن الهدف الوحيد من الحملة هو تحويل مصر إلى منارة في الشرق). ونعود إلى ترجمتنا للنص الفرنسي: «من أجل هذا الهدف انضمت إلى الجند ، وتحت قيادة الضابط المهندس «كافاريللى» ، فرقة مكونة من ١٦٧ عالما، ومهندسا، واقتصاديا، وكاتبا ، وفنانا ، بعضهم من المشاهير مثل «مونج» و «برتوليه»، وبعضهم صغار السن جدا مثل «جومار» وهو مهندس فى الحادية والعشرين من عمره ، أو «آميديه جوبير» ، وهو مترجم في العشرين من عمره ، ومعهم مكتبة مراجع بها ٥٥٠ كتابا ، وأدوات علمية من كل نوع ، ومطبعتان ، إحداهما فرنسية والأخرى عربية ، كان كل هذا الرتل ، من الضباط والمدنيين ، متحمسا وعطاء، تحركه الرغبة فى معرفة موسوعية عالمية ، وإيمان لا يقهر فى قوة «التنوير» تستهويه المغامرة ، وكله وفاء لهذه الحرب الصليبية من أجل الحضارة» .

أول ما يلفت النظر طبعا فى هذا الكلام ، أن الحملة ، فى أول صورة لها ، بل وفى تقديمها الوحيد ، تبدو كأنها بعثة استكشاف لا غـير ، فالجند لا يذكرون إلا بكلمة واحدة ، ولا يذكر حتى عددهم ؛ وللعلم، كانوا حوالى خمسة وثلاثين ألف جندى وبحار مقابل مائة وسبعة وستين عالما . لا يذكر عدد الجند ، بل حتى إننا لا ندرك وجودهم ، فسرعان ما يمكن نسيان كلمة «جند» الوحيدة ، مقابل عشرة أسطر ، تقدم بإفاضة بالغة ، فرقة العلماء ومميزاتهم المحببة إلى النفس ، من شباب وإيمان وعطاء سخى للآخرين ، ولا يفوتنا طبعا ملاحظة استعمال كلمة «حرب صليبية من أجل الحضارة» وهى تدل قبل كل شىء على الإيمان الأعمى، إن لم يكن التعصب من أجل شىء يعادل الايمان الدينى والغريب أن هذا الإيمان الذى ، طالما حاربته فلسفة التنوير، يحل محله هنا إيمان من نوع آخر ، هو الإيمان، «بالحضارة» وها نحن نراها تحل محل الديانة المسيحية فى «حرب صليبية» أخرى، وذلك باعترافهم هم أنفسهم ، وما أدل استعمال المفردات بما فى باطن الأمور من حقيقة مخفاة .

ثم ننتقل إلى الجزء التالى وهو عن :

«سياسة بونابرت» :

«ومنذ البداية ، عبر بونابرت فى بياناته إلى أهالى الإسكندرية والقاهرة ، عن السياسة التى ظل وفيا لها على الرغم من الظروف: تحرير الأهالى من الاستغلال الطاغى للمماليك وأعوانهم ؛ تقديس العادات والديانة الإسلامية ؛ تثبيت النظام والعدل . وقد فرض نظاما

صارما على الجند لاحترام المساجد والطقوس القرآنية والممتلكات والنساء ، وكانت طريقته المستمرة هى الاستعانة بالمشايخ والعلماء . لقد اختار أميرا للحج ، وهو رئيس الحجاج ، وضمن سلامة قوافل مكة، واحتفل بكل مناسبات الإسلام . وسرعان ما خلقت السماحة المتبادلة والروح المرحة بين السكان والمحتلين ، نظام حياة مقبول لدى الجميع.

وقد قسمت مصر السفلى والعليا إلى ١٦ إقليما ، على رأس كل منها جنرال حاكم يعاونه ديوان من سبعة أعيان ، وأمين صندوق من الأهالى مسئول عن جباية الضريبة ، ومعه مفوض فرنسى . وفى القاهرة ، كان الديوان مكونا من تسعة مشايخ يجتمعون كل يوم، ومجلس من ١٨٠ نائبا من كل الأقاليم - ثلاثة رجال قانون، وثلاثة تجار، وشيخ بلد ، وفلاح . وقائد من البدو ، لكل إقليم - كانوا يبدون للقائد الأعلى نصائح الحكماء ويعبرون عن شكاوى الشعب ، أما سكرتير هذه المجالس، فكان الشيخ الكهل «محمد المدهى» (المهدى) ، وكان ذكاؤه وكفاءته مساعدين للتعاون المصرى الفرنسى، كما شجع فيما بعد على صعود محمد على . أما فى القرى الصغيرة ، فكان ضابط فرنسى يراقب شيخ البلد والقضاة، دون يجردهم من سلطاتهم. وبالنسبة للمالية، فقد حوفظ على نظام ضرائب العقارات القديم ، بعد تنظيم جبايتها؛ وحوفظ أيضا على العمالة القبطية ، وعلى رأسها موظفون فرنسيون؛ كما كان هناك بعض الضرائب على التسجيل أو نقل الملكية ، وبعد ذلك بعض الضرائب الطارئة على مجموعة أو أخرى من الأغنياء .

وحتى فى الجيش الذى لم يكن يستطيع الاستزادة بإمدادات تأتى إليه من فرنسا ، فقد أدخلت عناصر من الأهالى : كان هناك شباب المماليك والفرقة القبطية ، والفرقة اليونانية، وفرق من المشاة تركب الجمال، من أهل الصعيد ومن السود . كأنها تجربة مبكرة لنظام الحماية التى طبقتها فرنسا بعد ذلك على بعض المستعمرات الأخرى فى نهاية القرن التاسع عشر . وقد امتد الاحتلال إلى مصر العليا الذى استولى عليها «ديسى» بعد حرب دامت ستة أشهر، ثم نظمها «ديسى» بطريقة جعلته يستحق لقب «السلطان العادل» كما أسماه الأهالى. لقد امتد الاحتلال إلى ما بعد أسوان بقليل ، ووصل إلى البحر الأحمر عند ميناء القصير» .

هذه إذن سياسة بونابرت التى أعلنها وظل وفيا لها على الرغم من الظروف ، كما يقول الكتاب . ما أجملها - وكم نفهم مؤيدى الحملة عندما يدرس لهم هذا الكلام ، وما جاء بعده من نيات طيبة ، وحسن المعاشرة. ولكن المشكلة طبعا هى أن طريق الجحيم محفوف بالنيات الطيبة، ولا ينطبق هذا الكلام فقط على ما أسموه هنا «بسياسة بونابرت». ويعجب دارس تاريخ الحملة لمثل هذه التهويمات - بطبيعة الحال - فهو الذى يعرف التطبيق الفعلى «لسياسة بونابرت»، والتفاصيل التى لازمت ذلك العصر. ويعجب القارىء أيضا لكاتب هذه السطور: هل كان يجهل ما كتب عما حدث بالفعل فى مصر ؟ بل وكيف يشوه التاريخ لدرجة أنه يتحدث عن «الحياة المشتركة» بهذه الألفاظ المغالطة مثل «السماحة المتبادلة والروح المرحة» ، فى علاقات عرفنا أنها كانت دائما

علاقات حرب وكراهية ؟ وكيف تناسى مثلا ثورتى القاهرة ، إن كان يجهل ما حدث فى الأقاليم ؟ ولكننا سنرى كيف يتحدث عنهما بعد ذلك، وكأنهما حدثان عارضان لا أهمية لهما ولا دلالة، بعد أن أكد لنا قبل ذلك أن «الروح المرحة» كانت هى السمة الأساسية فى العلاقة بين الغازى والمهزوم . ثم تجىء «حكاية الديوان» تلك الأسطورة الكاذبة التى صدقها المصريون قبل أن يصدقها الفرنسيون ، وكأن بونابرت كان لا يرى فى أى مجلس نيابى، غير أداة للاستماع إلى أوامره ، ثم تطبيقها ، سواء كان ذلك فى مصر أو فرنسا. ولكن المديح فى الشيخ المهدى ، الذى أسموه «المدهى»، يدل على الفور أن المرجع فى هذا الكلام ، هو ما عبر عنه نابليون نفسه من أحلام يقظة عندما كان فى منفاه ، «سانت هيلانة» فى نهاية حياته: أثبت بكلامه آنذاك أنه ، وبعد مرور خمس عشرة سنة صاخبة، من الحروب والانتصارات والهزائم ، لم يعد يرى إلا ما كان مفروضا أن يحدث، حتى يترك للجمهور الفرنسى صورة محسنة من حكمه الدكتاتورى المدمر المستبد، ويبدو كذلك وجود الضباط الفرنسيين فى نصنا المدرسى كمراقبين على رأس كل نشاط مدنى ، أمرا هينا وطبيعيا بل ومستحبا للجميع .

كذلك فإننا نعجب – وما أكثر العجائب - للحياء الشديد الذى يتحدث به المؤلف عن جباية الضرائب خاصة من «بعض الأغنياء» ونرى ، فى هذا النص أيضا ، تأكيداً لأسطورة «ديسى ، السلطان العادل» ، الذى لم نسمع عن عدله قط ، إلا فى النصوص الفرنسية ، والذى لم يتحكم بالفعل يوماً فى مصر العليا ، مما يشرح المفاوضات التى قامت بها بعد

ذلك السلطات الفرنسية مع مراد بك ، الذى لم يهزم ، ولم يطرد يوما من الصعيد .

أما الجزء الخاص «بالإنجازات الاقتصادية» الذى نقرؤه بعد ذلك ، فهو يحكى عن الاحتياجات الفرنسية ، وقد أجبرها الحصار الإنجليزى على البحث بكل الوسائل عن الاكتفاء الذاتى ولن نقف إلا عند جملة واحدة فى أول الأمر : «... وكانت الحراسة الجيدة تضمن أمان الفلاحين مما ساعد على إنجاز عملهم ، هم والصناع» : لن نعلق على هذا الكلام، ويكفينا ما نقرؤه عن العلاقة «الآمنة» بين الفلاحين و «الحراسة الجيدة» ولكن مما لا شك فيه أن الكتاب على صواب عندما يذكر جهل المصريين «بطواحين الهواء التى أدخلها الفرنسيون إلى مصر» ، وقد تكون هذه المعلومة هى المعلومة الصحيحة الوحيدة فى كل ما سرده «أستاذ جامعة باريس» فى مؤلفه هذا .

ومن يعرف تاريخ الحملة بالتفصيل ، يعجب إذ يقرأ : «وكان لابد من إنتاج كل ما يحتاجه الجيش والشعب من أدوات مصنعة ...» : جاءت الجملة غامضة مبتورة ؛ فنحن نتخيل ما كان يحتاجه الجيش بعد الحصار الإنجليزى، ولكن ... الشعب ؟! فلا تفاصيل توضح الجملة، ولا أسماء تشير إلى نوعية هذه «الأدوات المصنعة»، وكان من أهمها ملابس للجند ، وبارود لمدافعهم ، ناهيك عن النبيذ الذى لا يستطيع الفرنسى أن يعيش بدونه . والحقيقة أن الفرنسيين عاشوا - كما تقول الوثائق - بما كان المصريون يصنعونه لأنفسهم ، فاستعانوا بهم وبإنتاجهم، وإن كانوا قد طوروا بعضه ليلائمهم ؛ وانتهى هذا التطوير مع رحيلهم، لأن الشعب

المصرى كانت له احتياجات أخرى . ولكن، كان لابد من الإيحاء بأن المصريين عرفوا بفضل المهارة الفرنسية، ما كانوا يجهلونه قبل مجيئهم، فكانت الجملة التالية : « وخلق كونتيه ، ... ، عشرات الورش فى القاهرة، وملحقات لها فى بولاق والجيزة، وفى جزيرة الروضة ...» ؛ ومن يعرف تفاصيل إنتاج هذه الورش ، يعرف أنها كانت كلها مخصصة للاستهلاك الحربى الفرنسى . وكانت الظروف تحتم عليهم ذلك ، وعرفوا كيف يتصرفون ، ولكن لماذا الادعاء بأن ذلك كان ايضا لسد احتياجات «الشعب» ؟.

ثم يتحدث الكتاب بعد ذلك عن «الإنجاز الثقافى» ويقول بادئ ذى بدء :

«إن أكثر الإنجازات ابتكارا وخصوبة ، كان فى مجال الثقافة وكان العمل كله يدار فى «معهد مصر» ، الذى أنشئ فى الثانى والعشرين من أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وقد قسم إلى أفرع للرياضيات ، والفيزياء ، والاقتصاد السياسى ، والفنون والآداب ، وله سكرتير دائم هو جوزيف فورييه : كانت الاجتماعات تعقد فى قصرين فخمين من قصور البكوات الفارين ، وكانت له ندوات قراءة ، ومناقشات تستمر فى الحدائق ، كان بونابرت يشترك فيها ، وكان المثقفون المصريون يستقبلون بسرور، (ثم تأتى هنا ترجمة لما قال الجبرتى فى هذا الصدد)، ولكن عندما عرض على الشيوخ بعض تجارب الفيزياء والكيمياء ، لم يبد هؤلاء أى نوع من الاهتمام ، مما عجب الفرنسيون له» : أما هذا النشاط الثقافى ، فلم نر منه إلا نشاطا فرنسيا بحتا ، عرض بعضا من تجاربه على المصريين، وكان هذا العرض من اختصاص لجنة وظيفتها استقبال المصريين،

والقيام بدور المرشد لهم ، كما يحدث للجمهور عادة فى فرنسا. ولم يشترك المصريون طبعا فى أية مناقشة كما يوحى الكلام بذلك، وكيف كان لهؤلاء أن يشتركوا فى مناقشات لا يفهمون لغتها من جهة، وتتحدث عن علوم لا دراية لهم بها من جهة أخرى ؟ وقصة ما قام به العلماء الفرنسيون من تجارب كيميائية أمام الشيوخ ، قصة غاية فى الطرافة ، لم تحك هنا طبعا ، وهى أن العلماء الفرنسيين جعلوا - ذات مرة - المواد تتنافر، فأحدثت دويا هائلا ؛ غير أن أحدا من الشيوخ لم يتحرك، أو يهتز، وكأنهم فهموا أن الهدف هو إخافتهم وعندما رأى بونابرت الذى كان حاضرا ، أن الشيوخ لم يعجبوا حتى لما رأوه وسمعوه من دوى، مما يدل على أنهم ليسوا مثل الهنود الحمر ، ثار بونابرت ثورة عظيمة لعدم مبالاة العلماء الفقهاء ، بما كان مفروضا أن يرعبهم ، أو على الأقل، يبهرهم . وهذه القصة – أو بالأصح ثورة بونابرت – أحسن دليل على أن عرض ما كان لدى الفرنسيين من أدوات، أو استعراض بعض تجاربهم الباهرة، لم يكن هدفها تعليم أو «تنوير» المصريين، بقدر ما كان وسيلة للسيطرة على عقولهم، بأن يثبتوا لهم أنهم جهلاء ؛ وبالتالى، فالسلطة لابد أن تكون مع العلماء الأجانب، ولو أن الهدف كان التعليم، لأقاموا مدرسة لشباب المصريين، كما أقاموا فرقة من الأقباط فى الجيش الفرنسى . ونعود إلى ما يقوله الكتاب المخصص لتلاميذ مصر بالذات :

«وكانت هناك لجنة العلوم والفنون ، التى أخذت فى دراسة متحمسة للبلد فى كل مظاهره من حياة سابقة أو حاضرة . كان أعضاؤها

يذهبون فى مجموعات مكونة من اثنين أو ثلاثة من العلماء ، وأحيانا فرادى ، وعلى الرغم من الحرارة الشديدة والمخاطر العديدة ، إلا أنهم انتشروا فى مصر كلها، يسجلون ويكتبون كل الخصوصيات العلمية والجغرافية والعرقية والأثرية التى يقابلونها . كانت مصر القديمة تبهر كل الرجال من علماء وغيرهم ..

وفي رشيد، في التاسع عشر من يوليو سنة ١٧٩٩ ، اكتشف المواطن بوشار، حجرا عليه حفر بثلاث لغات، سمحت فيما بعد لشامبليون أن يفك رموز اللغة الهيروغليفية سنة ١٨٢٢ . وكانت هناك مطبعتان إحداهما خاصة والأخرى قومية (هكذا) ، تحت إدارة ج.ج. مارسيل، كانتا تنشران الدراسات والنتائج المصورة ، وجريدة لى كوريبه ديجبت ومجلة لا ديكاد إيجيبسيان » .

لم يقولوا طبعا إن كل هذا الإنتاج كان باللغة الفرنسية، و لا أنهم أخذوا معهم المطبعتين عند رحيلهم، مما جعل كثيرا من المصريين يظن أن مطابع محمد علي، بعد ذلك، كانت امتدادا للمطابع الفرنسية.

ولكن الكتاب أخذ يقص علينا حزن الفرنسيين عندما أراد الإنجليز أن يستولوا ، بعد انتصارهم ، على كل إنتاجهم العلمى . فكانت هذه الفقرة التى أظنها قد تسببت فيما بعد ، فى بناء أسطورة كتاب «وصف مصر» :

«وقد كتب جيوفرا سنت - هيلار إلى كوفييه فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٧٩٩ قائلا : «آه يا صديقى ! لقد جمعنا وثائق أجمل كتاب يمكن أن تنتجه أمة . وعندما سنبكى على المصير المجهول لكل هؤلاء المحاربين الشجعان ، الذين سقطوا فى مصر بعد كل هذه

المعارك المجيدة ، سيكون عزاؤنا الوحيد فى وجود مثل هذا العمل الثمين» . وهذا الكتاب هو كتاب وصف مصر العملاق ، الذى نشر تحت رئاسة جومار . فى تسعة أجزاء ، بها تسعمائة لوحة وأربعة آلاف رسم، ظهرت على خمس مراحل ، من عام ١٨٠٨ إلى عام ١٨٢٥ » .

وهكذا ، جاءت هذه الجملة ، لأحد العلماء ، تمجيدا لعمله هو وزملائه إلى أقصى درجة ، حتى أنه يرى أن عملهم هذا يعوض وفاة الآلاف من الضحايا .

وننتقل بعد ذلك إلى الجزء الذى يقيم النتائج :

«النتائج» :

«مثل هذا النشاط الخلاق ، كان أهلا لأن يقلب الخمول المصرى» هكذا ! وكأن أهل مصر فى ذلك العصر ، كانوا شاهدين لهذا النشاط الذى يدور بين جدران المعهد ، أو على أوراق الباحثين . والحقيقة ، التى رأيناها فى صفحات «دينون» التى عرضت على القارىء تقول إن من شاهد هذا النشاط ، هم الفلاحون الذين يحاربون الفرنسيين أو يقاسون من ظلمهم . ونلاحظ بالمناسبة ، أن الكتاب لم يتحدث حتى الآن، عن ثورتى القاهرة – وقد تكونان من تأثير النشاط الفرنسى على خمول المصريين أيضا !– وكذلك لم يتحدث عن المقاومة المستميتة فى أعالى مصر وفى الدلتا ؛ فهو لم يذكر حتى الآن إلا الإنجازات العلمية والمدنية للعلماء ، وكأنهم حضروا وحدهم فى رحلة استكشاف علمى ، لا يحرسهم مثلا إلا قلة من الجند ، قلة لم نسمع عنها كلمة واحدة حتى الآن، غير أن أفرادها كانوا يعيشون فى وفاق تام و «روح مرحة» مع

الشعب المصرى ، الذى تقبلهم برحابة غريبة . ولكن هذا الصمت ما كان يمكن له أن يدوم ، فالحقائق أقوى من أى تعتيم . وإن كنا نبدى إعجابنا بالدقة فى اختيار الصياغة التى تغلف هذه الحقائق ، حتى يقتنع التلميذ أن الأمور كانت تسير وفق مبدأ «ليس فى الإمكان أبدع مما كان» . وهكذا، سنرى كيف كان أجدادنا مخطئين فى رفضهم - المحدود جداً كما سنلاحظ - الاندماج مع هؤلاء الأغراب . ونعود إلى النص نفسه حتى لا تفوتنا كلمة واحدة منه:

«مثل هذا النشاط الخلاق كان أهلا لأن يقلب الخمول المصرى ..»

وتكون المفاجأة : إنه سيتحدث فعلا عن ثورتى القاهرة . إنهما فعلا نتيجة النشاط الفرنسى، وليس بسبب حب المصريين لحريتهم أو لرفضهم لأى استعمار أجنبى . والدارس لصياغة الحديث هنا ، يعجب لطريقة تقديم ما سيأتى من الحديث عن هاتين الثورتين . فالحديث يبدأ وكأن ما سيحدث خيرا، فهو تحريك الخمول بفضل النشاط العلمى للفرنسيين . ثم مرة أخرى ، الحياء الشديد فى اختيار المفردات ، التى تمهد لحدث يدل بشكل قاطع ، على أن كل ما سبق كاذب فى حقيقته . ولنر كيف تقدم الأحداث الرافضة للوجود الفرنسى فى أعنف صورها .

«بعض الأخطاء الحمقاء فى الشكل صدمت العادات والمعتقدات»

لاحظ الانتقاء الموفق للكلمات : «بعض الأخطاء الحمقاء فى الشكل ..» فالفرنسيون لا يمكنهم أن يخطئوا فى الجوهر ، وكم كانت قليلة تلك الأخطاء ؛ ولم تكن جسيمة ، بل حمقاء !

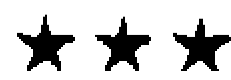
«بعض هذه الأخطاء ، مثل تحطيم الأبواب التى كانت تغلق الشوارع ليلا ، أو ارتداء الوشاح ذى الألوان الثلاثة (وشاح الثورة الفرنسية) الذى أجبر عليه الأعيان (ومن المؤكد أن هذا الحدث بالذات محض كذب وافتراء إذ رفض المشايخ بشدة ارتداءه مما أثار ثورة بونابرت، ولكنه أذعن لرفضهم، بعد ذلك) وقطع العلاقات مع السلطان الذى كذب السياسة المسلمة لبونابرت ، وجاءت بعض المصالح التى أضيرت، معاكسة لمحاولات الاندماج، مما ترتب عليه قيام ثورتين دمويتين فى القاهرة ، وإن كانتا محصورتين بصورة ضيقة جدا فى بعض الجماعات، (ونكرر هنا إعجابنا بالصياغة ، وانتقاء المفردات لتفريغ الحدث من مضمونه)؛ ثورتان قامت إحداهما فى اليوم الثانى لإعـلان الحرب على تركيا، أى فى الحـادى والعشرين من أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، وقامت الأخـرى عند تقـدم الجيش التركى نحو العاصمة فى إبريل سـنة ١٨٠٠ ، وقد أكدتا أن ثمة شعور عدوانى يظل قائما» .

وتبدو المفارقة هنا صارخة ، بعد الذى قرأناه عن الجو المرح الذى يسود العلاقات المصرية الفرنسية من جهة ، وأن الثورتين محصورتان فى حدود ضيقة جدا ، من جهة أخرى . أيا كان ، فقد حدثت «أخطاء حمقاء» مما يفسر التغير فى العلاقات «الودية المرحة» . ولكننا ، وبعد هذا الاعتراف لن نجد سطرا واحدا يبين كيف رد الجيش - الذى لم يذكر عدده حتى الآن - على هاتين الثورتين ؛ كما ساعدت الصياغة الماكرة على ربط الدولة العثمانية بالثورتين ، فبرىء الشعب المصرى

منهما ، وكأنه كان مغلوبا على أمره فيهما ، وقد تأكد ذلك بالفعل فيما يخص الثورة الثانية بالذات .

ونعود إلى النص المذكور: «أيا كان فثمة نوع من الروح الانهزامية زعزعت الجيش بعد رحيل بونابرت ، وذهب الأمر إلى حد التمرد فى حامية العريش فى ديسمبر ١٧٩٩ . استمر كليبر أولا ، دون حماس شديد ؛ ومن بعده مينو ، ولكن بإيمان قوى ، بمشروع «السلطان الكبير» (أى بونابرت كما كان المصريون المعجبون به يسمونه - على حد قول الفرنسيين) ، وقد حطمت اتفاقية التسليم فى ١٨٠١ هذا المشروع، ولكنه ترك آثارا لا تمحـى» : وفى الكتاب خط تحت هذه الكلمات الأخيرة .

«لقد أدمج مصر فى الفكر الفرنسى ؛ وجعل مصر على اتصال بالحضارة الغربية ، لقد جعل مصر تتعرف على هويتها؛ كما أنه لفت نظر رجل ذى ذكـاء لماح ، كان إذاك ضائعا فى صفوف الضباط الأتراك ، وهو محمد على » .



ننتقل بعد ذلك إلى تاريخ محمد علي ، ونذكر مرة أخرى أنه كان جد الملك الحاكم آنذاك ، ولابد من احترامه بل وتمجيده .

وما كان ينبغي للكتاب الفرنسي طبعا أن يشذ عن هذه الروح ، لكنه أثبت قبل ذلك ، أنه لولا الجيش الفرنسي- وكأن الحملة بعثة استكشاف علمية بحتة - ولولا بونابرت ، ما جاء محمد على ، ولا عرف ماذا يفعل . ولكن حملات محمد على العسكرية كانت ذات طابع خاص ، يختلف عن

الحملات الفرنسية ، فنحن نقرأ : «ومع الأسف أن هذه الحملات كانت تسير حسب المنهج التركى من عنف ، وقتل وحرائق وسلب ونهب» (ص ٦٥) . ويجدر بنا أن نقول هنا كلمة حق ، لا دفاعا عن الأتراك ، وقد قاسى المصريون الكثير من قسوتهم ، ولكن من أجل الحقيقة التاريخية الموضوعية ، ولولا الملامة ، لظن القارىء أن مؤلف هذا الكتاب المدرسي - المتجنى على «المنهج التركى» فى حملات ذلك العصر- لم يقرأ صفحة واحدة من تاريخ الجيوش الأوربية آنذاك ، بل عن تاريخ الجيوش الفرنسية نفسها .. وفى داخل فرنسا نفسها أيضا ، أثناء الحرب الأهلية ، المسماة بحرب «الفانديه»، وفى المقاطعات الرافضة للحكم المركزى .

ولو أننا استثنينا هذه السطور العنصرية ، وتجاهلنا ما فيها من غمز ولمز ضد كل ما هو شرقى كعادة أغلب الكتاب الغربيين عندما يتحدثون عن الشرق ، ورجعنا إلى قراءة تحاول جهدها أن تكون موضوعية ، لدهشنا لما نراه يبسط أمامنا .

المفاجأة ... المفاجأة الكاملة ، خاصة إذا ما رجعنا إلى ما انتهى إليه الجزء الخاص بالحملة ، وسبق تقديمه ، عن: «سكان القاهرة الذين تذكروا سنوات الأمان التى عاشوها أثناء الحكم الفرنسى»، وأن: «الحملة الفرنسية، ... ، أساس التحول المصرى، بما قدمته من نموذج لخالق مصر الحديثة ، محمد على» ، فالصفحات التى تتحدث عن محمد على وإنجازاته ، تبدو كأنها بقلم شخص آخر غير الذى خط السطور السابقة ، وعرض علينا تلك الأفكار. فما من كلمة تشير إلى الوجود

الفرنسى السابق ، وما تركه لمحمد على ، سواء كميراث أو كنموذج يحتذى به . على العكس تماما . وكأنه ، شأن كل من يتحدث عن آثار الحملة ، عندما ينتقل من الشعارات الإنشائية ، مثل: «أدماج مصر فى الفكر الفرنسى»، أو: «الآثار التى لا تمحى» أو: «النشاط الخلاق الذى يقلب الخمول المصرى» ، عندما ينتقل من هذه الشعارات كى يرينا تلك الآثار رأى العين ، والقلم فى يده والصفحة تنتظر البرهان ... لايجد شيئا ملموسا يتحدث عنه ، بعد تأكيده على أن الحملة قد تركت لمحمد على مثلا يحتذى به . وإذا به يناقض نفسه !

فجأة ، نجد نظرة موضوعية غير مألوفة فى أحكامها ، إذ نقرأ هذا المقطع الذى يبدو غريبا بعد ما قرأناه : «لم يكن (لمحمد على) خطة منظمة ، وكذلك لم يكن ينقل من الخارج : ولذا ، كان عمله ناجحا ، فقد كان ينبع من الواقع ، كما تحكمت فيه الظروف ، ولإنجازاته تشابه كبير مع ما فعله بونابرت ، والسبب هو أن المشاكل نفسها قد قابلته ، ولم يكن لتلك المشاكل إلا نفس الحلول» (ص٦٨) . وبعد هذا الاعتراف الخطير ، نقرأ فى الصفحة التالية : «وعلى الرغم من أنه كان مصلحا جسورا ، إلا أنه لم يمس القانون الأخلاقى أو الدينى ؛ فقد أبقى على القرآن كشرع اجتماعى وقانونى . ولم يجعل من المجتمع والدولة حكما علمانيا. وكان يحترم سلطة علماء الأزهر إلى أبعد حد ...» (ص٦٩). ويدحض هذا الاعتراف كل ما قيل عن تأثير الفكر الفرنسى على المصريين ، وهاهو أول دليل أمامنا ، فتشريعات بونابرت إذن ، ومينو على وجه الخصوص ، التى نسخت عن القانون الفرنسى ، لم تستمر

بعد رحيل جنود الحملة ، بل ولم يحاكها محمد على . ولكن الأسطورة لا تموت بسهولة ، كما يقول المثل الفرنسى ، فعلى الرغم من ذلك كله ، نقرأ : «إن محمد على لم يعد إلى المؤسسة الفرنسية بشأن المجالس النيابية» ؛ أى على الرغم من أن تلك المجالس كانت، كما رأينا ، دائما تحت إمرة ضابط فرنسى ، أيا كان حجمها ، فالمؤلف يصر على أنها كانت مجالس نيابية تمثل الشعب المصرى ، وكان على محمد على أن يقلدها ! مع أن بقية الجملة تؤكد أن محمد على لم يختلف عن الفرنسيين ، أو عمن سبقهم من حكام المماليك، عندما كان – على حد قول المؤلف – «يجتمع عند الضرورة، وعند عرض المسائل المهمة ، بديوان المتخصصين أو الأعيان» (ص٧٠). وكما قرأنا فى كتب فرنسية كثيرة ، أن تشريعات مينو ، خاصة فى مجال القضاء ، قد غيرت وجه مصر ، إلا أن كاتبنا يعترف أن محمد على: «احتفظ بالمحاكم التقليدية، وبرئيسها «القاضى» (أى قاضى القضاة) ، كما احتفظ الحرفيون بمشايخهم ..» .

ولكننا نلاحظ بعد ذلك – والأمر هين – أن هناك تركيزا كبيرا على أسماء كل من استأجرهم محمد على من الفرنسيين، لخلق دولة حديثة، مثل المهندس «لينان دى بلفون» أو «موجل» .

ونحن نعرف طبعا ما قام به كلوت بك و«الكولونيل سيف» من خدمات ، وهما فى خدمة محمد على ؛ كما يؤكد الكتاب أن محمد على أرسل مائة وأربعة عشر طالبا إلى فرنسا . ونحن نعرف أنه أرسل ، أول ما أرسل طلبته ، إلى إيطاليا ، إذ لم تكن فرنسا هى المتحكمة الوحيدة فى تصدير العلم إلى مصر . أيا كان فبعد أن شرحت سياسة محمد

على وإنجـازاته ، وما قامت به الحكومة الفرنسية من مساندة له ، تجىء خاتمة هذا الجزء من الكتاب ، على ما كنا نتـوقعه طبعا. وكل هذا الجزء الـذى نترجمه تحته خط فى الكتاب حتى يدرك التلميذ أهمية الكلام، إذ يؤكد : «أن إرادته القـوية أعادت، دون أدنى شك ، خلق مصر ؛ لقد فعل ما هو أفضل من إعـادة تشكيل الأجساد ، لقد أيقظ روحا» (ص٨٨) . «لقد ترك محمد على أسرة حاكمة ، وبرنامجا وتقاليد. لقد كان شرفا لفرنسا أنها فهمت ذلك ، ونصحته وساعدته» (ص٨٩) .

ونحن لسنا بصدد مناقشة هذا الكلام الأخير فى بحثنا هذا ، إنما جملة الكلام أن ما نقرؤه هنا منطقى بل منتظر فى مصر ١٩٤٨ ، عندما كان المجتمع الراقى لا يتحدث العربية ، وكانت الفرنسية هى لغة علية القوم ، وكان الاحتلال إنجليزيا ، وبالتالى ، كان الصديق الأجنبى هو فرنسا .

وعلى عادة كتب التاريخ هذه ، ففى نهاية كل فصل ، ببليوغرافيا لأهم الكتب التى عالجت الموضوع المطروح . ولن نعجب إذا وجدنا مذكرات «فيفان دينون» التى ترجمنا منها صفحات كثيرة ، نجدها لأهميتها ، تتبوء المركز الأول فى أسماء أهم المذكرات التى كتبها أفراد عاصروا الحملة، بل واشتركوا فيها . وندرك ، بداهة، بعد ما قرأناه عن «الروح المرحة» التى كانت تسود العلاقة بين المحتلين والشعب المصرى أن مؤلفنا فى قراءته لتلك المذكرات الشهيرة ، أسقط من حسابه كلية الصفحات التى تشرح لنا باستفاضة ، نوعية العلاقة الحقيقية التى كانت تربط بين الحاكم والمحكوم .

ومن بعد أن يدلنا هذا الكتاب على أهم الكتب التى تناولت الموضوع، فإنه ينشر بعض المقتطفات من كتب قد يهتم بها من أراد الاستزاده.

فبعد دراسته «لمحمد على وبداية مصر الحديثة ١٧٩٨ - ١٨٤٩»، نجده يقدم لنا - مثلا - صفحة من كتاب «جيرار دى نرفال» الشهير، «رحلة إلى الشرق» تصف «عودة الحجاج إلى القاهرة»؛ ثم صفحتين عن «السان - سيمونيين»، سنعود إليهما؛ ثم نصف صفحة عن رأى أحد المسافرين الفرنسيين الذين قابلوا «محمد على وهو فى الثالثة والسبعين» من عمره؛ ثم «رأى أحد الإنجليز فى محمد على»، وهو تقرير من القنصل الإنجليزى فى ذلك العهد.

أما الصفحتان السابق ذكرهما فهما عن «السان - سيمونيين وبناء قناطر الدلتا» وهما مأخوذتان عن كتاب ظهر فى باريس سنة ١٩٣٠ بعنوان «السان - سيمونيون ١٨٢٧ - ١٨٣٧» لمؤلفه «هـ .ر.دالمانيى»؛ ويتحدث جزؤه الثانى عشر عن رحلتهم إلى مصر وأعمالهم فيها.

ونجد فيما تم اختياره ليقدم للتلاميذ، بعض الأسطر أظنها غاية فى الأهمية بالنسبة لنا فهى تقص علينا كيف اجتمع المهندسون الفرنسيون «السان سيمونيون» فى ليلة الخامس عشر من أغسطس ١٨٣٤، ليحتفلوا بعيد ميلاد نابليون.

والمعروف أنهم من أشد المعجبين به، بل كادوا يقدسونه، ونلاحظ طبعا أنهم يقدسون «نابليون» أى الإمبراطور، وليس «بونابرت الجنرال الجمهورى» الذى كان يحارب باسم مبادئ الثورة الفرنسية.

اجتمعوا إذن فى ذكرى ميلاده، ودعوا بعض المسئولين من الحكام وكان من بينهم «سليمان باشا» أى «الكولونيل الفرنسى سيف» سابقا، الذى كان من ضباط الجيش الإمبراطورى أثناء حكم نابليون، وقد سرحه الحكم الملكى فى فرنسا بعد ذلك طبعا، فبحث عن عمل له فى مصر.

ولنعد إلى النص الذى يقول: إن الفرقة جاءت لتحتفل بعيد ميلاد نابليون «فى القناطر حيث المكان الذى اختاره الرجل العظيم (يقصد نابليون) كمركز لمقادير مصر المستقبلية ...» (ص٩١). وفى الصفحة التالية أخذ يسرد ما قيل أثناء الاحتفال، وعدد زجاجات النبيذ التى شربت وأصنافها ويعلق الكاتب قائلا: «ان واحدا فقط من بين الأتراك قد سكر أما الباقون، فقد نالوا نصيبهم، وأثبتوا أنه يمكن التفاهم معهم». ثم نتعرف على أسماء من شربت بأسمائهم الأنخاب، وكان من بينهم السيدة مريم العذراء (عليها السلام)، فعيدها هى أيضا فى الخامس عشر من أغسطس «وفى وسط العشاء، قدم سليمان نخب نابليون وقدم فى النهاية أيضا نخب محمد على. مغزى كلمتى النخبين أن محمد على كان المنفذ لوصية نابليون لأن نابليون كان قد ترك بصمته على مصر بيده القوية، بينما استولى محمد على عليها ليحمى مصالحها التى كان نابليون قد أعدها ....». وينتقل الوصف بعد ذلك إلى الاحتفال بوضع حجر الاساس فى مدرسة المهندسخانة ونرى مرة أخرى: «سليمان يطبع على اللياط حرف نون كبير، وبعد وضع

الحجر، ينقش على سطحه نون – ميم عين، أى نابليون – محمد على...» (ص٩٢) وهكذا نرى كيف كانت أسطورة محمد على المنفذ لتوجيهات بونابرت تنسج على يد سليمان باشا و «السان – سيمونيين»، الذين لم يعاصروا الحملة، وكان من أهم أهدافهم تمجيد اسم نابليون، الإمبراطور الاستعمارى، فيكون لوجودهم شرعية مستمدة من تاريخ مصر، وقد مر أكثر من ربع قرن على وجود بونابرت بمصر.

وهكذا ينتهى الجزء المخصص لمحمد على ونحن نرى الآراء تتضارب وتتناقض، وكأن الحياء وحده هو الذى يمنع مؤلفه من الإفصاح عما يراه من فضل للحملة على محمد على، بعد أن أكد فضائلها على «الخمول المصرى» والسبب طبعا كما سبق أن قلنا الدبلوماسية التى كانت تمنع الفرنسيين من الإقلال من شأن محمد على ومن فضله هو على مصر.

ولكن تاريخ مصر الحديثة بدأ بسنة وصولهم إلى مصر ١٧٩٨ ... وكم من تلميذ نجيب يعيد هذا الدرس ويكرره إلى اليوم، حتى بعد أن اعترف المؤرخون الفرنسيون المحدثون أنفسهم بخطأ هذه النظرة التى تلقب «برؤية الحقبة الاستعمارية» .

ملحق٢ : الجبرتى

للجزء الأول

ترجمة «كاردان» لحوليات الجبرتى التى نشرت سنة ١٨٣٨، هى التى عرفها - إن قرأها - أغلب من كتب عن بونابرت والحملة، قبل الترجمة الجديدة المنشورة فى ١٩٧٩. وكانت الترجمة القديمة غير دقيقة فى ترجمتها - وهذا أضعف ما يقال! - للأسباب السياسية التى جعلت «كاردان» يقدمها لجمهوره الفرنسى آنذاك، كما سبق أن ذكرنا.

والصفحات التالية للجبرتى لخصت باقتضاب شديد، وقد ألغى كل وصف يعبر عن جمال المبانى المهدمة، فهى صفحات لا تشرف الوجود الفرنسى فى مصر بالطبع، لما أزالوه من روائع تدل على عظمة التراث المعمارى لقاهرة الماضى.

وبديهى، من الكلام الذى سنقرؤه، أن الفرنسيين لم يكن لهم إلا هدف واحد، هو حماية القوات المحتلة المستعمرة، وتأمين حياتهم من غضب الأهالى، من هذا المنطلق، كان ما بنوه لأغراضهم الدفاعية. وقد أهمل، كل من قرأ الجبرتى، هذه الصفحات على أهميتها لما تفضح من تخريب للقاهرة أثناء الوجود الفرنسى، كما أهمل ما قيل فى أول الكتاب عن سرقتهم لكل الكتب القيمة الموجودة بالقاهرة. لذا رأينا أهمية عرضها على القارئ، مادمنا نحاول معرفة ما خفى أو أخفى عن الحملة الفرنسية على مصر.

يقول الجبرتى :

«وانقضت هذه السنة بحوادثها وما حصل فيها، فمنها توالى الهدم والخراب وتغيير المعالم وتنويع المظالم، وعم الخراب خطة الحسينية خارج باب الفتوح والخروبى؛ فهدموا تلك الاخطاط والجهات والحارات والدروب والحمامات والمساجد والمزارات والزوايا والتكايا وبركة جناق وما بها من الدور والقصور المزخرفة وجامع الجنبلاطية العظيم بباب النصر وما كان به من القباب العظام المعقودة من الحجر المنحوت المربعة الاركان الشبيهة بالأهرام والمنارة العظيمة ذات الهلالين. واتصل هدم خارج باب النصر بخارج باب الفتوح وباب القوس إلى باب الحديد حتى بقى ذلك كله خرابا متصلا واحدا، وبقى سور المدينة الأصلى ظاهراً مكشوفا فعمروه ورموا ما تشعث منه وأوصلوا بعضه ببعض بالبناء، ورفعوا بنيانه في العلو وعملوا عند كل باب كرانك وبدنات عظاما وأبوابا داخلة وخارجة وأخشابا مغروسة بالأرض مشبكة بكيفية مخصوصة وركزوا عند كل باب عدة من العسكر مقيمين وملازمين ليلا ونهارا ثم سدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية وباب المحروق وأنشأوا عدة قلاع فوق التلال البرقية ورتبوا فيها العساكر وآلات الحرب والذخيرة وصهاريج الماء وذلك من حد باب النصر الى باب الوزير وناحية الصوة طولا فمهدوا أعالى التلال وأصلحوا طرقها وجعلوا لها مزالق وانحدارات لسهولة الصعود والهبوط بقياسات وتحريرات هندسية على زوايا قائمة ومنفرجة وبنوا تلك القلاع بمقادير بين أبعادها وهدموا أبنية رأس الصوة حيث الحطابة وباب الوزير تحت القلعة الكبيرة وما بذلك

من المدارس القديمة المشيدة والقبات المرتفعة وهدموا أعالى المدرسة النظامية ومنارتها وكانت فى غاية من الحسن وجعلوها قلعة ونبشوا مابها من القبور فوجدوا الموتى فى توابيت من الخشب فظنوا داخلها دراهم فكسروا بعضها فوجدوا بها عظام الموتى فأنزلوا تلك التوابيت وألقوها إلى خارج، فاجتمع أهل تلك الجهة وحملوها وعملوا لها مشهدا بجمع من الناس ودفنوها داخل التكية المجاورة لباب المدرج وجعلوا تلك المدرسة قلعة أيضا بعد أن هدموا منارتها أيضا وكذلك هدموا مدرسة القانبية والجامع المعروف بالسبع سلاطين وجامع الجركسى وجامع خوند بركة الناصرية خارج باب البرقية، وكذلك أبنية باب القرافة ومدارسها ومساجدها وسدوا الباب وعملوا الجامع الناصرى الملاصق له قلعة بعد أن هدموا منارته وقبابه وسدوا أبواب الميدان من ناحية الرميلة وناحية عرب اليسار وأوصلوا سهور باب القرافة بجامع الزمر وجعلوا ذلك الجامع قلعة وكذلك عدة قلاع متصلة بالمجراة التى كانت تنقل الماء إلى القلعة الكبيرة وسدوا عيونها وبواكيها وجعلوها سوراً بذاتها ولم يبقوا منها الا قوصرة واحدة من ناحية الطبى جهة مصر القديمة جعلوها بابا ومسلكا وعليها الكرنك والغفر والعسكر الملازمين الاقامة بها ولقبض المكس من الخارج والداخل وسدوا الجهة المسلوكة من ناحية قنطرة السد بحاجز خشب مقفص وعليه باب بقفل مقفص أيضا وعليه حرسجية ملازمون القيام عليه وذلك حيث سواقى المجراة التى كانت تنقل الماء إلى القلعة وحفروا خلف ذلك خندقا.

وأما ما أنشأوه وعمروه من الابراج والقلاع والحصون بناحية ثغر الاسكندرية ورشيد ودمياط وبلاد الصعيد فشيء كثير جدا وذلك كله في زمن قليل.

ومنها تخريب دور الازبكية وردم رصيفاتها بالاتربة وتبديل اوضاعها وهدم خطة قنطرة الموسكى وما جاورها من اول القنطرة المقابلة للحمام إلى البوابة المعروفة بالعتبة الزرقاء حيث جامع أزبك وما كان في ضمن ذلك من الدور والحوانيت والوكائل وكوم الشيخ سلامة فيسلك المار من على القنطرة في رحبة متسعة تنتهى الى رحبة الجامع الازبكى وهدموا بيت الصابونجي ووصلوه بجسر عريض ممتد ممهد حتى ينتهى الى قنطرة الدكة وفي متوسط ذلك الجسر ينعطف جسر آخر إلى جهة اليسار عند بيت الالفى حيث سكن سارى عسكر ممتد ذلك الجسر إلى قنطرة المغربى ومنها يمتد إلى بولاق على خط مستقيم إلى ساحل البحر حيث موردة التبن والشون وزرعوا بحافتيه السيسبان والأشجار وكذلك برصيفات الأزبكية وهدموا المسجد المجاور لقنطرة الدكة مع ما جاوره من الابنية والغيطان وعملوا هناك بوابة وكرنكا وعسكراً ملازمين الاقامة والوقوف ليلاً ونهاراً وذلك عند مسكن بليار قائمقام وهى دار جرجس الجوهرى وما جاوره وكان فى عزمهم ايصال ما انتهوا إلى هدمه بقنطرة الموسكى إلى سور باب البرقية ويهدمون من حد حمام الموسكى حتى يتصل المهدوم بناحية الاشرفية ثم إلى خان الخليلى إلى اسطبل الطارمة المعروفة الآن بالشنوانى إلى ناحية كفر الطماعين إلى البرقية ويجعلون ذلك طريقاً واحدا متسعا وبحافتيه الحوانيت والخانات وبها أعمدة وأشجار وتكاعيب وتعاريش وبساتين من أولها إلى آخرها

من حد باب البرقية إلى بولاق فلما انتهوا فى الهدم إلى قنطرة الموسكى تركوا الهدم ونادوا بالمهلة ثلاثة أشهر وشرعوا فى أبنية حوائط بحافتى القنطرة ومعاطف ومزالق إلى حارة الافرنج وحارة النباقة وذلك بالحجر النحت المتقن الوضع وكذلك عمروا قناطر الخليج المتهدمة داخل مصر وخارجها على ذلك الشكل مثل قنطرة السد والقنطرة التى بين أراضى الناصرية وطريق مصر القديمة وقنطرة الليمون وقنطرة قد بدار وقنطرة الأوز وغير ذلك ثم فاجأهم حادث الطاعون ووصول القادمين فتركوا ذلك واشتغلوا بأمور التحصين وسيأتى تتمة ذلك ومنها توالى خراب بركة الفيل وخصوصا بيوت الامراء التى كانت بها وأخذوا اخشابها لعمارة القلاع ووقود النيران والبيع وكذلك ما كان بها من الرصاص والحديد والرخام وكانت هذه البركة من جملة محاسن مصر وفيها يقول ابو سعيد الاندلسى وقد ذكر القاهرة وأعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل لأنها دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ويسرج أصحاب المناظر على قدر هممهم وقدرتهم فيكون بذلك لها منظر عجيب..

وتخرب ايضا جامع الرويعى وجعلوه خمارة وبعض جامع عثمان كتخدا القزد على الذى بالقرب من رصيف الخشاب وجامع خير بك حديد الذى بدرب الحمام بقرب بركة الفيل وجامع البنهاوى والطرطوشى والعدوى وهدموا جامع عبدالرحمن كتخدا المقابل لباب الفتوح حتى لم يبق له الا بعض الجدران وجعلوا جامع أزبك سوقا لبيع أقلام المكوس.

ومنها أنهم غيروا معالم المقياس وبدلوا اوضاعه وهدموا قبته العالية والقصر البديع الشاهق والقاعة التى بها عامود المقياس وبنوها على شكل آخر لا بأس به لكنه لم يتم وهى على ذلك باقية الى الآن ورفعوا قاعدة العامود العليا ذراعا وجعلوا تلك الزيادة من قطعة رخام مربعة ورسموا عليها من جهاتها الاربع قراريط الذراع.

ومنها انهم هدموا مساطب الحوانيت التى بالشوارع ورفعوا احجارها مظهرين ان القصد بذلك توسيع الازقة لمرور العربات الكبيرة التى ينقلون عليها المتاع واحتياجات البناء من الاحجار والجبس والجير وغيره والمعنى الخفى الشافى خوفا من التترس بها عند حدوث الفتن كما تقدم وكانوا وصلوا فى هدم المساطب الى باب زويلة ومن الجهة الاخرى إلى عطفة مرجوش فهدموا مساطب خط قناطر السباع والصليبة ودرب الجماميز وباب سعادة وباب الخلق الى آخر باب الشعرية ولو طال الحال لهدموا مساطب العقادين والغورية والصاغة والنحاسين الى آخر باب النصر وباب الفتوح. فحصل لأرباب الحوانيت غاية الضيق لذلك وصاروا يجلسون فى داخل فجوات الحوانيت مثل الفيران فى الشقوق وبعض الزوايا والجوامع والرباع التى درجها خارج عن سمت حائط البناء لما هدموا درجه وبسطته بقى باب مدخله معلقا فكانوا يتوصدون اليه بدرج من الخشب مصنوع يضعونه وقت الحاجة ويرفعونه بعدها وذلك عمل كثير...» ..

عبدالرحمن الجبرتى
الجزء الثانى
ص ص ٤٣٢ ـ ٤٣٦

ملحق ٣ : «المارسييز»

عندما أعلنت الدولة أن «الوطن فى خطر» فتح باب التطوع وجاء المتطوعون من كل أنحاء فرنسا ، وفى الثلاثين من يوليو سنة ١٧٩٢ وصلت الى باريس كتيبة من خمسمائة من أهل ميناء «مرسيليا» ينشدون ما أصبح ، بعد أقل من ثلاثة أشهر ، نشيد كل من ينتمى الى الثورة ، وهو الذى أصبح فيما بعد ، وحتى يومنا هذا النشيد الوطنى للجمهورية الفرنسية .

ونعتذر لركاكة الترجمة التالية ، والسبب أننا حاولنا ، جاهدين الحفاظ على المعانى الأصلية للكلمات التى وجد فيها شعب ذلك العصر ، أحسن تعبير عن مشاعره .

«نشيد أهل مَرسيليا»

«هيا بنى الوطن ، لقد جاء يوم المجد
فقد رفع لواء الطغيان الدامى ضدنا .
أتسمعون زئير الجند الشرسين فى الحقول ،
قادمين لذبح أبنائنا ، ورفيقاتنا ، حتى فى أحضاننا ؟

★★★

الى السلاح يامواطنين نظموا كتائبكم
فلنسر ، فلنسر ، ولندع الدم النجس يروى أخاديدنا !
يا حبنا المقدس للوطن ، قُد واسند أذرعتنا المنتقمة !
يا أيتها الحرية ، الحرية الحبيبة، حاربى مع المدافعين عنك !

تحت راياتنا ، النصر يلبي نغماتك الحازمة !
فليرى أعداؤك المحتضرون انتصارك ومجدنا

★★★

سندخل في الدرب عندما يتركه شيوخنا
سنجد فيه رمادهم وآثار فضائلهم !
لا نبغى الحياة بعدهم بل نشاركهم توابيتهم
وسيكون لنا الكبرياء السامى ، أن ننتقم لهم أو أن نسير على خطاهم»

ملحق ٤ : «بلزاك «طبيب الأرياف»
الجزء الأول

قد تكون أوقع صورة لما كانت عليه عقلية جند الحملة ، ما كتبه «بلزاك» فى قصته الشهيرة «طبيب الأرياف» على لسان أحد الجنود ، وهذه الصفحات من أشهر ما كتب فى الأدب الفرنسى ، لواقعيتها ، ولما ترسمه لنا من تقاليد عصرها ، إذ كان الفلاحون يجتمعون آنذاك فى ليالى الشتاء الطويلة ، ويقص كل منهم قصة على الآخرين ، سواء كانت تجربة شخصية أو قصة خيالية ، وفى «طبيب الأرياف» يطلب المجتمعون من جندى سابق فى جيش نابليون ، أن يقص عليهم قصة الامبراطور . وكان الجندى قد عاد الى قريته بعد تسريحه من الجيش فى عهد الملكية التى عادت الى فرنسا بعد هزيمة نابليون ، عاد وذكرياته تحول عهد

نابليون بل ونابليون نفسه الى اسطورة ، يسردها مرارا على جمهور من أقرانه الفلاحين ، مما جعل الجيل الجديد الذى يسمع هذا الكلام الباهر يتشبع بتلك الرؤية الاسطورية لعصر لم يعرف عنه إلا انتصارات وحبا جنونيا كان الجند السابقون يكنونه لمن أسموه «بالعريف الصغير» . وإن كان ثمة شىء يدلنا على عقلية هذا الجيش الذى سافر مع بونابرت الى مصر ، وعاش فيها لينشر مبادىء الثورة والتنوير ، فهى تلك الصفحات التى نترجمها كاملة ليتعرف القارىء على نوعية الجند الذين عاشوا فى مصر لسنوات ثلاث . ولن نأخذ منها ـ نظرا لطولها ـ الا مايصور لنا كيف كانوا يرون نابليون والحملة على مصر .

يقول الجندى بعد أن طلب منه سُمَّاره من الفلاحين أن يقص عليهم «قصة الامبراطور» :

«لقد ولد نابليون ـ كما تعرفون يا أصدقائى ـ فى كورسيكا وهى جزيرة فرنسية تدفئها شمس ايطاليا ، حيث يغلى فيها كل شىء وكأنها فى لهب مستمر ، وحيث يقتلون بعضهم البعض ابنا عن أب ، دون أى مناسبة ، فتلك هى حالهم ، ولكي تدركوا غرابة الأمر ، فان أم نابليون التى كانت أجملَ نساء عصرها ، كانت فى الوقت نفسه حاذقة أيضا فقد فكرت فى أن تنذره للرب حتى ينجو من كل مخاطر طفولته وحياته ، ذلك لأنها رأت فى المنام أن العالم قد اشتعل فى يوم ميلاده .. كانت نبوءة» .

«وبعد فإنها قد طلبت من الرب أن يحميه ، على أن يعيد نابليون الدين المقدس الذى كان قد وصل فى ذلك الوقت الى الحضيض .. وقد كان» .

«والآن تنبهوا جيدا لما أقوله وخبرونى بالله عليكم إن كان ذلك طبيعيا ؛ من المؤكد ، بل مما لاشك فيه أن الرجل الذى توصل الى عقد مثل هذا الميثاق السرى ، سيكون قادرا هو وحده ، على العبور سالما من خلال صفوف الآخرين ومن البنادق التى كانت تبيدنا كالذباب ، وكل هذا ينحنى احتراما له ، وعندى أنا شخصيا برهان على ذلك رأيته فى معركة إيلوه» .

«إنى مازلت أراه يصعد مرتفعا آخذا منظاره ، وينظر الى المعركة قائلا : «كل شىء على مايرام» ، فاذا بأحد هؤلاء المتملقين ذوى القبعات المريشة ، الذين يضايقونه بصفة دائمة حتى وهو يأكل ، كما قيل لى ، قد ظن من نفسه ذكيا فأخذ مكان الامبراطور عندما رحل . لقد نسف وانتهى الريش» .

«أنتم تعرفون طبعا أن نابليون قد احتفظ بسره لنفسه ، لهذا السبب تساقط كل من كانوا يرافقونه حتى أصدقاؤه المقربون ، كانوا يتساقطون كالذباب «ديروك» «بيسيار» و«لان» رجال أقوياء كأعواد الفولاذ التى كان نابليون يطوعها لخدمته» .

«المهم الدليل على أنه ابن الرب ، إنه وجد ليكون أبا للجنود وأنه لم يُر قط ملازما أو نقيبا . هكذا . أصبح القائد العام مباشرة كان يبدو كأنه لايتعدى الرابعة والعشرين من عمره ، ومع ذلك كان كالقائد العجوز

منذ أن استولى على مدينة «تولون» حيث برهن فيها للآخرين أنهم لايعرفون شيئا عن استخدام المدافع» .

«وفجأة وجدنا هذا النحيف قائدا لجيش ايطاليا ذلك الجيش الذى كان يعانى من نقص فى الخبز ، والذخيرة ، والأحذية والملابس وهو جيش مسكين عار كالديدان» .

« ... وتحقق السلام هل يستطيع بشر أن يفعل ذلك ؟ ، بالطبع لا لقد كان الرب يساعده إن هذا لأمر أكيد» .

«كان نابليون يتضاعـف كما تتضاعف الخبزات الخمس فى الانجيل . يقود المعركة نهارا ، يعد لها ليلا حتى أن الحراس كانوا يرونه دائما يذهب ويجىء ، لاينام ولا يأكل ، ونتيجة لهذا فقد اتخذوه أبا لهم ، بعدما تعرفوا على معجزاته ، والى الأمام» .

«إلا أن الآخرين فى باريس ، عندما رأوا ذلك قالوا هذا شيخ يبدو كأنه يأخذ تعليماته من السماء ، وله قدرة خارقة على الاستيلاء على فرنسا ، يجب أن نطلقه على آسيا وأمريكا لعله يكتفى بذلك» .

«لقد كتبٌ له ذلك مثلما كتب على السيد المسيح ... حدث أنه تلقى أمرا بالتوقف فى مصر وذلك هُو التشابه بينه وبين ابن الرب ، وليس ذلك بكل شىء ، فقد جمع صفوة رجاله الذين جعلهم كالشياطين وقال لهم : أصدقائى الآن لقد أعطونا مصر لنمضغها ولكننا سنبتلعها فى فترة وجيزة مثلما فعلنا فى ايطاليا وسيصبح الجنود البسطاء أمراء وسيمتلكون أراضى ، فإلى الأمام . قال الجنود : الى الأمام يا أولاد» .

«وها نحن فى تولون فى الطريق الى مصر حينذاك كانت كل سفن

الانجليز الحربية فى البحر ، ولكن عندما أبحرنا ، قال لنا نابليون : إنهم لن يرونا ويستحسن أن تعلموا منذ هذه اللحظة ، أن قائدكم يمتلك نجمة حظ فى السماء تقودنا وتحمينا» .

«وقد حدث ماقيل بالفعل . وأثناء عبورنا البحر ، استولينا على مالطة مثلما يستولى على برتقالة يروى بها ظمأه للانتصار فقد كان رجلا لايستطيع أن يحيا دون أن يفعل شيئا. حسنا ها نحن فى مصر وهناك الأمر مختلف» .

«وللعلم فإن المصريين بشر اعتادوا منذ أن أصبح العالم عالما ، أن يكون ملوكهم عمالقة ، وجيوشهم فى كثرة النمل ، لأنها بلد الجان والتماسيح حيث بنوا اهرامات كبيرة ، مثل جبالنا ، وقد أوحى اليهم خيالهم بأن يضعوا فيها ملوكهم ، ليحتفظوا بهم طازجين ، فهذا الأمر كان يروق لهم» .

«وعند نزولنا قال لنا العريف الصغير «نابليون» : يا أولادى إن البلاد التى ستفزونها لديها عدة آلهة يجب أن تحترموها لأن الفرنسى لابد أن يكون صديقا للجميع ، وأن يهزم الناس دون أن يكدرهم ، ضعوا فى عقولكم ألا تلمسوا شيئا لأننا سنحصل على كل شىء فى النهاية هيا تقدموا فالأمر على مايرام» .

«حسنا . أما هؤلاء القوم ، فقد تنبأوا بحضور نابليون تحت اسم «كبير بونابرديس» وهى كلمة تعنى فى لهجتهم السلطان الذى يطلق النار ، أصبحوا يخافون منه وكأنه الشيطان . عندئذ لجأ سلطان تركيا وآسيا وافريقيا الى السحر ، فأرسل لنا جنيا اسمه «مودى» يُظن أنه

هبط من السماء على حصان أبيض، كان مثــل سيــده لا يتأثــر بالقنابل (...)، لقد كانت سلطات العرب والمماليك هى التى تريد إقناع جندها أن «مودى» يستطيع ان يدفع عنهم الموت أثناء القتال بحجة انه ملاك مبعوث ليحارب نابليون ويسترد خاتم سليمـــان، أحـد ممتلكــاتهم التى سرقها القائد على حد قولهم» .

«وعلى الرغم من ذلك، فقد جعلناهم يجزون على أسنانهم . بالله عليكم، خبرونى، من أين علموا بعهد نابليون السرى؟ هل كان ذلك أمرا طبيعياً؟ لقد كان من المؤكد فى ذهنهم ان نابليون يقود الشياطين وينتقل كالعصفور فى لمح البصر من مكان إلى آخر، وقد كان فى واقع الأمر موجودا فى كل مكان . وأخيراً، جاء ليخطف منهم ملكة كانت كالبدر فى جماله، قدم لها كل الكنوز وماساً كبيراً فى حجم بيض الحمام . بينما رفض المملوك الذى كانت زوجته، مع ان له غيرها، رفض هذه الصفقة رفضاً باتاً . وفى هذه الحالة، لم تكن الأمور لتستتب إلا بعد معارك كثيرة» .

«وهذا بالفعل ما حدث . فقد أصبح الضرب للجميع . عندئذ، اصطففنا فى الإسكندرية والجيزة وأمام الأهرامات . واضطررنا الى السير تحت أشعة الشمس وعلى الرمال، حيث كان هناك بعض اشخاص مستعدين لرؤية تخيلات، فقد كانوا يرون مياهاً لا نستطيع الشرب منها، وظلالاً تجعلنا نتصبب عرقاً . ولكننا التهمنا المماليك كعادتنا دائماً، وكان الكل يرضخ لإرادة نابليون الذى غزا أعالى مصر وأسفلها، وكذلك بلاد العرب حتى وصل فى النهاية إلى عواصم الممالك

التى لم يعد لها وجود، حيث توجد آلاف التماثيل، وخمسمائة عفريت، ثم كان هناك شئ غريب . وعدد لا حصر له من الأبراص . بلد رائع حيث يستطيع كل إنسان أخذ بعض القراريط من أرضها اذا أسعده ذلك . بينما كان نابليون مهتماً بالشئون الداخلية حيث كان يريد إنجاز أشياء رائعة، أحرق له الإنجليز أسطوله فى معركة أبو قير، لأنهم لم يكونوا يعرفون ماذا يخترعون لإعاقتنا . لكن نابليون، الذى كان يحظى باحترام الشرق والغرب، والذى كان البابا يدعوه بابنه، وابن عم «ماهوميه» يدعوه بوالده العزيز، كان نابليون يريد ان ينتقم من إنجلترا ويأخذ منهم الهند بدلاً من أسطوله . كان على وشك ان يقودنا الى آسيا عن طريق البحر الأحمر، فى بلاد لا يوجد بها إلا الماس والذهب، وذلك حتى يدفع مرتبات الجنود، وحيث توجد قصور يستريح فيها . عندئذ، كان مودى يدبر أمره مع الطاعون، فبعث به الينا ليوقف انتصاراتنا» .

«انتباه ! عندئذ صار الجميع فى هذا العرض الذى لا يرجع منه أحد مترجلاً . لم يستطع الجندى ان يأخذ عكا حيث دخلنا ثلاث مرات بعناد حربى شجاع . ولكن الطاعون كان الأقوى، ولم يكن هناك وقت لنقول : «يا صديقى العزيز !» . كان المرض قد اشتد على الكل . وكان نابليون وحده ندياً كالوردة، ورآه كل الجيش وهو يتجرع الطاعون دون ان يؤثر ذلك عليه» .

«وبعد! أتظنون يا أصدقائى ان ذلك كان طبيعياً؟ عندما عرف المماليك ان كلنا فى عربات الإسعاف، أرادوا ان يقطعوا علينا الطريق، ولكن هذه الحماقة لا تجدى مع نابليون» .

«حينئذ، طلب نابليون من شياطينه الذين كانوا يتمتعون بجلد أسمك من غيرهم : هيا نظفوا لى الطريق (...) حينئذ، تقرر ان نعود الى القاهرة مره أخرى حيث قيادتنا العليا» (...) .

«وعلم نابليون بمشكلة فرنسا بعد معركته الشهيرة فى أبوقير، التى انتصر فيها على جيش الأتراك الكبير القوى بجنوده البالغ عددهم خمسة وعشرين ألفا . وقد أغرق فى البحر خلالها، وبفرقة واحده، أكثر من نصفهم، دون أن يفقد أكثر من ثلاثمائة من رجاله. وكانت هذه آخر صاعقة له فى مصر(...) » .

«بلزاك» : «طبيب الأرياف» ص ص ١٦٨ - ١٧٤

★★★

أول ما يلفت النظر، فى هذا النص، هو تأليه نابليون . إذ يشبهه الحاكى مراراً بالسيد المسيح، ومن المعروف أن السيد المسيح، فى فرنسا وباقى الدول المسيحية، إله وليس رسولاً ، كما هو فى الدين الإسلامى . فنابليون، الذى يربطه بالله «عهد سرى» يحميه من كل مكروه، هو نفسه إله يتعامل مع الجان، ويعد جنوده بالمستحيل ويحققه. ونلاحظ أيضا ما يقوله ذلك الجندى عن المصريين والشياطين، وما يفهمه ومالا يفهمه من حقيقة المعركة الدائرة بين الفرنسيين والأتراك والمماليك . ولا نرى فى كلامهماينم عن معرفته هو نفسه ، بمبادىء الثورة ، ناهيك عن التنوير الذى يفتقر اليه عقله بشدة ، فهو جاهل الى أقصى حدود الجهل ، ويؤمن بالشياطين ولايرى الا حقيقة واحدة ، هى أن نابليون وعدهم بالاستيلاء على كل شىء فى مصر ، وهذه هى فى الواقع،

الحقيقة الوحيدة وراء وجود الجيش الفرنسى فى مصر ، مثله فى ذلك مثل أى جيش استعمارى فى أى عصر من العصور ، ولايسعنا بعد قراءة هذه الصفحات الا التساؤل عن كيفية خلق اسطورة الجيش الذى حرر أوربا ، وعلمها - كما سبق أن علم مصر - الحرية والأخوة والمساواة ، وهذا مثل من جنده ؟!

ملحق ٥ : كلوت بك

النص الكامل لسرد كلوت بك أحداث «الحملة الفرنساوية» خير مثال على تأثر الأجيال الجديدة بكتاب «الميموريال»، حيث لا نجد فيما يقصه مؤلفنا إلا ما قاله نابليون نفسه فى أحاديثه المدونة بهذا الكتاب ولا يغيب عن ملاحظتنا أنه لا يتحدث مطلقا عن ثورة القاهرة الأولى، التى قامت أثناء وجود بونابرت، فتثبت ضيق المصريين بهذا الوجود، ورفضهم له.

يقول كلوت بك تحت عنوان «الحملة الفرنساوية» :

«الغرض من هذه الحملة - النزول فى ثغر الاسكندرية - واقعة الاهرام هزيمة - ابى قير - نتائجها - كليبر - الانتصار فى هليوبوليس (عين شمس) - منو - الجلاء - نتائج القمح (القمع) الفرنسى.

١٢- لما وصل بونابرتة إلى مصر ووطأت قدماه ثراها فى أول يوليو سنة ١٧٩٨ كان يتصرف فى شئونها ويقبض على زمام الحكم فيها اثنان من البكوات المصرلية أى المماليك.

أما العلة التى لأجلها الفت حكومة الدركتوار الحملة التى عهدت رأستها الى ذلك القائد الخطير من ٣٦٠٠٠ مقاتل وأنفذتها الى ضفاف النيل لاحتلاله فهى ان المماليك كانوا يتصدون للتجار الفرنسيين بالإحراج والمغارم حتى علت اصواتهم بالشكوى والاستصراخ غير انه كان هناك سبب اشرف مغزى من قصد انزال العقوبات بهؤلاء المعتدين وتصريف السطوات فيهم ردعا لهم عن الافحاش فى المظالم والمغارم وهو ان القوة الإلهية كانت تدفع بالفرنسيين الى التدفق على البلاد الافريقية من غير أن يستطيعوا لها صدا فلم يسعهم الا أن يطاوعوا هذه

القوة القاهرة فلقد جال بخاطر الملك لويس الرابع عشر ان ينفذ اقتراحا رفعه اليه الوزير «لبنتز» للاستيلاء على مصر وطرحت هذه المسألة على بساط البحث والمناقشة فى وزارة (الدوق دى شوازول) فلما عاد بونابرتة من ايطاليا حبذ فكرة «لبنتز» وصفق لها استحسانا معتقدا انها من الاغراض السامية الجديرة بالعمل على تحقيقها وبلغ من تحمسه لتلك الفكرة انه قال ذات يوم فى حديث له: «ان الشهرة لا تكتسب الا فى الشرق» ، ولقد ايقن بصواب هذا الرأى يوم قال له كليبر فى أبى قير: «أيها القائد: انك لكبير كهذه الدنيا» وأدرك أنه لم يخطئ حينما أقبل على بلاد الاهرام يلتمس منها المجد والفخر أى الطلسم الذى يربط بالنوع البشرى كله حظوظ الفطاحل والعبقريين.

على أن نابوليون شرح فى جمل قصيرة الغرض السياسى الذى كان يرمى اليه بتنظيم حملته على مصر فقد قال:

«ان الغرض الاول من حملة الفرنسيين على مصر هو رضخ شوكة الانكليز فى الشرق اذ لا طريق غير وادى النيل للجيش الذى يناط به أداء هذه المهمة الخطيرة بتغيير مجرى الاحوال فى الهند وكان لابد فى اصابة هذا الغرض من حلول مصر محل (سان دومنج) و (الانتيل) والتوفيق بين حرية العناصر السوداء ومصالح صناعاتنا وكان بدهيا أن يفضى الاستيلاء على مصر الى ضياع جميع المستعمرات الانكليزية فى أمريكا والهند وأنه متى أصبح الفرنسيون أصحاب الكلمة العليا فى مرافئ ايطاليا وجزيرة (كورفو) وجزيرة (مالطة) والاسكندرية صار

البحر الابيض المتوسط لا محالة بحيرة فرنسية هذا الحلم اللذيذ لم يتحقق ويا للأسف قط !

واذا كنت لا أقصد في هذا المقام الى ايراد تاريخ الفتح الفرنسي لمصر فإني اقتصر على القول بأن الاسكندرية وقعت في قبضة الفرنسيين عقب يومين من نزولهم الى البر ولم يقم بونابرتة في هذا الثغر الا الوقت الكافي لترتيب الحكومة وتنسيق أنظمتها ثم سار من فوره زاحفا على القاهرة وكان مراد بك قد عاهد نفسه على أن يشطر الجيش الفرنسي بصارمه البتار كما نشر البطيخة بالسكين فلما كان الثالث عشر من يوليو حمل بفرسانه على المصريين فلم تلبث شدة حملاته ان تلاشت عند اصطدامها بأركان مربعاتنا المنيعة فلما رأى المماليك ما حل بهم من الفشل والعجز اخذوا يفسرون خططنا الحربية التى لم تكن قبلا معروفة عندهم بقولهم إن مشاتنا كانوا لتلاحمهم وتراكنهم بعضهم الى بعض كالبنيان المشيد يحيط به سياج من الحراب ثم احتفظوا بقواهم كلها رجاء المدافعة شبرا شبرا من مدينة القاهرة فربضوا بين النيل والاهرام يتربصون بنا السوء وزعموا فى لغو كلامهم وحديث خرافتهم أنهم سيشهدون فى هذا المكان انكسار شوكتنا وأفول نجمنا ولكن خاب فألهم وطاش سهمهم لأن واقعة الاهرام جاءت حاسمة بانتصارنا وخذلانهم فإن جيشهم الذى حشدوه بامبابة مؤلفا من ستين ألف مقاتل اشفى على الهلاك والتلف اذا انجلت عن موت عشرة آلاف من المماليك قتلا فى ميدان المعركة أو غرقا فى النيل فمعركة ٢١ يوليو أفضت الينا بزمام مدينة القاهرة وبالتالى الخطر المصرى كله من أقصاه إلى أقصاه.

ولكن لم تنقض أيام عشرة على هذا الفوز المبين حتى مر على سواحل أبى قير رسم الدونمة الفرنسية وذهبت ضياعا بتلاشيها النتائج الباهرة التى كان من المنتظر أن يفضى نجاحنا اليها قال نابوليون فى مذكراته (المجلد الثانى): «لقد كان لخذلاننا بواقعة أبى قير تأثير كبير فى شئون مصر بل فى شئون العالم كله فإنه لو قدرت النجاة للدوننمة الفرنسية ولم يدركها ما أصابها لما لقيت الحملة على الشام عقبة ما فى طريقها و لتوافرت الوسائل لنقل مدافع الحصار الى ما وراء الصحراء ولما فشلت الجيوش الفرنسية عند أسوار عكا . أما وقد دمرت تلك الدوننمة ومحى رسمها فقد أقدم الديوان (أى الحكومة العثمانية) على محاربة فرنسا فخسر جيشنا بذلك سندا قويا وتحولت الحال فى مصر إلى نقيضها وانقبض رجاء نابليون فى التوسل بنتائج الحملة على مصر الى تأييد شوكة فرنسا وسلطانها فى الغرب.

ولم يكن فى استطاعة جيشنا بمصر التفكير فى الاحتفاظ بفتوحاته وقد انقطعت المواصلات مع فرنسا على المثال المتقدم وانصرف خاطرها الى ما وقع بها من النكبات والمحن فى ايطاليا والمانيا فلم يسع كليبر الذى كانت قيادة الجيش قد آلت اليه إلا ان يتخذ الوسائل للجلاء عن وادى النيل وان يراعى بذل ما فى الوسع للاحتفاظ بما أصابه من الشرف والمجد على أثر ظفر بونابارته بالاتراك فى أبى قير ذلك الظفر المبين الذى انمحى به عار انكسارنا البحرى فيها وعودته الى فرنسا فقد عقد كليبر مع الاتراك فى العريش اتفاقية تعهد فيها بالجلاء عن القطر المصرى فى ظرف ثلاثة أشهر وأخذ الباب العالى على نفسه أن يقدم

الي الجيش الفرنسي ما يكفي من السفن لنقله بأسلحته وامتعته الى فرنسا ولكن حدث في نفس الوقت الذى هم الفرنسيون فيه بمغادرة القاهرة أن بعث الاميرال (كيث) الى الجنرال (كليبر) بلاغا ذكر فيه ان انكلترا لا تقبل من الجيش الفرنسي التسليم الا أذا القى السلاح من يده وترك ماله من السفن والذخائر والامتعة فكان جواب كليبر على هذا البلاغ ان نشره على جنوده وذيله بالجملة الآتية موجها فيها الخطاب اليهم: «أيها الجند إن مثل هذه الوقاحة لا جواب عليها الا بالانتصار فتهيأوا للقتال».

وكان على الجيش الفرنسي لكى يبقى محتلا الديار المصرية ان ينازل جيشا مؤلفا من سبعين الف عثماني وان يدحره ويشتت شمله وهو ما قام به التسعة الالاف من الفرنسيين في واقعة عين شمس الخالدة الذكرى ولكن بينما كان الجنرال كليبر يطارد في الشام فلول الجيش العثماني كان سكان مدينة القاهرة قد ثابوا إلى الثورة وأخذوا يفتكون بالفرنجة من أهلها ويحصرون في أحد القصور مائه وثمانين فرنسيا نيطت بهم المحافظة على العاصمة المصرية.

ولقد قاوموا يومين متتابعين الحملات الموجهة اليهم من جموع الأهلين الذين كان يؤيدهم نحو الالف من الجند وأشرف أولئك من عندهم لولا أن فصيلة من جيشنا الظافر جاءت في أنسب الاوقات لنجدتهم وتخليصهم من حرج موقفهم على شن وجود جيوشنا وحضور الجنرال كليبر لم يكونا كافيين لإخماد تلك الفتنة لأن الثائرين لم يفيئوا

الى السكينة ويلتمسوا من القاهرة رحمة بهم الا بعد أن احرقت أحياء برمتها من المدينة وأصبحت خرابا يبابا بعد أن كانت عامرة زاهرة.

ولما اضطر كليبر للاسباب المتقدمة أن يحتفظ بالديار المصرية صرف همته الى توثيق أركان شوكته وإقامة معالم نفوذه وسلطته ومهد له السبيل الى هذه الغاية فوزه على الاتراك فى عين شمس وتخلصه منهم فضلا عن ائتمانه جانب الانكليز الذين روعهم انتصار الفرنسيين فى واقعة (مارانجو) فانصرفوا عن الاهتمام بمصر الى الاشتغال بشئون أوروبا. وتحالف كليبر على الإثر مع مراد بك فآلت اليه بمقتضى هذا التحالف السلطة فى اقاليم الوجه القبلى.. ولكن كليبر لم يلبث بعد استتباب الامر له ثانيا ان اعتدت عليه يد اثيمة إذ سقط قتيلا من يد مجرم نفث فيه العلماء روح التعصب والاعتداء.

لقد كان كليبر القائد الفرنسى الوحيد الذى فى استطاعته الاحتفاظ بمصر لانه كان يؤثر فى نفس الجنود بفضائله النادرة وسمعته الحسنة فيبث فيهم الشجاعة والثقة ولم يوجد بين من عهدت اليهم ازمة الامور فى مصر من هو اهل لإضاعة فتوحاتنا فيها كالقائد الذى خلفه بعد قتله وهو الجنرال (منو).

ولم يكن هذا القائد ممتازا من الوجهة العسكرية بشىء من الاستحقاق والفضل كما لم يكن له من الوجهة الادارية نصيب ما من الدراية والكفاءة. فإنه اغضب كبار الضباط الذين كانوا أوسع منه دراية واجدر منه بالحلول فى مركزه ودأب على السير فى خطة مناقضة للخطة التى رسمها سلفه، دع انه من جهة اخرى لم يرض الاهالى

الوطنيين اذ كان يبهظ كواهلهم بمستحدثاته المستهجنة الغريبة. وكانت اجراءاته العسكرية تستدعي لطيشها وتجردها من الصواب السخرية والهزء حتى ان سواد الجيش كثيراً ما استهجنها واغفل القيام بها، فكان بديهيا ان تضيع مصر من فرنسا على يد مثل هذا القائد.

ولقد أدرك الانكليز حقيقة هذه الحال وايقنوا منها فاحتلوا من فورهم ساحل البحر بجهة أبي قير في قوة عظيمة وسيروا ستة آلاف من الهنود (السيباى) الى القصير فأخذوها وعززوا قوتهم بجيش آخر من الاتراك فألزموا بهذه الوسائل العسكرية القائد، (منو) الغبى الغافل بتسليم الاسكندرية اليهم ثم بالتأهب لمبارحة الديار المصرية على عجل.

فإنه ما وافت نهاية سبتمبر سنة ١٨٠١ حتى كانت بقايا جيش الحملة الفرنسية تستعد للرحيل من مصر عائدة الى الديار الفرنسية.

وانه لمن الاعمال النافعة اللذيذة تقييد حوادث الفتح الفرنسي لمصر وتدوين النتائج التي افضى اليها ولكن أراني في هذا المقام مضطرا الى الاقتصار منها على الحوادث والنتائج ذات الصيغة العامة فأول ان انتصارات الفرنسيين أدت إلى ثل عرش المماليك وتقويض أركان دولتهم وأقامت الدليل الساطع على ضعف هؤلاء المستبدين الغاشمين وهيأت للمصريين الوسائل لتكوين وحدتهم المالية وتوسيع نطاق افقهم فلاح لهم شبح أوروبا من خلال الأعمال والمشروعات البونابرتية وسكنت فورة تعصبهم للدين على غير المؤمنين به. وكان القائد الفرنسي قد خلب

بفعاله الباهرة عقولهم السريعة التأثر بالمؤثرات (١) فإن ما أبداه من الحكمة فى تسامحه والمهارة فى احترامه ديانة الامة المغلوبة وعاداتها بثا فى نفسها الاستعداد لتوثيق الصلة فيما بعد بينها وأوروبا والانصراف نحو المدنية الغربية لتلتمس منها امدادها بالنظم الحديثة لتدبير شئونها.

ولقد كان فى الوسع اجراء هذا الاصلاح لو بقى احتلال الفرنسيين لمصر وظلت سلطتهم قائمة فيها، فإن بونابرتة كان قد وضع بالفعل اساسه وانشأ يرفع اركانه بقصدة ايقال القومية العربية المصرية من

---

(١) سيشغل نابليون او السلطان الكبير كما يسميه الشرقيون مركزا ساميا فيما يدون من الحوادث العامة ببلاد المشرق فكثيرا ما سمعت المصريين يذكرونه بعبارات الحماس والاعجاب وحدث اننى سافرت سنة ١٨٢٤ الى السويس فى مهمة فنزلت فى بيت كان نابليون قد نزل به للاستراحة. ولم يكن قد طرأ عليه اقل تغيير حتى الفراش الذى قام فيه فلم أشأ ان يؤتى الى بربر غيره.. وكان صاحب البيت وقت نزولى به صاحبه على عهد ذلك القائد العظيم وكان يخيل لمن يحدث هذا الشيخ الجليل ان نضره الشباب تعاوده كلما اخذ يروى ما رآه أو سمعه عن السلطان الفرنسي، ومن قوله: لم يكن ابو نبرت عدوا للمسلمين إذ كان فى استطاعته لو اراد ان يقلب جميع المساجد بسن الابرة ولكنه لم يفعل ذلك فليبق اسمه كبيرا بين أسماء عظماء الرجال، ثم كان يختم كلامه بقوله: ولقد اكدوا لنا انه فى ساعة موته هناك على صخرة البحر الكبير التى تمكن اثنى عشر ملكا من ملوك النصارى من ارساله اليها وتكبله بالاغلال فيها بعد ان أسقوه شرابا منوما رأى المقاتلون الذين اجتمعوا حوله روحه وقد وقعت على حد السيف فليسترخ فى امان وسلام وسلام، وقد نقل ابراهيم باشا الى اللغة التركية تاريخا مختصرا لنابليون ونشر هذا التاريخ بعنوان «تاريخ نابليون الشهير امبراطور فرنسا» ضمن مجموعة عنوانها «دفينة اسرار حكام اوروبا» أى كنز أسرار ملوك أوروبا.

سباتها وبذل فى هذا السبيل ما تيسر له من الجهود التى كانت باكورة ثمارها استحداث الدواوين في المدائن الكبرى وامهات القرى وهى عبارة عن المجالس البلدية التى ألفت من كبار الشيوخ والاعيان لترجع الحكومة اليها فى معضلات المسائل ومختلف الشئون الخطيرة فكان لايبرم امرا حقيرا او خطيرا الا بعد اطلاعها عليه وابدائها رأيها فيه.

وكان كل مجلس منها يبعث الى القاهرة مندوبين عنه لتشكيل الديوان الوطنى الكبير منهم وهذا الديوان هو الذى كان يمثل القطر المصرى تمثيلا عاما واظهر الفرنسيون نحو هذا الاصلاح وغيره التعضيد والتأييد وعطفوا على مصالح مصر المادية فظهروا ارجاءها من العربان الذين كانوا يعيثون فيها الفساد وتعهدوا بالعناية ترعها الثمينة واحاطوها من جهتى البحرين الابيض المتوسط والاحمر وناحية الصحراء بسياج من الاستحكامات والحصون».

«كلوت بك»: لمحة عامة إلي مصر، الجزء الأول ص. ص ٤٨ ـ ٥٥

ملحق ٦ : الطهطاوى

«ثم انه يوجد فى مدينة مرسيليا كثير من نصارى مصر والشام الذين خرجوا مع الفرنساوية حين خروجهم من مصر، وهم جميعا يلبسون لبس الفرنسيس، وندر وجود احد من الاسلام الذين خرجوا مع الفرنسيس، فإن منهم من مات، ومنهم من تنصر، والعياذ بالله، خصوصا المماليك، الجورجية والجركسية، والنساء اللواتى اخذهن الفرنسيس صغار السن، وقد وُجدت امرأة عجوز باقية على دينها.

وممن تنصر انسان يقال له عبدالعال، ويقال انه كان ولاه الفرنسيس بمصر (أغاة انكشارية) في ايامهم ، فلما سافروا تبعهم، وبقى على اسلامه نحو خمس عشرة سنة، ثم بعد ذلك تنصر، والعياذ بالله، بسبب الزواج بنصرانية، ثم مات بعد قليل ويقال انه سمع عند موته يقول: اجرنى يارسول الله! ولعله ختم له بخير، وعاد الى الاسلام، فقال بلسان الحال:

الحمد لله، الحنيفة ملتي والله ربى، وابن آمنة نبيي .

ولقد رأيت له ولدين وبنتا، إتوا في مصر وهم على دين النصرانية احدهما معلم الآن في مدرسة ابى زعبل.

ومثله ما حكاه لي بعضهم ان سر عسكر المسمى «منو» المتولى فى مصر بعد قتل الجنرال «كليبر» (بفتح الكاف وكسر اللام وكسر الباء)، كان اسلم فى مصر نفاقا، كما هو الظاهر وتسمى عبدالله وتزوج ببنت شريف من اشراف رشيد فلما خرج الفرنسيس من مصر، واراد الرجوع اخذها معه، فلما وصل رجع إلى النصرانية، وأبدل العمامة (بالبرنيطة) ومكث مع زوجته ، وهى على دينها مدة أيام بينما ولدت، وأراد زوجها أن يعمد ولده على عادة النصارى لينصره أبت الزوجة ذلك وقالت: لا أنصر ولدى أصلا ولا أعرضه للدين الباطل! فقال لها الزوج ان كل الأديان حق، وان مالها واحد وهو عمل الطيب، فلم ترض بذلك أبدا فقال لها ان القرآن ناطق بذلك وانت مسلمة فعليك ان تصدقى بكتاب نبيك. ثم أرسل بإحضار أعلم الافرنج باللغة العربية والبارون دساسى، فإنه هو الذى يعرف يقرأ القرآن وقال لها سليه عن ذلك

فسألته، فأجابها بقوله: انه يوجد فى القرآن قوله تعالى «ان الذين آمنوا، والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» فحجها بذلك! فأذنت بمعمودية ولدها، ثم بعد ذلك انتهى الأمر على ما قيل إنها تنصرت، وماتت كافرة.

كل دين ان فاتك الاسلام فمحال ، لأنه أوهام.

ومما رأيته من جملة المصريين فى مرسيليا : انسان لابس ايضا كالافرنج، واسمه محمد منطلق اللسان فى غير اللغة العربية، فلا يعرف من اللسان العربى الا اليسير، فسألته عن بلده ببر مصر، فأجاب بأنه من مدينة اسيوط من اشرافها، وأن اباه يسمى السيد عبدالرحيم، وهو من أكابر هذه البلدة، وأمه تسمى مسعودة أو قريبا من ذلك الاسم ، وأنه اختطفه الفرنساوية فى حال صغره، ويقول انه باق على اسلامه يعرف من الأمور الدينية الله واحد ومحمد رسوله والله كريم.

ومن العجائب اننى بعد كلامه توسمت فيه الخير، وكان على وجهه سمة اشراف اسيوط (ص ٤٢ ، ٤٤) حقيقة ، فإن صح كلامه كان من اولاد سيدى حريز بن سيدى ابى القاسم الطهطاوى واشراف طهطا من أولاد سيدى يحيى بن القطب الربانى سيدى ابى القاسم، وله ولد ثالث يسمى سيدى على البصير، ذريته أهل جزيرة شندويل، وشهرة ابى القاسم الطهطاوى لا تخفى على من يعرفه، وان لم يذكره سيدى عبدالوهاب الشعرانى فى الطبقات وكثير من الاشراف بالبلاد العثمانية ينتهى نسبهم الى سيدى حريز المتقدم.

ومما رأيته في مرسيليا الملعبة المسماة، «السبكتا كل» وأمرها غريب ولا يمكن معرفتها بوصفها بل لابد من رؤيتها بالعين، ونذكرها في الكلام على «باريس» ومكثنا في هذه البلدة خمسين يوما وتوجهنا إلى باريس.

«الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى»
«تخليص الإبريز في تلخيص باريز»
ص ص ١٢٠ ـ ١٢٢

المراجع العربية والمترجمة

- الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى :
تخليص الإبريز فى تلخيص باريز
القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣
- الإمام الشيخ عبد الله الشرقاوى :
تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين
القاهرة، دار الكتب
- الشيخ عبد الرحمن الجبرتى :
تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار
بيروت - دار الجيل - ١٩٧٨
- عبد الرحمن الرافعى :
تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر
جزءان - القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١
- عبد الرحمن الرافعى :
مصر المجاهدة فى العصر الحديث
الجزء الأول : كفاح الشعب من عهد الحملة الفرنسية إلى ولاية محمد على .
القاهرة - دار الهلال - ١٩٨٩

- ج . كريستوفر هيرولد :
بونابرت فى مصر
ترجمة فؤاد أندراوس
القاهرة ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر .
- أ. ب. كلوت بك :
لمحة إلى مصر
٣ أجزاء
القاهرة ، دار الموقف العربى، ١٩٨٢.
- د. ليلى عنان :
الحملة الفرنسية ، بين الأسطورة والحقيقة
القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٩٤.
- محمد عبد المعطى بن عبد الغنى بن على الاسحاقى المنوفى:
لطائف أخبار الدول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول
القاهرة ، دار الكتب
- السيد موسى الحسينى المازندرانى
تاريخ النقود الإسلامية
الطبعة الثالثة
بيروت ، دار العلوم ، ١٩٨٨
- نقولا ترك :
مذكرات نقولا ترك
القاهرة ، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، ١٩٥٠.

- هنرى لورانس :
الحملة الفرنسية فى مصر - بونابرت والإسلام
ترجمة بشير السباعى
القاهرة ، سينا للنشر .

الفهرس

مدخل الجزء الثاني ٥

الفصل الأول :

شاهد من اهلها المعاصرين ١١

الفصل الثانى :

ما بعد الحملة ١٤٩

الفصل الثالث :س

المؤرخون الجدد ١٧٩

الخاتمة :

الموضوعية العلمية فى الغرب ٢٣٣

رقم الايداع : ١٠٧٣٧ / ١٩٩٨
I. S. B . N
977 - 07 -0609- 4

الهـــلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر والعالـم العـربـى

أكتوبر ١٩٩٨ عدد ممتاز تقـرأ فيـه :

- محمد على باشا .. رؤية جديدة «جزء خاص»
- هكذا يزيفون العلم
- رسالة الجامعات فى حاضرها
- وأخيـرا أنتصـرت السيـنمـا المصرية للشباب.

رئيس مجلس الإدارة
مكـرم محمـد أحمـد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

روايات الهلال تقدم

البشمورى

بقلم

سلوى بكر

رئيس مجلس الادارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

تصدر ١٥ أكتوبر ١٩٩٨

كتـاب الهلال يقدم

التغلغل اليهودى فى الادب الامريكى المعاصر

بقلم

د. رمسيس عوض

يصدر ٥ نوفمبر ١٩٩٨

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٥ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجي عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيوني زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

هذا الكتاب

قرأنا في الجزء الأول من هذه الدراسة ، كيف كانت ثورة ١٧٨٩ «عصر الأساطير» . وكيف أصبح الجنرال بونابرت أسطورة بفضل عبقريته الإعلامية . وكيف أن حملته علي مصر ، «البلد الأسطوري البعيد» ، أصبحت أيضا أسطورة ، خاصة أن قائدها الشاب – الذي أصبح الإمبراطور نابليون – قد أذل أوربا كلها فيما بعد، وقرأنا كيف أن الأدباء والفنانين أخذوا يمجدون كل ما يخص نابليون ، الإمبراطور ، بإطلاق مسلمات لم يشكك فيها المؤرخون المبهورون بعبقرية أشهر عسكري في تاريخ فرنسا ، حتي يومنا هذا .

ونقرأ في الجزء الذي بين أيدينا الحقائق البشعة لجيش الاحتلال في مصر ، بقلم شهود الحملة العيان، تلك الحقائق التي طمسها كل من رأي في نابليون بونابرت عبقريا معصوماً من الخطأ ، كما سبق أن تجاهلها المؤرخون الاستعماريون بسبب عنصرية واضحة في كتاباتهم ، أدت إلي إطلاق اسم «الحملة الحضارية» علي حملة ، اعترفوا ـ في الوقت نفسه – أنها كانت استعمارية !

وأهم ما يقدمه هذا الجزء للقاريء ، خطابات كليبر ، حاكم مصر ، بعد رحيل بونابرت ، التي يقول فيها صراحة ما ينكره كل من مجد الجيش الفرنسي ، قبل أن ينتهي عصر الإمبراطوريات الاستعمارية . لذا فإن هذا الكتاب يناقش بعد ذلك ، مفهوم الموضوعية العلمية في الغرب ، وما يدعيه الغرب من صدق واحترام للحقيقة ، يفنده موقفهم من الحملة علي مصر ، إذ يصرون ، حتي الآن ، علي اعتبارها حملة تنويرية ، مع اعترافهم بهدفها الاستعماري ، وبالفظائع التي اقترفها جند الحملة في السنوات الثلاث التي قضوها في مصر . فقد أثبت المؤرخون الفرنسيون الجدد زيف أهم أساطير تاريخهم ، وهي ثورة ١٧٨٩ ، وشخصية نابليون بونابرت . ومع ذلك ، فإن إصرارهم علي تمجيد الحملة ، إن دل علي شيء ، فإنما يدل علي تناقض صارخ في منطق ، كان المتوقع أن يكون سويا . كما يدل علي أن القاريء العربي يجب أن يتوخي الحذر بل الريبة أيضا ، إذا تناول قراءة تاريخنا بأقلام قوم ، لا يرون فينا إلا جنسا أدني ، لابد من استعماره بحجة تنويره وتحضيره، ولا تستند الدراسة في رأيها هذا إلا علي «أقوال شهود من أهلها» .

